

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٧

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

خزوة
كارل مازوف ٢





الأعمال الأدبية الكاملة
المجلد السابع عشر

دوستوييفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو

ص.ب: ٣٧ ١٤/٥٥ - هاتف: ٣٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبع بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

الإخوة كارامازوف

جميع الحقوق محفوظة

الباب الخامس: مالاكودوما عليه

١

الحظيرة



السيدة هوخلاكوفا هى التى استقبلت أليوشا من جديد فى الدهليز • كانت تبدو منهكة جداً • لقد وقع حادث خطير : ان نوبة الهستريا التى أصابت كاترين ايفانوفنا قد « انتهت الى انحاء أعقبه ضعف فظيع واعياء رهيب • لقد رقدت كاترين ايفانوفنا ، وأغمضت عينيها ، وأخذت تهذى ، وارتفعت حرارتها • واستدعينا الدكتور هرتسنشتوبه والعنتين ، فوصلت العمتان ، ولكن الطبيب تأخر وصوله • الجميع محتشدون الآن فى غرفتها • انهم ينتظرون قلقين خائفين • ماعسى يحدث ؟ انها فى غيبوبة • آمل أن لا تكون قد أصابتها حمى دماغية • »

كانت هيئة السيدة هوخلاكوفا تدل على ذعر حق • فهى تصيح فى كل لحظة قائلة لأليوشا من أجل أن تطلعه على الواقع : « الأمر فى هذه المرة خطير ، خطير جداً ، كأن كل ما جرى حتى ذلك الحين لم يكن على شئ من خطورة • كان أليوشا يصغى اليها بمرارة • أراد أن ينهى اليها نتيجة المساعى التى قام بها ، ولكنها كانت تقاطعه منذ ينطق بأول كلمة قائلة له : « ليس الآن » • ان وقتها لا يتسع للاستماع اليه • وطلبت منه أن يفضل فينتظر عند ليزا ، واعدة اياه أن تلحق به فيما بعد •

قالت له بما يشبه الهمس فى أذنه ، مفضية اليه بسر :

— تصور يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش ! لقد أدهشتى ليزا أشد الدهشة منذ قليل ؛ ولكنها تبلغ من التأثير فى قلبى أننى أعفر لها راضية ما ان خرجت أنت حتى استبدت بها ندامه صادقة جدا ، لأنها فيما نزعم قد سخرت منك أمس واليوم . الحقيقة أنها لم تسخر سخرأ ، فأنا أعرفها ، وانما هى مزحت مزاحاً . ومع ذلك فقد بلغت من الأسف العميق أنها أوشكت أن تبكى ، فما وسعنى الا أن أدهش . لم يتفق لها أن ندمت يوماً حين كانت تسخر منى ، سخرأ لا خبت فيه على كل حال . وهى تسخر منى بغير انقطاع كما تعلم . أما الآن فالأمر خطير . لقد أصبح كل شئ خطيراً . انها تحرص كثيراً على رأيك يا ألكسى فيدوروفتش ، وما ينبغى لك أن تؤاخذها وأن تستاء منها . لا تسوءنك أساليبها . أما شخصياً أفعل ما أستطيع أن أفعله لأداريها وأراعيها ، ذاك أنها لطيفة جدا ، ذكية جدا . . . ليتك تعلم كم هى لطيفة وذكية ! ولقد ذكرت لى منذ هنيهة أنك كنت صديق طفولتها ، أنك كنت « خير أصدقاء طفولتها ، وأخلصهم ، وأصدقهم » . كذلك قالت . أصدقهم ، هل تفهم ؟ فأين مكاني أنا من نفسها اذن ؟ ان لها فى هذا المجال ذكريات حية وعواطف عميقة . وهناك خاصة تلك العبارات وتلك الكلمات التى تجيد استعمالها ، تلك التراكيب التى لا يتوقعها المرء ! ذلك يخرج من فمها فجأة ، ارتجالاً . قصة الصنوبر تلك مثلاً . لقد كان فى حديقتنا شجرة صنوبر ، أيام كانت ليزا صغيرة جدا . أحسب أن هذه الشجرة ما تزال موجودة الى الآن ، فما ينبغى أن تتحدث عنها بصيغة الفعل الماضى . ليست الأشجار بشراً يا ألكسى فيدوروفتش ، انها لا تتغير . قالت ليزا منذ أيام : « ماما ، اننى أرى شجرة الصنوبر هذه كأنها فى حلم ، أى « So sni tk so sna » . الحق أنها قالت لى ذلك بطريقة أخرى * . نسيت الآن كيف قالت لى ذلك . المهم أن كلمة الصنوبر كلمة سخيفة فى ذاتها . ولكن ليزا بلغت من

الطرافة والأصالة فى توشيتها أننى لا أستطيع أن أقلدها • ثم ان هذا كله قد خرج من رأسى • والآن ، الى اللقاء • ان هذه الأحداث قد قلبت نفسى رأساً على عقب ، حتى لأخشى أن تذهب بعقلى • لقد أوشت يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش أن أجنّ مرتين فى حياتى • فاضطروا الى معالجتى • اذهب الى ليزا ، وواسها كما تجيد أنت ذلك ايما اجادة •

ثم صرخت تنادى ليزا وهى تقترب من الباب :

- ليزا ! جئتُك بألكسى فيدوروفتش الذى تظنين أنك أسأت اليه اساءة كبرى • انه غير غاضب منك ولا عاتب عليك ، أوكد لك ذلك ، بل انه ليدهشه أن يكون قد خطر ببالك هذا الخاطر !
- شكراً يا ماما ! ادخل يا ألكسى فيدوروفتش •

دخل أليوشا العسرفة • ان ليزا تبدو مضطربة اضطراباً شديداً ، خجل خجلاً قوياً ، فقد احمر وجهها فجأة حتى الأذنين • كان واضحاً أنها تشعر بشئ من الخزى • وكما يحدث دائماً فى مثل هذه الحالة ، طفقت تتحدث فى أمور لا شأن لها فى نظرها ، متظاهرة بأنها مهتمة بها فى هذه اللحظة اهتماماً كبيراً • قالت :

- حدثنى أمى منذ برهة يا ألكسى فيدوروفتش عن المائتى روبل ، وعن المهمة التى كلفت بها ••• لدى ذلك الضابط المسكين ••• وقد وصفت لى الاهانة الفظيعة التى أُلحقت به ••• رغم أن أمى لا تحسن سرد قصة من القصص ، وانما هى تخلط الأمور بعضها ببعض ، وتسقط فى جميع الأحيان تفاصيل هامة ••• لقد تأثرت تأثراً شديداً ، وبكيت • فقل لى الآن : هل أعطيته المبلغ وكيف تصرف هذا الانسان الشقى المعضب ؟

أجاب أليوشا متظاهراً هو أيضاً بأن اخفاق سمعاه هو ما يشغل باله ، أجاب يقول :

— المشكلة هي أنني لم أعطه المبلغ ! تلك قصة طويلة !

وأدركت ليزا مع ذلك أنه يشيح عينيه في ضيق وخرج ، ويحاول مثلها تماما أن يتحدث في أمور ليست بذات بال • وجلس أليوشا قرب المائدة وأخذ يروي الحكاية ، فما ان قال بضع كلمات حتى زال ارتباطه تماما ، وحتى أسر انتباه ليزا • كان يتكلم وهو ما يزال تحت وطأة الانفعال الذي ما يزال قويا في نفسه لم يخمد أواره ، ذلك أن الضابط المتقاعد قد أحدث في نفسه أثرا شديدا • وقد عرف كيف يروي القصة رواية أمينة صادقة ، جذابة أخاذة • كان قد اعتاد في الماضي ، بموسكو ، أن يجيء الى ليزا أيام كانت ما تزال طفلة صغيرة ، فيقص عليها حادثا وقع له منذ وقت قصير ، أو يحدثها عن قراءاته ، أو يثير أمامها ذكرى من ذكريات سنيه الأولى ، فكان يتفق لهما في كثير من الأحيان أن يلفقا أحلاما مشتركة أو أن يخترعا حكايات هي في الغالب مضحكة خيالية غريبة • وها هما يستعيدان الآن جو موسكو ، ويشعران في نفسيهما باستيقاظ مناخ الحياة التي قضياها هنالك قبل سنتين • اضطربت ليزا من رواية هذه القصة اضطرابا قويا • لقد عرف أليوشا كيف يرسم للصبي ايليوشا صورة حارة • فلما فرغ من سرد جميع تفاصيل المشهد ، ووصف كيف داس المسكين الورقتين التقديتين ، هتفت ليزا تقول وقد استبد بها انفعال عنيف :

— ألم تعطه المال اذن ؟ أتركته ينصرف ؟ أوه ! يا رب ! كان عليك أن تلحق به وأن تدركه ، فتحاول أن تكلمه مزيدا من الكلام ...
— لا يا ليزا ، لقد كنت على حق حين لم أحاول أن أدركه • ذلك أفضل ...

قال أليوشا ذلك وهو ينهض شارد النظرة حالم الهيثة ، وأخذ يسير في الغرفة •

- هذا أفضل ؟ كيف يكون هذا أفضل ؟ لسوف يهلكون الآن
فقرأ !

- لن يهلكوا ، لأن هاتين المائتين من الروبلات ستصلهما على كل
حال . سيقبلهما في الغد حتماً .

ثم تابع كلامه يقول وهو ما يزال يسير في الغرفة مطرفاً مفكراً :
- نعم ... لن يعارض في الغد ... هذا أكيد ...
ولم يلبث أن توقف فجأة أمامها فقال :

- لقد ارتكبت خطأ ، ولكن هذا الخطأ ستكون له ثمرات طيبة .

- ما هو الخطأ الذي ارتكبته ، ولماذا تتصور أنه ستكون له ثمرات
طيبة ؟

- اسمعي . ان هذا الرجل له طبع ضعيف وجل . لقد أرهقه
القدر ، ولكن له قلباً طيباً . حاولت أن أفهم لماذا شعر فجأة بأنه أُمَين
فأخذ يدوس هاتين الورقتين النقديتين ، ذلك أنه كان هو نفسه يجهل
حتى آخر لحظة أنه سيتصرف هذا التصرف ، ثقي بهذا ! وأحسب أنني
استشف الآن الأسباب الكثيرة التي جعلت شعوره يُجرح ... وكان ذلك
أمراً لا بد منه ... فهو أولاً قد أسرف في اظهار ابتهاجه بهذا المال
أمامي ، ولم يكتف سعادته في اللحظة الأولى . فلا بد أنه نمر بعد ذلك
بمذلة من استجابته تلك السريعة التي لم يستطع أن يسيطر عليها وأن
يتحكم بها . فلو أنه اغتبط اغتباطاً أقل ، لو أنه امتنع عن اظهار هذا
الاغتنباط ، لو أنه اصطنع أوضاعاً واتخذ مظاهر كما يفعل كثير من الناس
لأخذ المال ، لقبيل الوضع بسهولة أكبر ، ولما رفض هذه المساعدة . لقد
أسرف في الصدق والاخلاص ، وذلك هو ما يجرح شعوره . آه يا ليزا !

انه انسان طيب صادق ، وهذا يصعب الأمور دائماً في مثل هذه الأحوال .
لقد كان طوال مدة حديثنا يتكلم بصوت ضعيف مرهق مكدود متعجل .
وكان يضحك ضحكة صغيرة أيضا ... يضحك أو يبكي ... لا أدري
... بل أدري ... لقد كانت ضحكاته أقرب الى البكاء .. كان يبكي
حماسة ... حدثني عن ابنتيه ... عن الوظيفة التي عرضت عليه في
مدينة أخرى ... لقد فتح لي قلبه ، وأسراً لي بذات نفسه ، وأفاض في
الافصاح عن عواطفه ... فما لبث بعد ذلك أن شعر من ذلك بخزي
وعار ... ثم اذا هو يشعر نحوى بكره على حين فجأة . انه واحد من
أولئك الناس المساكين الذين يسرفون في الاحساس بالخجل والعار .
لقد شعر بالذل من انه سارع يعدني صديقا ، وأنه استسلم لي بغير مقاومة .
في بيته كان قد هدّني وتوعّدني تقريبا ، ثم ها هو ذا حين تلقى المال
يسارع فيوشك أن يرمى على عنقي . لقد ودّ لو يقبلي ، وكانت يده
تلامسني في كل لحظة . فلهذه الاسباب جميعا أحسّ أنه أذلّ نفسه
أمامي ؛ ومما زاد الطين بلة أنني ارتكبت تلك الخطيئة ، أنني قارفت تلك
الغلطة الخطيرة : لقد صرّحت له فجأة بأنه سيمنح مزيدا من المال اذا
كان ما يملكه لا يكفيه للهجرة الى مدينة أخرى ، حتى لقد عرضت عليه
أن أسهم أنا في ذلك بمالٍ اسهاماً كبيراً . ذلك ما فاجأه . لقد تساءل :
لماذا أقحم نفسي في مساعدته أنا أيضاً ؟ يجب أن تعلمي يا ليزا أن المذلين
أمثاله لا يحبون أن يروا جميع الناس تتقدم اليهم محسنة . ذلك يشق على
أنفسهم كثيراً . سمعت هذا الرأي كثيراً ، ولا سيما من الشيخ زوسيماء .
لا أعرف كيف أوضح هذه الحقيقة ، ولكن أتبع لي أن الأحظ لها بنفسى
مرارا . ثم اننى لو كنت في مكانهم لكان ردّى كردّهم . اننى أشعر
بذلك في ذات نفسى . يجب أن ننصور خاصة أنه رغم جهله حتى آخر
لحظة بأنه سيدوس المال أخيراً ، كان يشعر بذلك شعوراً غامضاً مبهماً .

هذا أكيد • ولم تكن حماسه فائضة ذلك الفيض كله الا لأنه كان يحس هذا الاحساس الغامض المبهم بأنه سيقوم بهذه الحركة ••• على كل حال ، مهما تكن هذه الخاتمة داعية الى الأسف والحسرة ، فما ينبغي أن نقلق منها • بل اننى لعلى يقين بأن ما حدث كان هو الأفضل ، وأن الأمور هى الآن على خير ما يرام •••

— على خير ما يرام ؟ كيف هذا ؟ اننى لا أفهم !

كذلك هتفت ليزا وهى تلقى على أليوشا نظرة دهشة • فقال أليوشا :

— لو أنه لم يدس الورقتين النقديتين بقدميه ، لو أنه أخذ المال ، اذن لظل يبكى فى بيته من الذل ساعة بكاملها ، ذلك أمر محتوم ، واندم على ما فعل ولجأنى مع الغد حائقاً ساخطاً ليرمى بهما وجهى ، أو ليدوسهما بقدميه كما فعل منذ قليل • أما وقد صنع ما صنع ، فسيشعر بعد الآن بالكرامة والكبرياء ، وبالظفر والانتصار ، رغم علمه بأنه قد « ضيَّع بفعلته نفسه » • يترتب على ذلك أنه لن يكون هناك شيء أسهل من رده الى قبول هاتين المائتين من الروبلات منذ لغد ، ما دام قد برهن على شرفه برفض المال ودوسه • ذلك أنه حين أخذ يدوس الورقتين بقدميه لم يكن يتبأ أننى سأردهما اليه فى الغداة • وهو فى حاجة رهيبه الى هذه المساعدة المالية ؟ ومهما يبلغ من الشعور بالكبرياء ، فانه سيظل يفكر فى هذا الأمر طوال النهار ، وسيدرك مدى الخسارة التى منى بها • وسيكون أمره فى الليل أدهى ، فان التدم والحسرة سيقضان مضجعه ، وسيعذبانه فى أحلامه ، فما ان يطلع الصبح حتى يكون ميالا الى المحيء الى معتدراً • وفى تلك اللحظة انما سأذهب اليه أنا ، وقد لاح فى وجهى اننى أقول له معترفاً : « أنت انسان كريم على نفسك ، وقد برهنت على ذلك ، فأقبل الآن هذا

المال ، واغفر لى واعف عني ، • وسوف يقبل المال عندئذ ، ما فى ذلك ريب •

نطق أليوشا هذه الكلمات الأخيرة وهو فيما يشبه السكر • وصفت ليزا يديها احدهما بالأخرى ، وقالت :

— هذا صحيح جدا ! هذا واضح جدا ! فهمت كل شىء - فهما تما !
أوه ! أليوشا ، كيف تستطيع أن تعرف هذه الأشياء كلها ؟ ما تزال فى ريعان الشباب ثم تدرك ما يجرى فى النفس الانسانية هذا الادراك العميق
... ما كان لى أنا أن أستطيع ذلك !

تابع أليوشا كلامه يقول وهو فى غمرة الحماسة :

— الأمر الأساسى الآن هو أن نقتنع بأننا سنعامله على قدم المساواة رغم أنه يقبل أخذ المال منا • يجب أن يشعر بأننا لا نعامله على قدم المساواة فحسب ، بل على قدم التفوق أيضا ...

— « على قدم التفوق » هذا تعبير رائع يا ألكسى فيدوروفتش ، ولكن هلاً شرحته لى ...

— أقصد ... الحق أنتى لم أحسن الافصاح ... لا ... ليس الأمر أمر قدم ... ولكن سيان ...

— طبعا ... سيان ... أنت على حق ! اغفر لى يا أليوشا ، يا عزيزى أليوشا ... لقد كنت حتى الآن لا أكاد أحترمك كثيراً ، هل تعلم ؟ أقصد ... كنت أحترمك ، ولكن على قدم المساواة ، أما بعد الآن فسأحترمك على قدم التفوق ...

وسرعان ما أردفت تقول بحرارة :

— لا تؤاخذنى يا صديقى العزيز اذا أنا تفككت وتندرت قليلاً •

أنا فتاة صغيرة تحب أن تضحك ، ولكن أنت ، أنت ، أنت ... قل لى يا ألكسى
فيدوروفتش ، ألا تظن أن فى استدلالنا ، أو قل فى استدلالناك أنت
- لا فى استدلالنا نحن - شيئاً من الانخفاض بهذا المسكين ، شيئاً من
الازدراء له ؟ اننا نشرّح عواطفه واضعين أنفسنا فوقه • أفلا نبرهن على
احتقار له حين نطمئن كل هذا الاطمئنان منذ الآن الى أنه سيقبل أخذ
المال ؟

فأجاب أليوشا بلهجة جازمة ، كأنه كان ينتظر هذا السؤال :

- لا يا ليزا ، ليس يداخل هذا شيء من احتقار البتة • لقد أقيمت
على نفسى هذا السؤال ذاته وأنا عائد الى هنا • فكرى قليلا : كيف يمكننا
أن نحترقه ونحن جميعا مثله ، كيف يمكننا أن نحترقه والبشر جميعا
مثله ؟ ذلك أننا لسنا خيراً من هذا المسكين ، وهينا خيراً منه الآن ، فأننا
لن نبقى خيراً منه متى وجدنا فى ظرف كالظرف الذى هو فيه •
لا أستطيع أن أقطع برأى فيما يتصل بك أنت يا ليزا ، ولكنى على يقين
من أننى أنا « مسكين » فى بعض الأمور • أما ذلك الضابط فليس
« مسكيناً » ، ان له نفساً مرفهة جداً • لا يا ليزا ، صديقى ، ليس فى
موقفنا هذا احتقار ولا ازدراء • هل تعرفين ماذا علمنى شيخى مرة ؟ قال
لى : يجب أن تعامل أكثر الناس معاملتك أطفالاً ، وأن تعامل بعض
الناس معاملتك مرضى ...

- قل لى يا ألكسى فيدوروفتش ، قل يا صديقى ! ما رأيك فى أن
ننذر نفسيينا أنا وأنت للاهتمام بالناس كما لو كانوا مرضى ؟

- أوافق يا ليزا ، أتمنى • ولكنى لست متأهباً بعد كل التأهب •
ان صبرى ينفد فى بعض الأحيان ، فأضيق ذرعاً • وفى أحيان أخرى
أرانى غائباً فما ألاحظ شيئاً • أما أنت فشانك شأن آخر •

- لا أصدق من هذا الكلام شيئاً ! آه يا ألكسى فيدوروفتش !
ما أعظم سعادتي !

- ما أحلى أن أسمعك تقولين هذا يا ليزا !

- ألكسى فيدوروفتش ، أنت طيب طيبه خارقة • ولكنك توهم فى بعض اللحظات بأنك متفهيق قليلا • ومع ذلك فإن المرء حين يعرفك مزيدا من المعرفة ، يدرك أنك لست كذلك ••• اقترب من الباب فى رفق وهدوء ، فافتحه بلا ضجة ولا ضوضاء ، وتأكد من أن ماما ليست تنصت علينا •

كذلك أضافت ليزا تقول بهمس سريع عصبى • فاتجه أليوشا نحو الباب ، فشقّه قليلا ، ثم عاد فقال ان أحدا لا يتجسس عليهما •

وتابعت أليوشا كلامها تقول وهى تزداد احمرارا :

- أقرب منى مزيدا من الاقتراب • هات يدك ••• هكذا •••
يجب أن أبوح لك بسر كبير : ان الرسالة التى بعثت بها اليك أمس لم تكن مزاحا ، بل جدّا •••

قالت ذلك وغطت عينيها بيدها • كان واضحا أنها تشعر من هذا الاعتراف بحياء شديد • وفجأة ، أمسكت يد أليوشا فلتحتها ثلاث مرات بعنف وقوة وحرارة •

هتف أليوشا يقول :

- أوه ! ليزا ! حسن منك هذا ! ولقد كنت مقتنعا كل الافتناع على كل حال بأنك كنت جادة فى رسالتك .

- كنت مقتنعا ؟ أهذا كلام ؟

قالت ذلك وأقصت عنها يد أليوشا ، ولكن دون أن تتركها ، وقد احمر وجهها احمرارا شديدا مرة أخرى ، وضحكت ضحكة خفيفة سعيدة •

– أألم يده فيقول « حسن منك هذا » !

على أن هذا اللوم كان لا يخلو من ظلم ، فلقد كان أليوشا يشعر باضطراب شديد هو أيضا •

تمتم يقول بخراقة ، وهو يحمر أيضا :

– لشد ما أحب أن أرضيك يا ليزا ، ولكنني لا أعرف كيف أحتال لهذا ولا كيف أتدبره •

– أليوشا ، عزيزي ، أنت فاطر ووقح • أليس هذا ما يمكن أن يتصوره المرء ؟ لقد تفضل فاختراني زوجة له ثم ها هو ذا هادىء النفس ! كان مقتنعا بأننى جادة فى رسالتى ، لا مؤاخذه ! ولكن هذه وقاحة ، وقاحة •••

سألها أليوشا ضاحكا :

– أأكان عيبا الى هذا الحد اذن أننى كنت مقتنعا بذلك ؟

فقالت له ليزا وهى تلقى عليه نظرة حنونا رقيقة سعيدة :

– أوه ! أليوشا ! بالعكس ••• كان ذلك منك حسا جدا ، حسنا جدا جدا •

وكان أليوشا ما يزال ممسكا يدها بيده ، فما هى الا لحظة حتى مال عليها فجأة فقبلها فى قمها •

هتفت ليزا تسأله :

— ما هذا أيضا ؟ ماذا دهالك ؟

كان أليوشا قد فقد سيطرته على نفسه • قال :

— اغفرى لى ••• ان كنت قد أخطأت ••• لعلى ••• حقا انها
لحماقة رهية ••• لقد أخذت على أُننى بارد ، لذلك ••• قبلك •••
ولكننى أدرك الآن أن هذا كان حماقة منى •

انفجرت ليزا ضاحكة ، وأخفت وجهها بيديها • ثم لم تملك أن
تمنع نفسها من أن تقول له من خلال ضحكها وقد اتخذ وجهها هيئة
رصينة بل قاسية :

— أتفعل هذا وأنت فى مسوح الراهب أيضا ؟ ان علينا أن ننتظر
قليلا فيما يتعلق بالقبلات يا أليوشا • نحن لا نعرف حتى الآن كيف
تدبرها ، لا أنا ولا أنت • لا بد لنا أن ننتظر زمنا طويلا أيضا •
بهذا ختمت كلامها فجأة • ثم أردفت بعد لحظة تقول :

— ولكن اشرح لى : ما الذى حملك على أن تختار بلهاء حقيرة مثل
هى فوق ذلك كسيحة ، فى حين أنك على هذا الجانب العظيم من الذكاء
والتعقل والفطنة ؟ ••• أوه ! أليوشا ، أنا سعيدة جدا ، لأننى لا أستحقك
أبدا •••

— لا تقولى مثل هذا الكلام يا ليزا • سوف أترك الدير تماما بعد
بضعة أيام • فإذا عشت فى العالم فسيكون على أن أتزوج ، أنا أعرف
ذلك • ثم انه « هو » الذى أمرنى بهذا • فأين عسى أجد امرأة خيرا
منك ••• ومن عسى يريدنى سواك ؟ لقد فكرت فى كل شيء • أنت
أولاً تعرفينى منذ الطفولة • وأنت ثانيا تملكين مزايا كثيرة لا أملكها •
نفسك أقرب الى المرح من نفسى • وأنت خاصة أكثر براءة منى • فأنا

قد عرفت حتى الآن أشياء كثيرة • أوه ! أنت لا تعلمين هذا ! اننى
كارامازوف أنا أيضا • أى ضير فى أن تضحكى وأن تمزحى دائما وأن
تسخرى حتى منى ؟ بالعكس : اسخرى ما شاء لك هوالك أن تسخرى...
اننى لأسعد بهذا ... انك تضحكين كطفلة صغيرة ، وتحكين على نفسك
بأنك شهيدة •

— شهيدة ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

— نعم يا ليزا • انظرى مثلا فى ذلك السؤال الذى ألقته منذ
لحظات حين قلت : أليس فى نفسنا شئ من احتقار لذلك الضابط المسكين
الذى نشرَّح قلبه ؟ تلك فكرة تخطر ببال شهيدة يا ليزا ... لست
أعرف كيف أفصح عما أريد أن أقول ، غير أن من يشعر بمثل هذه الأنواع
من القلق فادر فى رأى على أن يتألم كثيرا ... لا شك أنك قلبت
معانى كثيرة وأنت قاعدة على هذا الكرسي المتقل ...

قالت ليزا بصوت أوهنته السعادة :

— أليوشا ، ناولنى يدك ! لماذا تسحبها دائما ؟ قل لى يا أليوشا :
أى زى تنوى أن ترتدى حين تترك الدير ؟ لا تضحك ، ولا تغضب ،
ذلك أن هذا الأمر يهمنى كثيرا •

— لم أفكر بعد فى الزى الذى سأرتديه يا ليزا • ولكننى أريد أن
ألبس ما يرضيك أكثر من غيره •

قالت ليزا :

— أحب أن ترتدى سترة من مخمل أزرق فاتم ، وصديرة من
« بيكه » بيضاء ، وقبعة رمادية من جوخ طرى ... قل لى الحقيقة : لقد

صدّقتَ في مساء أمس أننى لا أحبك ، حين تنكرتُ لرسالتى ، أليس كذلك ؟

— لا ... لم أصدّق !

— أوه ! ألا انك لفتى لا سبيل الى اصلاحه ! انك لا تطاق ولا تحتمل ، هل تعلم ذلك ؟

— كنت أعرف أنك ... تحببى ، ولكننى تظاهرت بأننى أعتقد بأنك لا تحببى ... وذلك لأجعلك ... أكثر ارتياحا ...

— هذا شر وأدهى ! ولكن لا ... حسنا فعلت يا أليوشا ! اننى أحبك حباً رهيباً ! قلت لنفسى فى هذا الصباح وأنا أنتظر زيارتك : « سأطلب منه مرة ثانية أن يردّ الى رسالتى ، فاذا أخرجها من جيبه بلا مقاومة فمدّها الى (كما يمكن توقع ذلك منه) فانه يكون فتى أبله لا يحببى ولا يستحق حبى ... وأكون أنا قد هلكت * » . غير أنك تركت الرسالة فى الدير ، فردّ هذا الى شيئاً من شجاعتى * . انك لم تحملها لأنك كنت تحس سلفاً أننى قد أطلبها منك ، وأنت لا تريد أن تردّها ، أليس كذلك ؟ قل ! نعم ؟

— أوه ! ليزا ! كلا ... الرسالة معى الآن ، ولقد كانت معى من قبل * . هى هنا ، فى هذه الجيب * انظرى !

قال أليوشا ذلك وأخرج الرسالة من جيبه ضاحكاً ، وأطهرها عليها من بعيد ، ثم أضاف :

— اعلمى مع ذلك أننى لن أردّها اليك * انظرى إليها من بعيد * .

— كيف هذا ؟ أكذبت اذن حين طالبتك بها ؟ أكذب وأنت راهب ؟

فقال أليوشا مسلماً باتهامها وهو يضحك :

- نعم أكذب ! لقد أبيت أن أقول الحقيقة حتى لا أردّ اليك
الرسالة *

ثم أضاف يقول بانفعال شديد وقد احمر وجهه من جديد :
- هذه الرسالة عزيزة علىّ الى أقصى حد * سأحتفظ بها ما حييت،
ولن يستطيع أحد أن يتزعمها مني !

كانت ليزا شاحصةً اليه ببصرها مأخوذة مقتونة * ثم قالت له
هامسة :

- أليوشا ! هبّ انظر هل تتنصت علينا ماما وراء الباب ؟
- طيب يا ليزا ، سأنظر ما دمت تريدين ذلك * ولكن أليس
الأفضل أن لا نحاول التّشبّث من هذا ؟ لماذا نظن في أمك هذا الفن ؟ لماذا
تصور أنها يمكن أن ترتكب سماجة كهذه ؟

فقالت ليزا مستاءةً وقد احمر وجهها احمراراً شديداً :
- أية سماجة ؟ فيم الكلام عن السماجة ؟ هل من السماجة أن
تراقب أمّ ابنتها وأن تحاول سماع أحاديثها ؟ ان من واجب الأم أن
تفعل هذا مع ابنتها * وليس في عملها ذاك أى اخلال بقواعد اللبافة
وأصول الأدب * كن على يقين يا ألكسى فيدوروفتش من أنني حين
سيكون لي ابنة أنا أيضاً ، فلن يفوتني أن أتجسس عليها في كل
مناسبة !

- صحيح ؟ ولكن هذا شر يا ليزا !
- لماذا يكون هذا شراً ؟ أى ضرر فيه ؟ لو قد تجسست هذا التجسس

على حديث عادى يجرى فى المجتمع ، اذن لكان ذلك منى ضعة وحفارة بدون ريب . أما هنا فالأمر مختلف كل الاختلاف . هنا فتاة مختليه بشاب ... اسمع يا أليوشا : أحب أن أقول لك منذ الآن اننى سأراقبك أنا أيضا متى تمت خطوبتنا ، وسأفرض بريدك ، وأقرأ جميع رسائلك . اعلم هذا . هانذا أبلغك منذ الآن .

— موافق ... ما دمت تريدون ذلك ... ولكن هذا ليس حسناً ، صديقى .

بهذا تتم أليوشا . فقالت ليزا :

— أوه ! هذا الاحتقار ! أليوشا ، صديقى ، لا تتشاجرن منذ أول يوم . اننى أوتر أن أعترف لك بالحقيقة : أنا أعرف أن التحسس على الناس معيب جدا . لقد أخطأت أنا ، وأصبت أنت . ولكننى سأراقبك مع ذلك .

فقال أليوشا ضاحكاً :

— راقينى ، راقينى .. ولن تكتشفنى أشياء كثيرة ، أقول لك ذلك منذ الآن .

— أليوشا ، هل ستطيعنى ؟ تلك أيضا مسألة يجب أن نسوِّها سلفاً .

— سأطيعك يا ليزا ، سيسرنى جدا أن أطيعك ، ولكن لا فى الأمور الأساسية . فى الشؤون الهامة ، سأعمل بما يمليه على ضميرى ، حتى ولو خالفتنى .

— هكذا أفهم أنا الأمر . ألا فاعلم يا أليوشا أننى مستعدة من جهتى لأن أطيعك لا فى الشؤون الأساسية فحسب ، بل فى كل شئ ، وفى كل

وقت ، مدى الحياة ... أعاهدك على هذا منذ الآن • وإذا خضعت لك ،
فاننى أخضع راضيةً سعيدة فرحة • (كذلك هتفت ليزا تقول بحرارة) •
واننى لأحلف لك أيضا أننى لن أراقبك أبدا ، لن أراقبك مرة واحدة ،
لا ولن أقرأ رسائلك قط ، فى يوم من الأيام • ذلك أنك على حق ، واننى
على خطأ • أعرف أن رغبة رهية فى مراقبتك سوف تتأجج فى نفسى ،
ولكننى سأحبس هذه الرغبة ، لأن هذا مصيب فى نظرك • ستكون لى
بمثابة العناية الالهية ... اسمع يا ألكسى فيدوروفتش : لماذا أنت حزين
هذا الحزن كله فى هذه الآونة الأخيرة ، أمس واليوم ؟ أنا أعرف أن
هناك أنواعا من الهم والقلق تملأ جوانب نفسك ، ولكننى لاحظت فىك
حزنا خاصا ... أهو ألم سرى ؟

قال أليوشا بصوت مكبوح :

- نعم يا ليزا ، هو حزن سرى • اننى أرى أنك تحيينى حقاً
ما دمت قد أدركت ذلك •

سألته ليزا بلهجة فيها رجاء وضراعة :

- ما سبب حزنك ؟ هل أستطيع أن أعرفه ؟

فأجابها أليوشا محرّجاً :

- سأذكره لك يا ليزا ... ولكن فيما بعد • اذا حدثت لك الآن عن
سبب حزنى ، فلن تفهمى • ثم اننى لن أحسن شرحه كما ينبغى •

قالت ليزا :

- أحسب أن موضوع أخويك وأبيك هو الذى يعذبك !

قال أليوشا حالماً مفكراً :

– نعم ، هناك أخواى أيضا !

قالت ليزا فجأة :

– أنا لا أحب أخاك ايفان يا أليوشا .

استقبل أليوشا هذا التصريح بشئ من الدهشة • وتابع كلامه
يقول :

– أخواى يسيران الى الضياع ، وكذلك أبى • وهم يجرون الى
الشقاء كائنات أخرى • انهم ألعبوة فى يدى « القوة الخفية الغامضة التى
تحرك آل كارامازوف » ، كما قال الأب بائيسى فى الآونة الأخيرة •••
هى قوة خفية ، عارمة ، لا يمكن السيطرة عليها والتحكم به ••• حتى
أننى لست واثقا من أن روح الله تحلّق فوق هذه القوة ••• ولكننى أعلم
أننى واحد من آل كارامازوف ، أنا أيضا • أنا فى الظاهر راهب • فهل
أنا راهب حقاً يا ليزا ؟ لقد قلت منذ هنيهة اننى راهب •••

– نعم قلت ذلك ••

– راهب ••• ومع ذلك قد لا أكون مؤمناً بالله •••

– أأنت لا تؤمن بالله ؟ ماذا دهاك ؟

كذلك سألته ليزا قلقة محاذرة بصوت خافت •

ولكن أليوشا لم يرد • ان هذا القول الذى أفلت من لسنه يعبر
عن فكرة تنوى فى قرارة قلبه ولعله لا يستطيع هو نفسه أن يستبينها ،
ولكنها كانت تعذبه ما فى ذلك ريب • وتابع أليوشا كلامه :

– وفوق ذلك كله ، هذا هو يموت ••• ان الانسان الذى أعده
خير اسنان فى هذا العالم سيبارح الأرض • آه ! ليزا ! لو علمت مدى

تعلقى بهذا الانسان ، ومدى شعورى بالارتباط به ارتباطاً لا انفصام له !
... سوف أكون بعد اليوم وحيداً ... سأجىء اليك كثيراً يا ليزا ...
لن نفترق بعد الآن ...

– نعم سيظل كل منا قرب الآخر . سنكون متحدين مدى الحياة ،
متحدين الى الأبد ... أليوشا ، قبلنى الآن ... اسمح لك الآن بأن
تقبلنى .

قبلها أليوشا .

– والآن اذهب . كان المسيح معك . (قالت ذلك وهى ترسم عليه
إشارة الصليب) . أدركه « هو » قبل أن يموت . الآن أفهم أنتى
أضعت لك وقتاً ثميناً . سأصلى له ولك اليوم . أليوشا ، سنكون سعيدين ،
سنكون سعيدين ، أليس كذلك ؟
– أعتقد يا ليزا .

لم ير أليوشا ، حين خرج من عند ليزا ، أن من الضرورى أن
يذهب أولاً الى السيدة هوخلاكوفا ، وانما تأهب لمغادرة المنزل دون أن
يودعها . ولكنه ما ان فتح باب البيت وخطا خطوة على السلم حتى
انجست السيدة هوخلاكوفا أمامه . فأدرك أليوشا فوراً أنها كانت تترقب
انصرافه .

– هذا فظيع يا ألكسى فيدوروفتش ! هذه أمور صيانية ، هذه
سخافات وحماقات . آمل أن لا تحمل أقوال ابنتى على محمل الجد ،
وأن لا تهدد أوهاماً وأحلاماً ! يا للحماقة ! يا للحماقة !
كذلك أخذ تردد وقد لاح عليها أنها تُدينه . فقال لها أليوشا :
– لا تقولى هذا الكلام لها على الأقل ، والا اضطربت اضطراباً
شديداً وساءت حالها كثيراً .

- هذا أخيرا كلام متزن يبرهن لى على أنك شاب عاقل • هل أفهم من كلامك هذا أنك انما وافقتنا اشفافا على حالتها ، حتى لا تنير بمعارضتك حقها ؟

قال أليوشا بلهجة قاطعة :

- لا بل كنت جادا فى حديثي معها كل الجد •

- لا شأن للجد هنا • هذا شئ لا يمكن تصوره ، لا يمكن تخيله ! اعلم أولا اننى لن أستقبلك بعد اليوم فى منزلى ، واعلم ثانيا اننى سأسافر من هذه المدينة مبتعدة بابنتى • هل فهمت ؟

قال أليوشا :

- فيم تقلقين هذا القلق كله ؟ انما الأمر أمر مشروع ما يزال تحقيقه بعيدا جدا • لا بد أن ننتظر سنة ونصفا على الأقل •

- لعلك على حق يا ألكسى فيدوروفنش • فالى ذلك الحين يتسع الوقت للشجر معها والانفصال عنها مائة مرة • آه ما أشقانى ! ما أشقانى ! صحيح أن هذا كله صيانيات ، ولكننى صعقت حقًا • أنا الآن فى موقف فاموسوف فى آخر مشاهد المسرحية الهزيلة * • أما تشاتسكى فانت ، وأما صوفيا فهى • انظر الى هذا التطابق • لقد رابطت على السلم لأنتظرك • وفى تلك المسرحية الهزيلة حدثت جميع المصائب على السلم أيضا • سمعت كل شئ • وتجلدت تجلدا شديدا حتى أستطيع أن أسيطر على نفسى • هذا هو اذن سرُّ الأرق الرهيب فى الليل وسر نوبات الهستيريا بالأمس ! البنت عاشقة • ولم يبق للأم الا أن تموت ! هو قبرى اذن يهيم ! أجب عن سؤالى الثانى الآن وهو أهم : ما تلك الرسالة التى تحدثنا عنها ؟ هل كتبت اليك رسالة ؟ أرنهيا فورا ! اننى أطلبك بذلك وأصر •

- لا تلحني • والأفضل من هذا أن تقولي لي كيف حال كاترين
ايفانوفنا الآن • انني أحرص على معرفة ذلك •

- ما زالت تهذي • لم تستردّ حواسها بعد • وعمّتها معها ،
ما تنفكان تتفجعان وتثنان وتصطنعان مظاهر الأبهة • أما الدكتور
هرتسنشتوبه فقد وصل ، ولكنه بلغ من الذعر أنني أصبحت لا أعرف
ماذا يجب عليّ أن أعمل لأهدئ روعه • حتى لقد خطر ببالي أن أستدعي
طبيباً له • وجيء بالطبيب في عربتي • ثم هأنذا الآن أمام مشكلتك ومشكلة
هذه الرسالة ، تمة للشقاء والبلاء ! صحيح أن هناك ثمانية عشر شهراً
... ولكنني أستحلفك بكل ما هو عزيز عندك مقدس لديك ، أستحلفك
بشيخك المحتضر ، أن تريني هذه الرسالة يا ألكسي فيدوروفتش • أرني
الرسالة ، أرنيها أنا ، أنا أم ليزا • امسكها بأصابعك اذا شئت ، فلن
أخذها ، وإنما أقرؤها من بعيد •

- لا يا كاترين أوسيوفنا ، لن أريك الرسالة • لا جدوى من
الالاحاح • لن أريك الرسالة حتى لو أذنت لي هي بذلك • سأعود غداً ،
فاذا شئت ناقشنا جميع المشاكل • أما الآن فإلى اللقاء •

قال أليوشا ذلك ، وهبط السلم راكضاً ، فخرج الى الشارع •

قِثارة سمدر وياكوف



يُغذُّ الخَطِي . فحين ودَّع ليزا كانت قد برقت
 في ذهنه فكرة عن الطريقة التي يستطيع بها أن
 يفاجيء أخاه دمتری الذي كان واضحاً أنه
 يحاول أن يتجنب لقاءه . الوقت متأخر . هي
 الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً . كان أليوشا يتمنى بكل كيانه أن يعود
 إلى الدير قرب شيخه المحتضر ، ولكن حاجته إلى رؤية أخيه دمتری
 مرة أخرى قد تغلبت أخيراً : إن احساسه بوشك وقوع كارثة ، بوشك
 حدوث أمر رهيب ، يرسخ في نفسه مزيداً من الرسوخ كلما انقضت
 الساعات . أما ما هي تلك الكارثة التي ستقع ، أما ما هو ذلك الشقاء الذي
 سينزل ، فإن ذلك شيء لم يكن يعلمه أليوشا ، لا وكان يستطيع في تلك
 اللحظة أن يوضح لنفسه ما يريد أن يقوله لأخيه دمتری . « إذا مات
 شيخى المحسن إلى أثناء غيابي ، فلن ألوم نفسي في أقل تقدير ، مدى
 الحياة ، على اننى كان في وسمي أن أحول دون وقوع الشر ثم أهملت
 أن أفعل ذلك ، وأغفلت واجبى وأسرعت أعود إلى مسكنى بأقصى سرعة .
 وإنى إذ أفعل الآن ما أفعل إنما أطيع أوامر معلمى . » .

كانت خطته هي أن يعثر على دمتری فجأة ، متسللاً إلى الحديقة
 من خلال السياج الذي سبق أن تخطاه أمس داخلاً إلى « الكشك » .
 وكان يقول لنفسه : « فإن لم أجده ، فسأختبئ في الجناح دون أن أنبئ »

لا أهل لدار ولا توماس ، ثم انتظره هنالك حتى المساء اذا وجب الأمر .
فاذا كان ينوى أن يترقب جروشكا كما فعل أمس ، فربما جاء الى هذا
الكشك . . . » . ولم يتأخر أليوشا في وضع خطته بجميع تفاصيلها ،
ولكنه قرر أن يضعها موضع التنفيذ فوراً ، ولو اقتضاه ذلك أن لا يرجع
الى الدير في ذلك اليوم . . .

وفد جرى كل شيء على ماصورته له نبوءاته . تخطى السياج في
موضع غير بعيد عن الموضع الذي تخطاه فيه أمس ، وتسلسل الى الجناح
دون أن يراه أحد . وكان يريد أن لا يلاحظ حضوره أحد . ذلك أن
من الجائر أن يكون أهل الدار وتوماس (في حالة وجوده بالدار)
منحازين الى صف دمترى ، فقد يمنعونهم اذن من دخول الحديقة ، أو
قد يبلغون دمترى وسؤله في الوقت المناسب ، تنفيذاً لتعليمات دمترى
نفسه . لم يكن في الحديقة أحد . جلس أليوشا في مكان الأمس
وانتظر . ونظر الى الكشك فبدا له أكثر تداعياً مما بدا له كذلك في
اليوم السابق ، وأحدث في نفسه شعوراً بالشقاء . ولكن النهار كان
مضيئاً مشمساً كما كان يوم زيارته الأولى . وعلى المائدة الخضراء ترى
علامة مستديرة خلفها قدح الكونياك الذي لعله صُدم أثناء المناقشة .
وساورت أليوشا خواطر تافهة كثيرة لا صلة لها بالظروف الراهنة ، كما
يحدث عامة أثناء انتظار مضجر ممل . تساءل مثلاً : لماذا جلس في
المكان نفسه الذي جلس فيه بالأمس ، ولم يجلس في مكان آخر .
واجتاحه شيئاً فشيئاً حزن كبير مرده الى قلة التأكد وشدة القلق . وبعد
أن مكث هنالك قرابة ربع ساعة أو أقل من ذلك ، سمع ألحان قيثارة
تنطلق قريبة منه . لا شك أن أحداً كان متلبساً في الغابة الصغيرة على
مسافة عشرين خطوة في أكثر تقدير ، أو أن أحداً وصل الى ذلك المكان
منذ برهة قصيرة . وتذكر أليوشا فجأة أنه حين ترك أخاه أمس ، وابتعد

عن « الكشك » قد لمح على اليسار قرب الحاجز دكه ريفية قديمة غائرة
في الأدغال . فهناك اذن لا بد أن يكون قد جلس الواصل أو
الواصلون . ولكن من عساه يكون أو من عساهم يكونون ؟ وهذا رجل
ينطلق في تلك اللحظة مغنياً أبياتاً من الشعر يرافقها عزف على القيثارة
(ان الصوت صوت مترقق من طبقة التينور ، عامى الثبرات) :

بقوة عظيمة انجذب *
الى الجميلة التي لا تغلب

رفقا بنا يارب

بى وبها يارب

بى وبها يارب

بى وبها يارب

وصمت الصوت ذو التشيات العامة . وهذا صوت امرأة لطيف
وجل يُسمع عندئذ قائلاً في غنج ودلال :

— لماذا لا تجي . الينا الا نادرا يا بافل فيدوروفتش ؟ أنت تكرم
صحبتنا ؟

فقال صوت الرجل في تأدب ، بلهجة يدرك المرء فيها مع ذلك شيئاً
من ارادة تأكيد الرصانة والوقار والتفوق :

— لا ... لا ...

كان واضحاً أن الرجل مسيطر على الموقف ، في حين أن المرأة تبدو
مستعجلة . قال أليوشا لنفسه : « ولكن هذا سمردياكوف ! هذا صوته
على الأقل . أما المرأة فأتخيل أنها ابنة صاحب الدار ، التي رجعت من
موسكو في الآونة الأخيرة بثوب طويل الذيل ، والتي تجي كل يوم الى
مارفا اجناتفنا التماساً لشيء من حساء .. » .

وعاد صوت المرأة يقول :

— اننى أعبد الأشعار ، ولا سيما اذا كانت متسقة متناغمة • لماذا توقفت عن الغناء ؟

فاستأنف صوت الرجل صداحه :

تاج الملوك هين فى نفسى
مادمت أحظى بصديقة أنسى
رفقا بنا يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب

قال صوت المرأة :

— غنيتها فى المرة الماضية خيراً مما تغنيها الآن • كنت فى المرة الماضية تقول : « صديقة أنسى العذبة » ، فكان ذلك أرق عاطفة • هل نسيت ؟

فقال سمردياكوف بلهجة قاطعة :

— ما الأشعار الا سخف وحمالة !

— أوه ! لا ••• أنا أحب الأشعار كثيراً •

— الشعر هزل لا جد • افضى فى الأمر بنفسك : من ذا الذى يتكلم فى هذا العالم مقفياً ؟ ولو أخذ جميع الناس يتكلمون شعراً ، بأمر صادر عن السلطات مثلاً ، لما وجدوا أشياء كثيرة يقولونها • لا ••• صدقنى يا ماريّا كوندرايتفنا : ما الشعر الا كذب وتضنع !

فاستأنف صوت المرأة كلامه قائلاً وقد ازداد غنجاً ودلالاً :

- ما أذكاك ! كيف تفعل من أجل أن تكون على هذا الجانب العظيم من الثقافة ؟

- كان يمكن أن أفعل أكثر من ذلك ، وأن أصبح أوسع نفاه وأغزر علما ، لو أن القدر لم يحاربني منذ المهد . كان يمكنني أن أقتل في مبارزة بالمسدس ذلك الذي فد يصفني بأنني امرؤ جلف لأنني ليس لي أب ، ولأن أمي امرأة تنه * . لقد قذف أحدهم هذا الكلام في وجهي ذات يوم بموسكو ، حيث شاع سر مولدي بفضل جريجوري فاسيلفتش . ان جريجوري فاسيلفتش يعيب على تسردى على ميلادى . وقد قال في معرض حديثه عن أمي : « لقد مزقت لها أحشاءها . » . انني أسلم بذلك ، ولكنني كنت أوتر أن أقتل في بطنها على أن أجيء الى هذا العالم . ان الناس يناقلون في السوق (وقد ظنت أملك ، قلقة لباقتها ، ان من واجبها أن تقول لي ذلك أيضا) أن أمي كانت مصابة بداء تلبد الشعر ، وأن طولها كان لا يزيد على خمس أقدام . وكانت أملك تمط أحرف المد وهي تكلمني ، فلماذا كانت تفعل ذلك مع أن من السهل جدا على المرء أن يتكلم كما يتكلم سائر الناس ؟ لأنها كانت تحب أن تظهر عاطفتها . ولكن هذه العاطفية تفوح منها رائحة الفلاح (الموجيك) . هل يستطيع الموجيك أن يشعر بعواطف نحو رجل مثقف ؟ انه أجهل من أن يشعر بأى شيء . انني حين أسمع أحرف المد ' تُمط ' هذا المط أتمنى لو ألطم رأسي بجدار . وذلك أمر أعرفه في نفسي منذ طفولتي ! أوه ! انني أكره روسيا يا مارييا كوندراثنا .

- لو كنت ضابطا أو من سلاح الفرسان لما فكرت هذا التفكير ، بل لجرّدت سيفك دفاعاً عن روسيا .

- لا أحب أن أكون من سلاح الفرسان يا مارييا كوندراثنا ، بل ان من رأيي الغاء الجيش أصلاً .

— فمن يدافع عنا اذن اذا هاجمنا العدو ؟

— لا داعى الى الدفاع • فى عام ١٨١٢ غزا امبراطور الفرنسيين ، نابوليون الأول ، وهو أبو الامبراطور الحالى * ، غزا روسيا ، فلو قد نم له الاستيلاء عليها لكان ذلك سعادة كبرى ، وحظاً عظيماً ؛ لأن أمة ذكية تُخضع لنفسها عندئذ أمة غبية ، وتلحقها بها • فلو قد تم تحقيق ذلك اذن لكان عندنا الآن نظام مختلف عن نظامنا كل الاختلاف •

— كأنهم خير منا ! ••• ألا اننى لأرفض أن أستبدل بشاب واحد من شبابنا الحسان ثلاثة رجال من الانجليز •••

كذلك هفت تقول ماريا كوندراتفنا بأرق صوت وأعذب نغمة • ولا شك أنها كانت تلقى على صاحبها عندئذ نظرات تفيض حباً وحناناً •

قال الرجل :

— المسألة مسألة ذوق !

— هيئتك أنت نفسك هيئة أجنبى ، أجنبى نبيل جداً • أعترف لك بهذا دون أن أحمر خجلاً •

— هل تريد أن أقول لك الحقيقة ؟ انهم جميعا سواسية من ناحية التحلل من الأخلاق ، أجنب كانوا أم روساً • هم جميعا أوغاد أوباش ، مع فارق واحد هو أنهم هناك ينتعلون أحذية ملمّعة ، فى حين أن أهلنا الحفاة هنا قانعون ببؤسهم التّن ، لا يجدون فيه ضيراً • ان الشعب الروسى يستحق أن يُجلد • لقد صدق فيدور بافلوفتش أمس حين قال هذا الكلام ، رغم أنه مجنون ، هو وأبناؤه جميعا •

— ولكن سبق لك أن قلت انك تحترم ايفان فيدوروفتش احتراماً كبيراً •

— ذلك لم يمنعه من أن يصفنى بأننى خادم نذل • هو يتخيل أننى واحد من أولئك المتمردين • ولكنه مخطئ • لو ملكت قدرًا كافيًا من المال ، اذن لسافرت منذ زمن طويل • أما دمتري فيدوروفتش فهو شر من خادم ، سواء بسلوكه وقلة ذكائه أو ببؤسه وشقائه • هذا رجل لا خير فيه ، ولا يصلح لشيء • ومع ذلك يحترمه جميع الناس • أنا أعلم أنني لست الا طباحًا فاشلاً ، ولكن لو أوتيت شيئاً من حظ فسوف أفتح « مقهى مطعماً » بموسكو ، فى شارع بتروفكا • اننى أجيد اعداد أطباق حسب الطلب ، وما من أحد من زملائى قادر على ذلك ، الا الأجانب • ودمتري فيدوروفتش هذا ليس الا انساناً دنيئاً ، ومع ذلك لو طلب الى المبارزة أنبل أبناء أحد الكونتات ، لرضى هذا أن يبارزه • فيم هو يفضل غيره ؟ انه أقل منى ذكاء ! وما أكثر ما أتلغف من مال فى سبيل حماقات وترهات ! ...

قالت ماريّا كوندرا تفنا :

— لا بد أن المبارزة شيء جميل جداً •

— لماذا ؟

— هى خطيرة جداً وتحتاج الى شجاعه ، لا سيما حين يتواجه ضباط شبان بمسدسات فى سبيل سيدة ! ما أروع من منظر ! لو كانت تقبل فتيات فى مشاهدة مبارزة ، لو هبت أى شيء فى سبيل أن أشهد مبارزة •

— المبارزة ممتعة حين يسدّد المرء بنفسه ، أما حين يكون الآخر هو الذى يسدّد اليك ، فالأمر يصبح عندئذ كريهاً ، وربما تهرين يا ماريّا كوندرا تفنا •

— أتخاف أنت فى مثل هذه الحالة ؟

لم يتنازل سمردياكوف فيجيب عن سؤالها • وبعد برهة من الوقت
سُمع لحن آخر تغزفه القيثارة وصوت مترقق من طبقة التينور يصيح
مغنياً :

سأرحل مهما اكابد
فانى سئمت العذابا •
سيبهجنى ان أعيش بعيدا
أمتع نفسى واحيا سعيدا
حياة العواصم •
فلا شئ يمسكنى ها هنا
ولست بباك عليك كذلك
ولست بباله على أى شئ •

وفى تلك اللحظة حدث شئ ليس فى الحسبان : لقد عطس أليونا
فجأة • فصرعان ما صممت الأصوات • فنهض أليونا عن مكانه وانجه
نحو الدكة • الرجل هو سمردياكوف فعلاً ، بنياه الجميلة ، وحذاءيه
الملمّعين ، وشعره المدهن حتى لكأنه مجعد • كان قد وضع القيثارة على
الدكة • والمرأة الشابة هى ماريا كوندراثنا بنت صاحبة الدار • انها
ترتدى ثوباً أزرق فاتحاً ذا ذيل طويل جداً • وكان يمكن أن تبدو جميلة
لولا تلك البقع الحمراء البشعة فى وجهها المسرف فى الاستدارة •
سأل أليوشا بلهجة هادئة وهو يحاول أن يسبغ على سؤاله مظهر
سؤال بسيط لا قيمة له :

- هل سيأتى أخى دمترى الى هنا بعد قليل ؟
فنهض سمردياكوف بدون تعجل ، وكذلك فعلت ماريا كوندراثنا •
- أتنى لى أن أعرف ما يفعله دمترى فيدوروفتش ؟ اننى لم أكلف
بحراسته فيما أعلم •••

كذلك أجاب سمردياكوف مقطّماً ألفاظه دون أن يرفع صوته ،
وفد بدا في وجهه الاملال .

فقال أليوشا شارحاً :

– انما سألتك لتجيبني اذا كنت تعلم .

– أنا أجهل أين يمكن أن يكون الآن ، ولا أحرص على أن
أعرف ...

– لكن أخى أسرّ الى أنك تطلعه على كل ما يحدث في الدار ،
وأنتك وعدته ببلاغه عن مجيء آجرافين ألكسندروفنا .

فرفع سمردياكوف بصره الى أليوشا ببطء دون أن يضطرب . ثم
قال وهو يحدث الى أليوشا ويتفرس فيه :

– هل يمكنني أن أسألك أنا أيضا كيف فعلت حتى استطعت أن
تدخل الى هنا رغم أن باب المدخل مقفل بالمفتاح منذ أكثر من ساعة ؟
قال أليوشا :

– مررت بالزقاق وتخطيت السياج لأصل الى الكشك رأساً .

ثم أضاف يقول مخاطباً ماريّا كوندراثفنا :

– أرجو أن لا تؤاخذيني على عدم تخرجي . لقد كنت أحرص على
أن أرى أخى بأقصى سرعة .

فأجابت المرأة الشابة تقول بصوت ممطوط وفد بدا واضحاً
أن اعتذار أليوشا اليها قد سرها كثيراً :

– كيف أؤاخذك ؟ ان دمتری فيدوروفتش يسلك هذا الطريق

نفسه لبلوغ الكشك ، فما ان نلاحظ وصوله حتى يكون قد استقر فيه .

- لا بد لي أن أراه حتماً . اننى أبحث عنه فى كل مكان . ألا تستطيعين أن تقولى لى أين يمكننى أن أعثر عليه الآن ؟ ان الأمر أمر مسألة تهمة كثيرا .

فتمتت المرأة الشابة تقول :

- انه لا يطلعننا على تنقلاته .

واستأنف سمردياكوف كلامه فقال :

- اننى أجيء الى هنا زائراً ، فاذا هو يلاحقنى حتى الى هذا المكان ليسألنى عن أخبار سيدى . لقد طالبنى بأن أذكر له ماذا يفعل أبوه ، ومن يدخل الدار ومن يخرج منها ، وكل ما يمكننى أن أطلع عليه من أمور أخرى . حتى لقد هدّنى بالقتل مرتين !
- بالقتل ؟ لماذا ؟

- انه ، بما له من طبع خاص ، لا يتورع عن شىء ولقد أتيت لك أن ترى ذلك بنفسك أمس على كل حال . لقد أندرني بأن عاقبتى ستكون وخيمة اذا أنا تركت لأجرايين ألكسندروفنا أن تدخل وأن تقضى ليلة فى الدار . اننى أخافه وأخشاه ، ولولا أنه يثير فى نفسى هذا الجزع كله اذن لأبلغت عنه السلطات . الله وحده يعلم مايمكن أن يفعله دمترى فيدوروفش !

وأضافت ماريّا كوندرا تفنا تقول :

- وقد صرّح له منذ أيام بأنه سيسحقه بالهاون سحقاً ، ويدقه دقاً . . .

قال أليوشا :

— لئن تكلم عن الهاون ، فليس الأمر بالجد • لينى أستطيع أن أعثر عليه الآن ، اذن لقلت له كلمة عن هذه التهديدات أيضا •

قل سمردياكوف وكأنه قد غيّر رأيه فجأة :

— اليك المعلومات الوحيدة التى أستطيع أن أنهىها اليك • اننى أجيء الى هنا كصديق قديم ، ولیم لا أزور جيرانا ؟ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان ايفان فيدوروفتش قد أرسلنى فى ساعه مبكرة من هذا الصباح الى أخيك فى « شارع البحيرة » • لقد كلفنى ، دون أن يحملنى رسالة مكتوبة ، بأن أعلم دمترى فيدوروفتش جهاراً أنه يرجوه ملحاً أن يجيء لتناول طعام الغداء معه فى الكاباريه الذى يقع فى الميدان • لم أجد دمترى فيدوروفتش فى مسكنه • كانت الساعة هى الثامنة صباحاً • وقالت لى صاحبة المنزل « ان دمترى فيدوروفتش قد خرج » • أنا مستعد لأن أحلف أنهما متواطئان معه • من الجائز جداً أن يكون أخوك دمترى فيدوروفتش الآن فى ذلك الكاباريه مع ايفان فيدوروفتش ، لأن ايفان لم يرجع الى المنزل للغداء • أما فيدور بافلوفتش فقد تغدى أخيراً منذ ساعة ، ولا بد أنه الآن يُقيل • أتوسل اليك مع ذلك أن لا تحدث أخاك عنى ، وأن لا تقول له اننى ذكرت لك هذه المعلومات • فلقد يقتلنى اذا هو عرف ذلك !

سأله أليوشا كأنما ليتأكد من الأمر مزيداً من التأكد :

— هل ضرب ايفان موعداً لدمترى فيدوروفتش فى لكاباريه ؟

— تماما •

— أهو كاباريه « العاصمة الكبرى » الذى يقع فى الميدان ؟

— هو نفسه •

هتف أليوشا يقول وقد ألمَّ به انفعال شديد :

— جائز جدا • شكرا يا سمردياكوف • هذه معلومات ثمينة •
سأذهب الى هناك فوراً •

قال سمردياكوف ملحاً :

— اياك أن تفضحني !

— لا تتخف • سأتظاهر بأننى دخلت الكاباريه مصادفةً •

وبينما كان أليوشا يتجه نحو السياج ، هتفت ماريا كوندراتفنا
قائلة :

— الى أين أنت ذاهب ؟ سأفتح لك باب البستان •

— لا داعى الى ذلك • من هنا أقرب • سأتخطى السياج •

أحدث هذا النبأ فى أليوشا أثراً قويا • وأسرع متجهاً الى الكاباريه •
ليس من الحشمة طبعاً أن يدخل أليوشا الكاباريه وهو فى مسوح راهب •
ولكن أليوشا قد قرر أن يسأل عن أخويه دون أن يدخل الصالة ، وأن
يستدعيهما اليه على السلم • وانه ليقترّب من مبنى الكاباريه اذا بايفان
يناديه سائلاً :

— هل تستطيع أن تخيبنى الى هنا يا أليوشا ؟

— طبعاً • ولكننى أخرج من الدخول بشوبى هذا •

— أنا فى حجرة خاصة • تعال الى سلم المدخل ، فأتلفاك هناك •

وبعد دقيقة ، كان أليوشا يجلس الى جانب أخيه • لقد كان ايفان
وحيداً ، وكان يتناول غداءه •

اليوشة يعارفون



يكن ايغان يحل حجرة خاصة بمعنى الكلمة •
 وانما كان جالساً قرب النافذة في ركن تعزله عن
 الصلاة حواجز • فالأشخاص الذين يجلسون
 في هذا المكان الخاص لا يراهم رؤاد الكاباريه
 الآخرون • هي قاعة مدخل تفضي الى الصالات التي بعدها ، قد نصب
 « بوفيه » أمام جدارها الجانبي • والخدم يجتازون هذه القاعة في كل
 لحظة • ولم يكن في القاعة حينذاك الا زبون واحد هو ضابط محال على
 التقاعد كان يحتسى الشاي • ولا كذلك الصالات الأخرى فهي تزخر
 بما تزخر بها أمثال هذه الأماكن عادة من نداءات عالية ، وصرخات
 فرحة ، وقرقات الزجاجات التي تفتتح ، وطققات الكرات على مائدة
 البلياردو ، مع أصوات أرغن برباري تشق هذه الجلبة كلها •

كان أليوشا يلعم أن أخاه ايغان لا يكاد يرتاد هذا الكاباريه أبداً ،
 لأنه لا يحب جو الأماكن التي من هذا النوع على وجه العموم • فقال
 أليوشا لنفسه : « فأنما هو جاء اذن ليلقي دمترى ، ولكن دمترى لم يلب
 دعوته » •

قال ايغان وكان يبدو سعيداً بحضور أليوشا :

- هل تريد أن آمر لك بحساء سمك ؟ يخيّل إلى أنّك لا تتغذى
بالشاي وحده !

وكان ايفان قد فرغ من تناول طعامه ، فهو الآن يحسو فنجاناً من
الشاي • أجابه أليوشا مبتهجاً مرحاً :

- يسرني أن أصيب طبقاً من حساء السمك ؛ واطلب لي كذلك
شايًا ، فأننى جائع •

- افما قولك اذن بشيء من مربب الكرز ؟ ان عندهم هنا مربب
كرز • وعهدى بك أنّك كنت تحب هذا المربب فى الماضى حين كنت
صغيرا وكنا نعيش كلانا عند أسرة بولينوف • أما تزال تتذكر هذا ؟

- أأنت تذكره اذن يا ايفان ؟ موافق على المربب ، فأننى ما أزال
أحبه كما كنت أحبه فى الماضى •

نادى ايفان الخادم وأمر بطبق من حساء السمك ، وبشاي ،
وبمربب كرز •

- اننى أتذكر طفولتك يا أليوشا حتى الحاديه عشرة من عمرك •
وكنت أنا عندئذ فى الخامسة عشرة • ما كان يمكن أن تنعقد أواصر
رفاقه بين أخوين فى ذلك العمر اذا كانت تفصل بينهما أربع سنين •
ولست على يقين من أننى أحببتك فى ذلك الأوان • وبعد سفرى من
موسكو لم تخطر ببالى قط أثناء السنين الأولى • حتى اذا جئت بعد ذلك
الى موسكو أنت أيضا ، لم أصادفك الا مرة واحدة لا أدري أين !
وهأنذا أعيش هنا منذ أكثر من ثلاثة أشهر ، دون أن يتاح لنا أن نتبادل
حديثا حقيقيا مرة واحدة • وانى مسافر غدا ، لذلك تساءلت منذ لحظات:
« ترى أين يمكن أن أجده لأودّعه ! » وفيما أنا أتساءل هذا التساؤل
لمحتك من النافذة •

— أكنت تحرص حرصا كبيرا على أن ترانى اذن ؟

— نعم ، حرصا كبيرا • اننى أود أن أعرفك مرة ، وأن تعرفنى كذلك مزيدا من المعرفة • ان أفضل لحظة للتعارف هى فى رأى اللحظة التى تسبق الفراق • لقد راقبت تعبير نظراتك خلال هذه الأشهر الثلاثة • كان فى عينيك انتظار دائم وتوقع مستمر ، وهذا ما لا أستطيع أن أحتمله • لذلك لم أحاول أن أقرب منك • ولكننى تعلمت أن أحترمك • قلت لنفسى : « ما يزال الرجل الصغير ثابتا على مواقفه » • اننى أمزح قليلا ، ولكننى أتكلم الآن جادا • أنت فتى ثابت جدا ، أليس هذا صحيحا ؟ وأنا امرؤ يجب الثبات كيف ظهر وأين ظهر ، حتى لدى صبية صغار متلك • لهذا أصبحت نظراتك التى تعبّر عن الانتظار والتوقع لا تسوءنى ولا تنفرّنى ، حتى لقد أصبحت محبّبة الى ... يبدو لى أنك تحبنى يا أليوشا ، أليس كذلك ؟

— أحبك يا ايفان • دمترى يصفك بأنك « قبر » ، أما أنا فأقول أنك لغز • ولم أستطع أن أحل هذا اللغز حتى الآن • هناك نقطة مع ذلك أحسب أننى أبصرتها واضحة فى نفسك ، ولكن منذ هذا الصباح فحسب •

سأله ايفان ضاحكا :

— فما هى ؟

— ألن تغضب ؟

— طبعا لا ...

— اذن فاعلم أننى اكتشفت أنك شاب شبيه سائر الشباب الذين هم فى الثالثة والعشرين من أعمارهم ، تزخر فتوة ونضارة وعفوية مثلهم ، ويموزك النضج كما يموزهم ، أى ... هل كدّرك قولى هذا كثيرا ؟

- بالعكس ! بل أدهشنى صدق رأيك ، وهو يتفق ورأى . لقد كنت منذ لقائنا فى هذا الصباح أفكر فى هذا الجانب من طبيعى ، فى هذه القوة العارمة الجامعة التى تزخر بها سنتى الثالثة والعشرون ، فإذا أنت تقع على هذه الحقيقة دفعة واحدة ! ... هل تعلم بماذا كنت أحدثت نفسى قبل وصولك ؟ كنت أقول لنفسى : مهما تخيب الحياة ظنى ، ومهما أفقد إيمانى بالمرأة التى أحبها ، ومهما أفتنع بأن الكون سديم ملعون لعله خاضع لمشيئة الشيطان ، فلن يغير هذا من الأمر شيئاً ... قد أغوص فى جميع وهاد اليأس الانسانى ، ثم أظل أحب الحياة مع ذلك ورغم كل شيء . أود لو أعب كأس الحياة مثلذا حتى الثمالة ، وقد لا أستطيع تركه قبل أن أفرغه . ولكن حين أبلغ الثلاثين من العمر فقد أرمى الكأس قبل نفاذه ، ثم أمضى ... الى أين ؟ لا أدرى بعد ... أما حتى ذلك الحين ، أى الى أن أبلغ الثلاثين ، فإن الشباب سينتصر على كل شيء - أنا واثق من هذا - سينتصر على تبدد الأحلام وعلى مشاعر الاشمئزاز . لقد تساءلت مرارا : « هل فى هذا العالم يأس يمكن أن يخلق فى نفسى هذا الظلم الى الحياة ، هذا الظلم المسعور الذى قد لا يكون لائقاً ؟ » . وانتهيت الى الاعتقاد بأن لا ، ولكن حتى الثلاثين من عمري فحسب ، ثم أزهى وأعف من تلقاء نفسى بعد ذلك ... فيما أظن ... ان الواعظين بالأخلاق ، المصدورين الحزانى ، وكذلك الشعراء ، يحلو لهم أن يصفوا بالجبن والضعفة هذا الحب الحار للحياة . ويجب أن نعرف على كل حال أن من السمات الخاصة بآل كارامازوف ارادة الحياة هذه بأى ثمن . لا بد أن تكون هذه الارادة قائمة فيك أنت أيضاً . ولكن لماذا توصف بالجبن والضعفة ؟ ان القوة الصادرة عن المركز لم تنفذ فى كوكبنا السيّار هذا يا ألبوشا . الحياة ممتعة ، ونى لأحيا ولو على خلاف كل منطق . أنا لا أومن بقيمة النظام الذى يحكم العالم . لنسلم بهذا .

ولكننى أحب وريقات الأشجار الطريات النديات حين تطلع فى الربيع * ،
وأحب السماء الزرقاء ، وأحب أيضا دون أن أدري لماذا - هل تصدق
ذلك ؟ - أحب أيضا بعض البشر وتهزنى الحماسة لأعمال من أعمال
البطولة الإنسانية التى انقطعت مع ذلك عن الايمان بها منذ زمن طويل ،
ولكننى ما زلت أقدها بحكم عادة عزيزة على نفسى أثيرة فى قلبى .
جاءوك بحساء السمك . كلّه وتذوقه . انهم يحسنون اعداده هنا .
أنوى أن أسافر الى الخارج يا أليوشا . سأسافر الى الخارج من هنا رأساً .
وانى لأعلم مع ذلك اننى لن أجد هنالك الا مقبرة ، ولكننى شديد
الارتباط بذكرى هؤلاء الموتى . ان كل حجر بذكرنى بسورة جامعة
من سورات الايمان بالحياة ، وبقيمة العمل ، وبالحقيقة ، وبالكفاح ،
وبالعلم أيضا . أوه ! أنا أعلم سلفاً أننى سأرتدى على ركبتى جثياً أمام
هذه الذكريات الكثيرة ، وأننى سأبكى على أحجار القبور هذه ، وأنمرها
بالقبل ، مع شعورى فى قرارة قلبى بأن ذلك ماضٍ تصرّم وان يعود .
على أننى لن أبكى من كرب ويأس ، بل من سعادة الشعور بانسكاب
دموعى . سيسكرنى حزنى وحنانى . اننى أحب البراعم فى الربيع ،
أحب السماء الزرقاء . ليس الأمر أمر عقل ومنطق . ان حب الحياة
ينبجس من أرحامى ، وان قوى شبابى التى لم تضعف ولم تهين ولم
يمسسها سوء هى التى أحبها هذا الحب . أنت تفهم شيئاً من هذه
المعانيات يا صغيرى أليوشا ؟ هه ؟

ألقى ايفان هذا السؤال وهو يضحك . فأجابه أليوشا بقوله :

- أفهمها جدا يا ايفان ، أفهمها أكثر مما يجب ! من قرارة الأرحام
انما ينبع حب الحياة ؛ لقد أجدت التعبير عن هذه الحقيقة . وانى لأبتهج
لك كثيراً حين أراك راغباً فى الحياة رغبة قوية هذه القوة .
كذلك هتف يقول أليوشا ثم أضاف :

- وعندى أن على كل انسان فى هذا العالم أن يتعلم حب الحياة
قبل كل شىء • •

- حب الحياة لا محاولة فهمها ؟

- نعم ، حب الحياة ، دون اكتراث بالمنطق ، كما قلت أنت • وبهذا
وحده انما يصل الانسان الى اكتشاف معنى الحياة • أنا من جهتى أفكر
فى هذا منذ زمن طويل • لقد ملكت نصف الحقيقة ما دمت تريد أن
تحيأ ، ولم يبق عليك الا أن تملك نصفها الآخر حتى تحقق لنفسك
الخلاص والسلامة •

- أنت تهتم بخلاصى وسلامتى ؟ ما كنت أحسب أنى بسبيل الضياع
والهلاك • وما هو النصف الثانى فى رأيك ؟

- النصف الثانى هو بعث أولئك الموتى الذين لعلهم لم يبرحوا
الحياة • اعطنى الشأى • اننى سمعت جدا بحديثنا هذا يا ايفان •

- ألاحظ فعلاً أنك تحمست قليلاً • ما أكثر ما أحب « اعترافات
الصدق » هذه التى يقولها • • • رهبان مبنثون ! انك رجل ثابت
يا أليوشا • هل صحيح أنك تفكر فى ترك الدير ؟

- صحيح ! ان شيخى أمرنى بالذهاب الى العالم •

- سوف نلتقى اذن ، سوف نلتقى اذن فى هذا العالم قبل حلول
الثلاثين ، قبل أن أرمى الكأس • أبونا لا يريد أن يعدل عن التمتع بالحياة
قبل أن يبلغ السبعين ، ولعله يحلم أن يعيش ثمانين عاماً ، كما يقول ذلك
هو نفسه • انه جاد فى هذا كل الجدة ، مهما يكن مهرجاً • انه يتهالك
على اللذة ، ويحسب أنه مقيم عليها اقامته على صخرة وطيدة • • • صحيح
أن الانسان لا يبقى له بعد الثلاثين شىء غير اللذة • • • ولكن الحياة على

على هذا الطراز حتى السبعين شئء معيب مقيت • فالأفضل أن يمسك المرء حين يبلغ الثلاثين • وبذلك يستطيع أن يحافظ على « مظهر نبل » فى أقل تقدير ، كاذباً على نفسه • هل رأيت دمتري اليوم ؟

— لا ••• ولكننى رأيت سمردياكوف •

وقصّ أليوشا على أخيه بسرعة تفاصيل لقائه بالخادم • فكان ايفان يصنى اليه وقد اكتسى وجهه تعبيراً عن الهم والقلق على حين فجأة ، حتى أنه استوضح أليوشا بعض النقاط •

وأضاف أليوشا قوله :

— وقد ألحّ سمردياكوف على أن لا أذكر لدمتري شيئاً مما أسرّ به الىّ •

فقطب ايفان حاجبيه ، ووجهم يفكر لحظة •

سأله أليوشا :

— أبسبب سمردياكوف ألمّ بك هذا الانزعاج ؟

— نعم ، بسببه • شيطان يأخذه على كل حال !•••

ثم أضاف يقول كأنما على مضض :

— حقاً لقد كنت أرغب فى أن أرى دمتري ، ولكن لم تبق بى حاجة

الى ذلك الآن •

— هل تنوى أن تسافر بمثل هذه السرعة فعلاً ؟

— نعم •

فسأله أليوشا قلقاً :

- ما عسى يصير اليه حال دمترى والأب ؟ ترى كيف ينتهى هذا الأمر كله ؟

- انك ما تفتأ تعود الى هذا الموضوع ! فيم يعينى نزاعهما ؟ أنا حارس لأخيك ؟

كذلك أجاب ايفان بلهجة حائقة ، ولكنه لم يلبث أن تدارك نفسه ، فابتسم ابتسامة مرة وقال :

- ذلك جواب قابيل لله عن الأخ الذى قتله قابيل ، أليس هذا ماخطر ببالك فى هذه اللحظة ؟ الى جهنم على كل حال ! ... أنا لا أستطيع أن أبقى هنا لأراقبهما ! لقد أنهيت أعمالى ، وسأسافر . أتراك تتخيل أننى غيور من دمترى ، واننى حاولت خلال هذه الأشهر الثلاثة المنصرمة أن أترزع منه جميلته كاترين ايفانوفنا ؟ دعك من هذا ! لقد كانت لى أنا شئونى وأعمالى . وقد أنهجرتها فسأسافر . أنهجرتها فى هذا الصباح ، وكنت أنت شاهدا عليها .

- هل تعنى ذلك الحديث الذى جرى بينك وبين كاترين ايفانوفنا ؟

- نعم . لقد قطعت صلتى بها دفعة واحدة . أليس هذا طبيعيا جدا ؟ فيم يهمنى دمترى ؟ انه لا شأن له بهذا الأمر ، ولا دخل له فيه . كانت علاقائى بكاترين ايفانوفنا شأنا خاصا بى . ثم انك تعرف أنت نفسك أن دمترى قد تصرف فى هذا الأمر كله تصرف متواطىء معى . أنا لم أطلب منه شيئا ، وانما هو تركها لى من تلقاء نفسه ، وزاد على ذلك فبارك . لكأنها تمثيلية . أف ... ليتك تعلم يا أليوشا مدى شعورى بالتخفف الآن ! حين كنت أتناول غدائى منذ قليل هنا ، اشتيتت أن أطلب شيئا من الشمبانيا احتفالاً بأول ساعة من ساعات حريرتى التى عادت الى . حين أفكر فى هذا الأمر ... آه ... لقد دام ستة أشهر ، وهأنذا

أُحرر دفعةً واحدة • حتى أمس ، ما كنت لأنخيل أننى سأستطيع أن
أقطع الصلة بمثل هذه السهولة متى شئت !

— أعن حبك تتكلم يا إيفان ؟

— عن الحب أتكلم ان شئت أن تستعمل هذا التعبير • لقد عشقت
آنسة من الآسات ، فتاةً هى طالبة فى مدرسة داخلية ؛ فتأملت ، وجعلتني
هى أتألم • وكنت أحسب أننى مشدود اليها ••• ثم اذا بكل شئ • يتبدد
فى طرفة عين • فى هذا الصباح كنت أكلمها مستهماً ، حنى اذا صرت
فى الشارع انطلقت أضحك ضحكا مجلجلا ، هل تصدق هذا ؟ تلك هى
الحقيقة بعينها مع ذلك •

قال أليوشا وهو يتفرس فى وجه أخيه الهادى ، المطمئن :

— أنت حتى فى هذه اللحظة تتكلم فى الأمر بمرح وجور •

— كيف كان يمكننى أن أحزر أننى لا أحبها البتة ؟ هاها ! •••
ومع ذلك فهذه هى الحقيقة • أنا لا أحبها • وضع هذا الآن • ولكن
ما أكثر ما كانت تعجبنى ! فى هذا الصباح نفسه ، حين أجريت معها ذلك
الحديث ، كنت لا أمل ولا أكل من الإعجاب بها ! وحتى فى هذه اللحظة
تعجبنى كثيرا ، هل تصدق ؟ ورغم هذا فما كان أسهل تركها على !
أتحسبنى أقول هذا الكلام تباهاً وتبجحاً ؟

— لا ••• ولكن لعله لم يكن بالحب حقاً ؟

قال إيفان ضاحكا :

— يا صغيرى أليوشا ، لا تندفع فى اصدار آراء فى الحب ! ذلك
لا يناسب حالتك • اننى أفكر فى اندفاعك هذا الصباح يا بنى ! أى ••
كان ينبغى لى أن أقبلك عندئذ ! ومع ذلك ما أشد ما آلمتني وعذبتني ! •••

لقد اضطررت أن أحتمل جميع تلك التمزقات • أوه ! كانت تعلم حق العلم أنني أحبها • وكانت تحبني أنا لا دمتري (قال ذلك مرحاً) ، ولم يكن دمتري الا عذراً لها وتعلّة في سبيل أن تعذب نفسها • ان كل ماقلته لها هو الحق ، هو الحق اطلاقاً • ولكن من المؤسف أنها تحتاج الى خمسة عشر عاماً أو الى عشرين عاماً أخرى - وهذا هو الشيء الأساسي - من أجل أن تدرك أخيراً أنها لا تحب دمتري البتة ، ولا تحب أحداً سوى رغم أنها تؤلّني وتعذبني • وقد لا تدرك هذه الحقيقة في يوم من الايام على كل حال ، رغم درس هذا الصباح ! بالمناسبة ، ما الذي صارت اليه ؟ ماذا حدث بعد انصرافي ؟

أطلعه أليوشا على النوبة العصية التي ألت بها ، وذكر له أنها ما تزال مغشياً عليها في أغلب الظن ، وأنها ما تزال تهذي •

- لعل هو خلاكوكا قد بالغت ؟

- لا أظن •

- يجب أن أذهب أستطلع أنباءها • على كل حال ، لا أحد يموت من نوبة عصبية !... ولقد يحسن اليها هذا • • • • • فد ينفعها ولا يضرها • • • ان الرب قد شاء كرمه أن يهب للنساء هذه النعمة: النوبات العصبية • لا • • • لن أذهب اليها ! فم استئناف الامر ؟
- زعمت لها منذ قليل أنها لم تحبك يوماً •

- زعمت ذلك عامدا يا أليوشا ! سأطلب شيئاً من الشمبانيا فشرب احتفالاً باستردادى حريتي • ليتك تعلم مدى ما أشعر به من سعادة !

أجابه أليوشا بحرارة قائلاً :

- أخى ، الأفضل أن لا تشرب • اننى أحس بحزن شديد • ثم

ان • • •

– أنت حزين منذ زمن طويل ، لقد لاحظت أنا هذا •

– أأنت مضر" على أن تسافر غدا في الصباح ؟

– لماذا في الصباح ؟ أنا لم أقل أنني مسافر في الصباح ... على أنني قد أفعل • هأنت ذا ترى أنني أصبت غداثي هنا حتى لا أدخلو الى العجوز على مائدة واحدة ، فالى هذا الحد يدير العجوز اشعثرازي ... كان يمكن أن أسافر منذ زمن بعيد لأتحرر من وجوده • ولكن لماذا يقلقت سفرى هذا الاقلاق ؟ ما يزال أماننا وقت طويل ، ما يزال أماننا أبدا" تقريبا ...

– أأكون أماننا أبدا" وأنت مسافر غدا ؟

قال ايفان ضاحكاً :

– ففيم يهمننا هذا السفر ؟ سيكون لنا من الوقت متسع لأن نتحدث عما يهمننا نحن الاثنين ، لأن نتحدث عما جمعنا في هذا المكان • لماذا تنظر الى هذه الدهشة ؟ ما هو الأمر بالنسبة إلنا ؟ أجب ! نحن هنا من أجل أن نتحدث عن الحب ، وعن كاترين والعجوز ودمترى ، وعن ظروف الحياة في الخارج ، وعن أحوال روسيا المتردية وعن الامبراطور نابوليون ؟ نحن هنا من أجل أن نتحدث في هذه الأمور ؟

– لا ... طبعاً ...

– هأنت ذا تدرك بنفسك اذن ما يجمعنا هنا • هناك أناس آخرون يتناقشون في شئون هذا العالم ، أما نحن ، نحن الأغرار البسطاء ، فنريد أن نحلّ أولاً مشكلات الحياة الملتافيزيقية • ذلك هو همنا نحن شباب روسيا • ان جميع شباب روسيا يعالجون الآن ألغاز الكون الخالدة • وقد اختاروا للاهتمام بهذه الألغاز الكونية الخالدة اللحظة التي قرر الشيوخ

فيها أن يدرسوا المسائل العملية • ما الذي كان يدفعك طوال هذه الأشهر الثلاثة الى أن تنظر الى نظرة فيها ذلك التعبير عن الانتظار ؟ كنت تريد أن تعرف أنا مؤمن أم ملحد ... ذلك ما كان يشوى في أعماق نظرتك منذ ثلاثة أشهر ، أليس هذا صحيحا يا ألكسى فيدوروفتش ؟

أجاب أليوشا مبتسما :

— جازز جدا • ولكننى أرجو أن لا تكون فى هذه اللحظة بسبيل السخر منى والضحك على يا أخى •

— أنا أسخر ، أنا ؟ ألا انتى لا أحب أن أشجى قلب أخى الصغير الذى يبدو أنه انتظر منى أشياء كثيرة طوال هذه الأشهر الثلاثة • أليوشا ، انظر الى جيداً • ألسنتى ، أنا أيضا ، فتى صغيرا مثلك ، مع فارق واحد هو انتى لست راهبا مبتدئا ؟ كيف يتصرف اليوم شباننا الروس أو بعضهم على الأقل ؟ انهم يلتقون فى خمارة تفسوح فيها رائحة كريهة كهذه الحجرة ، ويجلسون الى مائدة ... لقد عاشوا دون أن يتعارفوا حتى الآن ، وسينكر بعضهم بعضا من جديد ، بعد اربعين عاما ، متى خرجوا من الخمارة ! ... فما الذى يتناقشون فيه أثناء هذه اللحظات القصار التى تتيحها المصادقة فى كبااريه ؟ يتناقشون فى الكون وسر الكون حتماً • هم يتساءلون : هل الله موجود ، وهل النفس خالدة بعد الموت ؟ والذين أصبحوا منهم لا يؤمنون بوجود الله ، يتناقشون فى الاشتراكية والفوضوية ، وفى إعادة بناء الانسانية بناءً كاملاً على أسس جديدة ؟ والفريقان كلاهما سواء • فالمشكلات التى يعالجها هؤلاء ، هى المشكلات التى يعالجها أولئك ، ولكنهم يعالجونها من الجهة المعارضة • ان عددهم لا يحصى فى بلادنا ، هؤلاء الشبان الروس ، الذين يفيضون

أصالة وطرافة والذين أصبحوا الآن لا يجيدون أن يناقشوا الا المسائل
الأبدية • ألسنت متفقاً معى فى هذا الرأى !

أجاب أليوشا أخاه وهو ينظر اليه نظرة مشفوعة بابتسامة رقيقة
عذبة ، كأنما يشجعه على أن يفصح عن أعماق فكره مزيدا من الافصاح:

ـ حتماً • ان المسائل المتضلة بوجود الله وخلود النفس أو هذه
المسائل نفسها التى تعالج من الجهة المعارضة كما قلت ، هى فى نظر
الروسى الحق ذات خطورة حيوية ، ومن الخير جدا أن تكون كذلك •

ـ اعلم يا أليوشا أن الروسى لا يلمع دائماً بالذكاء والعقل ، واعلم
على كل حال أن هذه الأمور التى تشغل بال الشبان فى روسيا هى أغبى
ما يمكن أن يتصوره الخيال من أمور • غير أن بين هؤلاء المراهقين
واحدا أحبه كثيراً يا أليوشا •

قال أليوشا ضاحكاً :

ـ هذه نتيجة بلغت فى استخلاصها غاية اللطف •

ـ بماذا تريد أن تبدأ ؟ اننى أترك لك الخيار • هل تريد أن نتكلم
عن الله وأن نتساءل أهو موجود أم لا ؟ قل ...

ـ ابدأ من حيث تؤثر أن تبدأ ، ولو بمعالجة تلك المسائل التى
وصفتها بأنها تعالج من « الجهة المعارضة » • ألم تؤكد أمس ، فى منزل
أبينا ، أن الله غير موجود ؟

كذلك سأل أليوشا أخاه ، وهو يحدق اليه متفرساً فيه •

ـ تعمدت أن أقول ذلك بالأمس لدى العجوز لأناك ذلك وأغينلك ،
ورأيت لهياً ينبجس فى عينيك • أما الآن فأنا أشعر بأننى على أتم
الاستعداد لأن أناقش هذا الامر معك ، وسوف أناقشه جاداً لا هازلاً •

اننى أحب كثيرا أن أفهم معك يا أليوشا ، لأننى لس لي أصدقاء • اننى
أحاول أن أقرب منك •

قال ايفان ذلك ثم أضاف يسأل أخاه ضاحكا :

— هل تصور أننى ربما سلّمت بوجود الله ؟ هذا يدهشك ، أليس
كذلك ؟

— نعم ... اللهم الا أن تكون مازحاً من جديد ؟

— مازحاً ؟ لقد أخذوا على ذلك بالأمس ، عند شيخك ، ولكنهم
أخطأوا • اسمع يا عزيزى : ان عجوزاً آتماً عاش فى القرن الثامن عشر
قد قال : « اذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه »* . والحق ان الانسان
قد اخترع الله • وليس أغرب ما فى الأمر ولا أبرزه أن الله لا وجود له
فى الواقع ، بل أن هذه الفكرة ، فكرة وجود الله بالضرورة ، قد أمكن
أن تثبت فى دماغ حيوان يبلغ ما يبلغه الانسان من توحش وخبث وشر ،
ذلك أن هذه الفكرة فكرة مقدسة تؤثر فى القلب ، وهى فى الوقت نفسه
ذكية عاقلة • الحق أن هذه الفكرة تشرّف الانسان • أما أنا فقد قررت
منذ أمد طويل أن لا أتساءل هل الله هو الذى تصور الانسان ، أم الانسان
هو الذى تخيل الله • فسأعفى نفسى اذن من فحص البديهيات التى يستند
اليها شبابنا الروس فى هذه الأيام والتى يستمدونها فى حقيقة الامر كما
هى من الافتراضات التى يفترضها الناس فى البلاد الأوروبية الأخرى •
ذلك أن ما هو افتراض " لا أكثر ، فى نظر العلماء الأجانب ، سرعان
ما يصبح بديهية فى نظر مراقبينا ، بل وفى نظر أساتذتهم الذين لا يفضلون
المراقبين سدادَ رأى وصدق حكم فى كثير من الأحيان • فسأترك جانباً
جميع الافتراضات اذن ، وأتساءل ما هى غايتنا الآن على وجه الدقة ؟

أما أنا فأنما يهمنى أن أشرح لك طبيعتي بأقصى سرعة ممكنة ، يهمنى أن أفهمك أى إنسان أنا ، وما هو إيماني ، وأين أضع آمالي ؟ لذلك سأقول لك فوراً اننى أسلم بوجود الله دون مناقشة أخرى . ولكننى أحب أن تلاحظ ما يلى : اذا كان الله موجوداً ، واذا كان قد خلق الأرض فعلاً ، فهو انما اتبع فى هذا الخلق ، كما أصبحنا نعرف ذلك اليوم حق المعرفة ، قوانين هندسة اقليدس ، ولم يهب للعقل الانسانى الا فكرة مكان ذى ثلاثة أبعاد . ومع ذلك فقد وجد وما يزال يوجد الى يومنا هذا أناس من أشهر علماء الهندسة ومن الفلاسفة يشككون فى أن يكون الوجود وأن يكون الخلق كله بوجه أعم ، مستنداً الى قوانين هندسة اقليدس وحدها؛ حتى ليقررون أن الخطئين المستقيمين المتوازيين اللذين ترى هندسة اقليدس أنهما لا يمكن أن يتقاطعا على الأرض ، يمكن فى الواقع أن يتقاربا ويتلاقيا فى نقطة موجودة فى اللانهاية* . ولقد قلت لنفسى يا عزيزى: اذا كنت عاجزاً عن فهم هذه الحقيقة ، فلن أستطيع أن أعرف أى شئ عن مسألة الله ! اننى أعترف فى كثير من التواضع أننى لا أملك المواهب اللازمة للقطع برأى فى مسائل من هذا النوع ، لأن عقلى اقليدسى قد خلق للأرض ، ومن العبث الذى لا طائل تحته أن تشغل أنفسنا بأمور ليست من هذا العالم . وانك لتحسن صنعاً أنت نفسك يا أليوشا اذا أنت لم تفكر فى هذه الأمور ، واذا أنت لم تتساءل خاصة هل الله موجود أم هو غير موجود ! هذه عناصر لا سبيل لعقلنا الى ادراكها ، لأز عقلنا قد خلق لمعرفة مكان ليس له الا ثلاثة أبعاد . ذلك هو السبب فى اننى أسلم بوجود الله . ولست أسلم بوجود الله فحسب ، ولكننى أسلم أيضاً بحكمته العليا وبغاياته ، رغم أن من المستحيل علينا أن ندرك هذه الغايات . اننى أوؤمن بوجود نظام كونى شامل يضيف على الحياة معنى ، وأؤمن بانسجام أبدى علينا أن نذوب فيه جميعاً ذات يوم فيما يسدو . أوؤمن « بالكلمة » التى

يتجه اليها الكون ، « الكلمة التي هي الله » ، وهلمّ جرا الى غير نهاية .
لقد قيل في هذا المجال كلام كثير مسرف في الكثرة . ولكنني على طريق
الصواب ، ألا ترى هذا الرأي ؟ فاعلم اذن الآن ، ختاماً لكل ماقلته ، أنني
لا أقبل العالم على نحو ما خلقه الله ، ولا أستطيع الموافقة على قبوله ، رغم
علمي بوجوده . لست أرفض الله افهمني جيداً وانما أنا أرفض
العالم الذي خلقه ولا أريده . وهأنذا أشرح لك ما أريد قوله : انني
أؤمن ايماناً جازماً ، كإيمان طفل ، بأن آلام هذا العالم ستخف شيئاً بعد
شيء وستزول آخر الأمر ، وأن هذه المهزلة الحقيرة ، مهزلة التناقضات
الانسانية ستتبدد تبدد سراب باطل ، تبدد شيء تافه اخترعه كائن ضعيف
صغير ، وأنها ستتبدد تبدد الذرة في ذهن اقليدس . أؤمن بأن حقيقة عليا
ستتبق في خاتمة المطاف من هذه الحياة ، حين يتأكد الانسجام الأبدى ،
فاذا هي تبلغ من السمو والنقاء أنها تهدي جميع القلوب ، وتسكن جميع
أنواع الغضب ، وتكفر عن جميع جرائم الانسانية ، وتقدي كل الدم
الذي سُفح على الأرض . وهذه الحقيقة لن تتيح العفو عن جميع الأخطاء
الانسانية فحسب ، كائناً ما كانت تلك الأخطاء ، وانما هي ستسوّغها
فوق ذلك . لنستلم بهذا كله ! ولكن حتى في هذه الحالة ، فأنني لن
أقبل الأمر ولن أريد أن أقبله ! ألا فلتلق الخطوط المستقيمة المتوازية
ولأرها ، فاعترف بأنها التقت ، ولكنني لن أقبل ذلك . تلك طبيعتي
يا أليوشا ، وذلك احساسى بالعالم . لقد حدثتك حديثاً جاداً كل الجد
في هذه المرة . تعمدت أن أبدأ حديثنا على أغبي نحو ممكن ، ولكنني
قدته الى حيث أبلغ اعترافاً كاملاً صادقاً ، لأن ذلك وحده يهملك . ليس
الحديث عن الله هو ما كنت تريد أن تسمعه مني ، وانما كنت تريد أن
تسمعي متحدثاً عن نفسي ، بغية أن تعرف ما يدور في نفس أخٍ تحبه .
فهائت ذا عرفت ذلك الان .

أنهى ايفان كلامه المطنب الطويل بفيض من عاطفة كان يبدو غير متوقع منه •

سأل أليوشا أخاه وهو يلقي عليه نظرة شاردة :

— قل لى : لماذا تعمدت أن تبدأ الحديث بيننا « على أغبى نحو ممكن » ؟

فأجابه ايفان بقوله :

— أولاً لأننى أحيت أن أجارى عادات الناس : فإن الأحاديث حول هذا الموضوع فى روسيا غيبة دائماً • وثانياً لأن المزمع يكون أقرب الى الحقيقة حين يكون غيباً • ان الغباء يمضى نحو الهدف رأساً ، دون لف ودوران غامضين • الغباء بساطة وإيجاز ، أما الذكاء فمكر ومخاتلة • ان الفكر الذكى فاجر فاسد ، أما الغباء فمستقيم شريف • لقد شرحت لك بأبى ، وعلى قدر ما يكون الشرح غيباً ، يكون الأمر أفضل فى نظرى • سأله أليوشا مرة أخرى :

— أأقول لى لماذا ترفض « قبول الخليفة » ؟

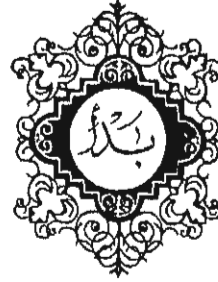
— طبعاً أقول لك • ليس هذا بسر • وأنا انما بدأت هذه المناقشة لأصل منها الى ذلك •

بهذا أجابه ايفان ، ثم أردف يقول وهو يتسم ابتسامة بريئة كمراهق خجول :

— يا أخى الحبيب ! لست أريد بحال من الأحوال أن أصرفك عن ايمانك ، وأن أحوّلك عن اعتقاداتك ••• بالعكس ••• اننى أتمنى أنا نفسى أن أشفى وأبرأ بالاتصال بك •

لم يره أليوشا يتسم هذه الابتسامة فى يوم من الايام •

التمرد



ايهان كلامه يقول :

يجب أن أعترف لك بهذا الأمر : اننى لم أستطع
في يوم من الأيام أن أفهم أن يحب المرء الناس
القريين منه • ففى رأيى أن أقرب الناس إلينا
يصعب علينا أن نحبهم أكثر مما يصعب علينا
أن نحب غيرهم • ان الانسان لا يحب الا من بعد • لقد قرأت فى
موضع ما أن رجلاً اسمه « يوحنا الرحيم » * (هو قديس من القديسين)
قد تضرع اليه فى ذات يوم متشرداً جائعاً مرتعداً من شدة البرد أن يجده
ويدفئه • فأضجعه على سريريه وأحاطه بذراعيه ونفخ فى فمه النتن المتقيح
المصاب بمرض رهيب • اننى أعتقد اعتقاداً قاطعاً بأن اندفاعه هذا القديس
مصطنعاً ، وأنه لا يقوم بفعله هذا من تلقاء نفسه ، وانما هو يلزم نفسه
به الزاماً باسم حب لا يشعر به ، فكأنه قد قام بهذا الفعل بدافع التكفير
عن ذنبه ، فهو يعاقب نفسه على افتقادها المحبة • اننا لا نستطيع أن نحب
انساناً الا اذا ظل مخفياً عن نظرنا • فمتى لمحنا وجهه تبدد الحب •

قال أليوشا :

— هذه ملاحظة طالما ردّها الشيخ زوسيمّا • كان يقول ان وجه
الانسان يخلق فى كثير من الأحيان حاجزاً يحول دون الحب لدى أولئك
الذين لما يتعلموا بعد أن يحبوا • ومع ذلك فإن فى الاساية كثيراً من

المحبة ؟ ان هناك محبة تكاد تشبه محبة المسيح ... أنا أعرف ذلك
بتجربة يا ايفان ...

- جائز • أما أنا فلم أستطع أن ألاحظ ذلك ولا أن أفهمه ، وما
أكثر الناس الذين يشبهوننى من هذه الناحية ! وانما السؤال هو : هل
يرجع هذا الى خبث القلب الانسانى أم هو قانون طبيعى • وانى لأرى
أن محبة المسيح للناس معجزة لا يمكن أن تتحقق على هذه الأرض • ان
المسيح اله ونحن بشر • لنفرض مثلاً اننى قادر على أن أتألم كثيراً • ان
من الصعب على شخص آخر غيرى أن يعرف عمق الألم الذى أعانيه ،
وذلك لسبب بسيط هو أنه ليس أنا بل آخر • ثم انه يعزّ على المرء
دائماً أن يسلمّ بألم غيره (كما لو كان ذلك عزةً وإباءً !) • فهل تعلم
لماذا يعزّ عليه أن يسلمّ بألمى ؟ ربما لأن رائحة فمى كريهة ، أو لأن
وجهى غبى ، أو لأننى دست على قدمه فى يوم من الأيام ! على أن الآلام
أنواع : فهناك آلام تخفض قيمتنا أو تنقص قدرنا ، كالجوع مثلاً ؛
فالناس تحب أن تصدقنا فيما يتعلق بهذا النوع من الآلام ، ليجعلوا من
أنفسهم محسنين إلينا بعد ذلك • أما اذا كان الألم أرفع من ذلك درجةً
أو درجتين ، اذا كان ألماً نحتمله فى النضال من أجل فكرة مثلاً ، فان
الناس يرفضون أن يصدقوه ، باستثناء قلة قليلة • وهم لا يصدقونه
لأنهم حين نظروا الى صاحبه رأوا أن رأسه ليس ذلك الرأس الذى لا بد
أن يكون فى نظرهم رأساً من يتألم فى سبيل قضية رفيعة تلك الرفع
كلها • وهم عندئذ يابون أن يتعاطفوا معه أى تعاطف ، دون أن يكون فى
موقفهم هذا شئ من روح الشر على كل حال • ان على الشحاذين المستعطين ،
ولا سيما حين تكون نفوسهم نبيلة ، أن يفللوا مخبئين عن الأنظار ، وأن
لا يطلبوا الاحسان الا باعلانات ينشرونها فى الجرائد • ان من الممكن
أن يحب الانسان الانسان حباً مجرداً ، وأن يحبه فى بعض الأحيان

فعلًا ، ولكن من بعد • أما من قرب فذلك يشبه أن يكون مستحيلاً • لو كانت الأمور تجري كما تجري على المسرح ، في باليه نرى فيه الشحاذين يظهرون ، اذا ظهوروا ، لا بسين اسمالاً من حرير ومغطين بتخاريم ممزقة ، ويطلبون الصدقة راقصين برشاقة ، فقد نعجب بهم عندئذ ، نعجب بهم ولكن دون أن نحبههم • حسبنا الآن ما قلناه حول هذا الموضوع • لقد كان في نيتي ان أحدثك عن آلام الانسانية عامة ، ولكنني أحسب أن من الأفضل أن تقتصر على آلام الأطفال وحدهم • ولئن كانت حجتي ستفقد من ذلك تسعة أعشار دلالتها ، فأنني أظن أحسب أن هذا أفضل • لسوف تكون المناقشة أقل مواتاة لي بطبيعة الحال • ولكن الأطفال يمتازون على الأقل بأن المرء يستطيع أن يحبه من قرب ، مهما تكن وساختهم ودمامتهم (وان كنت أعتقد أن وجه طفل لا يمكن أبداً أن يكون دميماً) ؛ ثم انني لا أحب أن أتكلم عن الكبار ، لأنهم يبعثون على الاشمئزاز ولا يستحقون الحب فحسب ، بل لأنهم ينمتعون من جهة أخرى بتعويض : فهم قد أكلوا تفاحة شجرة المعرفة وأصبحوا « شبيهين بالآلهة » ، وما يزالون يأكلون منها ... أما الأطفال فانهم لما يذوقوا تلك الثمرة ، فبراءتهم ما تزال سليمة لم يمسهها سوء • هل تحب الأطفال يا أليوشا ؟ أحسب أنني أعلم أنك تحبهم ، ولسوف تفهم اذن لماذا لن أحدثك الا عنهم • اذا اتفق للأطفال أن يتألموا ألماً قاسياً في هذا العالم ، فذلك لا يمكن الا أن يكون بذنب آباءهم الذين أكلوا التفاحة ، ومن أجل أن يكفروا عن تلك الخطيئة • ألا ان هذا فهم ليس من هذا العالم ، وسيظل قلب الانسان على هذه الأرض عاجزاً عن ادراكه • ان من الظلم أن يُعذَّب أبرياء - أبرياء الى هذه الدرجة من البراءة - لذنوب اقترفه غيرهم • أنا أيضا أحب الأطفال كثيرا يا أليوشا ، تخيل هذا ... سجل هذا ! ان القساة الضواري أصحاب الأهواء الجامحة ، من

أمثال آل كارامازوف ، كثيرا ما يحبون الأطفال • فالأطفال يختلفون عن الكبار اختلافاً عظيماً ما ظلوا صغاراً لما يتجاوزوا السابعة من أعمارهم ، حتى لكنهم ينتمون الى نوع آخر لأن طبيعتهم ليست كطبيعتنا • اننى أعرف حالة لص من اللصوص كان سجيناً فى أحد السجون • لقد اتفق لهذا اللص أثناء حياته أن قتل أسراً بكاملها فى المنازل التى تسلك اليها ليلاً ليسرقها ، فلم يوفر الأطفال ... ومع ذلك استبدت بهذا الرجل أثناء وجوده فى السجن عاطفة قوية نحو الصغار ، فكان يقضى وقته ناظراً من خلال الكوة الى الصبية يلهون ويتسلون فى ساحة السجن ، واستطاع أخيراً أن يكسب مودة واحد منهم ، فكان هذا يجيء يتحدث معه بغير تخلف واقفاً تحت الكوة ... لا شك فى أنك تتساءل يا أليوشا لماذا أقص عليك هذا كله ؟ ان بى صداعاً ، وهأنذا أشعر بحزن شديد على حين فجأة •

قال أليوشا قلقاً :

— انك تتكلم بطريقة عجيبة غريبة ، كأنك لا تملك وعيك كله •
وتابع ايفان كلامه يقول وكأنه لم يسمع ملاحظة أخيه :

— بالمناسبة ... لقد قصَّ علىَّ بلغارى" فى الآونة الأخيرة بموسكو أن الأتراك والشراكسة يعمدون فى بلاده بلغاريا الى أنواع شديدة من القسوة بنية ارباب الشعوب السلافية التى يخشون أن تثور عليهم ثورة عامة شاملة • فهم يحرقون القرى ، وينهبون الأرزاق ، ويذبحون السكان ، ويتهكون النساء والأطفال ، ويسمّرون بعض السجناء من آذانهم بسياج فيدعونهم هنالك طول الليل ثم يمدون اليهم فى الصباح ليشنقوهم • أمور تفوق الخيال • يقال أحياناً ان الانسان « حيوان كاسر » • ألا ان فى هذا القول اهانةً للحيوانات لا داعى اليها : فالحيوانات لا تبلغ مبلغ البشر فى

القسوة أبداً ، وهى لا تتفنن فى قسوتها تفنن الانسان . النمر يكتفى
بتمزيق فريسته والتهامها . انه لا يمضى الى أبعد من ذلك ، ولا يخطر
بباله يوماً أن يسمّر أحداً من أذنيه بسيّاح ، ولو قدر على ذلك . وأولئك
الأتراك يتسلّون خاصةً بتعذيب الأطفال تعذيباً سادياً . انهم ينزعون
بالسيف صغاراً من أحضان أمهاتهم ويرمونهم من النوافذ فيتلقفهم فى
الفناء أتراك آخرون بأسنة الرماح على مرأى من أمهاتهم اللواتى يعدنّ
حضورهن أهمّ عنصر من عناصر هذه المتعة . ولقد حفظت ذاكرتى على
الخصوص مشهداً وُصف لى : أمٌ ترتجف جزعاً وهلعاً وفى يديها
طفل صغير ؛ وأتراك يحيطون بها ويتخللون لعبةً صغيرة . انهم يلعبون
وجه الطفل ويلطفونه ويسلّونه ويضحكونه . والطفل سعيد فها هو ذا
يمد اليهم ذراعيه . وفى تلك اللحظة يصوّب اليه أحد الأتراك مسدسه ،
فينفجر الطفل ضاحكاً ، ويمد يديه الصغيرتين ليتناول المسدس ، فيضغط
الفنان عندئذ على الزناد فينطلق الرصاص ويهشّم جمجمة الصبي ...
أليس هذا فناً فى الواقع ؟ يظهر أن الأتراك يحبون الحلوى ...

— أخى ، الى ماذا تريد أن تنتهى ؟

— أعتقد أنه اذا لم يكن الشيطان موجوداً ، واذا كان الانسان قد
خلقه ، فلا شك فى أن الانسان قد خلقه على صورته هو .

— كما خلق الله اذن ؟

— انك تجيد قلب الألفاظ كما يقول بولونيوس فى « هملت » .

كذلك قال ايفان ضاحكاً ، وتابع كلامه يقول :

— هذه حرب شريفة ، وأنا أقبلها . ألا فاعترف مع ذلك أنه جميل
الهك اذا كان الانسان قد خلقه على صورته . لقد سألتنى الى أين أريد

أن أنتهى ؟ اننى امرؤ يجمع وقائع شتى يقتطفها مصادفةً من الجرائد أو من أحاديث الناس ثم يدونها على الفور • تخيل هذا • لقد جمعت منذ الآن حصداً كبيراً من هذه الوقائع • والأترك يحتلون فى هذه الوقائع مكاناً كبيراً بطبيعة الحال ، ولكن الأترك أجنب • وأنا أملك كذلك وقائع كثيرة عن حالات روسية صرفة تفوق حتى وقائع البلاد الأخرى • فى بلادنا روسيا انما يُعمد خاصةً الى السوط والعصا ••• هذا اخصاص قومى لنا ان صح التعبير • نحن لا نسمّر الناس من آذانهم ، لأننا أوروبيون رغم كل شيء • ولكننا فى مقابل ذلك نملك السياط والعصى ، وما من أحد يستطيع أن ينتزعها منا • يظهر أن الناس فى البلاد الأجنبية قد عدلت عن هذه الأساليب • فاما أن العادات هنالك أصبحت أقرب الى اللين ، واما أن القوانين النافذة هنالك أصبحت لا تجيز للانسان أن يجلد أخاه الانسان • على أن الانسان قد وجد هنالك ما يعوّض به ما افتقده تعويضاً يتصف كذلك بطابع قومى خاص فيبدو للوهلة الأولى مستحيلاً فى بلادنا • على أن هنالك علامات تدل ، والحق يقال ، على أن أساليب التعويض هذه قد أخذت تتسرب الى روسيا منذ زمن ، ولا سيما بفضل الحركة الدينية التى تنتشر فى الآفاق العليا من مجتمعنا • ان عندى نشرة شائعة* مترجمة عن الفرنسية تروى قصة اعدام مجرم فى مدينة جنيف هو قاتل شاب اسمه ريشار فى الثالثة والعشرين من عمره ، فيما أظن ، قد ندم على فعلته واعتنق المسيحية قبل أن يصعد الى المقصلة • ان الواقعة حديثة قد وقعت منذ حوالى خمس سنين • وريشار هذا زعيم كان أبواه قد « أهدياه » وهو فى السادسة من عمره الى رعاة جبليين ربّوه بنية أن يعمل لهم بعد ذلك • شبّ الصبى كحيوان صغير متوحش • والرعاة الذين تبّوه لم يعلموه شيئاً ، وأرسلوه يحرس القطعان منذ بلغ السنة السابعة من عمره دون أن يلبسوه ودون أن يطعموه تقريباً ، وذلك فى

جميع الفصول والأجواء • وكانوا يعاملونه هذه المعاملة دون أن يشعروا ضميرهم بأن عذاب ، لأن الصبي كان قد « أُهدى » اليهم كما يُهدى شيء من الأشياء ، فهم لذلك لا يعتقدون أن من واجبهم أن يطعموه كما يجب أن يطعموه لقاء ما يقوم به من عمل • وقد روى ريشار هذا أمام المحكمة أنه كان يتفق له خلال هذه السنين (كالابن الضال الذي يحدثنا عنه الانجيل) أن يشتهى أن يأكل ثمار الخروب التي كانت تُعلف بها الخنازير السمينة للبيع • ولكن لم يكن يُسمح له بذلك ، وكان يُضرب اذا سرق بعضها من المذود • هكذا عاش ريشار سنى طفولته وشبابه الى الساعة التي شب فيها عن الطوق وشعر بأنه أصبح قوياً ، فترك الرعاة وأخذ يسرق • وأصبح هذا المتوحش يجنى رزقه فى جنيف من العمل بأجر يومية ، ولكنه كان ينفق ما يجنيه فى السكر ويعيش حياة كريهة مستهجنة • وانتهى به الأمر الى قتل رجل عجوز فى سبيل أن يسلبه ما معه • وقد اعتقل وحوكم وحكم عليه بالاعدام • ان الناس ليسوا عاطفين فى البلاد الأجنبية • وسرعان ما وجد نفسه فى السجن محاطاً بقسيس بروتستانتي وأعضاء جمعيات دينية مختلفة وسيدات من مثرسات الأعمال الخيرية ، الخ ؟ فاذا هو أثناء مدة اعتقاله يُعلّم القراءة والكتابة ويُفسّر له الانجيل ويوعظ ، ويُردّ الى الصواب ، ويُلّام ويُقرّع ، ويؤنب ويوبخ ، وتُشرح له العقيدة ويُلقنّ تعاليم المسيحية ، فاذا هو يعلن جهاراً فى ذات يوم أنه نادم على فعلته وأنه تاب وأتاب • وقد وجه الى المحكمة رسالة يصف فيها نفسه بأنه كان شيطاناً رجيماً ، وأضاف الى ذلك قوله ان الرب قد أدركه أخيراً برحمته فهداه الى الحق وأتم عليه نعمته • وقد اهتزت المدينة كلها للأمر ، فاذا جنيف الفاضلة العاقلة الحكيمة تغلى وتنفور ، واذا جميع الناس فى المجتمع الراقى ، اذا جميع « الأخيار » يريدون أن يزوروه فى سجنه : حضنوه وعانقوه وقبلوه ، وقالوا له :

« أنت أخونا وقد أدركتك نعمة الله » ، فكان ريشار يبكي حنانا ويكرر قوله : « نعم لقد أدركتني نعمة الله • كنت أثناء طفولتي وشبابي أحسد الخنازير على طعامها ، وها هو ذا الرب يرسل اليّ الآن نعمته • سأموت في صلح مع الله » ؛ فيجيبه الآخرون : « نعم ما تقول يا ريشار ، ستموت متصالحاً مع الرب • لقد سفتحت دماً فيجب أن تموت • صحيح أنك لم تكن مذنباً إذ جهلت الله أيامَ كنت تحسد الخنازير على علفها وأيام كنت تُضرب إذا أنت سرقت بعض هذا العلف من مذودها (وأنت مخطئ ، في ذلك على كل حال لأن السرقة حرام) ، ولكنك سمكت دماً فلا بد أن تموت • • وحان اليوم الأخير • فكان ريشار ، وقد ضعف ضعفاً شديداً ، ما ينفك يردد بغير كلال ولا ملال : « هذا أسعد يوم في حياتي ، فاني ذاهب الى ملكوت الرب » ، وكان القسس والقضاة والسيدات رئيسات الجمعيات الخيرية يرددون بعده متنافسين : « نعم نعم • • • هذا أسعد يوم في حياتك ، لأنك ذاهب الى ملكوت الرب ! » • وقد رافق هذا الجهمور ريشار الى المقصلة ، فبعضهم يتبع عربة العار التي تقل الجاني راكباً وبعضهم يتبعها سائراً • ووقف الجميع أمام المقصلة ، وأخذ الصياح يتعالى من كل مكان قائلاً : « مت أيها الأخ ، مت في صلح مع الله ، لأن نعمة الله قد أدركتك • • » ودُفع ريشار الى المقصلة تغمره القبلات ، وأُضجع عليها ، وقطع رأسه قطعاً أخوياً جداً لأن نعمة الله قد أدركته • أليس هذا شيئاً يتميز بطابع خاص ؟ لقد تُرجمت هذه النشرة عن اللغة الفرنسية • • • ترجمها أشخاص ينتمون الى الأوساط اللوثرية والجمعيات الخيرية من أعلى طبقات المجتمع الروسي ، وأرسلوا منها أعداداً ضخمة الى جميع الصحف لتوزع مجاناً في سبيل تثقيف شعبنا •

« ان حالة ريشار هذا شائقة بما تتصف به من طابع قومي • فنحن في بلادنا ، والحق يقال ، لا نقطع رأس رجل * لأنه أصبح أخانا ولأن

نعمه الله قد أدركته • ولكنَّ عندنا شيئاً لا بأس به هو أيضاً • نحن في روسيا نضرب ضرباً قاسياً مبرحاً ، وقد أصبح هذا نوعاً من تقليد تاريخي ومتعة مألوفة طبيعية مشروعه • لقد صوّر نكراسوف ، في إحدى قصائده ، شقاء حصان كان فلاح من الفلاحين يضربه بالسوط على العينين ، على «عينيه الوديعتين» * •• من ذا الذي لم يشهد في يوم من الأيام منظرًا كهذا المنظر الشائع كثيرا ، الروسى جدا ان جاز التعبير ؟ ان ذلك الحيوان المسكين الضعيف الذي كان يجبر عربة مثقلة بأحمال فوق طاقه قد سقط في الوحل ثم لم يستطع أن يتخلص منه • فأخذ الفلاح يضربه ثم يضربه ••• وبلغ من شدة حنقه وهو يرفع سوطه في الهواء ويهوى به على الحيوان أنه أصبح لا يشعر بما يفعل ، فهو فيما هو فيه من سكر وحشي بضراوته المستيقظة يضاعف ضرباته بمزيد من القسوة قائلا : « أصبحت لا تقوى على جر العربة ، ولكنك ستجرها رغم أنفك ••• سأجبرك على ذلك اجبارا أيها الحيوان القدير • مت ان شئت ، ولكن عليك أن تجر العربة ! » • وأخذ الحيوان يتخبط ، فما كان من الفلاح وقد استبد به غضب أعمى الا أن أخذ يجلده على عينيه اللتين تتضرعان طالبتين الرأفة والرحمة ••• على « عينيه الوديعتين » العزلاوين اللتين لا تملكان ما تدفعان به عن نفسيهما الأذى • واستطاع الحيوان بوثة مستميتة فصوى أن يتخلص من سقطته فيقف على قوائمه فيستأنف سيره مرتعشاً مجللاً بالخزي والعار ، لا يكاد يستطع أن يتنفس ، يتقدم بخطى متقطعة مقهورة تبعث الشفقة في القلب • ان أشعار نكراسوف هذه تحدث في النفس أثراً رهيباً • والأمر مع ذلك أمر حيوان ، ونحن نعلم ان الرب قد وهب لنا الحيوانات لنضربها ، أو هذا على الأقل ماتعلمناه من التتر الذين أورثونا السوط هدية تذكرونا بهم • ولكن البشر يُضربون أيضاً • اننى أعرف حالة سيد مرموق مثقف تعاون مع زوجته في ضرب ابنته الصغيرة وهي

طفلة فى السابعة من عمرها * . لقد دوت الواقعة بجميع تفاصيلها . كان للعصى أشواك ، فسّر الأب من ذلك أعظم السرور . قال : « لتشعرن بالعقوبة شعوراً أقوى » . . . وأخذ يضرب ابنته . هناك أشخاص - وأنا أعلم ذلك علم اليقين - يسكرون من الضربات التى يكيلونها ، ويلغنون من النشوة بها حدّ اللذة الجسدية ويتمتعون بالضرب تمتعاً وحشياً متزايداً . ضربت الصبية دقيقة ، فخمس دقائق ، فعشر دقائق ، ضرباً ما ينفك يزداد قوة وضراوة . والصبية تصرخ وتبكي ، ثم تقول مختنقة الصوت بدموعها : « بابا ، بابا ، بابا الحبيب ! » . وبمصادفة شيطانية غير لائقة ، رفعت القضية الى المحكمة . واستعان الأبوان بمحام . ان الشعب يقول منذ زمن طويل : « المحامى ضمير يؤجر نفسه » . وأخذ المحامى يصيح قائلاً أمام المحكمة : « أب أدّب ابنته . فما هذا الا حادث مبتذل شائع من حوادث الحياة العائلية . ومن عار هذا العصر الذى نعيش فيه أنه ظن أن هذه قضية يجب أن ترفع الى المحكمة ! » . وقد تأثر المحلفون أشد التأثير بأقوال المحامى ، فمضوا يتداولون فى الأمر ، ثم عادوا يعلنون حكمهم بالبراءة . وضحّ الجمهور فرحاً حين سمع الحكم ببراءة الجلاد . اننى لم أشهد المحاكمة ، والا لاقترح انشاء صندوق اعانة ، تكريماً لهذا الأب الجلاد ! هذه لوحة جميلة يا أليوشا ، غير أننى أملك لوجات أخرى ربما كانت أجمل منها ، وهى تتعلق خاصة بالأطفال من الروس . اليك قصة بنية فى الخامسة من عمرها ، غضب منها أهلها ، وهم « أناس محترمون ، موظفون مثقفون ، نشأوا نشأة كريمة وأُحسنّت تربيتهم » . أوكد لك جازماً يا أليوشا أن هناك أناساً يشعرون بميل خاص الى تعذيب الأطفال ، الأطفال وحدهم دون سواهم . ان هؤلاء الجلادين يهرنون فى تعاملهم مع سائر البشر على كثير من الدماعة والليونة ، كما يليق ذلك بأوروبيين متعلمين متورين . ولكنهم فى مقابل ذلك يجدون

لذة كبيرة فى تعذيب الأطفال ، مع حبهم لهم على طريقتهم الخاصة • ان
منظر هذه الكائنات الصغيرة العزلاء التى لا تحسن الدفاع عن نفسها ،
ولا تعرف كيف تشتكى ولا الى أين تلجأ ولا بماذا تعنصم ، مع ما تتصف
به هذه الكائنات من ثقة ملائكية ، يملك القدرة على ايقاظ القسوة الغريزية
فى نفوس أولئك الناس • لا شك أن فى قرارة كل انسان وحشاً نائماً ،
وحشاً ضارياً مسعوراً يلتذ بسماع صرخات ضحيته ، فينطلق عندئذ
انطلاقاً كاملاً بكل قسوته التى ضاعفها الفجور وضاعفها كل ما يولده
الفجور من أمراض كالنقرس والتهاب الكبد وما الى ذلك • ولنعد الى
أهل تلك البنية • لقد أنزل الأبوان المثقفان فى ابنتهما المسكينة أنواعاً من
التعذيب لا يتصورها الخيال • كانا يضربانها ويجلدانها ويدوسانها بدون
أى سبب ، حتى انههد جسم البنية المسكينة وامتلاً بقعاً زرقاء • وشيئاً فشيئاً
توصلا الى صور من القسوة فيها كثير من التفنن • من ذلك أنهما أثناء
الليالى الباردة كانا يجلسان الطفلة فى المرحاض ، بحجة أنها كانت
لا تطلب الخروج لقضاء حاجاتها فى حينها (كأن طفلاً فى الخامسة من
عمره يستطيع دائماً أن يستيقظ من نومه الهادى العميق فى الوقت
المناسب للذهاب الى المرحاض) ؟ وكانا يلطخان لها وجهها بغائطها نفسه
« لتعلمها » ، ويجبرانها على أن تبلع غائطها ، وكانت أمها ، أمها نفسها ،
هى التى تكرهها على ذلك • وكانت هذه الأم تستطيع أن تنام بعدئذ نوماً
هادئاً دون أن تهزها صرخات طفلتها السجينة فى ذلك المكان الموبوء !
فهل تستطيع أن تتخيل يا أليوشا ذلك الكائن الصغير الذى ما يزال عاجزاً
عن أن يفهم ما يجرى له ، هل يستطيع أن تتخيله لاطماً صدره المختق
بيديه الصغيرتين فى غياهب الظلام والبرد ضارعاً الى « الرب الرحيم »
بدموع شقية بريئة أن يحميه ؟ هل يستطيع أن تفهم علة وجود عالم
سخيف هذا السخف ، باطل هذا البطلان ، مستحيل هذه الاستحالة • •

قل لى يا صديقى ويا أخى ... هل تستطيع أن تدرك علة وجود هذا العالم أنت يا من تنهياً لأن تكون راهباً ينذر حياته للرب تقياً متعبداً ؟ يزعم بعضهم أن الوجود على هذه الأرض لا يمكن تصوّره خالياً من الألم ومن الظلم للذين يستطيعان وحدهما أن يهبأ للإنسان معرفة الخير والشر ! ألا بسّست تلك المعرفة اذا كان ثمنها هذا الثمن ! ان كل ما فى العالم من علم لا يكفى للتكفير عن دموع تلك الطفلة التى تتوسل الى « الرب الرحيم » أن ينجدها . لن أقول شيئاً عن الآلام التى يعانىها الكبار . فان الكبار قد أكلوا الثمرة المحرّمة ، فليجنوا جزاء ما فعلوا ، وليأخذهم الشيطان جميعاً اذا كان الشيطان ما يزال يلوى عليهم ويهيم بأمرهم ... أما الأطفال ، أما الصغار الأبرياء ، فما ذنبهم ؟ ألاحظ أنتى أعذبك بهذا الحديث يا أليوشا . ان فى وجهك حزناً وشقاء . سأمسك عن الكلام ان شئت » .

تمتم أليوشا يقول :

— لا ... انتى أحب أن أتألم أنا أيضا .

— لن أقصّ عليك الا قصة واحدة أخرى ، لأنها شائقة جداً ، ولأنها تتسم بطابع مميّز حقا . لقد قرأتها منذ زمن قصير فى مجلة « السجل الروسى » أو مجلة « الماضى الروسى » * ، لا أدرى على وجه الدقة ... يجب التحقق من ذلك ... لقد وقعت هذه القصة فى أحلك عهود الرق عند بداية هذا القرن . عاش محرر الشعب * ! كان يعيش فى ذلك الزمان جنرال له علاقات رفيعة ويملك أطيافاً واسعة . هو واحد من أولئك الرجال (وقد أصبحوا قلة قليلة نادرة حتى فى ذلك الزمان) الذين يعتقدون حين يُحالون على التقاعد أنهم بما قدموا للدولة من خدمات قد أصبح لهم على أقدانهم حق الحياة والموت . لقد وجد أمثال

هؤلاء الرجال فى الماضى • كان ذلك الجنرال يعيش فى أراضيه التى يعمرها ألفان من الأبقان • وكان يصطنع الأبهة والعظمة ، وينظر نظرة استعلاء الى جيرانه المتواضعين ، متظاهراً بأنه يعدهم مهرتجين أو طفيليين • وكان يملك بضعة مئات من كلاب الصيد لها ما يقرب من مائة خادم يجرون وراءها على خيولهم ، لابسين زياً واحداً • وفى ذات يوم كان قن صغير هو صبى فى الثامنة من عمره يتسلى برمى الأحجار • فاذا هو يصيب باحداها الكلب الأثير لدى الجنرال ، سهواً وغفلة • وسأل الجنرال مستظلاً : « لماذا يعرج هذا الكلب الذى هو خير كلابى ؟ » فقيل له انه قد جرح بحصى رماها ذلك الصبى • قال الجنرال وهو يتفرس فى الصبى : « أنت السبب اذن ؟ » • ثم أضاف : « احبسوه ! » • انتزع الصبى من أمه ، وألقى فى زنزانة مظلمة ضيقة لبث فيها طول الليل • وفى ساعة مبكرة من صباح الغد تهيأ الجنرال للذهاب الى الصيد فى احتفال عظيم • انه يمتطى صهوة جواده وقد أحاط به طفيليوه وكلايه وخدمه الذين يجرون وراء الكلاب يطاردون الفرائس ، وقد امتطوا صهوات خيولهم جميعاً • وأمر الجنرال بجمع الخدم فى الحوش لتلقينهم درساً ، وجعلت أم الصبى الجانى فى أول صف من صفوفهم • وأُخرج الصبى من زنزانه • كان ذلك فى صباح كالح بارد يملؤه الضباب من أصباح الخريف ، صباح يبشر بصيد وافر • وأمر الجنرال بأن تُخلع عن الصغير ثيابه فخلعت حتى صار عارياً كل العرى • ان الصبى يرتعش مصفراً من الخوف ، ولا يجرؤ أن يفتح فاه ••• قال الجنرال آمراً : « اجعلوه يركض » ، فأخذ المطاردون يدفعون الصبى قائلين له : « اركض ، اركض » ، فأطاع الصبى أمرهم وأخذ يركض ، فاذا بالجنرال يعول صائحاً : « عليه ! » مهيباً بكلايه أن تطارده ، فانطلقت الكلاب تمزق جسم الصبى على مرأى من أمه ••• أحسب أن الجنرال قد حُجر عليه بعدئذ •

فما رأيك ؟ أما كان يستحق أن يعدم رمياً بالرصاص ؟ ألم يكن من الضروري اعدامه تهديّة للضمير الأخلاقي ؟ هلاًّ أجبت يا أليوشا !

قال أليوشا بصوت خافت وهو يرفع عينيه نحو أخيه ويرسم على شفتيه المرتعشتين ابتسامة ضعيفة :

– نعم كان يجب رميه بالرصاص •

فصاح ايفان يقول بنوع من الحماسة :

– مرحى ! ما دمت تقر بذلك أنت نفسك ، فلا بد ••• هاه •••

يا لرسول المحبة ! ذلك هو الشيطان الذي تؤويه في قلبك يا أليوشا
كارامازوف !

قال أليوشا :

– لقد قلتُ سخفة ، ولكن •••

صاح ايفان :

– ولكن ••• هذا هو الأمر : « ولكن » ••• أليس كذلك ؟ ألا

فاعلم أيها الراهب المبتدئ أن السخافات لازمة لوجود هذا العالم • ان
الكون يقوم على سخافات بدونها قد لا يوجد شيء وقد لا يحدث شيء •
نحن نعلم ما نعلم !

– ماذا تعلم ؟

– لست أفهم شيئاً (كذلك استأنف ايفان كلامه قائلاً في هذيان) ،
ولقد أصبحت لا أريد الآن أن أفهم شيئاً • أريد أن أكتفى بالوقائع وأن
أقتصر عليها • لقد قررت منذ زمن طويل أن لا أحاول تأويلها • فلو
حاولت أن أفهم اذن لشوّهت الوقائع فوراً ، وأنا أحرص على أن أبقي
في الواقع لا أخرج منه •••

صاح أليوشا يقول بمرارة :

— لماذا تعذبني هذا التعذيب ؟ هلاًّ قلت لي أخيراً ...

— سأقول لك • ذلك ما كنت أريد الوصول اليه منذ البداية • أنت عزيز في نفسي يا أليوشا ، ولا أريد أن أتنازل عنك لصاحبك زوسيمما بدون كفاح •

قال ايفان ذلك وصمت لحظةً مظلمةً الوجه ، ثم أردف يقول :

— اصغ الى الآن • لقد اخترت لأمتلي أطفالاً حتى يكون برهاني أكثر اقناعاً • ولن أقول شيئاً عن سائر الدموع الانسانية التي تتبلل بها الأرض ، اننى أضيف موضوع مناقشتنا عامداً • ما أنا الا حشرة صغيرة من الحشرات • واني لأعترف ذليلاً كل الذل بعجزى عن فهم نظام هذا العالم • هل يجب أن نؤمن بأن البشر مسئولون وحدهم عن شرورهم ؟ لقد وُهب لهم الجنة ، ولكنهم آثروا أن ينالوا حريرتهم واحتفظوا النار من السماء وهم يعلمون سلفاً أنهم بذلك يجلبون لأنفسهم الشقاء ، فلا داعى اذن الى أن نشفق عليهم ونرثى لحالهم • ولكن عقلى ، عقلى المسكين الاقليدىسى الأراضى يؤكد لى ، على عكس ذلك ، أن العذاب موجود دون أن يكون هنالك مذنبون ، وأن جميع الأفعال الانسانية ينحدر بعضها من بعض بالضرورة ، وأن كل شيء ينقضى آخر الأمر ، وأن التوازن يقوم مرة أخرى من تلقاء نفسه • ذلك على الأقل وهم أنشأ عقلى الاقليدىسى ، أعرف هذا ... وأنا لا أقبل أن أحيا فى عالم كهذا العالم • فيم يهمنى أن أعلم أنه ليس هناك مذنبون ؟ اننى فى حاجة الى عدل ، والا دمرت نفسي • وهذا العدل الذى أطالب به ، أنا لا أريده فى « لا نهاية » لا يمكن الوصول اليها ، وفى « أبدية » تفوقى ، وانما أنا أريد أن أراه على هذه الأرض ، أن أراه بعينى • لقد آمنت ، وأريد أن

أشهد انتصار الحقيقة ! فاذا كنت ميتاً ساعة انتصارها فلا بُدَّ من حياة !
لسوف يسيء الى كثير أن يتحقق هذا المجد للانسان في غيابه . هل
تأملت أنا من أجل أن أمهّد الطريق بخطاياي وآلامي لانسجام مقبل لن
ينتفع به الا آخرون ؟ اننى أريد أن أرى الوعلة بعينى مستلقية أمام
الأسد في هدوء وسلام ، وأن أرى الضحية مرتدة الى الحياة تعانق
قاتلها . أريد أن أكون حاضراً حين ينكشف سرُّ هذا العالم للجميع .
ان هذا الانتظار هو القاعدة التى تقوم عليها جميع الأديان ، وأنا امرؤ
مؤمن . ولكن الأطفال ... ما ذنب الأطفال ؟ كيف نسوّع عذاب
الاطفال ؟ تلك مشكلة لا أجِد الى حلها سبيلاً . أعود فأقول لك للمرة
المائة : ان هناك فى هذا العالم مشكلات كثيرة ، ولكنى اخترت هذه
المشكلة ، مشكلة الاطفال ، لأنها تتيح لى أن أُعبّر عما يشغل بالى ويقض
مضجى تعبيراً أوضح . قل لى : اذا كان على البشر أن يتألموا من أجل
أن يمهّدوا بالمهم لانسجام الكلى ، فلماذا يجب أن يتألم الأطفال أيضا ؟
لماذا حبس الأطفال فى هذه الدائرة ، لماذا يجب عليهم هم أيضا أن
يساهموا فى الانسجام بعذابهم ؟ ذلك أمر لا سبيل الى فهمه اطلاقاً . ماذا
جنوا حتى يُجرّوا فى هذه الزوبعة ؟ قد أُسلم عند الاقتضاء بتضامن
البشر فى الخطيئة وتضامنهم فى التكفير عنها ولكن الأطفال لم يشاركوا فى
الخطيئة فإن قيل انهم يحملون فى أجسادهم خطايا آبائهم وانهم
متضامنون اذن مع آبائهم فى هذه الخطايا قلت : هذه حقيقة لن تكون من
هذا العالم على كل حال ولا يمكن أن يدركها عقل ! ربّ ما زح خبيث
يعترض بقوله ان الطفل سيشتد ساعده وسيقارف الخطيئة متى حان
الوقت ولكننى أقول ان ذلك الصبى الذى ما يزال فى الثامنة من عمره
لما يشتد ساعده بعدُ وقد مزقه الكلاب ! آه يا أليوشا هيهات أن يكون فى
نيتى أن أجدّف . اننى أتخيل كيف سيتهلل الكون فرحاً حين ستدوى

أصوات السماء والأرض جميعاً منشدة للخالق نشيد الشكر معاً وحين
سيهتف جميع الأحياء وجميع من كانوا أحياء قائلين : « أنت على حق
يا رب وقد فهمنا طريقك ! » • سوف تعانق الأم عندئذ الجلاّد الذي أمر
الكلاب بتمزيق ابنها وسوف يقول الثلاثة عندئذ من خلال دموع الحنان
أنت على حق يا رب • ستعجلى عندئذ جميع الأسرار وسيكون ذلك اليوم
يوم تمجيد المعرفة • ولكن ذلك بعينه هو العقدة لأننى لا أقبل هذا الحل
للغز وأنا أسارع الى اتخاذ اجراءات ما زلت فى هذا العالم • قد يحدث
يا اليوشا حين أشهد ذلك الانتصار النهائي للحقيقة وحين أبعث حياً
لأشهد ذلك الانتصار أن أصبح أنا أيضاً مع الجميع اذ أرى الأم والجلاّد
والطفل يتعانقون ويتصالحون : « أنت على حق يا رب ! » • ولكننى
لا أريد أن أفعل ذلك وأحرص على أن أحمى نفسى سلفاً من ذلك
الاستسلام ولهذا السبب ترانى أتنازل تنازلاً حاسماً عن الانسجام الأعلى •
ان هذا الانسجام لا يعدل فى رأى دمة واحدة من دموع ذلك الطفل
المعذب الذى كان يلطم صدره بقبضتى يديه فى مكان موبوء ويضرع الى
الله الرحيم من خلال دموعه التى لا يكفر عنها شئ • نعم ما من انسجام
مقبل سيكفر عن تلك الدموع ولا بد من التكفير عنها والا فلا يمكن أن
يقوم انسجام ولكن بماذا يمكن التكفير عنها ؟ ما الذى يمكن أن يمحوها ؟
أهو القصص الذى سينزل بالجاني ؟ فما قيمة هذا القصص ؟ فيم يهمنى
هذا القصص ؟ اننى لا أريده ! اننى لا أطلب بتعذيب الجلاّدين فى الجحيم •
ان جهنم لن تغير من الامر شيئاً ولن تنفى أن الطفل قد عذب • وأين
عسى أن يكون الانسجام اذا كان ثمة جحيم ؟ اننى أحب أن أغفر وأن
أصالح • اننى أتمنى أن لا يبقى فى الكون عذاب • فاذا كانت دموع
الأطفال أمراً لا بد منه ولا غنى عنه لاكمال مقدار الألم الذى سيكون
دية للحقيقة فانى أعلن جازماً أن الحقيقة لا تستحق أن يدفع ثمنها باهظاً

الى هذا الحد اننى لا أريد أن تصالح الأم الجلود الذى أمر كلابه بتمزيق جسد ابنها • ليس من حضها أن تغفر له • لها أن تتغاضى عن ألمها هى ، عن عذاب الأم العظيم الذى قاسته ، لها أن لا تحقد على الجانى اذا شاءت ولكن ليس لها أن تعفو عن التعذيب الذى نال ابنها حتى ولو عفا عنه ابنها • فاذا كان الامر كذلك ، اذا لم يكن من حق الضحايا أن تغفر فأين أين الانسجام ؟ قل لى : أين الانسجام ؟ هل فى الكون فرد يجب عليه ويحق له أن يغفر ؟ اننى لا أريد هذا الانسجام بل أرفضه حباً بالانسانية • اننى أفضل أن تبقى آلام هذا العالم بغير تكفير • اننى أؤثر أن يظل ألمى بغير فدية وأن يظل استيائى متأججاً بغير ارتواء ولو كنت على خطأ • ان الثمن المطلوب للانسجام باهظ جدا وهو فوق ما نطيق أن ندفع من ثمن ان بطاقة الدخول غالية مسرفة فى الغلاء • لذلك أسارع فأردُّ بطاقتى • اننى أشعر بأن علىَّ أن أردّها بأقصى سرعة لأننى انسان شريف وذلك ما أفعله • اننى لا أجد الرب يا أليوشا وانما أقنصر على أن أعيد اليه بطاقتى بكثير من الاحترام •

قال أليوشا بصوت رقيق وهو يخفض عينيه :

— هذا عصيان •

فقال ايفان بلهجة نافذة مؤثرة :

— عصيان ؟ لا أحب أن تحكم علىَّ هذا الحكم • ان من المستحيل على المرء أن يجيأ فى العصيان ، وأنا امرؤ يحرص على أن يجيأ • أجبني عن سؤال أليوشا ولكن أجبني بصراحة • فأننى أحرص على جواب صريح عن هذا السؤال : لو كنت مهندس المصائر الانسانية وأحييت أن تبني عالماً تجد فيه الانسانية السعادة والهدوء والأمن أخيراً أفتشرع فى هذا العمل اذا علمت أنه لن يتحقق الا اذا كان العذاب ثمنه ولو لم يكن الا

عذاب انسان واحد صغير برىء هو مثلاً تلك الطفلة التى كانت تلطم صدرها بقبضتى يديها ؟ لو كن البناء لا يمكن أن يقوم الا على تلك الدموع التى لا فدية لها تذرّفها تلك البنية الصغيرة ، لو كان ذلك ضرورة لا مناص منها ولا يمكن أن يتحقق الهدف بدونها أفتظن توافق على أن تكون مهندس الكون فى تلك الشروط ؟

أجاب اليوشا بصوت جازم :

— لا ... لا أوافق •

— وهل فى وسعك أن تسلم عدا ذلك بأن يقبل البشر الذين تبنى لهم هذا العالم أن يصبحوا سعداء على حساب آلام ودماء طفل برىء وأن يعرفوا السعادة الى الأبد بعد أن يقبلوا ذلك ؟

— لا ... لا أستطيع أن أسلم بهذا •

كذلك قال أليوشا ثم صاح يقول فجأة وقد سطمت عيناه :

— أخى لقد سألتنى منذ لحظة هل فى الكون كائن فى وسعه ومن حقه أن يغفر ؟ ان هذا الكائن موجود يستطيع أن يغفر كل شيء وأن يغفر لجميع الناس لأنه وهب هو نفسه دمه البرىء للإنسانية بأسرها لقد نسيته أنت وهو هو الذى يقوم عليه البناء كله وهو الذى يقع عليه أن يصيح : « أنت على حق يا رب فلقد أدركت طرقتك » •

— آه ... انك تتكلم عن « ذلك المبرأ وحده من الخطيئة وعن دمه ! لا يا اليوشا أنا ما نسيته وانه ليدهشنى أن تنتظر هذه المدة الطويلة قبل أن تستشهد به فأمالك فى العادة يُبرزون هذه الحجة منذ بداية المناقشة ، اسمع يا اليوشا هل تعلم أننى نظمت قصيدة فى ذات مرة ؟ لا تسخر منى لقد فعلت ذلك منذ سنة فاذا وافقت على أن تضع فى صحبتى بضع دقائق أخرى قلت لك هذه القصيدة •

- كتبت قصيدة ؟

- لا لم أكتبها (كذلك أجاب ايفان ضاحكاً) ولا كنت قادراً في يوم من الأيام على أن أُسطر بيتين من الشعر ولكننى تخيلت هذه القصيدة وحفظتها فى فكرى لقد تصورتها وأنا فى نوع من سورة النفس وستكون أنت أوّل قرائى أو قل أول المستمعين الىّ * ولماذا يجب على المؤلف أن يتنازل عن المستمع الوحيد الذى يملك أن يتسلو عليه ما ألف (كذلك أضاف ايفان مبتسماً) أقول القصيدة أم لا ؟

أجاب أليوشا :

- اننى أضعى اليك باهتمام وشوق *

- عنوان القصيدة « المفتش الكبير » * هى قصة خيالية ولكن يسرنى أن أقصها عليك *

المفاتيح الكبرى



ايفان كلامه يقول :

- لا بد من مقدمة • هذا من التقاليد الأدبية
(قال ايفان ذلك ضاحكاً) • ألسنت مؤلفاً أنا
أيضاً ؟ ان الأحداث تجري في القرن السادس
عشر • ولقد كان رائجاً في ذلك الزمان ادخال القوى السماوية في
القصائد ، كما لا بد أنك تعلمت ذلك في المدرسة • يكفي أن أذكرك،
حتى دون أن أستشهد بمثال دائني ، بأن رجال الدين والرهبان كانوا
يقدمون تمثيلات تظهر فيها العذراء والملائكة والقديسون ، ويظهر فيها
المسيح ، ويظهر فيها حتى الله نفسه • تمثيلات ساذجة • وقد وصف
فكتور هوجو في روايته « أحذب نوتردام » * تمثيلية أخلاقية مجانية منلت
للشعب في قاعة « الأوتيل دوفيل » في عهد لويس السادس عشر احتفالاً
بميلاد ابنه البكر ، وكان عنوان التمثيلية هو « الرأي الصائب للعذراء
مريم المقدسة المنعمة » ، وفيها نرى العذراء تظهر بنفسها لاصدار رأيها
الصائب وحكمها السديد • وعندنا في موسكو* ، قبل عهد بطرس الأكبر،
كانت أسرار من هذا النوع تُمثل من حين الى حين ، وكانت تُستوحى
من التوراة خاصة • وعدا هذه التمثيلات ، فقد انتشرت في العالم طائفة
من الأقاصيص أو القصائد يظهر فيها القديسون وتظهر فيها الملائكة
والقوى السماوية الأخرى ، تبعاً للحاجات • وفي أديرتنا كانت تُترجم

وكانت تنسخ أشياء كثيرة ، بل لقد كانت تؤلف فصائد في بعض الأحيان ، حتى في عهد الاحتلال التتري . فكذلك على سبيل المثال ، احتفظ بقصيدة رهبانية (مترجمة عن اليونانية طبعا) عنوانها : « نزول العذراء الى الجحيم » * ، مليئة بلوحات تكاد تبلغ في جراتها وجسارتها لوحات دانتى . ففي تلك القصيدة تذهب العذراء الى المعذنين في الجحيم يقودها رئيس الملائكة ميخائيل ، فتراهم وترى ما يقاسون من عذاب أليم ، وترى بينهم على وجه الخصوص طائفة عجيبية من الخطاة تتخبط في بحيرة مشتعلة ، فالذين يغوصون في هذه البحيرة منهم لا يرجعون بعد ذلك الى سطحها قط ، ويقال عنهم « ان الله قد نسيهم » ، وذلك تعبير عميق زاهر بالقوة ؛ وقد استبدت بالعذراء شفقة قوية ، فسقطت بكية أمام عرش الرب تضرع اليه أن يعفو عن معذبي الجحيم ، وأن يغفر لهم جميعا بغير تمييز . ان حديثها مع الرب شائق جدا ، فهي تضرع اليه وتلج وتأبى أن تنصرف ، فاذا أوماً الرب الى قدمي ويدي ابنها المثقوبة بالمسامير وسألها : « كيف أعفو عن هؤلاء الجلادين » ، أمرت جميع القديسين والشهداء والملائكة أن يركعوا معها وأن يسألوا العفو عن جميع الخطاة بغير استثناء . واستطاعت أخيرا أن تحصل على أن ينقطع عذاب جهنم كل سنة بين الجمعة الحزينة وعيد الخمسين ، وأن يسارع المعذبون عندئذ الى أن يشهدوا من قراءة الجحيم نشيد العرفان بالجميل : « أنت على حق يا رب ، وعادل حُكْمُكَ . » .

ان قصيدتي أنا كان يمكن أن تكون من هذا النوع لو أنني عشت في ذلك العصر . ان الرب يظهر في قصتي ، ولكنه لا ينطق بكلمة واحدة ، ولا يزيد على أن يجتاز المسرح . لقد انقضت خمسة عشر قرنا منذ أن وعد بأن يعود الى مملكته ، منذ أن كتب رسوله : « سأعود قريبا » * . أما اليوم والساعة فان الابن نفسه لا يعرفهما ، وانما يعرفهما

أبى الذى فى السموات » ، على حد الأقوال التى نطق بها هو نفسه أثناء مروره بالارض • ولكن الانسانية ما تزال تنتظره بايمان واحد وحماسة لم تتغير ، بل ان الايمان قد قوى واشتد ، لأن خمسة عشر قرنا قد انقضت منذ أن كفت السموات عن بذل ضمانات للبشر •

صدق صوت قلبك ايها الانسان

ان السموات لا تبدل ضمانات * *

فلا قيمة بعد الآن الا ليقين القلب دليلا وبرهانا • صحيح أن المعجزات كانت كثيرة فى ذلك العصر • فلقد كان هنالك قديسون يهتدون المرضى بمعجزات فوق الطبيعة ، واذا صدق ما يروى فى سير بعض الصالحين ، فإن ملكة السموات قد ظهرت لهم بشخصها • ولكن الشيطان لم ينم ، وأخذت الانسانية تشك فى صدق هذه المعجزات • وظهرت عندئذ هرطقة رهيبة فى شمال ألمانيا * فاذا بكوكب كبير « شبيه بشعلة (هو الكنيسة طبعاً) يسقط على نبع المياه فتصبح المياه مرة » • لقد كان أولئك المجدفون الهراطقة ينكرون المعجزات • فازداد ايمان المؤمنين ، واشتدت حماسهم • وأخذت الانسانية ترفع أعينها الدامعة الى الرب منتظرة مجيئه ، محبة اياه بقلب حار ، مؤمنة فيه ، ظامنة الى التآلم من أجله والموت فى سبيله ، كما حدث فى الماضى ••• ان صلوات البشر ترتفع الى السموات حارة منذ قرون طويلة قائمة له : « تفضل بالمجيء إلينا يا رب » ، لذلك أراد الرب برحمته الواسعة ، أن يعود الى أولئك الذين يضرعون اليه هذه الضراعة • لقد ظهر حتى ذلك الحين لبعض الصالحين والشهداء والقديسين النساك كما تروى سيرة حياتهم • وفى بلادنا روسيا تغنى الشاعر تبوتشيف به فى هذه الأبيات (وكان يؤمن ايماناً عميقاً بما يقول) :

ايتها الأرض التي ولد فيك ملك السموات *
لقد طاف في كل جهة من جهاتك في صورة عبد ،
منحنياً تحت ثقل صليبيه ،
يهب لك بركته الواسعة •

ذلك كله صحيح ، أؤكد لك • لقد قرر الرب أن يظهر في هذه
المرّة لا لأفراد من القديسين ، بل للشعب بأسره ، لجمهرة الناس المغمورين
الذين يتألمون في خطاياهم وعارهم ولكنهم يحبونه بقلب ساذج كقلب
الأطفال • الأحداث تجري في اسبانيا ، بمدينة اشيلية ، في أحلك عهود
« التفتيش » ، أيام كانت أكوام الحطب تشتعل لاحتراق المتهمين كل يوم
في جميع أرجاء اسبانيا تمجيذا للرب * :

في نيران رائعة *

كان يحرق الزنادقة الأشرار •

لم يكن يقصد في هذه المرّة أن يرجع الى الأرض ذلك الرجوع
الذي بشرت به الكتب الدينية حين قالت انه سيرجع في آخر الدهور ،
فيتجلى فجأة بكل مجده السماوى « كبرقٍ يسطع من الشرق الى الغرب »* .
فكل ما كان يريد هو أن يقضى بضغ لحظات عابرة بين أبنائه في تلك
الأماكن نفسها التي تزفر فيها النيران الموقدة لاحتراق الهراطقة • لقد
أراد بفعل من أفعال محبته الالهية أن يظهر للناس مرة أخرى في
الصورة الانسانية التي اتخذها قبل ذلك بخمسة عشر قرناً أثناء حياته
الأرضية التي دامت ثلاثة وثلاثين عاماً • فهكذا نزل الى الشوارع الملتهبة
من المدينة الجنوبية التي تم فيها أمس ، بأمر الكاردينال ، المفتش الكبير ،
احتراق مائة من الزنادقة ، تمجيداً لله ، بمعاونة الأهالى وحضور الملك
ورجال البلاط والفرسان وأمرأء الكنيسة والسيدات الحسنات وسائر

من يعدون ألمع أبناء المجتمع فى أسبيلية • وقد ظهر الرب خفية بدون
ضوضاء ، ولكن الامر الغريب هو أن جميع الناس سرعان ما عرفوه •
وها هنا مادة لأجمل أجزاء القصيدة : لماذا عرفه الناس جميعا ؟ لقد انجذب
اليه الجمهور بقوة لا تقاوم ، وأحاط به ، واحتشد حوله ، وتابع
خطواته • فسار هو بين الجمهور صامتا وهو يتسم ابتسامة عطف لانهاية
له • ان شمس المحبة تنقد فى قلبه ، ومن عينيه يشع الضياء وتنشع القوة
فينتشران فى المؤمنين ويشعلان المحبة فيهم • وهو يمد ذراعيه نحو
الشعب ليباركه • ان ملامسته ، وحتى ملامسة ثيابه ، تملك القدرة على
ابراء المرضى • فهذا شيخ من الجمهور ، أعمى منذ طفولته ، يهتف قائلا
على حين فجأة : « ردّ الىّ البصر يا رب حتى أستطيع أن أتأملك » فما
هى الا لحظة حتى سقطت الغشاوة عن عينيه ، فاذا هو يرى الرب • وبكى
الشعب تأثرا ، وأغرق بالقلبات الأرض التى مشى عليها • وأخذ الأطفال
يرمون الأزهار أمامه منشدين : « رحماك أنقذنا » • وتعالى الصيحات من
كل جانب تقول فى حماسة : « انه هو ، انه هو ، لا يمكن الا أن يكون
اياها • » • ووقف فى الساحة أمام كاتدرائية أسبيلية لحظة كان يؤتى الى
المعبد ، بين عبرات الحضور ، بتابوت أبيض صغير مفتوح يرقد فيه جثمان
بنيّة فى السابعة من عمرها هى البنت الوحيدة لرجل من عيون سكان
المدينة • ان الميتة مغطاة بالأزهار • صاح الجمهور يقول للأم المحزونة :
« سيحى لك ابنتك » • وكان كاهن الكنيسة قد تقدم نحو التابوت ،
فظهرت عليه الحبرة وقطب حاجبيه • فأجهشت أم البنية الميتة باكية
وارتمت على قدمي المسح وضرعت اليه وهى تمد نحوه ذراعيها قائلة :
« اذا كنت أنت هو حقاً ، فأجى ابنتى ! » • توقف الموكب ، ووضع
التابوت على البلاطات عند قدميه • فألقى على جثمان البنية نظرة تفيض
بالمعطف ، وتحركت شفتاه فى رفق تقولان مرة أخرى : « قومى أيتها

البنية * فما ان نطق بهذه الكلمات حتى خرجت الطفلة من التابوت ، وجلست مبتسمة ، ونظرت حولها بعينين محمقتين مدهوشتين . انها تمسك بيدها باقة من ورود بيضاء كانت قد وضعت على جثمانها . اضطرب الجمهور وصاح وبكى . وفي تلك اللحظة نفسها ظهر الكاردينال كبير المفتشين فى الساحة أمام الكاتدرائية . انه شيخ فى نحو السنة التسعين من عمره ، طويل الجسم منتصب القامة معروق الوجه غائر العينين ، غير أن فى عينيه شعلة تسطع . انه لا يرتدى الآن ثوب الكاردينالية الأرجوانى الفخم الذى ظهر به للشعب فى الليلة البارحة حين كان يُرمى الى النيران أعداء الكنيسة الرومانية . وانما هو يلبس فى هذه المرة ثوب الكاهن ، مصنوع من خشن الصوف . وعلى مسافة منه يتبعه معاونوه العباسون وخدمه وحرس القديس الاحتفالى . وقف الكاردينال أمام الجمهور وتأمله من بعيد . لقد رأى كل شئ ، رأى التابوت عند قدمي المسيح ، ورأى البنية تُبعث حية ، فأظلم وجهه واكفهر . انه يقطب حاجبيه الكشيفين الأبيضين ، وان بريقاً متوحشاً كاسراً يومض فى عينيه . وهذا هو يشير الى المسيح بسبابته آمراً الحرس بأن يعتقلوه . ان هذا الرجل الذى عرف كيف يروض شعباً مرتجفاً وأن يخضعه لجميع اراداته يبلغ من القوة أن الجمهور سرعان ما أسرع يتعد أمام الزبانية ، فاذا بهؤلاء ، وسط صمت الموت الذى خيم على حين فجأة ، يضعون أيديهم على المسيح ويقتادونه . وسجد الجمهور بحركة واحدة أمام المفتش الكبير الذى بارك الجمهور صامتا وانصرف . أخذ السجين الى المبنى العتيق الذى يقام فيه القديس ، وحُبس فى زنزانة مظلمة ضيقة مقببة . انقضى النهار ، وهبط الليل . هى ليلة من ليلالى اشيلية تلك الثقيلة العالكة الخائفة الحارة . « الهواء معطر بعبق أشجار الرند والليمون * » . وفجأة ، فى الظلمات ، فُتح الباب الحديدى ، وتقدم المفتش العجوز يسير فى الممر

ببطء حاملاً بيده شعلة • وقف لحظةً على عتبة الزنزانة وتفرس في وجه السجين طويلاً • ثم اقترب منه آخر الأمر بخطى صامتة ، ووضع الشعلة على المنضدة وقال له :

« - أهذا أنت اذن ؟ أهذا أنت ؟ (ولكنه حين لم يتلق جواباً أسرع يضيف :) اسكت ! لا تقل شيئاً ! وما عساك تعلمنى على كل حال ؟ اننى أعرف سلفاً كل ما قد تقوله لى • وبأى حق تريد من جهة أخرى أن تضيف أى شيء الى ما سبق أن قلته ؟ لماذا تجيء اليوم تزرع الاضطراب فى حياتنا ؟ ذلك أنك انما جئت لتبث فينا الاضطراب ما فى ذلك ريب ، وأنت لا تجهل ذلك • فهل تعلم مع هذا ما الذى سيقع غدا ؟ اننى لا أعرفك ، ولا أريد أن أعرفك • أنت هو حقاً ، أم لست الا طيفه ؟ سيان ••• لأننى سأحكم عليك بالاعدام وسأمر باحراقك مثلما أمر باحراق أسوأ الزنادقة • ان ذلك الجمهور نفسه الذى كان يقبل قدميك منذ بضع ساعات ، سيهرع غداً ، بإشارة بسيطة منى ، فيورى لهيب النار ، هل تعلم ذلك ؟

ألقى عليه الكاردينال هذا السؤال ثم أضاف يقول شارد الفكر نافذ النظرة دون أن يحول بصره عن سجينه لحظة واحدة :

« - لا شك أنك تعلم ذلك !

قال أليوشا الذى كان الى ذلك الحين يصغى الى أخيه صامتاً ، قال وهو يتنسم :

- لست أفهم جيداً يا ايفان • أهذه تهاويل مضطربة أنشأها خيالك المحموم ، أم أنت تريد أن تقول ان الشيخ قد خدعه ظنه ، وان لبُسه ما قد أضلّته ؟

قال ايفان ضاحكاً :

- لنسلم بأن هناك لبسة ما ، ما دامت واقعية هذا العصر قد
دمفتك أنت أيضا الى حد لا تستطيع معه أن تقبل تهاويل خيالية غريبة .
لفرض أن هناك لبسة ما ، اذا كنت تحرص على ذلك .
ثم أردف ايفان يقول وهو يضحك مرة أخرى :

- يجب أن لا ننسى أن هذا العجوز هو في التسعين من عمره ، وأن
من الجائز أن يكون قد جُنَّ منذ زمن طويل في عزلته المتكبرة المستعيلة .
ولعل منظر السجين قد أدهشه . ولعل هذا كله لم يكن أيضا الا هذيان
رجل عجوز قد أهاجه احراق المائة زنديق الذين أحرقوا في الليلة
البارحة ، أو أهاجته هلوسة من تلك الهلوسات التي تسبق الموت في بعض
الأحيان . وانه ليستوى على كل حال أن يكون الامر أمر تهاويل خيالية
أو أمر لبسة ، فانهما المهم أن هذا الشيخ سيقول في هذه المرة ، وهو
في التسعين من العمر ، سيقول ما في قلبه وما فكَّر فيه صامتا طوال
حياته .

- والسجين ؟ أهو صامت ؟ أهو ينظر الى زائره دون أن يفتح فمه
بكلمة ؟

قال ايفان شارحا وهو ما يزال يضحك :

- على هذا النحو انما يجب أن تجري الأمور . ألم يفهمه الشيخ
العجوز أنه ليس من حقه أن يضيف شيئا الى ما سبق أن قاله في الماضي ؟
بل ان هذا في رأيي سمة من السمات الاساسية للكاتوليكية الرومانية :
« لقد عهدت برسالتك الى البابا ، ومن اختصاص البابا أن يقرر بعد الآن .
فلا تأت الينا لبث القلق والاضطراب في حياتنا بغير طائل ، لا تأت الآن ،
لا تأت قبل الساعة المحددة على كل حال ! » . فهذا ما يقوله صانعو
الكنيسة الرومانية ، أو هذا ما يقوله اليسوعيون على الأقل . لقد قرأت

هذا بنفسى فى كتب لاهوتيينهم • ان العجوز قد ألقى عليه هذا السؤال :
« هل من حقلك أن تكشف لنا ولو عن سرٍّ واحد من أسرار العالم الذى
جئت منه ؟ » ثم لم ينتظر جوابه ، بل أضاف يقول فوراً : « لا • • ليس
من حقلك أن تفعل • • • ليس لك أن تضيف شيئاً الى ما سبق أن قلت
فى الماضى ، وذلك حتى لا تحرم البشر من تلك الحرية التى كنت تقدرها
قدراً عظيماً حين عشت على الأرض • ان كل كشف جديد قد تأتى به
سيبىء الى حرية الايمان ، لأنه سوف يبدو معجزة من المعجزات ، وأنت
قد رأيت منذ خمسة عشر قرناً أن ضمان حرية الايمان أمر أساسى • ألم
تكن تردد على مسامعهم بغير كلال ولا ملال : « لقد جئكم بالحرية » ؟ •
وأضاف العجوز يقول وهو يرسم على شفتيه ابتسامة مفكّرة على حين
فجأة : ولقد رأيتم بعينيك ، هؤلاء البشر « الأحرار » • • • ان هذه
الحرية هى من صنعنا ، وقد كلفتنا جهوداً لا نهاية لها (كذلك أضاف
العجوز وهو يلقى على المسيح نظرة قاسية) ، ولكننا أتمنا عملنا أخيراً
باسمك • لقد اضطررنا خلال خمسة عشر قرناً أن نظل نتحرك جاهدين
بهذه الحرية ، ولكن الامر انتهى الآن ، انتهى تماماً ! ألا تظن أنه انتهى
الى الأبد ؟ انك تنظر الى بouda ودين ورفق ، فلا شك أنك تقدّر أنك
ان أظهرت استيائك كنت تشرفنى تشريفاً لا أستحقه ! ألا فاعلم اذن أن
البشر هم فى هذا اليوم بعينه أشد اقتناعاً منهم فى أى وقت مضى بحريتهم
الكاملة ، ومع ذلك فالواقع أنهم تنازلوا عنها ووضعوها فى أيدينا بكثير
من المذلة ! ذلك هو عملنا ! أهذه هى الحرية التى كنت تنشدها لهم ؟
قاطعه أليوشا مرة أخرى قائلاً :

— مرة أخرى أصبحت لا أفهم • أهو يسخر ؟ أهو يتهكم ؟
— كلا • • • انه لا يسخر ولا يتهكم البتة ! بالعكس : انه يتباهى ،
لنفسه ولصحبته ، بأنهم أوقفوا نمو الحرية فاستطاعوا أن يجعلوا الناس

بذلك سعاداء * « ذلك أننا الآن ، للمرة الأولى ، نستطيع أن نحلم للانسانية بالسعادة (انه يتكلم طبعا باسم محاكم التفتيش) * ان الانسان محمول بطبيعته على العصيان والتمرد * ولكن هل يستطيع المتمردون أن يكونوا سعاداء ؟ لقد 'نبهت الى هذا ولم تعوزك النصائح والتحذيرات ، ولكنك لم تشأ أن تحسب حسابها ، ونبذت الطريق الوحيدة التى كان يمكن أن تقود البشر الى السعادة * ومن حسن الحظ أنك حين بارحت هذه الارض عهدت الينا بمهمة اتمام رسالتك * لقد كلفتنا بأن نوجه الانسانية وأن نرشدها * بذلت لنا وعدك ، وأقمت سلطتنا على كلمتك ، ووهبت لنا حق العقد والحل ، ولن تستطيع طبعا أن تنتزع منا هذا الحق بعد الآن * فلماذا جئت تعرقل عملنا فى هذا العالم ؟

قال أليوشا سائلاً :

- ماذا كان يعنى بقوله ان النصائح والتحذيرات لم تعوزه ؟

وأجاب ايفان :

- ذلك هو العنصر الأساسى فى التفكير الذى كان العجوز يريد أن

يعرب عنه *

- تابع العجوز يقول : ان الروح الرهيب العميق ، روح الدمار والعدم ، قد خاطبك فى الصحراء ؛ وتروى الكتب المقدسة أنه أغواك ، أليس كذلك ؟ هل نستطيع فى الواقع أن نتخيل حقائق اكبر من الحقائق التى عرضها لك فى أسئلته الثلاثة ؟ لقد رفضت أنت تلك الحقائق آنذ ، والكتب المقدسة تصفها بأنها « غوايات » * ومع ذلك ، لئن وجدت على هذه الارض فى يوم من الايام معجزة كبرى ، معجزة صادقة ، فان تلك المعجزة انما تحققت فى ذلك اليوم بعينه ، وفى تلك الغوايات الثلاث * لقد كانت تلك الاسئلة معجزة من المعجزات لمجرد أنها أُلقيت . لتصور ،

على سبيل الافتراض وحده، أن الأسئلة الثلاثة التي ألقاها الروح الرهيب قد تبددت دون أن تترك أثراً في الكتب المقدسة ، وأن علينا أن نعر عليها اليوم وأن نعيد بناءها وأن نكتشفها من جديد حتى نضمها الى النصوص المقدسة . لتصور أننا جمعنا لتحقيق هذا الهدف جميع حكماء الارض - رؤساء الدول وأمراء الكنيسة والعلماء والفلاسفة والشعراء - وقلنا لهم : « أوجدوا لنا ، تخیلوا لنا ثلاثة أسئلة لا تكون على مستوى الحدث فحسب ، بل تلخص بالاضافة الى ذلك ، في ثلاث جمل انسانية بسيطة ، كل مستقبل العالم والانسانية » . فهل تظن أن كل حكمة الارض المجتمعة في هؤلاء الرجال تقدر على أن تتصور ، ولو من بعيد ، شيئاً يشبه بقوته وعمقه ، تلك الأسئلة الثلاثة التي ألقاها عليك في الصحراء ذلك الروح القوى العميق ؟ ان تلك الأسئلة الثلاثة وتلك الحادثة المعجزة ، أعني كون الأسئلة قد أُلقيت ، تشهد بأن الأمر لم يكن أمر عقل انساني عادي ، بل أمر فكر خالد مطلق . ذلك أنها تضم في ذاتها ، تشتمل في ذاتها على كل التاريخ المقبل للانسانية ، وتقدم رموزاً ثلاثة تنحل فيها جميع تناقضات الطبيعة الانسانية ، التي لا سبيل الى حلّها . ان تلك الحقائق لم تكن ظاهرة آتئذ ظهوراً واضحاً ، لأن التطور الذي تطوره العالم بعدئذ لم يكن معروفاً ؛ أما الآن ، بعد انقضاء خمسة عشر قرناً ، فاننا نرى أن كل شيء قد تضمنته وتنبأت به تلك الأسئلة الثلاثة ، وأنها قد تحققت تحقّقاً يبلغ من الكمال والتمام أننا لن نستطيع أن نضيف اليها شيئاً أو أن نحذف منها شيئاً بعد اليوم .

« فاحكم في الأمر بنفسك : من ذا الذي كان على حق ، أنت أم سائلك ؟ تذكر السؤال الأول من تلك الأسئلة الثلاثة ، لا نصّه بل معناه العام : « تريد أن تمضي الى الناس ، وأنت تمضي اليهم خالي اليدين الا من وعد بحرية لا يستطيعون بحكم ما فطروا عليه من بساطة وحطة أن

يفهموها ، عدا أنهم بالاضافة الى ذلك يخشونها ويخافون منها ، لأنه ليس هناك ولم يكن هناك فى يوم من الأيام حالة لا يطبقها البشر والمجتمع مثلما لا يطبقان الحرية . هل ترى هذه الحجارة فى الصحراء الوعرة المحرقة ؟ حولها الى خبز تهرع اليك الانسانية كقطيع جائع ، وتصيح شاكرة لك مطيعة اياك ، ولكنها ستظل ترتجف خوفاً من ان تسحب يدك وأن تُحرم هي من الخبز » . غير أنك لم تشأ أن تحرم الانسان من الحرية ، فرفضت العرض قائلاً لنفسك لا حرية صادقة حيث تشتري الطاعة بالخبز . لقد أحببت بقولك : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . أفكنت تجهل اذن أن روح الأرض سينور عليك باسم هذا الخبز الأرضي نفسه ، وأنه سيقا تلك ويغلبك ؟ وأن الجمهور سيهرع عندئذ نحوه قائلاً : « من ذا الذى يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الوحش الذى وهب لنا نار السماء ؟ » . لسوف تنقضى قرون ، فيأتى يوم تنادى فيه الحكمة الانسانية وينادى فيه العلم الانسانى بأن الشر لا وجود له ، وأن الخطيئة تبعاً لذلك لا وجود لها ، مؤكدين أن هناك جائعين فحسب . « أطلعهم تجعلهم فاضلين ! » . بهذه الصيحة انما سيحملون الراية ضدك وسيقوضون معبدك . وسيقيمون فى مكانه مبنى آخر ، هو « برج بابل » ثانٍ مهدّد . صحيح أن البناء لن يتم ، كما لم يتم فى المرة الأولى ، ولكن كان فى وسعك مع ذلك أن توفر على الانسانية آلام هذه المحاولة الجديدة وأن تختصر من عذابها ألف سنة . ذلك أن البشر انما سيتجون الينا نحن بعد أن يجهدوا فى بناء برجهم مدة عشرة قرون ! سيحيثون باحثين عنا كما فعلوا فى الماضى ، وسيجدوننا فى الأقيّة التى نكون قد لجأنا اليها (لأننا سنضطهد وسنعدّ من جديد) ، سيحيثون قائلين لنا : « أطلعمونا ، لأن الذين وعدونا بنار السماء قد خدعونا » . وسننهي عندئذ بناء البرج ، لأن الذين سيطلعمون البشر يستطيعون وحدهم أن يتموا هذا العمل حتى

النهاية • وسوف نطعمهم ، سوف نطعمهم نحن ولا أحد سوانا ، وسوف نفعل ذلك باسمك ، كاذبين عليهم مستمدين سلطتنا منك • بدوننا لن يستطيعوا أن يعيشوا فى هذا العالم ، وسيظلون دوماً جائعين ساعين • لن يهب لهم العلم خبزاً ما ظلوا أحرارا ، ولكنهم سينتهون الى أن يرموا حرقتهم على أقدامنا فائلين : « استعبدونا ولكن أطعمونا » • سيدركون هم أنفسهم أن الحرية لا تتفق وخبز الأرض ، ولا تتسع أن يصيب كل منهم من هذا الخبز كفايته ، لأنهم لن يتوصلوا الى اقتسامه بالعدل فى يوم من الأيام • وسيقتنعون كذلك باستحالة أن يكونوا أحرارا ، لأنهم ضعاف فاسدون صغار النفوس سريعون الى التمرد والعصيان • لقد وعدتهم بخبز السماء ، ولكننى أسألك مرة أخرى : هل يقاس خبز السماء بخبز الأرض فى نظر الكثرة التى ستظل الى الأبد فاسده عاقبة ؟ اذا كانت ألوف من الناس أو كانت عشرات ألوف من الناس مستعدة لأن تبعك فى سبيل خبز السماء فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التى لن تحس بأنها قادرة على أن تنازل عن خبز الأرض فى سبيل خبز السماء ؟ أتراك لا تعطف الا على بضع عشرات من ألوف النفوس الكبيرة القوية ، وهل يجب على ملايين البشر ، هل يجب على الجموع التى لانهاية لعددها ، كرمل البحر ، هل يجب على هؤلاء الذين هم ضعاف ولكنهم يحبونك أيضا ، أن لا يكونوا الا مادة مسخرة للكبار والأقوياء ؟ اننا نحن نرى غير هذا الرأى ، وان الضعاف أعزة على قلوبنا • انهم شريرون عصاة ، ولكن هؤلاء أنفسهم هم الذين يصبحون فى آخر الأمر أكثر الناس طاعة وخضوعا • سوف يعجبون بنا ويعدوننا آلهة ، لأننا نكون قد رضىنا ، حين صرنا قادة لهم ، أن نحمل عنهم عبء حرقتهم وأن نسيطر عليهم ، فالى هذا الحد ستكون هذه الحرية قد أصبحت كريمة فى نظرهم بتقدم الزمن ! وسوف نوهمهم مع ذلك بأنهم انما يطيعونك أنت وبأننا

نحكمهم باسمك • سوف نكذب عليهم فى هذه النقطة أيضا ، لأننا لن
نسمح لك بعد الآن بأن تتدخل فى شئوننا • وسيكون هذا الكذب الضرورى
عذابنا • ذلك ما كان يعنيه السؤال الأول فى الصحراء ، ولقد رفضت
نداء الروح الجبار باسم الحرية التى وضعتها فى أعلى منزلة ، وفضلتها
على كل شئ • ولقد كان ذلك السؤال يخفى مع ذلك كل سرّ هذا
العالم • فلو قد رضيت أن تعطى الخبز ، اذن للبئس ما تنتظره الانسانية
انتظارا أبديا منذ عهود سحيقة ، ولهدأت القلق الذى يعذب الفرد
ويعذب الجماعة كليهما : « من نطيع ؟ » فلا رغبة أقوى ولا همّ أبقى
لدى الانسان الذى أصبح حراً من همّ العنور على سيدٍ يحكم بأقصى
سرعة • ولكن الانسان يتطلع الى الخضوع لحقيقة مؤكدة لا تُجحد ،
حقيقة يحترمها جميع الناس برضى اجماعى • ان حاجة هذه المخلوقات
الضعيفة ليست الى اكتشاف قوة يمكن أن يطيعها هذا الفرد أو ذاك من
الأفراد ، وانما الى اكتشاف حقيقة عليا يمكن أن يؤمن بها الجميع ،
ويمكن أن ينحنى لها « الناس كافة » • فهذه الحاجة الى « الاشتراك »
هى بعينها الهمّ الرئيسى الذى يعذب كل فرد ويعذب الانسانية جملةً ،
منذ أقدم عهود التاريخ • فباسم هذا التطلع الى العبادة الجماعية المشتركة
انما أفتت الشعوب بعضها بعضاً خلال الأحقاب • كانت الشعوب تصنع
آلهة ثم تأخذ تتشائم : « اتركوا آلهتكم وتعالوا اعبدوا آلهتنا • والا فالموت
لكم ولآلهتكم ! » • وسيبقى الحال على هذا المنوال الى نهاية العالم ؛ وحتى
بعد زوال الآلهة سيظلون يسجدون لمعبودات جديدة • ولقد كنت تعلم
هذا السر الأساسى من أسرار الطبيعة الانسانية ، فليس يمكن أن تجهل
هذا السر ، ولكنك رفضت الراية الوحيدة التى تملك قوة جذب مطلق
والتى قدّمت لك للتأدى بجميع البشر الى الانحاء أمامك بغير تردد -
أعنى راية الخبز الأرضى • لقد أقصيت هذه الراية باسم الحرية وباسم

الخبز السماوى • فانظر الآن فيما صنعت ! انظر فيما فعلت باسم الحرية !
أعود فأقول لك انه لا قلق أرسخ فى قلب الانسان من قلق الحاحه الى
العثور على من يستطيع أن يضحى له سريعا بالحرية التى وهبت له ، هو
المخلوق العيس ، منذ ولد • ولكن لا سبيل الى التصرف فى حرية البشر
الا بتهدئة ضميرهم • ولقد كان فى وسعك أن تتخذ الخبز راية
لا تخطى • اطعم الانسان يُطعمك ، فلا شئ فى هذا العالم أعزّ على
الجحود من الحاجة الى الأكل • ولكن اذا استولى غيرك عندئذ على ضمير
البشر تركوك وعدلوا حتى عن خبزك ليتبعوا ذلك الذى يكون قد أخضع
نفوسهم • فى ذلك كان رأيك صحيحا • ان سرّ الوجود الانسانى
ومبرّره ليسا فى ارادة الحياة ، بل فى الحاجة الى معرفة السبب الذى
يدعو الانسان الى الحياة • فالانسان ما لم يكن على يقين من هدف حياته ،
لا يقبل أن يؤثر فى العالم بل يؤثر أن يدمّر نفسه ، ولو ملك الخبز
وافرأ كل الوفرة • تلك هى الطبيعة الانسانية • ولكن ما الذى حدث ؟
حدث أنك بدلا من أن تسيطر على الحرية الانسانية أردت لها مزيدا من
النمو • فهل نسيت اذن أن الانسان يؤثر هدوء نفسه بل ويؤثر المسوت
على أن تكون له ملكة حرية الاختيار فى معرفة الخير والشر ؟ لا شئ
يخلب اللب فى الوهلة الأولى أكر من حرية الضمير ، ولكن لا شئ فى
الواقع يعذب الانسان أكثر مما تعذبه هذه الحرية • فبدلا من أن تحصل
للانسانية الأسس الراسخة الثابتة الباقية للهدوء النفسى والطمأنينة
الروحية ، وبدلا من أن توفر لها هذه الأسس الى الأبد ، عرضت عليها
ما فى هذا العالم من أمور سرية غامضة خارقة تفوق طاقة القوى الانسانية ،
وكنّت فى عملك هذا كأنك لا تحب البشر ، أنت الذى انما جئت مع
ذلك لتهب لهم الحياة ! انك بدلا من أن تسيطر على الحرية الانسانية
وسّعتها ، وبذلك ضاعفت ، الى غير نهاية ، الآلام التى تولّدها هذه

الحرية فى نفوس البشر • أردتَ من البشر أن يمنحوك حبهم أحراراً ، وأن يتبعوك بارادتهم ، مفتونين بشخصك • ألغيت القانون القديم الذى كان قاسياً ولكنه كان وطيداً راسخاً ، فأصبح على الانسان أن يميز الخير والشر بنفسه ، مستلهماً حكم قلبه ، غيرَ مسترشد فى تردده الا صورتك أمام عينيه • أفلم تتنبأ اذن بأن البشر سينوءون بهذا الحمل الرهيب ، حمل حرية الارادة ، فاذا هم آخرَ الأمر يبنون فى يوم من الأيام صورتك ويشكون فى تعاليمك ؟ لسوف ينادون فى النهاية بأن الحقيقة لم تكن فيك ، فمن المستحيل القاؤهم الى اضطراب أشد وعذاب أَرهَب من الاضطراب والعذاب اللذين ألقيتهم اليهما حين تركت لهم كل هذه الأنواع من القلق ، وكل هذا العدد من المشكلات التى لاسيىل الى حلّها . لقد زودتهم أنت نفسك بالأسلحة اللازمة لتهديم مملكتك ، فليس لك أن تتهم أحداً بتدميرها • فهل هذا ما عرض عليك مع ذلك ؟ ليس على الأرض الا قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تغلب على ضمير هؤلاء المتمردين الضعاف قروناً ، وأن تخضعه فى سبيل سعادته نفسها ، ألا وهى : المعجزة ، والسر ، والسلطة • ولقد رفضت هذه القوى الثلاث جميعاً وعلمت البشر بقدوتك أن يحتقروها • فحين نقلك الروح الرهيب (ابليس) الى سطح المعبد وقال لك : « اذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرب فألق بنفسك فى الفضاء ، لأنه كُتب أن الملائكة ستلقفه وتسندنه فلا يقع ولا يتحطم ، وعندئذ تعلم أنك ابن الله وتبرهن على قوة ايمانك بأبيك » * ، ولكنك رفضت هذا العرض ولم تلق بنفسك فى الفضاء • صحيح أنك تصرفت فى تلك اللحظة تصرفاً فيه ما فى تصرف اله من عظمة وجلال ، ولكن هل تتصور أن البشر ، وهم جنس ضعيف متمرد ، يملكون من القوة الروحية ما يملكه اله ؟ لقد فهمت فى تلك اللحظة أن حركة بسيطة هى أن تهم بالقاء نفسك فى الفضاء كان ستعنى اغراء الرب ، فلو قمت بها

لكنك بطلب المعجزة تبرهن على قلة ايمانك ، فاذا حرمت من الايمان تهشمت أسوأ تهشم على الأرض التي جئت لتخلصها وتنقذها ، وتهلل الروح المحتال جذلا وطرباً • ولكنني أعود فأسألك : هل أمثالك كثير فى هذا العالم ؟ هل وقع فى وهمك لحظة واحدة أن البشر يمكن أن يكونوا هم أيضا فوق اغراء من هذا النوع ؟ هل فى طبيعة البشر أن يتنازلوا عن المعجزة وأن يعتمدوا على حكم القلب وحده فى الساعات العصية من الحياة ، أمام المشكلات الخطيرة الأليمة التى تعرض للنفس ؟ لقد كنت تعلم أن موقفك البطولى سينتقل بالكتب المقدسة الى آخر العصور ، وكنت تأمل أن يقتدى البشر بك فيقبلوا أن يظلوا وحيدى مع الله لا يطلبون معجزة من المعجزات • ولكنك لم تقدر أن الانسان متى جحد المعجزة أسرع يجحد الرب ، لأن ظمأه هو الى العجائب لا الى الرب ؛ وأنه لكونه لا يستطيع أن يحيا بغير معجزات ، سيخلق بنفسه معجزات ، فيهوى ، ولو كان متمردا وكافرا وملحدآ ، الى خرافات سخيفة ، تنطلى عليه أباطيل السحرة وخزعبلاتهم • انك لم تنزل عن الصليب حين دعاك الجمهور الى ذلك صائحا من باب الاستهزاء : « انزل عن الصليب فنصدق أنك أنت » • انك لم تنزل ، لأنك مرة أخرى لم تشأ أن تستعبد البشر بالمعجزة ، وانما أردت أن يجيئوا اليك بدافع الايمان لا بتأثير العجائب • كنت تريد أن يهبوا لك محبتهم أحرارا لا أن ينصاعوا لك عبيدا أذهلتهم قوتك • هنا أيضا أسرفت فى تقدير البشر وأنزلتهم منزلة أعلى من منزلتهم ، ذلك أن البشر عبيد ، رغم انهم مفطورون على التمرد • انظر فيما حولك : ماذا أصبح البشر بعد انقضاء خمسة عشر قرنا ؟ ما عدد أولئك الذين رفعتهم الى مستواك ؟ أحلف لك ان الانسان أضعف وأسوأ مما ظننت ! هل يستطيع هو الوضع أن يحقق ما حققته أنت ؟ انك حين احترمت ذلك الاحترام كله قد تصرفت تصرف من فقد عطفه عليه ،

لأنك سألته فوق ما يطيق ، أنت الذى أحبيته أكثر من نفسك ! فلو أنك قدرته أقل مما قدرته اذن لطلبت منه أقل مما طلبت ، ولكان موقفك عندئذ أقرب الى المحبة ، لان العبد عليه يكون عندئذ أقل ثقلاً • ان الانسان ضعيف وجبان • لا يهمنى أن يكون الآن فدثار فى كل مكان على سلطتنا ، وانه يرى فى عصيانه الآثم هذا مجداً يعتز به • ذلك غرور طفل ، ذلك غرور تلميذ • ان البشر يشبهون تلامذة صغاراً تاروا فى المدرسة وطردوا معلمهم • ولكن فرحتهم لن تدوم ، وستكلفهم ثمناً باهظاً • سوف يهدمون المعابد ، وسوف يجرى الدم سيولاً على الأرض • وسوف يدركون عندئذ ، سوف يدرك هؤلاء الصبية الأغنياء ، أنهم ان خلقوا عصاة متمردين ، فليس يتسح لهم ضعفهم أن يعيشوا زمناً طويلاً فى التمرد والعصيان • وسيعترفون وهم يسكبون دموعاً باطلة أن الذى وهب لهم روح العصاة قد غرر بهم وسخر منهم • سيقولون هذا محزونين مكروبين ، وسيكون هذا القول تجديفاً يجعلهم أعظم شقاء أيضاً ، لأن الطبيعة الانسانية لا تحتمل التجديف ، ولا بد أن تثار لنفسها منه آخر الأمر • القلق ، الاضطراب ، العذاب ، ذلك هو المصير الذى كتب على البشر الآن ، بعد أن تحملت أنت كل ما تحمته فى الماضى من أجل أن تهب لهم الحرية ! ان رسولك الكبير* يروى أنه أبصر ، فى رؤيا ، جميع المشركين فى البعث الاول ، فرأى اثنى عشر ألفاً من كل سبط • لقد كانوا ، مهما بكثر عددهم ، أقرب الى آلهة منهم الى بشر : قاسوا ما قاسيت وعاشوا عشرات السنين فى الصحراء القاحلة ، وأضناهم الجوع ، واقتاتوا بالجراد والجذور • صحيح أن فى وسعك أن تعتر بأبناء الحرية هؤلاء الذين وهبوا لك محبتهم أحراراً ، وارتضوا طائعين مختارين أن يضحوا فى سبيلك بأنفسهم فى سورة رائعة • ولكن تذكر أن هؤلاء ليسوا الا بضعة آلاف ، وأنهم أشبهه بآلهة منهم بشر • والآخرون ؟ ما ذنب

الآخرين اذا هم لم يستطيعوا أن يحتملوا ما احتمله هؤلاء الأقوياء من محن ؟ هل تأثم النفس الضعيفة حين لاتعرف كيف تسمو الى فضائل مخيفه الى هذا الحد ؟ أترك جئت من أجل هذه الصفوة وحدها ؟ أنت لا تفكر الا فيها ولا يخطر ببالك من عداها ؟ اذا كان الأمر كذلك فهو سر " يفوق ما نملك من قدرة على الفهم ؟ ومن حقنا فى هذه الحالة نحن أيضا أن نلجأ الى السر ، وأن نعلّم الجماهير أن الأمر الأساسى ليس هو المحبة ولا هو أن يقرر قلبهم تقريراً حراً ، وانما هو الخضوع الأعمى لما لا سبيل الى معرفته ، وأن يطيعونا اذن ولو عارضهم فى ذلك ضميرهم . وهذا بعينه هو ما فعلناه . أصلحنا خطأك الذى ارتكبته حين عدلت ذلك العدول البطولى عن المعجزة ، فبنينا عملك على ما هو « فوق الطبيعة » ، بنينا على « السر » ، بنينا على « المعجزة » . وابتهج الناس اذ رأوا أنفسهم يُقادون من جديد كما يُقاد قطع ، ورأوا أنفسهم يتحررون من تلك الهبة المشؤمة التى وهبتها لهم فكانت مصدر أنواع من العذاب قاسوها . قل : هل كنا على صواب حين فعلنا وعلّمنا على هذا النحو ؟ هل يمكن أن يؤخذ علينا حقاً أننا لم نحجب الانسانية حباً كافياً ، بينما نحن اعترفنا بوهنها فى كثير من الازعان والتسليم ، وخففنا عنها الحمل فى كثير من الالحاح حتى لقد أبحنا لها أن ترتكب الخطيئة لعلنا بضعفها الروحى ، شريطة أن تستأذنا فى ذلك كل مرة ؟ فلماذا تجيء الآن لتبش الفوضى فى عملنا ؟ مالك نحدّق الى هكذا صامتاً بعينيك الرقيقتين النفاذتين ؟ أخرى بك أن تغضب . اننى لا أريد محبتك ، لأننى أنا نفسى لا أحبك . ولست أحاول أن أخفى عنك ذلك ، لأننى أعلم من ذا الذى أخطب ، أليس كذلك ؟ ثم انك تعرف كل ما قد أقوله لك ، أقرأ ذلك فى عينيك . ففيم المواردية والحالة هذه ؟ ان سرنا لن يخفى عنك ، فلعل ما تريده اذن هو أن تسمع هذا السر من فمى ؟ ليكن لك ما تريد

ألا فاعلم أننا لسنا معك ، بل معه « هو » . ذلك هو سرنا . اننا منذ زمان طويل قد كففنا عن أن نكون معك ، وتحيزنا له « هو » . فمئذ ثمانية فرون قبلنا منه ما سبق أن رفضته أنت مستاءً ، أعنى الهبة الأخيرة التى عرضها عليك وهو يشير لك الى ممالك الأرض* : لقد قبلنا أن نأخذ من يديه روما وأن نأخذ السيف من قيصر ، وأصدرنا قراراً بأن نكون لهذا العالم ملوكه الوحيدين ، رغم أننا لم ننجز الى الآن عملنا . ولكن من المذنب فى هذا ؟ ان هذا المشروع ما يزال فى أوله ، ولكنه بدئى . ولا بد من الصبر طويلاً قبل أن نصل به الى غايته ، ولا بد من آلام كبيرة فى هذه الحياة الدنيا ، ولكننا سنبلغ هدفنا وسنصبح سادة الكون . وسيتاح لنا عندئذ أن نفكر فى سعادة مشتركة تنعم بها الانسانية . لقد كان فى وسعك أن تقبل السيف من قيصر فى الماضى ، فلماذا رفضت تلك الهبة الأخيرة ؟ لو اتبعت الوصية الثالثة التى نصحتك بهسا الروح القوى ، اذن لكان فى وسعك أن تحقق كل ما تتمناه الانسانية ، وهو أن تعرف : من تطيع ، والى من تعهد بقيادة ضميرها ، وبأى وسيلة توحد جميع البشر فى مجتمع كمجتمع النمل ، واحد كبير منظم . ذلك أن الحاجة الى الوحدة الشاملة هو ثالث هموم النفس الانسانية وهو فى الوقت نفسه أقوى هذه الهموم طراً . ان الانسانية قد حاولت فى جميع الأزمان أن تنظم نفسها على أساس شامل . ان هناك أمماً كثيرة عظيمة كان لها تاريخ مجيد ، ولكن شقاءها كان كبيراً على مقدار نبليها ، لأنها أحست أكثر من غيرها من الشعوب بالحاجة الى توحيد النوع البشرى . ان الغزاة الكبار ، من أمثال تيمورلنك وجنكيز خان ، الذين مروا على الأرض مرور اعصار مخرب وعاصفة مدمرة ، كانوا يتوقون الى أن يصبحوا سادة العالم بأسره ، ولكن شوقاً عميقاً واحداً الى توحيد جميع الشعوب كان يحركهم دون أن يشعروا بذلك . فلو أنك قبلت قانون القاصرة ومقامهم ، لكان فى

وسمك أن تبني الامبراطورية الشاملة وأن تكفل السلام للإنسانية الى الأبد. على من يقع عبء حكم البشر ان لم يقع على أولئك الذين يحكمون النفوس منذ الآن ويملكون الأغذية الأرضية ؟ لقد أخذنا السيف اذن من قيصر ، واذا فعلنا ذلك فقد أنكرناك أنت لتتبعه «هو» . ستتقضى قرون طويلة في فوضى التحلل الفكرى والعلم الباطل وأكل لحوم البشر ، ذلك أنهم ما داموا قد شرعوا في بناء برج بابل بدوننا لا بد أن ينحدروا حتماً الى أكل لحوم البشر . ولكن « الوحش » سيجي بعد ذلك الينا زاحفاً ، وسيلحق أرجلنا التي سيملها بدموعه الدامية . وسوف نركبه ، ونرفع نحو السماوات كأساً نقشت عليه هذه الكلمة : « السر » . ويومئذ انما ستدق ساعة السلام والسعادة للإنسانية . انك فخور بصفتك المختارة ، ولكن الصفوة وحدها معك ، أما نحن فسوف نعرف كيف نحمل الطمأنينة الى جميع النفوس . وحتى بين أبناء هذه الصفوة المختارة ، حتى بين هؤلاء الأقوياء ، ما أكثر الذين كانوا يتطلعون الى خدمتك ، فانتظروك عبثاً ، ثم سئموا من هذا الصبر الطويل العقيم ، فوقفوا قوى فكرهم وحماسة قلبهم على غايات أرضية صرفة ، وانتهى بهم الأمر الى رفع راية حريتهم عليك ! ألسنت أنت الذي أعطيتهم راية الحرية هذه ؟ أما نحن الذين نهش على البشر بعضانا ، فان البشر سيكونون سعداء معنا ، وسيعزفون عن التمرد علينا . ولن يبيد بعضهم بعضاً كما يفعلون الآن في كل مكان بفضل الحرية التي تركتها لهم . وسوف نعرف كيف نقنعهم من جهة أخرى بأنهم لن يكونوا أحراراً الا متى تنازلوا عن استعمال حريتهم ، وسنكون قد ألزمناهم بخضوع لا رجعة عنه . هل ما نقوله لهم هو الحقيقة أم هو كذب ؟ انهم لن يلبثوا أن يدركوا أنه هو الحقيقة ، لأنهم سيتذكرون العبودية والآلام التي قادتهم اليها حريتك . ان التحلل، وحق حرية النقد ، والعلم ، ان كل ذلك سيؤدي بهم الى طريق غير

نافذة ، لأنه سيلقيهم فى اضطراب لا مخرج منه على الألفاظ التى لا سبيل إلى حلها ، زاجر بالمعجزات المحيرة . فأما العصاة العنيفون منهم فسيدمرون أنفسهم من شدة الكرب ، وأما العصاة الضعاف فسيقبل بعضهم بعضاً . ولكن الجمهرة الكبرى من الضعاف ، وهم أشقى من أن يتمردوا ويعصوا ، فانهم سيزحفون على أقدامنا قائلين لنا : « أتتم على حق . اننا نعتزف بهذا الآن ، لأنكم كنتم وحدكم تملكون أسراركم . نحن نعود اليكم . انقذونا من أنفسنا ! » . وحين سيتلقون الخبز من أيدينا ، سيرون حق الرؤية انهم هم الذين أتجنوه بعملهم ، وأنا أخذناهم منهم لنوزعه بعد ذلك بدون أية معجزة . سيفهمون أننا لم نقلب حجارة إلى خبز ، ولكنهم سيتبطلون بأنهم طعموا ، وسيتبطلون أكثر من ذلك بأنهم طعموا على أيدينا : لن ينسوا قط أن الخبز الذى صنعوه كان ، بدوننا ، يتحول فى أيديهم إلى حجارة ، حتى اذا رجعوا إلينا تحولت الحجارة خبزاً لهم . سيعرفون كيف يقدرون بعد الآن قيمة الخضوع النهائى ! لم يكن من الممكن أن تكون حياتهم الا شقاء ، ما ظلوا لا يفهمون ذلك . فمن ذا الذى ساهم أكثر من غيره فى قلة الفهم تلك ؟ من الذى خرب تلاحم القطيع وبشره فى طرق مجهولة ؟ ولكن القطيع سيتجمع من جديد ، وسيعود إلى طواعيته ، إلى الأبد فى هذه المرة . وسوف نهب عندئذ لهذه الكائنات الضعيفة الجبانة سعادة متواضعة وادعة هى السعادة الوحيدة التى تناسبهم . سنعلمهم أخيراً أن لا يزدهوا بأنفسهم ، لأنك قد رفعتهم فجعلتهم متكبرين . سنبرهن لهم على أنهم لا قوة لهم ولا شجاعة ، وأنهم أطفال يرثى لحالهم ، ولكن سعادة الأطفال هذه هى أعذب سعادة . وسوف يصبحون خجولين ، وسوف ينظرون إلينا نظرتهم إلى حماة يحمونهم ، وسوف يتراصون حولنا خائفين كما تتراص أفراس الدجاجة حول أمها . سوف يدهشهم ويرعبهم أن يلاحظوا قوتنا ، فخورين بأن لهم سادة يبلغون

هذا المبلغ من القوة والذكاء ، سادة عرفوا كيف يسيطرون على هذا القطيع من البشر الذى لا تهدأ حركته ولا يحصى عدده . سوف يرتعشون خوفاً أمام غضبنا ... سوف تتخدر عقولهم وتدمع أعينهم كالنساء والأطفال . ولكنهم ، بإشارة منا ، سوف ينتقلون بمثل هذه السرعة الى الفرح والمرح والغبطة ، ضاحكين بهناء ، مغنين كالصبية الصغار . وسنجبرهم على العمل طبعاً ، ولكننا سنهيئ لهم فى ساعات فراغهم حياة أشبه باللعب ، فيها أغاني وجوفات وحتى رقصات بريئة . أوه ! وسنسمع لهم أيضاً بأن يأثموا ما داموا ضعافاً الى هذا الحد من الضعف ، وسيجبونا كالأطفال بسبب تسامحنا . سنقول لهم ان كل خطيئة يمكن التكفير عنها اذا هى ارتكبت بموافقتنا . سنبيح لهم أن يأثموا لأننا نجبهم ، أما العقاب فسأخذة على عاتقنا ، لا بأس ... لسوف يجبونا على أننا مخلصون لهم ، لأننا سوف نقبل أن نكون مسئولين عن خطاياهم وذنوبهم أمام الرب . ولن يكتنموا عنا سراً . سنبيح لهم أو نحظر عليهم ، تبعاً لدرجة طاعتهم ، أن يعيشوا مع نسائهم أو خلياتهم ، وأن ينسلوا أو أن لا ينسلوا ، وسيخضعون لتوجيهاتنا فرحين . سيفضون إلينا بأخفى ما يعانون من آلام ، وأخفى ما يضطرم فى ضميرهم من أنواع العذاب . وسنفصل فى جميع الحالات ، وسيرتضون حلولنا سعداء ، لأنها ستحررهم من القلق الذى يعاينهم متى كان عليه أن يتخذ قراراً حراً . وسيكون جميع الناس سعداء ، جميع هؤلاء الملايين من البشر ، باستثناء بضعة مئات من الألوف الذين ستقودهم : سنكون وحدنا أشقياء ، نحن الذين نملك السر . سيكون فى هذا العالم مئات الملايين من الأطفال السعداء ، لن يكون فيه الا مائة ألف من الأشقياء هم الذين أخذوا على عاتقهم تحمل عذاب المعرفة ، معرفة الخير والشر . وسوف يموت أولئك موتاً غامضاً ، ينطفئون باسمك وادعين مسالمين ، فلا يجدون فى الحياة الآخرة الا

العدم • ولكننا سنعرف كيف نحفظ بسر الموت ؛ ومن أجل سعادتهم سنلألى • أمام أبصارهم جمال المكافآت السماوية والحياة الأبدية • لأن كان بعد القبر حياة أخرى فلا شك أن هؤلاء الضعاف ليسوا من ستوهب لهم تلك الحياة الأخرى • ان النبوءات تزعم أنك ستعود فى يوم من الأيام لتحقيق نصرًا جديدًا على الشر ، وأنت ستظهر محاطاً بمن اصطفت من أصحاب النفوس القوية المتكبرة الذين أنقذتهم • لسوف نجيب عندئذ بأن هؤلاء انما أنقذوا أنفسهم وحدها ، أما نحن فقد جئنا بالخلاص للناس كافة • يقل ان الزانية الدنيئة التى تركب « الوحش » * وتحمل بيديها « كأس السر » ، سيجللهما الخزى والعار ذات يوم وان الضعاف سيثيرون من جديد فيمزقون رداءها الدينى الكاذب ويعرّون جسدها « النجس » • ولكننى سأنهض عندئذ فأشير لك الى تلك المليارات من الاطفال السعداء الذين يجهلون كل خطيئة ؛ ونحن الذين نكون قد أخذنا على عاتقنا أخطاءهم لتحقيق سعادتهم ، سوف نمثل أمامك ونقول لك : « احكم علينا اذا كنت تستطيع ، اذا كنت تجرؤ ! » • ألا فاعلم اننى لا أخشاك • ألا فاعلم اننى عشت أنا أيضا فى الصحراء أقات بالجراد وجذور النبات ، وأننى باركت الحرية التى وهبتها للبشر • وكنت أتهيا لأن أدخل سلك صفوتك المختارة ، وأن أكون واحدا من الأقوياء المتكبرين الذين يتألف منهم جيش أتباعك الصغير ، وكنت أحترق شوقاً الى أن « أكمل عددهم » • ولكننى رجعت الى صوابى فى الوقت المناسب ، فأصبحت لا أريد أن أخدم عقيدة طائشة • لقد عدت عن الخطأ والضلال وانضمت الى صف أولئك الذين يعملون فى « اصلاح ما قمت أنت به » • تركت صفوف المتكبرين ، وانضمت الى المساكين لأعاون فى تحقيق سعادتهم • ان ما أعلنه لك اليوم سيحقق ، وان مملكتنا ستبنى فى هذا العالم • أعود فأكرر لك : انك سترى غدا هذا النجم المشرق ، هذا القطيع الطيِّع

يسرع بإشارة منى الى اضرام ألسنة اللهب التى ستُحرق بها مزيدا من
الاضرام باضافة فحمٍ متقد الى النار • ذلك أننى سأمر بحرقك لأعابك
على أنك جئت تدخل البلبلة فيما تقوم به من عمل • لئن وجد زنديق
يستحق أن يهلك فى النار ، فهذا الزنديق هو أنت • غداً ستُحرق •
انتهى كلامى • • •

صمت ايفان • كان قد تنحس أثناء الكلام ، فختم قصته بنوع من
الاندفاع الجامح • حتى اذا فرغ من حديثه ظهرت فى شفثيه ابتسامة
على حين فجأة •

وقد أصغى اليه أليوشا صامتاً ، ولكنه فى أواخر الحديث حاول
مراراً ، وقد استبد به اضطراب داخلى عنيف ، أن يقطع أخاه • ومع
ذلك فقد كبح جماح نفسه حتى النهاية • وها هو ذا الآن يدع لاستيائه
أن ينفجر ، ويكاد يشب عن مقعده • صاح وقد احمر وجهه احمرارا
شديدا :

- ولكن ... ولكن ... ان قصيدتك تبسّح المسيح فى الواقع
بدلاً من أن تخزيه كما كنت تريد فيما يبدو • من ذا الذى يقبل تأويلك
هذا للحرية ؟ أهكذا يجب أن تُفهم الحرية ؟ ان الكنيسة الأرثوذكسية
لا تتصور الحرية أبداً على طريقتك هذه • • • انك تعرض تصور الذين
يدينون بالكاثوليكية الرومانية ، بل ان هذا التصور ليس تصور جميع
الكاثوليكين - ذلك خطأ ! - وانما هو تصور أشرارهم فحسب ، هو
تصور أعضاء محاكم التفتيش واليسوعيين ! • • • ثم ان صاحبك كبير
المفتشين رجل لا صلة له بالواقع ، وانما هو شخصية خيالية لا يمكن
وجودها • ما هى خطايا البشر التى يدعى أنه أخذها على عاتقه ؟ أين
رأيت حملة السر هؤلاء الذين يزعم أنهم ارتضوا لا أدرى أى عذاب

فى سبيل سعادة الانسانية ؟ أين وُجد هؤلاء ؟ انا نعرف اليسوعيين •
لقد قيل فيهم سوء كثير ، ولكن هل هم يشبهون حقاً الصورة التى ترسمها
لهم ؟ انهم ليسوا كذلك البتة ... كل ما هنالك انهم يملكون جيش
الكنيسة الرومانية من أجل أن يغزوا فى المستقبل امبراطورية الأرض
التي سيرأسها جبر روما برتبة امبراطور ... ذلك هو مثلهم الأعلى ،
وهو لا يشتمل على سرٍ ولا على ذلك الحزن النبيل الذى لا يفهم ...
انه الظلم إلى السيطرة والتسلط ؛ انه شهوة الفوز بخيرات الأرض
الحقيرة ؛ انه الرغبة فى استعباد الناس ... انهم يحلمون بالعودة الى نوع
من نظام الرق يكونون فيه هم المالكين والمتنفعين ... ذلك هو طموحهم
كله ! ولعلهم لا يؤمنون حتى بالله ... ليس صاحبك المفتش وليس عذابه
النبيل الا خيالاً محضاً ...

قال ايفان ضاحكاً :

- لحظة ، لحظة ... لماذا تتحمس ؟ نمره من ثمرات خيالى ؟
لا أعارض فى هذا • ذلك كله خيال طبعاً • ولكننى أرجو أن تسمح لى
بالبقاء هذا السؤال : هل تعتقد حقاً بأن الحركة الكاثوليكية فى القرون
الأخيرة لم تستلهم الا الظلم إلى السلطة والا شهوة الخيرات المادية الحقيرة ؟
لا شك أن الأب بائيسى هو الذى قال لك هذا الكلام !

- بالعكس ! ان الأب بائيسى قد قال لى فى يوم من الأيام كلاماً
يشبه كلامك تقريباً ...

كذلك قال أليوشا ، ولكنه ما لبث أن أسرع يقول مستدركاً :

- أعنى ... انه لم يقل ما قلته أنت بعينه البتة ...

قال ايفان :

- اسمع اسمع • هذا اعتراف له شأنه رغم قولك « بالعكس » !

كيف تستطيع أن تصدق أن أولئك المفتشين وأولئك اليسوعيين الذين
تكلم عنهم قد اتحدوا وتنظموا لا لشيء إلا امتلاك الخيرات المادية الحفيرة ؟
لماذا لا يكون قد وجد بينهم فى يوم من الايام ولو انسان واحد من الصفوة
المختارة يعذبه ألم نبيل ويستبد به حب الانسانية ؟ افرض أنه قد وجد
ذات يوم ، فى عداد هؤلاء الطامعين الطامئين الى المباهج الارضية السافله
رجل واحد ، رجل واحد شبه بصحبي كبير المفتشين عاش فى الصحراء
منه واقتات بالجراد وجذور النبات وأضنى جسده وأماته فى سبيل
الوصول الى الحرية والى الكمال . تخيل أن هذا الرجل قد أحب
الانسانية طوال حياته واقتنع أخيراً بأن السعادة النفسية التى يقال ان
السمو الروحى يحققها انما هى وهم باطل ما دام ملايين البشر الآخرين ،
وهم مخلوقات الهية مثله ، ما يزالون غارقين فى أقذار الفحش ، وأن
حريتهم المزعومة ليست الا سخرية لاذعة مرة ، وأن هؤلاء العصاة
المساكين لن يكونوا فى يوم من الايام عمالقة قادرة على اكمال بناء البرج
... أى أنهم لن يصلوا فى يوم من الايام الى حريتهم ، وأن حلم
الانسجام والتناسق الذى حلم به المثالى الكبير لم يخلق لهذا النوع من
الأوز ! ... تخيل أن هذا الرجل قد أدرك ذلك ، فعاد الى صوابه ،
وانضم الى الناس الأذكياء ... أهذا فى رأيك اقتراض مستحيل ؟

قال أليوشا فيما يشبه الغضب :

... الى من انضم ؟ من هم هؤلاء الناس الأذكياء ؟ انهم لا ذكاء لهم
البته ، وليس عندهم سر ولا ما يشبه السر ! هؤلاء زنادقة ... ذلك
سرهم كله ! ان صاحبك المفتش لا يؤمن بالله ... الأمر بسيط !

... لنسلم بهذا . لقد فهمت أخيراً . صحيح ، انه أصبح لا يؤمن
بالله ، ذلك كل سرّه . ولكن أليس هذا عذاباً بالنسبة الى رجل مثله

أفسد مستقبله بحياة التقشف في الصحراء ثم لم يستطع أن يتحرر من حبه الانسانية ؟ لقد رأى في أواخر أيامه بوضوح أن النصائح التي أسداها الروح الرهيب الكبير تستطيع وحدها أن تنظم على نحو مقبول بعض الشيء حياة العصاة الضعاف ، حياة هذه « المخلوقات الناقصة التي كانت للمخلوق تجربة ، وظفرت بالحياة سهواً وغفلة » . فلما اقتنع بهذه الحقيقة أدرك أن من الواجب اتباع الطريق الذي نصح به الروح العميق ، الروح الرهيب ، روح الموت والعدم . واذ كان منطقياً مع نفسه ، فقد أقرَّ ضرورة الكذب على الناس وتضليلهم وخداعهم ، بغية السير بهم الى الموت والى العدم سيراً واعياً ، ولكن مع ترك أوهامهم لهم طوال الطريق ، حتى لا يكتشفوا الى أين يُسار بهم . فبهذه الطريقة يستطيع هؤلاء العميان المساكين أن يتوهموا على الأقل أثناء رحلتهم على الأرض أنهم سعداء . لاحظ أنه يرى نفسه مضطراً الى مقارفة هذا الكذب باسم ذلك الذي آمن به ايماناً مشوباً طوال حياته . أفليس هذا عذاباً ؟ ألا انه لو اتفق أن وجد على مرَّ العصور رجل واحد من هذا النوع بين صفوف « الجيش الظالمى الى السيطرة والى اللذات المادية الدينية » ، لكان في هذا ما تُخلق منه مأساة حقّة ! أكثر من ذلك : يكفي أن توجد شخصية واحدة من هذا النوع على رأس الكنيسة حتى توهب للكاتوليكية الرومانية روح وحتى تُنفخ فكرة موجَّهة في فرقها الكثيرة وجماعاتها المتعددة وكهنتها ويسوعيينها ، فكرة " عليا . أقول لك بصراحة : اننى على يقين من أن رجالاً من هذا النوع قد وُجدوا في جميع الازمان بين قادة الكاثوليكية الرومانية ، وربما وجد منهم بين الباباوات انفسهم ! ومهما يكن من أمر ، فان ذلك العجوز اللعين الذي يصرُّ ذلك الاصرار كله على حب الانسانية على طريقته يمكن أن يوجد في أيامنا هذه ، مع عدد من أمثاله ، وأن لا يكون وجوده هذا مع أمثاله

نتيجة مصادفة ، بل ثمرة تفاهم واتفاق ، وأن يكون نوعاً من جمعية سرية أنشئت من زمن طويل للمحافظة على السر واخفائه عن أنظار الضعفاء والبؤساء ، وتأمين سعادتهم بذلك . لا بد أن يكون الأمر كذلك حتماً . هذا لا مناص منه . ويبدو لي من جهة أخرى أن الماسونيين الأحرار لا بد أن يكون لهم هم أيضاً سر من هذا النوع يقوم عليه تنظيمهم . ولعل هذا هو السبب فيما يحمله لهم الكاثوليكيون من كره وبغض ، فهم يرون فيهم منافسين لهم سيئون الى وحدة الفكرة ، بينما يجب أن لا يكون هناك الا قطع واحد وراع واحد ولكنني ألاحظ انني في دفاعي عن فكرتي أظهر بمظهر مؤلف عاجز عن احتمال نقدك . كفى هذا . . .

لم يستطع أليوشا أن يمنع نفسه عن أن يسأله في تلك اللحظة :

— أترك تنتمي الى الماسونيين الأحرار ؟

ثم أضاف يقول :

— أنت لا تؤمن بالله .

ولكنه أضاف هذه العبارة بلهجة تنم عن حزن عميق في هذه المرة . حتى لقد بدا له أن أخاه ينظر اليه وقد لاح في وجهه السخر .

وسأله فجأة وهو خافض عينيه :

— كيف تنتهي قصيدتك ؟ أهى تقف عند هذا الحد ؟

— خطر ببالي أن أختتمها على النحو التالي : صمت كبير المفتشين

يستظر من سجينه رداً . ان صمت السجين قد ثقل على نفسه . لقد اقتصر أسيره طوال مدة كلامه على أن يحدثق اليه بنظرة رقيقة نافذة ، عازماً عزماً واضحاً على أن لا يدخل في مناقشة معه . كان العجوز يؤثر على ذلك أن يجيبه السجين ولو بكلمات لاذعة أو رهيبة . ولكن السجين لم

ينطق بكلمة واحدة • وهذا هو يقترب من العجوز فجأة فيطبع قبلة
رقيقة على شفتيه الشاحبتين شحوب شفتى من بلغ من عمره النسعين •
كان ذلك كل جوابه • ارتعش العجوز بتأثير هذه القبلة ، واختلج شيء
ما فى طرفى فمه • واتجه نحو الباب ففتحه وقال لسجينه : « اذهب الآن ،
ولا تعد بعد اليوم أبدا ، أبدا ! » • وأوماً له بيده الى « الشوارع المظلمة
المقفرة من المدينة » • وانصرف السجين •

— والعجوز ؟

— حرقت القبلة قلبه ، ولكنه لم يعدل عن فكرته •

— التى هى فكرتك أيضا ، أليس كذلك ؟

بهذا صاح أليوشا يقول فى مرارة • فأخذ ايفان يضحك • وقال :

— ما بك يا أليوشا ؟ ما هذا كله بجد • هى قصيدة سخيفة ألفها
طالب غبى لم يكن فى يوم من أيام حياته قادراً على أن يسطر بيتين من
الشعر • فلماذا تهتم بها هذا الاهتمام كله ، ولماذا توليها هذا الشأن كله ؟
أتراك ستظن أننى ذاهب الى الخارج لأنضم الى هؤلاء اليسوعيين
ولأنخرط فى صفوف أولئك الذين يدعون « اصلاح ما قام به المسيح » ؟
فيم يعيننى هذا كله ؟ لقد سبق أن قلت لك ان كل ما يعيننى هو أن أديم
ابتهاجى الى الثلاثين من العمر ثم أرمى الكأس !

هتف أليوشا يقول مبتلثاً مرارة :

— وبراعم الربيع الغضة ، ماذا أنت صانع بها ؟ والقبور المزينة
عليك ، والسماء الزرقاء ، والمرأة التى تحب ؟ كيف ستعيش اذن ، وأين
ستجد القدرة على أن تظل تحب ؟ انك بهذه الأفكار الجهنمية فى رأسك
وفى قلبك لن تستطيع ذلك ! بلى بلى ••• انك مسافر الى الخارج لتتضم
اليهم ، والا فستقتل نفسك ••• انك لن تصمد !

قال ايفان ببطء وهو يتسهم ابتسامة باردة :
- فى نفسى قوة ستتيح لى أن أضمم مع ذلك *
- أية قوة ؟

- قوة آل كارامازوف ... قوة الحطة والخسة فى آل
كارامازوف !

- ماذا اذن ؟ أتعرف فى العهر والفجور والفحش ، أتخلق الروح
فى حضيض الجسد ؟ أهذا ما تفكر فيه ؟
- ربما ... ولكننى سأعرف كيف أتحاشاه حتى السلاطين من
العمر * وبعدئذ ...
- ستعرف كيف تتحاشاه ؟ كيف ؟ هذا مستبعد ما دامت أفكارك
هى هذه الأفكار ...

- بل سأعرف كيف أتحاشاه ، وذلك على طريقة آل كارامازوف
أيضاً .

- على طريقة آل ... أياكون ذلك باستيحائك النظرية القائلة ان
« كل شىء مشروع » متى كان متفقاً والمصلحة ؟

قطب ايفان حاجبيه وشحب لونه شحوبا غريبا * وقال :
- آه ! أأنت تلمع الى الفكرة التى عبّرت عنها أمس عند شيخك ،
فكان أن أمارت استياء ذلك الشهم ميوسوف ... تلك الفكرة التى تلقفها
دمترى فصاغها تلك الصياغة الساذجة المفرطة فى السذاجة ؟ (أضاف
ايفان ذلك وهو يتسهم ابتسامة متكلفة) ... ليكن ! هو كذلك على وجه
الاجمال ! كل شىء مباح * قلت ذلك ولن أنقضه * أما صياغة ميتيا فليست
رديئة هى الأخرى ...

نظر اليه أليوشا صامتا *

واستأنف ايفان كلامه يقول بانفعال مباغت :

- كنت أحدث نفسي يا أخى بأننى سأحتفظ حين أسافر بانسان واحد يحبنى على الأقل ، ولكننى ألاحظ الآن أن ليس لى فى قلبك مكان يا عزيزى المعتزل . أنا لن أنكر فكرتى القائلة بأن « كل شئ مباح » ؛ ولكنك أنت ستكرننى بسبب هذه الفكرة ، اذا صدق فهمى ، أليس كذلك ؟

نهض أليوشا واقترب من أخيه ، وطبع على فمه قبلة رقيقة دون أن يقول شيئاً .

هتف ايفان يقول فى حماسة :

- هذا سطو أدبى . لقد سرقت الفكرة من قصيدتى . شكراً شكراً على كل حال . انهض يا أليوشا . آن أوان الانصراف ، لى ولك على السواء .

خرج الأخوان ولكنهما توقفا على درجات باب الكاباريه .

قال ايفان بصوت جازم :

- اسمع يا أليوشا . . . اذا بقى فى نفسى من الحياة ما يكفى لأن أحب براعم الربيع النضرة ، فسيكون هذا بفضل ذكراك . سوف يكفينى فى ساعات الكمد واليأس أن أتذكر أنك ما تزال تحيا فى مكان ما حتى أسترد حب الحياة فوراً . هل يرضيك هذا ؟ عُدَّه تصرّيح حب ان شئت . والآن . . . ان طريقنا يفترقان . ستمضى أنت يميناً ، وسأَمْضى أنا يسرة . كفى ثمرات ، هل فهمت ؟ وحتى اذا لم أسافر غداً (وأنا أعتقد اننى سأسافر) ، فالتقينا مرة أخرى ، فلا تعد الى هذه المسائل التى ناقشناها اليوم ، أرجوك . حذار من كلمة واحدة فى هذا الموضوع ! ولا تكلمنى أيضاً عن دمترى فى المستقبل ، اننى أطلب منك هذا جازماً

فاطماً • والأفضل أن لا تكلمنى بعد الآن فط (كذلك أضاف يقول بعصية
مباغته) • لقد استنفدنا كل ما كان علينا أن نفوله ، أليس هذا صحيحاً ؟
وفى مقابل ذلك فانتى أقطع لك هذا الوعد : حين سأقرر فى الثلاثين من
العمر أن « أرمى الكأس » ، فسوف أجيء لأراك مرة أخرى ، حينما
كنت أعيش فى ذلك الحين ••• ولو كنت أعيش فى أمريكا ••• سأجىء
إليك فنتناقش من جديد ••• فى وسعك أن تعوّل على هذا • سأقوم
برحلة خاصة لهذا الغرض • سيشوقنى أن أراك عندئذ وأن أعرف
ما الذى صرت إليه • ذلك عهد أقطعه على نفسى • وقد لا نلتقى قبل
انقضاء سبع سنين أو عشر سنين • اذهب الآن ، أسرع الى صاحبك
« الأب سيرايفيكوس » ، لأنه يحتضر • فإذا مات فى غيابك فقد تحقّد علىّ
لأننى أخرتكَ • الى اللقاء • قبلنى أيضاً ••• هكذا ••• والآن
فاذهب •••

تركه ايفان وسار فى طريقه دون أن يلتفت • ان هذا الانصراف
المباغت يذكر بالطريقة التى ترك بها دمترى أخاه أليوشا أمس ، رغم أن
الظروف مختلفة بعضها عن بعض كل الاختلاف • مسّ هذا التشابه
الغريب فكر أليوشا مسّاً خاطفاً جداً ، فشمر فجأة بحزن وارهاق •
لبث فى مكانه بعض الوقت يتابع ببصره أخاه الذى كان يتعمد • لاحظ ،
دون أن يعرف لماذا لاحظ ذلك فى تلك اللحظة ، أن مشية ايفان كانت
متمايلة بعض التمايل وان كتفه اليمنى تُرى من الظهر أخفض من
الكتف الأخرى • انه لم يلاحظ هذا يوماً من قبل • وأخيراً استدار هو
أيضاً واتجه نحو الدير مسرعاً يكاد يركض ركضاً • كان الظلام قد هبط •
شعر أليوشا بخوف غامض يحتاجه • لقد نبت فى نفسه احساس لم
يستطع أن يستبين طبيعته • هبّت الريح كما هبت فى الليلة البارحة •
وغمرته أشجار الصنوبر التى تبلغ السنة المائة من أعمارها ، غمرته

بحفيف شجى حزين حين دخل غابة المنسك • كان يركض • « الأب سيراڤيكوس » ، أين تراه وجد هذا الاسم ؟ كذلك تساءل أليوشا •
- ايفان ، أخى المسكين ، متى عسى أراك ؟ ... هذا هو المنسك !
آه ... يارب ! نعم نعم ، سوف ينقذنى « الأب سيراڤيكوس » * ...
سوف ينقذنى منه الى الأبد •

سوف يتساءل أليوشا مرارا أثناء حياته ، فى دهشة عميقة ، كيف أمكنه فى ذلك اليوم ، بعد أن ترك أخاه ايفان ، أن ينسى نسياناً تاماً أخاه دمترى ، مع أنه كان قد عزم عزمًا أكيداً قبل ذلك ببضع ساعات على أن يعثر عليه مهما كلف الأمر ، ولو اضطر فى سبيل ذلك أن يعدل عن الذهاب الى الدير فى تلك الليلة •

حيث السبيل إلى الفهم بعد



ايفان فيدوروفتش ، بعد أن ودّع أليوشا ، الى مسكنه أى الى منزل أبيه فيدور بافلوفتش . ولكن الشيء الغريب هو أنه شعر فجأة بقلق لا يطاق ، يغزو نفسه ويزداد على قدر اقترابه من بيته . وليس القلق والحزن اللذان يشعر بهما هما اللذان يدهشانه ، وانما يدهشه أنه لا يستطيع أن يحدد لهما سبباً . لقد سبق له كثيراً فى الماضى أن أحس بحزن يستولى على نفسه ، ولا غرابة فى أن يكون حزينا فى هذه اللحظة التى يتهاى فيها للسفر بعد أن قطع صلته بكل ما يشده الى هذه المدينة ، والتى يهمل فيها أن يسير فى اتجاه جديد ما يزال يجهله . سوف يكون وحيدا من جديد ، وحيداً كل الوحدة كما كان من قبل ، مع آماله العريضة الواسعة ، لأنه ينتظر من الحياة أشياء كثيرة ، لعلها مسرفة فى الكثرة ، دون أن يعرف ما هى هذه الأشياء من جهة أخرى . وهو يشعر بأنه عاجز عن أن يرى هذه الآمال وحتى هذه الأشواق رؤية واضحة . غير أن الشيء الذى يعذبه فى هذه اللحظة ليس هو تلك الخشية من مستقبل غير محدد ، رغم أن هذه الخشية قائمة فى نفسه . تساءل قائلاً : « أترأه هو الاشتمزاز الذى يوقظه فى نفسى منزل أبى ؟ لكأننى قد بلغت من كره هذا المنزل أننى لا أستطيع التغلب على

التفرز من الذهاب اليه رغم علمي بأنني أجتاز عتبته آخر مرة ... ولكن لا ... لا ... ليس هذا سبب الارهاق الذي أشعر به الآن . أهو اذن وداع أليوشا والحديث الذي جرى بيني وبينه ؟ لقد أصرت على الصمت سنين طويلة ، لا أتذلل أن أفتح فمي بكلمة لانسان ، ثم هأنذا أخرج جميع تلك السخافات دفعة واحدة . » صحيح أن من الجائز أن يشعر لقلّة تجربته وشدة غروره ، غرور المراهق ، بشيء من الحسرة والأسف على أنه لم يستطع أن يعبر عن نفسه كما كان يتمنى أن يعبر ، ولا سيما أمام انسان كأليوشا ينتظر منه في قرارة نفسه أشياء كثيرة . لا شك أن في نفسه الآن شيئاً من الحسرة والأسف ، ذلك لا بد منه . . ولكن ليس هذا ما يثقل على صدره الآن ويخفه خنقاً ... هناك شيء آخر ... ولكن ما هو ؟ « ان غماً يملأ جوانب نفسي حتى ليكاد يثير غيائي ، ولست أصل الى معرفة ما يعوزني ومعرفة ما أريد . لعل الأفضل أن لا أفكر في هذا الأمر ... » .

حاول ايفان فيدوروفتش أن « لا يفكر في هذا الأمر » ، ولكنه لم يفلح . ان الغم الذي يشعر به يتميز بهذا الطابع المثير وهو أن مصدره علة خارجية عرضية طارئة . ان ايفان يحس ذلك احساساً واضحاً . ان الأمر أمر شيء أو شخص - لا يدري ايفان على وجه الدقة - لا يطاق وجوده في نظر ايفان . ان ايفان يحس بضيق شبيه بالضيق الذي يشيره في النفس أحياناً ، أثناء العمل أو أثناء حديث حار ، وجود شيء مزعج لم يره المرء رؤية واعية بعد ، ولكنه يغتاض منه غيظاً يحاصره ويسد عليه الأبواب الى أن يخطر بباله أخيراً أن يزيح سبب هذا الانزعاج الذي كثيراً ما يكون سبباً تافهاً : شيئاً ليس في مكانه ، منديلاً ساقطاً على الأرض ، كتاباً نسي وضعه في المكتبة ، الخ .

بلغ ايفان منزل أبيه أخيراً ، معتكر المزاج جداً ، مهتاج الأعصاب

اهتياجاً شديداً • وحين أصبح على مسافة خمس عشرة خطوة من باب الحديقة الحديدية ألقي نظرة على مدخل المنزل فأدرك على حين فجأة ما كان يحقنه ويعذبه طوال الطريق •

كان الخادم سمردياكوف جالساً على دكة قرب الباب الكبير يتمتع بطراوة الجو • فما إن لمح إيوان فيدوروفتش حتى أدرك أن صورة هذا الخادم كانت قد لازمت خياله على غير علم منه ، فكان يضيق ذرعاً بها ولا يطيقها • لقد اتضح كل شيء • فحين كان أليوشا يحدثه ، في الكاباريه ، عن اجتماعه بالخادم ، شعر إيوان بانزعاج شديد ونفور قوى لم يلبث أن استحالا الى غضب وحق • ولقد انقطع عن التفكير في سمردياكوف أثناء الحديث الذي أعقب ذلك ، غير أن غيظاً ثقيلاً قد بقى في قلبه ، فلما ترك أليوشا واتجه الى منزل أبيه استيقظ فيه ذلك الاحساس بالانزعاج دون أن يستطيع الاهتداء الى أصله • تساءل إيوان محتدأ : « كيف يمكن أن يقلقني هذا الجرو الغبي مثل هذا الاقلاق ؟ » •

والواقع أن إيوان فيدوروفتش كان قد كره هذا الرجل منذ زمن ، ولا سيما في الأيام الأخيرة • وكان يدرك هو نفسه أن العداوة التي يشعر بها نحو هذا الانسان تشبه أن تكون بغضاً ومقتاً • ولعل عداوته له قد استفحلت واحتدت لأن موقف إيوان فيدوروفتش من الخادم كان عند وصوله الى مدينتنا يختلف عن هذا الموقف كل الاختلاف • لقد أظهر إيوان في ذلك الوقت شيئاً من الاهتمام بالخادم ، حتى لقد عدّه امرءاً طريفاً كل الطرافة ، وشجّع على أن يتحدث اليه ، دون أن يفوته مع ذلك ما كان في أحاديث هذا الرجل من بعض التفكك ، أو قل من بعض القلق ، وكان إيوان يتساءل : ترى ما الذي يهزّ فكر هذا « المتأمل » على هذا النحو بغير انقطاع ؟ لقد عاجلنا موضوعات فلسفية ، وناقشنا ، فيما ناقشنا ، مسألة الضياء من أين جاء في أول يوم من أيام خلق

العالم ما دامت الشمس والنجوم والقمر لم تخلق الا فى اليوم الرابع من أيام الخلق ؟ وتساءلا : كيف يمكن تاويل هذه الآية من التوراة ؟ ولكن ايفان فيدوروفتش لم يلبث أن لاحظ أن سمردياكوف لا يعبأ بالكواكب كثيرا وأن مسائل علم النجوم لا تعنيه كثيرا وان تكن جذابة . كان واضحا أن ما يشغل باله ويملاً رأسه هو غير هذا تماماً . وشيئاً فشيئاً ظهرت أنانيته وظهر غروره ، يفاقمهما أنه سريع التأذى على ادعاء وتبجح . فهذه الخصال لم تعجب ايفان ، وولدت نفوره منه وكرهه له ، وبعد ذلك ، حين انبثقت المشكلات العائلية المعقدة بظهور جروشكا وقيام المنازعات بين دمترى وأبيه ، أتيح لايقان أن يتحدث عن هذه المصاعب مع الخادم ، فكان يستحيل عليه ، رغم أن سمردياكوف كان يتكلم عن هذه المشكلات دائماً باضطراب شديد ، أن يدرك ماذا كان يريد الخادم أن يقول ، وما هو الشيء الذى يتمناه هو نفسه . ان ما يلمحه المرء فى رغباته من بعد عن المنطق والرشاد ، على نحو غامض ، يثير الدهشة والاستغراب . كان سمردياكوف يستوضح كثيراً ، ويلقى بعض الأسئلة موارد ، لغرض فى نفسه من غير شك ، ولكن دون أن يفصح عن هذا الغرض ، وكان يصمت فجأة فى بعض الأحيان أو ينتقل الى موضوع آخر فى وسط الكلام . ولكن ايفان انما أصبح يحنقه خاصة أن سمردياكوف قد أخذ يرفع الكلفة بينه وبينه ، فهو يخاطبه فى غير تخرج ، وهو يمعن فى ذلك مزيداً من الامعان يوماً بعد يوم . وقد ولّد هذا الموقف فى نفس ايفان نفوراً شديداً وعداوة حاسمة وكرهية قاطعة . ليس معنى ذلك أن سمردياكوف يجيز لنفسه أن لا يكون مؤدباً مهذباً مع ايفان . بالعكس: لقد كان يصطنع فى مخاطبته كثيراً من الاحترام . ومع ذلك فقد انتهت الأمور بالخادم الى حيث اعتقد ، لا ندرى لماذا ، أنه متضامن مع ايفان فيدوروفتش . فهو يتحدث اليه بطريقة خاصة ، كأن بين الرجلين تفاهماً

مضمرآ سريآ ، وتواطؤآ قائمآ منذ زمن طويل ، وروابط لا يعرفها أحد غيرهما ولا يفهمها من يحيط بهما • ولقد لبث ايفان مدة طويلة لا يفهم السبب الحقيقى الذى يثير حقنه المتزايد ، ثم لم يدركه الا منذ بضعة أيام •

أراد ايفان ، وقد استبد به الاشمئزاز والغضب ، أن يجتاز الباب دون أن يبدو عليه أنه رأى سمردياكوف • ولكن سمردياكوف نهض عن دكته ، فسرعان ما أدرك ايفان من وضعه أنه يريد أن يحدثه حديثاً خاصاً • نظر اليه ايفان وتوقف • وما أشد ما أحقنه توقفه هذا ! لقد كان ينوى منذ لحظات قليلة أن يمرّ دون توقف ، فلما رأى نفسه يتوقف شعر بغيط شديد ! وأخذ ينظر بكراهية حاقدة الى هذا الوجه المصوص الذى يشبه وجوه الخصيان ، والى هذا الشعر المصفف بكثير من العناية على الصدغين ، والى تلك الذؤابة المنتصبة على الرأس • وكانت عين سمردياكوف اليسرى التى تغضن حاجبها ، تغمز غمزة مأكرة ، فكأنه يقول : « قف ، لن أدعك تمر • ألا ترى أن هناك كلاماً يجب أن تتبادله نحن معشر الأذكاء ؟ » •

ارتعد ايفان غضباً ، وتمنى لو يصيح قائلاً : « امض أيها الجرو ! أنا من يكون صاحباً لرجل أبله من نوعك ؟ » • فما كان أشد دهشته حين رأى نفسه يخاطبه بطريقة تختلف عن هذه الطريقة كل الاختلاف ! — أما يزال أبى نائماً أم أنه استيقظ ؟

كذلك سأله برقة فيها اذعان وتسليم أدهشاه ؛ وعلى هذا النحو نفسه الذى لم يكن فى الحسبان أيضاً ، رأى نفسه يجلس على الدكة • وقد تذكر فيما بعد أن ذلك كاد يربعه فى اللحظة الأولى • كان سمردياكوف واقفاً أمامه ، جاعلاً يديه وراء ظهره ، ينظر اليه نظرة فيها ثقة بل وفيها قسوة • وقال دون تعجل :

— انه ما يزال يرتاح •

قال ايفان يخاطب نفسه: «آها ! هو الذى يبادرنى بالكلام الآن !» •
وأردف سمردياكوف يقول بعد صمت ، وهو يغمض عينيه فى
تصنع ، ويقدم رجله اليمنى ، ويهز رأسه حذائه الملمّع :

— هل تعلم أنك تدهشنى يا سيدى ؟

فأجابه ايفان فيدوروفتش بلهجة خشنة قاسية ، وهو يحاول أن
يسيطر على نفسه ، قائلاً :

— ما الذى يدهشك ؟

ولكن ايفان شعر فى الوقت نفسه ، على اشمزاز وتقزز ، أن فى
نفسه استطاعاً قوياً لن ينصرف قبل أن يرضيه •

واستأنف سمردياكوف كلامه قائلاً وهو يرفع عينيه ، ويتنسم فى
ألفة :

— لماذا لم تسافر يا سيدى الى تشرماشنيا * ؟

وكانت عينه اليسرى كأنها تقول : « ما دمت ذكياً هذا الذكاء كله
فيجب أن تفهم سبب ابتسامتى » •

قال ايفان فيدوروفتش متعجباً :

— لأى غرض أذهب الى تشرماشنيا ؟

فأجابه سمردياكوف أخيراً :

— لقد رجلك فيدور بافلوفتش أن تسافر اليها فى كثير من الاحاح •

كان سمردياكوف يتكلم ببطء كأنه لا يولى جوابه هذا أى اهتمام •
فكأنه يقول له : « اننى أجيبك بأى شىء ، بأول جواب يخطر على بالى ،
لا لهدف الا أن أقول شيئاً ما » •

صاح ايفان فيدوروفتش يقول غاضباً ، منتقلاً من الازعاج الى الحق بدون تدرج :

— ما هذه الأساليب الغامضة الملتوية ؟ هلاًّ تكلمت بوضوح ؟ ماذا تريد ؟

ردّ سمردياكوف قدمه اليمنى نحو قدمه اليسرى ، ونصب قامته ، ولكنه لم يتخلّ عن هدوئه ، وظلّ يتسّم .

— ليس هناك أى شيء هام ... وانما تكلمت بغير هدف محدد أو غاية معينة ...

وساد صمت . صمت الرجلان كلاهما قرابة دقيقة . أدرك ايفان فيدوروفتش أن عليه أن ينهض وأن يغضب . وكان سمردياكوف واقفاً أمامه وقد بدا على وجهه كأنه يقول له : « سنرى الآن هل تغضب أو لا تغضب » . ذلك ما شعر به ايفان على الأقل . وهمّ ايفان أخيراً أن ينهض . ففتح سمردياكوف عندئذ فمه كأنه قد انتظر هذه اللحظة ليتكلم .

قال فى ببطء ، بصوت جازم ، وهو يقطع كلامه :

— اننى فى وضع رهيب يا ايفان فيدوروفتش ، وأنا أَسْأَلُ كيف يمكننى أن أخرج من المأزق .

ثم تنهد تنهدة كبيرة . عاد ايفان يجلس . واستأنف سمردياكوف كلامه فقال :

— لكأنهما فقدوا كلاهما العقل . انهما يتصرفان تصرف أطفال صغار . اننى أتكلّم عن أبك وعن أخيك دمترى فيدوروفتش . سوف بأخذ فيدور بافلوفتش يعذبني بأسئلته متى نهض من فراشه ، سوف يسألنى فى كل لحظة : « هيه ؟ ألم تجيء ؟ لماذا لم تجيء ؟ » . وسوف

تستمر هذه الأسئلة الى منتصف الليل ، والى ما بعد منتصف الليل . واذا لم تجيء أجرافين الكسندروفنا (وفى رأيى أنها لا تنوى أن تجيء أبدا) ، فسوف يستأنف أسئلته فى صباح الغد متهجماً على : « لماذا لم تجيء ؟ متى تجيء ؟ » ، كأننى أنا المذنب . والقصة هى نفسها فى الجانب الآخر . فمتى هبسط العسق ، بل وقبل هبوط العسق ، يأخذ أخوك دمترى بالاستعداد فيكمن فى مكان قريب مسلحاً ، ويقول لى : « انتبه أيها الوغد ! حذار أيها الوغد ! لئن تركتها تدخل دون أن تنبئنى ، لأقتلك أنت أول من أقتل ! » . حتى اذا انقضى الليل عاد يعذبنى بأسئلته كأبيك : « ألم تجيء بعد ؟ هل تجيء قريباً ؟ » . لكأنه يعدنى ، هو أيضاً ، مسئولاً عن سلوك هذه السيدة ! الأمور تسير من سىء الى أسوأ ، وغضبهما كلبهما يزداد من ساعة الى ساعة . والخوف يحاصرني حتى لأفكر فى قتل نفسى تخلصاً من هذا المأزق . اننى لا أتوقع منهما أى خير يا سيدى !

قال ايفان منزعجاً :

— ما كان ينبغي لك أن تحشر نفسك فى هذا الأمر ! لماذا ارتضيت أن تكون لدمترى فيدوروفتش مُخبراً ؟

— كيف كان يمكننى أن أبقي بعيداً ؟ اننى لم أحشر نفسى فى الأمر ، اذا شئت أن تعرف ذلك . كنت أصمت ولا أجرو أن أرد ، ولكن أخاك ألح وأكرهنى على أن أكون له فى هذه القضية خادماً . وهو منذ ذلك الحين ما ينفك يكرر على مسامعى قوله : « لأقتلك يها الوغد ، لأقتلك اذا تركتها تمر ! » . أنا على يقين من أننى سأصاب غداً بنوبة طويلة .

— أية نوبة ؟

— نوبة صرع ، طويلة ، طويلة جداً . ربما دامت بضع ساعات ، وربما استمرت الى الغد . لقد سبق أن أصبت بنوبة امتدت ثلاثة أيام .

سقطت من الشونة • وبقيت ثلاثة أيام لا أفيق من الاغماء • يحدث لى هذا فجأة • وفى تلك المرة استدعى فيدور بافلوفتش الطبيب ، استدعى ذلك الدكتور هرتسنشتوبه ، فوصف لى ثلجاً على الجبين ودواء آخر • • وكدت أموت •

– يُقال ان نوبات الصرع لا يمكن التنبؤ بها • فكيف تزعم أنك ستصاب غداً بنوبة ؟

كذلك سأله ايفان باستطلاع يمازجه غيظ • فقال سمردياكوف :
– صحيح • • • لا يمكن التنبؤ بها •
– ثم انك عند تلك النوبة الطويلة قد سقطت من طابق الشونة •

– ذلك أنتى أصعد الى ذلك الطابق كل يوم ، ومن الجائز جداً أن أسقط منه فى الغد أيضاً • واذا لم أسقط من طابق الشونة ، فقد أسقط فى القبو ، لأننى أذهب الى القبو كل يوم للقيام بالخدمة •
تفرس فيه ايفان فيدوروفتش طويلاً •

ثم قال بصوت خافت ولكن مع شىء من التهديد :

– يبدو أنك تدبر أمراً • ما الذى تريد أن تصل اليه ؟ أتراك ستتظاهر غداً بنوبة تدوم ثلاثة أيام ، هه ؟

كان سمردياكوف قد غَض عينيه ، وعاد يهزُّ رأس حذائه •
وها هو ذا الآن يرجع رجله اليمنى ويقدم رجله اليسرى ويرفع رأسه ويقول بعد ضحكة صغيرة :

– هبنى دبرت لهم « مقلباً » من هذا النوع : ان هناك أسباباً وجيهة تدفعنى الى أن أفعل ذلك • لما كان من السهل على المرء أن يتظاهر بالصرع اذا كان يملك بعض التجربة ، فسيكون من حقى تماماً أن ألجأ الى هذه

الوسيلة انقاذاً لحياتي • فاذا حدث أن فررت أجسرافين الكسندروفنا أن
تجئ الى أبيك ، فلن يستطيع أخوك أن يسأل رجلاً مريضاً : « لماذا لم
تبلغني ؟ » • سوف يستحي هو نفسه أن يفعل ذلك •

هتف ايفان فيدوروفتش يقول وقد تقبض وجهه غضباً :

— شيطان يأخذك ! لماذا تخاف على جلدك أيها الجبان ؟ ليست
تهديدات دمتری الا كلاماً في الهواء ! انه لن يقتلك • قد يقتل ، ولكنه
لن يقتلك أنت على كل حال •

— بلى ! سيقتلني كذابة ، وسيقتلني قبل أن يقتل أى انسان آخر!
هناك مع ذلك شيء أخشاه أكثر من هذا أيضا : هو أن أتهم بالتواطؤ معه
اذا هو أقدم على ارتكاب عمل طائش مجنون في حق أبيك •

— علام تتهم في هذه الحالة ؟

— سيظن اننى شريك لأننى أطلعته على تلك الاشارات السرية •

— أى اشارات تعنى ؟ سحراً لأساليبك المخاتلة هذه! هلاً قلت كلاماً
واضحاً آخر الأمر ؟

بدأ سمردياكوف يقول مقطعاً كلامه كأنما ليضفى على نفسه قيمة
وشأناً :

— يجب أن أعترف لك بأن هناك سرا بينى وبين فيدور بافلوفتش •
فمنذ بضعة ايام ، كما لعلك تعلم ذلك (وقد لا تعلم على كل حال !) ،
تموّد فيدور بافلوفتش أن يقفل الباب على نفسه بالمفتاح ، منذ يهبط
الليل ، ومنذ يهبط الغسق أحياناً • انك في الآونة الأخيرة تصعد الى
جناحك في ساعة مبكرة ، وامس متلاً لم تخرج قط ؛ لذلك فلعلك لم
تلاحظ شدة اعتصامه بغرفته الآن ، ومدى حرصه على احكام اغلاقها •

انه لا يفتح الباب حتى لجريجورى فاسيلقتش اذا هو لم يتعرف صوته على وجه اليقين . ولكن جريجورى فاسيلقتش لا يجىء ، لذلك فأنا وحدى أخذته فى غرفته . هذا ما قرر أن يعمد اليه منذ اندفع فى تلك المغامرة مع أجرافين ألكسندروفنا . وتنفيذاً لأوامره . فأننى أترك المنزل أنا أيضاً متى حلّ الظلام ، وأمضى أقصى الليل فى الملحقات ، ملزماً بالسهر الى منتصف الليل على كل حال ، لأتربص وأخرج الى الفناء من حين الى حين بغية أن أرى ألم تجىء أجرافين ألكسندروفنا . ذلك أنه ينتظرها منذ عدة أيام بالحاح هو الجنون . انه يفكر على النحو التالى : لا شك أنها تخاف منه ، من دمترى فيدوروفتش (وهو يسميه ميتكا) ، لذلك ستؤثر أن تجىء فى الليل مارةً من الفناء . وأنا مكلف اذن بانتظارها كل مساء الى منتصف الليل والى ما بعد منتصف الليل . قال لى : « متى ظهرت » كان عليك أن تسرع الىّ ، فتقرع بابى أو نافذة الحديقة فرعتين أولاً ، قرعتين غير قويتين جداً ، هكذا : طق ، طق ؛ ثم ثلاث قرعات أكثر تقارباً : طق ، طق ، طق ؛ فاعلم عندئذ أنها جاءت ، فأفتح الباب برفق وهدوء . » ثم شرح لى بعد ذلك اشارة أخرى استعملها حين يحدث شىء استثنائى : أقرع فى أول الأمر قرعتين متقاربتين : طق طق ، وبعد برهة أقرع فرعةً ثالثة أقوى ، فيفهم عندئذ أنه وقع حادث مفاجئ . وأنتى أريد أن أكلمه ، فيفتح لى الباب ، فأروى له ما وقع . هذا اذا لم تجىء أجرافين ألكسندروفنا وانما أوفدت رسولاً برسالة ، أو اذا ظهر دمترى فيدوروفتش على مقربة من المنزل ، فبذلك أستطيع ابلاغه الأمر فوراً . انه يخاف دمترى فيدوروفتش خوفاً رهيباً وقد أمرنى بأن علىّ ، اذا حدث أن كانت أجرافين ايفانوفنا فى المنزل مختلّة به ، فظهر دمترى فيدوروفتش على مقربة من المنزل ، أن أبلغه ذلك فوراً بقرع الباب أو النافذة ثلاث قرعات . لقد علمنى اذن اشارتين : الأولى تتألف من خمس

قرعات ، ومعناها أن أجرافين ألكسندروفنا جاءت ، والثانية تتألف من ثلاث قرعات ومعناها أنني أريد أن أكلمه حالاً . وقد جرّب هاتين الاشارتين أمامي مرارا لا تعلمهما . واذ أن أحداً في العالم لا يعرف هاتين الاشارتين ، الا أنا وهو ، فانه متى سمع الاشارة سيفتح الباب فوراً بلا تردد ، وبدون أن يلقي أى سؤال (لأنه يخاف أن يُسمع صوته) . والمشكلة الآن هي أن دمترى فيدوروفتش أصبح يعرف هاتين الاشارتين . - من أين عرفهما ؟ أنت كشفت له اذن عنهما ؟ فكيف تجرأت أن تفعل ؟

- كيف تجرأت ؟ من الخوف طبعاً ! وهل من سبيل الى الصمت معه ؟ كان لا ينفك يكرر على مسامعي في كل يوم قوله : « أنت تكذب ! أنت تخفى عنى شيئاً . لأحطمن ساقيك ! » وعندئذ أطلعت على هاتين الاشارتين السريتين ليرى على الأقل اننى أطيعه ولا أعصى أمره ، وأن ليس عليه بعد الآن أن يتخيل أنني أخفى عنه الحقيقة ما دمت أبوح له بهذه التفاصيل السرية .

- اذا كنت تقدّر أنه ينوى أن يستخدم هاتين الاشارتين ليدخل ، فما عليك الا أن تمنعه من الدخول ... الأمر بسيط ...

- فاذا اتفق أن كنت في تلك اللحظة بعينها فاقداً وعيى بسبب نوبة صرع ؟ كيف أستطيع عندئذ أن أمنعه من الدخول ، هذا اذا كنت أملك الجرأة على اعتراضه وأنا أعرف ما يكون عليه في تلك الحالة من ضراوة وعنف !

- سحقاً لك ولنوبة الصرع التي تتكلم عنها هذه ! كيف علمت أنه نوبة صرع ستصيبك غداً ؟ أتراك تضحك على ؟ - وهل أجرو أن أضحك عليك يا سيدى ؟ هل تظن أن بى رغبة

فى الضحك وأنا فيما أنا فى من فزع ؟ ان الخوف بعينه هو الذى سىحدث
لى هذه النوبة •

— طيب ••• اذا كنت أنت مريضاً ، أمكن أن يتولى الحراسة
جريجورى ، وسوف يمنعه هو من الدخول فى جميع الأحوال •

— ولكننى ممنوع من اطلاع جريجورى فاسيلفتش على هاتين
الاشارتين الا باذن من السيد • أما عن امكان أن يسمع جريجورى
مجيئه وأن يمنعه من الدخول فيجب أن أقول لك ان جريجورى مريض
منذ أمس ، وان مارفا اجناتفنا تنوى أن تداويه فى الغد • على هذا اتفاقا
اليوم • وان لها فى مداواة زوجها طريقة غريبة جداً : انها تعرف مزيجاً
من العقاقير تحتفظ به فى بيتها دائماً لمثل هذه الحالات ، وهو سائل قوى
جداً تعرف سره فيما يبدو وتصنعه من أعشاب تغليها فى الماء وتداوى به
زوجها ثلاث مرات فى العام تقريباً حين يلح عليه مرض اللباجو ويصبح
شبه مشلول • انها تبلل بهذا السائل قطعة من قماش تأخذ تدلك بها ظهره
على طوله خلال نصف ساعة الى أن ينتفخ الجلد ويحمر ، حتى اذا
فرغت من ذلك جرّعته ما يبقى فى الزجاجة من هذا السائل بعد أن تتلو
دعاءً معيناً ؛ ولكنها تبقى لنفسها من السائل مقداراً قليلاً تشربه مع زوجها
انتهازاً للفرصة • ويجب أن أقول لك أيضاً انهما ، بسبب عدم تعودهما
الشراب ، ما يكادان يحسوان هذا السائل حتى يسقطا كلاهما حيث
يكونان ، فيناما نوماً عميقاً خلال مدة طويلة • فاذا استيقظا شعر
جريجورى فاسيلفتش كل مرة بأنه شفى من مرضه ، أما مارفا اجناتفنا
فلا بد أن يصيبها صداع • فاذا نفذا فى الغد عزمهما على استعمال هذا
الدواء ، فانهما لن يسمعا شيئاً ، لأنهما سينامان ، ولن يمنعا دمترى
فيدوروفتش من دخول المنزل •

صاح ايفان فيدوروفتش يقول :

- عجب ! كل شيء يحدث فى آن واحد • أنت تصاب بنوبة الصرع ، وهما ينمان نوما عميقا ! أمر لا يُصدّق !

ثم أضاف يسأله مقطّبا حاجبيه فيما يشبه التهديد :
- أتراك رتبت هذا التصادف بالمكر والحيلة ؟

- علام أفعل ؟ اننى لا شأن لى فى كل ما يحدث ! كل شيء رهن بإرادة دمترى فيدوروفتش وحده ، وبما يعزم عليه ويقرره • فإذا كان ينوى أن يوقع مصيبة فسيفعل ؟ وإذا لم يكن ينوى فلست أنا من سيجره من يده ليدفعه الى ذلك دفعا ، فيما أتخيل ، أليس كذلك ؟

عاد ايفان فيدوروفتش يقول وقد اصفر وجهه غضبا :

- لست أرى لماذا يمكن أن يجئ دمترى الى هنا ، وأن يتسلل تسلا ، اذا كانت أجراءين الكسندروفنا لا تفكر فى المجئ الى أبى ، كما قلت هذا بنفسك • لقد أكدت لى أنت هذا منذ لحظة ، وكنت أنا على يقين منذ حللت هذا المنزل أن المعجوز تراوده أوهام ، لأن هذه المخلوقة لن تنجى اليه فى يوم من الأيام • فهلا قلت لى ما هى الغاية التى يمكن أن يتسلل دمترى الى هنا فى سبيلها والحالة هذه ؟ تكلم ... اننى أريد أن أعرف حقيقة ما يجول فى خاطرك •

- انك تعرف هذه الغاية حق المعرفة ، وليس لما يجول فى خاطرى شأن فيها البتة • سوف يقتحم أخوك منزل أبيه جبا بالشر وحده أو من فرط سوء الظن • سوف يتساءل عما يجري فى المنزل ، وسيجب من فرط نفاد صبره أن يفتش جميع الغرف كما فعل أمس ليتأكد من أنها ليست مخبئة فى احدها • وهو يعلم حق العلم من جهة أخرى أن فيدور بافلوفتش قد أعدّ ظرفا كبيرا يحوى ثلاثة آلاف روبل ، قد ختمه بثلاثة أحتام وربطه بشريط معقود ، وكتب عليه بخط يده : « الى ملاكى

جروشنكا ، اذا هي رضىت أن تجىء ، وأضاف الى هذه العبارة بعد ثلاثة أيام : « الى حمامتى الغالية » •

صرخ ايفان يقول خارجاً عن طوره :

— هذا سخف • لن يسرق دمترى مالا ، ولن يقتل أباه لهذا السبب ! لقد كان يمكن أن يقتله أمس ، كمجنون مهتاج ، بسبب جروشنكا ، ولكنه لن يجىء الى هنا ليسرق •

— انه الآن فى حاجة ملحة الى المال ، انه فى ضيق شديد ، صدقنى يا ايفان فيدوروفتش • لا تستطيع أن تتصور مدى رغبته فى الحصول على مال (هكذا شرح سمردياكوف بهدوء كبير) • أضف الى ذلك أنه يعد هذه الآلاف الثلاثة حقاً له • لقد أكد لى ذلك أمس • قال : « ان أبى ما يزال مدينأ لى بثلاثة آلاف روبل تماما » • ويجب أن لا يغيب عن بالك يا ايفان فيدوروفتش ، لأن هذا هو الحقيقة بعينها ، أن أجرافين ألكسندروفنا تستطيع أن تحمل فيدور بافلوفتش على زواجها متى رغب فى ذلك أيسر رغبة • ومن الجائز جدا أن تراودها هذه الرغبة • يجب أن نقول هذا • لقد أسرفت أنا فى التعجل حين أكدت أنها لن تجىء الى هنا ، مع أنها قادرة جدا على ان تسدد الى هدف بعيد وأن تداور فى سبيل أن تصبح سيدة حقة • لقد قال لها صاحبها التاجر سامسونوف ، وأنا أعرف ذلك من مصدر مطلع موثوق ، قال لها بصراحة تامة ان هذا سيكون لها حلاً ذكياً ، وكان يضحك وهو يقول هذا الكلام • ليست جروشنكا امرأة غبية ، ثق من ذلك ! لن تبلغ من الحماسة أن تتزوج رجلاً فقيراً مثل دمترى فيدوروفتش • فما قولك والحالة هذه يا ايفان فيدوروفتش ؟ ولعلك تقدر أن دمترى فيدوروفتش ، اذا أصبحت أجرافين الكسندروفنا زوجة أبيه ، لن ينال روبلاً واحداً من ميراث أبيه بعد وفاته ، لا هو ولا أنت ولا أخوك ألكسى • ذلك أن أجرافين

الكسندروفنا لن تقبل هذا الزوج الا فى سبيل أن تنقل الى اسمها جميع ثروة أبيك ، جميع أملاكه العقارية ورءوس أمواله السائلة . أما اذا حدث مكروه لأبيك فمات قبل أن يتم هذا الزواج ، فان كلاً منكم سينال على الفور أربعين ألف روبل ، بالتمام والكمال . ان دمترى سينال هذا المبلغ رغم أن أباه يكرهه ، وذلك لأن فيدور بافلوفتش لم يكتب حتى الآن وصيته *** وهذه التفاصيل كلها يعرفها دمترى فيدوروفتش ***

تقلص وجه ايفان فيدوروفتش ، وألمت به اختلاجة ، واحمر على حين فجأة ؟ وقال مقاطعاً سمردياكوف وهو يتنفس تنفساً ثقيلاً :

— قل لى : لماذا كنت تريد أن ترانى مسافراً الى تشرماشيا ؟ ما هى الغاية التى تسعى اليها ؟ لا يعلم الا الله ما سيحدث بعد سفرى فى هذا المنزل !

فأجاب سمردياكوف يقول بلهجة هادئة متروية ، وهو يحدق الى ايفان فيدوروفتش مترقباً آثار كلامه فيه :

— هذا صحيح تماماً .

قال ايفان يسأله وهو يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يكظم غيظه ويسيطر على نفسه :

— صحيح تماماً ؟ ما معنى هذا ؟

— لئن قلت هذا الكلام ، فلأننى أشفق عليك وأرثى لحالك . اسمع لى أن أقول لك : لو كنت فى مكانك لآثرت أن أسافر على أن أجد نفسى مقحماً فى قضية من هذا النوع ***

كذلك أجاب سمردياكوف بلهجة طليقة ليس فيها شيء من تخرج ، دون أن يحول بصره عن ايفان فيدوروفتش الذى كانت عيناه تقدحان شرراً .

وأعقب ذلك صمت .

ثم قال ايفان بعد لحظة وهو ينهض عن الدكة :

— لا بد أنك أبله ... أضف الى ذلك أنك وغدا !

وكان يهمهم أن يجتاز الباب الحديدى ، ولكنه توقف فجأة والتفت نحو سمردياكوف * وحدث عندئذ شيء غريب : لقد عض ايفان على شفتيه متشنجاً ، وقبض يديه ، فكأنه يهم أن يهجم على الخادم * فأدرك سمردياكوف ذلك ، فارتجف ، وتراجع خطوة الى وراء * وانقضت ثوانٍ دون أن يصاب سمردياكوف بأذى * واتجه ايفان فيدوروفتش نحو الباب حائر الهيئة دون أن ينطق بكلمة * ثم صاح بعد ذلك يقول بصوت قوى ، مقطّعا ألفاظه ، وقد فاضت نفسه حنقا :

— سأسافر غدا الى موسكو ، اذا كنت تحرص على أن تعرف ذلك .

هذا كل شيء !

وقد أدهشه فيما بعد أن يكون قد شعر فى ذلك الظرف بالحاجة الى أن يخبر سمردياكوف بأنه مسافر * .

أجاب سمردياكوف يقول وكأنه كان يتوقع أن يفضى اليه ايفان بهذا السر :

— هذه فكرة عظيمة ! ولكنك تظل معرّضا للاستدعاء من موسكو

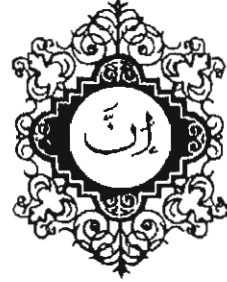
برقية اذا حدث هنا شيء * .

فتوقف ايفان مرة ثانية والتفت نحو سمردياكوف التفاتة قوية * فاذا بوضع سمردياكوف يتغير فجأة بمثل لمح البصر سرعة * تبددت الألفة التي كان يصطنعها وتبدد الاهتمام الذى كان يظهره ، تبددا بما يشبه السحر ... وعبر وجهه عندئذ عن انتباه شديد ، كما عبّر عن انتظار ذليل خاضع ، وكأن عينيه المحدثتان الى ايفان فيدوروفتش بالحاج غريب تسألانه : « ألن تقول شيئا آخر ؟ ألن تضيف كلمة واحدة ؟ » * فوعوع ايفان يقول رافعا صوته بدون سبب ظاهر :

- اذا حدث شيء فيمكن أن أستدعى من تشرماشنيا أيضا ...
فتمتم سمردياكوف يقول بما يشبه الهمس ، وكأنه ضائع الفكر
شارد اللب ، ولكنه لا ينقطع عن التحديق الى ايفان فيدوروفتش بالحاج :
- طبعاً ... اذا حدث شيء ... فستستدعى ... من تشرماشنيا ...
- الفرق الوحيد هو أن موسكو بعيدة ، أما تشرماشنيا فهي قريبة
من هنا كل القرب . هل النفقات التي لا داعي اليها هي التي تقلقك ، أم
أنت تحب أن توفر على رحلة طويلة فتصحنى بأن أسافر الى تشرماشنيا
بدلاً من أن أسافر الى موسكو ؟
- هو كذلك تماماً !

هكذا تمتم سمردياكوف يقول بصوت مرتعش وهو يتسهم ابتسامة
خبيثة .
وكان يستعد لأن يتقهقر الى وراء . فما كان أشد دهشته حين رأى
ايفان فيدوروفتش ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ، ويتجه بسرعة نحو
الباب وهو ما يزال يضحك . ولكن لو رآه ملاحظ يقظ منبه في تلك
اللحظة لأدرك أنه لم يكن يضحك هذا الضحك عن مرح وفرح . ثم
انه هو نفسه ما كان يستطيع أن يقول ما الذي كان يشعر به حينذاك .
وكانت مشيته متقطعة ، وكان في حركاته شيء يشبه أن يكون حركات
آلة .

يسلذ للمروءة حينئذ أن يتحرت مع رجل ذكي



الحالة النفسية الغريبة التي كان فيها ايفان قد ظهرت في أقواله أيضاً • فانه ما ان دخل المنزل فلمح فيدور بافلوفتش في الصالون حتى صاح يقول له من بعيد وهو يلوح بيده :

— أنا صاعد الى غرفتي رأساً • لن آتى اليك •

ومرّ بسرعة محاولاً أن لا ينظر الى أبيه •

لعل مشهد الشيخ كان في نظره عندئذ لا يطاق ، ولكن اظهره هذه الكراهية بغير تحرج قد أدهش حتى فيدور بافلوفتش نفسه • وكان واضحاً أن هناك شيئاً مستعجلاً يريد الأب أن يفضي به الى ابنه ، لذلك هبّ الى لقائه • ولكنه بعد الكلمات اللطيفة التي سمعها من ايفان فيدوروفتش توقف حيث كان ، دون أن ينطق بكلمة ، وتابعه بنظرة ساخرة بينما كان يصعد السلم ويغيب في الطابق الأعلى •

وظهر سمردياكوف للعجوز في تلك اللحظة ، فسأله العجوز :

— ماذا به اليوم ؟

فقال سمردياكوف متهرباً :

— انه معتكر المزاج جدا !

— شيطان يأخذه اذن ! ألا فليعتكر مزاجه اذا كان ذلك يسره ! أما أنت فهيء السماور ثم انصرف • أسرع ! أما من جديد حتى الآن ؟

قال العجوز ذلك وبدأ الاستجواب الذى كان سمردياكوف قد اشتكى منه لايفان منذ قليل • انه يلقي عليه السؤال تلو السؤال عن المرأة التى ينتظر زيارتها • ولا داعى الى تكرار هذه الأسئلة هنا • وبعد نصف ساعة كان المنزل قد أُحْكَمَ اقفاله بالمفتاح ، وخلا العجوز الى جنونه ، فأخذ يسير فى غرفته طويلاً وعرضاً ، منتظراً على نار كثار الحمى أن يسمع القرعات الخمس المتفق عليها اشارة الى أن جروشنيكا قد وصلت ، وهو ينظر من خلال النوافذ من حين الى حين ، فلا يرى فى الخارج الا الظلام •

انقضى شطر من الليل ، ولكن ايفان فيدوروفتش لم ينم بعد • كان يفكر ويتأمل • ولم يرقد على فراشه تلك الليلة الا فى نحو الساعة الثانية • لن نحلل مجرى الخواطر التى دارت فى رأسه ، لأن قراءة ما كان يعمل فى نفسه عندئذ لم يحن حينها ، وسيأتى دورها فيما بعد • ثم ان وصف ما كان يجيش فى قرارة قلبه ليس بالأمر السهل ، لأن خواطره كانت غامضة ، وكانت مضطربة مسرفة فى الاضطراب خاصة • وكان يشعر هو نفسه بأنه قد فقد السيطرة على فكره • هذا عدا رغبات غريبة كانت تعذبه فى بعض اللحظات • من ذلك مثلاً أنه عند منتصف الليل قد شعر فجأة برغبة قوية فى أن ينزل وأن يخرج وأن يذهب الى الملحقات بغية أن يضرب سمردياكوف ضرباً مبرحاً • لماذا ؟ لو سأله هذا السؤال لمب عرف بماذا يجيب على وجه الدقة ، ولكنه أصبح يكره هذا الخادم كرهاً شديداً ، كما لو كان قد ناله بأفدح الأذى وأشد الاهانة • ثم انه قد اتفق له فى أثناء تلك الليلة أن واقته نوبات خوف مذل لا تفسير له ، بلغ من ادخال الاضطراب فى نفسه أنه أحس بشلل مفاجئ فى قواه الجسمية •

وكان يشعر فى الوقت نفسه بصداق ودوار • واستولى عليه بغض غامض ، كما استولت عليه حاجة الى الانتقام لم تتضح ولم تتحدد • انه يشعر بعداوة حتى لأليوشا ، حين يتذكر الحديث الذى جرى بينه وبينه فى النهار • وكان يبدو له فى لحظات أخرى أنه يكره ذاته نفسها • أما كاترين ايفانوفنا فكأنه نسيها ، فلم تخطر على باله فى تلك الليلة الا مرة أو مرتين • وقد أدهشته قلة الاكتراث هذه فيما بعد ، لا سيما وأنه كان فى الصباح ، حين أعلن للمرأة الشابة صاحباً أنه مسافر غداً الى موسكو، قد سمع صوتاً يدمدم فى قرارة نفسه (انه يتذكر هذا تذكرأ واضحاً) قائلاً له : « كذبت ! لن تسافر ! لن تستطيع فراقها بمثل هذه المسهولة التى تتباهى بها الآن ! » • ومن بين ذكريات تلك الليلة ذكرى صغيرة ستظل تتجسس فى خياله كثيراً أثناء السنوات اللاحقة ، فتملؤه استمرازا وتقززا • لقد ظل يتذكر بوضوح كيف أنه نهض عن أريكته مراراً ففتح الباب بدون ضوضاء ، كأنه يخشى أن يُسمع ، وخرج الى فسحة السلم ، وأصاح بسمعه يتجسس على حركات فيدور بافلوفتش الذى كان يمشى فى غرف الطابق الأرضى • كان ينتصت على حركاته بفضول غريب منجس الأنفاس خافق القلب ، لا يدرى هو نفسه لماذا يتصرف هذا التصرف ، ولأى سبب يصيخ بسمعه اليه دقائق طويلة • لقد ظل طوال حياته بعد ذلك يصف سلوكه ذاك فى تلك الليلة بأنه « سلوك حقير » ، معتقداً فى دخيلة نفسه أن ذلك الفضول الغريب الذى كان يحركه حينذاك هو أكبر دناعة انحدر اليها فى حياته كلها • كان لا يشعر فى تلك اللحظات بأية عداوة خاصة نحو فيدور بافلوفتش نفسه ، وانما كان يريد أن يعرف ما عمله فحسب ، محاولاً أن يتصور ، بفضول قوى ، كيف يمشى أبوه فى غرفته محموماً من نفاذ الصبر ، وكيف يقترب من النوافذ المظلمة لينظر الى الخارج ، وكيف يتوقف بعد ذلك فى وسط

الحجرة منتظراً على أحر من الجمر أن يسمع الإشارة المتفق عليها . لقد خرج ايفان الى فسحة السلم على هذا النحو مرتين . فلما عاد الهدوء يخيم على كل شيء ، فأوى فيدور بافلوفتش الى فراشه ، في نحو الساعة الثانية من الصباح ، قرر أن يرفد هو أيضاً ، عازماً عزمًا قوياً على أن ينام بأقصى سرعة ، لأنه كان يحس بأنه مهدود القوى . وسرعان ما غرق فعلاً في نوم عميق لم تتخلله أحلام . واستيقظ في الصباح مبكراً ، في نحو الساعة السابعة ، وكان النهار قد طلع . فمما ان فتح عينيه حتى أحس في نفسه بسيل خارق من القوة ، فأدهشه ذلك كثيراً . وما هي الا لحظة حتى نهض عن سريره بوثة واحدة ، ولبس ثيابه ، وأخرج حقيته ، وأخذ يجمع أمتعته لا يضيع لحظة واحدة . وكانت الغسالة قد جاءت به بغسيله أمس . ابتسم ايفان فيدوروفتش راضياً حين لاحظ أن كل شيء يسير على خير حال ، وأن سفره المفاجيء لا يصطدم بأية عقبة غير متوقعة . ولقد كان هذا السفر مفاجئاً حقاً ؛ فرغم أنه قد أعلنه أمس (لكاترين ايفانوفنا ، ولأليوشا ، ثم لسمردياكوف) ، فانه لم يفكر فيه البتة حين رقد على سريره (انه يتذكر ذلك الآن) ، ولم يكن يتنبأ بأن أول حركة سيقوم بها حين ينهض في الصباح هي أن يجمع أمتعته تهيؤاً للرحيل . وسرعان ما امتلأت حقيته وامتلاً كيس السفر . فلما أذفت الساعة التاسعة جاءته مرفاً اجناتفا تلقى عليه سؤالها المألوف : « أين تريد أن تتناول الشاي ، هنا أم تحت ؟ » . فنزل ايفان فيدوروفتش الى الطابق الأرضي . كان يلوح عليه أنه يكاد يكون فرحاً رغم أن شيئاً من التعجل العصبي كان بادياً في حركاته وفي أقواله . وبعد أن سلم على أبيه متودداً حتى لقد سأله عن صحته خاصة ، أعلن ، قبل أن يجيبه أبوه عن سؤاله ، انه مسافر الى موسكو بعد ساعة ، ورجا أن يؤمر باعداد الخيل . لم يظهر المعجوز أبة دهشة لاعلان ابنه سفره ونسى حتى أن يعبر عما اصططح

الناس على التعبير عنه في مثل هذه الأحوال من أسف ، فكان ذلك لا يخلو من قلة اللباقة • وفي مقابل ذلك لم يفنه أن يفلق فجأه على أمر من أموره الخاصة ، ورأى أن يتنهر الفرصه ليكلمه فيه • قال :

— أوه ! كان ينبغي أن تبلغنى أمس • لا بأس على كل حال ... • سيتسع الوقت لحل هذه المسألة • أرجو أن تقدم لى هذه الخدمة يا بنى الشهم : توقف فى تشرماشنيا عابراً • لن يكون عليك ، حين تصل الى محطة فولفيا ، الا أن تعرج شمالا مسافه اثنى عشر فرسخاً فى أكثر تقدير ، فإذا أنت فى تشرماشنيا •

— مستحيل • صدقنى • ان المسافه من هنا الى محطة القطار أربعة وعشرون فرسخاً ، وقطار موسكو يسافر فى الساعة السابعة مساءً ، فلا يكاد يتسع وقتى لادراكه •

— تسافر فى قطار الغد أو غدا الغد • أما اليوم فاذهب الى تشرماشنيا • أيصعب عليك الى هذا الحد أن تقدم هذه الخدمة الصغيرة لأبيك ؟ لولا اننى مضطر الى البقاء هنا لأسباب قاهرة لذهبت الى تشرماشنيا بنفسى منذ زمن طويل • الأمر مستعجل وهام جداً ، ولكننى لا أستطيع الابتعاد عن المنزل الآن ... ان لى فى تشرماشنيا غابة من حصتين فى أراضى بيجتشوفو ودياشيكنيو • والتاجران ماسلوف وابنه لا يعرضان على الا ثمانية آلاف روبل ثمناً لأشجارها المعدة للقطع ، على حين أن مشترياً آخر كان مستعداً فى العام الماضى لأن يدفع لى اثنى عشر ألف روبل بكل سرور • لم يكن ذلك المشتري من هذه المنطقة ، وهذا هو تفسير الأمر ، فما من سبيل الى العثور على مشتري من أهل المنطقة ، لأن آل ماسلوف الذين يملكون مئات ألوف الروبلات يسيطرون على المقاطعة ويفرضون عليها ارادتهم فرض القانون • انهم «كولاك» * ومامن أحد يجزؤ أن يقف فى وجههم وأن يصمد لهم • ولكن القس يلنسكى كتب لى يوم الخميس

الماضى يقول ان رجلاً اسمه جورستكين قد جاء يعرض شراء الاشجار .
والرجل تاجر هو أيضا ، وأنا أعرفه . انه من مدينة بوجريبونو ، وهو
لا يخشى آل ماسلوف ، لأنه ليس من سكان المنطقة . انه يعرض أحد عشر
ألف روبل ثمناً للأشجار المعدة للقطع ، فهمت ؟ وقد ذكر لى القس أنه
الآن فى تشرماشنيا الى حين ، وأنه سيأرجحها بعد أسبوع . عليك أن
تذهب اليه لتناقش الأمر معه .

— ما عليك الا أن تكتب للقس ، فيتم لك الصفقة !

— انه لا يفهم فى هذه الأمور شيئاً ، ذلك هو المزعج . ان هذا
القس رجل أعمى فى الشئون العملية . ان له قلباً من ذهب ، واننى لمستعد
أن أودعه عشرين ألف روبل بدون وصل . ولكنه قصير النظر حتى لقد
يخدعه صوص . ما هو من هذه الناحية برجل . وهو مع ذلك عالم كبير ،
هل تتصور هذا ؟ ان هيئة جورستكين هذا هى هيئة فلاح ، وهو يرتدى
قميصاً أزرق ، لكنه وغد كبير من سوء حظنا جميعاً ! انه يكذب كما
يتنفس . حتى لقد يراكم الكذب بعضه فوق بعض لا لشيء الا لذة
الكذب ! لقد روى منذ ثلاث سنين ، مثلاً ، أن امرأته ماتت ، وأنه تزوج
أخرى . فهل تتصور أنه كان يكذب ؟ نعم لقد كان يكذب . حتى أن
امراته لم يخطر ببالها أن تموت . وهى ما تزال حية وما تزال تضربه
كل يوم . فيجب أن تعرف أولاً أكان صادقاً أم كان كاذباً حين عرض
أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار .

— انك لتعلم جيداً أننى أنا أيضاً لا أفهم فى هذه الأمور شيئاً . ففيم
يمكننى أن أنفعل ؟

— لحظة . انتظر . يمكنك أن تنفعلنى ، لأننى سأطلمعك على العلام
التي تستطيع الاعتماد عليها لتعرف حقيقة ما يدور فى نفس جورستكين .
اننى أعرفه منذ عهد بعيد . عليك أن تنظر الى لحيته فتتفد الى خفايا

سريرته • ان له حلية صغيرة حمراء مبعثرة ، فاذا أخذت هذه الحلية ترتعش بينما هو غاضب أثناء الكلام ، فاعلم أنه يقول صدقاً ويريد أن يتم الصفقة ؟ أما اذا رأيته يلعب لحيته بيده اليسرى وهو يتشم ، فاعلم أنه يراوغ ويمكر ويحاول أن يغش • لا تحاول أن تقرأ فى عينيه • فليس فى وسعك أن تعرف بهذه الوسيلة شيئاً • انه وغد لئيم ، وما عيناه الا ماء عكر • وانما يجب عليك أن تنظر الى لحيته • سوف أعطيك رسالة ، فما يكون عليك الا أن تناوله الرسالة • وليس اسمه الحقيقي جورستكين وانما اسمه فى الواقع لياجافى * • ولكن اياك أن تخاطبه باسم لياجافى ، والا استاء استياء رهيباً • ومتى تم الاتفاق ورأيت الأمور تجرى مجرى حسناً ، فأبلغنى ذلك فوراً : يكفى أن تكتب الى فى هذه الحالة هذه العبارة : « ليس يكذب » • حاول أن تصر على الثمن الذى ذكرته لك ، وهو أحد عشر ألف روبل • ولا مانع أن تتنازل عن ألف روبل اذا اقتضى الأمر ، ولكن لا تتنازل عن أكثر من ذلك • هذا مال يهبط على من السماء لأن المشترين نادرون فى هذه الأيام • وأنا فى حاجة ماسة الى هذا المبلغ • انك لا تستطيع أن تتصور مدى حاجتى الشديدة اليه • فمتى أبلغتنى أن الامر جد ، وثبت الى هناك لأتم الصفقة بنفسى • سوف أستطيع أن أجد لهذا متسعاً من الوقت • أما أن أذهب الى هناك منذ الآن ، فليس ينفعنى هذا فى شيء ، لأن من الجائز أن يكون النفس قد استرسل مع خياله • هيه ؟ اتفقنا ؟ أئذهب أم لا ؟

- لا يتسع وقتى ، فلا تخرجنى !

- أرجوك ، اصنع هذا الجميل لأبيك ! سأذكره لك ما حيت • أأتم جميعاً اذن بغير قلب ؟ ما قيمة يوم أو يومين زيادة ؟ الى أين تنوى أن تسافر ؟ الى البندقية ؟ ان البندقية لن تهوى الى قاع البحر خلال هذين اليومين ! كان يمكن أن أرسل أليوشا ، ولكن أليوشا لا يفهم فى هذه

الأمر شيئا • ولئن توجهت اليك فلائلك ذكى ، أنا أعرف ذلك • ما أنت بتاجر ، ولكنك ترى رؤية واضحة • المطلوب هو أن نعرف أهذا الرجل جاد فيما يقول أم غير جاد • أعود فأكرر أنه يكفى النظر الى لحيته ، فاذا ارتعشت كان يقول صدقا •

صاح ايفان يقول وهو يضحك ضحكة خبيثة :

— سوف يكون الذنب ذنبك أخيراً اذا أنا ذهبت الى تشرماشنيا هذه اللعينة •

تظاهر فيدور بافلوفتش بأنه لم يلاحظ النبوة المعادية فى كلام ابنه، ولكنه تشبث بهذه الصيحة على الفور فقال :

— اذن وافقت ، وافقت على أن تذهب الى تشرماشنيا • سأكتب الرسالة الصغيرة حالا •

— لا أدري بعد أأذهب أم لا أذهب • سأقرر ذلك أثناء الطريق •

— لماذا أثناء الطريق ؟ قرر حالا ! بادرة طيبة يا عزيزى ! فاذا سُوّى الأمر وتمت الصفقة ، كتبت الى سطرين تودعهما القس ، فيبادر الى ارسالهما الى بنير ابطاء • ولك بعد ذلك أن تسافر الى البندقية ، فلن أمنعك • وسيعيدك القس الى محطة فولوفيا بعربته •••

تهلل العجوز فرحاً • وأسرع يكتب الى التاجر رسالة قصيرة • ثم أمر باعداد العربى • وجيء للرجلين بوجبة خفيفة باردة ، وجيء لهما بكونياك • ان عادة فيدور بافلوفتش أن يصبح فى لحظات السعادة منطلقاً كثير الكلام والحركة، ولكن كان يبدو فى هذه المرة أنه يحاول السيطرة على نفسه • وقد تحاشى أيضا أن يجيء على ذكر دمترى فيدوروفتش • ولم يكن يلوح عليه من جهة أخرى أنه متأثر لفراق ابنه ، وكان

صامتاً كأنه أصبح لا يجد ما يقوله • فوجئ • ايفان بذلك ، وقال يحدث نفسه : « لا شك أن وجودى يضايقه منذ زمن » • ومع ذلك فإن العجوز حين شيع ابنه الى درجات الباب بدا متأثراً بعض التأثير وتظاهر بأنه يريد أن يقبله • ولكن ايفان أسرع يمد اليه يده ، راغباً فى تحاشي القبلات رغبة واضحة لا تخفى على الناظر • أدرك أبوه ذلك ، فليج اندفاعه وأمسك عن تقبيله ؟ وأخذ يقول مردداً من على درجات الباب :

— كان الله فى رعايتك ، كان الله فى رعايتك • سوف تأتى لرؤيتى فى يوم من الأيام ، أليس كذلك ؟ أهلاً وسهلاً بك فى منزلى دائماً • اذهب ، وليكن المسيح معك !

ركب ايفان فيدوروفتشس العربى • وصاح أبوه يقول له مرة أخيرة :

— فى أمان الله يا ايفان • لا تؤاخذ أباك !

وكان الخدم قد خرجوا للوداع • كان هناك سمردياكوف ومارفا وجريجورى • أعطى ايفان كلاً منهم عشرة روبلات • وحين استقر ايفان فى العربى أسرع سمردياكوف يرتب الأغطية • فقال له ايفان فيدوروفتشس وهو يضحك ضحكة عصبية صغيرة :

— أرايت ؟ هأنذا ذاهب الى تشرماشنيا أخيراً !

وكما حدث بالأمس ، تساءل ايفان لماذا شعر بالحاجة الى أن يبلغ سمردياكوف ذلك ، ولقد ظل يتذكر هذا الامر كثيراً فى المستقبل •

— صحيح اذن أنه يلذ للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكى ، كما يقول الناس •

هكذا أجاب سمردياكوف بصوت قاطع جازم وهو يغرس فى ايفان
فيدوروفتش نظرة نافذة •

تحركت العربية ، وانطلقت تعدو • كان المسافر فى البداية فى حالة
نفسية مضطربة ، وكان ينظر الى ما حوله بشراهة ، متأملاً الحقول
والروابي والأشجار • ومرّ سرب من الأوز البرى فوقه ، محلقاً فى
السماء الصافية • فاذا بإيفان يشعر بسعادة خفيفة على حين فجأة • فخاطب
الحوذى ، واهتم اهتماماً قوياً بجواب أجابه الحوذى ، ومع ذلك رأى
بعد بضعة لحظات أن الضجة قد حالت بينه وبين سماع كلامه ، وانه لم
يدرك ما أراد هذا الموجيك أن يقول له • ولكنه صمت راضياً • الهواء
نقى طرى ، نشيط بعض النشاط ، والسماء صافية لا غيوم فيها • وفى
لحظة ما خطر بباله أليوشا وكاترين • ولكنه ابتسم ابتسامة رفيقة ، وتهد
على الطيفين العزيزين اللذين غابا ، وحدث نفسه قائلاً : سوف
أراهما • ولم يلبث أن وصل الى محطة العربات • فأبدلت خيله ، واستأنف
طريقه الى فولوفيا • سأل ايفان نفسه فجأة : « لماذا قال لى انه يلذ للمرء
أحياناً ان يتحدث مع رجل ذكى ؟ ماذا كان يعنى بذلك ؟ » • واستغرق
هذا السؤال فكره استغراقاً كاملاً • « ثم ما كانت حاجتى الى ابلاغه اننى
ذهبت الى تشرماشنيا ؟ » • ووصلت العربية أخيراً الى فولوفيا ، فنزل
ايفان • أحاط به أصحاب العربات ، فناقشهم وسأولهم ، وانتهى الى
تحديد أجر ايصاله بخيول ممتازة الى تشرماشنيا التى تبعد مسافة اثنى
عشر فرسخاً فى طريق زراعى • أمر بأن تُقرن الخيل ، ثم دخل الى
المحطة ، فالتقى نظرة على القاعة ، ثم اذا به يخرج فيقف على درجات
الباب ويقول :

— لن أذهب الى تشرماشنيا • قولوا لى يا شباب : هل يمكننى أن
أدرك قطار الساعة السابعة ؟

- ستدركه • هل نقرن الخيل ؟

- اقرونها فوراً • هل منكم أحد يذهب الى المدينه غداً ؟

- طبعاً • مترى ذاهب اليها •

- هل لى منك بجميل تصنعه لى يا مترى ؟ اذهب الى أبى فيدور
بافلوفتش كارامازوف ، وفل له اننى لم أذهب الى تشرماشنيا • هل تستطيع
أن تفعل ذلك ؟

- لم لا ؟ اننى أعرف فيدور بافلوفتش منذ زمن طويل •

- خذ هذه المكافأة ، لأن من الجائز أن لا يعطيك شيئاً •

قال ايفان ذلك وهو يضحك فرحاً • فأجابه مترى وهو يضحك.
أيضاً :

- طبعاً • أنا أعرف أنه لن يعطينى شيئاً • شكراً يا سيدى •
سأذهب اليه حتماً •

فى الساعة السابعة من المساء ، استقر ايفان فى حافلة القطار الذى
أقله سريعاً الى موسكو • « ألا فليتعد عنى الماضى ! لقد قطعت صلتى الى
الأبد والعالم الذى عشت فيه ، ولا أريد بعد اليوم أن أتذكره !
ألا فليخفف هذا الماضى من نفسى ! ألا فليقطع عن الوصول الى مسمعى
أى نداء من الحياة التى أبارحها ! اننى أسافر لا ألوى على شىء ولا النفث
الى وراء ! هياً الى مستقبل جديد ، الى أمكنة مجهولة ! » بهذا كان ايفان
يحدث نفسه • ولكنه بدلاً من أن يشعر بالفرح ، أحس بمضض شديد
يقبض صدره ، وامتلاً قلبه بحزن أليم لم يشعر بمثله من قبل • ظل طوال
الليل يفكر ويتأمل ، وسط قرعة القطار الذى كان يجرى بسرعة كبيرة •
وعند الفجر ، بينما كان القطار يقترب من موسكو ، خرج ايفان من

خدره فجأة ، ودمدم يقول :

— أنا انسان تميمس !

أما فيدور بافلوفتش فقد شعر بسعادة كبيرة بعد أن ودّع ابنه ، وظل خلال ساعتين فى حالة قريية من الهناء والغبطة ، يفرغ فى جوفه قدحاً من الكونياك بين الفينة والفينة • غير أن حادثاً أليماً قد حدث فى المنزل بعد ذلك ، فاذا هو يبدل الحالة النفسية التى كان عليها العجوز تبديلاً كاملاً ، واذا هو يغرقه فى اضطراب شديد • ان سمردياكوف الذى ذهب الى القبر قد سقط من على أول درجة ، وتدرج الى أسفل الدرج • ومن حسن الحظ أن مارفا اجناتفنا كانت فى فناء المنزل عندئذ ، فعرفت هذه النازلة التى وقعت • انها لم تدرك ضجة السقوط ، ولكنها سمعت تلك الصرخة الغريبة الخاصة التى تعرفها منذ عهد بعيد ، أعنى الصرخة التى تنطلق من صدر المريض بالصرع عند أول النوبة • لقد كان يستحيل أن يعرف أحد هل وافت النوبة سمردياكوف حين وضع قدمه على السلم فكان لا بد أن يتدرج الى آخر الدرجات لأنه أغمى عليه ، أم أن السقوط والارتجاج الذى نشأ عن السقوط هما اللذان سببا له نوبة الصرع • المهم على كل حال ان سمردياكوف وُجد فى قاع الكهف تهزه تشنجات قوية ويخرج من فمه زبد • وقد ظلّ فى أول الأمر أنه قد جرح حين سقط ، وأن ساقه أو ذراعه قد كسرت ، ولكن تبين أن « الله قد سلمه » على حد تعبير مارفا اجناتفنا ، فلم يُصب بأى أذى • ومع ذلك كان نقله من القبر الى الهواء الطلق شاقاً • وقد أمكن نقله أخيراً بفضل الجيران الذى هرعوا يساعدون • وحضر فيدور بافلوفتش مهمة النقل بل وساعد فى حمل المريض ، وهو يشعر بقلق شديد واضطراب عظيم •

ظل سمردياكوف غائباً عن وعيه • وكانت التشنجات تنقطع أحياناً

ولكنها ما تلبث أن تعود بعد قليل • وأجمع الرأي على أن الأمور ستجری فى هذه المرة كما جرت فى السنة الماضية حين سقط سمردياكوف من طابق الشونة • وتذكروا أن الدكتور هرتسنشتوبه قد وصف له حينذاك ثلجاً يوضع على جبينه ، وكان ما يزال فى القبو بعض الثلج ، فتولت مارفا اجناتفا أمر العناية بالمريض ، حتى اذا كان المساء استدعى فيدور بافلوفتش الدكتور هرتسنشتوبه ، فلم يلبث الدكتور أن جاء ، فبعد أن فحص المريض فحصاً دقيقاً (وهو أكثر أطباء المنطقة دقة وأشدهم عناية ، كما أنه من أحق الناس بالاحترام ، وقد طعن فى السن كثيرا) ، أعلن أن النوبة خطيرة يمكن أن « تعرض الحياة للخطر » ، وأضاف الى ذلك أنه لم يفهم الحالة كثيراً بعد ، ولكنه سيرجع من الغد ، فيصف دواءً جديداً اذا اتضح أن الاجراءات السابقة لم تجدد المريض نفعاً • وأرقد سمردياكوف فى ملحقات المنزل ، فى غرفة تتأخم غرفة جريجورى ومارفا اجناتفا • وفى أثناء ذلك النهار عرف فيدور بافلوفتش سلسلة متصلة غير منقطعة من المكدرات والمنغصات ، أولها وجبة الطعام التى أعدتها مارفا اجناتفا والتى كان حساؤها ، اذا قيس بحساء سمردياكوف ، لا يفضل كثيراً « ماء الغسيل » ، أما لحم طيورها فكان من القسوة بحيث لا يمكن مضغه ؛ وحين لام رب المنزل مارفا اجناتفا على ذلك لوماً مرأ وان يكن مسوئاً ، أجابت المرأة بأن الدجاجة عجوز ، كما أنها هى مارفا لم توظف فى منزل رب البيت طبخة ! وفى المساء حلّ بفيدور بافلوفتش مكدر جديد : أبلغ أن جريجورى ، وهو مريض منذ يومين ، قد لزم سريريه وأن مرض اللباجو الذى يعانى منه قد جمده تماماً • وأسرع فيدور بافلوفتش يحسب شايه ، وسجن نفسه فى المنزل وحيداً • انه فى حالة ترقب مهموم منموم ، وانه المضطرب اضطراباً شديداً • فهو يعتقد أن جروشكا ستأتى فى هذا المساء نفسه ، وهو يكاد يكون من ذلك على

يقين ، لأن سمردياكوف قد أكد له في ساعة مبكرة من الصباح « أنها وعدت بالمجيء هذه المرة » كان قلب العجوز الفاسق يخفق خفقانا يكاد يحطم صدره ، وهو يمشى بلا توقف خلال غرفه المقفرة ، مصيحاً بسمعه الى كل ركن من الأركان ؛ ذلك أن عليه أن يكون يقطاً كل القطة ، لأن من الجائز أن يرقب دمترى فيدوروفتش مرور المرأة الشابة ، فمتى قرعت النافذة (وكان سمردياكوف قد أكد لفيدور بافلوفتش ، منذ يومين ، أنه قد ذكر لها أين ومتى يجب عليها أن تقرر) كان عليه أن يهرع الى الباب لا يضيع لحظة واحدة ، ولا يجعلها تنتظر في غير داع الى انتظار ، لأنها قد تخاف في القلام فتهرب لا سمح الله ! كان فيدور بافلوفتش قلقاً اذن ، ولكن نفسه لم يهددها في يوم من الأيام أمل أعذب من هذا الأمل : ألم يكن في وسعه أن يؤكد بما يشبه اليقين أنها ستأتي أخيراً في ذلك اليوم ؟!

الباب السادس: الراهب الروسي

١

الشيخ زوسيمافوف



ألونا غرفة الشيخ قلقاً فد هدّ قلبه الألم ، ولكنه توقف على العتبة وقد استبدت به دهشة قوية : فانه بدلاً من أن يرى المريض المحتضر الذى لعله غاب عن وعيه ، رأى الشيخ جالساً فى مقعد • صحيح أن وجه الشيخ مرهق من التعب ، ولكن هذا الوجه ما يزال يعبر عن الشجاعة والمرح • وقد تحلق حول الشيخ زوار كان الشيخ يحادثهم وديعاً هادئاً رابط الجأش فرحاً • والحق أنه لم ينهض الا قبل وصول أليوشا بربع ساعة • أما الزوار فكانوا قد اجتمعوا فى الحجرة منذ زمن طويل ، منتظرين صحوة الشيخ ، لأن الأب بائيسى كان قد أكد لهم أن «المعلم سينهض حتماً من أجل أن يتحدث آخر مرة الى أحبة قلبه» كما أعلن ذلك هو نفسه ووعد به فى هذا الصباح • « • ان الأب بائيسى يؤمن بهذا الوعد ، ويؤمن بكل ما قد يقوله الشيخ المحتضر ، وقد بلغ من قوة إيمانه أنه لو رأى الشيخ هامداً لا يتحرك ولا يتنفس ، لما صدّق أن الشيخ مات ، ما دام الشيخ قد وعده بأنه سينهض مرة أخرى ليوذعه ، أو لنوقع أن يرتد الشيخ الى الحياة برآ بوعد • وقد صرّح له الشيخ زوسيمافوف كبير فى الصباح ، قبل أن ينام « انه لن يموت الا بعد أن

يسعد مرة أخرى بالتحدث الى أعزته ، وبعد أن يرى من جديد تلك الوجوه التى أحبها ، وبعد أن يفتح قلبه لهؤلاء جميعا آخر مرة * والذين اجتمعوا لسماع ذلك الحديث الذى يغلب على الظن أنه آخر حديث ، انما كانوا أقدم أصدقاء الشيخ وأشدهم اخلاصاً له . انهم أربعة : الراهبان الكاهنان جوزيف وبائيسى ، والأب ميشيل ، رئيس رهبان المنسك ، وهو راهب كاهن أيضاً ، ما يزال شاباً بعض الشباب ، متواضع الأصل ، ليس على جانب كبير من العلم ، ولكنه صلب النفس ، قوى الايمان بسيط ساذج ؟ ولئن كان قاسى المظهر ، فان فى قلبه حساسية عميقة يحاول أن يكتبها حياة وخجلاً * أما الزائر الرابع فهو الأخ آتيم ، وهو راهب قصير ، طاعن فى السن شديد التواضع ، قد خرج من بيئة فلاحين فقراء ، لا يكاد يعرف القراءة والكتابة ، رقيق دائماً ، صموت ينذر أن يكلم أحداً * وهو خاضع مذعن أكثر من أى انسان آخر ، وكأن عظمة الوجود الرهيبة التى لا يستطيع فكره أن يرقى اليها قد روّعتة الى الأبد . لقد كان الأب زوسيمما يحب هذا الراهب المرتعد الخائف جداً كثيراً ، وقد أظهر له خلال حياته كلها احتراماً عظيماً ، رغم أنه ليس فى هذا العالم الا قلة من الناس كان يمكن أن يخاطبها أقل مما يخاطب هذا الراهب المتواضع * ولقد عاش فى صحبته مع ذلك سنين كثيرة ، لأنه طاف معه جميع أرجاء روسيا المقدسة * حدث ذلك منذ زمان بعيد ، منذ ما يقرب من أربعين عاماً ، أيام كان زوسيمما يبدأ حياة الرهبنة بين جدران دير مظلم فقير فى مقاطعة كوستروما * فبعد أن دخل زوسيمما ذلك الدير بزمّن كثير ، كُتِف بأن يرافق الأخ آتيم فى جولاته لجمع الصدقات لهذا الدير الفقير *

كان هؤلاء الزوار جالسين فى حجرة الشيخ الثانية ، أعنى الحجرة التى كان يتخذها مهجعاً له ، والتى كانت كما ذكرنا ضيقة جداً ، تبلغ

من الضيق أن الرهبان الأربعة (والراهب المبتدىء بورفير الذى ظل واقفاً) ولم يكادوا يجدون فيها متسعاً لهم . لقد جاءوا بكراسيهم من الغرفة الأخرى وصفوها حول مقعد الشيخ • كان الغسق يهبط ، وكانت تضيء الغرفة مصابيح الزيت والشموع الموقدة أمام الأيقونات • فلما لمح الشيخ أليوشا الذى لبث واقفاً على عتبة الباب من شدة اضطرابه ، ابتسم له ابتسامة فرحة ومدّ إليه يده قائلاً له :

— طاب يومك يا بنى الطيب ، يا عزيزى أليوشا الوديع • أجتت اذن ؟ لقد كنت أعلم أنك ستجىء !

فاقترب أليوشا منه ، وانحنى له حتى الأرض ، وأجهش باكياً • كان شيءٌ ما يتمزق فى قلبه ، وكانت نفسه منقبضةً انقباضاً شديداً ، فهو يتمنى أن يفجر ناشجاً •

قال الشيخ مبتسماً وهو يضع يده اليمنى على رأس أليوشا :

— ما بك ؟ لما يحزن حين البكاء علىَّ بعد • هأت ذا ترانى أتحدث فى هدوء • ومن يدرى ؟ فقد أعيش عشرين عاماً أخرى كما تمتنى لى ذلك بالأمس تلك المرأة الطيبة العزيزة التى جاءت من فيشيجوريا وكانت تحمل بين ذراعيها صغيرتها الزباث • اسأل الله أن يحرس الأم والبنية ! (رسم الشيخ إشارة الصليب وهو ينطق بهذه الكلمات) • أهل حملت قرشها يا بورفير الى حيث قلت لك أن تحمله ؟

كان الشيخ يشير الى مبلغ الستين كوبك التى تصدقت بها أمس تلك المرأة الفرحة المعجبة بالشيخ من أجل أن يهبها « لمن هو أفقر منها » • ان الصدقات التى من هذا النوع انما يتصدق بها أصحابها فى العادة على أثر نذر ينذرونه أحراراً فلا بد لهم من اقتطاعه من حصيله عملهم • وقد أمر الشيخ فى ذلك المساء نفسه بأن يحمل بورفير هذا المبلغ الزهيد الى

امرأة فقيرة من ساكنات المدينة ، هى أرملة لها ولدان قد احترق منزلها
فى الآونة الأخيرة فأصبحت منذ ذلك الحين تستعطي لتعيش • أسرع
بروفير يقول انه نفذ الأمر فأعطى المرأة الفقيرة ذلك المبلغ قائلاً انه من
« محسنة لم تشأ أن تذكر اسمها » •

تابع الشيخ كلامه يقول لأليوشا :

— انهض يا صديقى العزيز لأراك قليلاً • هل ذهبت الى ذويك ،
وهل رأيت أخاك ؟

دُهِش أليوشا من سؤال الشيخ عن أحد أخويه . يمثل هذا اللاح .
ولكن أى الأخوين يقصد ؟ هل يُستتج من ذلك أن الشيخ انما أرسله
الى المدينة أمس واليوم بسبب هذا الأخ ؟

أجاب أليوشا قائلاً :

— رأيت أحد أخوى ؟

— أقصد أخاك الأكبر ، أخاك ذاك الرهيب الذى سجدت له
أمس •

— ذاك لم أره الا أمس ، ولم أستطع أن ألقاه اليوم •

— حاول ن تهتدى اليه بسرعة • عد الى المدينة من الغد لرؤيته •
دع كل شيء ، ولكن رتب أمورك لادراكه • ربما كان لا يزال فى الوقت
متسع لتجنب مصيبة • لقد انحنيت أمس للآلام الكبرى التى تنتظره •

وصمت الشيخ فجأة ، وشرذ فكره كأنه يحلم • لقد كانت أقواله
غريبة • وهذا هو الأب جوزيف الذى شهد بالأمس تحية الشيخ لدمترى
يبادل الأب بائسى نظرة • ولم يستطع أليوشا أن يتمالك نفسه ، فصاح
يقول وقد استولى عليه انفعال شديد :

- أبى ومعلمى ! ان ما فلتة الآن يبدو غامضاً مسرفاً فى الغموض
... ما هى المحن التى تنتظره ؟

- لا تحاول أن تعرف ذلك • لقد تراءى لى بالأمس أتى أدرك
تيراً رهيباً ... لقد قرأت مصيره فى نظراته • رأيت فى لحظة معينة تعبيراً
خاصاً فى عينيه ... تعبيراً أرعشنى بسبب المصير الذى يهبط هذا الانسان
له نفسه • سبق لى مرة أو مرتين فى الماضى أن لاحظت ذلك التعبير فى
نظرة الناس انعكاساً لمصيرهم المقبل ، فتحقق ذلك المصير وا أسفاه ! ولقد
أرسلتك اليه يا أليوشا آملاً أن تستطيع كلمة "أخوية" أن تساعد بعض
المساعدة • ولكن مصيرنا جميعاً هو بين يدي الرب • « ان لم تقع حبة الحنطة
فى الأرض وتمت ففى تبقى وحدها ، ولكن ان ماتت تأتى بشمر
كثير » * احفظ هذه الحقيقة • أما أنت يا أليوشا فكثيراً ما باركتك
فى فكرى بسبب تعبير وجهك (كذلك أضاف الشيخ يقول وهو يتسسم
ابتسامة عذبة وديعة) • اليك رأيى فيك : سوف تترك الدير ، وسوف
تعيش فى العالم كراهب • سيكون لك أعداء كثيرون ، ولكنهم سيحبونك
هم أيضاً • ان الحياة تخبى لك آلاماً كثيرة ، ولكنك بهذه الآلام انما
ستسعد وستبارك الوجود • وستحمل الآخرين أيضاً على أن يباركوه ،
وذلك هو الشيء الأساسى • ذلك هو رأيى فيك وحكمى عليك •

ثم التفت الشيخ الى زواره فقال يخاطبهم وهو يتسسم ابتسامة
ودوداً :

- يا آبائى ومعلمى ، اننى لم أقل الى الآن حتى لهذا الفتى لماذا
يستعذب قلبى وجهه • فسأسر اليكم الآن بهذا • كنت أرى فى قسماته
ذكرى الماضى ونذير المستقبل • ففى فجر حياتى ، حين كنت لا أزال فى
سن الطفولة ، كان لى أخ أكبر مات أمام عينى فى ريعان شبابه ولمّا يكمل

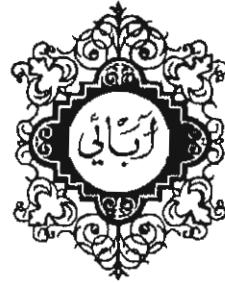
السنة السابعة عشرة من عمره • ولقد رسخ في اعتقادي أثناء حياتي ، شيئاً بعد شيء ، أن هذا الأخ قد كان له في تحديد مصيري دور حاسم ، وأنه كان لي نذيراً وإشارة من الملائكة الأعلى ، ويقيني أنني لولاه لما سرت في طريق الرهبنة ولا اخترت الدرب الذي قادني الى السعادة • ان هذا التجلي الأول للعناية الالهية قد حدث في فجر أيامي ، وهأنذا أرى تكرره في خاتمة المطاف من طريقي • انه لشيء بارز ، يا آباءي ومعلمي ، أن ألكسي الذي لا يشبه أخى ذاك كثيراً بوجهه - فانه ليس له منه الا بعض السمات الخارجية - قد بدا لي شيئاً به كل الشبه من الناحية الروحية وياطالما حسبته ذلك الأخ المراهق نفسه الذي كان لي في الماضي وقد آب الى الآن أوبة سرية في أواخر أيامي ذكرى من الماضي ونداء الى التأمل ، حتى لقد دهشت أنا نفسي في بعض الأحيان من غرابة هذه الظاهرة ودهشت من غرابة الحلم الذي كان يغرقني فيه • هل تسمعي يا بروفير ؟ (كذلك قال يخاطب الراهب المبتدئ المكلف بخدمته) • كم من مرة لاحظت فيك تعبيراً عن الحزن لأنني أحب ألكسي أكثر مما أحبك • فهأت ذا تعرف سبب ذلك الآن • ولكن اعلم أنني أحبك كثيراً أنت أيضاً ، وطالما أحزنني حزنك • يا ضيوف الأعراس ، اسمحوا لي أن أحدثكم عن أخى الفتى ذاك ، لأنني لم أعرف في حياتي طيفاً أحب من طيفه الى قلبي ، ولا أشد تأثيراً في نفسي ، ولا أصدق نبوءة في كل شأن من شؤني • ان قلبي ممتلئ به في هذه اللحظة ، لأنني أرى فيه حياتي مرة أخرى رؤية كاملة كأنني أعيشها من جديد •••

يجب أن أنه القاري هنا الى أن هذا الحديث الأخير الذي أجراه الشيخ مع أصدقائه الذين تحلقوا حوله في آخر يوم من أيام حياته قد حفظ بعضه مكتوباً • ذلك أن ألكسي فيدوروفتش كارامازوف قد سجله بعد موت الشيخ بقليل • لا أستطيع أن أقطع على وجه اليقين بأن ما رواه

ألكسى هو نص ذلك الحديث تماما ، وأن ألكسى لم يضيف الى النص فقرات استمدها من أحاديث سابقة لمعلمه . ويجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن ما سجله الكسى يومهم بأن الشيخ قد ألقى خطاباً متصلاً حتى يروى قصة حياته لزواره ، مع أن الشهادات تجمع على أن الأمور جرت فى الواقع مجرى آخر يختلف عن هذا المجرى بعض الاختلاف فى ذلك المساء . فالحديث قد كان عاماً ، ورغم أن أصدقاء الشيخ لم يقاطعوه كثيراً ، فقد تدخلوا فى الحديث يضيفون كلمة شخصية وملاحظات شخصية وربما مسارات عن حياتهم هم . ثم انه لم يكن من الممكن أن يتكلم الشيخ بلا توقف ، لأن أنفاسه كانت تنقطع دائماً ، ولأن صوته كان يضعف على حين فجأة ، ولقد اضطر مراراً أن يمضى الى سريره يستريح عليه مفتوح العينين بينما ضيوفه فى أماكنهم لم يبارحوها . ولقد تخللت الحديث ، مرة أو مرتين ، قراءة آيات فى الأناجيل قرأها الأب بائيسى جهراً . ويجب أن نذكر أن أحداً من الحضور لم يتبأ بأن الشيخ سيموت فى تلك الليلة نفسها ، لا سيما وأنه قد بدا عليه فى ذلك المساء الأخير أنه قد استرد قوة جديدة على أثر نومه أثناء النهار ؟ وهذه القوى التى استردها على هذا النحو قد شدت أزره وعززت عزيمته طوال الحديث الذى أجراه مع أصدقائه . كان ذلك أشبه بوقدة أخيرة من الحياة أذكت روحه اذكاءً قوياً ، ولكنها أذكتها وقتاً قصيراً جداً ، لأن روحه فاضت دفعة واحدة على حين فجأة . وعن هذا سأتكلم فيما بعد على كل حال . أما الآن فحسبى أن أقول اننى آثرت أن أسقط التفاصيل من هذا الحديث ، وأن أقصر على ما رواه الشيخ ، معتمداً على المخطوطة التى خلفها ألكسى فيدوروفتش كارامازوف . فذلك أقرب الى الإيجاز وأبعد عن الاملال ، رغم أن أليوشا ، كما سبق أن قلت ذلك ، قد ضمن مادونه فقرات كثيرة استمدها من أحاديث سابقة له مع الشيخ .

حياة الشيخ زوسما، مستقمة من المسارات التي جمعها وودونها الكسي فيرورفلس كارامازون

(١) أخو الشيخ زوسما



ومعلميَّ الأجابة ! ولدت بمدينة ف . . . في
مقاطعة نائية بشمال روسيا . كان أبي من طبقة
النبلأء ، ولكنه من صغار النبلأء ، ولم يكن يحتل
رتبة عالية في سلم رتب الدولة . وقد مات ولماً
أتجاوز السنة الثانية من عمري ، فليس في ذهني أية ذكرى عنه . وقد
ترك لأمي منزلاً من خشب ، ليس بالكبير ، وترك لها رأس مال متواضعاً ،
ولكنه كافٍ لأن تعيش مع أولادها في منجى من العوز . كنا ولدين .
أخى الأكبر ، مارسيل ، وأنا ، زينوف . كان أخى أكبر مني بثمانية أعوام .
وكان جامع الطبع شديد النزق ، ولكنه كان طيب القلب ، لا يسخر من
الآخرين قط ، وكان كثير الصمت الى حد غريب ، ولا سيما مع ذويه ،
أى معى ومع أمى ومع الخدم . وكان في المدرسة مجتهداً بمره
على أنه ينعم بذكاء قوى . ومع ذلك كان لا يألف رفاقه في المدرسة كثيراً ،
ولكنه لا يشاجرهم أيضاً . تلك هي على الأقل الذكرى التي حفظتها أمى
عنه . وقبل نهايته بستة أشهر ، بينما كان يدخل السنة الثامنة عشرة من
عمره ، توثقت الصلة بينه وبين رجلٍ كان يعيش في مدينتنا حياة اعتزال ،

رجل يشبه أن يكون منفيًا سياسيًا ، لأنه أُجبر على أن يغادر موسكو بأمر
سام ، وأن يحدد إقامته في مدينتنا بسبب آرائه الليبرالية . كان هذا
الرجل عالمًا كبيرًا وفيلسوفًا تقدره الأوساط الجامعية قدرًا كبيرًا . وقد شعر
بشعور الصداقة نحو أخي مارسيل ، لا أدري لماذا ، فكان يستقبله كثيرًا
في منزله . ففقي أخى عند هذا الرجل سهرات طويلة ، على مدى فصل
الشتاء كله ، الى أن استدعى الرجل الى سان بطرسبرج بطلب منه ،
ليُعهد اليه بمنصب رسمي ، لأنه كان ذا صلات عالية . كان هذا في وقت
الصيام الكبير ، وقد رفض أخى أن يصوم ، مستهزئًا بالعبادات متهمًا
عليها مستخفًا بها محقرًا لها ، حتى لقد قال « هذه سخافات وأباطيل
وترهات ، لأن الله لا وجود له » ، فما كان أشد رعبنا جميعًا من هذا
الكلام ، أنا وأمي والخدم ! لقد شعرت حين سمعت قوله ذاك بهول
رهيب ، رغم أنني لم أكن قد تجاوزت السنة التاسعة من عمري في ذلك
الحين . وكان جميع خدمنا ، وهم أربعة فحسب ، أقنانًا اشتريناهم من
رجل من مالكي الأتليان كنا على صلة به . وما زلت أتذكر اليوم الذي
باعت أمي فيه إحدى خادمتنا ، وهي الطباخة العجوز العرجاء أوفيميا ،
سبعين روبلاً ورقاً ، واستخدمت بدلاً منها خادمة ليست من الأقنان .
وها هو ذا أخى يُصاب بمرض أثناء الأسبوع السادس من الصيام الكبير .
لقد كان أخى ضعيف البنية كثير المرض ، مستعداً للإصابة بالسل . انه
قصير القد نحيل القامة هزيل الجسم ، ولكنه وسيم الطلعة جميل الوجه .
تُرى هل أصابه برد ؟ المهم أن الطبيب الذي كان يعالجه قد أُسرَ الى
أمي خفية أن مارسيل مصاب بسل . يتفاهم تفاهماً سريعاً وأنه لن يعيش
الى آخر الربيع . فأخذت أمي تبكي وتضرعت الى مارسيل محاذرةً
(حتى لا تروّعه خاصة) أن يتناول القربان المقدس في عيد الفصح .
ذلك أنه لم يكن قد اضطر بعدُ الى ملازمة الفراش . فأجابها أخى غاضباً

وحقّر الكنيسة وأهانها وشمها ثم أطرق يفكر سارد اللب • لقد أدرك
خطورة حاله حين رأى الحاح أمي عليه أن يذهب الى الكنيسة لتناول
القربان المقدس ما دام لا يزال يملك من القوة ما يسمح له بذلك • ثم
انه كان يعرف منذ زمن طويل أنه مريض ، حتى لقد قال لنا منذ ما يقرب
من عام ، بينما كنا على المائدة أنا وهو وأمي : « اننى لن أعيش زمناً
طويلاً » ، وقد لا أكون معكم بعد سنة » • وها قد تحقق ما كان يوجسه •
انقضت أيام ودخلنا الأسبوع المقدس • فاذا بأخي يذهب الى الكنيسة منذ
صباح الثلاثاء قائلاً لأمي : « اننى أذهب الى الكنيسة من أجلك أنت
يا أماه ، وذلك حتى تطمئنئى بالآل وتهدئى نفساً » • فبكت أمي ، فرحاً
فى أول الأمر ، وحزناً وألماً بعد ذلك • وحدثت نفسها قائلة : « لا شك
أن نهايته قريبة ما دام قد حدث هذا التبدل فيه » • ولم يتج له أن يكرر
من الذهاب الى الكنيسة ، لأنه اضطر الى ملازمة الفراش ، فصار يعترف
ويتناول فى المنزل • لقد جاء الفصح متأخراً فى ذلك العام • الأيام صافية
مضيئة ، والهواء عبق معطر • أذكر أن أخي كان يسعل فى جميع
الليالى ، ولا يكاد ينام • حتى اذا طلع الصباح ارتدى ملابسه وحاول أن
يجلس على أريكة • وفى هذه الصورة انما أراه الآن : جالساً ، وديعاً ،
رقيقاً ، مبتسماً ، مريضاً جداً ولكنه مرح جداً ، سعيد جداً فى الظاهر •
لقد تبدلت نفسه تبدلاً كبيراً ، فبدا لى هذا التبدل خارقاً • قالت له الخادم
العجوز يوما : « اسمح لى يا بنى العزيز أن أشعل شمعة أمام الأيقونة فى
غرفتك » • ما كان لأخي أن يرضى بهذا من قبل ، وربما نفخ على الشمعة
فأطفأها • ولكنه قال يومئذ للخادم العجوز : « اشعلى يا عزيزتى ، اشعلى !
ألا ما كان أشد شذوذى حين كنت أمنعك من ذلك ! أنت تصلين أمام
الأيقونة ، وأنا أيضا أصلّى لله حين أنظر اليك ، لأن مرآك يبهج قلبى ،
ونحن كلانا نصلى اذن لاله واحد » • بدت لنا تلك الأقوال غريبة

حينذاك • وكانت أمى لا تنفك تبكى خفية ، وتجفف دموعها قبل أن تدنو منه ، محاولة أن تصطنع هيئة فرحة • فكان يقول لها فى بعض الأحيان : « لا تبكى يا أماء ، يا ملاكى الصغير ، فلسوف أعيش زمناً طويلاً ، وسوف أبتهج معكم ، فجميلة هى الحياة ، وزاخرة بالسعادة والفرح ! » وكانت أمى تقول له عندئذ محتجة : « أين السعادة ، وأنت تصاب بالحمى فى كل ليلة ، وتسعل حتى ليكاد ينفجر صدرك ؟ » ، فيعود يقول لها : « لا تبكى يا أماء ، فالحياة جنة نحن فيها جميعاً ، ولكننا لا نريد أن نعرف بذلك ، فلو ارتضينا أن نسلّم به لأصبحت الحياة جنة منذ اليوم » • كانت هذه الأقوال تدهشنا ، لأنه كان يتكلم مقتنعاً بما يقوله اقتناعاً عجيباً • وكنا نتأثر من هذا الكلام تأثراً قوياً ، فترقرق فى أعيننا الدموع • وكان يزورنا بعض الأصحاب فإذا هو يقول لهم : « يا أعزائي ، يا أصدقائي الطيبين ، ماذا فعلت حتى أستحق حبكم ؟ كيف تستطيعون أن تحبوا شاباً مثلي ؟ ولماذا لم أعرف من قبل كيف أفهم عاطفتكم وكيف أقدرها ؟ » • وكان يكرر للخدم دائماً قوله : « لماذا تخدمونى يا أصدقائي الأعزة الطيبين ؟ ما الذى يجعلنى أستحق أن تخدمونى ؟ إذا منّ علىّ الله فأبقانى حياً ، فلأخدمنكم أنا ، لأن علينا أن يخدم بعضنا بعضاً فى هذه الحياة الدنيا • • • فكانت أمى تهز رأسها حين تسمعه يتكلم على هذا النحو ، فتقول له : « ان المرض هو الذى يوحى اليك بهذه الأفكار يا بنى » ، فيجيبها قائلاً : « أماء ، يا فرحة حياتى ! أنا أعلم أن العالم لا يمكن أن يوجد ما لم يكن هناك سادة وخدم ، ولكننى أتمنى أن أكون خادم خدمنى ، وأن أخدمهم كما يخدمونى ؟ وأحب أن تعلمى أيضاً ، ان كلاً منا مذنب فى حق الآخرين ومسئول عن جميع آلامهم • وأنا أكبر ذنباً من سائر الناس ! • • • لم تستطع أمى أن تمنع نفسها من الضحك حين قال لها هذا

الكلام • وكانت تبكى وتضحك فى آن واحد • سألته : « هلاً قلت لى كيف تكون أكبر ذنباً من سائر الناس ! ان العالم ملىء باللصوص والقتلة ، أما أنت فان وقتك لم يتسع حتى لارتكاب ذنب ومقارفة اثم ! فكيف يمكنك أن تتهم نفسك هذا الاتهام ؟ » • قال أخى : « أمأه ! يا حتملى الوديع ! (ذلك أنه كان يجد عندئذ ألفاظاً للملاطفة لا تخطر بالبال) ، يا فرحتى الكبيرة ، يا حمامتى اللطيفة ! أؤكد لك أن كل انسان فى هذه الحياة الدنيا مرتكب جميع الذنوب ، فى حق جميع الناس ! لا أدري كيف أشرح لك هذا الأمر ، ولكننى أحسه ، أحسه احساساً قويا عنيفا الى حدّ العذاب • كيف رضينا أن نعيش حتى الآن غاضبين بغير انقطاع ، لا نفهم من الحياة شيئا ؟ » • وكان يستيقظ كل يوم وقد ازداد قلبه رقة وحنانا ، وطفحت نفسه فرحاً ومحبة • وكان الطبيب العجوز آيسنشمدت ، يعود أحيانا • فسأله أخى ذات يوم ضاحكا : « هيه يا دكتور ! أأعيش الى الغد ؟ » فأجابه الطبيب : « ستعيش لا الى الغد فحسب ، وانما ستعيش أياما وأشهرأ بل وسنين • » ، فهتف عندئذ يقول : « ما خير أن يعيش المرء أشهرا وسنين ؟ ان يوما واحدا لكاف من أجل أن يعرف الانسان كل سعادة هذا العالم • يا أصدقائى الأعزاء ! نحن مجانين اذ نتشاجر وتباهى ويحتد بعضنا على بعض لاساءة نالته • ألا فلنخرج الى الحديقة فنبتهج ويحب بعضنا بعضاً ! ألا فليتن كل منا بفضائل أخيه ! ألا فليتناق ونبارك الحياة ! » • قال الطبيب لأمى حين شيعته الى درج الباب : « لن يعيش ابنك طويلا • لقد اختل من المرض عقله • » • وكانت غرفته تطل على الحديقة الظليلة المليئة بالاشجار الكبيرة التى نبتت على فروعها البراعم ؛ وكانت أوائل عصفير الربيع التى وصلت منذ زمن قصير تزقزق وتغرد تحت نوافذه ، فكان يتأملها طويلا ويعجب بها كثيرا ، حتى لقد أخذ فى ذات يوم يستغفرها هى أيضا قائلا لها : « أيها العصفير التى خلقها الله ،

أيها الطيور الصغيرة ، اغفري لى أنت أيضا ، لأننى أذنبت فى حقك ! » .
وبدا لنا هذا أمرا لا سبيل الى فهمه قط ، وكان هو يبكى عطفاً وحناناً .
وقال شارحا : « نعم ، لقد كانت عظمة الله مبسوطة أمامى : الطيور
والأشجار والمراعى والسموات . كان كل نىء يتغنى بعظمة الله ويسبح
بحمده . الا أنا ، فقد كنت أعيش فى الخزى والعار ، مسيئاً الى شرف
الخلقة ، لأننى لم أكن أرى جمال الحياة وسناها . » . فكانت أُمى
تقول له باكية : « انك تتهم نفسك بخطايا كثيرة » ، فيقول لها : « أمه
يا فرحة نفسى ، اننى من سعادة لا من حزن أبكى . وددت لو أكون
مذنباً فى حق العصافير الصغيرة ! لا أستطيع أن أشرح لك هذا ،
لا أعرف كيف أشرح لك حبى اياها . ألا فلأكن مذنباً فى حقكم
جميعا ، فغفروا لى عندئذ جميعا . تلك هى الجنة . ألسن الآن فى
الجنة ؟ » .

وكان يقول أشياء أخرى أصبحت لا أتذكرها . دخلت ذات يوم
الى غرفته وكان وحده . كان ذلك فى المساء ، والجو صاح مضىء ،
والشمس الغاربة تفرق الغرفه بأشعتها المائلة . فلما رآنى أشار الىّ أن
أقرب ، ثم وضع يديه على كتفى وتأملى طويلاً متفرساً فى عينى ، وفد
بدا فى وجهه حب وحنان . وانقضت على ذلك دقيقة دون أن ينطق بكلمة
ثم أسبل يديه وقال لى : « هياً اللعب الآن وابتهج ! اننى أريد أن تحيا
عينى ! » . خرجت ومضيت ألعب ؟ ولكننى كثيراً ما فكرت أثناء حياتى ،
والدموع فى عينى ، فى هذا الامر الذى أصدره الىّ ، وهو أن أحل
محلّه فى هذا العالم . وفى مرات كثيرة بعد ذلك عبّر عن عواطف
رائعة سامية رفيعة ، لم تكن نفهمها كثيراً فى ذلك الحين . وانطفأ فى
الاسبوع الثالث بعد عيد الفصح ، واعيا كل الوعى ، صاحبيا كل الصحو؛
ورغم أنه أصبح لا يتكلم فى أواخر أيامه ، فقد ظل على ما كان عليه حتى

النهاية ، ينتظر الينا سعيدا فرحا مبتسما ، ويبحث عنا وينادينا بعينه •
وقد تكلم الناس عن موته كثيرا فى مدينتنا • وأثر هذا الحادث فى نفسى
ولكن بدون افراط ، وان أكن قد ذرفت دموعا سخينة يوم الجنازة •
لقد كنت صغيرا جدا ، كنت طفلا ، ولكن ذكرى هذا الأخ ستظل قائمة
فى أعماق قلبى ، لتتصب أُمى متى آن الأوان ، نداء من الملاء الأعلى •
هكذا جرت الأمور فعلا •

ب - اثر الكتب المقدسة فى حياة الاب زوسيماس *

بقيت وحيدا مع أُمى • ولم يلبث أصدقاء طيبون أن قالوا لها انها
تحسن صنعاً ، بعد أن لم يبق لها الا ابن واحد ، وما هى محرومة من
الموارد ، أن ترسل هذا الابن الى سان بطرسبرج للدراسة ، على غرار
ما تفعل أسر نبيلة أخرى ؛ وأكد هؤلاء الأصدقاء أنها ، اذا هى احتفظت
بابنها الى جانبها فى مدينة صغيرة ، تعرضه للحرمان من مستقبل لامع •
وأقنعوا أُمى أخيرا بأن تسجلنى فى « مدرسة المرشحين » ببطرسبرج ،
لأكون فى المستقبل ضابطا من ضباط الحرس الامبراطورى • وقد ترددت
أُمى كثيراً فى العزم على فراق ابنها الاخير ، ولكنها اتخذت قرارها أخيرا
وهى تبكى ، معتقدة أنها بذلك تؤمن سعادتى • وقادتنى الى سان بطرسبرج
فألحقتنى بمدرسة الاعداد العسكرية هذه ، ثم لم أرها منذ ذلك الحين ،
لأنها ماتت بعد ثلاث سنين ؛ وهى فى أثنائها تلك الفترة لم تنقطع عن
البكاء حزناً على ابنها الفقيد ، ولا انقطعت عن الارتعاد قلقاً على مصير
ابنها الباقي • وقد احتفظ خيالى بذكرىات مضيئة عن المنزل الذى عشت
فيه مع أُمى ، لأن أصفى مشاعر القلب الانسانى هى المشاعر التى يكون قد
أحسها فى سنى طفولته • الأمر كذلك دائماً متى كان الحب والوفاء

مسيطرين على حياة الأسرة • ولكن ذكريات الطفولة يمكن أن تكون ذكريات سعيدة حتى في الأسر الممزقة متى كانت النفس قادرة على أن ترى وأن تجنى من عناصر الوجود ما هو طيب نيسل • ولقد ارتبطت الكتب المقدسة بذكريات طفولتي ، لأنني كنت أهتم بها أثناء طفولتي في المنزل اهتماما كبيرا • كنت أملك كتابا فيه صور جميلة عنوانه : « مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والانجيل » * ، وفي هذا الكتاب انما تعلمت القراءة • وما يزال هذا الكتاب عندي حتى الآن • هو هناك على الرف ، وأنا أحافظ عليه بحافظتي على أثر ثمين جدا من آثار الماضي • على انني أتذكر أن الانفعال الديني الأول الذي شعرت به * انما كان قبل تعلمي القراءة ، ولم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري حينذاك • لقد قادتني أمي الى الكنيسة للصلاة في «أسبوع آلام السيد المسيح» (لا أدري الآن أين كان أخي حينذاك) ، وكان ذلك في يوم من أيام الاثنين • النهار صحو ، والشمس ساطعة ، وما زلت أرى حتى هذه اللحظة ، كأن الأمر قد وقع أمس ، ما زلت أرى أدخنة البخور تتصاعد بطيئة نحو القبة ؛ وفي أعلى الكنيسة كانت أشعة تلمس الاله تنفذ من نافذة ضيقة هابطة نحونا ، فكانت أدخنة البخور كأنها تندفع لاستقبالها أمواجاً متسقة ، ثم تنصهر في الضياء الذهبي أخيرا • كنت أتأمل هذا المشهد معجباً ، وأحسست أن بذرة « كلمة الرب » تغرس في نفسي • وتقدم مراهمي الى وسط المبد • كان يحمل كتاباً كبيراً يبلغ من الثقل أن الفتى كان يبدو أنه ينوء بحمله • وضع الفتى الكتاب على منضدة الترتيل ؛ ثم فتحه وأخذ يقرأ • فهمت في ذلك اليوم ، لأول مرة في حياتي ، ما يُقرأ في الكنيسة : كان يعيش في أرض عوص رجل تقي صالح يملك ثروات طائلة ، ونوقاً لا حصر لعدددها ، وقطعان خراف وحمير • وكان أولاده سعداء فرحين ، وكان يحبهم كثيراً ، ويصلي من أجلهم للرب • هل

ارتكب هؤلاء الأولاد خطيئة ما فى سعادتهم ؟ ذلك أن ابليس مل يوما أمام الرب وقال له انه طاف الارض كلها وما تحت الارض . فسأله الرب : « هل رأيت عبدى أيوب ؟ » . وتباهى الرب أمام ابليس بقداسته عبده العظيم أيوب . ولكن ابليس ضحك وأجاب : « مكنتى منه فترى أنه سيعصيك وسيلعن اسمك » . فمكّن الرب ابليس من عبده الأمين الذى كان يحبه الرب كثيراً ؟ فضرب لشيطان قطعانه ، وضرب أولاده ، ودمر ثرواته ، وأرسل اليه جميع المصائب دفعة واحدة ، كأن ساعة من عند الله قد نزلت على داره . مزق أيوب ثيابه ، وارتدى على الارض صائحاً : « لقد خرجت من بطن أمى عارياً ، وعارياً سأعود الى الارض . وهب الرب لى كل شيء ، والرب يسترد ما وهب . تبارك اسم الرب ، الآن وفى كل حين » . يا آباي ومعلمي ، سامحوني اذا رأيتوني أسكب العبرات فى هذه اللحظة . ان طفولتى تنبثق الآن أمامى ، حتى ليخيل الى أننى أتففس كما كنت أتففس فى طفولتى بذلك الصدر الصغير ، صدر الطفل الذى لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره . ان ذلك الانفعال نفسه الذى أحسبته به يومذاك ينزوينى فى هذه اللحظة ، فاذا أنا مدهوش مفتون كما كنت مدهوشاً مفتوناً فى ذلك اليوم البعيد بالكنيسة . لقد أحدثت تلك النوى تأثيراً قوياً فى خيالى ، وأذهلتنى قصة الشيطان الذى كلم الرب ، وشدهنى قرار الرب أن يمكّن الشيطان من عبده الأمين ، وكذلك هتاف العبد مخاطباً ربه : « تبارك اسمك ، رغم أنك تعاقبنى » . ثم تصاعدت فى الكنيسة أغنية رقيقة جداً : « سمع الله لصلاتى » . وارتفعت أذخنة البخور ، وركع المصلون . ومنذ ذلك الحين أصبحت لا أستطيع أن أقرأ تلك القصة المقدسة - وقد حدث لى هذا أمس أيضاً - الا وتسكب الدموع من عيني . ما أروع العظمة والسرّ الخارقين اللذين ينبعان من هذا النص ! لقد اتفق لى أن سمعت نقداً

لهذا النص من أناس يقبّحون الدين ويلبونه ، أناس أعماهم غرورهم
وصلفهم ، فهم يسخرون مما لا يفهمون ؟ قالوا : « كيف يمكن الرب
الشیطان من قدیسه الأثیر ، فیستهزیء الشیطان بالقدیس ، ویخطف
أولاده ، ویرسل الیه الأمراض ، ویعطی جسمه بالجروح ، حتی صار
یزاح القیح عن قروحه بشقفه من فخار ؟ أكل هذا من أجل أن یتباهی
الرب أمام الشیطان قائلاً : « انظر ماذا یستطیع أن یتحملة واحد من
أولیائی الصالحین فی سبیل محبتی ! » ؟ لقد غاب عن هؤلاء الناقدين أن
عظمة هذه القصة انما هی فی هذا السرّ الذی یتأكد فیها ! ان المظاهر
المرضية للحياة الارضية تلامس فی هذه القصة الحقیقة الأبدیة الّتی
لا ندركها . فمن خلال ما یبدو لنا علی أنه واقع الأرض ، یتجلی فعل
قوة أبدیة تفوق هذا الواقع . ان الخالق فی هذه القصة یتصرف كما
تصرف فی الايام الاولى من الخلق حین قال انه أبدع فیما صنع . انه
ینظر الى آیوب فیهبجه أنه خلقه . وآیوب الذی یمجد الرب لا یخدم
الرب وحده بل یخدم الخلیقة أیضا ، من عصر الى عصر ومن جیل الى
جیل ، فذلك هو ما یُسّر له . رباه ما أروع سفره ، وما أروعها تعالیم !
ما أعظم الكتب المقدسة ، وما أكبر تلك القوة المعجزة الّتی توقظها فی
الانسان ! لكانها صورة الكون والاسان نفسه . كل شیء قد قیل فیها
وأعلن لقرون . ما أعظم الأسرار الّتی تكشف عنها وتحلها ! ان الرب
یرد السعادة الى آیوب ، ویهب له ثروات جدیدة ؟ وتنقضى أعوام فیولد
له أولاد آخرون یحبهم أیضا . رباه ! قد یتساءل متسائل : « فكیف
استطاع أن یحبهم وقد غاب أبناؤه الأول الى غیر رجعة ؟ هل یمكن أن
یشعر بأنه سعید حقاً بین أولاده الجدد ، مهما یكونوا أحبة فی قلبه ،
إذا هو تذكر أولئك الذین غابوا الى الأبد ؟ » . الحق أنه كان یستطیع
أن یشعر بالسعادة ، لأن الآلام القدیمة تهدأ بمرور الزمن ، ویطامنها

سرّ الطبيعة الانسانية الكبير ، وتستحيل شيئاً فشيئاً الى افراح ساجية .
ان العدم الذى يغلى فى سن الشباب يفسح المجال فى الشيخوخة لهدوء
ساكن . انتى أبارك فى جميع الأيام طلوع الشمس ، وان قلبى ليتهيج
بشروقها كما كان يتهيج به فى الماضى ، ولكننى أوتر اليوم مجد الكوكب
الغارب وأشعته المائلة التى توقف فى نفسى ذكريات بعيدة عذبة ، وتحبى
أطراف الماضى الحبيبة من حياة طويلة سعيدة . فوق هذه الذكريات
تحلق الحقيقة الالهية التى تهدى وتصلح وتبرىء ! سوف أموت ، أنا
أعرف ذلك وأفهمه ، ولكننى أحس فى كل يوم بأن الحياة ما تزال
توهب لى ، وأن حياتى الأرضية تندفع نحو حياة جديدة ، أبدية ، مجهولة ،
هى منذ الآن قريبة يملأ الاحساس بها نفسى فرحاً ، ويهز قلبى هزاً قوياً .
يا أصدقائى ومعلمى ! لقد سمعت من يقول ، سمعت ذلك مراراً وأسمعه
الآن أكثر من أى وقت مضى ، ان الكهنة ، ولا سيما كهنة الأرياف يشكون
مرّ الشكوى من أن راتبهم غير كاف ، ومن أن منزلتهم الاجتماعية
وضيعة ، قائلين بل كاتمين - وقد قرأت ذلك بعينى - أنهم أصبحوا
عاجزين عن شرح الانجيل للشعب ، بسبب قلة رزقهم . « اذا جاء
لوثريون أو هرطقة فأضلوا رعايانا ، فليفلوا ذلك ، لأننا لا نجنى من
الرزق ما يكفيننا » . هكذا يقولون . يا عدالة السماء ! ألا انتى لأسأل
الرب أن يربى راتبهم هذا الذى يحرصون عليه ذلك الحرص كله
(لأن شكواهم لا تخلو من حق) ولكننى أقول مخلصاً : من المسئول عن
هذا الوضع ان لم تكن نحن المسئولين عنه الى حد ما ؟ انتى أسلم بأن
القس فى الريف مثقل بأعباء العمل ، وليس فى وقته من الفراغ ما يمكنه
من الاهتمام بالشعب . ولكننى أرى أن وظيفته وعمله لا يشغلانه الى الحد
الذى يعجز فيه عن أن يقف على الرب ولو ساعة من وقته فى الأسبوع .
ثم انه لا يعمل طوال السنة بلا انقطاع . ألا فليجمع فى داره ، مرة فى

الاسبوع ، والأفضل أن يكون ذلك في المساء ، ألا فليجمع الأبطال في أول الأمر ، فذا بآبائهم يعلمون ذلك فيجيئون هم أيضا • لا حاجة الى أن يكون هناك مكان خاص يُعقد فيه هذا الاجتماع • ما على القس الا أن يجمع الناس في منزله الفقير نفسه • وليس له أن يخاف ، فانهم لن يفسدوا مسكنه ! ما ساعة في الأسبوع ؟ ألا فليفتح التوراة المقدسة فيقرأ لهم فيها بغير فصاحة مصطنعة أو كلام متفهب ! فليقرأ قراءة بسيطة طبيعية ، مبتهجا بأن الناس يسمعون ويفهمونه ، ممثلاً بحب النص المقدس • وفي وسعه أن يتوقف عن القراءة من حين الى حين ليسرح معنى كلمة لا يعرف معناها أبناء الشعب • وليكن على يقين من أنهم سيفهمون بسرعة ، لأن الروح الارثوذكسية تحس الحقيقة احساسا سريعا • ان القصص التي تروى حياة ابراهيم وسارة ، واسحق وريكا ، ويعقوب الذي ذهب الى عند لابان ، وقال بعد أن اضطرع مع الرب في الحلم : « هذا مكان رهيب » ، ان هذه القصص ستمضي قدماً الى القلب النقي ، قلب البسطاء الذين لم تفسدهم الحياة بعد • يجب أن تقص عليهم ، وعلى الأطفال خاصة ، قصة الفتي الجميل القتان يوسف ، النبي الكبير ، مفسر الأحلام ، كيف باعه اخوته ثم زعموا لأبيهم أن وحشاً أكله ، وأظهروا أباهم على ثيابه تدليلاً على صدق قولهم ؛ وكبف سافر اخوته بعد ذلك الى مصر التماسا للخبز ، وكان يوسف قد أصبح فيها عظيماً من عظماء رجال فرعون ، ولكنهم لم يعرفوه ، فاضطهدهم ، واتهمهم وحبس بنيامين الفتى رغم ما يكنه لهم من حب : « اننى أحبكم ، وانى لأعذبكم وأنا أحبكم » • ذلك أنه لم يستطع أن ينسى اليوم الذي باعه فيه اخوته لأناس من تجار العيد ، في سهل مقفر ، قرب بئر ، بينما كان يضرع اليهم باكية عاقفاً ذراعيه أن لا يتركوه للعبودية في أرض غريبة • فلما رآهم بعد ذلك العدد الكبير من السنين أحسَّ بحبه لهم ينبعث في

قلبه ، ولكنه عذبهم بسبب تلك الذكرى المرة ، وتركهم أخيراً وانصرف ،
لأنه لم يعد قادراً على أن يحتمل الشكاة التي تصدر عن قلبه هو نفسه .
وارتمى على سريريه وأجهش باكياً : ثم جفف وجهه وعاد إليهم هادئاً
النفس مشرق المحيا وقال لهم : « يا اخسوتى ، أنا يوسف أخوكم » .
وليقرأ القس للناس تنمة القصة : كيف سرَّ يعقوب حين عرف أن ابنه
لم يمت ، وكيف سافر هو أيضاً الى مصر ، هاجراً الارض التي ولد
فيها ، ومات على تراب غير تراب وطنه ، تاركاً فى وصيته أكبر وعد
سيحقق للانسانية على مدى العصور ، كاشفاً عن السر الذى كتبه طول
حياته فى قلبه المتواضع الوجل ، ألا وهو الوعد الذى يبشر الانسانية بأنه
سيولد فى يوم من الأيام انسان هو أمل العالم ، وهو للانسانية مخلصها
وفاديتها ! يا آبائى ومعلمى ! اغفروا لى أننى أذكركم ، كتلميذ صغير ،
بأشياء تعرفونها منذ زمان طويل ، ويمكنكم أن تعلمونها بأحسن مما
أفعل فناً وعلماً ! لقد اندفعت مع الحماسة . واغفروا لى دموعى ، لأننى أحب
هذا السفر . واذا استطاع الكاهن أن يبكى هو أيضاً أثناء القراءة ،
فلسوف يرى مدى أثر ذلك فى نفوس سامعيه قوة انفعال وعمق عاطفة .
ألا ان بذرة لتكفى مهما تكن يسيرة . فاذا بُذرت فى قلب البسطاء ، لم
تفن بعد ذلك يوماً ، وانما هى تعيش فى نفوسهم وتظل تثمر طوال
حياتهم ، من أعماق ظلمات ضلالاتهم وخطاياهم ، نبعاً من ضياء ومن
حقيقة أبدية ، ذكرى خفية ونداء مستسراً . لا حاجة الى شروح طويلة
واستطرادات متعالة يتيه فى شعابها الفكر . ان أبناء الشعب يفهمون
الأمر ببساطة كبيرة . أتظنون أنهم عاجزون عن ذلك ؟ قوموا اذن بهذه
التجربة ، اقرأوا لهم تلك القصة الجميلة المؤثرة ، قصة أستير الرائعة
وفاسى المتكبرة ، أو اقرأوا لهم تلك المفامرة المعجزة ، مغامرة يونس
فى جوف الحوت . ولا تنسوا كذلك رموز الرب ، ولا سيما رموز

الانجيل كما وردت فى كتاب القديس لوقا (وذلك ما كنت أفعله دائماً) ،
واقرأوا لهم فى كتاب الشهداء حياة ألكسى ولى الله ، وكذلك حياة كبرى
الشهيدات مريم الببطية • فلسوف ترون مدى تأثير هذه القصص البسيطة
فى قلوبهم ! تكفى ساعة فى الأسبوع ، ساعة واحدة ، رغم قلّة الراتب •
فإذا ارتضى الكاهن بذل هذا الجهد لم يلبث أن يدرك أن لتعبنا نفساً
كريمة تعترف بالجميل • لسوف يرد اليه الفلاح معروفه مضاعفاً مائة
مرة • لسوف يتذكر نشاط الكاهن وقراءاته المؤثرة ، فإذا هو يهب من
تلقاء نفسه الى مساعدته فى أعماله فى الحقل أو المنزل • ولسوف يحضه
احتراماً متزايداً ؛ وهذه المزايا ، مجتمعةً ، تساوى زيادة فى الدخل ،
ذلك حل يبلغ من السهولة فى الواقع أن المرء يستحى أحياناً أن يقترحه ،
مخافة أن يُضحك عليه • ومع ذلك فهذه هى الحقيقة • ان من لا يؤمن
بالله لا يؤمن بشعبه أيضاً • ولكن الذى لا يشك فى شعبه ، لن يلبث أن
تتجلى له قداسة روح الشعب ، ولو لم تخطر على باله يوماً قبل ذلك •
ان مثقفينا الملحدين ، الذين أصبحوا غرباء عن الأرض التى أنبتهم ، لن
ينقذهم ولن يردهم الى طريق الرشاد الا شعبنا الذى ستأكد قوته الروحية
فى يوم من الأيام • ما قيمة أقوال المسيح اذا لم تسندها قوة القدوة ؟
ألا ان الشعب ليهلك ويفنى ما لم تنجده الكلمة الالهية ، لأن الشعب
ظالم الى حقيقة دينية ، والى مثل أعلى أخلاقى رفيع • فى أثناء شبابه ،
منذ أكثر من أربعين عاماً ، طفت أرجاء روسيا بصحبة الأب آنتيم نجمع
المعونات لديرنا الفقير • فى ذات يوم ، توقفنا ليلاً عند شاطئ نهر كبير
من الأنهار الصالحة للملاحة ، بين الصيادين • فجلس الى جانبنا فتى
ملبح الوجه هو فلاح فى نحو الثامنة عشرة من عمره كان يتعجل الالتحاق
بعمله فى الغد ، لأنه قد استؤجر لجبر سفينة تجارية • كان الفتى ينظر
أمامه حالماً بعينه الصافيتين الحلوتين • الليلة ساجية حارة ، هى ليلة

مشرفه مضيئة من ليلالى سهر تموز • ومن النهر العريض تتصاعد أبخرة
تحمل إلنا طراوة منعشة • وتبجس سمكه الى سطح الماء من حين الى
حين ، فتتلاطم الأمواج تلاطمًا خفيفًا • سكنت العصافير ، فكان الطبيعة
كلها تصلى لله صامتة فى هذه الهدأة التى ترين من حولنا على الأرض
والسماء • ونحن وحدنا لم ننم ، أنا وهذا الفتى • تحدثنا عن جمال
خلق الله وعن سره ، عن الأعشاب والنمل والحشرات والنحل ، عن
جميع هذه المخلوقات التى تعرف طريقها جميعا فى هذا العالم ، دون
أن يكون لها ذكاء ، فاذا هى بهذا العلم المعجز تشهد بعظمه صنع الله
وتساهم فى كل لحظة ، بعملها المتواضع ، فى تحقيق الغايات العليا
للخالق • فلاحظت أن هذا الشاب اللطيف المحب قد تأثر تأثرًا قويًا
وأن نفسه التهب حماسه وحميًا • وأسرَّ الىَّ بأنه يحب النباتات
وطيورها ، لأنه كان هو نفسه يربى الطيور ويعرف تغريد جميع أنواعها
ويعرف كذلك وسائل اجتذابها • قال لى : « لا شىء أروع من العناية ،
وكل شىء فى الطبيعة جميل على كل حال » فأجبت قائلاً : « هذا صحيح •
كل شىء فى خليفة الله رائع ومؤثر ، لأن كل شىء فيها حق • انظر الى
الحصان مثلاً ، هذا الحيوان النبيل المتعلق بالإنسان ذلك التعلق كله ، أو
انظر الى البقرة الخاضعة المطرقة التى تطعمه وتعمل من أجله • ما أعذب
هذه الحيوانات الأليفة ، ما أكرم عاطفتها نحو أصحابها الذين كثيرا
ما يضربونها بغير شفقة ، ما ألطف الوداعة والثقة اللتين تتجليان فى
نظراتها ! أليس هذا جميلاً ؟ انه لأمر مؤثر فى النفس أن نتذكر أن
هذه الحيوانات هى بلا خطيئة ، لأن كل ما فى الكون برىء كامل الا
الإنسان • لقد كان المسيح مع الحيوانات ، قبل أن يحىء ليخلصنا » •
فسألنى هذا الفتى : « هل تعتقد حقاً أن المسيح معها أيضا ؟ » فأجبت قائلاً :
« وكيف لا يكون الأمر كذلك ، ما دامت الكلمة للجميع • ان كل

مخلوق ، ان كل من تنفس ، حتى أحقر ورقة من أوراق الأشجار ، يشهد بعظمة الخالق ويسبّح بحمده . ان كل شيء في الطبيعة يندفع نحو المسيح ، ويناديه على غير شعور ، لأنه يملك هذه الفضيلة السرية ، وهي أنه بغير خطيئة . انظر في الغابة الى الدب ، المخيف الضارى دون أن يكون مسئولاً عن ذلك ! ... » قلت له هذا وقصصت عليه أن دباً اقترب ذات يوم من قديس عظيم كان يعيش معتزلاً في حجرة وسط الغابة . فأشفق الناسك على الوحش الجائع ، فهبَّ الى لقائه بغير وجل ، ومدَّ اليه قطعه من خبز قائلًا له : « كُلْ في سلام ، وليكن المسيح معك » ، فابتعد الوحش الضارى طائعا دون أن يلحق بالقديس أى أذى . تأثر الفتى تأثراً شديداً من أن الدب انصرف دون أن يهجم على القديس ومن أن المسيح كان معه . وصاح يقول : « ما أروع هذا ! ما أروع كل شيء اذن في خلق الله ! » . وظل مطرقاً مفكراً خلال مدة طويلة ، غارقاً في تأملات لطيفة وأحلام عذبة . رأيت أنه فهمنى . ثم استلقى قريبا منى ونام نوما بريئاً هادئاً . بارك الرب في الشباب ! صليت من أجله قبل أن أنام أنا أيضا . ربِّ ابعث السلام والأمن والضيء الى جميع مخلوقاتك !

ج - ذكريات سنى الشباب التى عاشها

الشيخ زوسيمافى العالم . المبارزة

لشت فى « مدرسة المرشحين » بسان بطرسبرج زمناً طويلاً يقرب من ثمانى سنين . ان التربية التى تلقيتها فى تلك المدرسة قد كتبت فى نفسى كثيراً من مشاعر الطفولة ، ولكننى لم أنس تلك المشاعر حقاً . وفى مقابل ذلك أكسبتنى هذه التربية أفكارا وعادات جديدة جعلت منى انسانا يكاد يكون متوحشا ، انساناً قاسياً غيباً . وتعلم اللغة الفرنسية تزينت بأداب المجتمع وطليت بطلاء من حضارة . أما الجنود الذين كانوا

يخدمونا فقد كنا جميعا ، وأنا أيضا ، نعدُّهم بهائم ؛ ولعلنى كنت أسبق من غيرى فى ذلك ، لأننى كنت فى كل أمر من الأمور أكثر تأثراً بالبيئة من سائر رفاقى . ولما أصبحنا ضباطا كنا مستعدين لأن نبذل دما فى سبيل شرف كيتينا ، ولكننا كنا نجهل كل الجهل ما هو الشرف حقاً . ما من أحد منا كان يملك أية فكرة عنه ، فلو قيل لنا ما هو الشرف حقاً لرفعنا أكتافنا استخفافاً واحتقاراً . وكنا نكاد نعتز بما نهمك فيه من سكر ومجون ، وما ندفع فيه من وقاحة واستهتار ، ونكاد نعدده مجداً من الأمجاد . ليس معنى هذا أننا كنا فى قرارة أنفسنا أشراراً . فلقد كان فى هؤلاء الشباب خير طبعى فطرى ، ولكنهم كانوا يسلكون سلوكاً سيئاً ، وكنت أنا فى ذلك شراً من سائر رفاقى . وفى تلك الفترة استلمت ثروتى ، فأخذت أعيش على ما يريد لى هواى وخيالى وعلى ما تشاء لى نزواتى وبدواتى ، مندفعاً اندفاع الشباب بغير أى تحفظ أو قصد . لقد مخرت ناشراً جميع أشرعتى . ولكن الشيء الغريب هو أننى كنت أقرأ فى كثير من الأحيان ، حتى لقد كنت أجد فى القراءة لذة ومتعة . ومع ذلك لم أفتح التوراة يوماً غير أننى لم أفارقها ، وانما كنت أحتفظ بها قريبة منى فى تنقلاتى ، كأنما أنا أنوى أن أقرأها « فى يوم من الأيام وساعة من الساعات ، فى شهر من الأشهر وسنة من السنين فى المستقبل » . وبعد أربع سنين من الخدمة ، وجدت نفسى فى مدينة ك . . . التى كانت كيتينا تعسكر فيها . ان المجتمع فى هذه المدينة كبير العدد متنوع المأل . وكان أكثر هؤلاء أناساً أغنياء لطافاً يعيشون حياة فرح وبهجة . وقد أحسنوا استقبالى لأننى مرح بطبعتى . يضاف الى ذلك أنهم كانوا يعدوننى ثرياً ، وذلك أمر بقدره المجتمع قدراً عظيماً . وهنا انما حدث لى حادث كان له أثر حاسم فى مصيرى . فقد تولت بحب فتاة جميلة ذكية نبيلة الخلق بتمتع أهلها باحترام كبير ، فهم بنعمون بالثراء ، ولهم

صلوات عالية • وفد أحسن أهلها وفادتي • وأحسست أن الفتاة ليست غير
مكرثة بوجودي ، فالنهب خيالي من ذلك التهايا شديدا • ولقد أدركت
فيما بعد أنني لم أكن أحبها فعلاً ، وإنما كنت مقتناً بذكائها وسمو طبيعتها
ورفعة خلقها ، وتلك أمور ما كان لها إلا أن تؤثر في نفسي • وقد منعتني
أنأيتي من خطبتها ، اذ صعب عليّ أن أتنازل في مثل تلك السن من ريعان
الشباب عمّا في حياة العازب الحرة المتحللة ، من اغراءات • لذلك
اقتصرت على بعض التلميحات الخفية ، وأرجأت الخطوة الحاسمة الى
ما بعد • وفي أثناء ذلك تلقيت أمرا عسكريا بالسفر مدة شهرين الى
مقاطعة أخرى • فلما عدت عرفت أن الفتاة تزوجت في غيابي • لقد
تزوجت رجلاً غنيا من أصحاب الأملاك في منطقة مجاورة ، وهو أكبر
منى سنّاً ولكنه ما يزال شاباً ، كما أن له صلوات في العاصمة وفي المجتمع
الراقي ، وذلك ما لم يكن لي مثله • ثم انه عدا هذا رجل لطيف محبب
جدا مثقف جدا ، على حين أن ثقافتى أنا كانت ناقصة نقصاً كبيراً • وقد
بلغت من الاضطراب لهذا الحادث ما جعلني أتصور أنني فاقد بسببه
صوابي • وكان أنكى ما ألمني اننى علمت أن الرجل خطيب الفتاة منذ
زمن طويل • ولقد حدث أن قابلته فعلاً في منزل أهلها مرارا كثيرة
دون أن يخطر ببالى شيء ، من شدة ما أعماني غرورى • وقد أحققتى هذا
الأمر وأغاظنى أكثر من أى شيء عداه • تساءلت : كيف ؟ أيعلم ذلك
جميع الناس الا أنا ؟ وشعرت من ذلك بحقد شديد • لقد شعرت بالدم
يصعد الى جبهتى حين تذكرت تصريحات الحب التى أوشتك أن أقولها
لها مرارا • ان الفتاة لم توقفتى بل تركتني أتكلم دون أن تبشئ بأنها
مخطوبة • فاستتجت من ذلك أنها كانت تسخر منى وتضحك على •
وقد فهمت فيما بعد أن الأمر لم يكن كذلك قط وتذكرت أنها ، على
خلاف ما توهمت ، كانت تقاطعنى في كل مرة مازحةً ، وتغير موضوع

الحديث ، غير أنني عجزت في ذلك الحين عن أن أحكم في الأمر حكماً سليماً صحيحاً ، فكنت أحرق توفاً الى الانتقام .

وانى لأتذكر الآن ، بغير قليل من الدهشة ، أن ذلك الغضب وذلك التوق الى الانتقام اللذين شعرت بهما كانا شاقين على نفسى ، لأن خفة طبعى كانت لا تتيح لى أن أظل حاقداً على الناس مدة طويلة . فصرت أحرّض استيائى وحنقى تحريضاً مصطنعاً من أجل أن أصل أخيراً الى اندفاع أحق غير انسانى . ارتقت فرصة " أنقم فيها لنفسى ، واستطعت فى ذات مساء ، بينما كنا فى مجتمع غفير ، أن أهين «غريبى» فى أمر لاهلاقة له فى الظاهر بشخصى . سخرت من رأيه فى موضوع حدث كان قد وقع وهزّ أفكار الناس كثيراً فى ذلك العهد* - كنا فى عام ١٨٢٦ - وكانت سخرباتى - فى رأى الحضور - محكمة حاذقه فكهنه - ثم طلبت منه أن يصفى حسابه معى بمبارزتى ، وبلغت من الغفظة والغلظة أثناء ذلك انه لم يملك الا أن يقبل التحدى رغم كل ما بينى وبينه من مسافة ، فأنا أولاً أصغر منه سناً ، وأنا ثانياً ضابط صغير لا قيمة له فى حين أنه يحتل هو مركزاً اجتماعياً عالياً جداً . وقد علمت فيما بعد أن شيئاً من الغيرة قد دفعه الى قبول التحدى . فمن جهة أولى كان هو قبل ذلك الحين ، أثناء خطوبته ، قد ساءته ملازميتى لخطيئته ؛ وهو من جهة ثانية يخشى الآن ، اذا علمت زوجته بأنه تحمل اهاناتى دون أن يبارزنى ، أن تحفره على غير ارادة منها ، وأن يتزعزع من ذلك حبها له . ولم ألبث أن عثرت على شاهد لى بغير عناء ، وهو رفيق من رفاقى كان ملازماً فى كتيبتى نفسها . ولقد كانت المبارزات رائجة جداً بين الضباط فى ذلك الزمان ، رغم أنها محظورة محرمة ، وهذا يدل على مدى ترسخ الأحكام الاجتماعية الباطلة فى النفس الانسانية . كنا فى أواخر شهر حزيران (يونيو) ، وحددّ الغد موعداً للقاء ، فى الساعة السابعة من الصباح ، على أرض مهجورة

خارج المدينة • ووقع لى فى ذلك المساء حادث لا أستطيع الا أن أعده
تدخلًا من القدر • فحين عدت الى مسكنى فى ساعة متأخرة من الليل
مهتاجا هتاجا شديدا ، ثرت على الجندى الذى يخدمنى ، واسمه آتاناى ،
ثورة سديدة ، وصفعته بكل قوتى مرتين ، حتى أخذ الدم يسيل من
وجهه • ان آتاناى يخدمنى منذ زمن غير طويل ، ولقد سبق أن ضربته
من قبل ، ولكنى لم أضربه بوحشية حيوانية كهذه المرة • صدقونى
يا أصدقائى الأعزاء اذا قلت لكم : اننى ما زلت الى اليوم ، بعد أكثر من
أربعين عاما ، لا أستطيع أن أتذكر سلوكى حينذاك الا وأشعر بخزى
وعار وألم عميق • وقد رقدت فتمت زهاء ثلاث ساعات • فلما استيقظت
كان الصبح قد تنفس • فأسرعت أرددى ملابسى لأن النوم قد طاز من
عينى ، واقربت من النافذة ففتحتها • ان النافذة تطل على الحديقة • وقد
أخذت الشمس تطلع فى الأفق • والجو جميل طرى ، والعصافير تغرد •
سألت نفسى : « لماذا هذا الاحساس الغريب فى نفسى بالخزى والعار
والاشمئزاز ؟ ألا أنى سأسفع دم انسان ؟ لا ••• يبدو أن هذا ليس هو
السبب • أأكون اذن خائفا من الموت أخشى أن أقتل ؟ لا ، لا ، ليس
هذا هو السبب ، ليس هذا هو السبب أبدا ••• » وفجأة أدركت علة
ذلك الضيق الذى كنت أشعر به : لقد كنت أحس بعذاب فى ضميرى
لأننى ضربت آتاناى فى الليلة البارحة • تراءى لى المشهد بجميع
تفاصيله على حين بغتة : كان آتاناى واقفا أمامى ، منتصب القامة ، مرفوع
الرأس ، جاعلا يديه على درزة سرواله ، وأنا أهوى على وجهه بالصفعة
تلو الصفعة بكل ما أوتيت من قوة • وكان هو يحسدنى أمامه كأنه فى
استعراض عسكري ، ولا يجرؤ أن يرفع ذراعه ليحمى وجهه رغم أنه
يرتجف عند كل صفعة • انظروا الى أى حالة يمكن أن يرد الكائن
الانسانى ! كيف يستطيع انسان أن يرضى ضرب أخيه الانسان ؟ يا لها

من جريمة ! شعرت كأن ابره تنفذ في جسمي . اننى ارى الآن كيف كنت واقفاً أمام النافذة مشدوهاً مصعوقاً . كانت الشمس في الخارج تتلألأ ، وكانت عصافير صغيرة تغرد ببراءة ، مسبحةً بحمد الرب ... وهأنذا أخفى وجهي يدي على حين فجأة ، وأرتمى على سريري ناشجاً منتحباً . لقد عاودتنى في تلك اللحظة ذكرى أخى مارسيل ، وخطرت ببالى الكلمات التي قالها للخدم قبل موته بقليل : « يا أصدقائي الطيبين ، ماذا فعلت حتى أستحق أن تخدموني ؟ ما الذي يجعلني جديراً بعاطفتكم ؟ » . وقلت لنفسي : « ما الذي يجعلني أنا أيضاً جديراً بأن يخدمني قريني الانسان ؟ » . وحاصرت هذه الفكرة عقلي فجأة . فأخذت أتساءل : « لماذا يجب على انسان شبيه بي ، انسان خلق متلي على صورة الله ، أن يكون خادمي ؟ ما الذي جعلني جديراً بذلك ؟ » . لقد طرحت على نفسي هذا السؤال لأول مرة في حياتي . « أمه ، يا حملي الوديع ، ان كل انسان مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس ... البشر لا يعرفون هذا ... ولو ارتضوا أن يعترفوا به لأصبحت الأرض جنة منذ الآن » . تساءلت من خلال دموعي : « أيجوز حقاً يا رب أن أكون مرتكباً جميع الذنوب ، وأن أكون أكبر الناس اثماً ؟ انى اذن لأسوأ الناس طراً ! » . وتراءت لي الحقيقة فجأة في ضياء باهر ! ما الذي كنت أريد أن أفعله ؟ أن أقتل انساناً طيباً ذكياً نبيل الخلق لم يمسنى بسوء ولم يلحق بي أذى ، وأن أحرم زوجته من السعادة الى الأبد في الوقت نفسه ، فأسلمها للعذاب وأدمر روحها ! وكنت أثناء استسلامي لهذه التأملات راقداً على سريري ، دافئاً وجهي في الوسائد ، لا ألاحظ أن الوقت كان ينقضي . وها هو ذا رفيقي الملازم يظهر في غرفتي فجأة حاملاً الى المسدسات . قال لي :

- أنهضت من نومك ؟ أحسنت ... ما يزال فى الوقت متسع •
هياً بنا !

اضطربت ، وزاغ لى ، لكننى تبعته ؛ وفيما كنا نوشك أن نركب
العربة التى كانت تنتظر أمام المنزل ، عدلت عن الركوب فجأة ، وقلت
لرفيقى شارحاً :

- اتظلمنى لحظة ، أنا عائد الى البيت لأجىء بمحفله نقودى التى
تركتها فيه •

وأسرعت قدماً الى الغرفة الصغيرة التى يسكنها خادمى الجندى •
قلت له :

- آتانا زى ! لقد صفعتك على وجهك مرتين أمس • سامحنى !

ارتعش حين سمع كلامى كأنه قد خاف • وشعرت عندئذ أن ذلك
ليس كافياً ، وأن بادرته لا تتناسب والأذى الذى ألحقته به ، فإذا أنا
أخضع فجأة لاندفاعه مباغتة فأرتمى على قدميه بملابسى الفخمة حتى
لامست جبهته الأرض ، وأقول له صائحاً :

- سامحنى يا آتانا زى

بدا آتانا زى مصعوقاً ، وأخذ يقول :

- يا صاحب النبالة ... يا أبتاه ... يا مولائى ... كيف يمكنك
أن ... أنا لست جديراً بهذا ! ...

وأخذ يبكى هو نفسه ، كما بكيت أنا منذ قليل ، دافئاً وجهه فى
يديه • واستدار نحو النافذة ، مرتعشاً من قمة رأسه الى أخمص قدميه ،
غارقاً بدموعه • وهرعت ألق برفيقى الملازم الذى كان ينتظرنى فى
العربة • صحت أقول للمحوضى :

— سرّ ...

وأضفت مخاطباً رفيقى :

— هل تريد أن ترى الغالب ؟ انه أمامك !

كنت أشعر بحماسة شديدة ، وظللت أضحك بغير انقطاع أثناء الطريق ، وأتكلم بلا توقف ، أخبط فى الكلام خبط عشواء ... لا أدري ماذا قلت ! وكان رفيقى ينظر الىّ راضياً مرتاحاً . قال لى :

— أرى انك شجاع ! لسوف تشرّف بزّتنا العسكرية .

ووصلنا الى أرض المعركة ، حيث كنا 'نتنظر . وضعنا أنا وخصمى على بعد اثنتى عشرة قدماً . وكان عليه هو أن يطلق النار أولاً . وقابلته جذلاً فرحاً ، وأنا أنظر الى عينيه فأشعر أن قلبى يفيض حباً له . لم تطرف عينى . كنت واثقاً مما سأفعله . أطلق النار . خدشت الرصاصة خدى خدشاً خفيفاً ، ولا مست أذنى ملامسة .

صحت أقول :

— الحمد لله ! انك لم تقتل أخاك .

ثم تناولت مسدسى فرميته ورائى فى اتجاه الغابة .

قلت :

— هذا ما أفعله بالمسدس .

ثم التفت نحو خصمى وقلت له :

— سيدى ! اغفر لى اننى أسأت اليك بغير سبب لطيشى وخفتى ، ثم أجبرتكَ على أن تطلق علىّ النار . أننى لا أساويك ولا أعدلك ،

فأنت خيرٌ منى عشر مرات ، وربما أكثر من ذلك • قل هذا عن لسانى
للإسان الذى تقدره أكثر من أى إسان آخر فى هذا العالم •

فما ان نطقت بهذه الكلمات حتى أخذ الثلاثة يصرخون •

قال خصمى وقد بدا عليه حتى شىء من الغضب :

— ما معنى هذا ؟ ما كان ينبغى أن تزعمجنى اذا لم تكن تنوى أن
تقاتل •

فأجبهته قائلاً بمرح :
— لقد كنت حتى الأمس غيباً أحقق ، ولكننى صرت ذكياً عاقلاً

بعد ذاك •

فقال :

— أما انك كنت بالأمس غيباً أحقق ، فهذا أمر أسلم به ؟ وأما
أنك أصبحت ذكياً عاقلاً ، فهذا ما لا يبدو صحيحاً اذا نحن نظرنا الى
سلوكك •

قلت وأنا أصفق بيديّ :

— مرحى ! اننى أوافقك على ما تقول • لقد استحققت أن أسمع
هذا الكلام •

قال ملحاً :

— أأنت عازم على أن تطلق النار يا سيدى أم لا ؟

فأجبهته :

— لن أفعل • ولك أن تطلق مرةً ثانية اذا كنت تحرص على ذلك،
ولكنك تحسن صنعاً اذا أنت لم تطلق •

اضطرب الشاهدان ، ولا سيما صاحبى •

- كيف تجرؤ على أن تلتطخ شرف كتيبتنا بالعار ؟ آتطلب الصفح
وأنت على أرض المعركة ؟ آه ... ليتنى تنبأت بهذا ! ...
كففت فى هذه المرة عن الضحك ، وقلت لهم جميعا وأنا أنظر فى
أعينهم :

- سادتى ! أعجيب " الى هذا الحد حقا أن يوجد فى أيماننا هذه رجل
يستطيع أن يندم على خطيئة ارتكبها ، وأن يعترف بها أمام الناس ؟
فصاح صاحبي يقول من جديد :

- لا ... ولكن هذا لا يكون على أرض القتال .
فاستأنفت كلامى قائلا :

- أهذا ما يدهشكم اذن ؟ لقد كان يجب على فى الواقع أن أعتذر
اليه منذ وصلت ، قبل أن يطلق على النار ، وذلك لأجنبه ارتكاب خطيئة
قاتلة . ولكن من المؤسف أننا قد نظمنا حياتنا على تصورات تبلى من
السخف أنه كان يستحيل على أن أفعل ذلك ان صح التعبير ، فأنى
ما كنت لأستطيع أن أتكلم آملا أن أفهم حق فهمى الا بعد أن أطلق
على النار من على بعد اثنى عشرة قدما ؛ والا لكان يمكن أن تعدونى جبانا
غير جدير بأن يسمع كلامى اذا أنا اعتذرت اليه منذ وصولى قبل أن
يطلق .

ثم هتفت فجأة أقول مندفعاً بكل نفسى :

- أيها السادة ! تأملوا خلق الله من حولكم : السماء الصافية ،
والهواء النقي ، والعشب الطرى ، والطيور المغردة ! ان الطبيعة تنبسط
أمامكم رائحة بغير خطيئة . ونحن وحدنا ، معشر الأغبياء الأدياء ،
لا نستطيع أن نرى أن الحياة جنة . يكفى أن نعتقد النية على أن نعرف

هذه الحقيقة حتى يبدو لنا العالم فوراً بكل سنائه وبهائه وجماله • ألا
فلنتعاقق ولنبتك ...

كنت أوشك أن أبكى ، ولكنني أمسكت وفد انقطعت أنفاسي •
شعرت بانفعال شديد لذيد ، وكان قلبي يفيض سعادة لا عهد لي بمثلها
من قبل •

قال خصمي :

— كلامك فيه عقل وشرف ... لا شك في أنك انسان طريف
جدا ...

فأجبه ضاحكا :

— اسخر مني الآن ، ولكنك ستطريني في المستقبل •
قال :

— بل أنا مستعد لأن أثنى عليك منذ الآن • اسمح لي أن أمد اليك
يدي ، لأنك فيما يبدو لي انسان صادق جدا •

قلت :

— لا ... لا تمدد لي يدك الآن ... وانما تمدها لي في المستقبل ،
بعد أن أصلح نفسي وأستحق تقديرك ... يومئذ تصافحني وتكون على
حق اذا صافحتني •

وعدنا الى المنزل • كان شاهدي حائقا فهو لا ينفك يقرعني في
العربة • أما أنا فكنت أقبله • وما أن علم رفاقي بما حدث حتى اجتمعوا
ليحكموا عليّ • قال بعضهم :

— لقد لطح شرف بزتنا العسكرية بالعار ، فعليه أن يستقيل •

ودافع بعضهم الآخر عنى قائلاً :

— ولكنه صمد أمام إطلاق النار عليه دون أن يخلج •

فقال الآخرون :

— غير أنه جبن بعد ذلك ، وخاف استئناف تبادل الرصاص ، فاعذر

على أرض المعركة •

فأجاب المدافعون عنى فائلين :

— لو أنه خاف لأطلق النار أولاً قبل أن يعتذر ، أما وأنه رمى

مسدسه فى الغابة محشواً بالرصاص فهذا دليل أن الأمر ليس كذلك ،

وانما هو نبيء آخر جديد طريف •

وكنت أصغى اليهم ، فتملؤنى أقوالهم فرحاً ، ثم فلت لهم آخر

الأمر :

— يا أصدقائى ورفاقى الأعزة ! لا يقلقنكم أمر استقالتي ، فقد

أرسلتها الى المكتب منذ هذا الصباح ، وسأدخل الدير متى فُبلت

الاستقالة •

فما ان سمعوا هذه الكلمات حتى انفجروا يضحكون ضحكاً

صاحباً •

— كان ينبغى أن تقول هذا من قبل • الآن اتضح كل شيء • ليس

يحاكم راهب •

كان رفاقى يضحكون ولكن بغير خبث ؛ انهم يضحكون وهم

يشعرون نحوى بشيء من العطف والحنان • ومنذ تلك اللحظة أصبحوا

جميعاً يظهرون لى المحبة والمودة ، حتى أعتاهم اتهاماً لى وأقساهم حكماً

على • واحتفلوا بى فى الكتيبة طوال الشهر الذى انقضى بين تقديمى

الاستقالة واحالتى على التقاعد • كانوا يقولون :

— هذا راهبنا •

وأصبح كل واحد منهم يخاطبني بأقوال فيها محبة وعطف ، محاولا أن يصرفني عما عزمت عليه ، بل ومشفقاً على رائيأ لحالي •

— لماذا تفسد حياتك هذا الافساد ؟

— لا بل انه شجاع • لقد جابه اطلاق النار عليه وكان فى وسعه أن يرد ، ولكن لا شك أنه رأى فى منامه حلماً أثناء الليلة التى سبقت يوم النزال فقرر أن يدخل الدير •

وكان الامر كذلك فى المدينة أيضا • لقد كان الناس فى الماضى يحسنون استقبالى وكفى • أما بعد ذلك الحادث فقد أصبحوا يهتمون بى جميعا • انهمرت على دعواتهم الى ولائم يقيمونها لى • صحيح أنهم يسخرون قليلاً من قرارى ، ولكنهم يحبوننى • ويجب أن أذكر أن السلطات قد أغضت أعينها عن حادث مبارزتنا ، رغم أن هذه المبارزة أصبحت مدار حديث الناس جميعا ، وذلك لأن خصمى يمت الى جنرالنا بقربى قريبة • ثم انه ما من دم قد سفح ، وقد استقلت *** لذلك عدت المغامرة أشبه بمزاحة • وقد تجرأت فقررت أن أعبر عن آرائى بغير تحرج ، رغم سخريات أبناء المجتمع الراقى التى لم تكن سخريات خبيثة شريرة والحق يقال ، بل كانت سخريات بريئة طيبة *** وكانت تجرى تلك الأحاديث عادة فى المساء ، بحضور السيدات ، لأن اهتمام النساء بى كان أكبر من اهتمام الرجال ، فكان يحلو لهن أن يصغين الى كلامى ، وكنّ يجبرن رجالهن على أن يصغوا الىّ كما يصغين هنّ •

كنت أسأل بلهجة ساخرة :

- كيف تزعم أنني مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس ؟
أأنا الذي اقترف أخطائك مثلاً ؟

فكنت أجيبهم بقولي :

- لا تستطيعون أن تدركوا هذه الحقيقة اليوم ، لأن المجتمع قد
سار منذ زمان بعيد في طريق خطأ ، فرفع الى مصاف الحقائق ضلالات
مشومة ، وطلب من أعضائه أن يتبنوا هذه الأحكام • هذا أنا مثلاً : لقد
أردت مرة في حياتي أن أتصرف تصرفاً صادقاً ، فإذا أنا أصبح في نظرهم
رجلاً ملثاً العقل • ومهما تعجبوني ، فانكم تظلون تسخرون مني •

قالت سيدة المنزل ضاحكة :

- كيف يمكن أن لا يُحِبَّ فتى مثلك ؟

كان الجمع غفيراً جداً في ذلك المساء ، ولمحت فجأة ، بين السيدات
الحاضرات ، تلك المرأة التي أردت بسببها أن أبارز ، والتي كنت أحلم
أن تكون خطيئتي قبل ذلك بقليل • لم أكن قد لاحظت وصولها •
وها هي ذى تنهض وتدنو مني وتمد اليّ يدها وتقول لي :

- اسمح لي أن أقول لك انني ، أنا ، لا يخطر ببالى لحظة أن
أسخر منك • بالعكس : انني لأحرص على أن أعرب لك عن شكري
متأثرة أصدق التأثير ، أن أعبر لك عن تقديري واحترامي للسلوك
الذي سلكته في ذلك الطرف •

وجاء الى زوجها أيضاً ، وتبعه سائر المدعوين • كادوا يقبلونني
جميعاً • اجتاح الفرح نفسي • ولاحظت خاصة ، بين الأشخاص الذين
أظهروا لي مودتهم وعاطفتهم ، سيداً متقدماً في السن بعض الشيء ، كنت
أعرف اسمه منذ زمن ، ولكنني لم أقدّم اليه ، فلم أخاطبه قبل ذلك
المساء بكلمة واحدة •

د - الزائر العجيب

كان يشغل منصبا هاما فى مدينتنا منذ سنين كثيرة • انه شخص مرموق ، غنى ، يتمتع باحترام عام ، اشتهر ببره واحسانه ، فقد وهب للمجأ الفقراء ولماوى الأيتام مبالغ ضخمة • وكان عدا ذلك يساعد عددا كبيرا من الفقراء ، متخفيا متكثما ، حتى أن ذلك لم يُعرف الا بعد موته • انه فى نحو الخمسين من عمره ، وهو قليل الكلام ويوشك مظهره أن يكون قاسيا • وقد تزوج منذ عشر سنين فحسب ، وامرأته ماتزال شابه ، وله منها ثلاثة أولاد كانوا صغارا فى ذلك الحين •

فى غد ذلك المساء الذى جرى فيه الحديث ، كنت فى منزلى ، فاذا بالباب يُفتح فجأة ، واذا بى أرى هذا السيد يدخل على •

يحسن أن أذكر هنا أنني كنت قد غيرت مسكنى • فأننى بعد إحالتى على التقاعد قد استأجرت غرفة فى دار امرأة عجوز هى أرملة موظف من الموظفين ، فكانت خادمة هذه العجوز تقوم على خدمتى • والحق اننى تركت منزلى القديم فى يوم المبارزة نفسه ، فما ان رجعت الى منزلى فى ذلك الصباح حتى صرفت آتانا زى وأرسلته الى اللكنة ، لأننى أصبحت لا أجرو أن أنظر اليه بعد الذى حدث بيننا • انظروا الى مدى هيمنة الأفكار السائدة على انسان من أبناء المجتمع لم يتهيا للحياة الروحية الأخلاقية ! ان هذا الانسان يمكن أن يحمر خجلا حتى من أنبل الأفعال وأجدرها بالاحترام •

قال لى هذا السيد :

— لقد أتيج لى أن أسمعك عدة مرات فى منازل صديقة كثيرة ، فكنت أصغى الى كلامك باهتمام عظيم فى كل مرة • وائنى لأحب أن

أحظى بمعرفتك لأتحدث معك بمزيد من التفصيل • فهل تمنى علىّ بهذا
الفضل ؟

أجبتّه قائلاً :

- ذلك يسرني أعظم السرور ، وهو لى شرف كبير •

ومع ذلك فقد شعرت بشيء من الخوف • لقد أوحى الىّ هذا
الرجل خوفاً عميقاً • صحيح أنني كنت قد ألفت أن يكون لى مستمعون
كثيرون ، وأن هؤلاء المستمعين كانوا فى كثير من الأحيان يصغون الى
كلامى باستطلاع واهتمام ، ولكن ما من أحد منهم قد واجهنى حتى ذلك
الحين بهيئة فيها هذا الجد كله وهذا النفاذ كله • أضف الى ذلك أن
الرجل قد جاء الى بيتى بنفسه •
قال لى بعد أن جلس :

- لقد تبينت فيك قوة خلقية كبيرة ، لأنك لم تخش أن تستخدم
الحقيقة فى ظروف تعرّضك لاحتقار الجميع •
فأجبتّه :

- لعلك تقدرنى فوق قدرى فى هذه القضية •
فقال :

- لا ••• فان القيام بعمل كهذا العمل أصعب مما تظن •
وتابع يقول :

- لقد أثر سلوكك فى نفسى تأثيراً قوياً ، وهذا هو السبب الوحيد
الذى دفعنى الى زيارتك • أحب لو أسألك أن تصف لى - ما لم تر ذلك
فضولاً منى فى غير محله - ما شعرت به لحظة قررت أن تعتذر اليه
على أرض القتال ، اذا كنت تتذكر مشاعرك • أرجو أن لا تعزو سؤالى
هذا الى طيش منى ، فهناك أسباب خفية تدفعنى الى القاء هذا السؤال
عليك ، وسأشرح لك هذه الأسباب اذا شاء الله أن يقرب بيننا •

كانت أثناء استرساله فى هذا الكلام أنظر اليه بانتباه ، فشعرت
فجأة باطمئنان اليه وثقة به ؛ حتى لقد أحسست أنا أيضا باستطلاع
قوى ، لأننى قدرت أن فى حياته سرّاً • قلت له :

- قبل أن أذكر لك ما شعرت به أثناء اعتذارى الى خصمى على
أرض المعركة ، أحسب أن من المفيد أن أروى لك كيف تسلسلت
الأحداث منذ البداية تسلسلاً لا يعرفه أحد الى الآن •

وأطلعت على ما وقع لى مع آتانا زى ، ورويت له كيف أننى سجدت
أمامه ، وقلت أختم كلامى :

- تستطيع أن تفهم بعد هذا أن موقفى فى لحظة المبارزة كان سهلاً ،
لأننى كنت قد رجعت الى الاحساس بالحقيقة وأنا فى منزلى ، فلما سرت
فى هذا الطريق لم يكن علىّ الا أن أتابع المضى فيه ؛ وسلوكى بعد ذلك
لا يتصف بأنه لم يكلفنى أى عناء فحسب ، بل كان الى ذلك مصحوباً
باحساس بالسعادة والفرح •

أصغى الرجل الى كلامى بانتباه ، وكان فى نظرتة الىّ مودة كبيرة
وحب عظيم • قال :

- هذا كله شائق جداً ، وسأعود اليك لأتحدث معك مراراً •

وأصبح يجرى الىّ كل مساء تقريباً • وكان يمكن أن تتوثق بيننا
عرى الصداقة ، لو أنه حدثنى عن نفسه أيضاً • ولكنه لم يكده يفضى الىّ
بشيء عن حياته ، وكان لا يريد على أن يسألنى عن حياتى أنا • ومع
ذلك فقد أحببته كثيراً ، وفتحت له قلبى كله ، قائلاً لنفسى اننى فى غير
حاجة البتة الى معرفة سرّه ، وحسبى أن أعلم أنه رجل صادق مستقيم •
وأرضانى أن أرى رجلاً أكبر منى سناً ، رجلاً يبلغ هذا المبلغ من الجدة

ثم هو لا يحتقر صحبة شاب مثلى ، بل ينجى اليه فى منزله *** وقد
تعلمت منه أشياء هامة كثيرة ، لأنه كان على جانب كبير من الذكاء •

قال لى فجأة ذات يوم :

– أما أن الحياة جنة ، فذلك ما أفكر فيه منذ زمان طويل •

وسرعان ما أضاف قوله :

– بل اننى لا أفكر الا فى هذا •

ونظر الى مبتسماً •

– حتى اننى أشد اقتناعاً بذلك منك ، لأسباب ستعرفها فيما بعد •

كذلك أضاف يقول بعد قليل •

وقد رت وأنا أصغى اليه انه ربما كان يريد أن يفضى الى بعض
أسراره •

واستأنف كلامه قائلاً :

– ان كلاً منا يحمل فى نفسه جنة مدفونة • ان هذه الجنة قائمة

فى نفسى وان تكن مختبئة • وحسبى أن أريد ، حتى أجعلها تنبجس
منذ اليوم فأحتفظ بها طوال حياتى •

كان ينكلم بشيء من الحماسة ؛ وفى نظـرته المنصبة على رأيت
ما يشبه أن يكون سؤالاً مستسراً عجيباً • وتابع كلامه يقول :

– انه لصحيح كل الصحة أن كل انسان مرتكب كل الذنوب فى
حق كل الناس ، هذا عدا خطايا الخاصة • تلك حقيقة كبرى عبّرت
عنها ، ولا يسعنى الا أن يدهشنى أنك استطعت أن تكتشفها كاملة ،

دفعةً واحدة • ومن المحقق أن ملكوت السموات سيكون واقعا لا حلمًا
فحسب ، في اليوم الذي تفهم الانسانية فيه هذه الحقيقة •

فهتفت أقول بمرارة :

- متى يحدث هذا ؟ هل يجيء ذلك اليوم حقا ؟ أليس ذلك أملاً
لا أكثر ؟

- أنت لا تؤمن بهذا اذن ؟ أتبشر بالحقيقة ثم تستسلم للشك ؟
ألا فاعلم أن ما تسميه أملاً سيتحقق لا محالة • كن من ذلك على ثقة !
على أن هذا لن يتحقق اليوم ، لأن لكل فعل ميقاته في الزمان بحكم قوانين
صارمة • لا بد أن تتغير الانسانية تغيراً نفسياً وأخلاقياً • لن يكون من
الممكن أن يتبدل العالم ما لم يكتسب البشر روحاً جديدة ، وما لم يتجهوا
في طريق جديد • لن يكون على الأرض أخوة ما لم يشعر البشر بأنهم
أخوة حقاً • لن يستطيع البشر في يوم من الايام أن يقسموا ثرواتهم
بالعدل اذا هم لم يستوحوا الا العلم ومصالحهم • ان كل واحد سيجد
نصيبه أصغر مما يستحق أن يكون له من نصيب ؟ وان الحسد والحقد
سيسودان فيدفعان البشر الى أن يفنى بعضهم بعضا • تسألني متى يتحقق
ملكوت السموات على الأرض • فاعلم أن ملكوت السموات سيتحقق على
الأرض في يوم من الايام ، ولكن ذلك لن يكون قبل انتهاء « عهد
العزلة » •

- أية عزلة تعنى ؟

- العزلة التي يعيش فيها البشر ، وتتجلى في جميع الميادين ، ولا
سيما في عصرنا هذا • ان عهد العزلة هذا لم ينته ، حتى انه لم يصل الى
ذروته • ان كل انسان في هذا العصر يجهد في سبيل أن يتذوق الحياة
كاملة ، مبتعداً عن أقرانه ، ساعياً الى السعادة الفردية • ولكن هيهات

أن تؤدي هذه الجهود الى تذوق الحياة كاملةً ، فهي لا تقود الا الى فناء النفس فناء كاملاً ، ولا تقود الا الى نوع من الانتحار الروحي بعزله خانقة . لقد انحل المجتمع في عصرنا الى أفراد يعيش كل منهم في حجره كوحش ، ويهرب بعضهم من بعض ، ولا يفكرون الا في أن يخفوا ثرواتهم بعضهم عن بعض . وهم يصلون من ذلك الى أن يكره بعضهم بعضاً ، والى أن يصبحوا جديرين بالكره هم أيضاً . ان الانسان يكدر الخيرات فوق الخيرات في العزلة ، وتسره القوة التي يحسب أنه يملكها بذلك ، قائلاً لنفسه ان أيامه قد أصبحت بذلك مؤمنة مضمونة ؟ انه لا يرى ، لحماقته ، أنه كلما أوغل في التكديس كان يغوص في عجز قاتل . ذلك أنه يتعود أن لا يعتمد الا على نفسه ، ويفقد ايمانه بالتعاون ، وينسى في عزله القوانين التي تحكم الانسانية حقاً ، وينتهي من ذلك الى أن يرتعد في كل يوم خوفاً على ماله الذي أصبح فقدانه يحرمه من كل شيء . لقد غاب عن البشر تماماً في أيامنا هذه أن الأمن الحقيقي في الحياة لا يتحقق بالعزلة ، وانما يتحقق باتحاد الجهود وتناسق الأعمال الفردية . ان عهد العزلة الرهيب هذا سينتهي حتماً في يوم من الايام ، وسيفهم البشر فجأة مدى تناقض العزلة مع طبيعتهم الحقيقية ، وستهب على الانسانية بومئذ نفحة جديدة ، وستسأل الانسانية مدهوشة بومئذ : كيف أمكنها أن تعيش طوال هذه المدة في ظلمات الضلالة لا ترى النور ؟ وعندئذ سوف تظهر علامة ابن الانسان في السموات وانما المهم أن نحافظ على عَلمه الى أن يجيء ذلك الحين ، وأن نحاول ، ولو بالقذوة الفردية ، أن نخلص النفس من عزلتها بزرع المحبة الأخوية دون أن نخشى اتهامنا بالغباء . ما ينبغي أن ندع لهذا الأمل العظيم أن يموت

هكذا كانت تنقضي ليالينا في أحاديث مشبوبة متحمسة . وأصبحت

أهمل مجتمع المدينة شيئاً بعد شيء ، وأصبحت لا ألبى دعوات الناس إلا لماماً . ثم أن الحماسة لشخصي كانت قد بدأت تزول . لقد عمت « موضتي » . ولست أقول ذلك لاثماً ولا عاتباً ، لأن الناس ظلوا يحبونني ويحسنون وفادتي . ولكن يجب أن نعترف بأن « الموضة » تلعب في المجتمع دوراً كبيراً . أما زائري العجيب فقد أصبحت أحمل له مع مرور الزمن إعجاباً شديداً . كنت أشعر أمام ذكائه بنشوة قوية ووجد عظيم ، وكنت أحس أنه ينضج مشروعا سرياً أو يتهيأ لعمل كبير . ولعله قدّر فيّ أنني لا أ تدخل فيما لا يعنيني فضولاً ، فأنني لم أحاول ، لا على نحو مباشر ولا على نحو غير مباشر ، أن أستدرجه إلى حيث يُسرُّ إلىّ بشيء من أمره . ولكنني لاحظت أخيراً أن سره يثقل على صدره ، وأنه يحترق شوقاً إلى أن يفتح لي قلبه ، أو ذلك هو على الأقل ما شعرت به شعوراً واضحاً كل الوضوح بعد شهر . قال لي يوماً :

— هل تعلم أن الناس في المدينة يثرثرون كثيراً عنا ، وأنهم يدهشون لزياراتي المتكررة لك ؟ لا ضير على كل حال ، فإن كل شيء سيتضح قريباً .

وكان يتفق له في بعض الأحيان أن يتنابه اضطراب شديد ، وكان في مثل تلك اللحظات ينهض في الغالب لينصرف . وكان في مناسبات أخرى يطيل التحديق إلىّ ، ويلقي علىّ نظرات نافذة ، فأقول لنفسى عندئذ : « ها ... سيتكلم » ، ولكنه ما يلبث أن يغير الحديث ، ويتطرق إلى موضوعات لا قيمة لها ، أو يقول أشياء معادة مكرورة . وكان يشكو من صداع في كثير من الأحيان . وفي يوم من الأيام ، بعد أن تكلم بكثير من الحرارة ، رأيته يصفرُّ على حين فجأة ، ورأيت وجهه يتقلص ، ورأيته يتفرس فيّ تفرساً غريباً . قلت له قلقاً :

— ماذا بك ؟ أأنت مريض ؟

ذلك أنه كان قد شكّا من صدادع منذ قليل •

فقال :

— أنا ... هل تعلم ؟ أنا ... أنا قاتل ! ...

وابتسم بعد أن أفلتت منه هذه الكلمة ولكن وجهه كان قد اصطبغ
بزرقة ضاربة الى سواد • « ما هذه الابتسامة ؟ » • برق هذا السؤال في
ذهنى ونفذ الى قلبي ، قبل أن يتسع وقتي لأن أرد بشيء • ولكنني
شجبت أنا أيضا •

صحت أسأله :

— ماذا تعنى ؟

فاستأنف كلامه يقول وهو يتبسم ابتسامة حزينة :

— هأنت ذا ترى كم كلفنى هذا الاعتراف الاول من غناء ! ولقد
تم الاعتراف الآن ، وستكون متابعتة أسهل وأيسر ... فهياً أتابع ...
لبثت زمناً طويلاً لا أصدق ما كان يقوله لى ؛ ولم أستطع أن أصل
الى التصديق الا شيئاً فشيئاً ، بعد أن رجعت الى ثلاث أمسيات متتاليات ،
فروى لى القصة بجميع تفاصيلها • ظننته فى أول الامر مجنوناً ، ثم
أدركت الحقيقة أخيراً بمرارة قوية ودهشة عميقة • لقد ارتكب هذا
الرجل فعلاً جريماً قتل رهينة منذ أربعة عشر عاماً : قتل امرأة شابة
غنية ، جميلة جداً ، كانت أرملة رجل من مالكي الاطيان ، وكان لها فى
مدينتنا قصر تقيم فيه من حين الى حين • لقد افتن هذا الرجل بها افتتاناً
شديداً ، وتوله بها تولهاً مشبوباً ، وصارحها ذات يوم بحبه ، وحاول أن
يقنعها بزواجه • ولكنها كانت تحب رجلاً آخر هو ضابط فى الجيش
على الرتبة واسع الشهرة كان عندئذ فى الريف وكان عليها أن تلحق

به قريبا • لذلك رفضت عرض صاحبي ، ورجته أن لا يجيء إليها بعد ذلك اليوم أبدا • فلما صرفته بهذه الخشونة ، وأصبح لا يستطيع أن يزورها ، تسلك ذات ليلة الى منزلها الذي كان يعرف تربيته ، مارا بالحديقة والسطح ، متهورا أشد التهور ، معرضا نفسه لأن يُكتشف • ولكن الحظ واثاه ، كما يحدث هذا كثيرا في الجرائم الجريئة ، فنفذ الى دارها من كوة في السطح ، ثم هبط السلم المؤدى من طابق السقف الى شقة السيدة • كان يعلم أن الباب الذي يوجد في أسفل هذا السلم يظل مفتوحا في كثير من الأحيان بسبب اهمال الخدم • وعلى هذا انما كان يعوّل صاحبي ، فصدق حسابه • فلما صار في الشقة اتجه في الظلام الى غرفة نوم السيدة ، التي كان يشتعل فيها سراج • وشاء المصادفة أن تكون وصيقتا السيدة قد خرجتا في ذلك المساء ، دون أن تستأذناها ، وذلك لحضور حفلة صغيرة تقيمها صديقة لهما تحتل بعيد ميلادها وتسكن غير بعيد • أما الخدم والخادمت قد كانوا ينامون في الملحقات بالحديقة ، أو في المطبخ بالطابق الأدنى • فلما رأى المرأة الشابة نائمة اضطرم هواء واستعر ، فاذا بغيرة حارقة ظائمة الى الانتقام تشب في قلبه ، واذا هو يقترب من السيدة كالسكران ، ويغمد في قلبها سكيناً وهو لا يدرك ماذا يفعل • لم يتسع وقت السيدة حتى لاطلاق صرخة • ورتب الرجل أموره بمكر شيطاني وحيل رهيبة من أجل أن تقع الشبهات كلها على ساكني المنزل • لم يرض أن يستولى على محفظة القتل ، وانما فتح أدراج صندوقها مستعينا بمفاتيح وجددها تحت وسادتها ، فأختار من محتويات هذه الأدراج أشياء هي ما يمكن أن يسرقه خادم جاهل • لم يمد يده الى السندات والصكوك والاوراق التي لها قيمة كبيرة ، وانما سرق الأموال النقدية ، وسرق الحلى الذهبية مسترشدا بحجمها ووزنها، محترقاً التحف التي يفوق ثمنها ثمن الحلى الذهبية كثيرا • وسرق كذلك

بعض الاشياء التذكارية التى سنتحدث عنها فيما بعد • حتى اذا أتم جريمته على هذا النحو ، خرج من الدار متبعاً نفس الطريق الذى اتبعه فى الدخول • ولم يخطر ببال أحد على الاطلاق ، لا فى الغد حين اكتشفت الجريمة ، ولا فى أية لحظة من لحظات حياته ، أن يكون هو الجانى • وكان الناس يجهلون حبه للمرأة القليل على كل حال ، لأنه كان شديد الصمت قليل الكلام ، ولم يكن له أصدقاء يمكن أن يسرّ اليهم بشئونه • كان الناس يعدونه أحد أصدقاء القليل لا أكثر ، حتى أنهم كانوا لا يعدونه من أصدفائها الحميمين ، لأنهم لم يروه فى منزلها خلال الأسابيع التى سبقت المأساة • وانصبت الشبهات رأساً على خادم قن اسمه بطرس ، وكانت جميع الظروف تشير اليه وتتهمه • كان هذا الخادم لا يجهل أن المتوفاة - التى لم تكن تخفى ما عقدت نيتها عليه - تريد أن تدخله فى قائمة الفلاحين الذين ستقدمهم للخدمة العسكرية ، أولاً لأنه عازب ، وثانياً لأنه سىء السلوك • وقد سمعه الناس فى إحدى الخمارات يطلق أقوالاً يهدد فيها مولاته بالقتل وهو فى حالة سكر شديد وحسب قوى • وفى غداة الجريمة ، وجد على الطريق ، غير بعيد عن الضيعة ، فاقد الوعي من شدة السكر ، فى جيبه سكين ويده اليمنى ملطخة بدم • وقد فسّر هو ذلك بأن أنفسه رعب ، ولكنه لم يصدق • واعترفت الوصيفتان بأنهما غابتا عن المنزل فعلاً ، وأقرتا بأنهما تركتا باب الدار مفتوحاً عن سهو وغفلة • وجاءت تفاصيل أخرى مؤيدة لقرائن الاتهام هذه ، فاعتقل الخادم البرىء ، وأودع السجن ، وكان سيمثل أمام القضاء لولا أنه أصيب بحمى حارة بعد أسبوع ، ثم مات فى المستشفى قبل أن يفيق من غيبوبته • وأغلق التحقيق ، ولم يبق الا تسليم الأمر لله ... وظل جميع الناس ، القضاة ورجال السلطة وأبناء المجتمع فى المدينة ، مقتنعين بأن الجريمة لا يمكن أن يكون قد ارتكبها أحد غير الخادم المتوفى • وعندئذ انما بدأ العقاب •

وقد أسر الى الزائر العجيب ، بعد أن أصبح صديقى ، أنه لم يعرف عذاب الضمير فى الاونه الاولى . صحيح أنه تألم زمنا طويلاً ، ولكن ألمه كان حسرة على أنه قتل المرأة التى يحبها وعلى أنه فقد الى الأبد كل أمل فى أن يسعد بقربها ، وكانت نار الحب ما تزال تكوى عروقه . أما أنه سفح دمًا وقتل انسانا فذلك أمر لم يزعجه كثيراً ، ولم يكن يفكر هو فيه الا نادرا . كان اذا تصور أن تلك المرأة كان يمكن أن تصبح زوجة رجل آخر غيره لا يطبق أن يحتمل هذا التصور؛ وكان لهذا السبب موقناً بأنه كان يستحيل عليه أن يتصرف الا كما تصرف . وقد هزّه اعتقال الخادم فى أول الأمر ، ولكن مرض المتهم ووفاته لم يلبنا أن ردّا اليه هدوءه وطمأنينته ، اذ كان واضحاً (هذا ما كان يقوله لنفسه) أن الخادم لم يمت بسبب اعتقاله أو بسبب صدمة نفسية ، وانما مات بسبب البرد الذى أصابه أثناء هروبه ، حين بات ليلةً بكاملها على الأرض الرطبة فاقدً الوعى من السكر . أما المال والأشياء المسروقة فإنه لم يأبه لها قط ، لأنه (هذا ما كان يقوله لنفسه أيضاً) لم يسرقها طمعاً بل تمويهاً . ثم ان قيمة هذه الأشياء المسروقة لم تكن كبيرة جداً ، وسرعان ما وهب لماوى الفقراء الذى أنشأه فى المدينة فى الآونة الأخيرة مبلغاً يساوى قيمة الأشياء المسروقة بل يفوقه كثيراً . وقد فعل ذلك ليهدى ضميره فى موضوع السرقة ، ومن الغريب أنه استطاع أن يهدئه فعلاً خلال مدة طويلة من الزمن كما أسراً هو الى بذلك . واندفع يزاول نشاط مهنته اندفاعاً قوياً ففرق فى هذا النشاط ، واستطاع أن يحصل على أن يُعهد اليه بمهمة صعبة متعبة مضنية شغلته خلال سنتين ؛ واذ كان رجلاً جهمً النشاط فائض القوة فقد أمكنه أن ينسى الجريمة التى ارتكبها نسياناً يشبه أن يكون كاملاً . وكان اذا راودته ذكراها يبادر الى طرد هذه الذكرى . وقد انصرف أيضاً الى البر والاحسان فدعم

وأنشأ أعمالاً خيرية في مدينتنا ، وذاع صيته في العواصم ، فانتخب عضواً في الجمعيات الخيرية بموسكو وسان بطرسبرج . غير أن قلقاً أليماً قد استيقظ في نفسه بمرور الزمن ، وأخذت ذكرى الماضي تحاصره محاصرة ما تنفك تزداد إلحاحاً وما تنفك تنقص اندفاعه في العمل . وتعرف في تلك الفترة الى امرأة شابة جميلة ذكية ، أعجبت كثيراً فقرر أن يتزوجها ، آملاً أن يستطيع هذا الزواج أن يطرد كآبته ويبدد قلقه . كان يقول لنفسه انه اذا دخل حياة جديدة وأصبح ينهض ، فيهمة ونشاط ، بواجباته نحو امرأته وأولاده الذين سينجبهم منها ، فانه سيستطيع أن يتخلص من شبح الماضي الذي يحاصره تخلصاً تاماً . ولكن ما كان يتوقعه لم يتحقق ، وانما تحقق نقيضه . فانه منذ الشهر الاول من حياته الزوجية شعر بهذه الفكرة تعذبه وتقض مضجعه : « صحيح أن زوجتي تحبني . ولكن كيف عساها تتصرف اذا هي عرفت الحقيقة ؟ » . وحين أسرّت اليه أول مرة أنها ستصبح أما اضطرب وقال لنفسه : « أأحب الحياة أنا الذي قتلت ؟ » . ثم لما كبر أولاده ، أصبحت تهاجمه وتلازمه أسئلة أخرى : « كيف أجرؤ أن أحبهم وأن أربيهم وأنشئهم كأنني أستاذ يعلم الفضيلة ، في حين انني ارتكبت جريمة قتل ؟ » . وكان أولاده على غاية من الطرف والجمال ، ولكنه كان اذا اشتهى أن يلاعبهم يقول لنفسه : « لست جديراً بأن أأمل وجوههم الحلوة الطاهرة التي تتلألأ فيها براءة نفوسهم . » . وأخيراً انبجس أمام ضميره طيف المرأة التي قتلها ، انبجس وعيداً غامضاً كأنه نداء الدم المسفوح يهيب الى الانتقام ! وأصبحت توافيه في الليل أحلام ثقيلة وكوابيس مرهقة . ومع ذلك استطاع بفضل قوة قلبه وثبات جنانته أن يحتمل هذا العذاب زمناً طويلاً ، واستطاع أن يقبله قائلاً لنفسه انه سيكفر بالآلام الخفية عن خطيئته . ولكن أمله هذا قد خاب . فان القلق الداخلي ما انفك يزداد ويتفاقم . والناس في المجتمع يحترمونه

تقديرًا لبره واحسانه ، مع بهيهم قسوة طبعه وانغلاق نفسه • ولكنه كان يزداد شعورا بالارهاق كلما ازداد شعورا باحترام الناس له • وقد اعترف لى بأنه فكر فى الانتحار غير مرة • غير ان فرارا اخر قد أخذ ينضج فى نفسه ، فرارا بدا فى أول الأمر حلماً طائشاً مجنوناً ولكنه ما زال يستولى على وجدانه ويترسخ فى ضميره حتى اصبح لا يستطيع أن يصرف عنه فكره • كان يقول لنفسه : « يجب أن أسلم نفسى للقضاء ، يجب أن أعترف بجريمتى ، يجب أن أتهم نفسى أمام جميع الناس بأننى قاتل • » وظل ثلاث سنين يحمل فى خياله هذا الحلم الذى يعاوده فى صور جديدة بغير انقطاع • وانهى الى الاقتناع بأنه سيشفى روحه وسيسترد أمنه الداخلى الى الأبد ، اذا هو اعترف بجريمته • ولكن ما ان تأصل هذا الاقتناع فيه حتى غزا الرعب قلبه ، فأصبح يقول لنفسه : « كيف أفعل مثل هذا ؟ » وفى ذلك الحين انما وقعت المبارزة بينى وبين ذلك الرجل •

قال لى الزائر العجيب :

– حين نظرت اليك وجدت فى نفسى القوة على أن أعزم أمرى وأتخذ قرارى •

فهمت أسأله وأنا أضمُّ يديَّ احداهما الى الأخرى :

– هل يمكن حقاً أن يكون حادث تافه كهذا الحادث قد ولد فى نفسك عزيمة كهذه العزيمة ؟

فأجابنى قائلاً :

– ان هذا القرار قد نضج فى نفسى خلال ثلاث سنين ، ولم تزد مبارزتك على أن أخرجته الى النور • اننى ازاء المثل الذى ضربته أنت قد استحييت من ضعفى وحسدتك •

كذلك قال بلهجة تشبه أن تكون قاسية • قلت :

– لن يصدّقوك ، فبعد أربعة عشر عاماً ***

– عندى براهين ، براهين رهيبة ، لا يمكن دحضها *** سأقدم
هذه البراهين •

بكيت وعاقته •

وقال لى بعد ذلك كأنه يخاطب انسانا يتعلق به مصيره :

– أجبني مع ذلك عن سؤال ، سؤال واحد : ما الذى سيحدث فى
هذه الحالة لزوجتى وأولادى ؟ قد تموت زوجتى حزناً • أما أولادى
فانهم لن تسقط عنهم نبالهم ولن يحرموا من أموالهم ، ولكنهم سيظلون
الى الأبد أولاد سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة • وأية ذكرى
سيحفظونها عنى ؟

صمت فلم أقل شيئاً •

وأردف يقول :

– سيكون علىّ أن أنفصل عنهم وأن أتركهم الى الأبد !

لم أجب بشيء ، وكنت أتلو صلاة " بصوت خافت • ونهضت أخيراً
وقد امتلأت نفسى رعباً وفزعاً • سألتى وهو ينظر الىّ :

– هيه ؟

قلت :

– سلّم نفسك للقضاء ! كل منى سينقضى وتبقى الحقيقة وحدها •
وسيفهم أولادك حين يكبرون مدى ما احتجت اليه من نبل وسمو روحى
فى سبيل اتخاذ هذا القرار •

تركنى فى ذلك المساء وقد بدا عليه واضحا أنه قرر أن يعترف بجريمته • ولكنه ظل خلال الأسبوعين اللذين أعقبا ذلك ، يجىء الى كل مساء تقريبا ، ويستعد كل يوم لتحقيق ما عقد النية عليه ، حتى اذا جاء الغد جبن فى آخر لحظة عن تحقيق عزمه • وكان تردده يقلقنى ويعذبنى • انه يبدو فى بعض الأحيان ثابت الجنان صلب العزيمة ، فها هو ذا يقول فى رقة وحنان :

— أنا أدري أنتى سأعرف اللجنة متى اعترفت بجريمتى • لقد عشت أربعة عشر عاماً فى الجحيم • أريد أن أتألم • سأقبل المحنة وسأستأنف الحياة • الكذب لا يؤدى الا الى الظلمات ، وهو يسد الطريق نحو الضياء الى الأبد ! أنا الآن لا أجبرؤ أن أحب حنى أولادى فكيف بالناس ! سيفهم أولادى ••• آه يا رب ! سيفهمون ما قاسيت ولن يدينونى !

— سيفهمون القرار الذى اتخذته ، وسيستحسنونه جميعا ، ان لم يكن فوراً ففى المستقبل حتما • انك بهذا العمل تخدم الحقيقة ، تخدم حقيقة أعلى من الواقع الأرضى •

انصرف بعد ذلك وقد رضيت نفسه واستد أزره ، ولكننى رأيته فى الغد عائدا الى وقد شحِب وجهه وتشتت هيئته ، فقال لى بلهجة فيها سخرية :

— كلما دخلت عليك أحسب أنك تنفّس فى كمن يقول لنفسه : « لم يقرر بعد ! » • صبرك ولا تسرع فى احتقارى : ان انفاذ هذا الأمر أصعب مما تظن • ومن يدري ؟ فقد أعدل عنه أخيراً ! أحسب أنك لن تمضى تشى بى !

والحق أنتى لم أكن أنفّس فيه مسنطلعا ، فلقد كنت لا أكاد

أَجْرُوْ أَنْ أَنْظِرَ إِلَيْهِ • كَانَتْ هَذِهِ الْمَأْسَاءُ الدَّاخِلِيَّةُ تُمَرِّضُنِي ، وَكَتُّ أَهْمِ
أَنْ أَبْكِي فِي كُلِّ حِينٍ ، حَتَّى لِأَوْشَكَ أَنْ أُحْرِمَ النَّوْمَ •

قَالَ يَوْمًا حِينَ وَصَلَ إِلَيَّ :

— تَرَكْتُ أَمْرَاتِي مِنْذُ هُنِيئَةً • هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْهَمَ مَا مَعِيَ هَذِهِ
الْكَلِمَةُ : أَمْرَاتِي ؟ ... لَقَدْ صَاحَ أَوْلَادِي يَقُولُونَ لِي حِينَ خَرَجْتُ مِنَ
الْمَنْزِلِ : « عُدْ بِسُرْعَةٍ يَا بَابَا لِتَقْرَأَ مَعَنَا فِي كِتَابِ الْحِكَايَاتِ » • لَا ...
أَنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْهَمَ هَذَا • إِنْ شَقَاءَ غَيْرِنَا يَبْدُو لَنَا خَفِيفًا •

وَسَطَعَتْ عَيْنَاهُ وَاخْتَلَجَتْ نَفْسُهُ • وَضَرَبَ الْمَائِدَةَ فَجَاءَتْ بِقَبْضَةٍ يَدُهُ
ضَرْبَةً بَلَّغَتْ مِنَ الْقُوَّةِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا أَخَذَتْ تَهْتَزُّ • أَنَّ
هَذِهِ الْبَادِرَةَ تَبْدُو أَمْرًا خَافًا مِنْ رَجُلٍ يَبْلُغُ مَا يَبْلُغُهُ هُوَ مِنْ وَدَاعَةٍ وَرَقَةٍ
فِي الْعَادَةِ •

هَتَفَ يَقُولُ :

— أَهَذَا ضَرُورِي فَعَلًا ؟ أَهْوَ مُفِيدٌ حَقًّا أَنْ أَشْيَ بِنَفْسِي ؟ مَا الدَّاعِي
إِلَى هَذَا الْإِعْتِرَافِ وَلَمْ يُحْكَمْ عَلَيَّ أَحَدٌ بِسَبَبِ جَرِيْمَتِي ، وَلَمْ يُرْسَلْ
بِرِيٍّ إِلَى السَّجْنِ بَدَلًا عَنِّي ، وَقَدْ مَاتَ ذَلِكَ الْخَادِمُ مِنْ مَرَضٍ ؟ أَمَّا الدَّمُ
الْمُسْفُوحُ فَانْتَنَى أَكْفَرَ عَنْهُ بِآلَامِي وَعَذَابِي • ثُمَّ انْتَهَمَ لَنْ يَصْدَقُونِي ،
وَيَسْبَعِدُونَ الْأَدْلَةَ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ أَقْدِمَهَا • فَفِيمَ أَشْيَ بِنَفْسِي ؟ هَلَّا قُلْتُ لِي
فِيمَ أَشْيَ بِنَفْسِي ! إِنِّي مُسْتَعِدٌّ لِأَنْ أَتَأَلَّمَ طَوَالَ حَيَاتِي مِنْ تِلْكَ الْجَرِيْمَةِ
فِي نَفْسِي ، شَرِيطَةً أَنْ لَا أَجْزِ زَوْجَتِي وَأَوْلَادِي مَعِيَ إِلَى الشَّقَاءِ • هَلْ مِنْ
الْعَدْلِ أَنْ أُجْبِرَهُمْ عَلَى مُشَارَكَتِي فِي الْعِقَابِ ؟ أَلَا تَرَى أَنَّنَا قَدْ ضَلَلْنَا طَرِيقَ
الرَّشَادِ ؟ أَيْنَ الْحَقِيقَةُ ؟ وَهَلْ هَؤُلَاءِ النَّاسُ جَمِيعًا قَادِرُونَ حَقًّا عَلَى أَنْ
يَدْرِكُوا الْحَقِيقَةَ ، وَعَلَى أَنْ يَقْدُرُوهَا وَيَحْتَرِمُوهَا كَمَا يَجِبُ أَنْ تَقْدَّرَ وَأَنْ
تَحْتَرَمَ ؟

قلت أخطب نفسي : « رباه ! انه يهتم بتقدير الناس في مثل هذه
هذه اللحظة ! » • واجتاحت نفسي عندئذ شفقة شديدة عليه حتى بدا لي
أننى مستعد لأن أشاطره مصيره لو كان ذلك يخفف عذابه • لقد انقلبت
سحتته انقلاباً رهيباً • وما كان أنسد انصمافى حين أدركت لا بعفلى فى
هذه المرة ، بل بروحى وقلبى ، مدى ما يكلفه مثل هذا القرار من لمن
باهظ !

هتف يقول :

— قرّرْ مصيرى •

فأجبت هامساً :

— سلّم نفسك للقضاء !

كان صوتى واهناً ضعيفاً ، غير أن فيه حرماً وصلابة • ثم تناولت
الكتاب المقدس من على المائدة — فى ترجمته الروسية — ودلته على هذه
الفقرة من انجيل يوحنا ، الاصحاح ١٢ ، الآية ٢٤ : « الحقّ الحقّ
أقول لكم : ان لم تقع حبة القمح فى الأرض وتمت فهى تبقى وحدها •
ولكن ان ماتت فهى تأتى بثمر كثير » • وكنت قد وقعت على هذه الآية
قبل زيارته بلحظات • قرأ الآية وقال :

— هذه هى الحقيقة •

ولكنه ابتسم بعد ذلك بمرارة ، وصمت لحظة ثم قال :

— ما أكثر ما يجد المرء فى هذه الكتب ! ما أسهل ما يوضع تحت
أنفك كلام كهذا الكلام ! فمن ذا الذى كتب هذا كله ؟ هل يمكن أن
يكون الذين كتبوه بشراً ؟

قلت :

- نعم • ولكنهم كتبوه بوحى من الروح القدس •
عاد يقول مبتسما مرةً أخرى ، ولكن ابتسامته فى هذه المرة يكاد
يكون فيها كره :

- مهما تتكلم !

فتحت الانجيل على موضع آخر ، وأريته الآية ٣١ من الاصحاح
١٠ ، « الرسالة الى العبرانيين » • فقرأ : « مخيف هو الوقوع فى يدي
الله الحى » •

فرمى الكتاب وأخذ جسمه كله يرتعد • قال :
- هذه آية رهيبة • يجب أن أعترف لك بأنك أحسنت اختيارها
للمناسبة •

ونهض قائلا :

- الوداع • أغلب الظن أننى لن أجدك بعد اليوم • سنلتقى
فى الجنة • لقد « وفعت اذن فى يدي الرب الحى » مدة أربعة عشر عاما •
يظهر أن علىَّ أن أسمى هذه الفترة من حياتى هكذا • غدا سأصرع الى
تينك اليمين أن تتركانى •••

وددت لو أقبله ، ولكننى لم أجرو • كانت قسماات وجهه متقبضة
وكانت نظراته ثقيلة • خرج • تساءلت : « الى أين يمضى هذا الانسان
الآن يا رب ! » ، وارتيمت جاثيا على ركبتى أمام أيقونة العذراء • صليت
باكيا لأم الرب التى تخفف الى الشفاعة والحماية • انقضى نصف ساعة دون
أن أكف عن الدعاء والبكاء • أوشت الليل أن ينتصف • هذا باب الغرفة
يُفتح فجأة ، وهذا صاحبى يظهر من جديد • أذهلتنى رؤيته •
سالته :

— من أين جئت ؟

— نسيت ... أظن أنني نسيت عندك شيئاً ... هو منديل فى
أغلب الظن • وهبنى لم أنس شيئاً ، فان هذا لا يمنعنا من أن نتحدث ...
جلس • بقيت واقفاً أمامه • قال لى :
— اجلس أنت أيضاً •

أطعته • لبنا على هذه الحال بضع دقائق لا نتكلم • كان يحدثنى
الى • وفجأة ، ضحك ضحكة صغيرة ... أتذكر ذلك ... ثم نهض ،
واقرب منى ، وعانقنى بحرارة ... وقال يخاطبني فى هذه المرة بصيغة
المفرد :

— تذكر أنني جئت اليك هذه الليلة • لا تنس ذلك • فهمت ؟
تلك أول مرة يخاطبني فيها بصيغة المفرد • ثم خرج • قلت لنفسى :
« انه فاعل غدا » •

لم يخطئ ظنى • كنت أجهل فى ذلك المساء أنه يحتفل غداً بعيد
ميلاده • اننى لا أخرج منذ حينٍ الا لماماً ، فلم يذكر لى أحد ذلك •
كان يقيم فى كل سنة حفلة كبيرة فى منزله يدعو اليها كل أبناء المجتمع
الراقى من أهل المدينة • وكذلك فعل فى هذه السنة • حتى اذا انتهى
العشاء تقدم الى وسط الصالة ، ممسكاً بيده ورقة كتب عليها اعترافاته
موجهة الى رؤسائه • كان رؤساؤه حاضرين الحفلة • قرأ تصريحه
بصوت عالٍ ، ذاكرًا جميع تفاصيل الجريمة التى ارتكبها منذ أربعة عشر
عاماً • وختم قراءته قائلاً :

— أنا شيطان رجيح • وقد قررت أن أبعد نفسى عن المجتمع • لقد
مستنى النعمة الالهية • أريد أن أتألم •

ثم وضع على المنضدة جميع الأدلة التي احتفظ بها خلال تلك
السنين ، والتي يأمل أن يبرهن بها الآن على قيامه بجريمته : حلى المرأة
القتيل ، التي سرقها تمويهاً ودفعاً للشبهات ، والصليب والنيشان (الذي
يضم صورة خطيب المرأة القتل) ودفترتا ورسالتين ؛ فأما الرسالة الأولى
فهى من الخطيب يبلغ فيها خطيئته أنه آت قريباً ، وأما الثانية فهى جواب
لم تتم كتابته وقد تركته على منضدتها لترسله الى خطيبها فى الغد . ماذا
كان هدفه من أخذ هاتين الرسالتين ؟ وماذا كان الدافع الذى دفعه بعد
ذلك الى أن يحتفظ خلال تلك السنين كلها بهذه الأدلة التى تتهمه
وتمرّضه للخطر بدلا من أن يتلفها ؟ مهما يكن من أمر ، فاليكم ماحدث :
ذُهل الحضور من اعترافاته ، واتابهم جزع ، ولكنهم رفضوا أن يصدقوا
هذه الاعترافات . صحيح انهم أصغوا اليه بكثير من الانتباه والاستطلاع ،
ولكنهم انما أصغوا اليه اصغاءهم الى انسان مريض . وبعد بضعة أيام
كانت المدينة كلها مجمعة على أن المسكين قد فقد عقله . ولئن لم يكن
فى وسع رؤسائه ورجال السلطة أن لا يتابعوا الأمر ، فقد أرتأوا أخيراً
أنه لا مجال لتحريك القضاء . ذلك أن الرسالتين والأشياء التى قدمها ان
كانت تبث على التفكير ، فلا يمكن أن يُبنى عليها وحدها اتهام ، حتى
ولو ثبت أنها للقتيل ، فمن الممكن أن تكون القتل قد عهدت اليه بها
كصديق . وقد علمت فيما بعد أن أصدقاء الضحية وأقرباءها قد تعرفوا
هذه الأشياء ، فلم يبق حول ذلك شك . ولكن القضية لم تُحرّك رغم
هذا ، فقد عُلِم بعد خمسة أيام أن المسكين قد مرض وأن حياته فى
خطر . لا أستطيع أن أقول ماذا كان مرضه . وقد تحدث الناس عن
اضطرابات قلبية . ومهما يكن من أمر ، فان الأطباء قد فحصوا حالته
العقلية أيضاً ، وذلك بالحاح من امرأته ، فانتبهوا الى أنه مصاب ببداية
جنون . ولم أكتشف عن اعترافاته لى طبعاً ، رغم أن جميع الناس قد

حاصرونى بالأسئلة • وحين أردت أن أزوره مع ذلك أغلق دونى بابى ، وكانت امرانه خاصة " هى التى حالت بينى وبينه • قالت لى : « أنت الذى أدخلت الاضطراب والاختلال الى عقله ! لقد كان دائماً قائم المزاج ؛ وأصبح اضطرابه النفسى وسلوكه الغريب يقلقاننا منذ عام ، فبعثت أنت فأجهزت على عقله ! أنت الذى حشوت رأسه بهذه الأفكار ! انه منذ شهر لا يكاد يخرج من عندك !

ولم يكن هذا شأن امرأته وحدها ••• هل تصدقون هذا ؟ لقد هاجمتنى المدينة كلها عندئذ وأغرقتنى لوماً وتقريباً •

- هذه خطيبتك !

هذا ما كان يقوله لى الناس فى كل مكان •

وكنْتُ أصمت فلا أجيب ، وكنْتُ فى قرارة نفسى سعيداً • ذلك أننى أدركت أن الرب قد أشفق على الرجل الذى أدان نفسه وأراد أن يلقي جزاءه • أما جنونه المزعوم ، فما كان لى أن أصدقه • وسُمح لى أخيراً بأن أراه ، لأنه أعرب هو نفسه عن هذه الرغبة ملحاً من أجل أن يودعنى • فحين دخلت عليه أدركت منذ اللحظة الأولى أن ساعاته لا أيامه وحدها ، معدودات • كان واهناً ضعيفاً أصفر الوجه مرتعش اليدين يتنفس بكثير من العناء • ولكن نظرتة تعبّر عن الفرح والهدوء وثبات الجنان • قال لى :

- انتصرت الحقيقة ! اننى انتظرك منذ مدة طويلة ، لماذا تأخرت

فى المجيء ؟

أخفيت عنه أننى مُنعت من مقاربتة •

- لقد أشفق علىَّ الرب فنادانى اليه • أنا أعلم أننى ساموت ،

ولكن روحى قد عرفت السعادة والسلام والطمأنينة أخيراً ، لأول مرة

بعد تلك السنين الطويلة كلها • لقد وجدت الجنة في نفسي منذ تكلمت
مستوحياً ضميري • أصبحت لا أخشى أن أحب أولادى وأن الأطفهم
والأعهم • ان الناس ترفض أن تصدقنى ؛ ما من احد يريد أن يسلم
بأنى قاتل ، لا زوجتى ولا قضاتى • وأولادى لن يصدقوا هذا ، هم
أيضا • سوف أموت ، ولكن اسمى سيظل فى نظرهم طاهرا لم يندس
ولم يُلطَّخ • أوه ؟ اننى أشعر بالله الآن ، وان قلبى لمبتهج كأنى فى
الجنة ••• لقد قمت بواجبى •••

لم يستطع أن يكمل كلامه ، فقد انتابه اختناق ، غير أنه شدَّ على
يدى بحررة ، ونظر الى صامتا ، وقد سطعت عيناه بلبهيب • لم تتمكن
من اطالة حديثنا ، لأن امرأته قد نفذ صبرها ، فهى تشق الباب بغير
انقطاع • واتسع وقته مع ذلك لأن يدمدم قائلا :

— هل تتذكر أنى جئت اليك فى ذلك المساء ، عند منتصف الليل؟
لقد أوصيتك عندئذ بأن لا تنسى ذلك ••• فهل تعلم ماذا كان هدفى
حين جئت اليك فى تلك الساعة ؟ كان هدفى أن أقتلك !
ارتعشت •

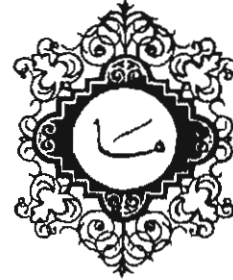
— فبعد أن تركتك ، لبث أطوف فى الشوارع على غير هدى زمناً
طويلاً أصارع نفسى ، فاذا أنا أشعر فجأة بكره لك ببلغ من القوة أننى
أحسست أن قلبى يوشك أن ينفجر • قلت لنفسى : « بسببه وحده انما
أنا مضطر الى الاعتراف الآن • لقد أصبح قاضى » ، ولن أستطيع أن
أفلت من العقاب غدا لأنه يعلم كل شئ • • ليس معنى هذا أننى كنت
أخشى أن تشي بى (ان هذه الفكرة لم تخطر ببالى فى لحظة من اللحظات)
ولكننى كنت أقول لنفسى اننى لن أستطيع أن أنظر اليك بعد ذلك اذا
أنا لم أسلم نفسى للسلطات • وسيان أن تكون فى هذه المدينة وأن تكون
فى أقصى الأرض • أصبحت لا أطيق أن أتصور أنك تعيش فى مكان ما

عالمًا بأمرى حاكمًا على مدينا اياى . فأخذت أكرهك ، كما لو كنت علة شقائى ، كما لو كنت مسئولاً عما أنا فيه . ورجعت اليك متذكراً أن عندك على المائدة خنجرا . وجلست ، ودعوتك أن تجلس أنت أيضا ، ولبت دقيقة طويلة أفكر وأنا أحدق اليك . بديهي أن حياتى كانت ستحطم على أى حال لو قتلتك ، وأننى كنت سأنتهى نهاية شقية ، سواء اعترفت بالجريمة الأخرى أم لم أعترف . ولكن ذلك لم يخطر ببالى فى تلك اللحظة ، لأننى لم أكن أهتم بالعواقب . كنت أكرهك ، وكانت تحرقنى رغبة قوية فى أن أثار منك لكل ما كنت قد قاسيته من عذاب . أما ما عدا ذلك فكان لا يعنينى . ثم انتصر الرب فى تلك الدقيقة على الشيطان فى قلبى . ولكن اعلم أن الموت لم يقترب منك فى يوم من الأيام كما اقترب منك فى تلك الليلة .

مات الرجل بعد أسبوع . وشيعت المدينة كلها جثمانه الى المقبرة . وألقى الكاهن كلمات مؤثرة . وانتحب المنتحبون حزناً عليه ، واشتكوا مرّة الشكوى من المرض الذى أماته . وبعد الجنازة قاموا على . وأصبحوا منذ ذلك الحين لا يدعوننى الى منازلهم . غير أن عددا من الأشخاص ، كانوا قلة فى أول الأمر ثم تكاثروا بسرعة بعد ذلك ، قد انتهوا الى الاقتناع بصدق اعترافاته ، فكانوا يجيئون الىّ فى كثير من الأحيان يزعموننى بأسئلتهم عنه ، وقد امتلأت نفوسهم فضولا شديدا وخشياً خفياً . ان الانسان يحلو له يرى رجلاً صالحاً يسقط ويتلطمح شرفه . أبيت أن أتكلم مع ذلك ، ثم لم ألبث أن بارحت تلك المدينة مبارحة تامة . وبعد خمسة أشهر من علىّ الرب فوجهنى فى طريق اليقين والنور ؛ بوركت اليد الخفية التى قادت خطاى نحو الهدف . أما صاحبى ذاك ميشيل ، خادم الرب ، الذى كان عاثر الحظ ، فقد ذكرته فى صلواتى كل يوم منذ ذلك الحين ، وما زلت أذكره فيها حتى هذه الساعة .

بعض التعاليم التي عبر عنها الراهب زوسما في الأحاديث

هـ - حديث عن الراهب الروسي
والدور الذي يمكن أن يقوم به •



الراهب يا اخوتي ومعلمي ؟ ان بعض الناس
في الأوساط المثقفة ينطلقون بهذه الكلمة في
أيماننا هذه ساخرين ، وان بعضهم لآخر يعدها
مسبة وإهانة • وسوء الفهم هذا ما ينفك يتفاقم
بمرور الزمن • صحيح أن بين الرهبان - يجب على أن أعترف بهذه
الحقيقة وأأسفاه ! - كسالى وفجرة وفاسقين • فأولئك أناس أفاقون
أشقياء ارتموا في الأديرة • والمتنورون من أبناء المجتمع يدلّون علينا
بهذا ليعدونا رجالاً واثقين ، لا خير فيهم ولا نفع منهم ، وليعاملونا كما
يعامل طفيليون ومتسولون لا شرف لهم • ولكن ما أكثر المتواضعين
الوادعين بيننا مع ذلك ! ما أكثر الذين لا يطمحون الا الى أن يصلوا للرب
صلاة حارة في عزلتهم الهادئة ! ان الناس لا يلقون بالاً الى هؤلاء كما يلقون
بالاً الى أولئك ، حتى أنهم لا يأتون على ذكرهم ولا يتكلمون عنهم البتة •
ألا ما أشد الدهشة التي سيشعر بها أولئك التالسون المشتغون اذا هم

علموا أن روسيا المقدسة انما سينقذها مرةً أخرى فى يوم من الأيام هؤلاء الرهبان المتواضعون الظالمون الى العزلة والصلاة! ان هؤلاء الرهبان يستعدون صامتين « ليوم والساعة » للشهر والسنة « التى سيحين حينها . هم الآن يسهرون على صورة المسيح ، محاولين بكثر من التقى والخشوع فى حياتهم المغمورة ، أن يحافظوا على ما لهذه الصورة من سناء ونقاء ، فهم يعيشون فى الحقيقة الالهية وفقاً لتعاليم آباء الكنيسة والرسل والشهداء . حتى اذا دقت الساعة ذكروا البشر برسالتهم الى الانسانية المترنحة . ان هناك فكرة عظيمة هى قاعدة حياتهم . انها النجمة التى ستطلع يوما من المشرق .

ذلكم هو رأى فى الرهبان . أأكون على ضلال ، أأكون حكيم قائما على عجب وغرور ؟ انظروا الى العلمانيين ، هؤلاء الذين يعيشون فى المجتمع ويعبدون أنفسهم أعلى من رجال الدين : ألم يندسوا نفوسهم ويخونوا الحقيقة الالهية ، هم الذين خلقوا على صورة الرب ؟ انهم يملكون العلم ، ولكن العلم لا يعرف الا ما تدركه الحواس . أما الكون الروحي ، أما العنصر الأسمى فى الطبيعة الانسانية ، فقد رفضوه وبنوه ، واطرحوه وأدانوه ، شاعرين بنوع من فرح الانتصار ، بل وبنوع من الكره والبغض . ان العالم يعتز بالحرية ، ولا سيما فى أيامنا هذه ، ولكن ما الذى تؤدى اليه هذه الحرية ، وما الذى نراه يتأكد باسمها ؟ عبودية النفوس والانتحار الأخلاقي ... يقول الناس : « ان لك حاجات ، فليك أن تسعى الى ارضائها ، لأن حقوقك لا تقل عن حقوق الأغنياء والكبار . لا تخش رغباتك ، بل أكثر عددها . » . تلكم هى عقيدة هذه الأيام . هكذا يتصور الناس الحرية فى هذا العصر . فما الذى يؤدى اليه هذا الحق المزعوم فى اكناف المرء رغباته ؟ انه يؤدى لدى الأغنياء الى العزلة والموت النفسى ، ويؤدى لدى الفقراء الى الحسد

والقتل • ذلك أن الناس قد أعطوا حقوقاً ، ولكنهم لم يُعلّموا بعد وسائل تحقيق الغلبة لها ووسائل ارضاء حاجاتهم • يزعم بعضهم أن التطور الطبيعي يقود الانسانية نحو مزيد من الاتحاد ، فإزالة المسافات بالمكتشفات الحديثة ، وانتشار الفكر في الهواء ينميان الاحساس بالأخوة والتضامن • واحسرتاه ! لا تدعوا لهذه الأوهام أن تخدعكم ! ما من وفاق يمكن أن يقوم على أسس من هذا النوع • اننا اذا تصورنا الحرية على أنها قدرة الفرد على اكثار حاجاته وارضائها بسرعة ، كنا نشوّه طبيعة الانسان ، ونثير فيه حاجات باطلة لا سبيل الى تحقيقها ، ونخلق له عادات حمقاء وأحلاماً مجنونة • ان الناس لا يعيشون اليوم الا في الحسد اشباعاً لشهواتهم أو ارضاء لغرورهم • ان اقامة الحفلات ، والخروج في النزهات ، والتمتع بالمآدب ، واقتناء العربات الفاخرة ، والظهور بالمظاهر الخلافة وامتلاك الخدم الأتقان ، ان ذلك كله يبدو لأبناء المجتمع ضرورة لا غنى لهم عنها ، وحاجة لا يبالون في سبيلها أن يضعحوا بحياتهم وشرفهم ، وأن يتخلوا عن حب الانسان أخاه الانسان ، حتى ليؤثرون أن ينتحروا على أن يتنازلوا عنها • وهذا يصدق أيضاً على من لا يملكون ثراءً طائلاً • أما الفقراء فانهم يخنقون بالسكر ، الى حين ، ما يشعرون به من حسد ، وما يدركونه من استحالة ارضاء رغباتهم • ولكن سيأتي يومٌ يسكرون فيه بدمٍ لا بخمر • فالى هذا انما يُدفعون • انى لألقى عليكم هذا السؤال : هل هؤلاء الرجال أحرار ؟ لقد عرفت في الماضي مثقفاً كان « يناضل في سبيل فكرة » • وقد أُسرَ الى هذا الرجل في ذات يوم أنه حين حُرِم من التدخين في السجن بلغ ألمه من هذا الحرمان أنه أوشك أن يخون « فكرته » في سبيل التدخين • وكان يزعم أنه يريد أن « يناضل في سبيل الانسانية » • هل تصدق أن رجلاً كهذا الرجل يمكن أن يمضي بعيداً في بذل الجهد ؟ انه عاجز الا عن اندفاعات

مؤقتة وعمل مباشر ، أما الثبات والاستمرار فلا طاقة له بهما • فهل غريب بعد هذا أن البشر لم يجدوا الحرية بل العبودية ، وأنهم بدلاً من أن يخدموا الانسانية وأن يوحدوها قد سقطوا الى « العزلة » ، كما قال لى فى شبابى زائرى العجيب ومعلمى ذاك ؟ لهذا ترى العالم الآن بسبيل أن يفقد اليوم حس الاخلاص للانسانية ، حس الوحدة الانسانية والأخوة الانسانية ، ويبلغ من ذلك أن هذه الأنواق الكبرى أصبحت لا تثير الا ابتسامات هى ابتسامات من أصبح لا يؤمن بالأوهام • • • وأننى للانسان فعلاً أن يتحرر من عاداته المكتسبة ، وماذا يمكن أن يصير اليه الانسان الذى استعبدته حاجاته ، اذا كنا قد علمناه أن يرضى الشهوات الكثيرة التى يخلقها هو نفسه ؟ ان انساناً هذا شأنه انما يعيش فى عزلة روحية • وهل تعنيه الجماعة فى هذه الحالة ؟ ذلك ما وصل اليه البشر : جمعوا ثروات فوق ثروات ، أما الفرح فقد تناقص فى قلوبهم •

ولا كذلك الطريق التى يسير فيها الراهب • كيرا ما يستخر الناس من الطاعة والصيام والصلاة ، مع أن الطاعة والصيام والصلاة هى فى الواقع السبيل الوحيدة الى بلوغ الحرية الحقيقية : اننى حين أضحي بحاجاتى الزائدة ، وحين أسبطر بالطاعة على ارادتى المزهوة الأنانية ، انما أرتفع بعون الله الى الحرية الروحية التى تهب لى الفرح النفسى • أيتهما أكرر تأهباً المنضال فى سبيل فكرة عظيمة ، ألتنى الذى يعيش فى عزلة الروحية أم الراهب الذى تحرر من استبداد العادات والحاجات المادية ؟ ان بعض الناس يأخذون على الرهبان أنهم معتكفون ، فهم يقولون لهم : « لقد اعزاتم العالم لتضموا سلامتكم وراء جدران دير ، ونسيتم تضامنكم مع البشر اخوتكم ، ونسيتم واجب خدمة الانسانية » • لسوف نرى من الذى سبخدم قضية الأخوة الانسانية خيراً من غيره • ألا انهم هم الذين يعيشون فى العزلة ، لا نحن ، ولكنهم لا يدركون ذلك • ومن

بيننا انما خرج ، منذ أقدم العصور ، أولئك الرجال الذين ناضلوا في
سبيل سعادة الشعب . فلماذا لا يكون الامر على هذا النحو اليوم ؟ لسوف
يرى هؤلاء الرهبان المتواضعون الذين يلتزمون قواعد الصيام والصمت ،
لسوف يرون في يوم من الايام يهبون للقيام بعظام الأعمال . ان الشعب
هو الذى سينقذ روسيا ، وان الرهبان الروس قد ظلوا متحدين بشعبنا
اتحادا قويا في جميع الأزمان . اذا كان الشعب في العزلة فنحن في
العزلة أيضا . ان ابن الشعب يؤمن بما نؤمن به نحن . أما مثقفونا
الملحدون ، فانهم لن يصلوا الى شئ في روسيا ، ولو صدقت قلوبهم
وكانوا ينعمون بذكاء عبرى . تذكروا هذا : ان الشعب سيقوم أخيرا
على الملحدين وسيغلبهم . سوف تسترد روسيا العظيمة وحدتها الروحية
في الأرثوذكسية . اسهروا على الشعب ، وصونوا طهارة روحه . ربوه
في صمت . تلکم هي رسالتنا أيها الرهبان ، لأن هذا الشعب يحمل في
نفسه الله .

و - حديث عن السادة والخدم

هل يمكن أن يصبحوا اخوة في الروح ؟

انه لصحيح ، واأسفاه ، أن الشعب يعيش في الخطيئة هو أيضا .
ان عوامل الانحلال والتفسيخ تتابع عملها ، وان الشر ينتشر ساعة بعد
ساعة ، لأن عدواء تأتي من الطبقات العليا ، فاذا بالصغار والفقراء يقعون
في العزلة هم أيضا . اتنا نرى ظهور المحتكرين والمستغلين . والتجار
يزدادون ظلماً الى مظاهر المجد . انهم يريدون أن يُعدّوا مثقفين ، مع
أنهم لا يملكون أية ثقافة في الواقع . وهم يحسبون أنهم يصلون الى
ذلك باظهار احتقارهم للعادات القديمة ، ويبلغون في هذا حد الشعور
بالخجل والعار من ايمان آبائهم . انهم يختلفون الى مجتمع الأمراء ،

مع أنهم ليسوا الا فلاحين متدهورين . ان الادمان على الخمر يهلك روح شعبنا الذى لا يستطيع التحرر منه . ما أسد فسوة حياة المرأة وحتى حياة الاطفال فى الاسر الفقيرة ! ان الاسراف فى شرب الخمرة هو سبب ذلك . لقد رأيت أطفالا يعملون فى المصانع وهم لما يكادوا يبلغون العاشرة من أعمارهم : انهم ضعاف هزيلون مقوّسوا الظهر قد فسدت أخلاقهم منذ الآن . القاعات الخائفة الموبوءة هواؤها ، ضجة الآلات ، العمل الذى لا تتخلله راحة كافية ، الأحاديث البذيئة التى يسمعها الطفل فى هذه البيئة ، المشروبات الكحولية ، ذلك كله لا يخلق مناخا صالحا لنفس الطفل . ان الأطفال فى حاجة الى الشمس ، والألعاب ، والقذوة الحسنة ، وحدث أدنى من العاطفة والحنان ! يجب أن تنتهى هذه الحالة أيها الرهبان ، وأن يتخلص الاطفال من العذاب ! امضوا الى الناس وعظوهم حتى تزول هذه الشرور بأقصى سرعة . ولكن الله سينقذ روسيا رغم كل شيء . ذلك أن ابن الشعب ان تدهور وأصبح لا يشعر بالقدرة على العدول عن هذه الخطايا الرهيبة ، فانه يعلم على الأقل أن سوء سلوكه هذا لا يرضى الرب ، وأنه يخطئ اذ ينقاد للشر . ان شعبنا لم يفقد ايمانه بالخير . انه مؤمن بالله ، وهو يبكى ندماً على خطاياهم بدموع صادقة . وليس هذا حال أبناء المجتمع الراقى واأسفاه ! فهؤلاء يدعون اقامة العدالة بمعونة عقلهم وحده ، مستلهمين تعاليم العلم مستغنيين عن المسيح بعد اليوم . حتى لقد نادوا منذ الآن بأنه لا خطيئة ، بأنه لا جريمة . ولا شك أنهم من وجهة نظرهم على حق : فاذا لم يكن هنالك اله ، لم يكن هنالك خطيئة ! فى أوروبا ثور الشعوب على الأغنياء وتريد أن تقاثلهم بالقوة ؛ وقادتها تقودها فى كل مكان الى اراقة الدماء قائلة لها ان غضبها حق وعدل . ألا ان « الغضب ملعون لأنه قاس » . ان روسيا سيخلصها الرب ، كما سبق أن خلّصها الرب مرارا فى

الماضى • وسيأتى الخلاص من الشعب ، سيأتى الخلاص مما يملكه الشعب من روح الاذعان لمشيئه الله ، ومن ايمان بوجود الله • فى ابائى ومعلمى ، صونوا ايمان شعبنا ، لان ما ابشركم به الآن ليس حلاً من الاحلام • لطالما سدهت اثناء حياتى كلها مما يتمتع به شعبنا الروسى العظيم من كرامة صادقة ونبل كبير • لقد رأيت هذا بنفسى ، وكنت شاهداً عليه ، وفى وسعى أن أؤكد لكم ، رغم الخطايا الكثيرة والمبائس الشديدة التى يعيش فيها • ان الفقراء والصغار لم يصبحوا عبيداً فى بلادنا ، بعد فرنين من الرق ، بل حافظوا على مسلك الحرية ، دون أية غطرسة مع ذلك ؛ ولم تعصف بنفوسهم روح الحسد والانتقام • لسان حالهم يقول : « أنت غنى ، وأنت فى مرتبة عالية ، وأنت ذكى ، وأنت صاحب موهبة • اننى أعلم ذلك ، وأسأل الله أن يحميك ! اننى أحترمك ، ولكننى لا أنسى أننى أنا أيضاً انسان • وإذا احترمتك دون أن أحسدك ، فأننى أؤكد أمامك كرامتى الانسانية » • لئن كانوا لا يقولون هذا الكلام صراحة (لأنهم لا يحسنون التعبير عما بأنفسهم) ، فان هذا الموقف النفسى يتجلى فى سلوكهم • رأيت ذلك ، وكنت شاهداً عليه • صدقونى اذا قلت لكم : ان الروس تزخر نفوسهم بالحقيقة النبيلة على قدر ما يكونون فقراء صغاراً • ذلك أن الذين اغتسوا منهم قد أصبحوا محتكرين ومستغلين وفسدت أخلاق أكثرهم منذ الآن ، وهذا أمر نُسأل عنه نحن انفسنا بعض الشيء بسبب اهمالنا وضعف نشاطنا وهمتنا • ولكن الرب سينقذ ذويه ، لأن روسيا عظيمة باذعانها لمشيئه الله • اننى أحلم بمستقبلنا ، فيبدو لى أحياناً أننى أراه : سيأتى يوم يشعر فيه أفسد أغنيائنا أخيراً بالخجل والعار من ثرواته أمام الفقير ؛ وسيبرهن الفقير يومذاك ، بعد أن يرى ندم الغنى ومذلتة ، على حسن الفهم هو أيضاً ، فيترك له خياراته فرحاً ، مستجيباً بالحلب للثوبة النبيلة يتوبها ذاك الذى

أنعم عليه القدر • صدقوني أن هذا ما سيكون ، لأن هذا هو ما يقودنا
اليه التطور • لن يكون هناك مساواة الا فى الشعور بكرامة الانسان
الروحية ، وهذه حقيقة غير مفهومة الا فى بلادنا • لسوف تسود الأخوة
متى أصبح البشر اخوة بالقلب ، وبدون هذه الأخوة لا يمكن أن يكون
هناك قسمة عادلة • ألا فلنحتفظ فى أنفسنا بصورة المسيح ، حتى تشرق
على العالم فى يوم من الأيام درةً تشع ضياء • آمين ، آمين !

يا آبائى ومعلمى ، لقد اتفق لى فى الماضى أن عانيت تجربةً تهز
النفس هزاً قوياً • حينما كنت أجوب روسيا ، التقيت فى مدينة ك ،
وهى مركز مقاطعة ، بخادمى الجندى آتاناوى الذى لم أكن قد رأيته
منذ ثمانى سنين ، أى منذ اليوم الذى صرفته فيه الى الثكنة • لقد لمحنى
مصادفةً فى السوق فعرفنى فهرع الىّ وقد استخفه الفرح :

— أهذا أنت يا مولاي ، أنت ، أنت ؟ هل يمكن حقاً أن تكون
أنت ؟

وقادنى الى منزله • كان قد تحرر من الجندية وتزوج وأنجب
طفلين ، وهو يعيش مع أسرته من تجارة صغيرة على بسطة • ان مسكنه
ضيق ولكنه نظيف مضاء • فلما أجلسنى ، سخن السماور واستدعى
امراته ، كأن زيارتى عيد له • وقدم الىّ ولديه قائلاً :

— باركهما يا أبانا •

فأجبته :

— أأنا من يباركهما ؟ ما أنا الا راهب متواضع • سادعو الله لهما •
أما أنت يا آتاناوى بافلوفتش ، فانى ما كفت عن الدعاء لك كل يوم ،
منذ ذلك الحادث الذى وقع بيننا ، لأن كل شئ قد بدأ يومذاك •
شرحت له ما وسعنى أن أشرح • فكان ينظر الىّ مدهوشاً ،

لا يستطيع أن يفهم أن مولاه القديم ، الضابط ، موجود الآن أمامه
بمسوح راهب بسيط • حتى لقد أخذ يبكي • سألته :
- لماذا تبكى يا من لم أسه قط ؟ ألا ان الأفضل أن تسر وتفرح
يا عزيزى لأن الطريق الذى اخترته لنفسى طريق جميل مضى •
كان لا يتكلم وانما هو يتنهد تنهداً ويهز رأسه بعطف قوى وتأثر
شديد • وسألنى :

- ماذا صنعت بشروتك ؟

فأجبته :

- وهبتها للدير الذى نعيش فيه حياة مشتركة •
وودعتهم بعد أن شربنا الشاي ، فاذا هو يعطينى خمسين كوبكا
للدير ؛ واذا هو يدسُ فى يدى خمسين كوبكا أخرى ، خلصةً ، وهو
يقول :

- هذه لك أنت • فما دمت راهبا تضرب فى الأرض فقد تنفعل
فى الطريق •

قبلت صدقته ، وحييته وحييت امرأته ، وانصرفت مبتهج القلب ،
أحدث نفسى قائلاً : « لا شك أنه مثلى فى هذه اللحظة ، يتنهد تارة
ويبتسم تارة أخرى ، هازأً رأسه متسائلاً كيف جمع الرب بيننا من
جديد » • ولم أره منذ ذلك الحين • لقد كنت سيده وكان خادمى ،
ولكننا حين تعانقنا أثناء لقائنا بمحبة وحنان قد أعدنا اقامة الاخوة الانسانية
الكبرى بيننا • لظالما فكرت فى هذا الأمر بعد ذلك ، وائى لأساءل
اليوم : « لماذا لا يكون من الممكن أن يتحقق الاتحاد بين الروس على
هذه الطريقة البسيطة الصادقة نفسها فى يوم من الايام متى آن الأوان؟ » •
اننى أعتقد بأن هذا الاتحاد العظيم سيتم وأن ساعته اقتربت •
وائى لأضيف ما يلى فى موضوع الخدم : كان يتفق لى فى السنين

الأولى من شبابى أن أغضب على الخدم : « سكبت الطباخة الحساء ساحتاً مفرطاً فى السخونة ؛ الخادم لم ينطف يابى بالفرساة » . ولكن ذكرى أخى العزيز قد بعث فى نفسى نورا ، لان احواله كانت تعاودنى دائما : « أنا جدير بأن يخدمنى الانسان ؟ هل يحق لى أن أعده أدنى منى لانه فقير جاهل ؟ » . وقد أدهشنى بعد ذلك أن معانى بسيطة هذه البساطة واضحة هذا الوضوح لا تعرض لعقولنا الا متاخرة . ان الحياة تصبح اليوم مستحيلة ما لم يكن هناك سادة وخدم . فلا أقلّ من أن نجعل سلوكنا يشعر خدمنا بأن خدمتهم ايانا لا تُنفص حريتهم . لماذا لا نصبح خدماً لخدمنا ؟ انهم اذا لاحظوا أننا لا نتكبر عليهم أى تكبر ، سيتحررون من الشك فينا ومن محاذرتنا . لماذا لا نعدهم أقرباء ولا نستقبلهم فى أسرنا متبهجين بوجودهم بيننا ؟ ان هذا الموقف يمكن اتخاذه منذ الآن ، ويمكن أن يكون قاعدةً للاتحاد العظيم الذى سيتحقق للانسانية فى المستقبل ، يومَ يشعر الانسان أنه ليس فى حاجة الى أن يكون له خدم ، ويوم يحاول أن لا يرد أقرانه البشر الى العبودية كما يفعل الآن ، وانما يتطلع بكل نفسه الى أن يصبح خادماً لجميع الناس عملاً بروح الانجيل . أتظنون أنه حلم باطل أن يراودنا الأمل فى أن نرى البشر أخيراً يشدون السعادة فى السمو النفسى وممارسة المحبة ، بدلا من السعى الى الملذات المتوحشة فى النهم والفجور وحب الظهور وفى ذلك الظمأ الحاسد الى الارتفاع فوق الآخرين ؟ أما أنا فأتى أو من ايماننا راسخا بأن هذا ليس أملاً باطلاً ، وأن الزمان الذى سيتحقق فيه هذا الأمل قد اقترب . ان الناس يرفعون أكتافهم ويسألونكم ساخرين : « متى يأتى هذا الزمان ، وهل ما نراه الآن فى العالم يسمح بمثل هذه التنبؤات ؟ » . اننى أعتقد بأننا سنحقق هذا العمل العظيم بمعمونة المسيح . ما أكثر الأفكار التى بدت فى الماضى مستحيلة التحقيق ، والى عدت قبل عشر سنين أفكارا

حمقاء طائشة ، ثم اذا هي تنتصر فجأة على الارض وتنتشر في كل مكان ، لأن ساعة تحققها قد دقت وكانت خافية مستسرة ! ذلكم ما سيكون في بلادنا ، وسيشرق نور شعبنا على الانسانية ، وسيهتف جميع البشر عندئذ قائلين : « ان الحجر الذي رماه البناءون ورفضوه قد أصبح حجر الزاوية في البناء » . أما الساحرون المستهزون فاننا نستطيع أن نلقى عليهم بدورنا هذا السؤال : « اذا كانت جميع أشواقنا أضغاث أحلام ، فهلاً قلم لنا متى تقدرون أن تشيدوا بناءكم وأن تنظموا أنفسكم على العدل بمعونة العقل وحده مع رفض المسيح ؟ » . قد يجيبون بأنهم هم الذين سيقمون الوحدة الانسانية ، ولكن السذج منهم هم الذين يؤمنون بهذا الكلام ، حتى يمكن أن يدهش المرء من بساطة هؤلاء . الحق أن في أفكارهم من الخيال الباطل ما ليس في أفكارنا نحن . انهم يأملون أن يقيموا العدل في هذا العالم ، لكنهم وقد رفضوا المسيح سوف ينتهي بهم الأمر الى اشعال الحريق وسفك الدم في كل مكان ، لأن العنف يستدعي العنف ؛ ومن يشهر السيف يهلك بالسيف . ما لم نؤمن بوعد المسيح ، فان البشر سيبيد بعضهم بعضاً ، الى أن لا يبقى منهم على قيد الحياة الا اثنان وهذان الاثنان سيكونان عاجزين من غطرستهما عن التفاهم ، فاذا بأحدهم يقتل الثاني آخر الأمر ثم يقتل نفسه . ذلكم ما سيحدث اذا لم يتحقق وعد يسوع بوقف المذبحة حباً بالضعفاء والمسالين الوديعين . حين كنت ما أزال أرتدى البزة العسكرية بعد المباراة ، تحدثت في المجتمع كثيراً عن الخدم ، فكان السامعون يدهشون من كلامي ويسألون :

– هل علينا أن ندعوا خدمنا الى الجلوس على أريكة ، وأن نقدم اليهم الشاي .

وقد أجبت عن هذا السؤال مرة بقولي (ننى أتذكر هذا) :

– لم لا ، ولو من حين الى حين ؟

فسخر الحضور منى • الا أن سؤالهم يدل على خفه عقولهم •
ان اجابتي لم تكن واضحة جداً ••• أنا أسلم بهذا ••• ولكن يخيل
الى اليوم أن قد كان فيها شيء من حقيقة •

ز - حديث عن المحبة والصلاة ، ومعرفة الحياة الآخرة

لا تنس أن تصلى أيها الشاب • فإذا كانت صلاتك صادقة صاحبها
فى كل مرة شعور جديد ، وولّد هذا الشعور الجديد فكرةً جديدةً
كنت تجهلها الى ذلك الحين ، فكرةً ستشدّ أزرّك وتقوى عزيمةً بعد
ذلك • وستدرك عندئذ أن الصلاة تربية للنفس • تذكر أيضاً أن تُردّد
كلّ مساءً وكلما استطعت الى ذلك سبيلاً : « هب رحمتك يا رب لكل
الذين يمثلون أمامك الآن » • ذلك أن ألوفاً من البشر يبارحون الأرض
فى كل ساعة ، فى كل دقيقة ، وتمضى أرواحهم تمثل أمام الخالق •
ما أكثر الذين قضوا منهم نجيبهم فى العزلة ، بعيدين عن نظر أى صديق ،
ممثلنى القلب مرارة وحزناً ، لأن أحداً لن يأسف على رحيلهم ، حتى
أن حياتهم ستكون قد انقضت دون أن يراها أحد • لن يعلم أحد غداً
أنهم عاشوا • فإذا بصلاتك تصعد فجأة الى الرب من الطرف الأقصى من
الأرض تدعو لروح من الأرواح ، رغم أنك لم تعرف هذه الروح ، ولا
هى تعرف من أنت • لسوف تتأثر هذه الروح من ذلك تأثراً عظيماً حين
تمثل جزعةً أمام الاله العلى القدير • سوف تعلم أن أحداً يصلى لله من
أجلها هى أيضاً ، سوف تعلم أن على الأرض انساناً واحداً على الأقل
يتشفع لها ويحبها • وسينظر الرب عندئذ اليكما بمزيد من التسامح ،
لأنك قد أشفقت على ذلك الميت ، وسيكون الرب أكثر رحمةً به ، لأن

حبه أوسع من حبك ، واحسانه أعظم من احسانك • وسيعفو الله عنه
بسيبك •

يا اخوتى ، لا تحتقروا البشر لخطاياهم ، أحببهم رغم خطاياهم ،
فبذلك تعرفون المحبة العظمى التى هى على صورة محبة الرب • أحبوا
خلق الله جملةً ، وأحبوا كل ذرة من الرمل على حدة ، وكل ورقة
شجرة ، وكل شعاع ضوء ! أحبوا الحيوانات ، أحبوا النباتات ، أحبوا
كل موجود • انكم حين تحبون الخليفة تنفذون الى السر الالهى الذى
تضمه ، والمعرفة التى تحصلون عليها بهذا ستتمو بعد ذلك ، ثم ما تمك
تكبر فى كل يوم ، فاذا حبكم يعم الكون بأسره ، ويصبح شاملا • أحبوا
البهائم لأن الرب قد وهب لها بذرة فكر وأودع فى قلبها فرحاً بريئاً •
لا تعكروا هنامها ، لا تعذبوها ، لا تبتسوها ، لا تخالفوا ارادة الخالق •
أيها الانسان ، لا تحملنك كبرياؤك على التعالى على الحيوانات ، فهى بلا
خطيئة ، أما أنت فانك مع عظمتك تدنس الأرض بوجودك وتخلف أثراً
نجساً حيث تمر • ذلك شأننا جميعاً واأسفاه ! ذلك شأننا جميعاً ، بغیر
استثناء تقريباً - أحبوا الأطفال خاصة ، لأنهم بلا خطيئة ، لأنهم أشبه
بالملائكة ؛ انهم يعيشون لفرحة قلوبنا وتطهير نفوسنا ، كقدوة مضيئة الى
جانبا • ويل للذين يسيئون الى الأطفال ! لقد علمنى الأب آتيم أن
أحبهم : كان هذا الراهب المتواضع ، يشتري بالكوبكات التى توهب لنا
أثناء طوافنا ، يشتري حلوى يوزعها على الأطفال • كان لا يستطيع أن
يراهم دون أن تهتز نفسه اهتزازا عميقا • كذلك كان هذا الانسان •

ان شكاً يراودنا فى بعض الأحيان ، ولا سيما حين نرى الخطيئة
فتسامل عندئذ : « أنرد بالقوة أم بالحب المتواضع ؟ » • عليك دائماً بالرفق
واللين • فمتى اخترت الرفق واللين الى الأبد ، استطعت أن تستولى على

الأرض بأسرها • ان الحب المتواضع قوة هائلة ، أقوى من سائر القوى ،
ليس لها منيل فى العالم • راقب سلوكك فى كل ساعة وفى كل دقيقة من
اليوم ، حتى تشع الطهارة منك • قد تمر قرب طفل وقد عصف بك
الغضب ، فتفلت من لسانك كلمة سيئة : لعلك لم تلاحظ وجود الطفل ،
ولكن الطفل رآك ، والصورة النجسة الخبيثة التى تركتها له ستبقى فى
قرارة قلبه البرى • أنت لم يخطر ببالك شىء ، ولكنك قد بذرت بذور
الشر فى هذا الكائن الصغير ، ولا شك أن البذرة السيئة ستطلع يوماً
فتجلب له الشقاء • كل ذلك لأنك لم تراقب نفسك بحضور الطفل ،
ولأنك توانيت عن تعهد الحب اليقظ الفعال فى نفسك • الحب يا اخوتى
معلم كبير ، ولكن يجب أن نعرف كيف نملكه • انه لا يكتسب بسهولة ؛
وانما يحصل عليه الانسان بشمن باهظ ، بجهد متصل طويل • ذلك أن
المقصود ليس هو أن تحب مؤقتاً ومصادفةً ، بل أن تحب حباً مستمراً
مطرداً • ان أى انسان ، حتى المجرم ، يمكن أن يشعر بحب طارىء ،
عابر • لقد كان أخى يستغفر العصافير ، وقد يبدو هذا سخيفاً من أول
نظرة ، ومع ذلك كان أخى على حق ، لأن الحياة أشبه ببحر محيط
تختلط فيه وتتمازج فيه جميع الأمواج • ان ضربة تقع على مكان من
الأمكنة تترجع آثارها فى أقصى الطرف الآخر من الأرض • هل استغفار
العصافير أحقق الى هذا الحد ؟ لو كنت خيراً مما أنت الآن ، لشعر
العصفور بمزيد من الأمن والطمأنينة فى قربك • ان الطفل وكل كائن
حتى آخر سيكون أسعد حالاً وأهدأ بالاً قربك اذا توافرت فى قلبك
ولو قطرة واحدة أخرى من الطيبة • أعود فأقول : ان الكون أشبه
بأوقيانوسٍ جميع أجزاءه متواصلة • فمتى أدركت هذه الحقيقة
استغفرت العصافير أنت أيضاً • اذا أدركت هذه الحقيقة تملكك حب
واسع يملأ قلبك سعادة ووجداً فاذا أنت تسألها ، تسأل العصافير ، أن

تعفر لك خطاياك • فتعهد بالتمنيـه والاذكاء هذه الحماسة الروحية وهذا الوجد ، دون أن تخشى أن تعد مجنوناً في نظر الناس •

يا أصدقائي اسألوا الرب أن يهب لكم الفرح • كونوا فرحين كالأطفال ، كالمصافير الصغيرة في السماء • لا تدعوا للاضطراب أن يستولى عليكم ، ولا لخطايا البشر أن تصرفكم رؤيتها عن جهودكم ؛ لا تخشوا من ضلالتهم أن تجعل عملكم عقيماً أو أن لا تسمح له بالظهور • لا تقولوا قط « ان الشر في هذا العالم قوى ، وان الظلم منتصر ، وان الأشرار مسيطرون ، على حين أننا نحن معزولون لا حول لنا ولا قوة ولا سلطان ، وان القوة الشريرة ستدمرنا قبل أن نستطيع القيام بعمل صالح » • لا تدعوا لهذا اليأس يا أبنائي أن يستولى عليكم • وليس هنالك الا سبيل واحدة تنفع المرء في حماية نفسه منه ، ألا وهي أن يعبد نفسه مسئولاً عن جميع خطايا البشر • وتلك هي الحقيقة يا أصدقائي • فمتى اعترفتم بأنكم مسئولون عن كل شيء تتجاء جميع الناس ، أدركتم أن الأمر هو كذلك حقاً ، وأن ذنبكم ليس وهماً صورّه لكم الخيال • أما اذا ألقيتم على عاتق غيركم ما هو في الواقع نتيجة كسلكم وتوانيكم وضعفكم ، انتهيتم الى السقوط في هوة التكبر الشيطاني ، وأخذتم تدمدمون متمردين على ارادة الله • سأقول لكم رأيي في التكبر الشيطاني : انه لعسير علينا أن ننفذ الى دلالته الحقيقية أثناء حياتنا الأرضية ، ونحن لهذا ميالون بطبيعتنا الى الوقوع في الخطأ ، فاذا نحن نتكبر تكبر الشيطان ظانين أننا بذلك نكبر ونحقق عملاً رائعاً جديراً بالاعجاب • ان المعنى الحقيقي لكثير من عواطفنا القوية واندفاعات قلبنا يفوتنا أثناء حياتنا الأرضية على كل حال • فلا تستسلموا للاغراء ولا تظنوا أن الجهل يمكن أن يكون لكم مسوئلاً • على ان « القاضي الأعلى » سيحاسبكم عما كان في وسعكم أن تعرفوه ، لا عما يفوق عقولكم • ستدركون هذا في حينه ،

وستكفون عندئذ عن المناقشة بحضور الحقيقة التي ستعرفونها • لقد كتب علينا أن نضرب في الأرض ، وما لم يكن صورة المسيح الغالية نصب أعيننا ، فسنهلك بسبب أخطائنا كما هلك لنوع الانساني قبل الطوفان • هناك أشياء كثيرة تبقى خافية عنا في هذا العالم ، ولكننا في مقابل ذلك قد أوتينا معرفة الحياة الآخرة والصلات التي نربطنا بعالم أعلى وأفضل ؛ والجذور العميقة لمواظفنا وأفكارنا انما تمتد في السماء لا في الأرض على كل حال • لذلك يعلم الفلاسفة أن ماهية الأشياء لا يمكن ادراكها في هذه الحياة الدنيا • لقد أخذ الرب بذورا من عالم الغيب فترها على الأرض ليزرع حديقته ، فنبت كل ما كان يمكن أن ينبت ، ولكن الموجودات التي نبتت على هذه الأرض لا تحيا ولا تبقى حية الا بوعى الصلة التي تربطها بالعالم الآخر السرى • حتى اذا ضعف هذا الوعي أو زال ، مات عندئذ ما يكون قد طلع فيها ، فلا تكثر بعد ذلك بالحياة ، أو هي تكره الحياة • ذلكم هو رأيي على الأقل •

ج - هل يجوز للمرأة أن يحكم على أقرانه ؟

الايمان الذي لا يتزعزع

تذكر خاصة أنه ليس من حقك أن تحكم على قرينك كائناً من كان • ما من أحد يستطيع أن يجعل نفسه قاضيا على مجرم قبل أن يدرك أنه ، وهو القاضي ، لا يقل اجراما عن الجاني المائل أمامه ، وأنه ربما كان هو المسئول الأول عن الخطأ الذي ارتكبه هذا الرجل • حتى اذا أدرك ذلك استطاع أن يحكم • قد يبدو هذا الرأي باطلا ، ومع ذلك فهذه هي الحقيقة • فلو قد استطعت أن أكون عادلا على الدوام ، لكان من الجائز

أن لا يرتكب هذا الرجل جريمته • فإذا أمكنك أن تلقى على عاتقك جناية الجاني المائل أمامك ، وأن تجعل حكمك في قلبك ، فافعل ذلك بغير تردد وأقبل أن تتألم نيابة عنه • أما الجاني فدعه ينصرف دون أن توجه إليه لوماً • استلهم هذه القاعدة في السلوك ما وسعت ذلك ، ولو نصبت القانون قاضيا له ، لأن المذنب سينصرف بعد ذلك ليدين نفسه اذانه أفسى من ادانتك إياه • وإذا ظهر لك أنه لم يحس رفقت به ، وإذا ردّ على حبك بالسخرية ، فلا تدع لموقفه هذا أن يفضبك : فانما يدل هذا الموقف على أن ساعته لم تدق بعد ، وأنها ستجني في المستقبل • وهبها لن نحين أبداً ، فلا تهتم كثيرا بذلك ، لأن شخصا آخر سيعترف يوما بذنبه وسيتألم منه ، وسيدركه ، وسيدين نفسه بنفسه ، فإذا بالحقيقة تتأكد رغم كل شيء • صدّق ما أقوله لك ، صدّقه تصديقا جازما قاطعا ، لأن هذا هو الأساس الحق الذي يقوم عليه الأمل ويقوم عليه إيمان القديسين •

لا تقعد عن العمل ولا تدع لهمتك أن تفتر • فإذا تذكرت ، بعد أن رقدت في سريرك لتنام ، أنك أغفلت القيام بواجب من الواجبات ، فانهض فورا لتدارك هذا النسيان • وإذا رأيت نفسك محاطا بأناس أشرار لا يحسون ، ويرفضون أن يسمعوها لك ، فارتهم على أقدامهم واستغفرهم ، لأنك أنت الذي تحمل ذنب عنادهم في الحقيقة • وإذا سمرت بأنك عاجز عن أن تخاطب الأشرار بالحسنى ، فاخدمهم صامتا متواضعا دون أن تأس قط • وإذا هجرك جميع الناس وطرودك شر طردة ، فاسجد على الأرض حين تصبح وحيدا واغمرها بقبلاتك • اسق الأرض بدموعك ، فتحمل هذه الدموع ثمارا ، ولو لم يرك أو سمعك في عزلك أحد • حافظ على إيمانك حتى النهاية ، ولو كان عليك أن تبقى الإنسان الوحيد الذي يحافظ عليه • إذا تذكر سائر الناس لعقيدتهم ، فتأبر أنت على المضي في طريق التضحية واستمرّ في تمجيد الله يا آخر مؤمن ، فقد يلقاك مؤمن

آخر ، فصبجا اثنين ، وهذا كافٍ لعودة الكون حياً بالحب : سوف تتعانقان عندئذ وقد امتلأت نفسكما عاطفة ، وسوف تسبحان بحمد الله فإذا الحقيقة تتأكد بكمما رغم أنكما لستما الا اثنين +

إذا اتفق أن أئمت فأخذ الندم على ارتكابك الأخطاء يعذبك ويرهقك ارهاقا شديدا ، فليبهجك أن تتذكر أن هناك انسانا صالحا لم يرتكب اثماً وقل لنفسك مغتبطاً سعيداً : لأن وقعت أنا في الشر ، ان ثمة انسانا غيرى قد ظل طاهرا لم يتلوث +

وإذا ملأك خبث البشر استياء وألما عنيفاً رغم ذلك ، حتى صرت تتمنى معاقبة المجرمين انتقاما ، فصن نفسك من هذه العاطفة بكل ما تملك من قوة ، وابحث لنفسك عن آلام مباشرة كأنك مسئول عن جرائم هؤلاء الناس + اقبل هذه الآلام وتحملها + فذلك يهدى قلبك ويطمئن نفسك + سوف تدرك أنك آثم فعلا ، لأنك كنت تستطيع أن تهدي هؤلاء الناس بالقدوة ، ولو كان عليك أن تبقى الانسان الوحيد الذى يعيش بلا خطيئة ، ثم لم تفعل ... فلو أنك اتبعت طريق النور هذا فى حياتك ، لاستطاع الآخرون أن يروا طريقهم بنور طهارتك ، ولأمكن الانسان الذى تتهمه اليوم بالجريمة أن يبقى شريفا طاهرا + قد يحدث مع ذلك أن تكون أنت قدوة حسنة ثم يرفض الآخرون الخلاص الذى يأتيهم من نورك ، فلا يتزعزع عن ايمانك حينذاك ، ولا يراودك شك فى أن الحقيقة السماوية منتصرة آخر الأمر + اعلم أن البشر سيُنقذون غدا ان لم يمكن انقاذهم اليوم + وإذا لم يمكن انقاذهم أثناء حياتهم ، فسيُنقذ أبناءهم من بعدهم ، لأن نورك لن يزول وسيبقى بعد مبارحتك هذا العالم + قد يزول الرجل الصالح ، ولكن نوره باق لا يزول + ثم ان الناس لا يقبلون الخلاص الا بعد موت ذلك الذى أراد أن يخلصهم + ان البشر لا يعترفون بأنبيائهم

بل يقتلونهم ، ولكن البشر فى مقابل ذلك يحبون شهداءهم ويقدمون
أولئك الذين استشهدوا بأيديهم . ففى المستقبل وفى الإنسانية بمجموعها
انما يجب عليك أن تفكر حين تبذل ما تبذل من جهودك لا تنتظر نواباً
على الخير الذى تعمل ، لأن نصيبك فى هذا العالم كبير حتى بدون هذا
الثواب : لسوف تعرف نفسك الفرح الحق الذى لا يوهب الا للصالحين .
لا تخش العظماء ولا الأقوياء . كن عاقلاً حكيماً كريماً على نفسك فى كل
ظرف . التزم القصد والاعتدال . اعلم أن هناك آجالاً تفرض نفسها على
تشوقنا الى العمل ، وتقيد بهذه الآجال . لُذْ بالصلاة فى العزلة . تعلم
كيف تحب الارتقاء على الأرض وتقبلها . قبل الأرض بغير كلال .
وأحبها بكل نفسك . انشر حبك على كل ما يوجد . اندفع فى الحب
واسعاً الى حماسة القلب . اسق الأرض بدموع فرحك ، واحب هذه
الدموع . لا يخجلنك وجدك . قدّر هذا الوجد ، لأن الله مصدره ، فهو
هبة كبرى لا توهب فى هذه الحياة الدنيا الا للمصطفين .

ط - حديث عن الجحيم والنار الابدية

تأمل صوفى

يا آبائى ومعلمى ، لقد تساءلت : « ما الجحيم » ، فأجبت : « هو
عذاب الانسان من أنه أصبح لا يستطيع أن يحب » . ففى المكان والزمان
اللانهايين ، تتاح للكائن الروحى الذى يظهر على الأرض ، لحظةً وحيدة
يمكنه فيها أن يقول : « أنا موجود وأنا أحب » . مرةً واحدة ، مرةً
واحدة توهب لهذا الكائن الحى القدرة على أن يختار طريق الحب الفعال
الحى ، وقد وهبت له الحياة لهذه الغاية مع ما تشتمل عليه الحياة من زمان

وآجال • وهذا الكائن الذى أُعِدَّتْ عليه هذه النعمة قد رفض النعمة التى لا توصف ، ولم يقدرها حق قدرها ، ولم يتمتع بها ، بل استخف بها وآثر أن تخلو نفسه من الحس • ان هذا الكائن يرى ابراهيم بعد أن يبارح الارض ، ويتحدث مع رب العائلة ، كما ورد فى رمز لازار والفتى الشرير • انه يرى الجنة ويعلم أنه سيمثل أمام الرب ؛ واذا كان يعذبه شيء فانما يعذبه أنه سيمثل أمام الخالق دون أن يكون قد أحب ، وأنه سيسير الى جانب مخلوقات مُحِبَّةٍ احتقر هو حبها • ذلك أنه الآن يرى ويدرك ، فيقول لنفسه : « أنا الآن أعلم ، ورغم اننى اليوم ظامى الى الحب فلن يكون لحبى قيمة ولن تكون فيه تضحية ، لأن حياتى الأرضية قد انتهت ، ولن يأتى ابراهيم فيهدى بقطرة من ماء الحياة (أى باعطائى حياةً أرضيةً جديدةً فعالةً شبيهة بالسابقة) ظمئى الى الحب الروحى لذى يحرق الآن نفسى بعد أن ازدريته على الارض : لن تكون بعد اليوم حياة ، لن يكون بعد اليوم وفاء ! اننى أتمنى الآن أن أضحي بوجودى فى سبيل غيرى ، ولكن فات الأوان ، لأن الحياة التى كان يمكن أن أضحي بها قد انقضت الى غير رجعة ، فالهوة تفصل بينى وبينها الى الأبد » • كثيراً ما يتكلم الناس عن نار الجحيم وهم يفهمونها بالمعنى المادى • اننى لا أريد أن أبحث هذا السرّ الذى يملأ نفسى رعباً وهولاً ، ولكننى أتصور أن هذه النيران لو كانت محسوسة مادية اذن لابتهج بها المذبذبون ، لأن الألم الجسمى يتيح لهم عندئذ أن ينسوا ، ولو لحظة قصيرة ، العذاب الروحى الرهيب • ثم ان تخليصهم من عذاب نفوسهم مستحيل ، لأنه عذاب داخلى لا خارجى ، فلا يمكن أن يناله تأثير الآخرين • وهبنا استطعنا أن نجرّدهم من هذا العذاب ، فان شقاءهم سيزداد من ذلك فيما يخيّل الى • هب المعادلين فى السماء غفروا لهم حين رأوا آلامهم ، وهبهم نادوهم اليهم بحب لا نهاية له ؛ انهم سيضاعفون بذلك آلامهم ، لأنهم سيوقفون فيهم

مزيديا من الظلم الحار الى الحب المتبادل والعرفان والنبيل ، فى وقت
أصبحوا فيه عاجزين عن ذلك الى الأبد • على أننى أتصور، خاشع النفس
ذليلاً ، أن شعورهم بهذا العجز سيخفف عنهم آخر الأمر بعض التخفيف،
والىكم كيف يكون ذلك : انهم حين يقبلون حب الصالحين دون أن
يكونوا قادرين على أن يردوه بمثل ، سيجدون فى التسليم بهذا التفاوت
بينهم وبينهم وفى الوضع الذى سيمليه عليهم الشعور الصادق بأنهم دونهم،
سيجدون فى ذلك معادلاً أو صورة للحب الفعال الذى ازدروه على
الأرض، وسيصبحون قادرين عندئذ على فعل يذكّر بفعل النفس المحبة..
يؤسفى ، يا آباءى ومعلمى ، أن لا أستطيع التعبير عما بنفى بمزيد من
الوضوح • ولكن ويل للذين أنهموا حياتهم على هذه الأرض بأنفسهم ،
ويل للمنتحرين ! أحسب أنه ليس هناك من يفوق هؤلاء شقاء ! يقال
انه اثم أن ندعو الله لمن قتل نفسه بارادته ، وواضح أن الكنيسة تطرد من
حضانها ذلك الذى قتل نفسه بارادته • ولكننى أشعر مع ذلك ، فى سريرة
نفسى ، أنه يجوز الدعاء للمنتحرين ، لأن المسيح لن يسوئه افراط فى
الحب • لقد دعوت طسوال حياتى للمنتحرين ، أعترف لكم بهذا الآن
يا آباءى ومعلمى ، وما زلت أدعو لهم كل يوم •

لا شك أن فى الجحيم أيضاً معذّبين أصروا على صلفهم وضراوتهم
وظلوا لا يتأثرون بالحقيقة رغم أنهم أصبحوا يعرفونها ويرونها ساطعة كل
السلطوع • ان بينهم أناساً رهيبين قد اتحدوا بالشیطان وانضموا الى
عصيانته • انهم يقبلون الجحيم بفرح مظلم ولا يستطيعون أن يشبعوا
منه • أولئك يتعذبون ويريدون أن يتعذبوا • فقد لعنوا أنفسهم بأنفسهم
اذ لعنوا الله والحياة • انهم يقتاتون بكرهم المتكبر الصلف اقتيات الجائعين
فى الصحراء بدمائهم يمتصونها • ان غليلهم لن يشفى يوما ، وهم يرفضون
المغفرة الى الأبد ، لاعين الرب الذى يناديهم • انهم لا يستطيعون الا أن

يشعروا بخنق مسعور حين يتأملون الاله الحى ، ويتمنون أن لا يوجد ،
ويودون لو يفتى الخالق نفسه مع الخليفة كلها • هؤلاء سيظلون يحترقون
الى الأبد بنيران كرههم منادين الموت والعدم فى غير طائل • ولكن لن
يوهب لهم أن يموتوا •••

هنا تنتهى مخطوطة ألكسى فيدوروفتش كارامازوف • وأعود فأقول:
هذا عمل غير مكتمل ، هذه أجزاء متفرقة • فالإشارات التى تتصل بحياة
الشيخ زوسىما مثلاً لا تتناول الا الفترة الأولى من شباب الشيخ • وان
شذرات من تعاليمه ومن الآراء التى أطلقها فى عهود مختلفة وبتأثير
مناسبات شتى ، قد جُمعت هنا وصُهرت كما يرى القارىء ذلك واضحا •
والأقوال التى نطق بها الشيخ فى الساعات الأخيرة من حياته لم تُنقل
نقلًا كاملاً وإنما عُرِضت عرضاً موجزاً فيما يظهر ، بحيث تؤدى روح
ذلك الحديث الأخير وتبرز عناصره الأساسية مزيداً من الإبراز بمعونة
أقوال أخرى استمدتها ألكسى فيدوروفتش من تعاليم شيخه السابقة • وقد
وافت الشيخ منيته على نحو لم يكن فى الحسبان حقاً • فرغم أن جميع
الأشخاص الذين اجتمعوا حوله فى ذلك المساء قد أدركوا أن وفاته قريبة،
فإن أحداً منهم لم يتنبأ بأنها ستوافيه على هذا النحو المبغت • وكما سبق
أن قلت فإن أصدقاءه قد اعتقدوا حين رأوا ما رأوا من شجاعته وميله الى
الكلام طوال تلك الليلة أن صحته ستتحسن تحسناً ملحوظاً وان يكن
عابراً مؤقتاً ؛ ولا شئ كان يسمح لأحد ، الى ما قبل موته بخمس دقائق
(كما روى هذا بدهشة فيما بعد) ، أن يتنبأ بأن وفاته وشيكة • ولكن
بدا عليه فجأة أنه يحس بألم شديد فى صدره ، واصفر وجهه ، وشد

يده شداً قوياً على قلبه • نهض جميع الحضور وهرعوا اليه • وظل هو رغم الألم ينظر الى أصدقائه مبتسماً • وترك نفسه ينزلق برفقٍ عن كرسیه ، فجثا على ركبتيه ، ثم سجد جاعلاً وجهه على الأرض ، وبسط ذراعيه بنوعٍ من الوجد الجذل • وقبّل الأرض بعدئذ ، ولفظ روحه على نحو ما أورد هو نفسه في تعاليمه ، مصلياً في اندفاع عظمى من فرح هادئ • مطمئن • انتشر نبأ وفاته فوراً في الصومعة والدير • وقام أصدقاؤه والأشخاص المختصون بتكفينه على ما توجه الطقوس القديمة ، ثم اجتمع أعضاء الرهبنة في الكنيسة • وقد عُرف موت الشيخ في المدينة قبل أن يطلع الفجر ، كما أكد الناس ذلك فيما بعد • ومهما يكن من أمر ، فقد تحدث الملا عن موته في كل مكان منذ الساعات الأولى من الصباح ، وازدحم في الدير جمع غفير من المواطنين • سنعود الى الكلام عن هذا في الباب التالي ، وحسبنا أن نشير هنا ، مستبقين تنمة هذه القصة ، أن حادثاً غير منتظر قد وقع قبل نهاية النهار ، فأحدث في نفوس سكان الدير وفي نفوس سكان المدينة على السواء أثراً يبلغ من الغرابة ومن الاقلاق ومن العنف أن ذكرناه ما تزال حتى يومنا هذا ، بعد انقضاء ذلك العدد الكبير كله من السنين ، ما تزال حية في أذهان جميع الذين عاشوا تلك الساعات المضطربة القلقة •••

الجزء الثالث

الباب السابع: اليمينا

١

راحة الجثمان



جثمان الأب زوسيمما للدفن وفقاً للطقوس المقررة. وقد جرت العادة ، كما تعلمون ، بأن لا يُغسل رفات الرهبان والنساك • يقول كتاب الطقوس في هذا الصدد : « اذا نادى الرب راهبا اليه ، فعلى الأخ المكلف بزينة المتوفى أن يدلّكه بماء فاتر ، بعد أن يرسم اشارة الصليب باسفنجه على جبينه وصدره ويديه وقدميه وركبتيه ، وهذا كل شيء • • • وقد تولى الأب بائيسى القيام بهذه المهمة بنفسه وفقاً للطقوس • فلما فرغ من تدليك جسمه ألبسه مسوح الرهبنة ، وكفنه بالجبّة بعد أن شقها قليلاً بحيث يجعلها في صورة صليب ، كما تأمر الطقوس بذلك • ووضع على رأسه بعدئذ طاقية مزينة بصليب ذى ثمانية أفرع ، تاركاً الطاقية تسفر عن الوجه ، مغطياً الوجه ببرقع أسود ؛ ووضع صورة المختص بين يدي المتوفى • حتى اذا انتهى تكفين الجثمان على هذا النحو سُجّي عند الصباح في تابوت سبق اعداده منذ زمن طويل • وأريد أن يُترك التابوت طوال النهار في حجرة الشيخ (الحجرة الكبيرة التي اعتاد الشيخ أن يستقبل فيها الرهبان والزوار العلمانيين) • واذا أن المتوفى في رتبة « هيروشيموناكوس » ، فقد كان على الرهبان الكهنة وعلى الشمامسة أن يقرأوا أمام رفات الانجيل لا المزامير • فشرع الأب

جوزيف فى القراءة بعد قداس الجنازة فوراً • أما الأب بائيسى الذى حل محلّه ، باصرار منه ، أثناء بقية النهار وأثناء الليلة التالية ، فقد كان فى تلك الآونة مهموماً جداً (مثلما كان كبير النساك) من ذلك الاضطراب الشديد ، الخافى ، « غير اللائق » ، المشوب بنوع من انتظارٍ محموم ، الذى استولى على الرهبان وعلى جموع الناس الغفيرة التى هربت من المدينة ومن الفنادق المجاورة للدير • كان ذلك الاضطراب ما ينفك يزداد قوة وظهوراً ، فاضطر الأب بائيسى وكبير النساك الى بذل جميع جهودهما فى سبيل أن يهدئا النفوس المحتاجة ما أمكنت التهذئة • وما ان طلع النهار تماماً حتى أخذ يفد من المدينة أشخاص يصطحبون مرضى ، مرضى من الأطفال خاصة ، كأن جميع الناس كانوا ينتظرون هذه اللحظة آمليين أن يروا ظهور معجزة الشفاء التى لا بد فى اعتقادهم من أن تصدر عن جثمان الشيخ • فى تلك اللحظة انما تجلى مدى تعود الناس على اعتبار الشيخ ، حتى أثناء حياته ، قديساً صادقاً عظيماً • ولم يكن جميع المؤمنين الوافدين من المدينة ينتمون الى الأوساط الشعبية • وبدا للأب بائيسى أن هذا التوقع العظيم الذى يتوقعه المؤمنون والذى يتجلى بهذا القدر من التسرع ونفاد الصبر وهذا القدر من الصراحة حتى لكأنه مطلب من المطالب ، بدا للأب بائيسى أن هذا التوقع فيه شئ من مجافاة الأدب والحكمة ؛ ورغم أن الأب بائيسى قد تنبأ بهذا التوقع منذ زمن طويل ، فإن القوة التى يتجلى بها هذا التوقع الآن قد تجاوزت جميع تنبؤات الأب بائيسى • فكان يتجه الى الرهبان المتحمسين فيقول لهم « ان انتظار معجزة كبيرة مباشرة دليل على عواطف طائشة يفهم صدورها عن علمانيين ولكنها لا تلبق برهبان » • وكان هؤلاء لا يسمعون له كثيراً ، وذلك أمر لاحظته الأب بائيسى قلقاً • ومع هذا كان الأب بائيسى هو نفسه (تلك حقيقة يجب أن نعترف بها اذا أردنا الصدق) ،

رغم استيائه الشديد من مظاهر نفاد الصبر هذه التي يرى فيها خفة وطيشاً ، كان هو نفسه يحس في قرارة ضميره بهذا الانتظار نفسه الذي يشعر به المضطربون المهتاجون ، وكان لا بد له أن يعترف لنفسه بذلك . على أن رؤية بعض الأشخاص قد ساءته كثيراً ، لأن وجودهم قد أيقظ في نفسه شكوكا غامضة لم تنشأ والحق يقال الا من احساسات مبهمه . من ذلك أنه شعر بنفور داخلي شديد (سرعان ما لام نفسه عليه) حين لمح بين الجمهور المحتشد في حجرة الشيخ ، حين لمح راكيتين وراهب أوبدورسك الذي طالت اقامته في الدير . لقد بدا الرجلان كلاهما مشبوهين في نظر الأب بائسي ، رغم أن هناك أشخاصا آخرين كانوا مشبوهين مثلهم أيضاً . وكان راهب أوبدورسك يتميز بكثرة ذهابه وإيابه . فهو يرى في كل مكان مستطعلاً سائلاً أو مصغياً أو مدمماً على نحو سرى . وكان وجهه يعبر عن نفاد الصبر نفاداً شديداً يوشك أن يستحيل في بعض اللحظات الى احتياج وحنق ، لأن الحادث الذي يتوقع الناس في كثير من الاندفاع والحماة والحمية أن يحدث قد تأخر حدوثه . أما راكيتين فقد علم فيما بعد أنه ان جاء الى الصومعة في ساعة مبكرة هذا التبكير من الصباح ، فلأن السيدة هوخلاكوفا هي التي طلبت منه ذلك صراحة . ان هذه المرأة التي تتصف بالطيبة ولكن تعوزها قوة الطبع ، قد أحست بفضول شديد يقرصها قرصاً حين علمت بموت الشيخ عند استيقاظها من النوم ، وبلغت من شدة الفضول أنها لمعرفتها بأن مجيئها الى الصومعة لن يكون مقبولاً قد أسرعت توفد راكيتين موصيةً إياه بأن يلاحظ كل شيء وأن ينبئها حالاً ، في رسالة يبعث بها اليها كل نصف ساعة ، بكل ما قد يحدث . كانت السيدة هوخلاكوفا تعد راكيتين شابا شديد التقى قوى الايمان ، فالى هذا الحد

كان راكيتين بارعا في الخطوة برضى الناس حاذقا في اتخاذ المظاهر التي تطابق رغباتهم متى وجد في ذلك مصلحة له .

بدأ النهار صاحيا مضيئا مشمسا . والحجاج الذين وصلوا الى الدير يزدحمون حول القبور ، ولكن بعضهم قد تفرقوا في جوار الدير .
وحين طاف الأب بائيسى في الصومعة ، تذكر أليوشا فجأة ، وتذكر أنه لم يره منذ مدة طويلة ، منذ الليل على كل حال . فما ان خطر بباله هذا حتى لمح في ركن ناء قرب السياج جالسا على الحجر من قبر راهب .
مات منذ سنين وعُرف أثناء حياته بشدة تعبه وقسوة كفاراته . كان أليوشا قد أدار ظهره للصومعة واتجه برأسه نحو السياج ، وكأنه يختبئ وراء شاهدة القبر . فلما اقترب الأب بائيسى رأى أليوشا قد وضع وجهه في يديه وأخذ يبكي بكاء مرأ وان يكن صامتا ، وأن جسمه كان يهزه الالتحاب . لبث الأب بائيسى واقفاً قربيه بضع لحظات . وقال له أخيرا بصوت متأثر :

- هدىء روعك يا بنى . ما بك ؟ عليك أن تبتهج لا أن تبكى .
أفتجهل أن هذا اليوم هو أجمل وأعظم من جميع الأيام التي وُهب له أن يعرفها ؟ أنسيت أين هو في هذه اللحظة ؟ هلا فكرت في هذا !

رفع أليوشا عينيه فرأى الأب بائيسى وجهه محتقنا بالدموع كوجه طفل ؛ ثم تحول أليوشا دون أن ينطق بكلمة وأخفى وجهه في يديه من جديد . قال الأب بائيسى مطرقا مفكرا :

- قد تكون على حق مع ذلك ! ابك في سلام يا بنى لأن المسيح هو الذى يرسل اليك هذه الدموع .

ثم أضاف يقول بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه :

- ستساهم انتحاباتك المؤثرة في تهدئة روعك ، وستبعث الفرح في قلبك النيل .

ثم ابتعد معتلئ النفس عطفاً على أليوشا وجبا له • والحق أنه سارع ينصرف لأنه أحس أنه يوشك هو نفسه أن ينفجر ناشجاً وهو ينظر الى الفتى •

كان الوقت ينقضى ، وكانت صلوات الجنازة وقداستها تتعاقب وفقاً للنظام المقرر • ولمح الأب بائسى الأب جوزيف قرب التابوت ، فحل محله فى قراءة الانجيل • ولكن ما ان دقت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى وقع الحادث الذى أشرت اليه فى ختام الباب السابق • وقد جاء هذا الحادث على غير ما يتوقع جميع الناس ، وجاء مخالفاً مخالفة مذهلة لما كانوا يأملونه ، وبلغ من ذلك أن ذكراه وذكرى جميع التفاصيل التافهة التى رافقته قد ظلت حية الى أيامنا هذه فى أذهان سكان مدينتنا وسكان المنطقة المجاورة كما سبق أن قلت • وأحب أن أسوق هنا ملاحظة خاصة بى : انه ليشق على نفسى أن أتكلم عن هذا الحادث المقلق الذى لا بد أن يهز النفوس رغم أنه فى حقيقة الامر طبعى ويمكن فهمه جداً ؛ وكان فى وسعى أن أسكت عنه حتماً لولا أنه قد أحدث تأثيراً قوياً جداً - فى اتجاه محدد تحديداً واضحاً - فى نفس وقلب البطل الرئيسى (وان يكن البطل المقبل) الذى تدور عليه أحداث هذه القصة ، أعنى أليوشا • لقد اضطرب أليوشا من هذا الحادث اضطراباً رهيباً ، وإلى هذا العهد انما يرجع انعطاف حياته النفسية ، لأن عقله الذى أوشك أن يهزه الحادث ، قد خرج من الأزمة منتصراً ، ثابتاً منذ ذلك الحين الى الأبد ، متجهاً نحو هدف معين محدد •

وهأنذا أصل الى الوقائع : حين أُرقد جثمان الشيخ فى تابوت بعد تكفينه قبيل انفجر ، ووضع التابوت فى الغرفة الأولى من بيت الشيخ - وهى حجرة الاستقبال - فان أحد الأشخاص الحاضرين سأل ألا يُستحسن فتح النوافذ • ان هذا السؤال الذى ألقاه صاحبه كسؤال

عابر وهو يشعر بما يشبه الخجل ، قد ظل بغير جواب ولم يكده ينتبه اليه أحد . والذين سمعوه رأوا أن فكرة صدور رائحة تفسخ من جثمان ميت كهذا الميت تبلغ من السخف أنها لا تستحق في أبعد تقدير أكثر من أن يرفعوا أكتافهم مشفقين (أو أن يتسموا محتقرين) ازاء مايتصف به الذهن الذى أمكن أن تخطر له من قلة الايمان وشدة الطيش وفرط الغباوة . أليس ما يُنتظر من قداسة الشيخ هو نقيض هذا تماما ؟ ولكن الذى حدث هو أن الأشخاص الذين دخلوا الحجرة ابتداءً من الظهر قد أخذوا يلاحظون ملاحظات كنموها فى أول الأمر عن غيرهم واحتفظوا بها لأنفسهم ، خشية أن ينقلوا الى الآخرين شعورا لا يكادون يصدقونه؛ غير أن الظاهرة التى أدركت ادراكا غامضا فى البداية قد تأكدت فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر تأكداً بلغ من الوضوح أنه أصبح يستحيل الشك فيها ، فاذا الخبر ينتشر فى الصومعة على الفور ، واذا هو يشيع بين المتدققين من أنواع الحجاج ، واذا هو يصل الى الدير فى الوقت نفسه تقريبا فيغرق الرهبان فى دهشة شديدة وحزن مبرح . وانتقل النبأ من الدير الى المدينة فأحدث اضطرابا فى الناس ، المؤمنين منهم والملحدين على السواء . لقد انتصر الملحدون . وأما المؤمنون فممنهم من كان ابتهاجه أشد من ابتهاج غير المؤمنين أيضا ، لأن الانسان « يحلو له أن يرى سقوط الرجل الصالح وتلطف شرفه بالعار » كما قال المتوفى فى أحد أحاديثه . وما وقع هو أن رائحة تفسخ قد صدرت عن التابوت خفيفةً فى أول الأمر ، ثم ما زالت تشتد وتشتد ساعة بعد ساعة ؛ فما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى أصبحت واضحة كل الوضوح ، وما فشت تشتد بعد ذلك . عبثاً تحاولون أن تجدوا فى حوليات ديرنا ذكرى اضطراب فاضح عنيف كالاضطراب الذى استولى على الرهبان منذ أن عُرف الحادث ، والذى ما كان يمكن تصويره فى أى ظرف آخر من

الظروف • وبعد انقضاء عدد كبير من السنين ظل حتى أعقل الرهبان وأحصفهم يشعرون بدهشة شديدة وروع هائل حين يتذكرون تفاصيل وقائع ذلك النهار ، والفوضى التي أطاشت العقول ، وما نشأ عن ذلك لدى رهبان الدير من موقف غير لائق • كثيراً ما حدث في الماضي أن رهباناً عُرِفوا باستقامة الحياة وطهارتها ، أن رجالاً يعظمهم جميع الناس ويخافون الله ، قد ماتوا أتقياء أنقياء ، ثم لوحظت مع ذلك حول جثمانهم المسكين بعض الافرازات ، كما يحدث هذا لجميع الموتى في هذه الحياة الدنيا ، ولكن الأمر لم يصدم عندئذ أحداً بل ولا أدهش أحداً • صحيح أن الأذهان تحتفظ عندنا أيضاً بذكرى رهبان متوفين منذ زمان طويل ، يتناقل الناس عنهم أن بقاياهم لم تظهر عليها أية علامة من علامات التفسخ ؛ وقد أحدث ذلك في نفوس الرهبان أثراً عظيماً ، فكانوا يتحدثون عنه معجبين ، وكانوا يحرصون أشد الحرص على حفظ ذكرى هذه الوقائع المعجزة التي تشهد بالقداسة ؛ وكانوا يقدِّرون أن مزيداً من المجد سيتحقق في المستقبل لقبور هؤلاء الأخيار المختارين في الساعة التي يشاء فيها الله ذلك • فهكذا كان شأن القديس يعقوب مثلاً ، الذي عاش مائة وخمسة سنين والذي بقيت ذكراه حية في ديرنا • لقد كان يعقوب ناسكاً كبيراً ، اشتهر بفرائض الصمت والصيام التي كان يلزم بها نفسه ؛ وقد مات منذ زمن بعيد ، في السنين الأولى من القرن التاسع عشر ؛ وأصبح قبره الآن محل تعظيم خاص ، فسكان الدير يقودون الحجاج الى زيارته قبل سائر القبور ، مشيرين بكلام يحمل معاني السر والاعجاب الى الآمال الكبيرة المعقودة على مثوى ذلك الرجل الصالح (على ذلك القبر انما ملح الأب بائيسى ، في الصباح ، أليوشا) • وعدا ذلك الراهب الذي توفى منذ سنين كثيرة ، هناك راهب آخر مات منذ عهد غير بعيد كثيراً ، وخلف في الدير ذكرى كهذه الذكرى • انه الشيخ العظيم

فارسونوف الذى خلفه الأب زوسىما ، والذى كان يعده جميع الحجاج
 الذين يزورون الدير « يوروديفوى » • ان الناس يروون عن كل من
 هذين الراهبين أن الناظر اليه فى تابوته كان لا يشعر الا بأنه نائم نوماً ،
 وأنه دُفِن دون أن يفسد جثمانه ؛ بل وأن نوراً كان يشع من وجهه •
 حتى أن بعض الناس ذهبوا الى حد القول فى الحاح واصرار ان رفاته
 كان ينشر روائح عطرة • ومع ذلك ، رغم هذه الذكريات الموحية ،
 فان من العسير على المرء أن يدرك السبب الذى دفع الراهبان فى ذلك
 اليوم الى أن يقفوا موقفاً يبلغ هذا المبلغ من الخفة والطيش والسخف
 والعداوة ازاء تابوت الشيخ زوسىما • أما أنا فأعتقد أن الأسباب كثيرة
 متنوعة ، ولكنها تعمل جميعاً فى اتجاه واحد • ويحسن أن نذكر ، من
 بين هذه الأسباب ، المعادة الشديدة لنظام المشايخ هذا الذى كان يعد
 بدعة مشثومة ، وهى عداوة قد ترسخت عميقة فى نفوس عدد كبير من
 الراهبان • وهناك سبب آخر لعله أهم الأسباب ، هو الحسد الذى كانت
 تثيره قداسة الشيخ التى بلغت أثناء حياته من الرسوخ أنه كان يبدو من
 غير الجائز أن يناقش أحد فيها • فلئن أيقظ الشيخ تعلقاً عميقاً به ، ولئن
 عرف كيف يكسب محبة عدد كبير من الراهبان برقة روحه لا بمعجزاته ،
 ولئن أحاط به أناس أخلصوا له كل الاخلاص ، فلقد خلق من حوله ،
 رغم ذلك وربما بسبب ذلك ، حُسَّاداً كثيرين أصبحوا أعداء ألداء
 شيئاً بعد شيء ، فبعضهم يخفى هذه العداوة وبعضهم يعلنها • ولقد كان
 له أعداء من هذا النوع لا فى صفوف رهبان الدير فحسب ، بل بين غير
 رجال الدين أيضاً • انه لم يسيء يوماً الى أحد ، ولكن الناس كانوا
 يتساءلون : « لماذا يُعدُّ قديساً عظيماً ؟ » • وكان هذا السؤال كافياً
 بتردده المستمر الى أن يخلق من حوله بغضاً لا تنطفئ جذوته • ذلكم
 فى رأى هو السبب الذى جعل كثيرا من الراهبان يتتهجون ابتهاجا

شديدا حين علموا أن جسمه يصدر رائحة تفسخ ، وأن هذه الرائحة قد بدأت تصدر عن الجسم بعد برهة قصيرة ، لأنه لم ينقض على موته يوم . أما الرهبان المؤمنون بالشيخ المخلصون له ، الذين ظلوا يقدرونه الى ذلك الحين ، فقد أحسوا بحادثة التفسخ هذه نوعاً من اساءة نالهم هم أنفسهم ، واهانة لحقت بهم شخصياً . اليكم كيف جرت الأمور على وجه الدقة : منذ اللحظة التي ظهرت فيها أولى علامات التفسخ ، أصبح من اليسير على المرء أن يحزر ، من هيئة الرهبان الذين كانوا يدخلون حجرة المتوفى ، الهدف الذى دخلوا من أجله . كانوا يدخلون فيمكنون بضع لحظات ثم يسرعون خارجين ليؤكدوا النبأ لمن كانوا يزدهمون أمام الباب ؛ فبعض هؤلاء يهزون رؤوسهم بحزن وأسى ، وبعضهم لا يكلفون أنفسهم حتى عناء اخفاء الفرع الخيىث الذى يسطع فى نظراتهم الكارهة . ولم يخطر ببال أحد أن يؤاخذهم ، وما من صوت ارتفع يدافع عن الشيخ ، وذلك أمر يثير الدهشة فى الواقع ، لأن المعجبين بالشيخ كانوا أكثرية الدير رغم كل شئ . ولكن يظهر أن الرب كان قد قرر فى هذه المرة أن يسمح للأقلية بالانتصار الى حين . ولم يلبث أن تدفق الى الحجرة رجال علمانيون ينتمى أكثرهم الى الأوساط المثقفة ، فاما أن الفضول هو الذى يدفعهم الى ذلك ، واما أن أصدقاءهم قد أرسلوهم يستطلعون الخبر اليقين . أما أبناء الشعب فقد كانوا أميل الى التأى والابتعاد ، رغم أن عددا كبيرا منهم قد تجمهر على أبواب المنسك . ومهما يكن من أمر فمما لا شك فيه أن سيل الزوار العلمانيين قد ازداد ازديادا ضخما بعد الساعة الثالثة على أثر شيوع النبأ الفاضح . وهناك أشخاص ما كان لهم أن يجيئوا بمناسبة وفاة الشيخ ، ولكنهم هرعوا الى الدير مع ذلك وليس لهم من هدف الا أن يتحققوا من صدق النبأ بأنفسهم ، وكان بينهم رجال من كبار موظفى الدولة . يجب أن نذكر مع ذلك أن سلوك المستطلعين

الفضوليين لما يعكر جو الحشمة صراحة حتى ذلك الحين ، فما زال الأب بائيسى يستطيع أن يتلو آيات الانجيل جهراً بلهجة ثابتة وهيئة فاسية دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ شيئاً ، رغم أنه قد لاحظ منذ بعض الوقت أن شيئاً خارقاً يحدث . ولكن ها هي ذى ملاحظات قد أخذت تصل الى مسامعه . ان أصحابها يدونها خجلة وجلة أول الأمر ، فهم يهمسون بها همساً ، غير أنها ما تنفك تلح وتتجرأ فاذا هو يسمع هذه الملاحظة بوضوح : « يبدو أن حكم الله لا يؤيد دائماً حكم البشر » . ان الذى جازف فقال هذه الكلمات أول القائلين هو رجل علمانى متقدم فى السن موظف فى البلدية يعد على جانب كبير من التقى والورع . على أن هذا الرجل لم يزد على أن كرر جهراً ما كان الرهبان يسر به بعضهم الى بعض همساً فى الآذان منذ وهلة طويلة . ان هؤلاء الرهبان لم ينتظروا طويلاً من أجل أن يفصحوا عن هذه الفكرة التى تعبر عن تبدد الأوهام ، والأنكى من ذلك أنهم كانوا يفصحون عن هذه الفكرة وقد بدت فى وجوههم امارات النصر والظفر التى كانت تزداد قوة ووضوحاً من دقيقة الى دقيقة . وما لبثت مراعاة اللباقة أن زالت فكأن الجميع أصبحوا يحسون أن من حقهم أن لا يقيموا لها وزناً بعد الآن . « كيف أمكن أن يحدث هذا ؟ » كذلك كان يتساءل بعض الرهبان وهم يصطنعون فى أول الأمر هيئة الحزن فكان رهبان آخرون يسارعون الى الجواب قائلين : « لقد كان جسمه نحيلاً هزيلاً معروفاً ، كله عظام ، فمن أين يمكن أن تأتي هذه الرائحة ؟ » - « معنى ذلك أن الرب قد أراد أن يدل على عدم رضاه » . وكانت آراؤهم هذه تُقبل فوراً بغير نقاش ، لأنه اذا كان التفسخ ظاهرة طبيعية تحدث دائماً بعد وفاة خاطيء فانها لا تحدث فى العادة الا بعد أربع وعشرين ساعة على الأقل ، ولا تظهر بمثل هذه السرعة .

أما وأن تفسخ الشيخ قد سبق الطبعه فلا بد أن نرى فى ذلك عملاً من أعمال الله وإشارة آتية من السماء . ذلك برهان كان يبدو مفجعاً . ولقد حاول الراهب الكاهن جوزيف ، أمين مكتبة الدير الذى كان صفى الشيخ وأثيره وكان رجلاً دمثاً لطيفاً رقيق الحاشية ، حاول أن يسوق بعض الحجج والأدلة جواباً على تلك الأقوال المسيئة . قال فيما قال : « ان هذه الآراء لا يؤخذ بها فى كل مكان وان ما يقال من أن أجساد الصالحين لا تتفسخ ليس من صلب العقيدة الأورثوذكسية وانما هو مجرد ظن . ففي مراكز الأورثوذكسية الصافية النقية مثل مونت آتوس لا يقام كبير وزن لرائحة الجثة ولا يعد عدم التفسخ علامة نهائية على مجد القديس وانما يعتمد هنالك على لون العظام بعد أن تنوى الأجساد زمناً طويلاً فى الأرض وبعد أن تكون قد تفسخت فى التراب تفسخاً تاماً فاذا صارت العظام بمضى الزمن الى صفرة كصفرة الشمع كان ذلك دليلاً قاطعاً على أن الرب قد مجد المتوفى أما اذا أصبحت العظام سوداء استدل من ذلك على أن الرب قد حكم على المتوفى بأنه لا يستحق ذلك الشرف ، ذلكم هو الأساس الذى يُبنى عليه الرأى فى مونت آتوس وهو مكان مقدس جداً حافظت فيه الأورثوذكسية فى كل الأزمان على صفائها ونقاها » . بذلك ختم الأب جوزيف كلامه ولكن أقوال هذا الراهب المتواضع لم تحدث أى صدى ولم تزد على أن أثارت فى أكثر تقدير ملاحظات ساخرة فقال بعض الرهبان : « تلك بدع العلماء لا نريد أن نسمعها » . وأضاف آخرون : « سوف تبقى أوفياء للتقاليد أمناء عليها والبدع كثيرة فى زماننا هذه أفينبغى لنا أن نقلدها جميعاً » . وقالت طائفة ثالثة فى استهزاء : لا يقل ما كان عندنا من قديسين عما كان عند رهبان مونت آتوس وقد نسى هؤلاء كل شئ ابان الحكم التركى وفسدت الأورثوذكسية عندهم منذ زمن طويل . يضاف الى ذلك أنهم

لا يملكون حتى نواقيس » • انصرف الأب جوزيف حزينا • ثم انه لم يعبر عن رأيه بكثير من الجزم والقطع بل عبر عنه مترددا كأنه ليس مقتنعا به كل الاقتناع هو نفسه • وما كان أشد اضطرابه اذ ثبت له أن ربيع عداوة قد هبت على الرهبان وأن روح التمرد على نظام المشايخ قد عاد الى الظهور • وصمتت جميع الاصوات الرزينة المعتدلة شيئا بعد شيء على أثر هزيمة الأب جوزيف حتى لقد حدث أن أولئك الذين كانوا قد أحبوا زوسيمًا وكانوا قد خضعوا لنظام المشايخ بحماسة شديدة ، ذعروا على حين فجأة وأصبحوا لا يكادون يجروئون حين يلتقون على أن يتبادلوا نظرة خجلى • أما خصوم هذا النظام الذين يصفونه بأنه بدعة مفسدة فقد شعروا بانتصار وراحوا يختالون تباها بها هم يقولون فرحين فرحاً خبيثاً : « عند موت الأب فارسونوف لم تلاحظ علائم تفسخ بل كانت جثته تنشر روائح عطرة • على أنه لم يستحق نعم الرب بصفته شيخاً وانما استحقها بفضل طهارة حياته لأنه كان رجلاً صالحاً » • وانطلقت الألسن من عقالها فهي لا تتردد الآن عن انتقاد الشيخ المتوفى بل وعن اتهامه فهؤلاء بعض الرهبان الأغنياء يقولون : « كانت تعاليمه خطأ • كان يزعم أن الحياة فرح عظيم لا مصدر حزن وينبوع دموع » • وهؤلاء رهبان آخرون يقولون بمزيد من الغباء : « كان رجلاً عصرياً • كان لا يؤمن بنار جهنم » وهؤلاء حساد يقولون : « لم يكن يتقيد بالصيام تقيداً شديداً • كان يسمح لنفسه بأكل الحلوى وكان يتناول مع الشاي مربب الكرز • كان يتلذذ بذلك • كثيراً ما كانت سيدات ترسل اليه حلوى ومربياً • أيلق بناسك أن يشرب شاياً ؟ وهؤلاء أسوأ الرهبان قصداً يقولون حائقين : « كان متكبراً • كان يظن نفسه قديساً • كان الناس يجثون أمامه وكان هو يقبل آيات الاحترام هذه ويعدها واجبا له على الآخرين » • وهؤلاء ألد أعداء نظام المشايخ يضيفون بصوت خافت ولهجة

شرسة : كان يمتحن حرمة سر الاعتراف» • ان أكثر هؤلاء الأعداء الألداء
لنظام المشايخ هم بين الرهبان أكبرهم سناً وأشدهم تقشفاً وأعظمهم تقيداً
بكفارات الصيام والصمت • كانوا أثناء حياة الشيخ قد انتهوا الى الازعان
والرضوخ ولكنهم يطلقون الآن لأحقادهم أعتها وذلك يبر القلق كثيراً
لأن لآراءهم تأثيراً قوياً فى الرهبان الشبان الذين ظلت أفكارهم فى هذا
المجال رجراجة • كان راهب أوبدورسك ، الراهب الصغير الوافد من
سان سيلفستر ، يصيح بسمعته الى هذه الأقوال كلها منتبهاً انتباهاً سيديداً
متنهدا تنهداً عميقاً ، هازأً رأسه ، قائلاً لنفسه : « يبدو أن الأب تيرابونت
كان على حق أمس » • وهذا هو الأب تيرابونت يظهر هو نفسه على حين
فجأة كأنما يكمل اضطراب النفوس وبلبله الأفكار •

سبق أن قلت انه كان لا يترك الا نادراً حجراته الخشبية الواقعة
قرب خليه النحل وانه كان يغيب عن الكنيسة فترات طويلة • ولكن
سكان الدير كانوا ينضون البصر عن اخلاله هذا بالنظام ، بحجة أنه
إنسان ساذج برىء والحق أنهم كانوا يعدون أنفسهم مضطرين أخلاقياً
ان صبح التعبير الى غض الطرف عن شذوذ سلوكه فانه ليكاد يبدو غير
لائق أن يطالب ناسك كبير مثله يلزم نفسه بالصيام والصمت مدداً طويلة
ذلك الطول كله ويقضى أياماً كامله وليالى طويلة فى الصلاة والتهجد
(لقد كان يتفق له أن ينام على ركبتيه) ، أن يطالب بالخضوع للطقوس
العامة والشعائر المتبعة اذا هو أراد أن يتحلل منها فلو أراد أحد أن
يزعجه لقال الرهبان : « انه أقدم منا جميعاً وهو يفرض على نفسه
كفارات أقوى كثيراً مما نلزم به أنفسنا من فرائض فاذا لم يأت الى
الكنيسة فلا شك أن هنالك أسباباً تدفعه الى ذلك • ان له فرائضه الخاصة
التي يوجبها على نفسه • لذلك كان يُترك هذا المعتزل العجوز وشأنه تحاشياً
لاحتجاجات الرهبان ودمدماتهم وكان معروفا لدى الناس أن الأب

تيرابونت يكره الشيخ زوسيماء • ولم تلبث الشائعة التي تقول : « ان حكم الله لا يؤيد حكم البشر دائما وانه قد سبق الطبعه في تفسخ جنمان الشيخ » ، لم تلبث هذه الشائعة أن وصلت الى حجرة النائية المنزلة وأغلب الظن أن راهب أوبدورسك الذي زاره البارحه وخرج من عنده مذعورا كان من أوائل الذين نقلوا اليه النبأ • وقد ذكرت أيضا أن الأدب بائيسى الذى ظل يتابع قراءة الانجيل أمام التابوت ثابت الجنان بغير اضطراب والذى كان لا يمكن أن يرى وأن يسمع من مكانه هذا ماكان يجرى خارج الغرفة ، قد حزر مع ذلك فى قرارة نفسه الشيء الأساسى مما كان يجرى خارج الغرفة لأنه يعرف الروح المسيطرة على بيئته حق معرفتها • لم يدع الأب بائيسى لنفسه أن يضطرب وانتظر ما سيحدث دون أن يرتاع متنبئاً بعواقب هذه الحركة بما أوتى من بصيرة نافذة وفكر سديد غير أن ضجه خارقة آتية من الممر قد شدت انتباهه على حين فجأة ، وهى ضجة لا يخفى فى هذه المرة أنها تنافى اللياقة • انفتح الباب على مصراعيه وظهر الأب تيرابونت فى العتبة • ان عددا كبيرا من الرهبان بينهم بعض العلمانيين كانوا يسرون وراء الأب تيرابونت ولكنهم آثروا أن يتوقفوا فى أسفل درجات المدخل فهم يرون من الغرفة • لقد قرروا أن لا يدخلوا الغرفة وفضلوا أن يشهدوا من بعد ما سيقوله الأب تيرابونت وما سيفعله • ذلك أنهم كانوا يتنبأون بأن الأب تيرابونت لم يجيء عبثاً وانهم ليشعرون بشيء من الارتياح رغم جرأتهم وجسارتهم • توقف الأب تيرابونت فى العتبة ورفع ذراعيه فرئت عندئذ العينان الحادتان المستطعتان عينا راهب أوبدورسك الصغير الذى لم يستطع مقاومة الاغراء وجازف وحده فاجتاز درجات المدخل وراء الاب تيرابونت ليرى ما سيحدث من كتب ولا كذلك الآخرون فقد تراجعوا قليلا وهم يشعرون بخوف مفاجئ • حين انفتح الباب مقرعاً صرخ الأب تيرابونت بقوة وهو رافع ذراعا قائلاً :

— اخرجوا من هنا يا شياطين •

وأُسرع يرسم اشارات الصليب كبيرةً وهو يتجه الى جدران الغرفة الأربعة جداراً بعد جدار • ورسم اشارة الصليب كذلك أمام كل زاوية من زوايا الغرفة وسرعان ما أدرك جميع الذين تبعوا الأب تيرابونت دلالة هذه الحركة فلقد كانوا يعرفون أنه يفعل هذا دائماً في أى مكان يذهب اليه ولا يرضى أن يقسول كلمة أو أن يجلس فى قاعة قبل أن يطرد الشيطان وكان يردد كلما رسم اشارة الصليب :

— ابتعد أيها الشيطان ! أخرج من هنا ! غوروا أيها الأبالسة لأتني
أطردكم •

هكذا كان يزأر الشيخ تيرابونت •

وكان يرتدى ثوباً خشناً يزنره حبل وكان صدره الأشيب الشعر يظهر من شق قميصه المصنوع من الخيش أما قدماء فكانتا حافتيين تماماً واذا حرك ذراعيه سُمع صليل السلاسل الحديدية الثقيلة التى كان يحملها على جسمه • توقف الأب بائيسى عن القراءة وتقدم نحو الأب تيرابونت هادئاً على وضع انتظار وسأله أخيراً وهو يلقي عليه نظرة قاسية :

— ماذا جئت تصنع هنا أيها الأب المحترم ؟ لماذا تشوش النظام ؟ فيم
بث الفوضى فى الرعية المسكينة ؟

صرخ الأب تيرابونت يقول منقلب السحنة :

— لماذا جئت ؟ تريد أن تعرف لماذا جئت ؟ فماذا تظن اذن ؟ لقد جئت
لأطرد ضيوفكم ، لأطرد الشياطين النجسة ! أردت أن أرى هل استضفتم
شياطين كثيرة فى غيابة • سأطردهم جميعاً بالسياط •

أجابه الأب بائيسى هادئاً دون انفعال :

— تحسب أنك تطرد الشيطان مع أنك ربما كنت تخدمه ! من ذا الذى يستطيع أن يقول عن نفسه انه فديس ؟ أتراك أنت أيها الأب المحترم ؟
قال الأب تيرابونت مرعداً :

— أنا لست بفديس قط ! أنا رجل دنس ! ولكننى أنا لا أستريح على مقاعد وثيرة ولا أحاول أن أحمل الناس على عبادتى كاله • ان الناس فى أيامنا هذه يستهزئون بالدين المقدس ويجهدون • ان صاحبكم المتوفى ، هذا القديس (كذلك أضاف يقول ملتفتاً نحو الرهبان المحتشدين عند المدخل مشيراً باصبعه الى تابوت الشيخ) كان لا يؤمن بوجود الشياطين لقد كان يصف لمن مستهم الشياطين أدوية تنظف الأمعاء فهل عجب بعد هذا أن تتكاثر الشياطين عندكم تكاثر العنكبوت فى زوايا الجدران ؟ أما قديسك فانه يتفسخ الآن وتلك فى نظرنا اشارة من السماء •

والحق أن فى حياة الأب زوسيم حادثة من هذا النوع فان راهباً من الرهبان قد رأى الشيطان فى منامه عدة مرات ثم أخذت هذه الرؤى تحاصره فى اليقظة أيضاً ففاتح الشيخ بذلك فنصحه الشيخ بأن يكثر من الصلاة والصيام • فلما لم تنفعه هذه الوسيلة وصف له دواءً ونصحه فى الوقت نفسه بأن لا ينقطع عن الاكثار من التعب • وقد شده من هذا عدد كبير من الرهبان وأخذوا يتحدثون فيه هازين رؤوسهم استياءً وامتنكاراً • وكان الأب تيرابونت أشدهم ثورة حين أسرع الوشاة يبلغونه بما فعله الشيخ من أمر يعد « خارقاً » فى حالة من هذا النوع •

قال الشيخ بائسى بلهجة صارمة :

— ابتعد أيها الأب ! ان الحكم لله لا للبشر وان « الاشارة الآتية الينا من السماء » يمكن أن يكون لها معنى يفوق عقلنا فلا تستطيع أنت ولا أستطيع أنا ولا يستطيع أحد هنا أن يجازف فيؤولها • ابتعد أيها الأب وكفاك تشويشاً للرعية !

كذلك ردد الأب بائيسى ملحاً •

واستأنف الراهب المندفع يقول وكأنه فقد كل سيطرة له على

نفسه :

— كان لا يعتقد بفرائض الصيام كما يليق براهب من رتبته • ذلك هو معنى الإشارة السماوية ، هذا واضح وضوح النهار ومن الائم أن نحاول انكاره • كان يتنعم بالحلوى التى كانت تمتلىء بها جيوب السيدات اللواتى يزرنه • كان يملأ بطنه بالشاي ويحشوه بالعصائد • أما روحه فقد كانت تفيض كبرياءً وزهوا • ذلك هو السبب فى أن الرب قد أرسل اليه هذا العار •

أجاب الأب بائيسى رافعاً صوته هو أيضا :

— أقوالك طائشة يا أب ! اننى لأعجب بقسوة صيامك وشدة تقاك ولكنك ترسل الكلام جزافا بغير روية كشاب علمانى يعوزه النضج والتأمل والتدبر •

وختم الأب بائيسى كلامه قائلا بصوت مجلجل :

— اخرج من هنا •

قال الأب تيرابونت مرنكباً بعض الارتباك ولكن دون أن يهدأ

غضبه :

— سأضئ ! طيب ... أنتم رجال علماء • أنتم بكبرياء عقلكم المسعورة ترتفعون فوق بساطتى • لقد جئت الى الدير أمياً • والقليل الذى كنت أعرفه فى الماضى نسيته منذ ذلك الحين • لقد شامت رحمة الرب نفسه أن تصوننى أنا الضعيف من دنس عقلكم ...

ظل الأب بائيسى هادئاً ينتظر التمه بصلاية وثبات •

صمت الأب تيرابونت لحظة ثم اذا بوجهه يظلم على حين فجأة و ذا به يحمل يده اليمنى الى خده ويقول بصوت ضعيف وهو ينظر الى تابوت الشيخ :

- غداً ينشدون له النشيد العظيم « ربنا هب لنا من لدنك عوناً واحمنا » أما حين سأفطس أنا فسيكتفون بتلاوة آيات بسيطة قائلين كانت حياته هادئة وادعة * *

كذلك قال بصوت تخالطه الدموع وتستثير الشفقة • ثم صرخ يقول كمن جن جنونه :

- ضيقتكم الكبرياء والثقة ! ما هذا المكان الا عدم ! واستدار على عقبه فجأة وهو يحرك ذراعيه وهول يهبط درجات السلم الصغير • ظهر التردد على الجمهور الذى كان ينتظره نحت ثم تبعه بعضهم فوراً وتوقف آخرون اذ رأوا أن باب الغرفة قد ظل مفتوحاً وأن الأب بائسى الذى شيع الأب تيرابونت الى درجات المدخل كان يلاحظهم صامتاً ولكن العجز المندفع المتحمس لم يكن قد أفرغ كل ما فى جعبته فيها هو ذا يتوقف بعد أن سار عشرين خطوة ويلتفت نحو الشمس الغاربة رامياً ذراعيه فى الهواء ثم يتهاوى على الأرض كأن قوة خفية قد حصده :

- انتصر ربى ! تغلب المسيح عند غياب الشمس • كذلك زأر يقول بصوت مسعور وهو يمد ذراعيه نحو الكوكب • ثم جعل وجهه الى الأرض وأخذ يبكى بكاء طفل مهتز الجسم محرّكاً ذراعيه كأنما ليعانق الأرض • هرع الجميع اليه وسمع صراخ وسمع بكاء عطف فكان حماه قد انتقلت الى الجمهور • وهتفوا يقولون من كل جهة من الجهات بغير تحفظ ولا اعتدال :

– هذا هو القديس الحق • هذا هو الصالح الحق •

وأضاف آخرون يقولون بغضب شديد :

– اليه انما يجب أن تسند المشيخة •

فبادرت أصوات أخرى تقول على الفور :

– لن يقبل أن يصبح شيخا • سيرفض هو نفسه • لن يرضى أن

ينضم الى هذه البدعة اللعينة • ما هو بمن سيقلد هذا الجنون •

لا يدري أحد بماذا كان يمكن أن ينتهى هذا كله لو أن الناقوس لم تدوّ أصواته فى تلك اللحظة منادية الرهبان الى القداس • رسم الجميع اشارة الصليب ونهض الأب تيرابونت ورسم اشارة الصليب كبيرة عريضة ليحمى نفسه من الشر الخفى واتجه نحو غرفته دون أن يلتفت وهو يطلق صرخات مضطربة لا اتساق فيها • تبعته قلة قليلة من الرهبان ولكن أكثر الرهبان تفرقوا مسرعين الى العبادة • وعهد الأب بائيسى الى الأب جوزيف باتمام القراءة وابعد هو أيضاً • ان الصرخات المحمومة التى أطلقتها المتعصبون لم تستطع أن تهزه كثيرا ومع ذلك شعر بحزن خاص يغزو قلبه فجأة فدهش من هذا ووقف يتساءل : « ما مصدر هذا الغناء الذى يرهقنى » • فما كان أشدّ استغرابه حين أدرك فوراً أن مسبب ذلك انما هو حادث يبدو فى الظاهر تافهاً لا قيمة له : فبين صفوف الجمهور الذى كان يضطرب منذ هنيهة عند مدخل الغرفة لاحظ الأب بائيسى وجود أليوشا الذى كان يبدو مضطربا اضطرابا شديدا منفعلا انفعالا قويا (انه بتذكر هذا الآن) فشعر من ذلك بما يشبه ألماً يطعن قلبه • تساءل الأب بائيسى مدهوشا دهشة قوية : « هل يمكن حقا أن يكون هذا الشاب قد احتل كل هذا المكان فى نفسى ؟ » • وفيما هو يتساءل هذا التساؤل مر أليوشا غير بعيد عنه • كان يغذ الخطي ولكنه لم يكن متجهاً نحو الكنيسة •

التقت نظراتهما فسرعان ما أشاح أليوشا عينيه وخفضهما نحو الأرض
وأدرك الراهب العجوز من النظر الى هيئة الفتى وحدها ما كان يجرى
فى نفسه من تبدل •

هتف الأب بائيسى يسأله :

- أتراك تركت لنفسك أن تهتز وتضطرب أنت أيضا ؟

ثم أضاف يقول بمرارة :

- أتراك انضممت الى صف الذين يشكون ؟

توقف أليوشا وألقى على الأب بائيسى نظرة مترددة ثم أشاح عينيه
وأطرق الى الأرض من جديد • لقد وقف موارباً ليتحاشى نظرة محدثه
وجهاً لوجه • وكان الأب بائيسى يرقبه بانتباه •

قال الأب بائيسى :

- الى أين أنت ذاهب ؟ هذه ساعة القداى •

ولكن أليوشا ظل لا يجيب • وتابع الأب بائيسى أسئلته :

- أملكك ترك الدير ؟ أبدون أن تنبئنا ! أبدون أن تتلقى المباركة ؟

فاذا بأليوشا يطلق على حين فجأة ضحكة صغيرة مصنوعة ،

ويشخص بصره الى الراهب الذى كان يسأله • ان هناك شيئاً غريباً بل
غريباً جداً فى النظرة التى ألقاها فى تلك اللحظة على الرجل الذى عهد
به اليه أثناء موته مرشدُه الروحى المتوفى ، معلم قلبه وفكره ، شيخه
المحجوب • ها هو ذا يحرك يده فجأة ، دون أن يجيب ، بإشارة تنم عن أنه
أصبح لا يهتم أن يرعاه أحد • ثم اتجه نحو مخرج المنسك بخطى
سريعة •

دمدم الأب بائيسى يقول بصوت خافت وهو يتابعه بنظره مدهوشاً

دهشة أليمة :

- ستعود •

وقية هذه الدقية



فى أن الأب بائسى لم يخطئ حين قدر أن « ابنه العزيز » سيعود ؟ حتى لقد فهم فيما يبدو (لا فهماً كاملاً والحق يقال ، لكنه فهم فيه كثير من نفاذ البصيرة) الحالة النفسية التى كان عليها أليوشا . ولكن يجب على أن أعترف مع ذلك بأننى لو أردت أن أشرح على وجه الدقة معنى تلك الدقية الغريبة المبهمة من الحياة الداخلية التى عاشها بطل الذى أحبه كثيراً والذى ما يزال فى ريعان الشباب ، لكان ذلك صعباً على كل الصعوبة . اننى أستطيع طبعاً أن أجيب عن ذلك السؤال المريب الذى ألقاه عليه الأب بائسى « أترأى أصبحت فى صف من يشكون ؟ » أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال واثقاً : « لا ، انه لم يكن يشك ! » . وأكثر من ذلك أن اضطرابه كان يعبر عن نقيض هذا تماماً : لئن شعر بقلق فذلك لأن إيمانه كان كبيراً . لقد قلق أليوشا قلقاً شديداً ، وبلغ قلقه من الايلام أنه ظل بعد سنين طويلة يعد ذلك اليوم المشئوم أزخر أيام حياته بالألم والحزن . ولو سئلت : « هل يمكن حقاً أن يشعر بكل ذلك الحزن والقلق لا لشيء الا لأن جثمان شيخه قد فسد قبل الأوان بدلا من أن يحقق معجزات شفاء ؟ » ، لأجبت بغير تردد : « نعم ، ذلك بعينه هو سبب حزنه » . ولكننى أرجو القارىء مع ذلك أن لا يتسرع

كثيرا فيستهزىء بصفاء قلب بطلى • لست أميل من جهتي الى أن ألتبس له سماحة القارىء ، أو أن أنتحل لايمانه الساذج عذرا من شبابه أو نقص دراسته أو فله ما حصل من تقدم فى العلوم فى المدرسه ، بل أف الموفق المضاد بنير تردد فأقول : اننى أشعر نحو بساطته باحترام كبير . صحيح أن شبابه غيره ، شبابه أكثر تعفلا وأشد حذرا فى اندفاعات روحهم ، شبابه يحبون حبا حارا ولا شك ، غير أنهم يحبون بغير هوى شديد ، شبابه يحسنون التحكم بحركات فلبهم فى ذكاء واثق مستقيم لكنه مع ذلك مسرف فى التعقل اذا قيس بأعمارهم (وهو تبعا لذلك ضئيل القيمة) ، واضح أن شبابه كهؤلاء كان يمكن أن يتقوا الاضطراب الذى وقع فيه بطلى • ولكن لأن ينساق المرء أحيانا مع اندفاع فد يكون طائشا ولكنه مستلهم من حب كبير ، فذلك فى رأى أبلى وأكرم من أن يكون عاجزا عن الشعور بمثل هذه العواطف • وهذا يصدق خاصة على الشباب ، لأن الشباب الذى يفرط فى التروى لا يوحى بثقة عميقة وليس له قيمة كبيرة • ذلك رأى أنا على الأقل • رب أناس رصينين يعترضون قائلين : « فالى أين نصير اذا آمن جميع الشباب بمثل هذه الآراء ؟ ليس صاحبك أليوشا بمن تضرب به مثلاً أو تقدمه قدوة » • وانى لأجيب هؤلاء قائلا : « لقد كان أليوشا يؤمن بحرارة وحماسة ، كان يؤمن ايمانا مقدسا لا يتزعزع ، ولكن ليس يخطر بباله أن ألتبس له بسبب ذلك أعذارا • • • »

ومع ذلك • • • مهما أؤكد (وربما كنت فى هذا التأكيد مفرطاً فى التسرع) اننى لن أحاول أن أسوِّغ سلوك بطلى أو أن ألتبس له الأعذار ، فاننى أرانى مضطرا ، رغم كل شيء ، الى أن أقدم بعض الايضاحات تسهيلاً لفهم قصتى • اليكم ما أريد أن أقوله : ليس غياب المعجزة هو ما أسلم أليوشا للاضطراب • ان أليوشا لم ينتظر ، نافذ

الصبر ، ظهورَ ظاهرة فوق الطبيعة ، عن خفة وطيش . انه لم يكن فى حاجة الى ذلك لتبوت صدق اعتقاده ثبوتاً مطلقاً (لا هذا على كل حال) ، ولا ليتاح لفكرة قائمة فى ذهنه أن تنتصر بمزيد من السهولة على رأى يعارضها . أبداً ! ان ما كان يعنيه فى هذا الأمر قبل كل شئ آخر ، بل ودون كل شئ آخر ، انما هو مصير انسان ، مصير هذا الانسان وحده ، أعنى شخص الشيخ الذى كان أليوشا يحبه ، شخص الرجل الصالح الذى كان أليوشا يعجب به ويبجله . ان ما فى قلبه الفتى من قدرة على الحب ، وان ما كان يشعر به نحو « جميع الأشياء وجميع الناس » من مودة وعاطفة وحنان ، قد تركز فى تلك الفترة ، أعنى أثناء تلك السنة ، على انسان واحد هو شيخه الحبيب الذى مات الآن ولكنه كان قد أصبح - ربما بشئ من الافراط - القطب الوحيد الذى يجتذب أعرق عواطفه . صحيح أن هذا الشيخ ظل يجسّد فى نظره أرفع مثل أعلى انساني ، خلال مدة بلغت من الطول أن قوى طبيعته الشابّة وأشواق نفسه كان لابد أن تتجه الى الشيخ وحده حتى لتتسبب فى بعض الأحيان « جميع الأشياء وجميع الناس » (سوف يتذكر فيما بعد أنه فى ذلك اليوم الحزين قد نسي سيبانا تاما أخاه دمترى الذى كان يرغب أمس فى رؤيته ، رغبة حارة قوية ؛ كما أن القرار الذى اتخذه أمس والذى يحرص عليه أشد الحرص ، وهو أن يرد المائتى روبل الى والد ايليوشا ، قد غاب عن ذهنه تماماً) . ولكننى أعود فأقول مرة أخرى : ليست المعجزات هى ما كان أليوشا فى حاجة اليه ، وانما كان أليوشا فى حاجة الى « عدالة عليا » ، وهذه العدالة العليا قد أوديت فى نظره اينذاءً شديداً . فهذا لا غيره هو ما كان يؤلم قلب أليوشا ايلاما قاسيا . لقد كان هذا طعنة موجعة رهية . ليس بالأمر المهم أن تكون هذه « العدالة » قد ترجعت فى ذهنه ، بتأثير البيئة الطبيعى ، توقّعاً لمعجزة لا بد أن تتحقق قرب

جنمان القائد الروحي الذي كان يبكيه • ألم تكن هذه المعجزة هي ما يأمله جميع الناس في الدير ، وفي طليعتهم أولئك الذين كان أليوشا يعترف بتفوقهم العقلي عليه ، كالأب بائيسى مثلاً ؟ لذلك لم يتردد أليوشا في أن يعبر عن أمله على نحو ما كانوا يعبرون ، دون أن تشوشه شكوك أو تأملات • وقد نضج هذا التوقع في نفسه خلال سنة كاملة عاشها في الدير حتى أصبحت طبيعية كعادة • ولكن ظمأه كان الى عدالة لا الى معجزات ! وهذا هو الانسان الذي كان في عاطفة أليوشا فوق جميع البشر في العالم بأسره يتجلل بالعار فجأة ويسقط في الخزي بدلاً من أن ينال المجد الذي يستحقه ! لماذا ؟ من هو القاضي الذي اتخذ هذا القرار وأصدر هذا الحكم ؟ من الذي يمكن أن يكون قد اتخذ هذا القرار حقاً ؟ تلكم هي الأسئلة التي داهمت نفسه البريئة التي تعوزها الخبرة والتجربة وأخذت تسومها سوء العذاب • كان لا يطيق ، دون أن يشعر بالمدلة ودون أن يعصف به الغضب ، أن يرى أصلح الصالحين فريسة استهزاء شرير وتهكم خبيث يصبه عليه جمهور طائش هو دونه كثيراً • كان يمكن أن يقبل أن لا تحدث أية معجزة وأن لا يقع أى شيء خارق للطبيعة ، تلبية لما يتوقعه جميع الناس • ولكن لماذا يجلل الشيخ بالخزي والعار ، لماذا هذا التفسخ الذي يحدث قبل الأوان ، و « يسبق الطبيعة » كما كان يقول الرهبان الأشرار ؟ هل كان ضرورياً أن تُهيا لهؤلاء الأشرار فرصة أن يروا في هذا التفسخ « إشارة » يسارعون الآن الى تأويلها كما يحبون ويشتهون وراء الأب تيرابونت ؟ ومن ذا الذي خولهم الحق في أن يعمدوا الى استدلالات من هذا النوع ؟ أين العناية الالهية في هذا كله وأين يد الله ؟ لماذا امتنع الرب عن التدخل في اللحظة التي كان فيها تدخله ألزم ما يكون وأوجب ما يكون (في رأى أليوشا)

حتى لكأنه استسلم هو نفسه أمام قوى الطبيعة المادية العمياء التي لا ترحم ؟

ذلكم ما كان ينزف منه قلب أليوشا • كان فى تلك الساعة ، كما سبق أن قلت ، لا يفكر الا فى ذلك الانسان الذى هو أحب انسان الى قلبه فى العالم ، وهذا الانسان هو من جُلِّل بالخزى والعار الآن ، وغُصَّت قيمته وأُنزل الى الدرك الأسفل • اننى أسلم بأن هذا الفتى قد برهن ، حين كان يدمدم هذه الدمدمه ، على أنه طائش العقل مخطئ • الرأى ، ولكننى أعود فأقول مرة ثالثة (ولتتهمونى بخفة العقل أيضا اذا شئتم) : اننى ليسعدنى أن أليوشا قد أعوزه القصد والاعتدال فى تلك الساعة من حياته ، لأن العقل يستيقظ دائماً فى وقت مبكر لدى الانسان الذى لم يُحرم من الذكاء ، فاذا لم يتغلب عليه الحب فى مثل هذه اللحظة فى قلب فتىٍ مراهق ، فمتى عساه ينتصر فى هذا العالم ؟ على أننى لا أستطيع أن أصمت عن عاطفة أخرى غامضة مضطربة قد مست نفس أليوشا مساً عابراً فى تلك الدقيقة القلقة الأليمة من حياته • ولعل كلمة « عاطفة » ليست هى الكلمة المناسبة • هو « شئ » كان يندبه ، هو شعور شاق مرتبط بذكرى الحديث الذى قام أمس بينه وبين ايفان والذى يعاود فكره فى هذه اللحظة الحرجة بالحاح محاصر • لست أعنى قط أن عناصر ايمانه الأساسية ، الفطرية ان صح التعبير ، قد أصابها أى تزعزع • • • لا • • • انه يحب الهه الآن كما كان يحبه من قبل ، وانه ما يزال يؤمن بالله وان كان يدمدم متذمراً فى بعض اللحظات • ولكن ذلك الاحساس المقلق السيء الذى شعر به بعد ذلك الحديث رأساً قد استيقظ الآن فى نفسه من جديد ، وأخذ يحاول الخروج الى سطح شعوره بقوة ما تنفك تتزايد •

هبط المساء أثناء ذلك ، وخيم الظلام • وهذا راكيتين الذى كان

يجتاز غابة الصنوبر ليذهب من الصومعة الى الدير يلتمح أليوشا على
فجأة ، مستلقيا تحت شجرة ، جاعلاً وجهه الى الأرض ، ساكناً لا .
فكانه نائم . اقترب راكيتين منه وناداه :

– أهذا أنت يا ألكسى ؟ أيمكن حقاً أن ...

كذلك قال راكيتين مدهوشاً ؛ ولكنه أمسك فجأة عن الكلام
أن يتم جملة .

كان يريد أن يقول : « أيمكن حقاً أن تصير من ذلك الى
الحال ؟ » .

لم يرفع أليوشا عينيه نحو راكيتين ، ولكن راكيتين أدرك من
يسيرة تحركها جسم أليوشا ، أن أليوشا قد سمعه . استأنف و
يقول وقد أخذت الدهشة التي يعبر عنها وجهه تستحيل شيئاً فشيئاً
ابتسامة ساخرة :

– ماذا بك ؟ ماذا دهالك ؟ اسمع يا أليوشا ! اننى أبحث عند
ساعتين فى كل مكان . لقد اختفيت من هناك بغتة . فماذا تصنع
أهـى سخافة جديدة ؟ أنظر الى على الأقل ...

رفع أليوشا رأسه ، وجلس مسنداً ظهره الى الشجرة . لم
يبكى ، ولكن الألم كان يُقرأ فى قسَمات وجهه ، وكان فى عينيه
على أنه لم يكن ينظر الى راكيتين وإنما هو يحدّق الى شيء فى -
قال راكيتين :

– هل تعلم أن وجهك قد تغير تماماً ؟ لم يبق فيه أثر من
الودعة التي كنت توصف بها ؟ أتراك غاضباً من أحد ؟ هل أساء
أحد ؟

قال أليوشا دون أن ينظر إليه أيضا ، قال وهو يحرك يده بإشارة
تعبير عن التملعل والتبرم :

— انصرف !

قال راكيتين :

— أوه ! أوه ! أهكذا أصبحنا الآن اذن ؟ نغضب ونصرخ كسائر
الناس ! عجيب ! من ذا الذى يمكن أن يعصدف صدور هذا عن مثل هذا
الملاك ؟ طيب يا أليوشا ... فى وسعك أن تعتر بأنك أدهشتنى ...
أقول لك هذ صادفا كل الصدق • لقد أصبحت منذ زمن طويل
لا أدهش من شىء هنا • على أننى كنت أظنك انسانا متقفا ...

أخيرا رفع أليوشا اليه عينيه ، غير أن فى هيئته الآن ذهولا فكأنه لم
يفهم جيدا ما قاله صاحبه • وعاد راكيتين يهتف قائلا وقد استبدت به
دهشة شديدة من جديد :

— أكلت هذا لأن صاحبك المعجوز قد مات ؟ أكنت تظن حقاً اذن
أنه كان سيحقق معجزات ؟

فصرخ أليوشا يقول بعسوت حائق :

— كنت أظن ، وما زلت أظن ، وأريد أن أظن ، وسأظل أظن !
... أبكفيك هذا الآن ؟

— ولكننى لا أريد نيشا يا عزيزى ! عجيب ! ان صيياً فى الثالثة
عشرة من عمره لا يؤمن بهذه الأمور فى أيامنا هذه • لك ما تشاء على
كل حال ... هأت ذا اذن غاضب من الله ، نائر عليه ثورة معلنة !
كموظف مستاء من أنه نسى عند ترفيع ، أو حرم من وسام فى احتفال !
هذا أنتم ! ...

تفرس أليوشا فى راكيتين طويلاً ، وهو مغمض عينيه نصف
اغماض ، وومض فى عينيه برق ... غير أن هذا ليس الآن حقاً وغيظاً
من راكيتين . ثم قال وهو يحمل نفسه على الابتسام :
- لست نائراً على الهى ، ولكننى « أرفض قبول الخليفة » . ذلك
كل شىء .

فكر راكيتين لحظة فى هذا الجواب ثم سأله :
- ترفض ؟ ماذا تعنى ؟ ما هذا الكلام المضحك أيضاً !
لم يجب أليوشا . فال راكيتين :
- كفانا كلاماً فى ترهات . لنفكر فى الأمور الهامة : هل أكلت
اليوم ؟

- لا أنذكر ... يبدو أننى أكلت ...
- تدل هيتك على أنك فى حاجة الى استرداد قواك . ان منظررك
يشير الشفقة عليك . قيل لى انك لم تتم طول الليل . يظهر أنكم قد عقدتم
اجتماعاً كبيراً . ثم حدث ذلك الهرج كله ، وقامت تلك الاحتمالات
والطقوس كلها ... ان فى جيبي بعض المقانق ، حملته احتياطاً حين
جئت الى هنا . ولكن أظن أنك لا تأكل المقانق ، أليس كذلك ؟
- هات المقانق .

- هيه هيه ... هذا أمر جديد ... هذه ثورة أصولية ، ثورة
بمتاريس ! هيم ... ما هذا بقليل أيها الأخ ، هل تعلم ؟ طيب ...
تعال معى الى بيتى ... أنا أيضاً فى حاجة الى قليل من الخمرة ...
اننى مرهق ... أنت لا تشرب خمرة ، أليس كذلك ؟ اللهم الا أن ...

— سأشرب خمرة •

قال راكيتين وهو ينظر الى صاحبه مدهوشا :

— هه ؟ ••• هذا كثير ••• المقاتق سلمنا بها ••• ولكن أخمرة
أبضا ؟ هذه أمور عظيمة حقا • يجب أن لا تفوت الفرصة • هيا بنا !

نهض أليوشا دون أن ينطق بكلمة ، وتبع راكيتين •

— لو علم أخوك ايفان بهذا لدهش هو • بالمناسبة : لقد سافر ايفان
فيدوروفتش الى موسكو هذا الصباح ، هل كنت تعرف ذلك ؟

قال أليوشا بغير اكتراث :

— أعرفه •

وانبثقت صورة دمترى فجأة فى خياله ، ولكنها لم تلبث فيه الا
لحظة قصيرة • لقد أحس احساسا غامضا بوجود أمر مستعجل لا يحمل
أى ابطاء ، هو الزام أخلافى ، هو واجب رهيب يجب أن يقوم به ، ولكن
هذه الذكرى لم تخرجه من خدره ؛ لقد اجتازت فكره دون أن تبلغ
قلبه ثم لم تلبث أن بارحته • ومع ذلك فإن هذه الواقعة التفصيلية ستعاود
ذاكرته كثيرا فيما بعد •

— لقد نعمتى أخوك المهذب اللطيف ايفان ذات مرة بقوله « تافه
لبرالى لا موهبة له » • أما أنت فقد أسمعنى فى يوم من الأيام أننى
أفتقر الى « الاستقامة » • طيب ! سنرى قريبا ما قيمة مواهبكم واستقامتكم
أنتم (أضاف راكيتين قوله هذا هامسا كأنه يخاطب نفسه) •

ثم أردف يقول بصوت عالٍ :

— لتتحاش المرور بالدبر ولتنتجه رأسا الى المدينة مجتازين المرر

الضييق ... هيم ! وسأنب لحظة الى منزل السيدة هو خلا كوكا أثناء الطريق . تصور أننى قصصت عليها تفصيلا كل ما جرى هنا ، فإذا هى تبجيني منذ قليل فى بطاقة كتبت عليها بالقلم الرصاص (هذه السيدة تعشق كتابه البطافات) : « انها ما كان لها أن تتوقع من عجوز ميجتل كالشيخ زوسىما ... أن يصدر عنه ... مثل هذا السلوك ! ... » . هذا ما كتبه بالحرف : « السلوك » ! هى أيضا حاقدة عليه شخصا بسبب ما وقع . هذا أنتم !

قال راكيتين ذلك ثم صاح فجأة يقول وقد توقف عن السير ، وامسك أليوشا من كتفه ، وحدق اليه بعينين متفرستين :
— هل تعلم يا أليوشا ؟

لقد استبدت براكيتين فى تلك اللحظة فكرة جديدة انبثقت فى ذهنه ؛ وكان واضحا رغم هيئته الضاحكة أنه ما زال لا يجرؤ أن يعبر عنها من فرط ما يصعب عليه أن يصدق ما كان عليه أليوشا من حالة نفسية هى فى نظر راكيتين خارقة غير متوقعة .

وعزم أمره أخيرا فقال بصوت متردد غير مطمئن :
— أليوشا ، عزيزى ! هل تعلم أين يجب علينا أن نذهب كلانا أولا ؟

— نذهب الى حيث تشاء . يستوى عندى كل شئ .
فقال راكيتين وهو يرتجف لهفه وخشية :
— لنذهب الى جروشنكا ! هل توافق ؟
فأجاب أليوشا هادئا بغير تردد :
— لنذهب الى جروشنكا اذا أردت !

كاد راكيتين أن يشب الى وراء من فرط ما بدت له هذه الموافقة
السريعة مستغربة • وصاح يقول مذهولاً :

— هكذا ؟ عظيم ! ...

ولكنه لم يلبث أن ثاب الى نفسه ، فأمسك أليوشا من ذراعه ،
وأسرع يحجره نحو الممر الضيق ، خشية أن يتراجع أليوشا عن قراره •
وساراً صامتين ، لأن راكيتين يتحاشى الآن أن يفتح فمه مخافة أن يكثر
ما كان عليه أليوشا من حسن الاستعداد والقبول • غير أنه لم يستطع أن
يمنع نفسه من أن يدمدم بعد لحظة قائلاً :

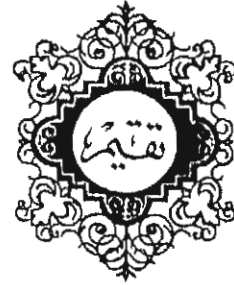
— ما أعظم ما ستشعر به جروشكا من سرور برؤيتك ! أوه !
لسوف تكون سعيدة !

ولكنه سرعان ما صمت •

على أن راكيتين لم يحاول أن يجذب أليوشا الى منزل جروشكا
ليسر جروشكا • ان راكيتين رجل جاد ، فهو لا يحاول أمراً من الأمور
دون أن يرى فيه نفعاً له • ولقد كان في تلك اللحظة يخضع لباعتين
انين • فأما الباعث الأول فهو أنه يحب أن ينتقم : انه يريد أن يشهد
« تدنس الرجل الصالح » ، انه يريد أن يرى « سقوط » أليوشا من
« القداسة الى الانم » ، وذلك أمر كان راكيتين يتلذذ به منذ الآن • وأما
الباعث الثاني فهو هدف مادي سيحقق له ربحاً كبيراً ، وسنأتى على ذكره
فيما بعد •

قال راكيتين في سره وهو يشعر بفرح خفى خبيث : « اذن لقد
جاءت دقيقة كهذه الدقيقة في حياته • ويجب أن لا نفوت هذه الدقيقة ،
لأنها تعدنا بمنافع كثيرة وفوائد جمة » •

البصيرة



جروشكا فى قلب المدينة قرب «ميدان الكنيسة»
 فى منزل المرأة موريوسوف ، وهى أرملة تاجر
 أجّرت جروشكا جناحا مبنيا من خشب فى فناء
 منزلها ؛ والمنزل من حجر ، وهو واسع له طابق
 فوق الطابق الأرضى ، لكنه متسخ ليس فى مظهره كثير من رواء وصاحبه
 المعجوز تعيش فيه وحيدة مع قريبتين لها طاعتين فى السن هما أيضا ؛
 وهى تملك من التراء ما كان يمكن أن يعفيها من تأجير جناح النساء ،
 والناس فى المدينة يعلمون جميعا أنها لم تقبل سكنى جروشكا فى منزلها
 (منذ أربع سنين) الا ارضاءً لقريبها التاجر سامسونوف الذى يميل الى
 الشابة ويرعاها ويحميها . والناس فى المدينة يؤكدون أن المعجوز الغيور
 على الشابة ، انما أراد فى أول الأمر حين أسكن أثيرته فى منزل موريوسوف
 أن يجعلها تحت اشراف المعجوز اليقظة التى كلفها بأن ترافق سلوكها .
 ولكن سرعان ما ظهر أن هذا السلوك ليس فى حاجة الى أن يراقب ،
 وقد أصبحت المعجوز آخر الأمر لا تهتم بجروشكا ، ولا تراها الا نادرا ،
 ولا تزعجها بالسؤال تلو السؤال من باب البحث والتقصي والتفتيش .
 ولقد انقضت الآن أربع سنين على اليوم الذى جاء فيه التاجر المعجوز الى
 هذا المنزل بالصبيّة المخجول التى لا يزيد عمرها على ثمانية عشر عاما ،
 والتى لقيها فى مركز الاتليم وكانت عندئذ نحيلة الجسم ضعيفة البنية

كثيرة الوجوم حزينه النفس . ان مياهاً كثيرة قد جرت تحت الجسور منذ ذلك اليوم . وكان الناس فى مدينتنا لا يعرفون الا أشياء قليلة عن ماضى الفتاة ، وكان ما يرددونه من معلومات عنها تموزه الدقة ويعوزها الوضوح ، ولم تزد هذه المعلومات بعد ذلك كثيراً ، حتى فى العهد الذى أصبح فيه أمر « الحسناء الرائعة » ، أجرافين ألكسندروفنا ، يهتم عدداً كبيراً من الأشخاص عندنا . كان 'يقال ان ضابطاً مجهولاً' قد أغراها وأغواها فى السنة السابعة عشرة من عمرها ، ثم لم يلبث أن هجرها وسافر وتزوج غيرها ، فترك الصبية الشقية للعار والبؤس . وكان يزعم أيضاً أن جروشكا ، رغم أن التاجر العجوز يعيلها ، انما تنتمى الى أسرة محترمة من رجال الدين ، وانها بنت قسيس كان محالاً على الاستيداع ، أو كانت تقال أشياء من هذا القبيل . المهم ان اليتيمة الحساسة المذلة المسكينة قد استحالَت فى غضون أربع سنين الى حسناء روسيه بضه الجسم ، زاهيه الألوان ، جمّة النشاط ، جريئة جسور ، لا تخلو من وقاحه ، حاذقة فى شؤون الأعمال ، شرهة الى المال ، بخيلة حذرة فى آن واحد . وكان يقال أيضاً انها استطاعت خلال هذه المدة القصيرة أن تجمع رأس مال صغيراً ، بوسائل ليست شريفة أمينة دائماً . على أن هناك أمراً يجمع الناس عليه : هو أن جروشكا امرأة يستحيل نيلها ، فما من رجل واحد باستثناء حاميتها العجوز ، استطاع أن يتباهى بأنه حظى بها بشئ . خلال تلك السنين الأربع . والأمر محقق لا رب فيه ، ذلك أن رجالاً كثيرين قد سموا الى الخطوة بنعمها ، ولا سيما فى السنين الأخيرتين ، فلم يظفر أحد منهم بطائل ، وبات جميع محاولاتهم بالافخاخ ، حتى أن بعضهم قد اضطر الى الانسحاب وهو موضع هزء وتهكم بسبب ما تتصنف به السيدة من عزيمة صلبة وروح ساخرة . وقد عُرف أيضاً أنها أصبحت تهتم بالأعمال ، ولا سيما منذ

سنة ، وأنها تبذل فيها مقدرات كبيرة وتبرهن فيها على كفاءات عظيمة ، حتى أن كثيرا من الناس أصبحوا يصفونها بقولهم «يهودية» . ليس معنى هذا أنها كانت تقرض بالربا ، ولكن عُرِفَ مثلاً أنها كانت تشتري بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش كارامازوف سندات قديمة بعشر قيمتها ثم تتوصل بعد ذلك الى تحصيل قيمتها كاملة ، أى تتقاضى مبالغ تساوى عشرة أضعاف ما دفعت . وكان العجوز سامسونوف الذى تورمت ساقاه وأصبحنا عاجزين عن الحركة منذ عام ، رجلاً أرمل يضطهد أبناءه ويسومهم سوء العذاب ، ولكنه يملك عدة مئات من ألوف الروبلات ؛ ومع ما يتصف به من بخل وقسوة لا ترحم ، فقد وقع تحت تأثير الفتاة التى كان لا يمين عليها فى أول الأمر الا بما « يسد الرمق » أو بما يوجبه « الصيام الكبير » على حد تعبير الساخرين المستهزئين ، الى أن استطاعت جروشكا أن تتحرر ، ولا سيما بفضل ما أوجته اليه من ثقة عظيمة بوفائها له . ان هذا العجوز ، وهو رجل من كبار رجال الاعمال (ولقد توفى منذ زمن طويل) كان له طبع خاص أهم ملامحه البخل والقسوة الشديدة . فرغم ما كان لجروشكا من تأثير كبير عليه - حتى أصبح لا يستطيع الاستغناء عنها - فانه لم يترك لها مالا كثيرا ؛ ولو قد هددته جروشكا بالقطيعة لما تزحزح عن موقفه فى هذا المجال . على أنه قد أعطاها أثناء حياته مبلغا غير كبير من المال ، فلما علم الناس فى المدينة بذلك دهشوا جميعا . قال لها وهو يعطيها ثمانية آلاف روبل « أنت امرأة ذكية ، فسوف تعرفين كيف تربين هذا المبلغ باستثماره . ولكن اعلمى اننى ، عدا ما أنفقته عليك لا عالتك التى سأستمر فى تأمينها ، لن أعطيك شيئا أثناء حياتى ، ولن أوصى لك بشيء فى وصيتى بعد مماتى » . وقد تمسك الرجل بقوله : مات تاركا كل ثروته لأبنائه الذين عاملهم أثناء حياته ، هم وزوجاتهم ، معاملة الخدم . أما جروشكا فقد أبى حتى

أن يأتي على ذكرها في وصيته • هذه التفاصيل كلها قد عرفت فيما بعد • ولكن الرجل قد ساعد جروشكا في مقابل ذلك بنصائحه في استثمار رأس مالها الشخصي الصغير » ، ودلّسها مراراً على أعمال رابحة وصفقات نافعة • فلما تولّاه فيدور بافلوفتش بحب جروشكا التي عرفها بمناسبة صفقة طارئة ، ولما انتهى به الأمر على نحو لم يكن في حسبانته هو نفسه إلى الهيام بها هياماً أفقده كل عقله تقريباً ، فإن العجوز سامسونوف الذي كان مريضاً جداً وكان يشارف على نهايته ، لم يزد على أن ضحك من ذلك • أن من الأمور البارزة أن جروشكا كانت صريحة مع العجوز صراحة تامة طوال مدة العلاقة بينهما ؟ ويبدو أن العجوز كان هو الإنسان الوحيد الذي تعامله جروشكا هذه المعاملة وتصارحه هذه المصارحة • ولكن حين تولى دمترى فيدوروفتش آخر الأمر هو أيضاً بجروشكا ، انقطع حاميتها العجوز عن الضحك ؛ بل لقد اعتقد أن من واجبه أن ينبه المرأة الشابة ناصحاً محذراً ، فقال لها بلهجة جادة قاسية : « إذا كان عليك أن تختاري بين الاثنين ، الأب وابنه ، فاختاري الأب ، ولكن على شرط أن يتعهد الوغد بزواجك وأن يهب لك مبلغاً مناسباً منذ البداية • أما الكابتن ، فدعيه ، لأنه لا يناسبك • » • بهذا خاطب العجوز المحب للمذات الحياة صاحبه جروشكا بينما كان يحس بوشك نهايته ، ولقد مات فعلاً بعد ذلك بخمسة أشهر • ولندكر عابرين أن أحداً من الناس لم يكن يعرف على وجه الدقة ماذا كان موقف جروشكا من كارامازوف الأب وكارامازوف الابن ، رغم أن أشخاصاً كثيرين كانوا في ذلك الوقت على علم بالمنافسة الفظيعة بين الأب وابنه على الفوز بحظوة المرأة الشابة • أما خادمتا جروشكا فقد شهدتا في الدعوى (بعد الكارثة التي سنتحدث عنها فيما بعد) أن آجرافين ألكسندروفنا لم تكن تستقبل دمترى فيدوروفتش الا خوفاً ، لأنه كان قد « هدّد بقتلها » • أن لجروشكا خادمتين : احدهما

طباخة هرمة جدا كانت فى الماضى تخدم أسرتها وهى الآن مريضة وتكاد تكون صماء ، والثانية فتاة لطيفة فى العشرين من عمرها كانت بمنابة وصيفة لها ، وهى حفيدة الطباخة المعجوز . وكانت جروشكا تعيش حياة فقيرة فى مسكن داخله بسيط متواضع جدا . انها تشغل فى الجناح ثلاث غرفٍ أثنائها من خشب الأكاجو ، استأجرته جروشكا من مالكة المنزل أيضا ، وهو من طراز أثناء عام ١٨٢٠ .

حين وصل راكيتين وأليوشا الى مسكن جروشكا كان الظلام قد خيم ، ولكن الغرف لم تُشعل فيها الأضواء بعد . كانت جروشكا مضطجعة فى الصالون على أريكة طويلة ثقيلة لها مسند من خشب الأكاجو ، قد غُطيت بجلد صلب ، ونال منها الزمن فاهترأت وتفتت فى عدة مواضع . ان المرأة الشابة مسندة رأسها على وسادتين أخذتهما من سريرها ؛ مستلقية على ظهرها ، ساكنة ، جاعلة ذراعيها تحت شعرها ، مرتدية ثوبا من حرير أسود - كأنها تنتظر زيارة أحد - ملفعة "شمرها بقبة رائعة من تخريم ، ملقاة على كتفيها وشاحاً من تخريم أيضا قد ثبته بدبوس حلية كبيرة من ذهب . واضح أنها كانت تنتظر أحداً ، لأن وضعها كان يدل على نفاد الصبر نفاداً محموما . وكان وجهها يبدو شاحبا ، وكانت عيناها تسطمان ، وكانت شفتاها تحترقان ، بينما كان طرف قدمها يلطم ذراع الأريكة لطماً موقعا ينم عن تمللمل الانتظار . فما ان دخل أليوشا وراكيتين مسكنها حتى استولى عليها اضطراب شديد . لقد سمعاهما ، وهما فى الممشى ، ثب عن أريكتها وتقف على قدميها وتصيح بلهجة فيها ذعر وهلع :

- من هنا ؟

وها هى ذى الخادمة الشابة التى فتحت لهما الباب تهرع الى سيدتها على المور لتقول لها :

- ليس هو • هما شخصان آخران •

دمدم راكيتين يقول وهو يمسك أليوشا من ذراعيه ليقوده الى الصالون :

- ماذا دهاها ؟

كانت جروشنيكا واقفه قرب الأريكة وهي ما تزال مذعورة بعض الشيء • ن ضفيرة كثيفة من شعرها الكستناوى قد خرجت من تحت قبعتها وتهدلت على كتفها اليمنى ، ولكن جروشنيكا لم تنتبه اليها أول الأمر ولم نرفعها الا بعد أن تفرست فى القادمين وعرفتھما •

قالت جروشنيكا :

- هه ! أهذا أنت يا راكيتا ؟ لقد روّعتنى ! ومن هذا الذى جئتى به ؟ يا لها من مفاجأة !

كذلك مساحت جروشنيكا حين رأت أليوشا •

قال راكيتين وهو يصطنع هيئة منطلقة حرة ، هيئة رجل يشعر أن بينه وبين ربة المنزل من المعرفة الحميمة ما يجيز له أن يصدر الأوامر نيابة عنها :

- هلا أمرت بإشعال الشموع •

- طبعا طبعا ••• الشموع ••• الشموع ! فينيا * ، اثته بشمعة ! ••
لقد اخترت اللحظة المناسبة لتجيئنى به !

كذلك هتفت تقول جروشنيكا مرة أخرى وهي تومى برأسها الى أليوشا •

ثم التفتت نحو المرأة ، فتناولت الضفيرة المتهدلة بكلتا يديها ،

وأسرعت تبتتها على رأسها • كان يبدو عليها أنها غير راضية • قال راكيتين
مستاءة :

- لعننى جئت فى غير الألوان المناسب ؟
فقلت جروشنكا وهى تبسم لأليوشا :

- كلا ... ولكنك روّعتنى يا راكيتا ، هذا كل شيء • لا تخف
منى يا عزيزى الطيب أليوشا • ليك تعرف مدى سعادتى برؤيتك ، أنا
التي لم أكن أتوقع مجيئك • أما أنت يا راكيتا فقد روّعتنى منذ هنيهة ،
لأننى ظننت أن ميتيا هو الذى كان يريد أن يقتحم بابى • لقد خدعته فى
هذا المساء ، وأجبرته على أن يحلف لى بأنه يصدقنى ، بينما كنت أكذب
عليه • ذلك أننى زعمت له أننى سأقضى السهرة كلها عند عجوزى
كوزمتمش أساعده فى اجراء حساباته الى ساعة متأخرة من الليل • انه
يعلم أننى أذهب الى كوزما كوزمتمش مرة كل أسبوع لتنظيم دفاتره ،
نغلق علينا باب الغرفة ، فيأخذ هو باجراء عمليات الجمع مستعينا بعداد ،
وآخذ أنا بتسجيل ما يمليه على من أرقام ، لأننى الانسان الوحيد الذى
يوليه مهته • ان ميتيا يعتقد بأننى الآن عند العجوز ، على حين أننى مضطجعة
هنا فى انتظار رسالة • اننى لأتساءل لماذا سمحت لكم فىنا بالدخول •
فىنا ! فىنا ! أسرعى الى الباب الكبير ، وألقى نظرة على الخارج لتتأكدى
من أن الكابتن لا يحوم حول المنزل • جائز أن يكون قد اختبأ ليتجسس
على • اننى أخاف منه خوفا قاتلا !

- ليس هناك أحد يا أجرافين ألكسندروفنا ، فلقد درت حول المنزل
منذ لحظة ، وأنا أنظر من شق الباب من حين الى حين ، لأننى أرتعد من
الخوف أنا أيضا •

- هل خشب النوافذ مغلق يا فىنا ؟ يجب اسدال الستائر هكذا

(قالت هذا وأسدت الستائر الكثيفة بنفسها الى النصف) حتى لا يلاحظ نوراً فى النوافذ • اننى خائفة من أخيك خوفاً رهيباً فى هذا اليوم يا أليوشا •

كانت جروشنكا تتكلم بصوت عالٍ رغم قلقها وخوفها ، وكان يُلاحظ فيها شيء من حماسة •
سألها راكيتين :

- لماذا تخافين ميتيا كل هذا الخوف فى هذا المساء ؟ ما عهدتك وجللةً معه ، فانما أنت تسيّرينه بعضاً فى العادة •

- قلت لك اننى أنتظر رسالة ، رسالة ثمينة ، فما ينبغي أن يجرى ميتيا الآن • ثم انه لم يصدقنى حين زعمت له اننى ذاهبة الى كوزما كوزميش ، لقد أحسست بذلك • لا بد أنه أختبأ فى مكان ما وراء حديقة فيدور بافلوفتش ليرصدنى • هذا أفضل • فهو فى هذه الحالة لن يجرى الى هنا • أما كوزما كوزميش فقد ذهب الى فعلاً ، وقد رافقنى ميتيا حتى باب منزله ، وزعمت له أننى سأبقى هناك الى نصف الليل ، ورجوته ملحةً أن يجرى ليصحبنى فى العودة الى بيتى • عندئذ تركنى ، فمكثت عند العجوز عشر دقائق ، ثم رجعت الى البيت راكضة • أوف ! ما أشد ما كنت أخشى أن ألقاه فى الطريق !

- لأى مناسبة تزينت هذه الزينة كلها ! انها لقبعة رائعة هذه القبعة التى أرى ...

- غريب أمرك يا راكيتا ! قلت لك اننى أنتظر رسالة ، فمتى وصلت الرسالة أسرع أخرج لا يؤخرنى أن أتحدث معكم • لقد تزينت استعداداً للحظة المناسبة •

- الى أين تذهبين ؟

- تحب أن تعلم ذلك ؟ الاكثار من العلم ضرر يا عزيزى !

- ياه ! أنت فرحة جدا • ما رأيك على هذه الحال فى يوم من الأيام • لقد تجملت وتزينت كأنها ذاهبة الى حفلة رقص !
كذلك قال راكيتين وهو يفحص بنظره جروشنكا •

قالت له :

- ماذا تعرف أنت عن حفلات الرقص ؟

- وأنت ؟ هل تعرفين عنها أكثر مما أعرف ؟

- أنا ؟ شهدت حفلة رقص مرة واحدة فى حياتى • حدث ذلك منذ ثلاث سنين ، حين زوّج كوزما كوزمنش ابنه • كنت أشاهد الحفلة من أعلى الشرفة • على أننى لن ألهو بمناقشتك يا راكيتا بينما عندى ضيف نادر هذه النادرة ، ضيف هو أمير حقا ! يا أليوشا ، يا ملاكى الصغير ، اننى لا أصدق عينى ! كيف أمكن أن يجرى الى بيتى ؟ الحق اننى لم أتوقع ولا كنت أحلم أن أراك فى منزلى ! لم أصدق فى يوم من الأيام أن من الممكن أن تجيئنى ، أعترف لك بذلك ! انك لم تختار اللحظة المناسبة ، ومع ذلك فأنا سعيدة كل السعادة برؤيتك ! اجلس على هذه الأريكة •• يا عزيزى ، يا شمس مضيئة ! اننى مذهولة ••• ليتك قد خطر ببالك يا راكيتا أن تجيئنى به أمس ، أو أمس الأول ••• لا بأس على كل حال ••• أنا سعيدة رغم كل شئ ! ••• بل ربما كان مجيئه اليوم ، فى مثل هذه اللحظة ، خيراً من المجيء بالأمس •••

جلست جروشنكا على الأريكة قرب أليوشا بخفة ونشاط وحرارة ، وأخذت تنظر اليه فى نشوة ووجد • كانت تشعر حقا بسعادة لرؤيته ، ولم تكذب حين أكدت له ذلك • كانت عيناها تسطعان ، وكانت تضحك ،

ولكن بمرح فيه كثير من اللطف والكىاسة • لم يكن أليوشا يتوقع أن يرى فى وجهها مثل هذا التعبير عن الطيبة ••• انه لم يرها حتى الآن الا نادراً ، وكان رأيها فيها رأياً فظيماً • كانت ثورتها المتوحشة على كاترين ايفانوفنا بالأمس قد قلبت نفسه رأساً على عقب ، لذلك أدهشه الآن أشد الدهشه أن يرى فيها انساناً مختلفاً كل الاختلاف • انه رغم الحزن الشديد الذى يرهقه لم يستطع أن يمنع نفسه عن التحديق الى المرأة الشابة والتفرس فيها • كانت حركاتها وآدابها قد تغيرت عما كانت عليه بالأمس وتحسنت وتحسنا ملحوظا : ليس فى صوتها الآن تلك النبرات الرخوة التى أصبحت الآن سريعة بسيطة مباشرة واثقة • هى الآن تشع طيبة وتنطلق على سجيئها طبيعية بلا تعمل ، رغم ما يبدو من أنها مضطربة اضطراباً شديدا •

قالت مدممة :

— رباہ ! يا لها من مغامرات كثيرة فى يوم واحد ! اننى أَسْأَلُ
يا أليوشا لماذا أنا سعيدة برؤيتك هذه السعادة كلها ؟ أؤكد لك اننى
أجهل أنا نفسى سبب هذه السعادة •

قال راكيتين متدخلًا وهو ينسم ابتسامة صغيرة :

— أأنت تجهلينه الى هذا الحد من الجهل ؟ لا شك فى أنك لم
تلحى طوال هذه المدة فى طلب الاثيان به ، دون باعث يدفعك الى ذلك •
لقد نقرت أذنى من طول ما سألتنى أن آتى به اليك ، فلا بد أن يكون
لك فى ذلك هدف •

— كان لى هدف حقا ، ولكن لم يبق لى هدف الآن • فات الأوان •
ماذا أقدم اليكما من طعام أو شراب ؟ لقد أصبحت طيبة يا راكيتا ، هل
تعلم ذلك ؟ هلاً جليست يا راكيتا ؟ لماذا تظل واقفا ؟ ها •• أأنت جليست

اذن ؟ لا خوف على راكيتا من أن ينسى نفسه ! ها هو ذا قد اتخذ له مكانا فى قبالتنا يا أليوشا ، مستاءً من أننى لم أدعه الى الجلوس قبل أن أدعوك أنت • انه سريع التأذى ، هل تعرف هذا ؟ انه رهيب فى سرعة تأذيه ! (هذا ما أضافته ضاحكة) • لا تزعل يا راكيتا ! أنا اليوم طيبة جدا ! ولكن أنت يا صغيرى أليوشا ، لماذا تبدو حزينا هذا الحزن كله ؟ ألعننى أخيفك ؟

قالت له ذلك ونظرت فى عينيه وهى تبسم ابتسامة لاهية •
قال راكيتين :

— هو حزين لأنه أغفل فى الترقيات •

— أية ترقيات ؟

— انتشرت من شيخه رائحة تفسخ •

— انتشرت ؟ ما هذه السخافات التى تقولها ؟ لا شك أنك تريد أن

تغمز وتلمز ... أنا أعرفك ! اسكت أيها الأبله •

ثم قالت لأليوشا :

— هل تسمح لى يا أليوشا بأن أقعد على ركبتك • • هكذا ؟

قالت ذلك ثم قعدت على ركبته بوثبة واحدة وهى تضحك وتلامسه ملامسة رقيقة كقطة صغيرة •

ثم أحاطت عنقه بذراعها اليمنى فى عطف وحنان • وأردفت
تقول :

— سأعرف كيف أدخل البهجة الى قلبك يا فتاى الصغير التقى •

حقاً • • • هل تسمح لى بأن أبقى على ركبتك ؟ ألا تغضب ؟ اذا شئت
قمت •

صمت أليوشا ولم يجرؤ أن يتحرك • لقد سمع قولها : « اذا شئتَ قمتُ » ، ولكنه لم يجب وشعر كأنه مشلول • ومع ذلك لم يحسن بما يمكن أن يتخيله رجل مثل راكيتين الذى كان يتأمل به بطراً • ان الألم العميق الذى يملأ قلبه قد جمّد أحاسيسه ، ولو كان يستطيع أن يرى ما بنفسه رؤية واضحة لأدرك أنه كان فى تلك اللحظة محصناً تحصيناً قوياً من جميع الفتن وجميع الاغراءات الممكنة • ومع ذلك ، رغم ذهوله عن حاله ورغم الألم الذى كان يرهقه ، فقد أدهشه شعور جديد غريب نبت فى نفسه : وهو أن هذه المرأة ، هذه المرأة «الرهيبية» لاتخيفه الآن كما كانت تخيفه من قبل ، ولا تبعث فى نفسه ذلك الذعر الذى كان يحسه حتى ذلك الحين متى خطرت بباله المرأة فى المناسبات النادرة التى كان يمكن أن تخطر بباله المرأة ! بل ان ما يحدث الآن هو عكس ذلك تماما : ان هذه المرأة الشابة التى كان يخشاها أكثر مما يخشى سائر النساء ، والتى تحيطه بذراعيها جالسة على ركبتيه ، توقظ فى نفسه شعورا مختلفا عن ذلك الشعور كل الاختلاف ، شعورا فريدا غير متوقع ، شعورا هو استطلاع قوى 'يحسن الى حالته الروحية حقاً انه ، خاصة' ، لا يشعر بأى خوف ، لا يشعر بأى أثر من آثار جزعه الماضى ، وهذا ما كان يدهشه بالرغم منه •

هتف راكيتين يقول :

- كفاك كلاماً فى ترهات • خير من هذا أن تسقينا شيئاً من الشمبانيا • لقد وعدتني بذلك ، هل تتذكرين ؟

- صحيح • وعدتك بذلك • لقد قطعت له على نفسى عهداً يا أليوشا لأسقينيّ شمبانيا يومَ يجيئني بك ، هل تفهم ؟ هلموا بنا ، سأشرب أنا نفسى شمبانيا • فينيا ، فينيا ، هاتينا بتلك الزجاجاة التى تركها ميتيا ،

اسرعى ! سأسقيكم شمبانيا مهما أكن بخيلة ! ما هذا من أجلك يا راكيتا ،
فما أنت الا خيارة فاسدة ، بل من أجله هو ، من أجل أميرى ! سأشرب
معكما ، رغم أن فكرى فى مكان آخر • أريد أن أقصف !

عاد راكيتين يسألها مستطلعا ملحا ، وهو يبذل جهدا كبيرا فى
سبيل أن يظهر بمظهر من لا يلاحظ السخريات التى تصبها عليه :
- ماذا حدث لك اليوم ؟ ما هذه الرسالة التى تنتظرنيها ؟ هل الأمر
سر ؟

فقالت جروشنكا وقد عاودها قلقها فجأة :
- ليس الأمر سرا ، ثم انك على علم به •
وأدارت رأسها نحو راكيتين وابتعدت قليلا عن أليوشا مع بقائها
قاعدة على ركبتيه محيطة بذراعيها عنقه ، وقالت :
- سيصل ضابطى يا راكيتين ، ضابطى الجميل !
- أعرف أنه سيصل ، ولكننى كنت أظن أنه ما يزال بعيدا •
- هو الآن فى موكرويه ، وسيبعث الى من هناك رسولا • ذكر
لى ذلك فى رسالة تلقيتها أمس • فأنا أنتظر الآن هذا الرسول •
- غريب ! لماذا فى موكرويه ؟

- شرح هذا يطول • يكفيك الآن ما علمت •
- وذلك الشجاع ميتا ؟ هل يعلم بالامر ؟
- لا يعلمه طبعا • وهو لا يشبه فى شىء • لو علم لقتلنى • ولكننى
أصبحت لا أخاف منه • اننى لا أعبا بخنجره • اسكت يا راكيتا •

لا تحدثنى بعد الآن عن دمترى فيدوروفتش • لقد أساء الىّ كثيرا •
لا أحب أن أفكر في هذه الأشياء بعد اليوم • أوثر أن أهتم بأليوشا •
أننى أنظر اليه ، فيستهيج بذلك قلبي ••• هلاًّ ضحككت قليلاً يا ملاكى •
كن أكثر فزحاً ، شاركنى سعادتى ، اهزأ بحماقتى ••• آ ••• ها هو ذا
يبتسم أخير ••• لقد ابتسم لى ! ما أجمل هذه الوداعة فى نظرتة • هل
تعلم يا أليوشا ؟ لقد كنت أخشى أن تزعل منى بسبب تلك القصة التى
حدثت فى ذلك اليوم عند الآسنة • لقد تصرفت نحوها تصرف وحش
خيث ! هذا صحيح • ولكننى مسرورة رغم كل شيء بما حدث • كان
هذا شيئاً من جهة حسناً من جهة ثانية • (أضافت ذلك ضاحكة ثم وجت
على حين فجأة وطاف بابتسامتها شيء من القسوة) • روى لى ميتيا كيف
صرخت تقول بعد انصرافى : « هذه البنت تستحق أن تجلد على مرأى
من الناس » • لقد أرادت أن تعرفنى أملاًّ فى أن تسيطر علىّ • كانت
تظن أنها ستغرينى وستقتننى بفنجان من الشوكولاته ••• لا ••• لا •••
لقد أحسنتُ صنعا اذ تصرفت كما تصرفت • كل ما أخشاه هو أن تكون
أنت قد زعلت منى •••

بهذا ختمت كلامها وهى تضحك ضحكة خفيفة •

قال راكيتين مدهوشا دهشة عميقة :

- يبدو أنها تخشى رأيك حقاً يا أليوشا ! انها تخاف منك ، من
دجاجة مثلك !

- هو فى نظرك دجاجة لأنك ••• لا ضمير لك ! هذا كل شيء •
أما أنا فأحبه بكل نفسى ، هل فهمت ؟ هل تصدقنى يا أليوشا اذا قلت لك
اننى أحبك صادقة مخلصه ؟

- يا لخالعة العذار ! هذا تصريح بحب يا أليوشا ، تصريح بحب لك أنت !

- لم لا يكون كذلك ما دمت أحبه ؟

- وصاحبك الضابط ؟ والرسول الآتى من موكرويه ؟

- هذان أمران مختلفان •

- ذلك ما تقوله النساء دائما فى مثل هذه الحالة •

أجابته جروشنكا بقوة وحرارة :

- لا تحقنى يا راكيتا • هذان أمران مختلفان • أنا أحب أليوشا حباً آخر • صحيح أننى قد رسمت خططاً شريرة بشأنك يا أليوشا ، لأننى منحطة عيفة قاسية • ولكننى كنت فى لحظات أخرى أعدك بمثابة ضمير لى ، وكثيرا ما كنت أحدث نفسى قائلة : « لا بد أنه يحقرنى بسبب سلوكى • » ، وقد قلت لنفسى هذا الكلام أمس الأول حين رجعت من عند الآسة • لقد لاحظت منذ زمن طويل يا أليوشا • ان ميتيا يعلم هذا • لقد ذكرته له • وهو يفهمنى • هل تصدق يا أليوشا أنه يتفق لى أحيانا حين أنظر اليك أن أشعر بالخجل فجأة ، بالخجل من نفسى ... كيف استطعت أن تدخل الى قلبى على هذا النحو ؟ لقد نفذت الى قلبى • أما منذ متى ، فلا أدرى فى الواقع ...

دخلت فينيا فى تلك اللحظة ، ووضعت على المائدة صينية عليها زجاجة شمبانيا مفتوحة وثلاث كئوس ملأى •

هتف راكيتين يقول :

- وصلت الشمبانيا ! أنت مهتاجة كثيرا فى هذا المساء يا أجرافين ألكسندروفنا ، حتى أصبحت لا تسيطرين على نفسك • ومتى أفرغت

هذه الكأس فسوف ترقصين ، ترالالا ! ... ولكننى ألاحظ أن الشمبانيا لم تقدم وفقا للأصول • ان الزجاجاة فاترة ، والسدادة منزوعة ، والخدام قد ملأت الكئوس فى المطبخ • لا بأس ... سنشربها على كل حال •

واقرب راكيتين من المائدة ، فتناول كأساء وأفرغها فى جوفه دفعة واحدة ثم ملأها من جديد ، وقال وهو يمر على شفثيه بلسانه :

– لا يتمتع المرء بالشمبانيا كل يوم • جاء دورك يا أليوشا • ألا فلنر مقدرتك ! أى نخب نشرب ؟ ربما نخب أبواب الجنة ؟ تناولى هذه الكأس يا جروشوا واشربى معنا نخب أبواب الجنة !

– أبواب الجنة ؟ ماذا تعنى ؟
وتناولت جروشكا كأسا ؛ وكذلك فعل أليوشا فجرع جرعة ووضع الكأس على المائدة وقال مبتسما ابتسامة عذبة :

– أوثر أن لا أشرب •

فصاح راكيتين قائلاً :

– فماذا كان تباهيك اذن ؟

وقالت جروشكا :

– لن أشرب أنا اذن • ثم اننى ليست بى رغبة فى الشراب •
تستطيع أن تفرغ الزجاجاة وحدك اذا شئت يا راكيتا • واذا قرر أليوشا أن يشرب شربت أنا أيضا •
قال راكيتين ساخرا :

– يا للمواطف الرفيقة ! انها بهذا تنجو على ركبتيها • ان له هو عذراً على الاقل ، فهو حزين النفس ، أما أنت فأى عذر يمكن أن تتحلى ؟
لقد تمرد هو على الهه وأراد أن يأكل مقائق •

- ماذا وقع له ؟

- مات شيخه هذه الليلة ... الأب زوسيم ... ذلك القديس .

- ماذا ؟ الشيخ زوسيم مات ؟ لم أكن أعرف ذلك .

قالت جروشكا هذا صائحة ، ورسمت على نفسها إشارة الصليب
بتقى وورع . وأردفت تقول منفعة على حين فجأة كالمذعورة :

- آه ... يا رب ! وأجلس على ركبتيه فى مثل هذا اليوم ؟

ثم أسرعتنهض ، ومضت تجلس على الأريكة . حدق إليها
أليوشا بنظرة طويلة دهشة ، وانبسبت أسارير وجهه قليلاً ، وقال
يخاطب راكيتين بصوت قوى حازم :

- لا يضايقنى بموضوع ثورتى المزعومة على الله يا راكيتين . انى
لا أحب أن أغضب منك ، ومن أجل هذا أرجوك أن تبرهن على نبل
النفس أنت أيضا . لقد فقدت كنزاً لم تملكه أنت فى يوم من الايام ،
لذلك لن تستطيع أن تفهمنى . خير لك أن تقتدى بها : هل رأيت كم
دارتنى ورعتنى ؟ لقد جئت الى هنا لأقابل انسانة شريرة ، لألقى روحاً
خبيثة ، وكنت أتمنى ذلك أنا نفسى ، لأننى كنت فى تلك اللحظة جباناً
شريراً . ثم اذا أنا ألقى أختاً صادقة ، جوهرة ثمينة ، نفساً صافية محبة
... دارت مشاعرى ، وأحاطتنى بالرعاية . عنك أتكلم يا أجرافين
ألكسندروفنا . لقد وهبت لي الجرأة على أن أحيا .

أخذت شفتا أليوشا تختلج وصمت مختنقا .

قال راكيتين وهو يضحك ساخراً :

- لكأنها أنقذتك ! ألا فاعلم اذن أنها كانت تنوى أن تبلك !

قالت جروشكا مندفة :

— كفى يا راكيتين • واسكتا كلاكما الآن • لا تقل شيئا يا أليوسا ،
لأن أقوالك تشعرنى بالخزى والعار • أنا فى الحق خيبة لا طيبة كما
تظن • أما أنت يا راكيتا فأريد أن تسكت لأنك تكذب • جائز أننى نويت
فى السابق تلك النية الجبابة وهى أن أبلعه لقمة واحدة ، ولكنك مع
ذلك تكذب ، لأن هذا قد مضى الآن ••• لا أريد أن أسمع صوتك
يا راكيتا !

كانت جروشكا تتكلم مضطربةً اضطرابا شديدا •

قال راكيتين بصوت صافر وهو ينظر اليهما مدهوشا :

— لقد فقدنا كلاهما العقل • لكنهما مجنونان ! أترانى وقعت فى
مستشفى للمجانين ؟ أصبحا عاطفين ، وما هى الا لحظة حتى يطفقا
بأكيين •

قاطعته جروشكا تقول :

— سوف أبكى ، نعم سوف أبكى • لقد دعانى أخته ، لن أنسى هذا
ما حييت ! اعلم يا راكيتا أننى مهما أكن شريرة ، فقد وهبت بصلة * •
— أية بصلة ؟ حقا لقد فقدنا العقل •

كان راكيتين يستغرب اندفاعاتهما الحماسية ، ويحس بالاهانة ،
رغم أنه كان يمكن أن يدرك أن الظروف قد جمعت هذين الانسانين
على نحو من شأنه أن يثبت فى نفسيهما الاضطراب • ولكن راكيتين ،
السريع جدا الى ادراك كل ما يمسه ، يجسد عناء فى فهم عواطف
الآخرين واحساساتهم أولا لأنه قليل الخبرة بحكم شبابه ، وثانيا لأنه
على جانب عظيم من الأنانية •

التفتت جروشنا نحو أليوشا وهى تضحك ضحكة عصبية
وقالت له :

- ها قد رأيت يا أليوشا أننى تباھت أمام راكيتا بأننى قدمت ببصلة •
ولكننى سأتكلم معك صادقة مخلصه بغير تفاخر • الأمر أمر أسطورة :
هى قصة جميلة قصتها على فى طفولتى ماترين التى تعمل عندى اليوم
طباخة • اليك القصة : كان هناك فى الماضى امرأة عجوز شريرة جداً ؛
فلما ماتت هذه العجوز وكانت لا تملك أية فضيلة يمكن أن تشفع لها
فى يوم الحساب ، فقد أمسكتها الشياطين وألقتها فى بحيرة من نار •
وعندئذ أخذ حارسها الملاك يفكر • تساءل : « ما الذى يستطيع أن أفعله
لإنقاذها ؟ ألا يمكننى أن أكتشف فضيلة أذكرها عنها للرب ! » ، فإذا
هو يتذكر حادثة جرت لهذه المرأة فى حياتها ، فقال للرب : « لقد
انتزعت من حديقتها بصلة فى ذات يوم ووهبتها لشحاذ • » فقال الرب
للملاك الحارس : « خذ هذه البصلة ، ومدّها الى هذه المرأة فى بحيرة
النار ، ومرها أن تتشبث بها ، ثم شدها لتخرجها من اللهب • فإذا استطعت
أن تخرجها ذهبت الى الجنة ، أما اذا تقطعت البصلة فستبقى المرأة حيث
هى • » أسرع الملاك الى المرأة ومد اليها البصلة وقال لها : « تمسكى بهذه
البصلة فأخرجك من النار • » وأخذ يشد بكل ما أوتى من قوة ، وكاد
يخرج المرأة من بحيرة النيران حين لاحظ المذنبون الآخرون أنه كان
بسيلاً لإنقاذها ، فتمسكوا بها بغية أن يخرجوا من البحيرة معها • ولكن
العجوز كانت شريرة جداً ، فركلتهم بقدميها وهى تصرخ : « انما يراد
إنقاذى أنا لا أنقاذكم أنتم • هذه البصلة بصلتى أنا لا بصلتكم أنتم • »
فما ان نظقت العجوز بهذه الكلمات حتى تقطعت البصلة ، فسقطت المرأة
العجوز فى البحيرة من جديد • وما تزال تاحترق فى النار حتى الآن •
أما الملاك فقد انصرف باكياً • اننى أحفظ هذه الاسطورة على ظهر القلب؛

احتفظت بها لأننى شبيهة بتلك المرأة العجوز الشريرة • لقد تباهيت أمام
راكيتا بأننى وهبت بصلة • أما لك أنت فأقول متواضعة اننى ان كنت
قد وهبت بصلة مرة فى حياتى فذلك كل ما فعلته ، وليست تتعدى طبييتى
هذه الحدود • فلا تمدحنى اذن يا أليوشا ، ولا تظن أننى طيبة • أنا
شريرة ، شريرة جدا ، واننى لأمتلىء بشعور الخزى والعار حين أسمعك
تكيل لى المديح • وهأنذا أعترف لك بكل شئ يا أليوشا : لقد بلغت من
فرط الرغبة فى أن أراك عندى أننى كنت لا أعرف ما عساي فاعلة
لأحض راكيتين على أن يجيئنى بك • ووعدته أخيرا بأن أعطيه خمسة
وعشرين روبلا اذا هو اصطحبك الى منزلى • لحظة يا راكيتا !

أسرعت جروشنكا تقترب من المنضدة ، ففتحت درجاً ، وتناولت
محفظة نقودها ، وأخرجت منها ورقة بخمسة وعشرين روبلاً •

هتف راكيتين يقول مرتبكا ارتباكاً شديداً :

— ما هذا السخف ؟ كان ذلك هزلاً لا جدأ •

— خذ المال يا راكيتا ! أنا مدينة لك به ! لن ترفضه ! لقد ألححت
علىّ لأعطيك هذا المبلغ •
ورمت اليه الورقة •

قال راكيتين بصوت أجش وهو يحاول أن يسيطر على اضطرابه
وارتباكه وخجله :

— لأكوننّ حماراً اذا أنا رفضت • انما وجد الأغنياء فى هذا العالم
المصلحة الأذكى •

قالت جروشنكا :

— والآن أسعدنى بسكوتك يا راكيتا • ان ما سأقوله الآن لا يصلح

لأذنيك • اجلس هناك ، فى الركن ، ولا تقل بعد هذه اللحظة شيئاً •
أنت لا تحبنا فما عليك الا أن تلزم الصمت •

قال راكيتين بلمهجة معادية دون أن يحاول اخفاء غضبه :

– وفيم أحبكما ؟

ودسّ الورقة النقدية فى جيبه ، ولكنه شعر بحرج شديد أمام
أليوشا • كان يقدّر أن يتقاضى مكافأته فيما بعد ، على غير علم من
أليوشا ، فاذا بالعار الذى يشعر به الآن يجعله خبيثاً شرساً • كان قد
رأى أن من العذق حتى ذلك الحين أن لا يستفز جروشنكا ، ولكنه
بدأ يغضب الآن • قال :

– لا يحب المرء بغير باعث على الحب ، فما الذى يجعلكما تستحقان

حبنى ؟

– أحبّ بغير سبب ، مثل أليوشا !

– من قال لك ان أليوشا يحبك ؟ ماذا صنع من أجلك ؟ قليلاً من

الفهم على الأقل ! ...

كانت جروشنكا فى وسط الغرفة ، وكانت تتكلم متحمسة بصوت

تداخله فى بعض اللحظات نبرات هستيرية •

– اسكت يا راكيتا ! انك لا تفهم فى هذه الأمور شيئاً • ثم اننى

لا أريد بعد الآن أن ترفع الكلفة بينى وبينك وأن تخاطبنى بصيغة المفرد •

اننى أمنعك أن تفعل هذا فى المستقبل • من أجاز لك أن ترفع الكلفة

الى هذه الدرجة ؟ ابق فى ركنك واسكت ، لأننى أعدك بمثابة خادم لى •

والآن يا أليوشا ، سأقول لك الحقيقة كاملة ، لتعلم اننى انسانة شريرة

سيئة ! لك انما أعترف هذا الاعتراف ، لا لراكيتا ! لقد أردت ضياعك

يا أليوشا ، أقول لك هذا لأنه هو الحقيقة بعينها ! ولقد تصورت لهذا الأمر خطه راسخة ، وكنت أبلغ من شدة الحرص عليه أنني حرصت رايكتا بالمال على أن يجيئني بك . ما هو السبب الذي دفعني الى أن أريد ضياعك ؟ انك لم تلاحظ شيئا ، ولم يخطر ببالك شيء ، وكنت تشيح بوجهك عني . كنت اذا لقيتني تغض طرفك . أما أنا فقد نظرت اليك أكثر من مائة مرة ، وسألت جميع أصدقائي عنك . انطبعت ملامح وجهك في قلبي . كنت أقول لنفسي : « انه يحترقني . انه يأبى حتى أن يرفع عينيه الى » . وشعرت من ذلك بغيط بلغ من فرط القوة أنني دُهِشت أنا نفسي . قلت : « لماذا الخوف من هذا الصبي الغر ؟ لاأكلنه لقمة واحدة ، ولأضحكن بعد ذلك كثيرا . » . ان نوعا من الحنق المسعور قد اضطرم في نفسي غضبا منك وحقدا عليك . هل تصدق هذا ؟ لا يستطيع أحد أن يأخذ على شيء في هذه المدينة ، لن يجروا أحد أن يشبهه في أجرافين ألكسندروفنا فيسء فيها الظن اذا هي استقبلت رجلا في بيتها . ليس في حياتي الا ذلك العجوز الذي ارتبطت به وبعته نفسي . لقد جمع الشيطان بيننا . غير أن ذلك العجوز هو الرجل الوحيد الذي حظى بي . ومع ذلك كنت مستعدة لأن أشذ عن هذه القاعدة من أجلك . كنت أتهيا لأن أبلعك ، لأستطيع أن أضحك ما شئت أن أضحك بعد ذلك . فانظر مدى ما أنصف به من خبث وشر أنا التي دعوتني أختك . وهذا صاحبي الذي غشني وأغواني يبلغني أنه قادم ، وأنا أنتظر رسالة منه . هل تعلم ماذا كان هذا الرجل في حياتي ؟ لقد جاء بي كوزما الى هنا منذ خمس سنين . كنت أعيش في أول الأمر هاربة من الناس أخشى أن يراني أحد وأن يسمعنني أحد . كنت هزيلة الجسم غيبة العقل ، وكنت لا أكف عن البكاء في ليل ولا نهار . كنت أبقى موزقة مسهدة ليلي برمتها أحدث نفسي قائلة : « أين هو في هذه الساعة ،

الرجل الذى أغوانى ؟ لا شك أنه يضحك علىّ ويسخر منى مع امرأة
أخرى • آه • • • ليتنى أستطيع أن ألقاه يوماً ! ليدفنّ عندئذ نمن
ما جنت يده ! » • وكنت أبكى على وصادتى فى الظلمات وأحلم بالثأر
والانتقام • كنت أستثير ألى عامدةً لأملأ نفسى كرهاً وحقدًا • كنت
أخرج فى الليل قائلة : « لسوف يرى ! لسوف يرى ! ليندمنّ على
ما فعل ! » • ثم أدركت فجأة عجزى • وأصبحت اذا تصورت أنه يسخر
منى ويضحك علىّ ، أو اذا تصورت أنه قد نسيتنى شيئاً تاماً - وهذا
أنكى - أسقط عن سريرى على الأرض وأظلمت وأندرجت متحبةً مرتجفةً
بكل جسمى حتى مطلع الفجر • فاذا أشرق الصباح نهضت وأنا أشد
ضراوة من كلب ، نهضت وأنا مستعدة لأن أؤذى أول انسان يقع عليه
بصرى • وانقضت السنون ، وأخذت أجمع المال ، وأصبحت بلا رحمة ،
وسمنت • ماذا تظن ؟ هل تظن أنني غدوت بذلك أهدأ بالاً وأكثر
تعللاً ؟ لا • • • ما من أحد يرى ما أعانى ، ما من أحد فى الكون بأسره
يتصور ما أقاسى : ما يزال يحدث لى حتى اليوم ، كما كان يحدث لى
منذ خمس سنين ، حين كنت صبية يافعة ، أن أشد على أنسانى فى
سريرى ليلاً ، وأن أستمّر فى البكاء الى الصباح ، مرددة قولى : « ليدفنّ
نمن ما جنت يده ! » • هل تسمعننى ؟ فاحكم علىّ الآن : لقد وصلتني
منه منذ شهر رسالة أولى يبلغنى فيها أنه ترمّل ، وأنه يريد أن يرانى ،
وأنه يأمل أن يصل قريباً • صُعقت فى الوهلة الأولى وحطمتنى الانفعال •
ثم قلت لنفسى فجأة : « سيعود ، وإن يكون عليه إلا أن يصفر حتى
أهرول اليه ككلب ، مجلّة بالخزى ، مطعونة القلب ، طالبة الصفح
والغفران ! » • وتساءلت عندئذ : « أأكون جبانة وضيعة الى هذه
الدرجة ؟ أأرضى أن أذل نفسى هذا الاذلال ؟ » • وقد استبد بى
من الغضب على نفسى طوال هذا الشهر ، خشية أن أسقط فى مثل ذلك

الجبن ومثل تلك الحطه ، ما جعلنى أصبح أخبث نفساً وأميل الى الشر
مما كنت كذلك خلال السنوات الخمس الماضيات . هل أدركت يا أليوشا
مدى ما تتصف به نفسى من سوء وشر وعنف ؟ اننى أذكر لك الحقيقة
كلها . لقد اتخذت دمتري سلوى لنفسى حتى لا أركض الى لقاء الآخر .
اسكت يا راكيتا ! ما أنت من يحكم على ! وما أنت من أكلم ! كنت قبل
وصولك يا أليوشا راقدة على الأريكة أنهيأ لمواجهة قدرى ، ولن تعرف
قط ما كان يجرى فى قلبى . قل للأسفة يا أليوشا أن لا تأخذ على
المشهد الذى وقع أمس الأول . . . ما من أحد فى العالم يستطيع أن
يفهم الحالة النفسية التى أعانيها منذ شهر ، ما من أحد يستطيع أن يتصور
هذه الحالة النفسية . . . ذلك أن من الممكن أن أحمل خنجرى فى هذا
المساء لأذهب الى الموعد . . . اننى لم أعزم أمرى بعد . . .

بعد أن أفضت جروشنكا بهذا الاعتراف الذى « يُرئى له » ، لم
نستطع أن تتمالك نفسها ، فإذا هى تنقطع عن الكلام ، وتغطى وجهها
بيديها ، وتتهالك على الأريكة ، وتأخذ تنتحب على الوسادة كطفل صغير .
نهض أليوشا واقترب من راكيتين ، وقال له :

— لا تزعل يا ميشا ! لقد أهانتك ولكن ما ينبغى لك أن تغضب منها .
على المرء أن يعامل الطبيعة الانسانية بالتسامح والرحمة ، وأن يشارك
لناس عذابهم وآلامهم . . .

قال أليوشا هذا الكلام باندفاع من قلبه لا سبيل الى مقاومتها . كان
شعر بحاجة الى اطلاق انفعاله حراً لا يعوقه عائق ؛ ولئن خاطب بهذا
الكلام راكيتين ، فلقد كان يمكن أن يتحدث وحيدا لو لم يكن راكيتين
نالك . ولكن راكيتين ألقى عليه نظرة باردة ساخرة ، فتوقف أليوشا عن
كلام . قال راكيتين وهو يتسم ابتسامة كارهة حاقدة :

- شيخك هو الذى حشا رأسك بهذه الأفكار ، فتريد أن تقدمها الى بدورك الآن يا أليوشا ، يا راهباً صغيراً !

- لا تستهزئ يا راكيتين ، دع السخريات ، ولا تقل سوءاً فى الشيخ الراحل ! انه خير من جميع البشر الذين عاشوا على هذه الارض .
كذلك قال أليوشا والدموع فى صوته • ثم تابع كلامه يقول :

- لا أقول لك هذا الكلام فاضيا بل متهماً هو شر المتهمين طراً .
ما أنا أمام هذه المرأة ؟ لقد جئت الى بيتها عاقداً نيتى على الضياع ، قائلاً
لنفسى فى جبن وصغار وحطة « لا ضير ... لا ضير ... » ، فاذا هى ،
هى التى تأملت خلال خمس سنين ، تغفر كل شيء ، وتنسى كل شيء ،
وتبكي بعد أقل من خمس دقائق ، لا لشيء الا لأن رجلاً مجهولاً قال
لها كلمة مودة صادقة ! ان الرجل الذى أساء اليها كل تلك الاساءة ،
وألحق بها كل ذلك الأذى ، قد عاد وأوماً اليها ، فاذا هى تغفر له على
الفور ، فرحة سعيدة مستعجلة لقاء • أما الخنزير فثق أنها لن تحمله !
لا ... لا ... أنا لا أساويها ، أنا لا أعدها • لا أدري يا ميشا هل أنت
طيب نبيل كطيها ونبيلها ، أما أنا فليست كذلك بحال من الاحوال • هذا
درس تلقنته اليوم ... ان هذه المرأة أعظم منا بالحب ... هل كنت
تعرف ما روته لنا الآن ؟ انك لم تكن تعرفه حتماً • والا لأدركت كل
شيء منذ زمن طويل ... وتلك الأخرى التى آذتها هى أمس الأول ،
يجب عليها أن تغفر لها هى أيضاً ! سوف تغفر لها متى علمت ، وستعلم
... ان هذه النفس لما تسترد هدوءها وطمأنينتها بعد ، فينبغى أن
تدارى وأن تراعى ... لعل فيها كنوزاً لا تخطر ببال ...

صمت أليوشا منقطع الأنفاس • وكان راكيتين ينظر اليه مدهوشا

رغم حنقه • ما كان ليتوقع مثل هذا الكلام الطويل من الراهب المبتدئ •
البسيط !

قال راكيتين صائحاً وهو يضحك ضحكة وقحة :

- يا للمحامي البارع ! أترك وقعت في جبهها ؟ يا أجراءفين
ألكسندروفنا ، ان صاحبنا الصائم قد توله بحبك ، وهام غراما بك • هنيئاً
لك بالنصر !

أنهضت جروشكا رأسها عن الوسادة ، وألقت على أليوشا نظرة
حنوناً أشرق بها وجهها المحتقن بالدموع على حين فجأة •
- لا تكثرث له يا أليوشا ، يا ملاكى • أنت ترى ما هو ، فلا داعى
الى مناقشته •

كذلك قالت جروشكا ، ثم التفتت نحو راكيتين وقالت له :

- كنت أنوى يا ميشيل أوسيوفتش أن أعذر اليك عن الكلمات
الجارحة التى قلتها لك ، ولكننى أعدل عن ذلك الآن •

وعادت تخاطب أليوشا فقالت له وفى وجهها فرح :

- أليوشا ، اجلس هنا ، بجانبى ، هكذا ، قريباً منى • قل لى
يا أليوشا (تناولت يده ونظرت فى عينيه مبتسمة) ، قل لى : أما زلت
أحبه ؟ أما زلت أحب الآخر ؟ أقصد الرجل الذى أغوانى ... لقد كنت
قبل مجيئك ألقى على نفسى هذا السؤال فى الظلام ، محاولة أن أقرأ
فى أعماق قلبى : أما زلت أحبه ؟ أضى طريقى يا أليوشا • هذه ساعة
اتخاذ القرار • اننى أكل أمرى اليك • هل يجب على أن أغفر له ؟

قال أليوشا مبتسماً :

- ولكنك غفرت له وانتهى الأمر !

فقدمت جروتسكا تقول واجمة مفكرة :

- صحيح • لقد غفرت له • ما أجبن قلبى !

ثم هتفت تقول :

- اننى أشرب نخب هذا الجبان الكبير ، قلبى !

وتناولت من المائدة كأس شمبانيا ، وأفرغته فى جوفها دفعة واحدة ،
ثم ألقت طائراً على الأرض • تحطم الكرسى ، ورنت شظاياها • ومرة
أخرى ظهر فى طرفى فمها شيء من قسوة • قالت بصوت أجش متقل
بتهديدات غامضة ، قالت وهى تخفض عينها كأنها تخاطب نفسها :

- لعلى لم أغفر له بعد • ان قلبى يتهى للمغفرة ، وسأحاول أن
أقاومه • آه يا أليوشا ! ما كان أعظم تلذذى بالدموع التى سكبتها طوال
خمس سنين • ان عذابى هو ما أحب • اننى أحب ألى ، ولا أجبه
هو !

قال راكيتين متهمكاً :

- لست أتمنى أن أكون اياه !

- لن تكون اياه أبداً يا راكيتا ، أبداً • • • اعلم هذا • أنت ستنتظف
لى حذاءى • ذلك ما تصلح له أنت فى أكثر تقدير • النساء اللواتى هن
من نوعى لم يخلقن لك ، ولا له أيضاً على كل حال • • •

- ولا له أيضاً ؟ فلمن تزيت اذن ؟

- لا تأخذ على تزيتى يا راكيتا ! أنت لا تعرفنى ! سأنزع ثوبى
وزيتى اذا عنى لى هذا ، سأرميهما فوراً ، هل تفهمنى ؟ (كذلك صرخت
بصوت حاد) • أنت لا تعرف يا راكيتا الهدف الذى من أجله تزيت •

من يدري ؟ ربما ذهبت اليه فقلت له : « انظر ! انظر ماذا أصبحت ! » .
لقد تركنى وأنا فى السابعة عشرة من عمرى ناحلةً مصدورةً بكاءً .
سأجلس قربى ، أغريه وأغويه ، وأضرم نار الهوى فى قلبه ، أقول له :
« هيه ! أأنت اليوم جميلة ؟ أنت تعجب بى الآن ؟ اكتف اذن بالاعجاب ،
لأن المسافة بعيدة بين الكأس والشفقتين ! » . ربما كان هذا هو السبب
فى أننى تزيت يا راكيتا (بهذا ختمت جروشكا كلامها لراكيتين وهى
تضحك ضحكة خبيثة) . أنا عنيفة يا أليوشا ، أنا شريرة . سوف أنزع
ثوبى ، وأشوه نفسى ، وأحرق وجهى وأخذه بطعنات موسى لأدمر جمالى
ثم أمضى أتسول . ليس يتوقف الا علىّ أنا أن أبقي هنا فى هذا المساء ،
فلا أذهب لا الى هذا ولا الى ذاك . واذا شئت رددت منذ الغد الى كوزما
كوزمتش جميع الهدايا التى أهداها الىّ ، والمال الذى أعطانيه ، ثم أمضى
أعمل طوالى حياتى لأجنى رزقى عاملةً بسيطة . هل تظن أننى لن أفعل
شيئاً من هذا يا راكيتا ؟ هل تظن أننى لا أجرؤ على ذلك ؟ بل سأفعله ،
سأفعله ؛ لا تهجنى والا فعلته فوراً ! . . . أما الآخر ، فسأطرده ، سأمد
له لسانى استهزاءً ، سأنسل من بين أصابعه !

قالت هذه الكلمات الأخيرة بصوت ثاقب ، يوشك أن يكون هسترياً ،
ثم لم تتمالك نفسها فاذا هى تدفن وجهها فى يديها من جديد ، وتتهالك
على الوسادة ناشجة منتحبة . فنهض راكيتين من مكانه فجأة وقال :

— أن أوان الانصراف . لقد تأخرنا ، وسوف تغلق أبواب الدير .

فانتفضت جروشكا وصاحت تسأل أليوشا بدهشة أليمة :

— أتمضى الآن يا أليوشا ؟ أتعبث بى اذن هذا العبث ؟ لقد بثت
الاضطراب فى نفسى ، وعريت أعصابى ، ثم تتركنى لأبقى وحيدة ،
وحيدة كما كنت من قبل ، فى هذه الظلمات !

قال راكيتين بصوت ساخر :

- لن يقضى الليلة عندك على كل حال ! اللهم الا أن يكون راغباً
فى ذلك حريصاً عليه ! وفى هذه الحالة سأعرف كيف أعود وحدى •

فصرخت جروشنكا تقول فى غضب :

- اسكت أنت أيها النفس الخبيثة ! انك لم تعرف فى يوم من
الأيام كيف تكلمنى كما كلمنى هو اليوم •

فقال راكيتين يسألها حاتقاً :

- فما هى الأشياء الخارقة التى قالها لك ؟

- نسيت ، لا أعرف ، لا أتذكر كلماته ، ولكن كلماته مضت الى
قلبي رأساً ، وهزت نفسى هزاً قوياً ••• لقد أخذته بى شفقة ورحمة ،
فكان أول انسان يرئى لحالى ، كان الانسان الوحيد الذى رئى لحالى ! لماذا
لم تأت من قبل يا ملاكى ؟ (كذلك سألت أليوشا وهى تجثو على ركبتيها
أمامه فيما يشبه الوجد) • لقد انتظرتك طوال حياتى • كنت أعلم ، كنت
أحس أننى سألتقى فى يوم من ايام بانسان مثلك يعرف كيف يغفر لى •
كنت واثقة من أن أحداً سيحببنى آخر الامر أنا أيضاً ، لغرض آخر غير
عارى •••

سألها أليوشا وهو يتسهم ابتسامة فيها حنان ورقة ، ويميل عليها
ويتناول يدها :

- ماذا فعلت حتى أستحق هذا كله ؟ أنا انما قدمت اليك بصلة ،
بصلة حقيرة ، هذا كل شىء ، هذا كل شىء •••
وتوقف أليوشا عن الكلام وطفق يبكى •
وفى تلك اللحظة سمعت ضجة فى الممر • ان أحداً قد دخل الى

البيت • نهضت جروشنكا مذعورة ذعرأ شديداً • وأسرعت فينيا الى
الغرفة تهتف فرحةً لاهته :

- آنسى ، عزيزتى ، آنسى الطيبة، وصل الرسول ! لقد أرسلت
من موكرويه عربية تستقلينها ، ومضى الخوذى تيموتى يبدل الخيل •
هناك رسالة لك يا آنسى ، رسالة ، رسالة ... هذه هى !

كانت فينيا تمسك الرسالة بيدها وتلوح بها فى الهواء وهى تتكلم •
اتزعت جروشنكا الرسالة منها وأدتها من الشمعة • هى بطلاقة قصيرة
جدا لا تضم الا بضعة أسطر قرأتها جروشنكا بلمحة عين • ثم صاحت
تقول وقد شحب وجهها شحوبا شديدا وتقبض وجهها بابتسامة أليمة :
- لقد صفر لى • لقد صفر لى • ازحف أيها الكلب الصغير !

وظلت مترددة خلال هنيهة قصيرة ، ثم ازدحم الدم فى وجنتيهما
فاحمرتا حتى صارتا بلون الأرجوان ، وهتفت تقول :

- سأذهب ! انتهت تلك السنون الخمس من حياتى • وداعاً وداعاً !
وداعاً لك أنت أيضا يا أليوشا • لقد تقرر مصيرى • اذهبوا ، انصرفوا
الآن جميعا ، ولتغيبوا عن عيني الى الأبد ! ... ان جروشنكا تبدأ حياة
جديدة • لا تحمل لى حقدآ ، أنت أيضا يا راكيتا • من يدري ؟ قد أكون
ذاهبة الى الموت ! آه ... أحسن بأننى سكرى على حين فجأة ...

ثم لم تحفل بهما وركضت الى غرفة نومها •

جمعهم راكيتين يقول :

- لقد طردتنا ... فلنصرف ... ضقت ذرها بهذا الصراخ تطلقه
امرأة هسترية • فلمض قبل أن يُستأنف الصراخ ...
انقاد أليوشا انقياداً آلياً • كانت العربية فى فناء المنزل • خيول

تُحلُّ ، وأناس منهمكون على ضوء مصباح • وأمام الباب أفراسٌ
جديدة • وما ان هبط أليوشا وراكيتين درجات المدخل حتى فتحت
نافذة غرفة النوم ، فإذا جروشكا تصيح قائلة بصوت رنان :

- عزيزى أليوشا ، أبلغ أخاك دمتري تحيتى ، وقل له أن لا يحقد
على هذه الوجدة ، أنا • كرر على مسامعه هذه الكلمات عن لسانى :
« وهبت جروشكا نفسها لرجل بائس ، لا لك أنت النيل » ؛ قل له أيضا
انى أحببته ساعة ، ساعة واحدة ، فليذكر تلك الساعة مدى الحياة ، ان
جروشكا هى التى تأمره بذلك •

ختمت جروشكا كلامها شبهً باكية وأسرعت تغلق النافذة •
غمغم راكيتين وهو يضحك ساخراً :

- هيم° هيم° هيم° • • • • • تغمد سكيناً فى قلبه ، فى قلب أخيك ميتاً
ثم هى تريد أن يتذكرها مدى الحياة • يا للسادية !

لم يجب أليوشا • وكان يبدو عليه أنه لم يسمع • انه يسير الى
جانب رفيقه بخطى حثيثة • ولقد كان فى الواقع ذاهلاً يمشى كآلة • شعر
راكيتين بألم شديد كأن أحدا قد غرز اصبعه فى جرح له لم يلتئم •
ليست هذه هى الخاتمة التى كان يأملها للقاء بين أليوشا وجروشكا •
لقد جرى كل شئ على غير ما كان يتنبأ ؛ ولم يتحقق ما تمنى بكثير من
الحرارة أن يتحقق • قال وهو يحاول أن يسيطر على اعتكار مزاجه :

- صاحبها الضابط بولندى • على أنه ليس الآن بضابط • لقد
عمل زمناً فى ادارة الجمارك على الحدود الصينية • هو طيرحٌ حقير
ما فى ذلك ريب • يُقال انه طرد من وظيفته • وأغلب الظن أنه علم
أن جروشكا قد جمعت بعض المال ، فها هو ذا يعود • • • • • هذه هى
المعجزة كلها !

ما يزال أليوشا صامتا • ولم يطق راكيتين صبراً ، فقال وهو
يضحك ضحكا ساخرا خبيثا :

- هيه ! هل هديتها الى الحق ، هذه الخاطئة ؟ هل رددت المرأة
الضالة الى سبيل الرشاد ؟ هل طردت الشياطين السبعة من روحها ،
مه ؟ هذه هي المعجزة التي انتظرها الناس طويلاً منذ هذا الصباح ...
لقد تحققت !

قال أليوشا متألماً :

- اسكت يا راكيتين !

- أسبب هذه الروبلات الخمسة والعشرين انما تحقرنى الآن ؟
أترانى بعث صديقاً ؟ ما أنت يسوع المسيح فيما أعلم ولا أنا يهوذا
الأسخريوطى !

- أوكد لك اننى لم أكن أفكر فى هذا الامر • أنت الذى تذكرنى
به الآن •

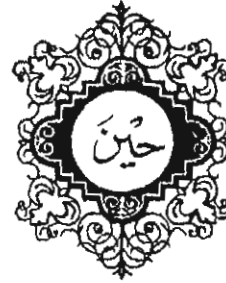
كذلك قال أليوشا ، فغضب راكيتين فى هذه المرة غضباً كاملاً ،
وأعول يقول :

- شيطان يأخذكم جميعاً ! انى لأتساءل ما كانت حاجتى الى
الارتباط بك ! لا أريد أن أعرفك بعد الآن • امض فى سبيلك وحدك !

ومال فجأة فصار فى شارع آخر وترك أليوشا وحيداً فى الليل •

خرج أليوشا من المدينة واتجه الى الدير خلال الحقول •

عشقانا



وصل أليوشا الى الصومعة كان الوقت متأخراً
 جدا بالنسبة الى الأنظمة المتبعة في الدير •
 وسمح له الراهب البواب أن يدخل من ممر
 خفى • كانت الساعة التاسعة قد دقت ، وكان
 كل شيء يستريح بعد نهار مضطرب ذلك الاضطراب كله • تسلك
 أليوشا وجلاً الى الغرفة التي سُجِّي فيها تابوت الشيخ • كان الأب
 بائيسى وحيدا في الغرفة ما يزال يقرأ الانجيل • وكان الراهب المبتدئ
 بروفير الذي أتعبه الحديث الطويل في الليلة البارحة وأتعبته انفعالات
 النهار ، ينام في الغرفة المجاورة على الارض نوما عميقا يتيح له شبا به •
 ولم يلفت الأب بائيسى رأسه رغم أنه سمع دخول أليوشا • اتجه أليوشا
 الى الركن الذي يقع على يمين الباب ، وجنا على ركبتيه ، وأخذ يصلي •
 كانت نفسه طافحة ، غير أن المشاعر المختلفة التي عاها أثناء النهار تختلط
 الآن في نفسه اختلاطا مبهما دون أن تكون لأحدها غلبة ، وانما هي
 تتعاقب ويطرد بعضها بعضا في حركة مطردة هادئة • وشعر أليوشا
 بانفعال رقيق عذب يجتاح نفسه ، فكان العجيب في الامر أنه لم يستغرب
 ذلك الانفعال • انه يرى أمامه التابوت الذي يضم جثمان الراحل

المحبوب ، يراه من جديد ، ولكن الألم الثقيل الذى كان يجثم على صدره طوال الصباح قد حلت محله الآن عاطفة هادئة وادعة . انه حين وصل قد ركع أمام التابوت ركوعه أمام هيكل ، غير أن فرحاً عذباً يملأ الآن روحه ويفيض من قلبه . كانت إحدى نوافذ الغرفة قد تركت مفتوحة ، فمنها يدخل الى الغرفة هواء طرى منعش . قال أليوشا يحدث نفسه : « لا بد أن الرائحة قد اشتدت ما داموا قد قرروا فتح النافذة . » غير أن فكرة رائحة التفسخ التى أثارت فى نفسه عند الصباح ذلك الاضطراب كله وذلك التمرد كله ، والتى كانت تبدو له رهبة فظيعة مهينة للقدر مخللة بالكرامة ، أصبحت الآن لا تزعجه ولا تشعره بشيء من الحرج . أخذ أليوشا يصلى صامتاً . ولكنه لاحظ بعد برهة أنه يصلى صلاة آلية . ان تنفأ متناثرة من أفكار تلامس ذهنه ملامسة وتومض فى خياله كشرارات ثم ما تلبث أن تتطفئ ليحل محلها غيرها . وقد أخذ فى بعض اللحظات يصلى بحرارة وحماسة ، شاعرا بحاجة قوية عنيقة الى أن يشكر وأن يحب ولكن فكره ما يلبث أن ينصرف الى شيء آخر ، فإذا هو يفرق فى أحلام غامضة مبهمة تنسيه الصلاة وتنسيه التأمل الذى قطع الصلاة . أصاح بسمعه فى لحظة من اللحظات الى قراءة الأب بائيسى ، ثم أدركه التعب ، فإذا هو ينحدر شيئاً فشيئاً الى وسن هادى رقيق .

« وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل وكانت ام يسوع

هناك . . . » *

« عرس ؟ ما العرس ؟ واثارت فى فكره زوبعة من الخواطر . هى أيضاً سعيدة . . . ذهبت الى احتفال . . . لم تحمل الخنجر . . . ما كان ذلك منها الا قولاً طائشاً . . . يجب أن تغفر الأقوال الطائشة ، لأنها تهدى النفس . . . وبدونها يصبح ألم الانسان أشد من أن يطاق . . .

غاب راكيتين فى شارع صغير لسوف يغيب فى شوارع صغيرة ما ظل
لا يفكر الا فى الالهات التى تناله هو أما الطريق فهى عريضة
لاحبة مشرقة مضيئة مستقيمة طاهرة نقية نقاء البلور
والشمس هى التى تسطع فى نهايتها ماذا يقرأ الآن ؟ »

« ولما فرغت الخمر قالت ام يسوع له : ليس لهم خمر »

« ها نعم ، لم أتابع القراءة ، مع أنني كنت لا أحب أن تفوتنى
هذه الفقرة ، اننى أحبها كثيرا : عرس قانا ، المعجزة الأولى كانت
تلك معجزة ، معجزة الهية لم يجرى يسوع للحزن ، بل للفرح
.... أفرح قلب الناس بتلك المعجزة الاولى » الذى يحب البشر ،
يحب فرحهم أيضا . » ذلك ما كان يردده الشيخ الراحل بغير
انقطاع ذلك تعليم من تعاليمه الرئيسية لا يستطيع الانسان
أن يحيا بغير فرح ، كذلك يقول ميتيا نعم يا ميتيا كل ما هو
عظيم وجميل يشيع منه الغفران الشامل انه هو الذى كان يقول هذا
أيضا »

« قال يسوع :

« قال لها يسوع : مالى ولك يا امرأة ! لم تات ساعتي بعد .

قالت امه للخدام : مهما قال لكم فافعلوه ! »

« افعلوا كان ذلك لفرح أناس فقراء ، فقراء مغمورين ، فقرا
جدا ، جدا لا شك أنهم كانوا فى فقر مدقع ما دام الخمر قد
أعوزهم حتى لعرس يؤكد المؤرخون أن الأهالى الذين كانوا
يعيشون فى ذلك العصر على ضفاف بحيرة طبرية وفى المناطق المجاورة

لها كانوا أفقر الناس في هذا العالم ... هذه امرأة عليا كانت في العرس ، هي أم يسوع ، تشعر في قلبها بأنه لم ينزل الى الارض الا لهدف واحد هو أن يقوم بنضحته الهائلة ، وأن نفسه قادرة على أن تشارك في الفرح البسيط الساذج الذي يحسد هؤلاء الناس المتواضعون المبرأون من المكر ، الذين دعوه بمحبة الى حضور عرسهم الذي لا تألق فيه . قال لها يسوع وهو يتسم ابتسامة رقيقة : « لم تأت ساعتى بعد » (لا نسك أنه ابتسم في تلك اللحظة ابتسامة لا نهاية لرقتها وعذوبتها) ... أجاها اذن الى الارض ليزيد الخمر في أعراس الفقراء ؟ ومع ذلك لم يتردد ، ولبى رجاها ... »

« قال لهم يسوع املأوا الأجران ماء ، فملأوها الى فوق . ثم قال لهم استنقوا الآن وقدموا الى رئيس السقاة فقدموا ، فلما ذاق رئيس السقاة الماء المتحول خمرا ولم يكن يعلم من اين هي بينما الخدام الذين كانوا قد استنقوا الماء علموا ، دعا العريس وقال له : كل انسان يضع الخمر الجيدة أولا فمتى سكرنا وضع الرديئة ، أما أنت فقد ابقيت الخمر الجيدة الى الآن . »

« ولكن ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ لماذا تتسع الغرفة فجأة ؟ ... آ . . . حقاً ... هو الزواج ... هذا عرس ... طبعاً .. هؤلاء هم المدعوون ... وهذان هما العريسان ، والجمهور الفرح .. ولكن أين هو اذن ذلك الساقى الحكيم جداً ؟ وهذا ، من هذا ؟ من هذا ؟ الغرفة تتسع مزيدا من الاتساع ... من ذا الذي ينهض على المائدة الكبرى هناك ؟ كيف هو ؟ أليكون هو أيضا هنا ؟ ... كنت أحسب أنه في تابوته .. بلى ! انه هو بعينه ... نهض ... رآنى ... ها هو ذا يقبل على ... رباه ! »

واقترب فعلاً من أليوشا ، الشيخ الناحل المخدّد وجهه بغضون

صغيرة • كان فرحاً ، وكان يضحك ضحكا رقيقا حلواً • لقد اختفى
التابوت • والشيخ يرتدى الملابس التي كان يرتديها أمس أثناء ذلك
الحديث الاخير مع أصدقائه • ان وجهه يشرق مودة ومحبة ، وان عينيه
تلتصقان • « كيف أمكن أن يكون هنا ، في هذه الحفلة ؟ أدعى اذن الى
عرس قانا ؟ » • كذلك تساءل أليوشا • فسمع صوتا لطيفا يقول له من
فوقه ، صوتا ألف أليوشا أن يسمعه :

– نعم يا بنى ، لقد دُعيت أنا أيضا ، دُعيت ونوديت • لماذا تخبئى •
فى ذلك الركن ؟ لا يكاد يراك أحد • تعال ، وكن منا ...

هو صوته ، صوت الشيخ زوسيم • لا شك أنه الشيخ ، مادام
يناديه • ومدَّ الشيخ يده الى أليوشا الراكع ، فنهض أليوشا • وتابع
الشيخ المعروق كلامه قائلا :

– ألا فلنبتهج ! لنشرب الخمر الجديد ••• انه خمر فرح جديد ،
فرح عظيم جدا ••• هل ترى جميع هؤلاء المدعوين ؟ هذا هو الخطيب ،
وهذه هى الخطيبة ، وهذا هو الساقى الحكيم جدا ، يذوق الخمسر
المدهشة • لماذا تنظر الى هكذا ؟ لقد وهبت بصلة فقبُلت فى هذه الحفلة •
كثيرون هنا هم الذين لم يهبوا الا بصلة ، بصلة صغيرة جدا ••• كيف
الأحوال عندنا ؟ أنت أيضا ، يا بنى الطيب الوادع ، لا بد أنك وهبت
اليوم بصلة لجائعة مسكينة • ابدأ مهمتك ، واجه عملك ، يا صغيرى
اللطيف ! هل تراه هو ؟ هل ترى يسوع ، شمسنا ؟

دمدم أليوشا يقول :

– أنا خائف ••• لا أجرؤ أن أنظر اليه •

– لا تخف منه • هو مخيف بعظمته التى ترفعه فوقنا ، هو مخيف

بالعلو الذى هبط منه الينا ، ولكن لطفه لا نهايه له • لقد جعل نفسه
شيئاً بنا ، وارتضى بالمحبة أن يشاركنا فرحتنا ، وأحال الماء خمراً حتى
لا تنقطع سعادة الضيوف • وهو ينتظر مدعوين آخرين ، وما ينفك
يدعو منهم المزيد الى الأبد • انظر • ها هم يجيئون بالخمر الجديد ،
ها هم يحملون الأواني •••

كان قلب أليوشا يحترق احترافاً وقد امتلأ بفرح شديد يصاقب
الألم ، وانبجست من عينيه دموع حماسة ••• ومدّ ذراعيه ، وأطلق
صرخة ، واستيقظ من نومه •••

التابوت ما يزال فى مكانه ، والنسافذة ما تزال مفتوحة ؛ وصوت
الأب بائيسى ما يزال يُسمع وقورا هادئاً وهو يقرأ الانجيل ببطء • ولكن
أليوشا لم يصنع اليه • كان قد نام على ركبتيه • والغريب أنه الآن واقف
على قدميه • وها هو ذا يتقدم فجأة ، كأن قوة خفية تدفعه دفعا ، فاذا هو
يصبح قرب التابوت بعد ثلاث خطوات سريعة ، حتى لقد لامس كنف
الأب بائيسى دون أن يلحظ ذلك • رفع الأب بائيسى عينيه وألقى على
أليوشا نظرة قصيرة ، ولكنه سرعان ما استأنف قراءته ، اذ أدرك أن
الفتى كان فى حالة غريبة • وقف أليوشا أمام التابوت نصف دقيقة :
تأمل التابوت ، تأمل المتوفى الساكن الذى غطى وجهه ببرقع ، ووُضعت
بين يديه أيقونة ، ولُفَّحَ رأسه بقبعة يزيناها صليب ذو ثمانية أفرع • لقد
سمع أليوشا صوته قبل بضع لحظات ، وما يزال هذا الصوت يترجع فى
أذنيه • ان أليوشا يصغى وينتظر ••• أترأه يسمعه من جديد ؟ وفجأة ،
استدار أليوشا وخرج من الغرفة •

لم يتوقف عند درجات الباب بل هبطها مسرعا • كانت نفسه التى
تطلق حماسة ، فى حاجة الى فضاء وحرية • هذه قبة السماء تعلوه ممتدة

فى جميع الجهات الى غير نهاية ، مزدحمةً بنجوم تسطع أشعتها سطوعاً
هادئاً • ان المجرة ، التى لا تكاد ترى بعد ، تمتد من السميت الى الأفق •
وان ليلة طرية هادئة صامئة ساجية ، يبدو أنها تلف الأرض بأكملها •
والأبراج ليضاء والقرب المذهبة من الكنائس تبرز على قاع لازوردى •
وأزهار الخريف الغنية تبدو نائمة فى أحواضها التى تحف بالمنزل •
ان سكينه الارض تتحد بسكينه السماء ، وان سر الحياة والنجوم يرفرف
على العالم ••• تأمل أليوشا هذا المنظر ، فاذا هو يتهالك على الأرض
فجأة كمن خارت قواه •

لم يعرف أليوشا لماذا عانق الارض ، ولماذا شعر بمثل هذه الحاجة
الى أن يغمرها بالقبل • كان يقبلها باكياً ، فيرويها بدموعه ، حالفاً بكثير
من الحماسة ليحببها على الدوام ، ليحببها أبد الدهر ••• « اسق الأرض
دموعَ الفرح ، وأحبب دموعك » ، كذلك قال له صوت فى أعماق نفسه •
لماذا هذه العبرات ؟ كان أليوشا يبكى من الحماسة ، حتى لقد كان يبكى
لهذه النجوم التى تنظر اليه من قرارة اللانهاية ، ولم « يكن يشعر بخجل
من هذا الوجد الذى ملأ نفسه » • ان الصلات الخفية التى تشده الى
هذه العوالم البعيدة ، كانت تهتز عندئذ فى قلبه ، وكان يطير فرحاً من
شعوره بشيء « هذا الاتصال بينه وبين الملاء الأعلى » فى نفسه • كان
يشتهى أن يغفر كل شيء لجميع الناس ، وأن يستغفر أيضاً لا نفسه
وحدها بل لجميع الناس ، وعن كل شيء • ومرة أخرى قال صوت فى
أعماق نفسه : « ان آخرين سيسألون لى اللطف » • وشعر فى الوقت
نفسه باحساس واضح جدا ، احساس يشبه أن يكون جسميا ، أن
نفحة قوية خالدة كانت تهبط من قبة السماء ، وتحتاج كيانه كله شيئاً
بعد ، شيء ، كفكرة تبرغ فى روحه لتحكمها الى الأبد • كان أليوشا قد
سقط على الأرض فتى واهناً ضعيفاً ، ولكنه حين نهض الآن أحس بأنه

مناضل جسور على مدى ما بقى له من أيام فى هذه الحياة • واختلط
وعيه لهذا التبدل المفاجئ الذى وقع له ، اختلط بحماسته ، فاذا هو فى
حالة نفسية جعلته لا ينسى تلك الدقيقة فى يوم من الايام • وقد ظل
يؤكد بعد ذلك باقتناع عميق « أن أحداً قد زار نفسه فى تلك اللحظة » •
وبعد ثلاثة أيام ترك الدير متبعاً وصية الشيخ الراحل الذى
« أرسله الى العالم » •

الباب الثامن: مَيَا

١

كوزماساسونوف



دمترى فيدوروفتش الذى « أمرت » جروشكا ،
وهى تطير نحو حياة جديدة ، بأن يُبلغ
سلاماً أخيراً ، مع المطالبة بأن يحفظ الى الأبد
ذكرى ساعة قصيرة من حب وهبته له ، كان
يجتاز هو أيضاً ، رغم جهله بما كان يحدث للمرأة الشابة ، كان يجتاز
فترة عصبية من الاضطراب الشديد والقلق الرهيب . انه يعيش منذ
يومين فى حالة نفسية لا سبيل الى وصفها ، حتى ليكاد يصاب باحتقان فى
الدماغ على حد التعبير لذى استعمله هو فيما بعد . لم يستطع ألوشا أن
يهتدى اليه وأن يعثر عليه حين بحث عنه فى الصباح ؛ ولا هو جاء بعد
ذلك بقليل الى الموعد الذى كان قد ضربه لأخيه ايفان فى الكاباريه .
وقد صمت أصحاب الدار التى كان يقيم فيها ، نزولاً على ارادته وتنفيذاً
لأوامره . وظل هو خلال يومين بضرب فى الارض على غير هدى وبغير
راحة « مضارعاً قدره ساعياً الى خلاصه » ، كما صرّح بذلك فيما بعد .
حتى لقد غاب عن الدينه بضع ساعات بسبب أمر مستعجل ، رغم أنه كان
يرى أن الانتعاش فى مثل هذه المرحله وذاك حرو وسكا بلا رقبته أمر

رهيب • سوف نذكر هذه الظروف المختلفة بتفاصيلها بعد قليل ، وحسبى
الآن أن أسرد أهم وقائع هذين اليومين الرهيبيين ، هذين اليومين
الأخيرين للذين سبقا سقوط الكارثة على حياته ذلك السقوط القاسى
المفاجئ •

صحيح أن جروشنكا قد أحبته خلال ساعة من الزمان حباً صادقاً،
ولكنها فى مقابل ذلك قد عذبتة مرارا بقسوة لا رحمة فيها • وأنكى
ما فى الامر أنه لم يستطع أن يفهم عواطفها الحقيقية فهماً واضحاً • ولم
يكن له أى أمل فى أن يكتشف هذه العواطف لا بالملاطفات ولا بالقوة •
ولو قد حاول ذلك لعاندته فى جميع الاحوال ولتركته غاضبة حائرة •
كان هو يشعر بذلك شعوراً كاملاً • وكان يدرك أنها تتجناز هى نفسها
فى تلك الساعة أزمة عصبية وأنها تتخبط فى حيرة شديدة ، فهى توشك
أن تعزم أمرها دائماً ثم تتردد كل مرة فى آخر لحظة ؛ وكان يقدر
- وليس يخلو تقديره هذا من حق - أنها كانت فى بعض الأحيان تكرهه
وتكره غرامه بها • لعله لم يكن مخطئاً فى هذا ، ولكن السبب الحقيقى
للقلق الذى تعانيه جروشنكا كان يفوته • وكانت المسألة التى تعذبه انما تتردد
فى الواقع الى هذا الاختيار بين شخصين لا ثالث لهما : « اما هو ميتا ،
واما فيدور بافلوفتش » • وهنا يحسن أن نوضح النقطة التفصيلية التالية:
كان ميتا مقتنعا اقتناعاً مطلقاً بأن فيدور بافلوفتش مستعد لأن يتزوج
جروشنكا (ولعله عرض عليها ذلك) ، وكان لا يتخيل فى لحظة من
الملاحظات أن العجوز الفاسق قد خطر بباله أن يصل الى تحقيق أغراضه
دون أن يضحى بشيء الا ثلاثة آلاف روبل • هكذا كان يفكر دمتري
على أساس ما يظن أنه يعرفه من طبع جروشنكا • لذلك كان من الممكن
أن يقدر أن ما تعانيه المرأة الشابة من قلق وتردد انما يرجع الى أنها
لا تدرى من تختار منهما ، جاهلةً أيهما أنفع لها وأجدى عليها • أما

أن يعود فى القريب ذلك « الضابط » ، ذلك الرجل المشؤم الذى احتل هذا المكان كله فى حياة جروشكا والذى كانت جروشكا تنتظر وصوله بذلك القدر كله من نفاد الصبر وشدة الخوف ، فان دمترى لم يخطر بباله هذا الامر مرة واحدة خلال تلك الأيام ، مهما بيد ذلك غريبا . صحيح أن جروشكا أصبحت منذ زمن طويل لا تكلمه فى هذا الامر ، ولكن دمترى كان يعلم أن صاحب جروشكا قد كتب اليها ، لأنها أطلعتة على الرسالة التى تلقتها منه منذ شهر ، وكان يعرف بعض ما تضمنته هذه الرسالة . لقد أطلعتة جروشكا على الرسالة بدافع القسوة ، فما كان أشد دهشتها حين رأت أنه لم يول الرسالة أى اهتمام فى أول الامر ، ولا اكثر لها . انه لمن العسير أن نشرح السبب الذى جعل دمترى لا يحفل بالرسالة ولا يقيم لها وزناً كبيراً . لعل ذلك يرجع ، ببساطة ، الى أنه قد بلغ من شدة رزوحه تحت وطأة هول تنافسه مع أبيه على هذه المرأة أنه كان يستحيل عليه أن يتخيل مصيبة أكبر من تلك المصيبة وشقاء أعظم من ذلك الشقاء ، فى تلك الفترة على الأقل . أضف الى ذلك أنه كان لا يتصور أن من الممكن أن يعود خطيب بعد غياب خمس سنين ، وأنه كان لا يصدق خاصة أن يعود قريباً . هذا الى أن رسالة « الضابط » لم تتضمن اشارة الى مجيئه الا بكلمات غامضة : لقد كانت الرسالة لا تحتوى الا أموراً عامة ومناجيات غائمة وتصريحات عاطفية . يجب أن نذكر أن جروشكا قد أخفت عنه الأسطر الأخيرة التى يشير فيها كاتب الرسالة الى عودته القريبه بشئ من الوضوح . وكان دمترى بتذكر عدا هذا أنه لاحظ أن المرأة الشابة ، حين أطلعتة على الرسالة ، قد أظهرت على غير ارادة منها احتقارها للرجل الذى كتب اليها الرسالة من أقصى سبيرا . ولم تفض جروشكا الى دمترى بعد ذلك بأى شئ عن الاتصالات التى تمت بينها وبين ذلك الرجل ، الى أن نسي دمترى

وجوده شيئاً بعد شيء • فكان لا يشغله الا اعتقاده بان الصراع الحاسم بينه وبين فيدور بافلوفتش يبدو وشيكاً مهما يحدث من أمر ، فلا بد أن تحل هذه المسألة على أى حال من الأحوال قبل سائر المسائل • وكان ينتظر على أحر من الجمر قلقاً ، أن تتخذ جروشكا قرارها من دقيقة الى دقيقة ، وكان يقدر انها ستتخذ هذا القرار فجأة بما يشبه الوحى أو الالهام ، فتقول له ذات يوم : « خذنى ، أنا لك الى الأبد » ، وينتهى كل شيء ، فيقبض عندئذ عليها ، ويمضى بها الى آخر العالم • نعم • • • ليأخذنها عندئذ فوراً الى أبعد مكان ممكن ، ليأخذنها الى أقصى روسيا ان لم يأخذها الى أقصى الأرض ؛ وسوف يتزوجان ويستقران مجهولين لا يعرفهما أحد ، ولا يمكن أن يهتم بهما أحد بعد ذلك لا هنا ولا هناك • ولسوف تبدأ عندئذ حياة جديدة ! كذلك كان دمتري لاينى يحلم متحمساً بالحياة الجديدة ، الحياة « الفاضلة » (الفاضلة خاصة) • لقد كان فى ظمأ شديد الى هذا التجديد ، الى هذا الانبعاث ، لأنه كان يتألم تألماً قوياً من الحماة الحقيرة التى تردى اليها وغاص فيها بارادته ؛ وكان ، ككثير من الرجال فى مثل هذه الحالة ، يؤمن بالخلاص عن طريق تغيير البيئة : فلا يرى هؤلاء الناس ولا يعيش فى هذا الوسط بعد الآن • كان يتصور أنه متى ترك هذا المحيط تغير كل شيء بين عشية وضحاها ، وبدأت حياة جديدة على أسس جديدة • ذلك كان أمله ، الى هذه الغاية انما كانت تتجه أحلامه نافذة الصبر •

غير أن هذا الحل لا يمكن أن يتحقق الا اذا اتخذت جروشكا القرار الأول ، القرار السعيد التى تختاره فيه من دون أبيه • وهناك قرار ثانٍ ما يزال من الممكن أن تتخذه جروشكا ، هناك حل آخر رهيب يمكن أن يتحقق ، هو أن تقول له مثلاً على حين فجأة : « اغرب عنى الآن ، فلقد اتفقت مع فيدور بافلوفتش اتفاقاً نهائياً وقررت أن أتوجه ،

فلا حاجة بى اليك بعد اليوم * * * ففى هذه الحالة * * * فى هذه الحالة * * *
لقد كان ميتيا لا يعرف هو نفسه ما قد يحدث عندئذ ، ولقد ظل
لا يعرف ذلك الى آخر دقيقة * * * علينا أن نذكر هذه الحقيقة تبرئة
له * انه لم يعقد نيته على شىء ، ولم يفكر فى ارتكاب جريمة * كان
لا يزيد على أن يراقب ويترصده ويتربص ويتجسس ، ويتعذب بغير
انقطاع ، ولكنه لا يتصور الا الحل الأول ، ولا يتنبأ الا بالخاتمة السعيدة ،
ويطرده من ذهنه كل فكرة أخرى * على أن هناك صعوبة أخرى كانت
تنبه جس عندئذ وتجعله قلقاً مهموماً مغموماً ؛ ذلك أن عقبة جديدة تقف
عثرة فى طريقه حتى حين يتحقق الحل الأول السعيد ، عقبة خارجية
طلبها ، ولكنها عقبة رهية يستحيل تذليلها على كل حال *

هب جروشنكا قالت له : « أنا لك ، خذنى » ، فما عساه يفعل من
أجل أن يرحل معها ؟ أين يجد المال اللازم للسفر ؟ ان الأموال التى
هياتها له دفعات فيدور بافلوفتش قد نفدت نفاداً تاماً * صحيح أن
جروشنكا تملك مالاً ، ولكن ميتيا كان يشعر عندئذ على حين فجأة
بكبرياء شديدة تستيقظ فى نفسه ، كبرياء عنيفة لا تشنى ولا تلين * لقد
كان يحرص أشد الحرص على أن يتحمل هو نفقات الرحيل ، وأن يبدأ
معها حياة جديدة بماله ، ويرفض أن يعيش عائلة عليها * كان لا يطيق
أن يتصور أن يأخذ من مالها شيئاً ، وكان اذا تصور ذلك يبلغ من شدة
الألم حدَّ الاشمئزاز من نفسه * لن أحاول أن أشرح هنا هذه الحالة
النفسية ولا أن أحللها ، وحسبى أن أقرر ان هذه كانت عاطفته ، وان
هذا كان شعوره * جائز جداً أن يكون هذا الموقف قد أملاه عليه ، على
غير شعور منه ، ما قاساه ضميره من عذاب خفى منذ أن استولى على المبلغ
الذى ائتمته عليه كاترين ايفانوفنا * لقد كان دمرتى يقول لنفسه فى
بعض الأحيان ، كما اعترف بهذا فيما بعد : « أنا وغد حقير فى نظر

الأولى ، وسأصبح وغداً حقيراً فى نظر الثانية * اذا علمت جروشكا بالأمر ، فلن ترضى بنذل مثلى * ولكن أين عساه يجد المال اللازم والحالة هذه ؟ أين عساه يجد المال الذى يحتاج اليه هذا الاحتياج الفاجع كله ، والذى بدونه سيتعرض كل شىء للخطر ، وبدونه لن يمكن أن يتحقق أى هدف ؟ « أكل هذا بسبب مسألة مالية حقيرة ؟ آه ... يا للشقاء ! » *

سأستبق الآن القصة فأشير الى أن مترى ربما كان يعلم أين يمكنه أن يجد هذا المبلغ ، وربما كان لا يجهل فى أى مكان يوجد هذا المبلغ . ولن أدخل الآن فى سرد التفاصيل التى ستعرض فى حينها * غير أننى سأبين ، على نحو قد لا يكون واضحاً وضوحاً كافياً (ولكن لا ضير !) ، ماذا كانت الصعوبة الكبرى فى نظره : لقد كان يرى أن عليه ، حتى يستطيع أن يأخذ المبلغ المخبأ فى مكان ما ، حتى يكون « من حقه » أن يستولى على هذا المبلغ ، كان يرى أن عليه أولاً أن يردّ الثلاثة آلاف روبل التى يدين بها لكاترين ايفانوفنا * « والا لم أكن الا سارقاً صغيراً ، الا لصاً حقيراً ، وسيستحيل علىّ عندئذ أن أبدأ حياة جديدة » . كذلك كان يقول ميتيا لنفسه ، ولهذا قرر أن يقلب العالم رأساً على عقب اذا لزم الأمر ، من أجل أن يستطيع ردّ المبلغ الى كاترين ايفانوفنا . وقد اختتم هذا القرار فى نفسه فى الأيام الأخيرة ، أثناء الساعات التى أعقبت لقاء أليوشا فى الطريق ، بعد أن علم من أخيه بأمر الاهانة التى ألحقها جروشكا بكاترين ايفانوفنا ، فهتف يقول : « قل هذا عن لسانى لكاترين ايفانوفنا اذا كان ذلك يمكن أن يهدىء روعها » . ولقد شعر أثناء تلك الليلة ، وهو على ما هو عليه من اضطراب شديد ، « بأنه يحسن صنماً اذا هو قتل أحداً وسلبه ما معه فى سبيل أن يرد الى كاتيا مالها » . قال يخاطب عندئذ نفسه : « ألا فلأصبح قاتلاً ولصاً فى نظر ضعيتى وفى

نظر جميع الناس ، ألا فلأرسل الى سجون الأشغال الشاقة بسييريا ،
فى سبيل أن لا تستطيع كاتيا أن تقول عنى اننى لم أخنها فحسب ، وانما
سرقها أيضا وسطوت على مالها لأهرب مع جروشنكا وأبدأ بذلك حياة
حديدة . لا أطيق أن تقول عنى كاتيا هذا الكلام ! . ذلك ما كان
يحدث به ميتا نفسه وهو يكرز أسنانه ، وكان من حقه فعلاً أن يخشى
أن يصاب باحتقان فى دماغه . ولكنه كان ، حتى تلك اللحظة على الأقل ،
ما يزال يكافح ...

والامر الغريب أنه كان من الممكن أن يبدو له أن الهدف الذى
يسعى اليه لا يمكن تحقيقه وانه لم يبق له الا أن يياس ، فمن أين يمكنه
الحصول على مثل هذا المبلغ الكبير من المال بينما هو يتخطب منذ الان فى
فقر مدفع وبؤس أسود . ومع ذلك ظل يأمل حتى النهاية ، واثقاً من
أنه سيعثر على مبلغ الثلاثة آلاف روبل هذا ، وأن هذا المبلغ سيهبط عليه
من السماء عند الحاجة . فكذلك يفكر على وجه العموم أولئك الذين
لم يعرفوا فى حياتهم الا تبديد ما ورثوا ، مثل دمترى ، والذين يجهلون
كل شئ عن طريقه جنى الرزق وتحصيل المال . ان مشاريع خيالية
عجيبة تغل وتنفور فى ذهنه منذ أن ترك أليوشا قبل يومين ، وقد اختلطت
فى عقله أبسط المعانى واضطربت أيسر الأفكار ، فبدأ مساعيه بمشروع
هو أسخف ما يمكن أن يتخيله الخيال من مشاريع . ومن الجائز على
كل حال أن تكون أشد الأفكار شذوذا وأكثرها اغرابا وأعقمها ايغالا
فى عالم الأوهام هى التى تفرض نفسها أكثر من غيرها على أناس من
نوعه فى ظروف كظروفه ، وتبدو لهم سهلة التحقيق . لقد قرر دمترى
أن يذهب الى التاجر سامسونوف ، حامى جروشنكا ، ليعرض عليه
« صفقة » ويحصل منه فورا على الثلاثة آلاف روبل سلفة على الربح .
كان دمترى لا يخامرہ شك فى قيمة مشروعه من الناحية التجارية ،

وانما كان يتساءل كيف عسى يستقبله المعجوز • وكان دمترى يعرف المعجوز وجهاً ، ولكنه لم يكلمه يوماً حتى ذلك الحين • وكان مقتنعا منذ زمن طويل ، على كل حال ، سواء أكان اقتناعه هذا خطأ أم صوابا ، بأن هذا المعجوز الفاسق الذى وضع احدى قدميه فى القبر منذ الآن ، لن يعارض فى أن تبني جروشنكا لنفسها حياة شريفة بتزوج رجل « يستحق الثقة » • كان يقول لنفسه : « أغلب الظن أن المعجوز لن يرى أى ضير فى هذا ، بل لعله يتمناه ويساعد فى تحقيقه اذا عرضت الفرصة • » • وكان يعتقد أيضا ، على أساس شائعات غامضة وعلى أساس أقوال أفلتت من جروشنكا ، أن سامسونوف يؤثره على فيدور بافلوفتش زوجاً للمرأة الشابة فى المستقبل • ربما كان بعض قرائى يرون أن حسابا كهذا الحساب من جانب دمترى ، وما عقد عليه النية من استلام خطيبته من يدى حاميتها ان صبح التعبير ، يدلان على أن دمترى فيدوروفتش يفكر الى رقة الشعور وأناقاة السلوك افتقارا شديدا ، وأنه امرؤ تخلو نفسه من وساوس الضمير خلواً عجيباً • ولكننى أجيب على هذا بقولى ان ميتا كان يرى أن ماضى جروشنكا قد دُفن الى الأبد • لقد كان شقاؤه وسقوطه يوظفان فى نفسه شفقة عظيمة ورحمة لا حدود لها • لقد دفعته حرارة الهوى الى الاعتقاد بأن جروشنكا ستبعث بعثاً جديدا وتصبح امرأة جديدة متى صارحته بحبها وقررت أن تتزوجه ، وأنه سيُبعث هو نفسه بعثاً جديدا ، فيكون فى وسعهما كليهما أن يبدءا حياة مبرأة من كل اثم ، حياةً كلّها فضيلة : لسوف يغفر كل منهما لصاحبه أخطائه ، ويعيشان حياة جديدة كل الجودة • أما كوزما سامسونوف فكان دمترى يرى أنه قد لعب فى حياة جروشنكا ابان صباها دوراً مشثوماً و لاشك ، وأنه لم يجبها على كل حال ، ولكن دمترى كان يرى أيضا أن كوزما - وهذا هو الأمر الأساسى - قد « انقضى » هو أيضا ، فلا يُحسب بعد الآن •

أضف الى ذلك أنه لم يكن يستطيع كثيراً في اللحظة الراهنة أن يرى في هذا العجوز رجلاً ، فلقد كان معلوماً في المدينة أن كوزما ليس اليوم الا خرقه بالية ، وكان الناس لا يجهلون أنه لم تبق له بجروشنكا الا علاقات أبوية ان صح التعبير ، وذلك منذ زمن غير قصير ، منذ ما يقرب من عام . صحيح أن موقف ميتيا هذا فيه كثير من السذاجة ، ولكن ميتيا كان على جانب عظيم من السذاجة حقاً رغم جميع عيوبه . فكذلك كان يظن لبساطته أن العجوز كوزما الذى يشعر بأنه يوشك أن يبارح هذا العالم كان يحس بندامة صادقة على سلوكه مع جروشنكا؛ وأن جروشنكا ليس لها فى هذا العالم فى هذه اللحظة صديق أشد اخلاصاً وأكثر تنزهاً من هذا العجوز الذى أصبح الآن لا يُخشى منه أذى .

ففى غداة الحديث الذى جرى بين ميتيا وأليوشا على الطريق ، ذهب ميتيا الذى لم يغمض له جفن طوال الليل ، ذهب الى منزل سامسونوف فى الساعة العاشرة من الصباح ، وأعلن عن نفسه . المنزل مبنى حزين المظهر ، عظيم الاتساع ، له طابق فوق الطابق الأرضى ، وله ملحقات كثيرة وجناح فى الفناء . ان الطابق الأرضى يسكنه ابنا التاجر المتزوجان ، وأخته الطاعنة فى السن ، وابنته التى لم تتزوج . أما الجناح الذى فى الفناء فيسكنه اثنان من مستخدميه فى تجارته ، أحدهما ذو عائلة كبيرة . ان أولاد سامسونوف ومستخدميه تضيق بهم مساكنهم ، بينما الطابق الأعلى وقف على سامسونوف وحده ، الذى كان يرفض حتى أن تشاركه فيه ابنته . ومع ذلك كانت ابنته هذه تعتنى به وترعاه ، وكان عليها ، فى ساعة محددة ، وكلما ناداها ، أن تذهب اليه وأن تصعد السلم رغم مرض الربو الذى تشكو منه منذ زمن طويل . ان الطابق الأعلى الذى يسكنه العجوز يتألف من حجرات واسعة متتابعة ، مؤثثة على الطراز الذى كان يحبه التجار فى الماضى ، قد اصطفت على طول جدرانها مقاعد

متشابهة ثقيلته من خشب الأكاجو ، وعلقت فى سقفها ثريات من الكريستال مجللة بأغطية ، ووضعت فى زواياها مرايا قاتمته . ان هذه الحجرات خالية من السكان الآن ، لأن العجوز المريض أصبح لا يغادر غرفة نومه الصغيرة التى تقع فى آخر البيت التى تخدمه فيها خادم عجوز تقمط رأسها دائماً بمديل ، و « صبي » ينام على دكة فى الدهليز . وقد أصبحت ساقاه المتورمتان لا تكادان تتيحان له أن يمشى ، فهو يكتفى بأن ينهض عن كرسيه بمساعدة الخادم العجوز من حين الى حين ليسير بضع خطوات فى الغرفة . وهو قاسى الطبع متجهم المزاج لا يتكلم الا قليلاً حتى مع هذه الخادم .

فلما أبلغ زيارة « الكابتن » ، رفض أن يستقبله فى أول الأمر ؛ ولكن ميتيا ألحَّ أن يراه ، فسأل العجوزُ الصبىَّ هل يبدو على الزائر أنه سكران أو هل يظهر عليه أنه يسعى الى فضيحة . فقال الغلام :

... لا . ما هو بسكران ، ولكنه لا يريد أن ينصرف .

فرفض العجوز مرة أخرى أن يفتح بابه . ولكن ميتيا لم يفقد سيطرته على نفسه ولم يذهب صبره ، لأنه كان قد تنبأ بالأمر ، وتزود سلفاً بقلم وورقة . فها هو ذا يكتب على الورقة « أن القضية قضية مستعجلة تتصل بأجرافين ألكسندروفنا من كتب » ، ويرسل الورقة الى التاجر العجوز . فكَّر سامسونوف بضع لحظات ، ثم أمر الصبى بادخال الزائر الى الصالون ، وأسرع يرسل الخادم العجوز فى الوقت نفسه الى ابنه الأصغر أمراً اياه أن يصعد اليه فوراً ، فسرعان ما حضر الابن دون أن ينطق بكلمة . انه رجل طويل القامة عريض الجسم قوى قوة هرقلية ، حليق اللحية يرتدى الزى الألماني (أما سامسونوف نفسه فكان يرتدى قبطانا وكانت له لحية) . ان جميع أفراد الأسرة يرتعدون

خوفاً أمام الأب • ولقد استدعى العجوز ابنه القوى هذا لا خوفاً من الكابتن ، فانه لا تموزه الشجاعه ، ولكن ليكون هنالك ساعد ذا لزم أن يكون هناك شاهد • وهما هو ذا يتسند على ابنه وعلى الصبي فيظهر أخيراً فى عتبة الصالون كتله مائجه • وربما كان ينبغي أن نسلم بأنه كان يشعر بكثير من الاستطلاع والفضول •

ان الصالون الذى كان ميتيا ينتظر فيه هو غرفة واسعة كالحج ، من شأن مظهرها وحده أن يقبض الصدر ويهوى النفس للحزن ، وهى مزدانة بثلاث ثريات كبيرة مجلله بأغطية ، وسماط من اللوحات تصطف فى القسم الأعلى من الجدران المصنوعة من مقلد المرمر • كان ميتيا جالساً على كرسي قرب الباب ينتظر أن ينقرر مصيره وهو فى حالة عصبية شديدة • فلما ظهر العجوز فى الباب المقابل له على مسافة عشرين متراً ، نهض فجأة وتقدم نحوه بخطى واسعة حازمة هى خطى جندى • لقد كان حسن الهندام ، يرتدى رندجوتاً معقود الأزرار ، ويحمل يديه قبعة مدوّرة ، ويلبس قفازين سوداوين ، تماماً كما كان قبل ثلاثة أيام فى الدير عند الشيخ أثناء لقائه بفيكتور بافلوفتش وأخويه • انتظره العجوز واقفاً ، رصين المظهر وفور الهيئة ، وشعر ميتيا حين اقترب منه أنه كان يتفرس فيه ويفحصه بانتباه • وقد خطف بصره ما كان قد أصاب وجه كوزما كوزمتش من تورم شديد منذ زمن • ان شفة كوفما السفلى ، وهى شفة سمكة ، تبدل الآن تدلياً • انحنى سامسونوف أمام ضيفه صامتا رصينا ، وأشار له الى مقعد أمام كنية جلس عليها هو بتهالك بطيء مستندا الى ابنه مطلقا من صدره بعض الأنين • فسرعان ما شعر ميتيا أمام هذه الجهود الأليمة التى يبذلها العجوز ، بعذاب الضمير من أنه ، وهو الشاب التافه ، قد أجاز لنفسه أن يزعم شخصية مرموقة كهذه الشخصية الكبيرة •

قال العجوز أخيراً بعد أن استقر على الكنية :

— ماذا تريد يا سيدى ؟

وقد ألقى هذا السؤال بصوت بطيء قاس ، مجزئاً مقاطع كلماته ، ولكنه ألقاه بلهجة مؤدبة مهذبة •

ارتعش ميتيا ، وأراد أن ينهض ، ولكنه عاد يجلس فوراً ، وبدأ شروحه متكلماً بسرعة كبيرة وعصبية سديدة ، مكتراً من الحركات والاشارات ، لأنه كان فى حالة احتياج عظيم • فمن رآه أحس أنه أمام رجل اندفع الى آخر مدى يحاول أن يجد مخرجاً من مأزقه وأنه مستعد لأن يلقى نفسه فى الماء اذا أخفق • ولا شك أن العجوز سامسونوف قد لاحظ ذلك من أول نظرة ، ولكن وجهه ظل بارداً هادئاً رصيناً مغلقاً كأنه وجه تمثال •

— لا شك أن كوزما كوزميتش المحترم جداً قد سمع عن منازعاتى مع أبى فيدور بافلوفتش كارامازوف الذى سلبنى ميراثى من أمى المرحومة *** ان المدينة كلها تلغظ فى هذا الأمر منذ زمن طويل ، لأن الناس هنا قد تعودوا هذه العادة البشعة وهى أن يهتموا بما لا يعينهم • • ولا شك أنك علمت من جروشنيكا — معذرة — أردت أن أقول أجرافين ألكسندروفنا التى أحترمها وأبجلها الى غير حد • • •

بهذه الكلمات بدأ ميتيا حديثه ، ثم لم يلبث أن اضطرب • على أننى لن أنقل هنا أقواله كلمة كلمة ، وحسبى أن ألخص مضمونها الأساسى • اليكم ما ذكره دمترى : لقد ذكر أنه استشار منذ ثلاثة أشهر محامياً من البندر (كان ميتيا يعتمد أن يستعمل فى شروحه تعابير رائية فى البيئة التى ينتمى اليها سامسونوف) • قال :

— ذهب الى بافل بافلوفتش كورنييلودوف الشهير الذى لعلك

تعرفه يا كوزما كوزمتش ... هو انسان عريض الجبهة ... له ذكاء يشبه أن يكون ذكاء رجل دولة ... انه يعرفك أيضا ... وقد أثني عليه ثناءً عظيماً ...

هنا اضطررت ميتيا من جديد وأرتج عليه . ولكنه كان يثوب الى نفسه في كل مرة ، منتقلاً الى فكرة جديدة بدون تدرج . عاد يقول ان كورنييلودوف هذا ، بعد أن أصغى الى شروح ميتيا ، ونظر في الأوراق التي وضعها بين يديه (لم تكن شروح ميتيا بصدد هذه الأوراق واضحة ، وانما هو مرّ على هذا الجزء من حديثه مروراً سريعاً ، رأى ، فيما يتعلق بقرية تشرماشنيا ، وهي القرية التي كان يجب أن تثول اليه مع انني لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسي الا سبعة عشر ألف على العجوز النذل ، وأن هذه الدعوى يمكن أن تضع العجوز في مأزق صعب ... » لأن جميع الطرق ليست مسدودة ، ولأن القضاء يعرف كيف يجد الطريق التي تؤدي الى الهدف ؛ أي أن من الممكن الحصول بهذه الوسيلة من فيدور بافلوفتش على مبلغ يصل الى عشرة آلاف روبل من قبيل التعويض ، لأن تشرماشنيا تساوى في الواقع خمسة وعشرين ألف روبل ، وحتى ثمانية وعشرين ألف روبل حتماً .

— ثلاثون ألف روبل ، ثلاثون ألف روبل يا كوزما كوزمتش ، مع انني لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسي الا سبعة عشر ألف روبل ، تصور ! ولكنني آثرت أن لا أرفع دعوى ، لأنني لا أفهم في شئون المخاصمات شيئاً ... فلما وصلت الى هذه المدينة رأيتني لاحقاً وأطارّد (هنا اضطررت ميتيا أيضاً وأسرع يقفز الى موضوع آخر) ... هل تقبل ، في هذه الشروط ، يا كوزما كوزمتش المحترم ، أن أتنازل لك عن جميع حقوقى عند هذا الشيطان الرجيم ، على أن تدفع لى فى مقابل ذلك ثلاثة آلاف روبل فحسب ؟ ... انك لا تجازف بشيء على

الاطلاق ، أؤكد لك ذلك صادقاً ، وأحلف لك عليه بشرفى ...
بالعكس : لسوف تُردُّ إليك هذه الثلاثة آلاف ستة أو سبعة ... وانما
المهم أن تتم هذه الصفقة كلها « اليوم » . اننى مستعد لأن أوقع عقداً
مسيجلاً لدى الكاتب بالعدل ، أو شيئاً من هذا القبيل ... أى اننى
مستعد لكل شئ أعطيك الأوراق التى ستحتاج إليها ، وأتنازل لك
عن جميع الحقوق التى تريدها ... نبرم العقد فوراً ، فى هذا الصباح
ان أمكن ، اذا كنت تستطيع ذلك ... ثم تعطينى الثلاثة آلاف روبل ...
أنت الذى تعد أغنى رجل فى هذه المدينة ... وبذلك تقضى وتهب
لى فرصة تحقيق مشروع سامٍ جداً نبيل جداً فى الواقع ... فاننى
أضمر عواطف رقيقة لانسانة تعرفها أنت وتسهر عليها وترعاها رعايته
الأب ابنته ؟ وما كان لى أن أجيء اليك لولا علمى بأنك قد أصبحت لها
بمثابة الأب حقاً . واذا شئنا الدقة فى التعبير وجب أن نقول ان رجالاً
ثلاثة يتصادمون هنا ، لأن القدر قوة هائلة رهية يا كوزما كوزميتش .
فلنكن واقعيين يا كوزما كوزميتش ، لنكن واقعيين ! واذا انت أصبحت منذ
زمن طويل لا تُحسب فى عداد المتصادمين ، فلم يبق هنا لك الا خصمان
يتنازعان . اننى أعبر عما بنفسى تعبيراً أخرق ، أنا أعرف ذلك ، ولكننى
لست بأديب . المهم أنه لم يبق هنالك الا أنا من جهة ، وذلك الشيطان
الرجيم من جهة أخرى . فاختر الآن : أتختارنى أنا أم تختار ذلك
الشيطان ؟ كل شئ متوقف عليك منذ الآن . انك تملك فى يديك
مصائر ثلاثة أشخاص ، وعليك أنت أن ترمى النرد فتفصل فى الأمر ...
اعذرني اذا رأيتنى أرتبك ولا أحسن التعبير : ولكنك ستفهمنى ولا شك .
اننى أرى من نظرات عينيك المحترمتين أنك ستفهمنى ، فان لم تفهمنى
فلن يبقى لى الا أن ألقى نفسى فى الماء ، هذا هو الأمر ...

قطع ميتاً حديثه الغريب المدهش فجأة بعد أن نطق بجملته

السخيفة تلك : « هذا هو الأمر » ، ونهض عن مكانه بوثبة واحدة ينتظر الردَّ على عرضه المضحك • لقد أحس على حين بفته وهو يختم تلك الجملة ، أن كل شيء قد ضاع الى غير رجعة ، وأنه قد ارتكب على وجه الخصوص حماقة كبرى • قال يحدث نفسه مضطرباً مرتبكاً متحيراً « غريب ! كنت حين وصولي أحسُّ أن الفكرة رائعة ، فإذا هي لا تسفر في النهاية الا عن غباء » وكان العجوز أثناء تدفق ميتيا في الكلام ، يحافظ على هدوء وضعه ، ويلاحظ محدثه وقد لاح في عينيه تعبير بارد برودة الثلج • فلما أنهى ميتيا كلامه ، جعله العجوز ينتظر الجواب دقيقة ، ثم قال له بلهجة حازمة مؤسفة :

— متأسف يا سيدى ! اننى لا أتعاطى أعمالاً من هذا النوع •
أحس ميتيا بساقيه تنشيان ! وتتم يقول وهو يتسهم ابتسامة يرثى لها :

— ولكن يا كوزما كوزمتمش ، ما عسى أصير اليه فى مثل هذه
الحالة ؟ لقد هلكتُ اذن ، ألا تصدق ذلك ؟
— آسف ...

لبث ميتيا جامداً ساكن النظر ، ولكنه لاحظ عندئذ شيئاً من
الانفراج فى عضلات وجه سامسونوف ، فارتعش وعالده الأمل فجأة •
قال العجوز :

— أنا يا سيدى لم أعود تعاطى أعمال كهذه ، فانى أكره الدعاوى
وأقت المحامين ... ومع ذلك فى وسعى أن أدلك ، اذا شئت ، على
شخص يمكنك أن تتجه اليه وتكل عليه ...
قدمم ميتيا يقول :

— من هو ؟ آه ... يا رب ! انك تردُّ الى الحياة يا كوزما
كوزمتمش !

- ليس هذا الرجل من هنا ، وليس يقيم الآن فى هذه المدينة أيضا .
انه فلاح يتعاطى تجارة الخشب . اسمه لياجافى . وهو يتفاوض منذ
سنة مع فيدور بافلوفتش على ثمن الأشجار التى آن قطعها فى قرينك
تلك نفسها تشرماشنيا ، ولكنهما لم يتفقا على الثمن كما لعلك تعلم ذلك .
وقد جاء الى المنطقة من جديد ، وهو يسكن الآن عند القس ايلنسكى فى
قرية ايلنسكى التى تبعد اثنى عشر فرسخا عن محطة فولوفيا . وقد كتب
الى فى موضوع الأشجار هذه مستنصحا . وأحسب من جهة أخرى أن
فيدور بافلوفتش يعتزم الذهاب اليه . فاذا أنذرت فيدور بافلوفتش
وعرضت على لياجافى ما عرضته على الآن ، فمن الجائز أن ...

فقاطعه ميتا قائلا بحماسة :

- ولكن هذه فكرة عبقرية ! ذلك هو الرجل الذى أنا فى حاجة
اليه ؟ هذه الصفقة صفقته ! انه يساوم على السعر ، ويطلب منه مبلغ
باهظ ثمنا لأشجار يقطعها ، فاذا هو يجد بين يديه أوراقا تجعله مالكا
للمنطقة بأسرها ! هاهاها ! ...

انفجر ميتا يضحك ضحكته الصغيرة الجافة على نحو لم يكن فى
حسبان العجوز ، فلم يملك العجوز إلا أن يرتعش قليلا .
واستأنف ميتا كلامه قائلا وهو يغلى ويفور أملا :
- كيف أشكر لك جميلك يا كوزما كوزمتش ؟
فقال سامسونوف وهو يحنى رأسه :
- لا داعى الى الشكر .

- أوه ! انك لا تعلم ... لقد أنقذتني من اليأس ... قلبي هو
الذى هداني اليك ... والآن ، الى ذلك القس !

- لا داعي الى الشكر .

- اننى ذاهب الى هناك ! سأركض الى هناك ركضاً ! لقد أسرفت
فى الاستفادة من لطفك وذوقك وكياستك ، بينما أنت مريض موجه ...
أوه ! لن أنسى جميلك ما حييت . ان روسياً هو الذى يعدك بذلك ،
رو ... سيأ ...

- طيب .

أراد ميتيا أن يمسك يد العجوز ليصافحها شاكراً ممتناً ، ولكنه
لاحظ وميضاً خبيثاً فى عيني العجوز فى تلك اللحظة ، فأمسك فوراً ،
وأرخص يده ، غير أنه سرعان ما لام نفسه على سوء ظنه ، وقال لنفسه :
« لا بد أن يكون متعباً ... » ، وهتف يقول بصوت مدو :

- هذا من أجلها يا كوزما كوزميتش ، هذا فى سيلها !

ثم حياً العجوزَ بالحناء ، واستدار ، واتجه نحو الباب بخطى
واسعة دون أن يلتفت بعد ذلك . كان ينبض حماساً . قال لنفسه :
« ظننت أن كل شئ قد ضاع . ولكن ملاكى الحارس أنقذنى . فحين
يدلنى رجل خير من رجال الأعمال على هذا الطريق (ما أنبل نفسه ،
وما أعظم مهابته !) ، فمعنى ذلك أننى ربحت القضية ... ما ينبغي أن
أضيع دقيقة واحدة . سأذهب الى هناك حالاً . ثم أعود قبل الليل ...
نعم قبل الليل . آه ... أصبح الأمر فى جيبي ! ذلك أن العجوز لا يمكن
أن يكون قد سخر منى على كل حال ! » . بذلك كان ميتيا يحدث نفسه
وهو يتجه الى بيته . ولم يكن يمكنه فى الواقع أن يتصور الا أحد
أمرين لا ثالث لهما : فاما أن المسألة مسألة حل مضمون يوصى به رجل

له خبرة سامسونوف الذى كان على علم بالموقف وكان عدا ذلك يعرف لياجافى هذا - يا له من اسم غريب ! - واما أن العجوز قد سخر منه وضحك عليه ! والحق أن هذا الافتراض الثانى كان هو الصحيح . لقد ظل العجوز سامسونوف زمناً طويلاً بعد وقوع الكارثة يضحك كلما تذكر أنه دبّر مكيده لهذا « الكابتن » . ان سامسونوف انسان سىء الطوية قاسى القلب ساخر النفس ، كثيراً ما يخالط الكره فى نفسه مرض . ترى هل فعل ذلك بسبب ما رآه عند ميتيا من حماسة شديدة وحميا عظيمة واعتقاد ساذج بأنه ، هو سامسونوف ، يمكن أن تنطلى عليه هذه العروض الخداعة تصدر عن رأس محموم و « سلة متقوبة » من هذا النوع ؟ أم أنه فعل ذلك بسبب ما شعر به من غيرة على جروشكا التى جاء هذا « الولد الطائش الفاجر » يسأله المال باسمها من أجل مشروع سخيف مضحك ؟ لا أدري أى الدافعين فعل فى نفس الشيخ حين كان ميتيا يقف أمامه شاعرا بانشاء ساقيه هاتفا فى غباء أنه هلك ! المهم أن سامسونوف انما ألقى عليه فى تلك المحفلة نظرات خبيثة وقرر أن يضحك عليه ويسخر منه .

وما ان انصرف ميتيا حتى التفت كوزما كوزمتش الى ابنه ، وقد شحب لونه من شدة الغضب ، فأمره بأن يفعل كل ما يجب فعله حتى لا يستطيع هذا الشاب الرث أن يظهر فى منزله مرة أخرى فى المستقبل وأن لا يسمح له بدخول الفناء ، والا ...

ولم يكمل كوزما كوزمتش تهديده ، ولكن ابنه ارتعد خوفاً ، رغم أنه سبق أن رآه غاضباً مرات كثيرة . وظل العجوز بعد ذلك ساعة كاملة فريسةً حنق شديدٍ يرتعش منه جسمه كله . حتى اذا جاء المساء أحسَّ بألم ووهن ، فنادى الممرض الذى يجرحه أدويته .

لياسجاني



كذلك كان يردد ميتيا على نفسه • ولكنه لم يكن قد بقي معه مال لاستئجار خيول • ان في جيبه بضعة قروش ، فذلك كل ما بقي له من سني التراء التي عاشها ! لكنه تذكر أن عنده في البيت ساعة قديمة من فضة ، متعطلة منذ زمن طويل • فحملها الى تاجر ساعات يهودي ، له دكان قرب السوق ، فاشترها منه هذا التاجر بستة روبلات • هتف ميتيا يقول لنفسه متحمسا : « لم أكن آمل أن أحصل على هذا المبلغ كله ! » (أصبحت حماسة ميتيا لا تفتر !) ، وعاد الى مسكنه بالمبلغ مسرعا ، وأكمله باقتراض ثلاثة روبلات من أصحاب الدار التي يقيم فيها • ولقد قبل أصحاب الدار أن يقرضوه راضين مسرورين ، رغم أنهم كانوا هم أنفسهم في عسر ، وذلك لأنهم يحبونه كثيرا . وأبلغهم ميتيا ، وهو على ما هو عليه من فرح طافح ، أن مصيره سيتقرر ، وشرح لهم ، ببضع كلمات سريعة جداً ، « الخطة » التي عرضها على سامسونوف والقرار الذي اتخذه سامسونوف ، والآمال التي أشرقت في نفسه ، الخ • وكان هؤلاء الناس الطيبون على علم سابق ببعض أسرارهِ ، وهذا هو السبب في أنهم كانوا يعدونه واحدا منهم ، فهو « سيد » لا يتكبر ولا يتعالى • فلما أن جمع ميتيا تسعة روبلات على هذا النحو ، أمر بخيول

للسفر الى فولوفيا • ولكن هذا أَلَف واقعة ثابتة ستُذكر فيما بعد :
« فى عشية الحادثة ، لم يكن ميتيا يملك قرشاً واحداً ، حتى لقد اضطر ،
من أجل الحصول على نىء من المال ، أن يبيع ساعته وأن يستدين ثلاثة
روبلات من أصحاب الدار ، وذلك كله تشهد به شهود » •

اننى أذكر هنا هذا الطرف الذى لن تظهر خطورة شأنه الا فيما

بعد •

كان ميتيا ، أثناء انطلاق الخيول به الى فولوفيا بسرعة ، مشرق
الآمال مهتلل النفس • كان يتنبأ فرحاً بأن « جميع هذه الشئون »
ستسوّى أخيراً • ومع ذلك كان يقلق ويرتعش خوفاً فى بعض اللحظات
حين يتساءل ما عسى تصير اليه جروشنيكا أثناء غيابه • هبها قررت فى
ذلك المساء نفسه أن تذهب الى فيدور بافلوفتش ؟ انه بسبب هذا
الافتراض انما قرر أن لا ينبئها بأمر سفره ، كما أنه أمر أصحاب داره أن
لا يكشفوا لأحد عن المكان الذى سافر اليه اذا هم سئلوا عن ذلك • « يجب
أن أعود قبل هبوط الليل ، مهما كلف الأمر ، مهما كلف الأمر » •
كذلك كان يكرر لنفسه بينما كانت العربّة تتطلق به الى فولوفيا بسرعة
وتهزه هزاً قوياً • وكان يحدث نفسه أثناء تعجله المحموم هذا قائلاً :
« أما ليأجافى هذا ، فسوف أعود به معى ، لابرام العقْد » • ولكن حلمه
لن يتحقق على ما رسم له من « خطط » وا أسفاه !

فهو أولاً قد وصل متأخراً ، لأنه سلك ، ابتداء من فولوفيا ،
طريقاً من الطرق التى تصل بين القرى الصغيرة ، فلم يقطع اثنى عشر
فرسخاً بل ثمانية عشر • ثم ان القس ايلنسكى لم يكن فى بيته لأنه كان
قد ذهب الى ضيعة مجاورة • فلما عثر عليه ميتيا أخيراً فى تلك الضيعة
التي تابع طريقه اليها بخيوله المكدودة المنهوكة ، كان الليل قد أوشك
أن يهبط • وسرعان ما ذكر له هذا الكاهن ، وهو رجل لطيف خجول

المظهر ، أن لياجافى قد نزل عنده فعلاً في أول الأمر ، ولكنه يقيم الآن في سوخوى بوزبولوك ، وأنه سيبيت هذه الليلة في عزبة حارس الحراج لأن له أعمالاً يجب أن ينجزها هناك . فتوسل إليه ميتيا أن يصحبه فوراً الى لياجافى وأن « ينقذه » بذلك ، فتردد القس في أول الأمر ، لكنه وافق أخيراً على أن يرافقه حتى سوخوى بوزبولوك ، وكان واضحاً أن الفضول هو الذى دفعه الى هذه الموافقة . ومن سوء الحظ أنه نصبح بقطع الطريق سيراً على الأقدام ، لأن المسافة لا تزيد على فرسخ واحد أو « أكثر قليلاً » . وكان طبعاً أن يقبل ميتيا هذا الاقتراح ، فأخذ يسير بخطى مديدة على عادته في السير ، فكان الكاهن العائر الحظ مضطراً الى أن يماثيه راكضاً أو شبه راكض . ان هذا الكاهن رجل ما يزال غض الاله ، وهو في أحاديثه شديد التروى والتعقل والحذر . وسرعان ما أطلعه ميتيا على مشاريعه ، عرضها له بحرارة وسأله بعض النصائح في أمر لياجافى ، بالحاح عصبى ، وظل يتكلم على هذا النحو طول الطريق . فكان القس يصغى الى كلامه بانتباه ، ولكنه كان ضئيلاً بالأجوبة ، يقتصر على أن يكرر في الجواب على أسئلة ميتيا الملحة : « لا أعلم ، مع لأسف . أتنى لى أن أعلم ! » . ولما حدثه ميتيا عن نزاعه مع أبيه في موضوع الميراث ، دعر القس ، لأنه كان مرتبطاً بفيودور بافلوفتش من بعض النواحي فيما يبدو ؛ ومع ذلك سأل ميتيا عن سبب اطلاقه اسم لياجافى على هذا الفلاح جور سكين ، وذكر له أن هذا الفلاح لا يسميه أحد بهذا الاسم رغم انه اسمه فعلاً ، لأنه يستاء استياءً شديداً من مناداته بهذا الاسم ، وانه لا غنى عن مخاطبته باسم جورسكين « والا فلن تفلح معه فى شيء ، بل ولن يسمع لك » . بهذه العبارة ختم القس كلامه ، فدهش ميتيا قليلاً ، وأجاب بأن هذا الاسم هو الاسم الذى ذكره له سامسونوف نفسه . فلما سمع الكاهن ذلك أسرع يغير الحديث .

ولعله كان يحسن صنعاً لو أفصح لميتيا عن الشك الذى راوده والشبهة التى
خطرت بباله : لئن أرسله سامسونوف الى هذا القلاح مطلقاً عليه اسم
لياجافى ، فمن الجائز جداً أن يكون قد فعل ذلك سخرّاً به وضحكاً
عليه ؟ ولا بد أن يكون فى الأمر شيء « يعرج » على كل حال • ولكن
ميتيا لم يكن فى وقته متسع للتلبث على « مثل هذه السفاسف » • فهو يغدو
السير ويمشى بخطى مديدة ، ولم يدرك أن المسافة التى قطعها ليست
فرسخاً ولا فرسخاً ونصف فرسخ ، بل ثلاثة فراسخ على الأقل ، لم
يدرك ذلك الا حين وصل الى سوخوى بوزيولوك • ومع ذلك كبج جماع
غضبه وسيطر على حنقه • ودخل الرجلان العزبة التى كان حارس
الحراج ، وهو رجل يعرفه القس ، يشغل نصفها ، بينما كان نصفها الثانى
الذى يفضل لأول عناية وصيانة ، والذى يفصله عن النصف الأول دهليز ،
موضوعاً تحت تصرف جورسكين ؟ ومضى الرجلان الى جورسكين رأساً
بعد أن أشعلا شمعة • كانت الغرفة مدققة تدفئة شديدة ، وعلى مائدة
من خشب السنديان يرى سماور منطقي وصينية وفناجين وزجاجة
« روم » فارغة وابريق ما يزال فيه بقايا خمير ، وكسرات خبز • أما
لياجافى فكان مستلقياً على دكة ، قد لف سترته واتخذها وسادة ، وكان
يشخر شخيراً ثقيلاً • نظر اليه ميتيا متحيراً ، ثم قال فى قلق :

— يجب ايقاظه طبعاً ! ان القضية التى جئت من أجلها ملحة ، وأنا
فى عجلة من أمرى ، لأن على أن أرجع فى هذا اليوم نفسه •
صمت القس والحارس ولم يقولوا رأيهما • واقترب ميتيا من النائم
وأخذ يحاول ايقاظه ، فكان يهزه هزاً قوياً ، ولكنه لم يظفر بشيء •
ولاحظ بعد برهة أن الرجل سكران ، فقال :

— هو سكران ، فماذا عساي أصنع ؟ ما عساي أصير ؟ يا رب !
واذ بلغ الدروة من نفاد الصبر ، شد الشاخر من ذراعيه ، ثم شده

من ساقيه ، ثم انهض رأسه ، ثم أجلسه على الدكة ، فلم يستطع أن يستطع أن يتزع منه بعد جهود طويلة الا بضع دمدمات تتخللها شتائم مقذعة رغم اضطرابها •

قال القس أخيراً :

— خير لك أن تنتظر ، فما هو فى حالة تمكنه من المناقشة •

وقال الحارس :

— لقد ظل يشرب طول النهار •

فصاح ميتا يقول :

— آه ! يا رب ! لو علمتما مدى حاجتى اليه ، وفى أى ظرف

أنا ! ...

قال القس :

— لا حيلة فى الأمر ، لا بد من الانتظار الى صباح غد •

— الى غد ؟ انك لا تفكر فى الأمر ! هذا مستحيل !

واشتد به الكرب فأراد أن يهز السكران من جديد ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك ، لأنه أدرك أن جهوده عبث لا فائدة منه • وقد صمت القس فأصبح لا يقول شيئاً ؛ أما الحارس فكان نديد النعاس فسكت كذلك كالحج الوجه عابس الهيئة •

قال ميتا وقد بلغ أوج الحيرة والاضطراب :

— الحياة تهىء للانسان فى بعض الأحيان مهازل فاجعة مبكية من

هذا النوع !

وكانت قطرات من العرق تسيل على جبينه • وانتهر القس لحظة
هدنة وهدوء فأوضح كيف أن ايقاظ النائم لن ينفع فى شيء ، لأنه لن
يكون قادرا على المناقشة وهو فيما هو فيه من سكر شديد • وختم القس
كلامه قائلا :

- وما دام الأمر الذى جئت من أجله هاماً ، فالأفضل أن ترجئه
الى الصباح •

فوافق ميتا على هذا الاقتراح وهو يحرك ذراعيه معبراً عن العجز •
قال :

- طيب يا أبى • سأبقى هنا مع الشمعة أرقب اللحظة المواتية ،
فمتى استيقظ كلمته •

وأضاف يقول ملتفتاً نحو الحارس :

- وسأدفع لك ثمن الشمعة ، وسأدفع لك أيضا أجر قضاء الليلة
هنا • سوف تذكر دمترى كارامازوف •

ثم عاد يخاطب القس فسأله :

- ولكن أين تنام أنت يا أبى ؟

فأجابه القس بقوله :

- الأمر بسيط • أعود الى بيتى •

وأضاف يقول مومئاً الى الحارس :

- سيعيرنى فرسه • والآن نعمت مساءً • أرجو لك التوفيق كله •

وذلك ما كان • عاد القس الى بيته على الفرس ، سعيدا بخلاصه
من ميتا • وكان فى أثناء الطريق يحرك رأسه قلقاً بعض القلق ، متسائلاً

ألا يحسن به أن يبلغ فيدور بأفلوفتش أمر هذه القضية العجيبة منذ الغد،
قائلاً لنفسه : « انه اذا علم بالأمر لسوء الحظ ، فقد يغضب منى فيمنع
عنى خيراتة . » • أما المحارس فقد حكت رأسه وعاد الى غرفته دون أن
ينطق بكلمة •

جلس ميتيا على الدكة مترقباً اللحظة المواتية كما قال ، وقد هبط
عليه حزن عميق شمله كضباب كثيف • وأراد أن يفكر وهو على ماهو
عليه من ارهاق شديد وكره لا حدود له ، ولكن أفكاره كانت تتهرّب •
ان الشمعة تذوب ببطء ؟ وهذا جدجد يغنى فى مكان ما ؟ والهواء
قد أصبح خائفاً فى الغرفة المدفأة تدفئة زائدة • وفجأة تراءت لخيال ميتيا
حديقة أبيه ، والممر الذى يقع خلف الحديقة ، وتراءى له باب يُفتح
خلسةً فى المنزل ، وتراءت له جروشنكا تتسلل من الباب فإذا هو
يثب عن الدكة واقفاً !

دمدم يقول وهو يصرف بأسنانه :

— يا للمأساة !

ثم دنا من النائم بخطوات آلية ، وأخذ يتفرس فى وجهه • انه
فلاح نحيل ما يزال شاباً ، شديد استطالة الوجه ، مضفور الشعر ، لذقنه
لحية طويلة رقيقة ، يرتدى قميصاً هندياً وصديرة سوداء تتدلى من جيبيها
سلسلة ساعة من فضة • تأمل ميتيا وجهه ، فشعر بكره شديد لهذا
الرجل ، وأحقتة ضفائره خاصةً ، لا يدرى لماذا ! وبدأ له أنه أمر
لا يطاق ، أمر مذل مهين أن يكون عليه ، هو ميتيا الذى جاء لأمر مستعجل
هام ضحى فى سبيله بكل شيء ، أن يكون عليه أن ينتظر هنا ممزق
القلب هماً ، بينما هذا الكسلان « الذى يتوقف عليه مصيرى فى هذه
الساعة ينط فى النوم كأن شيئاً لم يكن ، وكأنه على كوكب آخر • »

صاح ميتيا يقول فجأة :

- آه ... يا لسخرية القدر !

وطاس صوابه فهجم على الفلاح السكران مرة أخرى يريد أن يوقظه • انه الآن حافد عليه فها هو ذا يهزه بكل ما أوتى من قوة ، وها هو ذا يصدمه ، بل ها هو ذا يضربه • ولكن جميع جهوده ذهبت سدى ! فلما رأى بعد خمس دقائق من الجهود الضائعة أنه لا سبيل الى ايقاظه ، عاد الى مكانه وجلس شاعراً باضطراب عاجز وهو يكرر قوله :

- يا للسخف ! يا للغباء !

ثم اذا هو يضيف الى ذلك فجأة دون أن يعرف لماذا :

- يا للذل أيضاً ! يا للعار !

وأخذ يشعر بصداع رهيب فى رأسه • وتساءل لحظة : « أأعدل ؟ أأرجع ؟ » ولكنه أجاب يقول : « بل سأنتظر الى الصباح • سأبقى خصباً ، خصباً ! سيستحق الأمر أن أكون قد جئت الى هنا ... ثم ما عساي أفعل لأرحل بغير خيل ؟ أوه ! ما أسخف هذا كله ! ... » • وكان صداع رأسه ما ينفك يشتد أثناء ذلك • وظل ساكناً جامداً دون أن يلاحظ النعاس الذى كان يستولى عليه شيئاً بعد شئ • ونام آخر الأمر جالساً • لا بد أنه نام على هذه الحال ساعة أو ساعتين ، فلما استيقظ كان يشعر بألم فظيع فى الرأس ، ألم لا يطاق ، حتى ليوشك ميتيا من فرط شدته أن يصرخ • كان صدغاه يطنان طنيناً ، وكان يحس بوجع فى القذال • فلما فتح عينيه لم يستطع أن يسترد حواسه ، وانقضت برهة طويلة قبل أن يفهم ما به ، ثم أدرك على حين فجأة أن الغرفة المدفأة تدفئة زائدة تمتلىء برائحة قوية هى رائحة فحم محترق ، وأنه كاد يموت اختناقاً • وكان السكران ما يزال يغط فى نومه على الدكة •

وكانت الشمعة التي انصهرت انصهاراً تاماً تهم أن تنطفئ • صرخ ميتا وأسرع الى غرفة الحارس مترنح الخطى • فسرعان ما استيقظ الحارس، ولكن لم يبد عليه أنه انفعّل كثيراً حين علم بما حدث ، وانما مضى يتخذ الاجراءات اللازمة ببرودة وقلة اكثراث ، فدهش ميتا من ذلك حتى كاد ينفجر غضبا • وصاح يقول مضطربا اضطرابا شديدا :

— لقد مات ، مات •••

فتُح الباب ، وفتحت نافذة ، ودخل الهواء الى الغرفة ، ونظفت مدخنة المدفأة المسدودة • ومضى ميتا فجاء بقادوس ماء فأغطس فيه رأسه ، ثم تناول خرقة فبللها بالماء ووضعها على جبينه ليأجافي • فكان الحارس ينظر اليه أثناء ذلك هادئاً هادئاً يوشك أن يشتمل على احتقار ؛ وقال بلهجة متجهمة بعد أن اكتمل بفتح نافذة :

— هذا كافٍ •

ثم رجع الى غرفته ينام ، تاركاً لينيا سراجاً مشتعلاً • ظل ميتا يتحرك قرابة نصف ساعة الى جانب السرير الذي يوشك أن يكون مختنقاً ، وظل يجدد له الكمادات المبتلة مرة بعد مرة ، وقرر أن يستمر على هذه الحال حتى الصباح • ولكنه جلس ليسترخي لحظة قصيرة ، فسرعان ما أغمض عينيه ، واضطجع على الدكة دون أن يلاحظ ذلك ، ولم يلبث أن نام على الفور نوماً ثقيلاً •

فلما استيقظ كان الوقت ضحى • لقد دقت الساعة التاسعة ، والشمس تسطع من خلال نافذتي الغرفة الصغيرتين ؛ والفلاح المصفور الشعر قد ارتدى ثيابه كاملة ، وجلس الى المائدة التي كان عليها سماور جديد وابريق خمر جديد قد أُفرغ نصفه منذ الآن (كان الابريق الأول فارغاً ليس فيه قطرة واحدة) ، فنهض ميتا بوثبة واحدة ، وأدرك

منذ النظرة الأولى أن الفلاح اللعين قد سكر من جديد ، وأن سكره سيكون فى هذه المرة عميقا لا برء منه ولا علاج له • ظل ميتيا يحدثنى الى الفلاح دقيقة محملى العينين • أما الفلاح فكان يلاحظ ميتيا صامتاً ، بشىء من الخبث والمكر ، الى هدوء مهين ، بل والى ثقة مستخفة محتقرة ، فيما بدا لميتيا • قال له ميتيا :

— معذرة •• أعتقد •• لا بد أن حارس الحراج قد أخبرك •••
أنا الليوتنان دمتري كارامازوف ، ابن العجوز كارامازوف الذى تفاوضه فى أمر ثمن أشجار الغابة •••

فأجابه الفلاح يقول بيقين هادىء وثقة كاملة مقطعا كلامه :

— أنت تكذب ! هذا غير صحيح !

— كيف ؟ أنا أكذب ؟ انك تعرف فيدور بافلوفتش مع ذلك !

فقال الفلاح رخو الفم :

— أنا أجهل من هو فيدور بافلوفتش !

— كيف هذا ؟ لقد ساومته على ثمن أشجار الغابة التى ستقطع •
هلاً استيقظت أخيراً ؟ هل ثبت الى رشذك ! ان الأب بولس ايلنسكى هو الذى جاء بى الى هنا • تذكر ••• ولقد كتبت أنت الى سامسونوف ، فأرسلنى سامسونوف اليك •

كذلك قال ميتيا لاهتاً مخفناً • فعاد ليأجافى يقول له :

— أنت ••• تك ••• ذب •

فأحس ميتيا بقشعريرة باردة فى ظهره •

— أرجوك ! ليس الأمر مزاحاً • لملك سكران قليلا • حاول أن

تكلم جاداً ••• افهمنى •• أو •• أو •• أصبحت لا أفهم !

- أنت صباغ ! هذه هى مهنتك !

- أرجوك ، أتوسل اليك ! أنا كارامازوف ، دمترى كارامازوف ،
وقد جئت أعرض عليك صفقة *** صفقة رابحة *** رابحة جداً لك
*** صفقة تتعلق بهذه الأشجار نفسها التى ستقطع ***

أخذ الفلاح يلعب لحيته بوقار ورصانة + ثم قال :

- هذا كذب ! لا شك أنك قد تواطأت على جريمة وتريد أن
تدحرجنى + أنت نذل ، نعم نذل +

قال ميتيا محتجاً وهو يعقف ذراعيه كمدأ ويأساً :

- أؤكد لك أنك مخطئ !

عندئذ أغمض الفلاح عينيه نصف اغماض مأكراً ، وهو ما يزال
يلعب لحيته + ثم قال :

- تاتانا *** انى لأوتر أن تقول لى ما هو القانون الذى يجيز
للناس أن يقترفوا النذالات + هل تسمعنى يا نذل ؟ أنت نذل ، هل
تفهم ؟

تقهقر ميتيا وقد أظلمت نفسه اظلاماً شديداً + وعندئذ برقت فى
ذهنه فكرة مفاجئة ، « كأن أحداً ضربه على جبينه » ، كما روى هو
ذلك فيما بعد + لقد اتضح كل شئ فى فكره الآن + « كان ذلك الهاماً
مباغتاً ، فأدركت كل شئ » + تساءل ميتيا ، مذهولاً ، كيف أمكن أن
يُساق ، هو الرجل الذكى رغم كل شئ ، كيف أمكن أن يُساق الى
وضع سخيف هذا السخف ، وكيف أمكن أن يندفع فى مغامرة كهذه
المغامرة ، وأن يستمر فيها قرابة أربع وعشرين ساعة ، وأن يشغل نفسه
بلياجافى هذا واضعاً على جبينه كمادات مبللة *** « انه سكران ، سكران

سكراً فظلياً ، وسيظل يتشرب على هذا النحو أسبوعاً بكامله ... فعلام
انتظر مزيداً من الانتظار ؟ وماذا اذا كان سامسونوف قد سخر مني
وصحك على بارسالى الى هنا ؟ وماذا اذا هي ... أثناء هذه المدة ...
قد ... آه ... يا رب ! ماذا صنعت بنفسى ؟ ! ... »

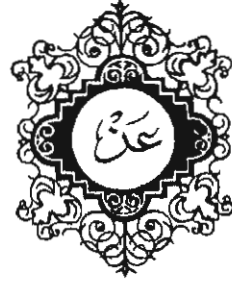
كان الفلاح ينظر اليه هادئاً ضاحكاً • فلو قد كان ميتاً فى ظرف
غير هذا الظرف اذن لانتقض على هذا الأبله حانقاً فصرعه ، ولكنه كان
يشعر فى تلك اللحظة أنه ضعيف كطفل • فها هو ذا يتجه نحو الدكة
بخطى بطيئة ، فيرتدى معطفه ، ويخرج من الغرفة دون أن يقول كلمة
واحدة • ولم يجد حارس الجراج فى الغرفة الأخرى ، فتناول من جيبه
خمسین كوكباً فوضعها على المنضدة ثمناً للشمعة وأجرأ للميت وتعويضا
عن الازعاج • وخرج من العربة ، فوجد نفسه فى قلب الغابة دون أن
يكون هناك شيء يمكن أن يستهديه فى معسرفه طريقه ؟ فسار على غير
هدى ، لأنه لم يتذكر حتى الجهة التى جاء منها ، فلم يعرف أيتجه يمنة
أم يتجه يسرة حين يخرج من منزل الحارس • انه ام يلاحظ الطريق
فى الليلة البارحة من شدة تعبجه • وهو الآن لا يشعر بأية رغبة فى
الانتقام ، حتى ولا من سامسونوف • انه يسير فى ممر الغابة لضيق ،
خاوى الرأس زائع النظرة ، كأنه يبحث عن « فكرة ضائعة » ، ولا يهتم
أن يعرف الى أين كان ذاهباً ! ان فى وسع طفل صغير أن يقلبه على
الأرض فى تلك اللحظة بسهولة ، من فرط ما كان يعانى من ارهاق جسمى
ونفسى معاً • ومع ذلك خرج أخبراً من الغابة ، فوجد نفسه فجأة أمام
حفول محصودة عارية تبسط على مدى البصر • قال فى نفسه وهو ما يزال
يسير قدماً دون أن يلوى على شيء : « كأن اليأس والموت قد مرّاً بهذا
المكان ! » •

وأنقذه فلاحون • ان عربة ثقيل تاجرأ عجوزاً كانت تسير على

طول الطريق الذى يصل بين قرى صغيرة • فلما بلغت العربى سأل
حوذيتها عن الدرب ، فاتفق أن كان الحوذى ذاهبا الى فولوفيا أيضا •
وسرعان ما تم الاتفاق بينه وبين الحوذى ، فركب ميتيا الى جانب المسافر
العجوز • وبعد ثلاث ساعات وصلت العربى الى محطة فولوفيا ، فلاحظ
ميتيا على حين فجأة ، بعد أن أمر بخيل تقله الى المدينة ، أنه يكاد يموت
جوعاً ؛ فبينما كانت الخيل تقرن ، أمر لنفسه بطبق من عجة التهمة التهاماً
مع قطعة كبيرة من الخبز ، ثم انقض على سحبق وجده جاهزاً ، وشرب
ثلاث أقداح صغيرة من الفودكا • حتى اذا استرد بذلك قواه ، شعر
بتجدد شجاعته ، واستعاد صحو ذهنه •

الخيل تجرى ، وميتيا يحض الحوذى على مزيد من السرعة ،
ويهىء فى الوقت نفسه « خطة » جديدة ، خطة « لا تخطىء » فى هذه
المرّة ، من أجل الحصول على « هذا المبلغ اللعين » قبل نهاية ذلك اليوم .
هتف يقول مشمئزاً انمئزاً عميقاً : « كيف يمكن أن يهوى مصير
اسنان بسبب هذه الثلاث آلاف روبل الحقيرة ؟ • لأجدها فى هذا اليوم
نفسه ! » • وكان يمكن أن يجعله هذا التصميم سعيداً ، لولا أن التفكير
فى جروشنكا كان يحاصره • « ما الذى صارت اليه ؟ ماذا حدث لها ؟ » •
كان هذا السؤال يطعنه فى كل لحظة كشفرة مسنونة • ووصلت العربى
أخيراً ، فأسرع ميتيا الى جروشنكا رأساً •

مناجم الذهب



هذه الزيارة انما تحدثت جروشنيكا الى راكيتين
 مذعورة • كان قد سرّها ، وهي تنتظر الرسالة
 التي يعرف القارىء أمرها ، أن ميتيا لم يظهر
 منذ يومين ، وكانت تقول لنفسها انه قد لايجيء
 قبل رحيلها باذن الله • ولكنه ظهر على حين فجأة • والقارىء يعرف
 التهمة، يعرف كيف تعللت له بضرورة ذهابها الى كوزما كوزميتش حالا،
 «لأجراء بعض الحسابات» ، وكيف رجته أن يرافقها ، وكيف استقطعته
 على نفسه وعداً ، حين تركته أمام منزل التاجر العجوز ، بأن يجيء في
 منتصف الليل لاصطحابها الى منزلها • وقد سعد ميتيا بهذه التسوية ،
 قال لنفسه : « ما دامت ستقضى السهرة عند كوزما كوزميتش ، فلن تذهب
 الى فيدور بافلوفتش » ، ولم يلبث أن أضاف يحدث نفسه قائلاً : « اللهم
 الا أن تكون كاذبة • » ولكنه كان يعتقد بأنها صادقة • انه ينتمى الى تلك
 الفئة من الغيورين الذين يتخللون أقطع الأشياء متى ابتعدوا عن المرأة
 المحبوبة ، ويعانون عذاباً رهيباً من تصور « خيانتها » لهم أثناء غيابهم •
 ولكن ميتيا كان متى التقى بجروشنيكا مرة أخرى مضطرباً قلقاً يائساً
 معذب النفس من يقينه بأنها خاتته ، لا يلبث أن يسترد شجاعته حين يرى

وجهاها الضاحك الرقيق المرح ، فاذا هو يطرد من فكره كل شيء ، ويشعر بالخجل من غيرته ، ويلوم نفسه على قلة الثقة •

بعد أن قام ميتيا بمرافقه جروسكا الى منزل سامسوف أسرع يعود الى بيته • ان هناك مسائل كثيرة بنى عليه أن يحلها قبل حلول الغد ! وكان يشعر على الأقل بأن حملاً قتيلاً قد انزاح الآن عن صدره • غير أنه لم يلبث أن قال لنفسه : « ينبغي لى أن أسأل سمردياكوف ، بأقصى سرعه ممكنة ، هل حذب سىء فى الليلة البارحة ، هل ذهبت جروسكا الى فيدور بافلوفتش أمس ؟ » • هكذا اشتعلت الغيرة فى قلبه المعذب من جديد ، قبل أن يتسع وقته للعودة الى بيته •

الغيرة ! « ليس عطيل غيوراً ، انه واثق » ، كذلك قال بوشكين • ان هذه الملاحظة البسيطة تشهد بعمق عبقرية شاعرنا القومى • ان ما عاناه عطيل من قلق النفس واضطراب الأفكار ناسىء عن انه « فقد ايمانه بمنله الأعلى » • ولكن عطيل ما كان له أبداً أن يرضى لنفسه هوان المراقبة فى مكان ما من أجل أن يتجسس ويترصده ويتربص : انه أكثر ثقة من أن يفعل ذلك • بالعكس : كان لا بد من دفعه ومن تقديم البراهين له ، ومن تحريضه بالأدلة الدامنة لحمله على تصور الخيانة • ولا كذلك الغيور الحق • لا يستطيع المرء أن يتخيل مدى ما يمكن أن يهوى اليه الغيور من درك الدناءة والحطة دون أن يشعر بأى خجل من ذلك • وليس معنى هذا أن الغيورين أناس يتصفون بحقارة النفس حتماً • لا ••• رب رجل نبيل القلب نقيّ الحب مخلص العاطفة ، يرتضى مع ذلك أن يختبئ تحت السرر ، وأن يرشئ أناساً قذرين ، وأن يستخدم أحط أنواع التجسس ! وما كان لعطيل أبداً أن يذعن للخيانة - أقول يذعن للخيانة ولا أقول يغفرها - رغم أن له نفساً رقيقة بريئة كنفس طفل صغير • ولا كذلك الغيور الحق ! ما من شيء الا ويمكن أن يذعن له

الغيور وما من شيء الا ويمكن أن يغفره عند الحاجة • ان الغيورين أسرع الناس الى الغفران ، والنساء يعرفن هذا ! هم قادرون ملأً على أن يمسحوا خيانه مشهوده (بعد أن ينوروا نورة عنيفة فى البدايه طبعاً) ، وقبيلات وعناقات رأوها بأعينهم ، سريطة أن يستطيعوا أن يقولوا لأنفسهم ان « هذه آخر مرة » وان الغريم سيغيب وانه سيرحل الى بلد فى آخر العالم ، أو انهم سيمضون هم أنفسهم بحييتهم الى مطلقه نائيه لا يستطيع الخصم الكريه أن يدركها فيها يوماً • ثم لا تدوم المصالحة أكر من ساعة طبعاً ، ذلك أنهم ، ولو اختفى الخصم ، ما يلتسون أن يكتشفوا خصماً جديداً منذ الغد ، فإذا هم يستأنفون عذاب أنفسهم بسبب هذه « الخيانة » الجديدة • رب متسائل يتساءل : ما هى فى نظرهم قيمة حب يقتضى هذه الاحتياطات كلها، ويتطلب هذه المراقبة الدائمة المتصلة، وهل المرأة التى يتصورون خيانتها تستحق منهم هذا الحب كله • ألا ان هذا السؤال بعينه هو ما لا يلقى الغيورون الحقيقون على أنفسهم ، مع أن منهم أناساً لهم نفوس سامية رفيعة • وهناك أمر جدير بالملاحظة أيضاً : ان ذوى العواطف النبيلة من هؤلاء الغيورين يستطيعون ، وهم مختبئون فى ركن من الأركان للتجسس والمباغته ، يستطيعون أن يفهموا تماماً ، « نبل قلوبهم » ، أنهم ينحدرون الى الخزى والعار ، ولكنهم مع ذلك لا يشعرون بشيء من عذاب الضمير ، ما ظلوا مختبئين فى أوكارهم على الأقل •

ما ان رأى متياً صاحبه جروشنكا حتى شعر بغيرته تتبدد وتزول، وحتى أصبح واثقاً كريماً سمحاً خلال بضع لحظات ، بل لقد مضى فى هذا الى حد احتقار نفسه بسبب تلك الشكوك الأثيمة التى ساورتها وذلك يدل على أن حبه لتلك المرأة كان فيه عنصر أسمى كثيراً مما كان يظن هو نفسه ، وأن الشهوانية والتعلق الجسدى اللذين حدث عنهما أخاه

أليوشا ، ليسا جوهر ذلك الحب • ولكن ما ان غابت جروشكا عن عينيه حتى عاد يتصور فيها جميع حقارات الخيانة ودناءاتها ، دون أن يشعر أثناء ذلك بأى ندم أو عذاب ضمير •

استبدت به الغيرة اذن من جديد • وكان عليه أن يستعجل على كل حال • كان عليه قبل كل شيء أن يجد قليلا من المال لسد حاجاته المباشرة : ان الروبلات التسعة التى جمعها فى الليلة البارحة كانت قد نفدت فى تلك الرحلة ؛ والمرء لا يستطيع أن يفعل شيئا حين لا يكون فى جيبه قرش واحد كما يعلم ذلك جميع الناس • ولقد فكّر ميتا ، أثناء وضعه خطته الجديدة فى العربة ، فكّر فى الوسيلة التى تمكنه من الحصول على بضعة روبلات بلا ابطاء • انه يملك مسدسين زائعين من المسدسات التى تستعمل فى المبارزات ، ولم يكن قد رهنهما حتى الآن ، لأنه يحرص عليهما حرصا شديدا • وكان قد تعرف منذ زمن ، فى كاباريه «العاصمة الكبرى» ، بموظف شاب عازب غنى كان فيما يقال يهوى جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها هوى شديدا ، فهسو يشتري مسدسات وبنادقات وخناجر يعلقها فى جدران غرفته ، ويدعو ضيوفه الى مشاهدتها والاعجاب بها ، معتزاً بأن يشرح لهم نظام كل مسدس وطريقة حشوه بالرصاص ، وطريقة التصويب به ، الخ • ذهب ميتا الى هذا الموظف الشاب دون تفكير كبير ، وعرض عليه أن يستودعه مسدسيه رهناً على قرض قدره عشرة روبلات ، فسرّ الموظف سرورا عظيما ، وحاول اقناع ميتا بأن يبيعه هذين السلاحين ، ولكن ميتا رفض التخلّى عنهما ، فدفع له الموظف عندئذ عشرة روبلات فائلاً انه ان بتقاضى فوائد عن هذا القرض بحال من الأحوال • وافترق الرجلان صديقين • وأسرع ميتا الى جناحه الذى يقع خلف منزل فيدور بافلوفتش بغية أن يلتقى سمردياكوف • وبهذا أثبت ميتا واقعة جديدة هى أنه « قبل حدوث الحادث الذى

ستحدث عنه طويلاً فيما بعد ، قبل حدوث ذلك الحادث بثلاث ساعات أو أربع لم يكن فى جيبه كوبك واحد ، فقرر أن يرهن فى سبيل الحصول على عشر روبلات مسدسين كان يحرص عليهما أشد الحرص ، ثم اذا هو بعد ذلك ببضع ساعات يملك ألوف الروبلات *** ولكنى أسبق بهذا تنمة القصة ، فلأعد الى حيث وصلت منها .

علم ميتيا فى منزل ماريا كوندرايتفنا (جارة فيدور بافلوفتش) نبأ مرض سمردياكوف فاضطرب اضطراباً شديداً وقلق قلقاً عظيماً . أصغى الى قصة سقوطه فى القبو ، ونوبة الصرع ، ووصول الطبيب ، ومبادرة فيدور بافلوفتش . وأُبلغ أيضاً نبأ سفر ايفان فيدوروفتش الى موسكو فى مطلع الصباح ، فبدأ عليه اهتمام شديد بهذه الواقعة التفصيلية . قال يحدث نفسه : « لا بد أن ايفان قد مرّ بفولوفيا قبلى » . غير أن مرض سمردياكوف قد أحدث فى نفسه قلقاً كبيراً ومخاوف خطيرة . فأخذ يسأل المرأتين قائلاً : « فما العمل الآن ؟ من عسائى أكلف بمراقبة المنزل واطلاعى على ما يجرى ؟ ألم تلاحظا شيئاً فى مساء أمس ؟ » . وأدركت المرأتان فوراً ما الذى يحاول أن يعرفه فطمأنتاه ما وسعهما أن تطمئنأ . قالتا له مؤكدتين : « لم يجرىء أحد . وقد أمضى ايفان فيدوروفتش الليلة كما اعتاد أن يمضيها ، وجرى كل شئ على ما يجب » . وجم ميتيا مفكراً . لا بد من حراسة فى هذه الليلة أيضاً . الأمر واضح . ولكن أين يربط ؟ أيرابط هنا فى الحديقة ، أم يربط أمام منزل سامسونوف ؟ وقرر أخيراً أن يراقب المكانين كليهما ، وفقاً لما توجهه الظروف ، ولكن المهم قبل كل شئ ، قبل كل شئ ، هو أن ***

وقد آن فعلاً أو أن تنفيذ « الخطه » الجديدة ، الجدية فى هذه المرة ، التى رسمها فى العربة . ان هذا المشروع لا يمكن تأجيله . فقرر ميتيا أن يقف على هذا المشروع ساعة من الزمن و قال يحدث نفسه :

« بعد ساعة واحدة أكون قد سوّيت كل نىء ، ثم أذهب الى منزل سامسونوف أسأل أما تزال جروشنكا عنده ، ثم أعود الى هنا فوراً لأبقى حتى الساعة الحادية عشرة ، وبعد ذلك أذهب الى منزل سامسونوف ثانية لأصحبها الى بيتها » • على هذا النحو حل ميتيا الصعوبة •

وأصرع الى بيته فاغتسل ونظف يابه بالفرشاة ، وارتنى ملابسه وذهب الى السيدة هوخلاكوفا • فهناك كانت « خطته » ، واحزنه ! كان ميتيا قد قرر أن يقترض الثلاثة آلاف روبل من تلك السيدة • حتى لقد راوده على حين فجأة يقين "عجيب خارق من أنها لن تمنع عنه هذا المبلغ • رب متسائل يتساءل : اذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يخطر بباله أن يتجه قبل هذا الوقت الى هذه المرأة التى تنتمى الى بيته على الأقل ، ولماذا آثر أن يتجه الى سامسونوف الذى يجهل ميتيا طبيعة تفكيره ولا يعرف بأى لغة يخاطبه ! يحسن أن نذكر هنا أن ميتيا كان قد انقطع منذ شهر عن التردد الى منزل هذه السيدة التى كان لا يعرفها كثير ، على كل حال • وكان يعلم عدا ذلك أنها لا تطيقه ، ذلك أنها قد ناصبته العداء منذ البداية فى الواقع ، لسبب بسيط هو أنه كان خطيب كاترين ايفانوفنا • لقد كانت تمنى أن تقطع كاترين صلتها به لتتزوج ايفان فيدوروفتش «الشاب المثقف ، اللطيف ، المحبب ، الذى يملك روح الفروسية ويتمتع بآداب راقية » ، على حين أن آداب ميتيا كريهة مقبلة • ثم ان ميتيا قد سخر منها مرارا كثيرة وقال عنها « انها كثيرة الحركة والحماسة والكلام بمقدار ما هى قليلة الثقافة » • ولكن فكرة قد ومضت فى ذهنه وميض البرق فى الصباح ، فقال لنفسه : « ما دامت تكره أن أتزوج كاترين ايفانوفنا وما دام هذا الزواج ينير حنقها الى هذا الحد (كان لا يجهل أن استياء السيدة هوخلاكوفا من هذا الزواج يبلغ حد الهستريا) ، فلا يمكن أن ترفض اقراضى هذه الثلاثة آلاف روبل التى ستتيح لى ان

أفصم علاقتي بكاتيا ، وأن أرحل من هنا الى الأبد . » . وكان ميتيا يقول
لنفسه أيضا : « ان نساء المجتمع هاته ، وهن صاحبات نزوات دلّتهن
الأفذار ، لا يرفضن بذل جميع التضحيات المالية في سبيل هوى غريب
من أهوائهن العجيبة ! » . ان « الخطة » التي وضعها لاقتراض هذا
المبلغ من السيدة هو خلا كوفي لا تختلف عن خطة البارحة : سوف يعرض
عليها أن يتنازل لها عن حقوفه في قرية تشرماشيا ، ولكنه لا ينوى في
هذه المرة أن ييسط الأمر على أنه صفقة تجارية ، ولا يهدف الى اغراء
هذه السيدة ، كما حاول اغراء سامسونوف ، بأنها ستربح ستة آلاف أو
سبعة آلاف روبل ؛ وانما يكون التنازل عن الحقوق ، في هذه الخطة
الجديدة ، بمثابة ضمانته سخية للقرض الذي سيُتفق عليه . وكان كلما
ازداد تفكيراً في هذا المشروع ازداد حماسة له ، وذلك ما يحدث له
دائماً حين يتخذ قراراً جديداً . انه يتحمس في البداية لكل مشروع
من مشاريعه . ومع ذلك شعر ، وهو يصعد درجات الباب من منزل آل
هو خلا كوف ، بقشعريرة في ظهره ، واجتاحت نفسه عندئذ عاطفة قلق
رهيب وخوف شديد : لقد أدرك في تلك اللحظة ، بيقين رياضي ، أنه
يقامر بأخر ورقة يملكها ، فاذا لم تفلح هذه المحاولة ، فلا أمل بعد ذلك ،
« اللهم الا أن أذبح أحداً وأسلمه ثلاث آلاف روبل ، وبدون ذلك فلا
مخرج لي ... » . كذلك قال ميتيا لنفسه . وكانت الساعة هي السابعة
والنصف حين شدّ الجرس .

بدا كل شيء يجري على ما يحب ويشتهي في أول الأمر : فما ان
أبلغت السيدة هو خلا كوفي وصوله حتى أمرت بادخاله . فدُهِش ميتيا
من سرعة استقباله ، وقال لنفسه : « لكأنها كانت تنتظرني » . وما كاد
يدخل الصالون حتى هرعت اليه وأعلنت له فجأة أنها كانت تنتظره ...
- كنت أنتظرك ، كنت أنتظرك ! لا شيء كان يسمح لي بأن أتنبأ

بزيارتك ، أعتقد أنك تقدر ذلك بسهولة • ومع هذا كنت أنتظرك •
فاعجب بما أملك من صدق غريزة المرأة يا دمترى فيدوروفتش ، لأننى
كنت واثقة ، منذ هذا الصباح ، بأنك ستزورنى •

قال ميتيا وهو يجلس بخراقة :

— حقاً ان هذا يثير الدهشة ، يثير أكبر الدهشة ... ولكننى جئت
من أجل قضية خطيرة ، خطيرة خطورة رهبة ... بالنسبة الى ...
طبعا ... يا سيدتى ... بالنسبة الى وحدى ... لذلك أسارع ف ...

— أعرف أن السبب الذى دفعك الى المعجىء سبب خطير يا دمترى
فيدوروفتش • وليست المسألة هنا مسألة تنبؤات أتنبؤها ، لأننى أكره
ذلك الايمان الرجعى بما هو فوق الطبيعة (لعلك على علم بمغامرة
الشيخ زوسىما) ... وانما الأمر حساب رياضى : كان لا بد أن تجيء
الى حتما بعد كل ما جرى مع كاترين ايفانوفنا ، لم يكن فى وسعك أن
لا تجيء • هذه رياضيات ...

— أو فلنقل هذا واقعية يا سيدتى • لكن واقعيين ... اسمحنى لى
أن أبسط لك بايجاز ...

— الواقعية ... قتلها يا دمترى فيدوروفتش ! أنا من أنصار
الواقعية بعد اليوم ! آه ... لقد شُفيت من مرض الايمان بالمعجزات ،
صدقنى ! أنت لا تجهل طبعا أن الشيخ زوسىما قد مات !

قال ميتيا بشئ من الدهشة :

— لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك •

وطافت بخياله صورة أليوشا • قالت السيدة هوخلاكوفا :

— مات هذه الليلة ... تصور أن ...

قاطعها ميتيا قائلاً :

- سيدتى ، أنا لا أعرف الا شيئاً واحداً : هو أننى فى وضع عصيب
وأن كل شىء سينهار اذا أنت لم تساعدنى ، وسأكون أنا أول من ينهار .
اغفرى لى خشونة لغتى ، ولكننى فى قلق محموم ؛ ان بى حمى حقا . .
- أعرف ذلك ، أعرف ذلك ، أعرف أن بك حمى . أنا مطلعة

على كل شىء ، وما كان يمكن أن تكون حالتك النفسية غير ما هى اليوم .
كل ما قد تقوله لى الآن ، أنا أعرفه سلفاً . اننى أفكر فى مصيرك منذ
زمن طويل يا دمترى فيدوروفتش . كنت ألاحظ حياتك ، وأدرسها . .
هه ! أنا طيبة نفوس ، خيرةٌ جداً . . . صدقنى يا دمترى فيدوروفتش !
عاد ميتيا يقول وهو يبذل جهداً من أجل أن يبدو لطيفاً محبباً :

- سيدتى ، لا شك عندى فى أنك طيبة خيرة . ولكننى أنا أيضاً
مريض خير . اننى مقتنع اقتناعاً قوياً بأنك ستساعدينى فى اتقاء هلاك
كبير ، ما دمت قد اهتممت بمصيرى ذلك الاهتمام كله . فاسمحنى لى
لهذا أن أبسط لك أخيراً الخطة التى تجرأت أن أجىء لأبسطها لك . .
وأن أقول لك بهذه المناسبة نفسها اننى آمل منك . . . لقد جئت ياسيدتى
من أجل أن . . .

- لا تشرح . . . هذا أمر ثانوى ! لن تكون أول شخص أساعده
يا دمترى فيدوروفتش ! لا شك أنك سمعت عن ابنة عمى بلمسوفاف . كان
زوجها الذى تدمرت حالته المالية قد انهيارا على حد التعبير الصادق
الذى استعملته أنت منذ هنيهة . فنصحتها بتعاطى تربية الخيول ، فأصبحت
حالتها اليوم مزدهرة ازدهاراً عظيماً . هل تفهم فى شؤون تربية الخيول
يا دمترى فيدوروفتش ؟

صاح ميتيا يقول نافذ الصبر نائر الأعصاب ، حتى لقد همَّ أن
ينهض :

- لا يا سيدتى ، أبداً ... لا أفهم فى هذا المجال شيئاً ! أتوسل اليك يا سيدتى أن تصغى الى لحظة • دعيني أتكلم دقيقتين فحسب ، لأعرض لك مشروعى • ثم اننى لا أملك الا وقتاً قصيراً جداً ، أنا مستعجل غاية الاستعجال (كذلك أعول ميتاً يقول بصوت هستى ، اذ حزر أنها ستقاطعه ، وأمل أن يستطيع منعها من مقاطعته برفع صوته) • لقد جئت اليك لأننى قد بلغت ذروة الكرب واليأس ، وأردت أن أرجوك أن تسلفينى ثلاثة آلاف روبل ، ولكن بضمانة قوية وطيدة يا سيدتى ، بشروط موثوقة تماماً • وهأنذا أشرح لك الموضوع ...

قالت السيدة هوخلاكوفا وهى تحرك ذراعيها كأنما تطرد الشروح التى همّ بها ميتاً :

- تشرح فيما بعد ، فيما بعد ... ستقول لى هذا كله فيما بعد • ثم اننى أعرف سلفاً كل ما قد تذكره لى ، سبق أن قلت لك هذا • أنت فى حاجة الى مال ، أنت تطلب ثلاثة آلاف روبل ، ولكننى سأعطيك أكثر من ذلك ، أكثر كثيراً ، لأننى أريد أن أنقذك يا دمترى فيدوروفتش • ولكننى أطلبك فى مقابل ذلك بأن تطيعنى •

وثب ميتاً من مقعده من جديد ، قائلاً بانفعال شديد :

- آه ! سيدتى ! هل يمكن أن تكونى طيبة الى هذا الحد ؟ آه ! لقد أنقذتنى ! يا رب ! لقد انتزعت انساناً من ميتة عنيفة يا سيدتى ، من ميتة انتحارٍ بطلقة مسدس ... لسوف أظل شاكرآ لك الى الأبد ... عادت السيدة هوخلاكوفا تقول ، وهى تنظر بإتسمامة مشرقة الى وجه ميتاً المتحمس :

- لأعطيك أكثر كثيراً من ثلاثة آلاف روبل ؟

- أكثر كثيراً ؟ لست فى حاجة الى كل هذا • ليس بى حاجة الا

الى هذه الثلاثة آلاف الشقية ! وأريد من جهتي أن أعطيك ضماناً لهذا القرض ، وأن أعبر لك عن شكر لا حدود له . ان المشروع الذى أحب أن أبسطه لك هو ...

فقاطعت السيدة هوخلاكوفا التى كان وجهها يشرق بفرحة الاحسان المتواضعة :

— كفى ! أنا لا أنكث عهداً . لقد وعدتك بأن أنقذك ، وسأفعل . سأخرجك من مأزقك كما أخرجت بلمسوف . ما رأيك فى مناجم الذهب يا دمتري فيدوروفتش ؟

— مناجم الذهب يا سيدتى ؟ لم أفكر فى هذا الأمر يوماً حتى الآن ...

— أما أنا فقد فكرت فيه من أجلك ! لقد وزنت جميع جوانب المسألة . اننى ألاحظك منذ شهر لهذا الغرض . ظلمت أفحصك أكثر من مائة مرة عابراً ، فكنت أقول لنفسى فى كل مرة : « هذا رجل نشيط فعلاً يمكن أن ينجح فى مناجم الذهب » ، حتى لقد أنعمت النظر فى مشينك ، فاستنتجت أنك ستكتشف مناجم كثيرة .

لم يملك ميتيا الا أن يسأل السيدة هوخلاكوفا مبتسماً :

— استنتجت ذلك من مشيتى يا سيدتى ؟

فأجابت السيدة هوخلاكوفا :

— نعم ، من مشيتك أيضاً . هل تستطيع أن تنكر يا دمتري فيدوروفتش أن فى الامكان معرفة طبع الشخص من مشيته ؟ ان العلوم الطبيعية تعلمنا هذا . آه ... ما أكثر ما أصبحت واقية الآن ! فمئذ ذلك اليوم ، منذ تلك القصة التى حدثت فى الدير والتى هزتنا هزاً قوياً ،

أصبحت لا أؤمن إلا بالواقعيه ، بالوا •• قعيه ، وأصبحت أريد أن أقف
حياتى على نشاط عملى • لقد شفيت من الغيبة الى الأبد • « كفى ! » ،
كما قال نورجنييف *

— ولكن ماذا عن تلك الثلاثة آلاف روبل التى تفضلت فوعدتنى بها
كريمة سخية !

قالت السيدة خلاكوفاً بقوة وحرارة :

— ستحصل عليها ، تستطيع أن تعدها فى جييك منذ الآن • لا ثلاثة
آلاف ، بل ثلاثة ملايين ، وخلال فترة وجيزة يا دمترى فيدوروفتش !
اليك المشروع الذى أقترحه عليك : تكتشف مناجم ذهب فتشترى ثراء
عظيماً وتصبح من أصحاب الملايين ؛ ثم تعود إلينا رجلاً كبيراً من رجال
العمل والفعل ، تصبح رجلاً محرّكاً لغيرك من الناس ، تنقذنا من خدرنا
وكسلنا ، وتقودنا نحو الخير • هل يجب أن تترك جميع هذه المبادرات
لهؤلاء اليهود ؟ ستنبنى عمارات ، وستخلق صناعات ، وستساعد الفقراء ،
وسيعمررك هؤلاء الفقراء بالدعوات والبركات ••••• انا نعيش فى عصر
السكك الحديدية يا دمترى فيدوروفتش • وستعلم وزارة الخزانة ، التى
تتخبط فى مصاعب ضخمة ، ستعلم بوجودك فتناذك وتعمد عليك •
ان سقوط عملتنا الورقية قد حرمنى من النوم ! ذلك جانب من طبيعتى
لا يعرفه الناس كثيراً •••••

قاطعها ميتاً قائلاً وهو يوجس قلقاً شديداً :

— سيدتى ! سيدتى ! من الممكن جداً أن أتبع نصيحتك ، وهى
نصيحة سديدة جداً فى الواقع ••• سأتابع هذه النصيحة حتما فيما
بعد ••• سأذهب الى مناجم الذهب هذه ••• وسأعود مرة أخرى
لنتحدث فى أمرها ••• أما الآن ••• فلنتكلم فى تلك الثلاثة آلاف روبل
التي تكرمت ف ••• آه ! ان هذا المبلغ سيخرجنى من جميع المصاعب !

ليتني أستطيع الحصول عليه فى هذا اليوم ... ذلك أننى ، كما ترين ،
لا أملك وقتاً أضيّعه ... لا يوماً ، ولا ساعة ...

قاطعته السيدة هوخلاكوفا تأمره بلهجة قاطعة :

– كفى ، كفى ! أجبني : أذهب الى مناجم الذهب أم لا ؟ هل
عزمت أمرك ؟ أريد جواباً واضحاً دقيقاً !

– سأذهب يا سيدتى فيما بعد • سأذهب الى حيث تريدن يا سيدتى !
أما الآن ...

صاحت السيدة هوخلاكوفا تقول :

– انتظر !

وهرعت نحو مكتبها الأنيق ذى الأدراج الكبيرة ، فأخذت تفتحها
درجاً درجاً بسرعة ، باحثة فيها عن شىء ما •

قال ميتيا محدثاً نفسه وقد كاد ينشق قلبه : « الثلاثة آلاف ! وبدون
ضمانة ، بدون رهن ، بدون وصل ، ما أنبلها امرأة ! ولكن ليتها كانت
أقل ثروة ... » •

وهتفت السيدة هوخلاكوفا تقول عائدة اليه :

– هاك ... هاك ما كنت أبحث عنه •

هو أيقونة صغيرة جداً من فضة ، ذات حبسل ، كالأيقونات التى
تحمل أحياناً تحت القميص مع الصليب •

وشرحت السيدة هوخلاكوفا قائلة برصانة :

– هذه الأيقونة من كييف • لقد لمست هذه الصورة رفات القديسة
بارب ، الشهيدة العظيمة • فاسمح لى أن أعلّقها لك بنفسى ، لتباركك
فى حياتك الجديدة ، ومشاريعك المقبلة •

قالت له ذلك ، ووضعت الأيفونيه حول عنقه ، وجهدت أن تعدلها +
أحنى ميتيا رأسه متحيراً ، وأخذ يساعدها ، وأفلح أخيراً فى أن يدس
الصورة تحت الياقة ورباط العنق وأن يضعها على صدره .

عندئذ قالت السيدة هوخلاكوفا بلهجة فيها أبهة :

- والآن هلم الى مناجم الذهب .

وعادت تجلس .

قال ميتيا :

- سيدتى ! أنا متأثر جداً ... لا أدري كيف أشكر لك هذه
العواطف الكريمة وهذه المشاعر النبيلة ... ولكن ليتك تعلمين مدى
استمجالى ! ... ان ذلك المبلغ الذى انتظره من كرمك وأنا ممتلئ
القلب بالأمل يا سيدتى ... آه ... ما أطيبك ، ما أعظم عطفك على !
(بهذا هتف ميتيا فى سورة صادقة) ... اسمحى لى أن أعترف لك ..
بأمر تعرفينه منذ زمن طويل على كل حال ... اننى أحب امرأة فى هذه
المدينة ... لقد خنت كاتيا .. أقصد كاترين ايفانوفنا . وا أسفاه ! كان
سلوكى معها خالياً من الخلق والشرف ... تولدت هنا بامرأة أخرى
... امرأة لعلك تحتقرينها ، فأنت على علم بالأمر ، أعرف ذلك ...
ولكن يستحيل على أن أتركها ، يستحيل ! لذلك كانت هذه الثلاثة
آلاف روبل ...

قاطعتها السيدة هوخلاكوفا قائلة بلهجة قاطعة :

- دعك من هذا . دع النساء خاصة ! مناجم لذهب ، ذلك هو
هدفك بعد اليوم ، ولا شأن للنساء هناك ! فيما بعد ، حين ترجع غنياً
مجللاً بالمجد ، تختار حليمة من بنات أرقى مجتمع : فتاة عصرية ،

منقفة ، متحررة من الآراء الشائعة • وفى ذلك الحين ستكون مشكلة المرأة ، هذه المشكلة التى يتحدث الناس عنها كثيراً فى هذه الأيام ، ستكون قد حُلَّتْ ، وستظهر فى روسيا امرأة جديدة ...

قال ميتيا وهو يضم يديه احدهما الى الأخرى فى هيئة المتوسل :
- ولكن ليس هذا ، ليس هذا ما ...

- بل هو هذا ، هو هذا يا دمترى فيدوروفتش ! هو هذا ولا شئ سواه ! هنالك السعادة التى تشدها دون أن تعرف أنت نفسك ذلك • اننى مطلعة اطلاقاً واسعاً على مشكلة المرأة • ان تحرر المرأة ، وحتى وصولها الى الحياة السياسية ، هو مثلى الأعلى • ان لى ابنه يا دمترى فيدوروفتش ، والناس لا يعرفوننى كثيراً فى هذا المجال • لقد كتبت فى هذا الى شتيرين* • ان هذا الكاتب قد كشف لى أموراً كثيرة ، كثيرة جداً ، أموراً لا تخطر على البال ، عن رسالة المرأة ، فوجهت اليه فى العام الماضى كتاباً لم أذكر فيه اسمى ، كتاباً من سطرين : « أقبلك بحرارة ، يا عزيزى المفكر الكبير ، باسم المرأة العصرية • استمر ! » وذيلت الكتاب بهذا التوقيع : « أم » • خطر ببالى أن أوقع : « أم عصرية » ، ولكننى اكتفيت ، بعد تردد ، بكلمة الأم ، لأن فيها جمالاً روحياً أعظم يادمترى فيدوروفتش ؟ هذا عدا أن كلمة « عصرية » كان يمكن أن تذكره بمجلته « المعاصر » ، وأن توقظ فى نفسه ذكريات أليمة بسبب الرقابة التى تسود الآن ... ولكن ماذا بك ؟ ماذا جرى لك ؟

كان ميتيا قد وثب عن مقعده • وها هو ذا يضم يديه احدهما الى الأخرى أمامها صائحاً بضراعة طائشة :

- سيدتى ! لسوف تبكينى اذا تأخرت مزيداً من التأخر عن تنفيذ ما تكلمت فوعدتنى به ...

– ابك يا دمترى فيدوروفتش ، لا تخش أن تبكى ! ان هذه
العواطف تشرفك ... ما يزال طريقك طويلاً ! ستحسن الدموع
الك • سوف تعود يوماً وسوف تكون سعيداً • ستجيبني من أعماق
سيريا خصيصاً لأشاركك فرحتك ...

أعول ميتاً في هذه المرة يقول :

– اسمحي لي أخيراً أن أقول كلمة • أرجوك مرةً أخيرة أن
تجيبيني : هل يمكنني أن أتلقى هذا المبلغ منك اليوم ؟ والا ففى أى يوم
تأمرين أن أجيء لأخذه ؟

– عن أى مبلغ تتكلم يا دمترى فيدوروفتش ؟

– عن الثلاثة آلاف روبل التى تكرمت فوعدتني بها ... منذ
قليل ...

– ماذا ؟ ثلاثة آلاف روبل ؟ آه ... لا ... أنا لا أملك هذا
المبلغ •

كذلك قالت السيدة هوخلاكوفا بدهشة هائلة •

صعق ميتاً • وقال :

– كيف هذا ؟ لقد وعدتني منذ برهة ... منذ هنيهة قصيرة ...
حتى لقد قلت اننى أستطيع أن أعد هذا المبلغ موجوداً فى جيبي •
– آه .. لا ... لا شك أنك أسأت فهمي يا دمترى فيدوروفتش •
لا ، لا ، انك لم تفهمنى • لقد قلت ذلك الكلام بصدد مناجم الذهب •
صحيح أننى وعدتك بأكثر كثيراً من ثلاثة آلاف روبل ، تذكرت هذا
الآن ، ولكننى كنت لا أفكر عندئذ الا فى مناجم الذهب •

صاح ميتيا يقول بغياء :

- والمبلغ ؟ والثلاثة آلاف روبل ؟

- اذا كنت قد جئت من أجل اقتراض مال ، فيجب أن أذكر لك اننى لا أملك مالا . اننى الآن خالية الوفاض تماما يا دمترى فيدوروفتش . حتى اننى فى شجار مع وكيلى ، وقد اضطررت أن أقترض خمسمائة روبل من ميوسوف منذ بضعة أيام . لا ، لا ، لا أستطيع أن أسلفك شيئا . واعلم عدا ذلك يا دمترى فيدوروفتش اننى لو كنت أملك مالا لما أسلفتك أيضا ، أولا لأننى لا أقرض أحدا قط ، فالدين خصام دائما ؛ واذا أقرضت غيرك ، فلا أقرضك أنت ، لأننى أريد لك الخير ، وأريد أن أنقذك ، وما أنت فى حاجة الا الى شيء واحد : المناجم ، المناجم ، المناجم !

زأر ميتيا يقول :

- شيطان يأخذ المناجم !

وهوى بقبضة يده على المنضدة يضربها بكل ما أوتى من قوة .

- آى . . . آى . . .

كذلك أنت السيدة هوخلاكوفا مرتاعة وهى تهرب الى آخر الصالون .

بصق ميتيا من فم حنقه . وبخطى سريعة ، اجتاز الغرفة ، وخرج من المنزل ، وأوغل فى الشارع المظلم . انه يسر الآن كمجنون ، ويلطم صدره بقبضة يده ، على ذلك الموضع نفسه الذى لطمه منذ يومين بحضور أليوشا حين لقيه فى الشارع ساعة الغسق . لماذا يلطم صدره هذا اللطم ، « على هذا الموضع نفسه » ، وماذا كان معنى هذه الحركة ؟

ذلك أمر لم يفصح عنه لأحد ، حتى ولا لأليوشا . هذا سره فى تلك الساعة ، ولكنه كان يعلم أنه ، لأسباب يكتتمها ، انما يسير الى هاوية العار ، الى انهيار حياته ، الى الانتحار . ذلك ما سيحدث حتماً اذا هو لم يحصل على هذه الثلاثة آلاف روبل ليرد الى كاترين ايفانوفنا مالها ، ولينزع عن صدره ، « عن هذا الموضع بعينه من صدره » ، الخزى الذى يخنقه ، الحمل الذى يبهظه ، والذى يرهق ضميره أشد الارهاق . ان هذا كله سيتضح مزيدا من الاتضاح فيما بعد . والآن وقد انهار آخر أمل من آمال هذا الرجل القوى الجسم ، فانه ما ان ابتعد بضع خطوات عن منزل السيدة هوخلاكوفا ، حتى انفجر يبكى على حين فجأة ناشجاً كطفل صغير . وها هو ذا يمسح دموعه بقبضتى يديه وهو فيما هو فيه من اضطراب . وعلى هذه الحال انما وصل الى الميدان ، حيث أحس بغتة أنه قد صدم شيئاً ما ، وسرعان ما سمع أناتٍ شاكية صادرة عن عجوز كاد يقلبها .

- يا رب ! كاد يقتلنى ! هلاًّ نظرت أين تسير أيها الوغد !

صاح ميتيا يقول وهو يتفرس وجه المرأة العجوز فى الظلام ؟
- كيف ؟ أهذا أنت ؟

لقد عرف ميتيا فى هذه المرأة العجوز ، خادمة كوزما كوزميتش الطاعنة فى السن التى لاحظها فى منزله الليلة البارحة .
سألته العجوز بصوت أصبح لطيفاً على حين فجأة :
- ومن أنت يا بنى ؟

- أنت فى خدمة كوزما كوزميتش ، أليس كذلك ؟

- هذا صحيح يا بنى ، وأنا ذاهبة الآن الى بروخورتش ...
لا أستطيع أن أميّرك فى هذا الظلام ...

قال ميتيا وهو يرتجف قلقاً وخوفاً :

- قولى لى يا أماء : هل أجرافين الكسندروفنا عندكم الآن * لقد
أوصلتها الى منزلكم منذ قليل *

- لقد جاءت يا بنى فمكثت لحظة ثم انصرفت *

فصرخ ميتيا :

- انصرفت ؟ كيف هذا ؟ الى أين ذهبت ؟

- لم تمكث عندنا الا دقيقة ، قصّت خلالها على كوزما كوزميتش
قصة مضحكة ثم لم تلبث أن انصرفت *

زأر ميتيا يقول :

- أنت تكذبين أيتها العجوز اللعينة *

فصاات المرأة تقول مذعورة :

- آى *** آى ***

ولكن ميتيا كان قد غاب *

أسرع ميتيا يركض بخطى كبيرة نحو منزل آل موروسوف . كانت
جروشنيكا قد سافرت منذ ربع ساعة الى موكرويه ، وكانت فينيا فى
المطبخ مع جدتها ماترين الطباخة ، حين ظهر « الكابتين » فجأة فى المنزل .
فلما رآته أطلقت صرخات ارتياح وجزع *

أعول ميتيا يسألها :

- ها *** تصرخين ؟ أين هى ؟

ولكن قبل أن يتسع وقت فينيا ، التى شحب لونها شحوبا شديدا
من الذعر ، لأن تنطق بكلمة واحدة ، ارتمى ميتيا على قدميها قائلاً لها :

— فينيا ، قولى لى ، أناشدك يسوع المسيح ، الى أين ذهبت ؟

— لا أدري يا سيدى ، لست على علم بشيء أيها العزيز دمتري
فيدوروفتشس + ولو قتلتنى لما استطعت أن أقول لك أكثر من هذا + ثم
انك قد خرجت معها منذ قليل +

كذلك أكدت فينيا متدفقة فى كلامها +

قال ميتيا :

— ولكنها عادت +

— لا ، لا ، يا عزيزى دمتري ، فيدوروفتشس ، لم تعد ، أحلف لك
بالله انها لم تعد !

صرخ ميتيا يقول :

— تكذبن ! وانى لأحذر من ذعرك وحده الى أن ذهبت ؟
وأُسرع يركض فى الشارع من جديد + فما كان أسعد فينيا بأنها
تخلصت منه بمثل هذه السهولة ! فلقد أدركت حق الادراك أنه كان
سيسومها سوء العذاب خلال ربع ساعة ، لولا استعجاله الشديد + على
أنه قد فاجأ فينيا وماترين العجوز ، حين انصرافه ، بحركة لم تكن فى
الحسبان : كان هناك على المائدة هاون ومدق من نحاس ، ولكن المدق ليس
كبيراً + فبينما كان ميتيا يضع يده على قبضة الباب راكضا ليخرج ، مد يده
الأخرى فتناول المدق اختطافا ودسه فى جيب سترته +

هتفت فينيا تقول وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى :

— رباه ! سيقتل أحدا +

في الظلم



ابن كان يركض ؟ ذلك سؤال 'يحزر جوابه:
« أين عساها تكون ان لم تكن عند فيدور
بافلوفتش ؟ لا شك أنها ذهبت اليه رأساً بعد أن
غادرت منزل سامسونوف • الحيلة واضحة ،
والكذب مفضوح ! » • كانت هذه الأفكار تغلي في رأس ميتيا •

تحتاجى ميتيا أن يمر بحديقة ماريا كوندرايتيفنا • قال لنفسه :
« يجب أن لا ترانى ماريا بحال من الأحوال !... يجب أن لا أُنْهَها...
والا وشت بى فوراً ، وأبلغت أننى هنا ... لسوف تخوننى حتماً •
لا شك فى أنها متواطئة معهم • وكذلك سمردياكوف • لقد اشتروا
جميعاً ! » • لذلك سلك طريقاً آخر : دار دورة طويلة ، فمرَّ بالشارع
الصغير الذى يقع خلف منزل فيدور بافلوفتش ، واجتاز شارع
دمتريفسكا ، وعبر الجسر الضيق الصغير ، فوصل بذلك الى مكان خال
غير مأهول يقع وراء القناء • ان هذا المكان يحده سياج بستان مجاور
من جهة ، ويحده من الجهة الأخرى السور العالى الذى يحيط بمنزل
فيدور بافلوفتش • واختار ميتيا لتخطى ذلك السور الموضع الذى يروى
أن الزابث سمردياشتايا قد تخطت السور منه فى الماضى • قال ميتيا لنفسه :

« اذا استطاعت تلك أن تتخطاه - لا يدرى الا الله لماذا - فكيف لا أفلح أنا فى تخطيه ؟ » • واستطاع فعلاً من أول وثبة ، أن يتشبث بذروة السور بيده ، وأن يرتفع بعد ذلك باندفاع قوية ، فاذا هو يصيح فى أعلى السور ، فيركب عليه ركوبه على حصان • ان حمامات المنزل قريبة جداً من ذلك المكان ، ومنه ترى نوافذ الدار المضاعة • قال ميتيا يحدث نفسه : « طبعاً !... ان فى غرفة نوم العجوز نوراً • معنى هذا أنها عنده ! » • ووثب بعد ذلك الى الحديقة • ورغم علمه بأن جريجورى مريض ، وبأن مرض سمردياكوف قد لا يكون تمارضاً ، وأن أحداً من المنزل لا يمكن اذن أن يسمعه فى هذه اللحظة ، فقد لطا متجمعا على نفسه بدافع الغريزة ، وجمد لا يتحرك ، وأصاخ بسمعه • ان صمتا كصمت الموت يخيم على المكان وما حوله • لا نائمة ، ولا نائمة • هدوء مطلق ، كأنما عن قصد وعمد ...

« الصمت وحده يهمهم » • خطر هذا البيت من الشعر ببال ميتيا • وقال يحدث نفسه : « آمل أن لا أكون قد سمعت لحظة قفزت ! ولكن يظهر أننى لم أسمع » • وبعد أن لبث على هذه الحال دقيقة لا يتحرك ، تسلل بخطى وثيدة خلال الحديقة ، سائرا على العشب حتى يخنق كل ضجة • كان يتحاشى الأشجار والأدغال ، ويتقدم بطيئاً ، ولا يضع قدمه الا محاذراً ، ويصيح بسمعه الى أيسر صوت • فلم يصل الى النافذة المضاعة الا بعد خمس دقائق • وتذكر أن تحت النوافذ أشجار بيلسان ورباط كثيفة تمتد أغصانها الى علو كاف • وكان الباب الذى يفضى من الحديقة الى داخل المنزل على الجهة اليسرى من الواجهة مغلقاً ، فاتبه ميتيا الى ذلك انتباهاً خاصاً وسجله فى ذهنه عند مروره • ووصل أخيراً الى الشجيرات فاختم وراءها حابساً أنفاسه • قال لنفسه : « يجب أن أتلبث هنا بضع لحظات ، فلملهم قد سمعوا صوت وقع خطواتي ، فأخذوا

يصيحون بأسماعهم للتأكد ... أرجو أن لا أسعل أو أعطس ... » .
وانتظر دقيقتين ، خافق القلب خفقاناً شديداً ، حتى لتكاد تنقطع
من ذلك أنفاسه . ثم قال لنفسه : « لا ... لا أستطيع أن أبقى هنا .
ان دقات قلبي لن تهدأ ، فلا يمكنني أن أنتظر مزيداً من الانتظار » .
كان ميتيا مختبئاً في ظل مجموعة الأشجار التي يبرز الضوء لآتي من
النافذة جانبها الخلفي . ورأى نفسه يدمدم قائلاً دون أن يعرف لماذا :
« ما أشد الاحمرار في أثمار أشجار الرباط هذه ! » . ثم أخذ يدنو من
النافذة بخطى كخطى الذئب ، حتى اذا بلغها انتصب واقفاً على رؤوس
الأصابع . بدت له غرفة نوم فيدور بافلوفتش كلها . انها غرفة صغيرة ،
تنقسم قسمين بحاجزين أحمرين ، كان فيدور بافلوفتش يسميهما
« الصينيين » . قال ميتيا لنفسه : « الحاجزان الصينيان ... لا شك أن
جروشنكا تختبئ وراءهما » . وأخذ ميتيا ينعم النظر في أبيه . كان الأب
يلبس ثوباً جديداً للمنزل من حرير مخطط ما رآه عليه ميتيا من قبل ،
ويشد على خصره حزاماً من حرير أيضاً ينتهي بعقد ؟ وتحت ياقة الثوب
يرى قميص أنيق نظيف جداً مصنوع من نسيج رقيق ناعم وله أزرار
من ذهب ؟ وكان فيدور بافلوفتش يضع على رأسه الضماد المصنوع من
قماش أحمر الذي سبق أن رآه أليوشا . قال ميتيا لنفسه : « لقد تجمل
وتزين » . وكان أبوه واقفاً قرب النافذة واجماً شارد اللب . وها هو ذا
يرفع رأسه على حين فجأة مصيحاً بسمعه كأنما لينصت ؟ فلما لم يسمع شيئاً
اقرب من المائدة فصب نصف قدح من الكونياك وأفرغه في جوفه ، ثم
تنفس تنفساً عميقاً ملء رئتيه . وفكّر بضع لحظات ، ثم اتجه نحو المرأة
بخطى ذاهلة ، فأزاح بيده اليمنى المنديل الذي يخفي جبينه ، وأخذ
ينعم النظر في الندبات والبقع الزرق التي لم تختف بعد . قال ميتيا
لنفسه : « أغلب الظن أنه وحيد ليس عنده أحد » . وفي تلك اللحظة

ابتعد فيدور بافلوفتش عن المرأة ، والتفت فجأة نحو النافذة ، وأخذ ينظر الى الخارج • فما كان من ميتيا الا أن ارتدى في الظلام بوثة واحدة •

وقال ميتيا لنفسه : « من الجائز أيضاً أن تكون مختبئة وراء الحمازين ، وربما كانت نائمة • » • فما ان تراءى له هذا الافتراض حتى شعر بطعنة تنفذ في قلبه • وابتعد فيدور بافلوفتش عن النافذة • « لا شك انه يترقبها هي اذ ينظر من النافذة الى الخارج • فليست اذن عنده ! والا فما له وللظلمات يمعن النظر فيها متفرساً مستطلعاً ! واضح أن نفاذ الصبر يحرقه حرقاً » • وعاد ميتيا يقترب ، وأخذ يرصد أباه • كان العجوز قد جلس الى المائدة ، وكان واضحاً عليه أنه خائب الرجاء يأس النفس • ووضع كوعيه أخيراً على المائدة ، وأسند خده الى راحة يده اليمنى • فكان ميتيا يفحصه بنوع من النهم !

وقال بصوت خافت جداً : « وحيد ! انه وحيد ! فلو كانت معه ، لكان وجهه وجهاً آخر » • ومن عجائب قلب الانسان ما شعر به ميتيا حينذاك : لقد أحس فجأة حين أدرك أن جروشنكا ليست هناك ، نوع من خيبة الأمل عجيب لا يفهم ! فقال يشرح لنفسه : « لا ... ان ما أحسه من احتياج لا يرجع الى اننى لا أراها ، وانما يرجع الى أننى لا أملك أية وسيلة للتأكد على وجه اليقين من أنها مع العجوز أو أنها ليست معه » • وقد تذكر ميتيا فيما بعد أن فكره في تلك اللحظة كان على جانب عظيم من الصحو والصفاء ، فلا تفوته ساردة ولا واردة ، حتى ليدرك أدق تفاصيل الموقف • ولكن القلق كان يحتاج نفسه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء ، لأنه ليس من أمره على يقين ، حتى أصبح لا يطيق هذا الوضع •

تساءل : « أهى هنا أم لا ؟ » • واشتعل حنقه • وها هو ذا يعزم أمره على حين فجأة ، فيمد ذراعه ، وينقر على الزجاج نقرات الإشارة المتفق عليها مع سمردياكوف وهى : نقرتان متباعدتان ، فثلاث نقرات متقاربة ، دلالة على أن « جروشكا قد وصلت » • فانتفض العجوز ، ورفع رأسه ، ووثب من مكانه ، واندفع نحو النافذة • فارتمى ميتيا فى الظلام •

دمدم فيدور بافلوفتش يسأل بصوت مرتجف :

— أهذا أنت يا جروشكا ؟ أنت ؟ أين أنت يا ملاكى ؟ أين أنت يا حبى ؟ أين أنت ؟

وكان يختلق من فرط الانفعال •

قال ميتيا لنفسه : « انه وحيد » •

واستأنف العجوز يسأل :

— أين أنت اذن ؟

وكان الأب وهو يرسل هذا السؤال يميل برأسه من النافذة حتى الكتفين ناظراً الى جميع الجهات • وها هو ذا يضيف قوله :

— تعالى ! لقد أعددت لك مفاجأة حلوة • تعالى فأريك المفاجأة •

قال ميتيا فى سره : « هى الطرف الذى يضم الثلاثة آلاف روبل » •

— ولكن أين أنت اذن ؟ لعلك قرب الباب ؟ سأفتح لك الباب •

وكاد يسقط من النافذة من شدة ميله عليها ليرى المرأة الشابة فى الظلام من جهة الباب الذى يفضى الى الحديقة على اليمين • ولو قد اتسع الوقت لحظة أخرى اذن لأسرع الى الباب حتماً دون أن ينتظر جواب

جروشكا • كان ميتيا يرقبه من قرارة مخبئه بغير حركة • كان يراه من جانب • فكان وجهه الكريه المقيت ، وكانت جوزة عنقه ، وكان أنفه الأقي ، وكانت شفاته اللتان تبسيمان بانتظار نسيق ، كان ذلك كله يبرز في ضوء ساطع يسقط عليه موارباً من المصباح الموجود في الجهة اليسرى من الغرفة • فاذا بكره عنيف فظيع يغلى في قلب ميتيا فجأة ، فيقول في نفسه : « هذا هو ، هذا هو غريمي ، هذا هو خصمي ، هذا هو جلاّدي ، هذا هو عدو حياتي ! » • انها سورة الحنق المبالغت المسعور الحاقد الظامي الى الانتقام ، الذي تحدث عنه الى أليوشا بما يشبه التنبؤ أثناء حديثهما في الجناح قبل أربعة أيام جواباً على سؤال أليوشا له : « كيف يمكن أن يخطر ببالك أن تقتل أباك ؟ » • لقد أجابه يومئذ قائلاً : « لا أدري ، أصبحت لا أدري • قد لا أقتل ، ولكن من الممكن أن أقتل • أخشى أن يصبح في نظري كريهاً على حين فجأة بوجهه المقيت في تلك اللحظة • انسى أكره جوزة عنقه ، وأنفه ، وعينه ، وضحكته الصغيرة المستهتره • انه يثير فيّ تقززاً جسيماً • ذلك هو ما أخشاه خاصة • قد لا أستطيع أن أكبح جماح نفسي » •

وكان التقزز الجسمي الذي يحس به ميتيا لا حدود له • فاذا هو ، دون أن يدرك ماذا يفعل ، يخرج من جيبه ميدقّ الهساون على حين فجأة ...

سوف يقول فيما بعد ان الله كان ساهراً عليه في تلك الدقيقة • ففي تلك اللحظة نفسها استيقظ جريجورى فاسيلفتش في سريره الذي كان قد اضطلع عليه مريضاً • كان جريجورى قد بلجأ في المساء الى استعمال الدواء الذي ذكره سمردياكوف في حديثه مع ايفان فيدوروفتش ، أي ذلك جسمه بمعاونة امرأته بخليط من الخمر ومغليّ أعشاب قوى

ثم شرب ما تبقى من هذا الخليط ، بينما كانت مارفا اجناتيفنا تقرأ عليه دعاءً سرياً بصوت خافت • ثم رقد وذاقت مارفا اجناتيفنا الدواء أيضاً ، ولكنها لم تلبث أن نامت الى جانب زوجها نوماً عميقاً على الفور ، لأنها لم تألف شرب الكحول ، ولم تتعوده • أما جريجورى فقد استيقظ من نومه فى وسط الليل على غير توقع ، وفكّر لحظة ، ثم اذا هو يجلس على سريره رغم أنه أحس بألم شديد فى المنطقة الحفوية • فلما فكر من جديد ، نهض وأسرع ىرتدى ثيابه • من الجائز أن يكون قد شعر بعذاب الضمير لأنه نام بينما بقى البيت بغير حارس يحرسه « فى فترة خطيرة الى هذا الحد » • وكان سمردياكوف الذى صرعه النوبة ، راقداً بلا حراك فى الغرفة الصغيرة المجاورة • ولم تتحرك مارفا اجناتيفنا ، فقال جريجورى لنفسه وهو يلتقى نظرةً عليها : « انها لم تتحمل الدواء » ثم خرج الى درجات الباب وهو يثن • كان لا يستهدف الا أن يلقى نظرة على الخارج ، لأنه كان لا يحس أنه قادر على المشى ، بسبب الألم الشديد الذى كان يشعر به فى الكليتين والساق اليمنى • ولكنه تذكر فى تلك اللحظة نفسها أنه لم يقلل باب الحديقة الحديدى فى المساء • ان جريجورى رجل دقيق المواعيد منظم السلوك ، لا ينحرف أبداً عن القواعد التى فرضها على نفسه الى الأبد ولا عن العادات التى أخذ نفسه بها خلال سنين • وها هو ذا يهبط درجات الباب عارجاً متلويماً من الألم ، ويتجه الى الحديقة • وكان باب الحديقة الحديدى مفتوحاً حقاً • أترأه لاحظ شيئاً يثير الانتباه أو سمع صوتاً لا يتوقع ؟ فلما لفت رأسه فجأة نحو اليسار ، رأى النافذة فى غرفة نوم مولاه مفتوحة ، ولم ير أحداً عليها ؟ فتساءل : « كيف تكون النافذة مفتوحة ولسنا فى فصل الصيف ؟ » ، ولمح فى تلك اللحظة نفسها ظلاً يتحرك فى الحديقة على مسافة أربعين خطوةً منه • كان هناك رجل يهرب فى الظلام • صاح جريجورى يقول : « ربا ! » ، ثم نسى فجأة

ألمه ، واندفع يركض ليقطع على الهارب طريق الفرار ، فسلكت أقصر طريق ، لأنه يعرف الحديقة أكثر مما يعرفها الرجل الذي يطارده . لقد اتجه الهارب نحو الحمامات ، فدار حولها ، ثم اندفع صوب الحائط . وكان جريجورى يركض بأقصى سرعة دون أن يغيب الرجل عن بصره ، فوصل الى السور فى اللحظة التى كان فيها الرجل المجهول يتسلق السور ؟ وما هو ذا يطلق صرخة قوية وقد خرج عن طوره ، ويمسك احدى ساقى الرجل بكلتا يديه .

لم يخطئه حدسه ؟ عرف الرجل : انه ذلك الشيطان الرجيم « قاتل أبيه » .
زأر العجوز يقول :
- يا قاتل أبيه !

ولكنه لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك : فما هو ذا يهوى على الأرض مجندلاً .

قفز ميتيا الى الحديقة من جديد ومال على الخادم الذى جند له . وكان ميتيا يمسك المدق النحاسى بيده ، فرماه على العشب ذاهلاً . سقط المدق على مسافة خطوتين من جريجورى ، لا بين الحشائش ، بل فى الممر ، أى فى أبرز موضع يرى . ولبت ميتيا بضغ لحظات يتأمل جسم الخادم العجوز الدامى رأسه ، ومدّ يده يجس الرأس . لقد تذكر ميتيا فيما بعد ، تذكراً واضحاً ، أنه شعر فى تلك اللحظة بحاجة قوية لا تقاوم ، الى « التأكد تأكداً كاملاً » : هل كُسرت جمجمة جريجورى أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قد أغشى عليه بسبب الضربة التى أصابت صدغه . ولكن الدم الحار كان يتدفق فيغرق أصابع ميتيا المرتجفة . وتذكر ميتيا فيما بعد أنه أخرج من جيبه منديلاً نظيفاً كان قد تزود به

حين ذهب الى السيدة هوخلاكوفا ، فوضعه على وجه جريجورى ، محاولاً
بغياه أن يقطع سيلان الدم على جبينه وخديه . فسرعان ما ابتل المنديل
بالدم خلال بضع ثوان . فأسرع ميتيا يتساءل فجأة وقد ثاب الى رشده :
« ما بقائى هنا ؟ » ثم أضاف يقول يائساً : « وكيف يمكننى أن أعرف
الآن هل كُسرَت الجمجمة أم لا ؟ وما جدوى هذا على كل حال ؟ ما وقع
فقد وقع ولقد كان العجز متهوراً فقال ما يستحق ! » . بهذا ختم
ميتيا كلامه بصوت عالٍ ، ثم اندفع نحو السور ، فتسلقه ، وقفز الى
الشارع الضيق ، وانصرف راكضاً . وكان لا يزال يمسك بيده اليمنى
منديله المبلل بالدم ، فدسّه فى جيب سترته دون أن يهتدىء سرعة
ركضه . كان يعدو عدواً شديداً يوشك أن يقطع أنفاسه ؛ ولسوف
يتذكر عدة مارة صادفوه فى الشوارع أنهم رأوا فى تلك الليلة رجلاً
يهرب فى الظلام طائش العقل .

اتجه ميتيا من جديد الى منزل آل موروسوف . كانت فينيا قد
أسرعت ، بعد انصرافه ، الى بيت البواب نازير ايفانوفتش فتوسلت اليه
« باسم يسوع المسيح أن لا يدع «الكابتن» أن يدخل المنزل مرة أخرى ،
لا فى هذا المساء ولا فى الغد » ، فوعدها نازير ايفانوفتش بأن يلهى
رجاءها ، ولكنه اذ اضطر أن يذهب الى مالكة المنزل فى الطابق الأعلى ،
عهد بمراقبة الفناء الى ابن أخيه ، وهو فتى فى العشرين من عمره كان
قد وصل من الريف مؤخراً ، ونسى أن يوصيه بما كان يجب أن يوصيه
به بشأن الكابتن ، فلما وصل دتمرى طرق الباب ، ففتح له الشاب الفلاح
فعرفه ، لأن ميتيا كان قد أعطاه « بقاشيش » كبيرة مرات كثيرة ، وتركه
يدخل ، حتى لقد أسرع يبلغه ، وهو يتسهم ابتسامة تودد ، أن « أجرافين
الكسندروفنا ايست فى بيتها » . فسأله ميتيا بحرارة :

— فاين هى يا بروخور ؟

فقال له الشاب :

ـ سافرت الى موكرويه منذ أكثر من ساعتين ، وتولى تيموتي
قيادة الخيل •

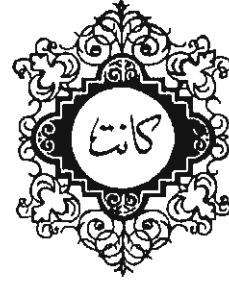
صاح ميتيا يسأله :

ـ ماذا ذهبت تصنع هناك ؟

ـ لا أدري يا سيدى ! ضابط استدعاه وأرسل اليها عربةً تقلها •

كان ميتيا قد انقطع عن الاصغاء اليه • فلقد أسرع يدخل البيت
كالمجنون ناحتاً عن فينيا •

فدرايفاجى



فينا فى المطبخ مع جدتها ، وكانت المرأتان
تستعدان للنوم • وقد اعتمدتا على بقطة نازير
ايفانوفتش ، فأهملتا مرة أخرى أقفال الباب
بالمفتاح • اقتحم ميتا الغرفة ، وارتمى على فينيا ،
فقبض على عنقها ، وزأر يسألها خارجاً عن طوره :

— قولى لى حالا ، مع من هى فى موكرويه الآن ؟

فأطلقت المرأتان صرخة حادة • وجمجمت فينيا تقول بسرعة وقد
استحوذ عليها هلع رهيب :

— سأقول كل شىء يا دمترى فيدوروفتش العزيز ، سأتكلم ، لن
أخفى شيئاً • لقد ذهبت جروشنكا الى لقاء ضابطها فى موكرويه •

صرخ ميتا يسألها :

— أى ضابط ؟

فأسرعت تجيبه :

— الضابط الذى عرفته فى الماضى ، منذ خمس سنين ••• الضابط
الذى تركها وسافر •

أعققت ميتيا عنق فينيا • ولبت أمامها لحظة لا ينطق بكلمة ، وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموت ، وعبرت نظراته عن أنه أدرك الحقيقة الآن على حين فجأة ، وأنه فهم كل شيء وحزر كل شيء دفعة واحدة . ولكن فينيا المسكينة لم يخطر ببالها في تلك اللحظة أن تلاحظه لتعلم هل أدرك الحقيقة فعلاً أم هو لم يدركها • لقد ظلت جالسة على صندوق كما كانت حين وصول ميتيا ، ولبت ترتعش جامدة على ذلك الوضع نفسه مادة ذراعيها كأنما لتحمي نفسها • وكانت عيناها اللتان اتسعت حدقتاهما من الجزع تحديقان الى ميتيا الذي كانت يدها حمراوين من الدم ، وكان ميتيا أنشاء الطريق قد اضطر أن يمسح يديه العرق الذي كان يتصبب من وجهه ، فكانت بقع الدم تُرى كذلك على جبينه وعلى خده اليمنى • وشعرت فينيا أنها توشك أن تصاب بنوبة عصبية • وكانت العجوز الطباخة التي وثبتت عن مكانها تنظر الى المشهد مذعورة النظرات ، نصف مجنونة من شدة الهلع • وبعد دقيقة من صمت تهالك ميتيا على كرسي قرب فينيا •

كان ميتيا لا يفكر • انه الآن أقرب الى أن يكون خائفا مذهولاً • كان كل شيء قد اتضح : انه ذلك الضابط • وكان ميتيا على علم بوجود هذا الضابط مع ذلك وكان لا يجهل أنه كتب الى جروشكا منذ شهر ، وقد عرف ذلك من جروشكا نفسها • فخلال شهر اذن ، خلال شهر كامل ، ظلت هذه المؤامرة تدبر من وراء ظهره ، الى أن وصل الخصم الجديد ، دون أن يكون ميتيا قد اهتم بهذا الأمر أو اكرث له أو قلق منه • كيف أمكنه أن لا يفكر في هذا الضابط يوماً ، ولماذا نسيه نسياناً تاماً بعد أن رأى رسالته ؟ كان هذا السؤال يعذب ميتيا كأمر عجيب غريب ، ويبعث في نفسه خوفاً ورعباً •

وهاهوذا ميتيا يخاطب فينيا على حين فجأة برقة ولطف وكياسة ،

كطفل طيب خجول ، دون أن يتذكر كيف داهمها وقسا عليها منذ لحظات . أخذ يلقي عليها أسئلة واضحة دقيقة يُستغرب صدورها عن رجل في مثل حالته فكانت فينيا تجيبه عن كل سؤال بلطف عظيم وبشاشة كبيرة ، رغم أنها لم تستطع أن تحوّل بصرها المذعور عن يديه الدامين ، حتى لقد بدا عليها أنها تحرص على أن لا تكتمه شيئاً وأن لا تخفى عنه شيئاً . ولاح شيئاً فشيئاً أنها تجد مسرة في أن تكشف له عن جميع التفاصيل ، لا بقصد إيلاسه ، بل عن رغبة صادقة منها في أن تكون نافعة له . قصت عليه أحداث النهار تفصيلاً ، وذكرت له زيارة راكيتين وأليوشا ، وحكت له كيف أنها كلّفت بالترقب والترصد ، وروت له سفر جروشكا ، وردّدت على مسامعه التحيات التي حرصت المرأة الشابة على أن تكلف أليوشا من النافذة بأن ينقلها اليه ، بغية « أن يتذكر على مدى حياته الساعة التي أحبه فيها » . فلما وصلت فينيا الى هذه النقطة من حديثها ابتسم دمترى ، واحمر خداه الشاحبان بضع ثوان . وتجذرت فينيا عندئذ فسألته دون خوف في هذه المرة :

— لماذا أرى يديك ملوثتين بالدم يا دمترى فيدوروفتش ؟

فأجابها ميتيا ذاهلاً :

— آآآ نعم آآآ صحيح .

وألقى على يديه نظرة ذاهلة .

ولكنه سرعان ما نسي السؤال الذي ألقى عليه ، وغرق في الصمت . لقد انقضى نصف ساعة على وجوده هنا . ان الرعب الذي اجتاحه قبل بضع لحظات قد تبدد الآن ، وبدا على ميتيا أن قراراً حازماً لا رجعة عنه قد استولى عليه وحلّ محل ذلك الرعب . وها هوذا ينهض فجأةً ويبتسم حالم النظر ذاهل اللب شارد الفكر .

سألته فينيا وهى تشير الى يديه :

- ماذا وقع لك يا سيدى ؟

وكانت فينيا تتكلم بلهجة فيها عطف وشفقة ، كأن ميتيا ليس له أحد أقرب منها اليه فى لحظة الشقاء هذه التى يمر بها •

نظر ميتيا مرة أخرى الى يديه • ثم أجابها وهو ينظر اليها نظرة غريبة :

- هو دمٌ يا فينيا ••• دم انسانى ••• الله وحده يعرف لماذا سُفِّح هذا الدم ••• ولكن اعلمى يا فينيا أنه يوجد هنالك سور عالٍ (وكان ميتيا ينظر اليها فى تلك اللحظة نظرة من يلقي عليها «فزورة») ، سور رهيب ••• وغداً ، عند الفجر ، حين تبدأ الشمس مسيرتها ، سيقفز ميتيا ذلك السور ••• انك لا تفهمين يا ميتيا أى سور أعنى ••• لا ضير ••• ستعرفين ذلك غداً ، وستفهمين عندئذ كل شئ ••• أما الآن ، فوداعاً ! لن أكون عقبه فى طريق سعادتها ، سأعرف كيف أمحى ••• عيشى واسعدى يا فرحتى ، يا ضيائى ••• لقد أحبيتى ساعة ، ولسوف تتذكرين ميتكا كارامازوف طوال حياتك ••• تعلمين أنها كانت تنادىنى ميتكا !

قال ميتيا هذه الكلمات وخرج من المطبخ فظهر على فينيا أن انصرافه هذا قد أزعجها أكثر مما أزعجها وصوله حين اقتحم الغرفة وهجم عليها •

وبعد عشر دقائق تماماً كان دمترى فيدوروفتش يمثل أمام بطرس ايلتش برخوتين ، الموظف الشاب الذى استودعه المسدسين رهنأ • كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف ، وكان بطرس ايلتش قد احتسى الشاي ، وارتدى ردنجاته ليمضى يلعب البلياردو قليلاً فى كاباريه

« العاصمة الكبرى » ... وصل اليه ميتيا في اللحظة التي كان يهم فيها أن يخرج . فما ان رأى الشاب يديه الداميتين حتى صرخ مدهوشاً .
- ماذا وقع لك ؟

- لا شيء ! جئت أردُّ اليك مالك واسترد المسدسين . لقد قدمت لى خدمة كبيرة . أنا مستعجل جداً يا بطرس ايلتش ، فلا نضيعن الوقت . كانت دهشة بطرس ايلتش ما تنفك تزداد : ذلك أنه رأى فى يدي ميتيا كدسة أوراق نقدية ، وأغرب ما فى الأمر أن ميتيا كان يمسك كدسة الأوراق النقدية كما لا يمسكها أحد : كان قابضاً عليها بيده اليمنى التي يقدمها الى أمام كأنما ليعرضها . وقد صرَّح الخادم الشاب الذى يعمل فى منزل الموظف ، صرَّح فيما بعد أن دمترى فيدوروفتش قد دخل المنزل وهو على هذه الحال ، وأن أغلب الظن اذن أنه كان فى الشارع أيضاً يحمل حزمة الأوراق النقدية (وهى أوراق من فئة المائة روبل) بيده على هذه الصورة بحيث يراها الناس بسهولة .

كان ميتيا يشد على الأوراق النقدية بأصابعه المدماة . وقد ذكر بطرس ايلتش للأشخاص الذين سألوه فيما بعد عن المبلغ هل هو ضخم ، ذكر أن من الصعب تقديره بالنظر وحده ، وأن من الجائز أن يبلغ ألفى روبل وربما ثلاثة آلاف روبل ، غير أن الكدسة كانت كبيرة على كل حال ، كانت سمكة جداً . أما دمترى فيدوروفتش فلقد كان ، كما ورد فى الشهادة التي أدلى بها هذا الموظف الشاب فيما بعد ، « فى حالة غير طبيعية ، ولكنه لم يكن ثملاً » ، وانما كان شديد الاندفاع ، عميق الذهول ، رغم أن منظره يُشعر فى الوقت نفسه بأنه كان يركز ذهنه على فكرة تشغله ، فهو يبدو مفكراً باحثاً عن حل لا يفلح فى الوصول اليه . وكان عدا ذلك مستعجلاً جداً ، وكان بحيب بأجوبة مباغتة ، وجمل قصيرة ، غريبة . وكان يمكن أن يُظن فى بعض اللحظات أنه فرح لا حزين . »

صاح بطرس ايلتش يسأل من جديد وهو يتفكر فى زائره
مذهولاً :

- ولكن ماذا بك ؟ ماذا فعلت حتى تملطخت بالدم هذا التلطنخ كله ؟
أترارك سقطت على الأرض ؟ أنظر الى نفسك فى المرآة •

قال له ذلك وأمسكه من كوعه ودفعه نحو مرآة • فلما رأى ميتاً
وجاهه دامياً ارتعش وقطب حاجبيه • ودمدم يقول حانقاً :

- هه ! لم يكن ينقص الا هذا ...

وأسرع ينقل الأوراق المالية من يدها اليمنى الى يده اليسرى ،
وأخرج منديله من جيبه بحركة متشنجة • كان هذا المنديل (الذى
استعمله ميتاً فى مسح وجهه جريجورى) ملطخاً بالدم ، وكانت طياته قد
التصقت بعضها ببعض التصاقاً قوياً فلم يفلح ميتاً فى فضها ، فرمى المنديل
على الأرض غاضباً وهو يسأل بطرس ايلتش قائلاً :

- أليس عندك خرقة ... أمسح بها ؟

- تمسح ؟ أنت تلوئت بالدم تلوئاً فحسب ؟ أأنت جريحاً اذن ؟
اذا كان الأمر كذلك فتعال اغتسل • سأعطيك طشت ماء •

- شكراً .. ولكن أين أضع هذا ؟

قال ذلك وهو يشير الى حزمة الأوراق المالية ، سائلاً بطرس
ايلتش بنظراته كأن بطرس ايلتش هو الذى يقع على عاتقه أن يقرر
ماذا يفعل ميتاً بماله • قال بطرس ايلتش :

- ضع المال فى جيبك ... أو ضعه على المائدة هنا ... فلن
ياخذه أحد •

- فى جيبى ؟ طبعاً فى جيبى ... عظيم ...

ثم صاح يقول فجأة كأنه يخرج من ذهوله :

— هذا كله سخيف ! ... لا ... يجب أن نسوّى تلك المسألة أولاً ... هات المسدين ... اليك المال ... اننى فى حاجة ماسة الى المسدين ... وأنا مستعجل جداً ... ليس هناك لحظة أستطيع أن أضيعها •

قال ذلك ومدّ الى الموظف ورقة بمائة روبل كانت أولى أوراق الخزنة • فقال له بطرس ايلتش :

— لا أستطيع أن أبدلها لك ... أليس معك نقود صغيرة ؟
فأجابه ميتا :

— لا ...

ولكنه جس ورقتين أخريين أو ثلاث ورقات أخرى كأنه غير متأكد من صحة جوابه ، ثم أضاف :

— لا ... ليس عندى أوراق صغيرة ... هى جميعاً واحدة •
قال ذلك ونظر الى بطرس ايلتش مرتبكاً •
سأله الموظف الشاب :

— من أين جاءت هذه الثروة كلها ؟
ثم أضاف يقول :

— انتظر ! سأرسل الصبي الى مخزن آل بلوتنيكوف • انهم يغلقون متجرهم فى ساعة متأخرة ، وسيبدلون لنا هذه الورقة • هيه ! ميشا !

كذلك نادى الصبي وهو يفتح الباب •

هتف ميتا يقول فيما يشبه الالهام المبالغت :

– مخزن آل بلوتنيكوف ؟ فكرة رائعة ...

ثم قال يخاطب الصبي الذى دخل العرفة فى تلك اللحظة :

– ميشا ؟ أركض الى متجر آل بلوتنيكوف * ، وقل لهم ان دمتري فيدوروفتش يبلغكم تحياته ، وانه سيجيء اليكم بنفسه بعد قليل ...
وقل لهم أيضاً هذا : أن يحضروا شمبانيا بانتظار وصولي اليهم . نعم ...
ثلاث دسات شمبانيا ... وليحزموها كما فعلوا فى المرة الأخيرة حين سافرت الى موكرويه ... لقد طلبت يومئذ أربع دسات (كذلك أضاف يقول فجأة وهو يلتفت الى بطرس ايلتش) . وهم يعلمون على كل حال ، يا ميشا ... لا تهتم بشيء . (هكذا استأنف كلامه مخاطباً الصبي) ... ها نعم ! قل لهم أيضاً أن يضيفوا جنباً ، وفطائر من ستراسبورج ، وأسمكاً مدخنة ، وشرائح من فخذ الخنزير ، وكافياراً ، أى شيئاً من كل ما عندهم فى مخزنهم ، بحيث يكون ثمن المجموع مائة أو مائة وعشرين روبلاً كما فى المرة السابقة ... وقل لهم كذلك أن لا ينسوا الملابس والساكر الذوابة والكشرى ، وبطيختين أو ثلاثاً ... لا بل تكفى بطيخة واحدة ... ولكن لا بد فى مقابل ذلك من شوكلاتة وسكر شعير ، وفاكهة مرببة وكارامل لين ، تماماً كالمرّة الماضية ؛ فيكون الثمن مع الشمبانيا حوالى ثلاثمائة روبل ... تماماً كالمرّة السابقة ... هل ستتذكر ياميشا ؟ أليس اسمه ميشا ؟ (وجّه هذا السؤال الى بطرس ايلتش) .

قال بطرس ايلتش الذى كان يصفى اليه ويلاحظه قلقاً :

– لحظة ! ... أليس الأفضل أن تأمرهم أنت باعداد الأشياء ؟
لا شك أن الصبي سيخطئ .
– سيخطئ ، سيرتبك ! أوه ! ميشا ! كنت أريد أن أقبلك منذ

الآن شكراً لك ... اسمع : اذا لم تخطئ في تنفيذ المهمة ، فلك منى عشر روبلات • هيا أسرع ... لا تنس الشمبانيا خاصة ، يجب أن يحضروا كثيراً من الشمبانيا ... وكذلك من الكونياك ... أبيض وأحمر ... تماماً كالمرّة السابقة • هم يعرفون ما طلبته في المرّة السابقة •

قاطعه بطرس ايلتش قائلاً وقد نفذ صبره :

— هلاًّ تركتني أتكلّم آخر الأمر ؟ أعود فأقول لك : حسب الصبي أن يجيئنا بالنقود ، وأن يوصيهم بأن لا ينلقوا متجرهم قبل وصولك • وستذهب اليهم فوراً ، فتعمل ما يجب بنفسك • اعطني هذه الورقة ... والآن هياً يا ميسا ، وأسرع ... فهمت ؟

يبدو أن الموظف كان حريصاً على أن يسرع في صرف ميسا الذي كان ينظر محمق العينين الى الزائر الذي تلمّخت يده وتلمّخ وجهه بالدم وحملت أصابعه المرتعشة حزمة من الأوراق المالية • كان الغلام واقفاً أمام ميتيا فاغر الفم ، ولعله لم يفهم شيئاً مما كان يقال له •

فلما انصرف الغلام قال بطرس ايلتش بلهجة جافة :

— والآن تعال اغتسل • ضع المال على المائدة أو ضعه في جيبيك ... هكذا ... اقترب ... اخلع عنك هذا الردينجوت !

وساعده في خلع الردينجوت ، فاذا هو يصيح فجأة من جديد قائلاً :

— أنظر ... الردينجوت أيضاً ملوث بالدم •

— ليس هو ... ليس هو الردينجوت ... الكمّ وحده اتسخ قليلاً في هذا الموضع ... وهنا أيضاً ... ذلك لأنني هنا انما دسست

المنديل ، فضح الدم ... ولا بد أنني قعدت عليه عند فينا ، فرشح الدم
من الجيب •

كذلك راح ميتيا يشرح الأمر فى سورة من ثقة عجيبة • فقطب
بطرس ايلتش حاجيه • وقال متذمراً :

— هأنت ذا دبرت أمرك ! أثراك اقتلت مع أحد ؟

وابتدأ التنظيف • تناول بطرس ايلتش جرةً وأخذ يسكب الماء •
فكان ميتيا من فرط تعجله لا يحسن « تصيين » يديه (كانت يده
ترتشان ؛ تذكر بطرس ايلتش ذلك فيما بعد) ، فأمره الموظف الشاب
بأن يعيد الكرة فيصبن يديه من جديد • كان الموظف فى تلك اللحظة
يسيطر على ميتيا ، وكان سلطانه عليه يقوى شيئاً بعد شيء • يحسن أن
نشير هنا الى أن هذا الشاب لم يكن خجول الطبع •

— أنظر : لقد نسيت أن تنظف ما تحت الأظافر • وادلك وجهك
الآن • أكثر من هذا ! هنا على الصدغين ، وقرب الأذن أيضاً ... هل
تنوى أن تنصرف لابساً هذا القميص ؟ والى اين تريد أن تذهب ؟ ألا ترى
أن الكم اليمنى ملأى بالدم ؟

فقال ميتيا وهو يفحص الكم :

— حقا ! انها ملطخة •

— بدّل اذن ملابسك الداخلية •

— لا يتسع وقتى • سأدبر هذا الأمر : أثنى طرف الكم نحو
الداخل ، فلا يرى الدم ... هكذا ...

كذلك أجاب ميتيا بتلك الثقة نفسها ، وهو يجفف وجهه ويديه
ويرتدى ردتوته •

— قل لى الآن ما وقع لك ؟ هل أقتلت مع أحد ؟ مع من أقتلت ؟
أفى الكاباريه ، كما حدث هذا من قبل ؟ أتراك أقتلت مرة أخرى مع
ذلك الكابتن نفسه الذى جررته الى الشارع وأخذت تضربه ضرباً مبرحاً ؟
(ذكر بطرس ايلتش ذلك المشهد بلهجة لائمه) * من ذا ضربت اليوم
... أم تراك قتلت أحداً ؟

— سخافات !

— سخافات ؟ ماذا تعنى ؟

قال ميتيا :

— دعك من هذا الأمر *

ثم استدرك يقول مبتسماً وقد ثاب الى نفسه :

— دست امرأة عجوزاً فى الميدان *

— دست امرأة عجوزاً *

— بل رجلاً عجوزاً *

كذلك صحَّح ميتيا أجابته ضاحكاً ، وصارخاً كأنه يكلم رجلاً
أطرش * وكان يسدد نظراته الى عيني بطرس ايلتش *

— رجل عجوز ... امرأة عجوز ! ... أصبحت لا أفهم ! ...
أتراك قتلت أحداً ؟

— لا بل تصالحنا * تضاربنا فى أول الأمر ثم تصالحنا بعد ذلك *
حدث ذلك هناك * وافترقنا صديقين * ثم انه غبى أبله ... أوه ! لقد
غفر لى وعفا عني ... لا بد أن يكون قد صفح عني فى هذه الساعة ...
ولو قد نهض ، لما أمكن أن يغفر لى ... هه ... فليذهب الأبله الى

الشیطان ! هل تسمعنى يا بطرس ايلتس ؟ فليذهب الى الشيطان ! لا أريد أن أهتم به بعد الآن ، لا أريد أن يخطر ببالى فى هذه اللحظة !

كذلك صاح ميتيا يقول بلهجة قاطعة • قال بطرس ايلتس :

- لا أحب أن أكون كثير الفضول ••• ولكن أینه لذة تجد فى التشاجر مع أول قادم ؟ ••• وفى سبيل ترهات وسفاسف ، كما حدث مع ذلك الكابتن ؟ تقتل ثم تمضى تلهو وتقصف ، ذلك طبعك حقاً ! ثلاث دستات شمبانيا ! أين تقدر أن تشرب هذا كله ؟

- أعطنى المسدسين بسرعة • أنا مستعجل جداً ، أحلف لك ! كنت أود لو أثرر معك يا عزيزى ، ولكن ليس فى وقتى متسع • ثم فىم الثمرة ؟ لقد فات أوان الكلام الآن • آه !••• ولكن ! أموالى ، أين أين وضعتها ؟

كذلك هتف يقول وهو يفتش جيوبه واحداً بعد آخر •

- أموالك على المائدة ••• هناك ••• وضعتها على المائدة بنفسك • هل نسيت ؟ لكأن المال ليس له أى شأن عندك حقاً ! أما مسدسك فهاكهما • انى لأستغرب أن تكون قد رهنتهما لاقتراض عشر روبلات عند العصر ، ثم اذا بك تقبض بيديك الآن على ألوف • كم معك على وجه الدقة ؟ ألفان ، ربما ثلاثة آلاف ؟

أجاب ميتيا ضاحكاً :

- ثلاثة آلاف •

ودس الحزمة فى جيب سرواله •

- سوف تضعها هكذا ؟ أثراك اكتشفت منجم ذهب ؟

صاح ميتيا يقول بصوت قوى وهو ينفجر بضحك صاحب
مجلجل :

— مناجم ، مناجم ذهب ! هل تهملك المناجم يا عزيزى الشهم
برخوتين ؟ اننى أعرف هنا سيده تعطيك ثلاثة آلاف روبل على الفور اذا
أنت مضيت باحثاً عن المناجم • لقد أعطيتى أنا ثلاثة آلاف روبل ، فالى
هذا المدى يذهب جنونها بالمناجم ! هل تعرف السيدة هوخلاكوفا ؟
— أعرفها بالنظر ، وبالسمة أيضاً • أهى التى أعطتك الثلاثة آلاف
روبل ؟ أعطتكها هكذا ؟

كذلك سأله بطرس ايلتش وقد بدا فى وجهه أنه لم يصدق زعم
صاحبه •

— اذا كنت لا تصدق ما أقول فاذهب اليها غداً منذ الفجر ، ساعة
يرتقى فيبوس قبة السماء مسبحاً بحمد الرب ممجداً عظمتة بشبابه
الخالد • اذهب اليها فاسألها ألم تعطى ثلاثة آلاف روبل ، وسوف
تعلم •

— لا أتدخل فى علاقاتك • وما دمت تؤكّد ذلك جازماً فلا بد أن
يكون صحيحاً ••• ولكنك ما ان استلمت المبلغ حتى أخذت تلهو
وتقصّف وتبدد ، بدلاً من أن تذهب الى سيبيريا ! ••• الى أين تنوى أن
تذهب فى هذه الساعة ؟

— الى موكرويه •

— الى موكرويه ؟ ليلاً ؟

قال ميتيا فجأة :

— كان العالم ملك يمينى ، فأصبحت لا أملك الآن شيئاً !

- لا تملك شيئاً ؟ وهذه الثلاثة آلاف روبل ؟
- لا قيمة لها عندي ! ألا فليذهب المال الى الشيطان وانما أنا
أتكلم عن طبع النساء

فكر النساء سريع التصديق *
وقلبهن كثير التقلب فاسد

ان أوليس هو الذى قال هذا ، وأنا أوافقه فى رأى كل الموافقة •
- لا أفهمك •

- أظن أنك تحسبنى ثملاً ؟

- لا ثملاً ، ولكن ربما أسوأ من ذلك •

- أنا ثمل بالمعنى المجازى يا بطرس ايلتش ، لأن روحى هى
السكرى • ولكن كفى هذا الآن
- ماذا تفعل ؟ أنتحشو مسدسك ؟
- نعم أحشوه •

كان مينيا قد فتح علبة المسدسين فعلاً ، فبعد أن سكب باروداً
فى خرطوشة ، دسَّ الخرطوشة فى المسدس ؛ وقبل أن يضع الرصاصة
فى السبطانة ، أمسكها بين اصبعين وأخذ ينعم النظر إليها فى ضوء
الشمعة •

سأله بطرس ايلتش الذى كان يراقبه بفضول قلق :
- لماذا تنظر الى الرصاصة ؟

- هى نزوة لا أكثر لو كنت تنوى أن تسكن هذه الرصاصة
فى دماغك ، أفما كنت تنظر إليها حين تحشو المسدس ؟

— أنظر إليها ؟ لماذا ؟

— ما دامت ستنفذ فى جمجمتى أنا ، فانه ليهمنى أن أرى هيئتها قليلاً ! ... هذه سخافات أقولها على كل حال ، لا أدرى ماذا أصابنى . ثم أضاف يقول بحرارة وهو يدخل الرصاصة ويرسخها بالمشاققة :

— انتهى ! ما هذا كله الا سخافات يا عزيزى بطرس ايلتش ، سخافات لا أكر ... ليتك تعلم مدى ما فى هذا كله من غباء . أعطنى ورقة بسرعة !

— هذه ورقة .

— بل أريد ورقاً نظيفاً أكتب عليه . هذا يصلح على كل حال .

وتناول ميتيا ريشة من على المنضدة ، فكتب على الورقة سطرين بسرعة ، وحاوى الورقة أربعة أرباع ، ودسها فى أحد جيوب صدرته . وبعد ذلك أعاد المسدسين الى العلبة ، وأففلها بالمفتاح واحتفظ بهما فى يده . ثم راح ينظر الى بطرس ايلتش ملياً ، وهو يتبسم ابتسامة حائلة . وقال :

— والآن أمضى ؟

— الى أين ؟ قف ! أعلك تفكر فعلاً فى ارسال هذه الرصاصة الى رأسك ؟

كذلك سأل بطرس ايلتش متدخلاً ، وقد اشتد قلقه .

— هذه الرصاصة ؟ يا للغباء ! ألا فاعلم أنتى أريد أن أحيأ ، لأننى أحب الحياة ! انتى أعظم حباً لفيوس وضمفائره الذهبية وحرارته من أن

يخطر ببالي الانتحار ... قل لى يا عزيزى بطرس ايلتش : هل تستطيع
أنت أن تمحى ؟

- أن أمحى ؟ ماذا تعنى ؟

- نعم أن تمحى ، أن تزول من الدرب • أن تخلق المساحة
للإنسان الذى تحبه والإنسان الذى تكرهه ؟ وأن تحب حتى ذلك الذى
كان عليك أن تكرهه ... أن تبعد عن طريقهما قائلاً : « هيتا اسعدا ،
وليحرسكما الله ، أما أنا فسوف ... »

- سوف .. ماذا ؟

- لا شىء ! فلأَمْضُ ...

- أحسب أننى سأبلغ أقرباءك ليمنعوك من السفر • ماذا عسالك
فاعلاً فى موكرويه ؟

كذلك قال بطرس ايلتش وهو يتفرس فى ميتيا • فأجابه ميتيا :

- فى موكرويه امرأة ... امرأة ... هانت ذا عرفت الآن مافيه
الكفاية يا بطرس ايلتش ! حسبك هذا !

- اسمع لى : أنت انسان متوحش ، ولكنك كنت دائماً محبباً الى
قلبى • فأنا الآن شديد القلق عليك ...

- نسكراً يا أخى ! أتقول اننى متوحش ؟ هذا صحيح ! ذلك
ما كنت أدعيه دائماً : متوحشون ، متوحشون ... آ ... هذا ميشا قد
عاد • كنت قد نسيتيه •

وصل ميشا لاهتاً يحمل النقود • فذكر أن آل بلوتنيكوف قد «هبوا»
يتحركون ويعملون « ، فهم يحملون الزجاجات ويهيئون السمك
ويجلبون الشاى ، وأن كل شىء سيكون قد تم اعداده بعد بضع دقائق •

تناول ميتيا ورقة ماله بعشرة روبلات ، فمدّها الى بيلرس ايلتش ، ورمى
للصبي ورقة أخرى بتلك القيمة نفسها •

— مستحيل ! لا أسمع لك بأن تعطيه « بقاشيش » فى دارى • فان
ذلك سيفسده • أعد هذا المال الى جييك ولا تبدده • قد تحتاج اليه فى
القريب • اننى لأتنبأ بأن تعود الى منذ الغد لتستدين عشرة روبلات •••
ولكن لا ••• لا تدسّ جميع هذه الأوراق فى جيب السروال ، والا
ضاعت منك !

— هيه يا صديقى ! ليتنا نذهب الى موكرويه معاً • ما رأيك ؟
— ما ذهابى أنا الى هناك ؟

— اسمع ! سنفتح احدى الزجاجات لنشرب تمجيداً للحياة •
اننى فى حاجة الى شرب شىء من السمبانيا • فلنشرب معاً ! أظن أننا لم
نشرب معاً فى يوم من الأيام ! وأنا أحرص على هذا وأصر عليه !
— لك ما تشاء ! فلنذهب اذن الى الكاباريه • لقد كنت أنوى أن
أذهب الى هناك •

— لا الى الكاباريه ! ليس فى وقتى متسع • سنشرب عند آل
بلوتيكوف ، فى الحجرة التى وراء الدكان • سألقى عليك « فزورة » ،
هل توافق ؟

— ألقها •

أخرج ميتيا من جيب صديرتة الورقة التى كان قد طواها ووضعها
فيها ، ففض الورقة وأطلع عليها الموظف الشاب • فقرأ هذا الجملة التالية
التي كتبها عليها ميتيا بأحرف كبيرة : « اننى أعاقب نفسى مكفراً عن
حياتى كلها ، وأقبل هذا العقاب » •

قال بطرس ايلتس بعد أن قرأ الجملة :

- أحسب حقاً أن علىّ أن أبلغ أفاربك ! سأفوم بهذا !

- لن يتسع وقتك يا عزيزى ! هلمّ نشرب ! ذلك أفضل !

يقع متجر آل بلوتنيكوف فى ناصية الشارع قريباً جداً من دار بطرس ايلتس . انه أكبر « بقالية » فى المدينة ، وهو مشروع تجارى مزدهر ناجح يحسن أصحابه ادارته ؛ وفى هذا المتجر يباع كل شئ ، كما فى المخازن الكبرى بالعاصمة : خمور من « أقيّة الاخوة السييف » ، فاكهه ، سيجار ، شاي ، سكر ، بن ، الخ . وفيه يعمل ثلاثة مستخدمون مقيمون ، وغلامان متجولان يحملان السلع الى منازل الزبائن . لقد أصيب اقليمنا بفقر شديد ، وغادره أثرياء المالكين ، وبارت التجارة فيه ، ولكن مخازن البقالة ظلت مزدهرة ، حتى يمكن القول انها تزداد ازدهاراً سنةً بعد سنة : ان السلع التى من هذا النوع لا تعدم من يشتريها فى كل زمان .

كان آل بلوتنيكوف ينتظرون وصول ميتينسا الى مخزنهم نافدى الصبر ، لأنهم يتذكرون ما اشتراه منذ بضعة أسابيع من سلع كثيرة ، اذ ابتاع ، دفعةً واحدة ، من الخمور والبضائع ما بلغت قيمته بضع مئات من الروبلات عدداً وتقداً (وما كان لهم بطبيعة الحال أن يبيعوه شيئاً بالدين) ؛ وهم لم ينسوا أيضاً أنه كان يحمل بيده ، كما فى هذه المرة ، حزمة أوراق مالية ضخمة ، وأنه كان يرميها لهم دون أن يساوم ودون أن يفكر فى فائدة تلك السلع الكثيرة التى اشتراها . وقد روى بعد ذلك فى المدينة كلها أنه « حين ذهب الى موكرويه بصحبة جروشكا ، قد أنفق فى ليلة واحدة وفى النهار الذى أعقب تلك الليلة مبلغ الثلاثة آلاف روبل كله ، ثم عاد من ذلك القصف بغير قرش واحد فى جيبه ، كما ولدته أمه

تماماً » . ذلك أنه قد استأجر فرقة من الغجر (كانوا يعسكرون أيامئذ على مقربة من بلدتنا) ، فرتب هؤلاء أمرهم بحيث يسلبونه مئآت ومئات من الروبلات ، ومن أجل أن يفتحوا أعداداً كبيرة من الزجاجات ، مستغلين سكره . وقد روى الناس أيضاً ، في معرض السخر من ميتا ، أنه قدم شمبانيا لفلأحى موكرويه ، وأنه أشبع بنات الحى فطائر ستراسبورجية وأنواعاً من الحلوى . وكان الناس يتندرون أيضاً ، ولا سيما فى الكاباريه (ولكن لا بحضور ميتا ، والا تعرضوا للمخاطر) ، كانوا يتندرون بتلك الواقعة التى ذكرها هو نفسه على رموس الأشهاد ، وهى أنه لم يحفظ من جروشنكا ، من قبيل المكافأة له على تلك الرحلة ، الا بقبلة من قدمها ، ولا شئ غير ذلك » .

حين اقترب ميتا وبطرس ايلتش من البقالية وجدا على بابها مركبة ترويكاً مجهزة تماماً ، مزينة العدة بأجراس ومفارش ، وعربة مزودة بغطاء مريح . وكان الحوذى آندره ينتظر ميتا متربعاً على مقعده وكان فى الدكان منذ ذلك الحين صندوق خشبى كبير قد ملئ تقريبا بالسلع التى أمر بها ميتا ، وكان أصحاب المتجر لا ينتظرون الا وصول ميتا لتسمير الصندوق ووضعها فى العربة .

دهش بطرس ايلتش ، فسأل ميتا :

— من أين جاءت مركبة الترويكاً هذه ؟

فأجابه ميتا :

— لقد التقيت بآندره حين كنت آتياً اليك ، فأمرته بأن ينتظرني مع الخيول أمام البقالية . فلقد كان على أن لاأذيع وقتاً . ان تيمودى هو الذى قادنى فى المرة السابقة ، ولكنه سافر فى هذا المساء مع ساحرة ، دون أن يحفل بى ... ترالا لا ... هل ستتأخر كثيراً يا آندره ؟

أسرع أندره يجيب :

- لن يسبقونا الا ساعة واحدة في أكثر تقدير . . بل أقل من ذلك ! . . . ساعة قصيرة ! لقد قرنت خيول تيمودى بنفسى ، وأنا أعرف سرعتها . لأقودك بسرعة غير تلك السرعة يا دمترى فيدوروفتش ! هل تظن أنهم يمكن أن يقاسوا بنا ؟ لن يصلوا قبلنا بساعة كاملة .

كذلك قال أندره مؤكداً بحرارة ، وهو وجل ما يزال شاباً ، أحمر الشعر ، جاف الجلد ، يرتدى قميصاً ويحمل قفطانه على ذراعه .

- لك منى خمسون روبلاً « بقشيشاً » اذا لم تتأخر أكثر من ساعة !

- اعتمد علىّ يا دمترى فيدوروفتش . ساعة ؟ سيكون من حقهم أن يعتزوا ويفتخروا اذا هم سبقونا بنصف ساعة ؟

أخذ ميتيا يتحرك في المتجر في فوضى مضطربة ، متنقلاً من طلب الى طلب آخر قبل انهاء الطلب الأول . فرأى بطرس ايلتش أن من واجبه أن يتدخل محاولاً تخفيف اندفاعه والحد من جنونه .

قال ميتيا أمراً :

- أريد أن يكون الثمن اربعمائة روبل على الأقل ، تماماً كالمرّة السابقة . أربع دستات شمبانيا ، هل تسمعون ؟ لا أريد أن تنقص زجاجة واحدة !

- صرخ بطرس ايلتش :

- قف ! ما عساك صانعاً بكل هذا العدد من زجاجات الشمبانيا ؟ ماذا يحتوى هذا الصندوق الخشبي ؟ لا يمكن أن يكون فيه ما يساوى ثمنه اربعمائة روبل .

أسرع المستخدمون يشرحون له ، بلهجه متلطفة ، أن هذا الصندوق الأول لا يحتوي الا سن زجاجات من الشمبانيا ، وانه يحتوى كذلك « الأشياء الضرورية جداً » كالمقبات ، والملبس ، والحلوى ، الخ ... أما « الغلات » الأساسية فستحزم على حدة ، ثم ترسل كالمره السابفة على ترويكما أخرى تصل بعد « دمتري فيدوروفتش بأقل من ساعة » .
فال ميتيا ملحاً :

— بعد ساعة واحدة ، لا أكثر من ذلك • وستضعون فيها أكبر قدر ممكن من الجاتو والكارامل • ان البنات هناك يعيشن الجاتو والكارامل •
كذلك أضاف يقول بحرارة :

قاطعه بطرس ايلتش يقول شبه غاضب :

— أوافق على الكارامل ! ولكن ما عساك صانعاً بأربع دسات من زجاجات الشمبانيا ؟ تكفيك دسنة واحدة وتزيد !

وأخذ بطرس ايلتش يساوم ، وطلب أن يرى الماتورة ، وتحرك كثيراً ، ثم لم يستطع آخر الأمر أن ينقذ الا مائة روبل ، فقرر أن لايزيد ثمن البضائع المشتراة على ثلاثمائة روبل •

ثم صاح بطرس ايلتش يقول وقد نفذ صبره وضاق ذرعاً :

— شيطان يأخذكم ! ما أغبانى اذ أتدخل فى هذه الأمور ، وأقحم نفسى فيها ! بدّد مالك كما تشاء ، وارمه من النافذة اذا حلاك ذلك ، ما دمت قد كسبته بغير جهد !

فقال له ميتيا وهو يجره الى الغرفة التى تقع خلف الدكان :

— هدىء روعك يا معلمى ! سيأتونا الآن بزجاجة ترطب حلقينا !

نل لى يا بطرس ايلتش : لماذا لا تسافر معى ؟ أنت شاب شهم ، واننى
لأحب أمثالك من الرجال •

جلس ميتيا على مقعد أمام مائدة مغطاة بمفرش غير نظيف • وجلس
طرس ايلتش قبالة ، وجيئا بالشمبانيا • واقترحت عليهما محارات « من
نوع فاخر وصلت مؤخراً » ، فقال بطرس ايلتش رافضاً الاقتراح فى
نخضب :

— دعونى من محاراتكم ، فانى لا أحب المحار •

وقال ميتيا :

— لا يتسع وقتنا لأكل المحار ، ثم اننى لا أشتهى أن آكل الآن
محاراً •

ثم التفت يقول لبطرس ايلتش وقد تحمس على حين فجأة :

— اسمع يا صديقى ، اننى اكره كل هذه الفوضى •

— ومن ذا الذى لا يشمئز منها ؟ ثلاث دستات من زجاجات
الشمبانيا ••• ولمن ؟ لفلاحين ؟ ألا ان هذا ليتير التقرر ويبعث الغيان !

— ليس هذا ما أعنيه • فانما أنا أقصد الفوضى التى تشوش النظام
الأعلى ، نظام النفس ، نظام الروح ! لقد أعوزنى دائما ذلك النظام •••
ليس فى نفسى انسجام ••• ولكن انتهى الآن كل شئ ، فعلام الندم
والأسف ؟ فات الأوان ! لا بأس ! ••• لم تكن حياتى كلها الا فوضى
طويلة ، وقد آن لى أن أدخل عليها شيئاً من النظام • اننى أستعمل
استعارات وكنايات رديئة ، هه ؟

— بل قل انك تخرف ! •••

قال ميتيا :

المجد للخالق فى الخلق

المجد للخالق فى نفسى *

لقد نظمت هذا البيت من الشعر فى الماضى ، انبجس منى فى ذات يوم انبجاس دمعة + + + أوه ! لم يكن هو اليوم الذى جررت فيه الكابتن من لحيته !

- لماذا تتكلم عن ذلك الكابتن ؟ انه ! + + +

- لماذا ؟ لماذا ؟ آه + + + ما كل شىء الا دخان ! كل شىء يتبدد ! كل شىء يزول آخر الأمر !

- اسمع ! ان مسدسيك يقلقانى + + +

- ما المسدسات الا دخان ! اشرب ، وكفّ عن قول هذه السخافات !
اننى أحب الحياة + + + اننى أسرف فى حب الحياة ، حتى لأخجل من ذلك !
كفى ! فلنشرب يا عزيزى ، فلنشرب نخب الحياة ، نخب الحياة ! لماذا أنا معجب بنفسى ! اننى نرير ، ولكننى راض عن نفسى ! ومع ذلك يعذبنى أن أحب نفسى هذا الحب رغم صغارى ودنائى ! اننى أبارك الخليفة ، واننى مستعد لأن أسبح بحمد الخالق ، وأن أتغنى بعظمته ، ولكن + + +
يجب أولاً سحق حشرة خبيثه حتى لا تسمم حياة الآخرين + + + هيه يا أخى ! فلنشرب نخب الحياة ! أى شىء أفضل من الحياة ؟ لا شىء أفضل من الحياة ، لا شىء ! المجد للحياة ، والمجد المكتى ، ملكة الملكات !

- لك ما تشاء ! فلنشرب نخب الحياة ، ولنشرب نخب ملكة قلبك .

وأفرغ كل من الرجلين كأساً + كان ميتاً ، الحذر المهدار فى آن واحد ، يبدو حزيناً ، كأنهما ثقيلان يجتم على صدره وليس يستطيع طرده .

— ها ••• ها هوذا ميشا ، ها هوذا غلامك ميشا قد دخل ! نعال الى
هنا أيها الصبي الطيب ! اشرب كأساً معنا ، تمجيداً لفيوس وضفائره
الشقراء ، تمجيداً للشمس التى ستطلع غداً •••

قال بطرس ايلتش محتجاً حانقاً :

— أأنت مجنون ؟ أتسقيه هو شمبانيا ؟

فقال ميتيا :

— اسمح له بأن يشرب مرةً واحدة ! لسوف يسرنى هذا •

— ولكن ••• الخلاصة ••• ما دمت تصر ! •••

أفرغ ميشا قدحاً ، وسلّم ثم انصرف •

قال ميتيا :

— هكذا سيتذكرنى مدة أطول على الأقل ••• اننى أحب المرأة ،
أحب المرأة ! ما المرأة ؟ هى ملكة الأرض •• أوه ! اننى أحس بحزن
يا بطرس ايلتش ، أحس بحزن رهيب • هل تتذكر ذلك المقطع من
مسرحية هملت • « أشعر بحزن يا هوراسيو ، أشعر بحزن شديد •••
وا أسفاه ! مسكين يوريك ذاك ! » • لعلنى أنا يوريك ! اننى فى هذه
اللحظة بعينها يوريك • وبعد ذلك سأكون الجمجمة •

كان بطرس ايلتش يصغى اليه صامتاً • وصمت ميتيا أيضاً •

ثم اتجه بالكلام فجأة الى المستخدم يسأله شارد اللب وقد رأى فى
الركن كلباً صغيراً طويل الشعر متدلى الأذنين أسود العينين :

— لمن هذا الكلب ؟

أجاب المستخدم :

– هو لفارفاراً ألكسييفنا ، صاحبه المتجر • نسيته هنا منذ قليل •
سيكون علينا أن نذهب به اليها •

قال ميتيا حالماً :

– رأيت فى الماضى كلباً يشبهه كل الشبه ••• كان ذلك فى الكتية
••• ولكن ذلك الكلب كان مكسور الساق ••• بالمناسبة يا بطرس
ايلتس ، كنت أريد أن أطرح عليك سؤالاً : هل اتفق لك أن سرقت فى
حياتك ؟

– يالها من فكرة !

– افهمنى ! أقصد السرقة الحقيقية ••• أن تأخذ مالاً من جيب
شخص آخر ، لا من الدولة ، فجميع الناس يسرقون الدولة ••• هذا
شئ معروف ، وأنت أيضاً تسرق الدولة ، لاشك عندى فى ذلك •••
– سحقاً لك •••

– هل سرقت مع ذلك ؟ من جيب ، أو من محفظة ؟ •••

– سرقت فى طفولتى قطعة نقدية بعشرين كوبكاً من أمى • كان
عمرى تسع سنين • أخذت القطعة النقدية من على المائدة ، دون أن يرانى
أحد ، وأخفيتها فى قبضة يدى •

– وبعد ذلك ؟

– لا شئ • احتفظت بها ثلاثة أيام ، ثم شعرت بالخجل والعار ،
فرددتها معترفاً بالسرقة •

– ثم ؟

– جلدت كما أستحق • ولكن لماذا هذه الأسئلة ؟ أتراك سرقت ؟

قال ميتيا وهو يغمز غمزة مأكرة :

— سرقت !

فسأله بطرس ايلتش قلقاً :

— ماذا سرقت ؟

— سرقت عشرين كوبكاً من أبى • كان عمرى تسع سنين • ثم
رددتها •

قال ميتيا ذلك ثم نهض فجأة •

صرخ الحوذى آندره يقول من باب المتجر :

— أن أوان السفر يا دمتري فيدوروفتش •

— هل كل شيء جاهز ؟ هياً بنا !

قال ميتيا ذلك ، وأخذ يتحرك هنا وهناك • وأضاف يقول :

— بضعة أسطر أخرى وأتم القصيدة ! كأساً من الخمر لأندره !
بسرعة ! واعطوه أيضاً كأس كونيكا ! ••• أما العلبة (علبة المسدسات) ،
فضمموها تحت المخدات • استودعك الله يا بطرس ايلتش ، ما ينبغي لك
أن تؤاخذنى •

— ولكنك ستمود غداً ؟

— نعم نعم ، سأعود •

قال مستخدم وهو يهرع الى ميتيا :

— اسمح لى أن أقدم اليك الحساب •

— آ ••• نعم ••• الحساب ••• طبعاً !

أخرج ميتيا من جيبه حزمة الأوراق المالية ، فسلّ منها ثلاث ورقات من فئة المائة روبل ، ورماها على البسطة باهمال ، ثم اتجه مسرعاً نحو الباب ، فرافقه جميع مستخدمي المتجر ، ونيعوه متمنين له رحلة سعيدة وهم ينحنون لها انحناءً كبيراً . وكان أندره قد أفرغ كأساً من الكونياك ، فهاهوذا يسعل لينظف حلقه ، ثم يصعد الى مكانه من العربة . ولكن بينما كان ميتيا يهم أن يستقر في العربة ، انبجست فينيا راكضة لاهثة ، فضمت يديها احدهما الى الأخرى ، وجشت على ركبتها أمامه ، وهتفت تتوسل اليه قائلة :

— سيدى العزيز دمترى فيدوروفتش ، ملاكى ، لا تصب الآسة بسوء ، لا تنلها بأذى ! ألا ما كان أغباني حين قصصت عليك كل شيء ! ولا تسيء اليه هو أيضاً ، القديم . . . لأنه عرفها قبلك . وهو ينوى أن يتزوج أجرافين ألكسندروفنا ، لقد جاء من سيبيريا لهذا الغرض . . . سيدى العزيز دمترى فيدوروفتش ، لا تحطم حياتهما ، لا تسفح دم أخيك الانسان !

قال بطرس ايلتش يخاطب نفسه : « آ . . . هذا بيت القصيد فى الحكاية كلها . . . ستحدث مشاجرة هناك . استبان الآن كل شيء . أصبح كل شيء واضحاً . » ثم هتف يقول بصوت عالٍ :

— دمترى فيدوروفتش ! أعد الى هذين المسدسين فى الحال اذا كنت رجلاً . هل تسمح يا دمترى ؟
فأجابه ميتيا :

— المسدسين ؟ لحظة يا عزيزى . . . سأرميهما أثناء الطريق فى غدير . وانهضى أنت يا فينيا . لا تركمى أمامى . ان ميتيا لن يقتل ، ان ميتيا ، هذا الصبى الغبى ، لن يحطم حياة أحد بعد الآن .

ثم أردف يقول بعد أن استقر في المركبة :

— اسمعى يا فينيا ، لقد أهنتك منذ قليل ، فأرجو أن تغفرى لى •
اغفرى لهذا الشقى البائس ... على أنه يستوى أن تغفرى وأن لا تغفرى
... لم يبق لهذا قيمة ... هيا يا آندره ، ولتجر المركبة بأقصى
سرعة •

رفع آندره سوطه ، فجلجلت الأجراس •
— استودعك الله يا بطرس ايلتش ، لك منى آخر دعة ! ...

قال بطرس ايلتش يخاطب نفسه وهو يتابع بنظره مركبة الترويكالتي أخذت تبعد : « ليس بسكران ، ولكن ما أشد الاضطراب فىأقواله » • وقد أراد بطرس ايلتش أن يبقى فى المتجر ليرافب شحنالخمور والمثونات على عربة أخرى ، لأنه كان يحس أنهم سيفششونميتيا • ولكنه شعر بحرق على نفسه فجأة ، لاهتمامه بهذه التفاصيل ،وبصق من شدة غضبه ، واتجه نحو الكاباريه ليلعب البلياردو قليلاً كماكان ينوى ذلك •

وقال فى نفسه أثناء الطريق : « انه رجل أبله ، ولكنه طيب » •
أما ذلك الضابط ، أما صاحب جروشكا « القديم » ذاك ، فقد سبق أنسمعت عنه • هل عاد اذن ؟ ... ولكن ما القول فى المسدسين ، المسدسين... ألا فليحل الرجلان نزاعهما ... ولن يحدث شئ على كل حال •
سيصرخان كثيراً ، وسيسكران ، وسيقتلان ، ثم يتصالحان • ليسواجادين ، لا هؤلاء ولا أولئك ... كلمات جوفاء ! « سوف أنتجى عنطريقهما ... » « اننى أعاقب نفسى ... » ... دعنا من هذا ! لن يفعلمن ذلك شيئاً • لقد ردّد أقوالاً من هذا النوع مائة مرة فى الكاباريهحين كان مملاً • وهو فى هذه المرة لم يشرب « نفسى سكرى ... » ؛

ان جميع أماله من القاصمين يحبون العبارات الرنانة الطهانه • أنا مربيه
أخيراً ؟ لقد تشاجر على عادته ، فدمى وجهه • ولكن من ذا الذى تشاجر
معه ؟ سأعرف هذا فى الكاباريه حتماً • وذلك المندبل المدمى ؟ • • • لقد
تركه فى غرفتى • • • ولكن لا قيمة لهذا كله على كل حال ! ما لى ولهذا
كله ! » •

وصل بطرس ايلتش الى الكاباريه معتكر المزاج جداً ، وأخذ
يلعب البلياردو فوراً • وأشرق مزاجه أثناء اللعب شيئاً بعد شيء ، وشرع
فى اللعب مرة أخرى ، وأخذ يقص على أحد ملاعبيه أن دمتري
كارامازوف أصبح يملك مبلغاً كبيراً من المال مرة أخرى ، وأنه رأى فى
يديه بأمر عينه ثلاثة آلاف روبل • وأضاف أن ميتيا قد سافر فى هذه المرة
أيضاً الى موكرويه ليقصف فيها مع جروشنكا • أصغى السامعون الى هذه
الأنباء بفضول شديد ، وسرعان ما أخذوا يتناقشون بحرارة ، دون مزاح ،
ويتكلمون بلهجة فيها جد عجيب • حتى لقد انقطع لعب البلياردو •

— ثلاثة آلاف روبل ؟ من أين جاء بها ؟

أخذ الحضور يمطرون بطرس ايلتش بوابل من الأسئلة • ولم
يصدقوا حكاية مناجم الذهب التى اقترحتها السيدة هوخلاكوفا •

— أليس من الممكن أن يكون قد سرق أباه العجوز ؟

— ثلاثة آلاف روبل ! هذا أمر يثير الاشتباه !

— لقد تباهى فى هذا المكان نفسه بأنه سيقتل العجوز ، وسمعه جميع
الناس ، حتى لقد تحدث فى تلك المناسبة نفسها عن ثلاثة آلاف روبل • •

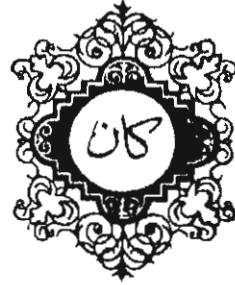
كان بطرس ايلتش يصغى ، وأصبحت أجوبته موجزة مقتضبة على
حين فجأة ، حتى لكأنه يتهرب من الكلام • ولم ينطق بكلمة واحدة عن
الدم الذى رآه على وجه ميتيا ويديه ، رغم أنه كان ينوى أن يتحدث عن

ذلك حين ذهب الى الكاباريه • وبدىء لعب البلياردو مرة ثالثة ، وانصرف
الحديث عن ميتيا •

حتى اذا انتهت اللعبة الثالثة ، أعلن بطرس ايلتش أنه لا يجب أن
يلعب مزيداً من اللعب • ثم وضع عصا البلياردو ، وخرج حتى دون أن
يتعشى ، خلافاً لما كان ينتويه • فلما وصل الى الميسدان توقف لحظة ،
وتساءل مدهوشاً منزعجاً كيف أمكن أن يخطر بباله أن يذهب الى دار
فيدور بافلوفتش ليعرف هل وقع له شيء • « يا للحماقة ! سأوقظ جميع
الناس ، وأحدث فضيحة ، مع أن هذا كله ليس الا تخيلاً ! وما شأنى
أنا ؟ أنا خادمهم ؟ » •

وعاد الى منزله حائقاً مزيداً من الحلق • وفجأة خطرت بباله فينيا •
قال لنفسه فى حسرة : « ما أغبانى ! ان فينيا هى الشخص الذى كان يجب
أن أسأله ، ولو فعلت لقلت لى كل شيء ! » • وشعر عندئذ برغبة قوية
فى أن يكلمها ، وبلغت هذه الرغبة من القوة انه انعطف فجأة ، وهو فى
منتصف الطريق الى داره ، فأتجه نحو منزل آل موروسوف الذى تقيم
فيه جروشكا • فلما وصل الى الباب طرقة ، فاذا بالطرقات التى ترجعت
فى صمت الليل ترده فجأة الى الواقع ، واذا بحنقه يشتد لأنه يقوم بمسعى
غير لائق • قال فى نفسه وهو يشعر بحرج يوشك أن يكون أليماً : « سوف
أحدث فضيحة » • ولكنه لم ينصرف ، بل استأنف طرق الباب ، بكل
ما أوتى من قوة فى هذه المرة • دوت طرقات الباب فى الشارع كله •
فردّد يقول : « لا ضير ! لسوف أظل أطرق الباب الى أن يفتحوا ! » ،
بينما كان سخطه على نفسه يزداد لدى كل طريقة جديدة • لكنه كان
يستأنف الطرق بمزيد من القوة •

هأنذا



دمترى فيدوروفتش يتعجبه نحو موكة
 بسرعة عظيمة + ان المسافة تزيد قليلا
 عشرين فرسخاً + ومن الممكن ، بفضل
 عدو خيول آندره ، قطع هذه المسافة
 وربع ساعة + وأنفشت سرعة الجرى فكر ميتيا + كان الهواء قوياً ، و
 نجوم كبيرة تتلألأ في سماء بلا سحب + في تلك الليلة ، وربما في
 الساعة ، انما تهالك اليوشا على الأرض ، « حالفاً بحرارة ليحنب
 الأبد » + كان ميتيا يشعر بضيق شديد ، ولكن نفسه ، رغم ثقل ال
 التي تعذبها ، كانت لا تنصرف في تلك اللحظة الا الى المرأة الحبيبة
 ملكته التي يتعجل لقاءها ليتأملها مرة أخيرة + حسبي أن أقرر ما
 كان لا يخطر ببال ميتيا أن يناضل للاحتفاظ بهذه المرأة + وسواء أص
 كلامي أم كذبتموه ، فان الحقيقة تجبرني أن أقول ان هذا الثور لم
 يشعر بأية عاطفة من عواطف العداوة نحو القادم الجديد ، نحو
 الخصم الذي لم يكن في حسبانته ، نحو هذا « الضابط » الذي
 حياته بهذه القسوة الشديدة + لو حاول أي انسان آخر أن
 محل ميتيا لدى جروشكا ، لأسرع ميتيا يرد بحق غيور مسر
 ولتلعخت يده بالدم من جديد + أما تجاه هذا الانسان الذي هو «

رجل « نعى حياة جروسنكا فان ميتيا كان لا يشعر بأيه غيره ، ولا بأيه عداوة ، أثناء ما كانت مركبه الترويكاتقله الى موكرويه . ولم يكن قد رأى ذلك الرجل بعد . » الأمر واضح . انها على حق . هو أول حب فى حياتها ، هو الرجل الذى لم تسنطع أن تنسأه يوماً خلال خمس سنين . معنى هذا أنها لم تنقطع عن حبه طوال تلك المدة . أما أنا ، فماذا جئت أعمل فى حياتها ؟ ما أنا عندها ؟ ابتعد يا ميتيا ! تنح عن طريقها ! ثم ما قيمة هذا كله اليوم ، ما دام مصيرى قد تقرر ، ما دام كل شئ سىتهى بالنسبة الى ، حتى ولو يكن هو هناك ، حنى ولو لم يجرى ذلك الضابط ؟ . . »

بهذه العبارات تقريباً انما كان يمكن أن يعبر ميتيا عن المشاعر التى كانت تعيش فى نفسه ، لو كان قادراً على التفكير فى تلك الآونة . ولكن ميتيا لم يكن يفكر . ان القرار الذى اتخذه انما وافاه على حين فجأة ، دون أى تفكير ، فاذا هو يقبله دفعة واحدة مع جميع النتائج التى تترتب عليه ، أثناء انفعاله ذاك الذى أيقظه فى نفسه ما كشفت له عنه فينا من أمور . ومع ذلك ما يزال ميتيا يشعر بضيق واختناق ، وما يزال يشعر باضطراب أليم : ان قراره لم يرد السكينة والطمأنينة والسلام الى نفسه . ان أشياء كثيرة تربطه بذلك الماضى .

كان يقول لنفسه فى بعض اللحظات : « ما أغرب هذا ! »

كان ميتيا قد نطق بحكم نهائى على مصيره ، كان قد كتب على ورقة قوله : « اننى أعاقب نفسى ، وأنا أقبل هذا العقاب » ، وان هذه الورقة موجودة الآن فى جيبه ، معدة لأن تستعمل ؟ وان مسدسه محشو ، وهو يعلم حق العلم ما الذى سيفعله فى صباح الغد ، حين يطلع « فيوس ذو الصفائر الذهبية » فىدفى الأرض من جديد بأولى أشعته . ومع ذلك . . . لم يكن ميتيا يستطيع أن ينفصل عن ذكرياته التى تلازمه وتحاصره

وتعذبه • فكان يقول مثلاً : لا سبيل الى النسيان ؛ وكان الشعور بهذه الاستحالة يملؤه كمدًا ويأسًا • ولقد أوشك في لحظة من اللحظات ، أثناء هذه الرحلة ، أن يأمر أندره بالتوقف ، وأن يفرغ من الأمر كله ؛ يخرج من العربية ، ويطلق على نفسه رصاصة دون أن ينتظر الغد • ولكن هذه النية لم تلبث أن تبددت ، كما تنطفئ شرارة طائرة • وكانت مركبة الترويكّا « تنهب به الأرض نهباً » ، فكلما اقتربت به من غايته ، كانت صورة تلك المرأة تنفذ فيه مزيداً من النفاذ بقوة طاغية مستبدة مستاثرة ، طاردة جميع أشباح الرعب التي تملأ قلبه • « أوه ! أريد أن ألحها مرة أخيرة ، ولو من بعيد ، عابرةً ... » انها في هذه الساعة معه ، وسأراها كليهما ، هي وحبيبها الأول ، وسأأملهما ، ذلك هو كل ما أتمناه الآن ! » لم يشعر نحو هذه المرأة في يوم من الأيام بمثل الحب الذي يشعر به الآن ، لم يشعر نحوها في يوم من الأيام بمثل ما يشعر به الآن من عاطفة رقيقة حنون لا حدود لها ، من عاطفة الخضوع والمذلة التي تدفعه الى أن يريد نسيان ذاته ، والتضحية بنفسه في سبيلها •

هتف يقول فجأة وقد استبدت به حماسة تشبه أن تكون هذياناً :

— سأتنحى من طريقهما •

العربة تعدو منذ قرابة ساعة • ميتيا صامت • وآندره ، وهو فلاح مهذار في العادة ، لا يتكلم أيضاً ، كأنه يخاف خوفاً غامضاً من أن يقطع الصمت • فهو لا يزيد على أن يحرّض بصوته أحصنته الكمت النحاف على عصبية • وفجأة هتف ميتيا يقول بقلق شديد :

— أندره ! ماذا لو وجدناهم نائمين ؟

في تلك اللحظة انما خطر بباله هذا الاحتمال الذي لم يكن قد ساوره قبل ذلك •

— جائز جداً أن يكونوا في هذه الساعة راقيدين يا دمتري
فيدوروفتش •

قطب ميبا حاحيه مغناطاً حانفاً • ماذا ؟ أيجي • حاملًا هذه العواطف
... ثم يكونون نائمين نوماً هادئاً ... هي أيضاً ... ربما الى جانبه !
وغلى الغضب في قلب ميتيا •

صرخ يقول خارجاً عن طوره :

— اجلد يا آندره ! مزيداً من الاسراع ، مزيداً من الاسراع أيضاً •
قال آندره بعد صمت :

— ما أحسب أنهم ناموا • لقد أسرّ لي تيموتي أن جمعاً غفيراً قد
اجتمع هذا المساء في موكرويه ؟
— في محطة العربات ؟

— بل في نزل آل بلاسنونوف ، وهو محطة عربات أيضاً •

— أعرف • أتقول أنهم جمع غفير ؟ كيف هذا ؟ من أين جاءوا ؟
كذلك هف ميتيا يسأل الحوذي وقد شدهه هذا النبأ الذي لم يكن
بتوقعه •

— يبدو أنهم جميعاً أناس محترمون على ما قال تيموتي : اثنان منهم
جاءا من المدينة ولا أدري من هما ، فان تيموتي لم يذكر لي ذلك ؛
واثنان من هنا ، ثم اثنان آخرا هما مسافران عابران فيما يظهر ، ثم
شخص آخر أيضاً اذا صح فهمي • وهم يلعبون بالورق ، على ما يدعى
تيموتي •

— بالورق ؟

- نعم • وما داموا قد أخذوا يلعبون بالورق ، فلا يعقل أن يكونوا قد ناموا • ان الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة الآن •

صرخ ميثيا يقول من جديد بعصية :

- اسرع ، أسرع مزيداً من الاسراع •

واستأنف آندره كلامه بعد صمت فقال :

- قل لى يا سيدى • هناك أمر أحب أن أسألك عنه ، ولكنى أخشى أن أغضبك •

- ما هو هذا الأمر ؟

- ان فيدوسيا ماركوفنا قد ارتمت على قدميك منذ قليل متوسلة اليك أن لا تلحق أذى بمولاتها وبشخص آخر ••• فياسيدى ، ما دمت أنا أقودك الى هناك ، فان ضميرى ••• لا تؤاخذنى يا سيدى ••• اذا كنت غيباً فيما أقول •••

فأمسكه ميثيا من كتفيه فجأة ، وسأله وهو فريسة اضطراب نفسى شديد :

- أنت حودى ، أليس كذلك ؟ أنت حودى •

- نعم ، حودى •••

- فأنت تعلم اذن ما معنى التنحى عن الطريق ، واخلاقه • هل يستطيع حودى أن يمضى الى أمام ، رافضاً أن يمر الآخرون ؟ هل يستطيع أن يقول لغيره : لسوف أدوسك ولا أتخلي لك عن الطريق ؟ انه لا يستطيع ذلك ، أليس هذا صحيحاً ؟ ليس لحودى أن يدوس المارّة ••• لا يجوز للمرء أن يدوس أحداً ، لا يحق لأحد أن يحطم حياة غيره • ومن يدمّر حياة شخص آخر ، فانه لا يبقى عليه الا أن يعاقب نفسه

بنفسه بعد ذلك ... اذا هو دمّر حياة أحد ، فلمض ... فلينل العقاب !

تكلم ميتيا جيتاس النفس ، شديد الاندفاع ، ورغم أن آندره دُهِش من أقواله ، فانه لم يقطع الحديث قال :

— صحيح جداً ما تقوله يا سيدى دمتري فيدوروفتش . أنت على حق ، ما ينبغي لأحد أن يدوس البشر ، ولا أن يعذبهم ؛ وما ينبغي له أن يدوس الحيوانات أيضاً ولا أن يعذبها ، فالحيوانات مخلوقات كسائر مخلوقات الله التي تتنفس ! أنظر الى الخيول مثلاً : ان من الناس من يضربونها بغير طائل ، ويستحثونها أكثر مما يجب . ان بعض الحوذيين فى بلادنا لا يعرفون القصد والاعتدال ، وهم بذلك يسيرون كاللسعورين لا أدري الى أين وكيف ؟

قاطعهم ميتيا قائلاً وهو يضحك ضحكته الصغيرة الجافة :

— لعلهم يفعلون هذا ليصلوا الى جهنم بسرعة أكبر . قل لى يا آندره : انك انسان طيب القلب بسيط النفس (وأمسكه من كتفيه مرة أخرى) هل تعتقد أن دمتري فيدوروفتش كارامازوف سيذهب الى جهنم ؟

— لا أدري يا سيدى الطيب ، ذلك متوقف عليك أنت ... اسمع يا سيدى : حين مات ابن الله على الصليب ، نزل رأساً الى جهنم فخلّص جميع الخاطئين الذين كانوا يقاسون فيها عذاب السعير . وقد تشكى الجحيم عندئذ ، مخافة أن لا يستقبل خاطئين بعد ذلك . فقال الرب للبحيم : « اطمئنى يا جهنم ، فانك ستستقبلين بعد الآن شخصيات كبيرة : تستقبلين أمراء وقضاة عظاماً وأغنياء ، وستمتلئين من جديد كما كنت ممثلة فى الماضى ، الى اليوم الذى أرجع فيه الى هذا العالم » . ان هذا الكلام هو الحقيقة ، لأن الرب قاله ...

— هذه اسطورة شعبية جميلة • أجلد الحصان الأيسر يا آندره !
استأنف آندره كلامه وهو يصفق بسوطه فوق الحصان الأيسر ؛
قال :

— أولئك هم الناس الذين أعدت لهم جهنم • أما أنت يا سيدى
فنحن نعدك طفلاً ••• ذلك هو رأينا نحن ••• مهما تكن غنياً غصوباً
••• وانك لعنيف غصوب ما فى ذلك ريب ••• فان الرب سيغفر لك
لأنك انسان بسيط •

— وأنت يا آندره ، هل تغفر لى ؟

— ليس هناك ما أغفره لك يا سيدى ، فانك لم تسيء الى •
— اننى أسألك هل تستطيع أن تغفر لى نيابةً عن الجميع ، أن تغفر
لى أنت ، فى هذه اللحظة ، على هذا الطريق ؟ هل تغفر لى باسم الجميع ؟
أجبنى يا ابن الشعب !
— سيدى ! لقد بدأت أخاف ••• انك تتكلم كلاماً غريباً جداً •••

كان ميتا قد أصبح لا يصفى اليه ، فهو الآن يصلى صلاة حارة ،
مدمداً بنوع من حماسة عنيفة وحشية :

— يارب ! اقبلنى رغم خطي ، ولكن لا تحكم على • اللهم اسمح
لى أن أجيء اليك دون أن أمثل أمام محكمتك ••• لا تحكم على • مادمت
قد حكمت على نفسى بنفسى ••• لا تحكم على • لأننى أحبك يا رب ا
اللهم اننى خيئت دنى • ولكنى أحبك • وحتى فى الجحيم ، اذا أنت
أرسلتنى الى الجحيم ، سأظل أحبك ، وسأظل أهتف لك بحبى الى الأبد ،
ولكن دع لى أن أحب حبى الأرضى حتى النهاية ••••• اسمح لى أن أظل
أحب • فى هذه الحياة الدنيا ، خمس ساعات أخرى ، الى أن تطلع

شمسك الدافئه ... اننى أحب ملكة قلبى ، ولا أملك أن امتنع عن حبها
اللهم انك ترانى كلى فى هذه اللحظة . سوف أهرع اليها ، فأرتضى عند
قدميها ، وأقول لها : لقد كنت على حق حين نبذتنى ، وداعاً ... اسى
ضعيتك ، ولا تدعى لذكرى أن تعذبك يوماً ! » •

صاح آندره يقول وهو يومئ الى القرية بسوطه الممدود فى آخر
ذراعه :

— هذه موكرويه !

فمن خلال ليل ساحب ، كانت ترى رؤية " ضعيفة ، كتله " مظلمة ،
هى كتلة منازل القرية المبعثرة على رقعة واسعة . ان سكان قرية موكرويه
يبلغ عددهم ألفى نسمة • ولكن كل شيء كان غارقاً فى النوم • وليس
يرى الناظر الا بضعة أنوار تخترق الظلام هنا وهناك •

صرخ ميتها يقول محموماً :

— أسرع ، أسرع مزيداً من الاسراع •

فقال آندره وهو يشير بسوطه الى نزل آل بلاستونوف ، الذى يقع
عند مدخل القرية ، والذى كانت نوافذه الست المطلة على الشارع مضاءة
اضاءة قوية :

— لم يناموا بعد •

فكرر مينا كلام الحوذى فرحاً :

— لم يناموا بعد ! اجر بالعربة جرياً سريعاً يا آندره ، حتى ترن
جلاجلها فيكون لدخولى ضجة وجلبة • ألا فليعلم الجميع من الواصل !
هو أنا ... هأنذا وصلت !

كذلك صرخ مينا وقد بلغ ذروة الاهتياج •

استحث آندره حصانيه المكودين ، فوصلت العربى الى باب النزل
مفرقة قرقة قوية ، وهالك استوقف الحوذى الحصانين الهزيلين وقد
أوشكا أن يموتا تعباً . وثب ميتيا من العربى فى اللحظة التى كان فيها
صاحب النزل يهيم أن يرقد فى فراشه فلما سمع قرقة العربى ظهر على
عتبة الباب يريد أن يرى من عسى يصل فى مثل هذه الساعة بمثل هذه
السرعة . هتف ميتيا يسأله :

— أهذا أنت يا تريفون بوريستش ؟

مال صاحب النزل الى أمام ليستطيع أن يميز فى الظلام ملامح وجه
القادم ، ثم نزل درجات المدخل راكضاً ، وهرع الى الزائر بحماسة
مجاملة ، وهو يقول :

— ماذا ؟ أهذا أنت يا عزيزى دمترى فيدوروفتش ؟ ما أعظم فرحى
برؤيتك من جديد !

ان تريفون بوريستش هذا فلاح قوى البنية مربع الجسم متوسط
طول القامة ضخم الوجه ، تعبر قسماته فى العادة عن قسوة وغيظ ،
ولا سيما حين يكلم فلاحى موكرويه ، ولكنه يملك قدرة فذة على تغير
سحته فوراً ، وعلى اصطناع هيئة المجاملة الشديدة والملاطفة المفرطة متى
آنس منفعة وربحاً . انه يرتدى ثياباً على الزى الروسى ، فقميصه مقلوب
الباقى ، وصديرتة مطرزة . ورغم أنه قد جمع كثيراً من المال ، فلقد كان
لا يحيا الا لجمع المزيد من الثراء ، وتحقيق المزيد من الارتفاع . ان أكثر
من نصف فلاحى موكرويه مدينون له ، واقعون فى شباكه ، خاضعون
لتسلطه . كان يستأجر الأراضى من ملاكى المنطقة ، وكان يشتري بعض
هذه الأراضى أيضاً ، فيجبر الفلاحين على العمل فيها سداداً لما له عليهم
من ديون لا يصلون الى التخلص منها أبداً . وهو أرمل له أربع بنات

كبيرات ، احداهن ماب عنها زوجها فهى تعيش عند أبيها مع طفلين صغيرين ، ويعاملها أبوها معاملة خادمة ؛ والثانية زوجة موظف من الموظفين ، فالداخل الى المنزل يستطيع أن يرى على جدار احدى غرفه صورة فونوغرافية صغيرة لهذا الخادم من خدم الدولة بلباسه الرسمي الذى يزدان كنفاه بشارات القصب * . أما البنات الأخريان ، فهما فى أيام أعياد المنطقة أو أثناء الزيارات تختالان بأثواب زرقاء أو خضراء ذات أذيال طويلة على آخر « موضه » ، ولكنهما تنهضان فى الغداة منذ الفجر كسائر الأيام ، لئكنسا الغرف وتنصبا الماء أو تنظفا الغرف بعد رحيل الزلاء الذين شغلوها . وكان تريفون بوريسيتش ، رغم المال المخبأ الكثير الذى جمعه ، يبتهج كثيراً لكل فرصة تمكنه من استلاب أموال مبذر من البذرين . وهو يتذكر انه سلب دمترى فيدوروفتش ، منذ أقل من شهر ، مائتى روبل ان لم يكن ثلاثمائة روبل ، فى يوم واحد ، حين تلبث هذا فى نزله ليقصف ويلف ماله مع جروشكا . لذلك استقبله هذه المرة بفرح فائض ، مدركاً من طريقة وصول المركبة الى الباب على هذا النحو الصاخب ، أن الفريسة ستكون سهلة .

— عزيزى دمترى فيدوروفتش ، هأت ذا عندنا من جديد !

فقاطعه ميتيا يسأله :

— لحظة يا تريفون بوريسيتش ، قل لى الأمر الأسامى أولاً : أهى

هنا ؟

فسأله صاحب المنزل الذى فهم ما يعنيه ميتيا حق الفهم وكان يحذف اليه بنظرة نافذة :

— أجرافين الكسندروفنا ؟ هى هنا ... أيضاً !

— مع من ؟ مع من ؟

- مع نزلاء عابرين ... موظف لا شك أنه من أصل بولندي ...
يظهر هذا من لهجته ... انه هو الذى أرسل خيلاً لتجىء بها الى هنا
... وشخص آخر هو صاحب البولندى ، أو رفيق رحلته فحسب ،
لا أدري ... وهما كلاهما يرتديان ملابس مدنية ...

- هل يقصفون ؟ هل يملكون مالا ؟

- يقصفون ؟ دعك من هذا الكلام ! هم أناس عاديون ...

- عاديون ؟ والآخرون ؟

- هناك سيدان من المدينة ... كانا عائدين من تشرنايا ، فتلبشا
هنا لقضاء الليل • أحدهما شاب هو قريب ميوسوف فيما يبدو ، ولكنى
نسيت اسمه ... أما الثانى فأحسب أنك تعرفه أيضاً : انه الملاك
ماكسيموف الذى ذهب يحج الى دير كنيستكم فيما يدعى ، وهو الآن
يرافق ذلك الفتى قريب السيد ميوسوف فى الطريق ...

- أهذا كل شيء ؟

- نعم ، ليس هناك أحد عدا هؤلاء •

- اسكت يا تريفسون بوريسشس • تىء واحد يهمنى : ماذا تفعل

هى الآن ؟

- وصلت منذ وقت غير طويل ، وهى الآن معهم •

- أهى مرحة ؟ أهى تضحك ؟

- لا ... انها لا تضحك كثيراً فيما لاحظت • حتى لقد بدا لى أنها

حزينة • وكانت تلاعب شعر الشاب •

- شعر الضابط ، ذلك البولندى ؟

— دعك من هذا الكلام ! ليس البولندى شاباً ولا هو ضابط • أنا
لم أقصد البولندى ، بل الشاب ••• قريب ميوسوف ؟ مالى نسيت اسمه ؟

— لعل اسمه كالجانوف ؟

— تماماً ، كالجانوف •

— طيب ، سوف أرى • قلت أنهم يلعبون بالورق ، أليس كذلك ؟

— كفوا عن اللعب • لقد تناولوا الشاي ، وأمر الضابط بخمور •

— لحظة يا تريفون بوريستس ! هذه كلها أمور ثانوية ، وسأحكم
على الموقف بنفسى • أجبني الآن عن الشيء الأساسى : هل فى القرية
غجر ؟

— لم يبق غجر يا دمترى فيدوروفتش ! لقد طردتهم السلطات •
غير أن عندنا فى مقابل ذلك يهوداً يعزفون على الرباب والكمان • هم
الآن فى رودجستفسكا ، ولكن يمكن استدعاؤهم فيجيئون حتماً •

— استدعهم حالاً • ويجب كذلك إيقاظ البنات ، كما فى المرة
السابقة ، ولا سيما ماريا تلك ، ثم ستينايد وايرين • سأدفع للجوقة مائتى
روبل •

— بهذا المبلغ أوقف لك أهل القرية بكاملها ، ولو كانوا نائمين
كالأموات • ولكن هل يستحق هؤلاء الفلاحون وهاته البنات أن يدفع
لهم مبلغ ضخم كهذا المبلغ ؟ هؤلاء رعاة لا يستحقون هذه
الملاطفات ! لم يخلق فلاحونا لتدخين السيجار وقد قدمت لهم سيجاراً •
هؤلاء أناس تننون • أما النساء فهن جميعاً قذرات وسخات • انى لأوتر
أن أرسل اليك بناتى ، ولو بالمجان ، على أن أدعك تبعر هذا المال كله • ان
بناتى نائمات الآن ، ولكنى سأوقظهن ، سأوقظهن ركلاً بقدمى اذا اقتضى

الأمر ، وسأجبرهن على أن يغنين لك • لا أستطيع أن أتصور كيف فدمت
شعبانيا لأولئك الفلاحين ! ذلك أمر يبعث على الشفقة !

— تريفون بوريستش ! ألا تتذكر أنني أنفقت هنا أكثر من ألف
روبل فى المرة الماضية ؟

— كيف لا أتذكر ؟ بل لقد أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل يا ضيفى
العزير •

— اذن فاعلم أنني أملك الآن مثل ذلك المبلغ نفسه • أنظر !
قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية وأدناها من أنف صاحب
المنزل • ثم أضاف قوله :

— اسمع الآن وحاول أن تفهم : بعد ساعة سيصل خمر ومقبلات
وفطائر وسكاكر • فاحمل هذا كله فوراً الى فوق • أما ذلك الصندوق
الخشبي الموجود تحت مقعد آندره فيجب أن تنقله الى هناك أيضاً ،
فتفتحه وتقدم الشعبانيا حالاً • ولكن لا تنس أن الأمر الأساسى هو
البنات ، البنات ! وأريد حتماً أن تجيء مارى تلك ! ...

واتجه ميتيا الى العربدة فأخرج من تحت المخدات علبة المسدين •
— سأدفع لك دينك علىّ يا آندره • اليك خمسة عشر روبلاً ،
أجر العربدة ، واليك خمسين أخرى « بقشيشاً » ... مكافأة لك على
اخلاصك ، وتقديراً لصداقتك ... تذكر البارين كارامازوف !

قال آندره بلهجة مترددة :

— لا أجرؤ يا بارين * ... اننى أقبل خمسة روبلات مكافأة ،
لا أكثر من ذلك • مستحيل ... هذا تريفون بوريستش شاهد علىّ •
اغفر لى حماقتى ...

سأله ميتيا وهو يشقله بنظره :

- ممّ تخاف !

ثم صرخ يقول متدمراً وهو يلقي اليه خمسة روبلات :

- أنت وشأنك ! اذهب الى الشيطان ! والآن يا تريفون بوريسنش خذنى برفق وهدوء الى موضع أستطيع منه أولاً أن أتفحصهم جميعاً على مهل دون أن يرونى . أين هم الآن ؟ أظن أنهم فى الغرفة الزرقاء ، أليس كذلك ؟

ألقى تريفون بوريسنش على ميتيا نظرة فلقة ، ولكنه أطاعه صاغراً فقادته فى حذر خلال دهليز ، ودخل غرفة كبيرة تتأخم الغرفة التى كان فيها النزلاء ، فأبعد الشمعة التى كانت تضىء تلك الغرفة ؛ ثم أدخل ميتيا الى الغرفة المظلمة بغير ضجة ، وأجلسه فى ركن معتم جداً يسهل عليه منه أن يتفحص المتحاذين دون أن يرى . غير أن ميتيا لم يمكث مدة طويلة ليتأملهم : فما ان رآها حتى أخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً يكاد ينفجر منه صدره ، وحتى اضطرب بصره فلا يكاد يرى . كانت جالسة على مقعد قرب المائدة ، وكان الشاب كالجناوف يجلس قريباً منها على الكنية ، وهو فتى حسن الهيئة وسيم الطلعة . كانت جروشكا ممسكةً بده وكأنها تضحك ، بينما كان هو يناقش ماكسيموف ممتمض الوجه ، وكان ماكسيموف هذا يجلس الى الطرف الآخر من المائدة قبالة جروشكا أما « هو » فقد كان جالساً على السكنية نصف مضطجع ، وكان يدخن غليوئاً . وفى جانب ، على كرسى مستند الى الجدار ، لاحظ ميتيا رجلاً آخر لا يعرفه . ان الشخص المسترخى على الكنية يبدو رجلاً بدين

الجسم عريض الوجه ، قصير القامة فى أغلب الظن ، أما الثانى فهو طويل جداً • على أن ميتيا لم يتسع وقته لأن يرى أكثر من ذلك • لقد انقطعت أنفاسه ، ولم يستطع أن يمكث زمناً أطول ، فوضع العلبه على المنضدة ، ودخل الغرفة الزرقاء التى كان يجلس فيها المتحادثون وهو يشعر ببرودة فى ظهره • رآته جروشنكا أول من رآه ، فصاحت تقول :

- آى ...

الصديق القديم الذي لا يمكن محوّه



ميتيا من المائدة بخطى كبيرة سريعة لا يلوى على
شئ • وبدأ كلامه يقول بصوت قوى جداً ،
بصوت يكاد يكون صراخاً ، ولكنه يتلعم عند
كل كلمة :

— أنا ••• لا ••• لا شئ ••• لا تخافوا ، لن أفعل شيئاً ••• (ثم
قال ملتفتاً نحو جروشنكا التى مالت على كالجائوف مذعورة وتشبّثت
بذراعه) ••• لا شئ ••• أنا ••• أنا هنا عابر كذلك ••• سأمكث حتى
الصباح فقط ••• يا سادتى ، هل تأذنون لمسافر ضلّ طريقه فى هذا
المكان ••• ان يجالسكم ، حتى الصباح فحسب ، ولآخر مرة ••• فى
هذه الغرفة نفسها •••

وجّه ميتيا هذا السؤال الى الرجل القصير السمين الذى كان يدخل
على الكنبه • فما كان من هذا الا أن أقصى الغليون عن شسفتيه بوقار ،
وأجاب بصوت قاس :

— « يا سيد » ، هذا اجتماع خاص ، وفى النزل حجرات أخرى •

فتدخل كالجائوف فجأة يقول :

— أهذا أنت يا دمتري فيدورفتش ؟ فلماذا هذه الكلفة كلها ...
اجلس ... أهلاً بك !

فأجابه ميتيا مسرعاً فرحاً :

— يومك سعيد أيها الصديق العزيز ، أيها الصديق الذي لا نظير
له . لقد شعرت نحوك دائماً بكثير من الاحترام .
ومدّ اليه يده من فوق المائدة .

قال كالجانوف ضاحكاً :

— أوه ! يالها من قبضة قوية ! لقد أوشك أن يحطّم أصابعي .
فقال جروشنيكا مرحةً وهي تبسم خجلى :
— هذه طريقته فى المصافحة دائماً ...

لقد أدركت جروشنيكا من النظر فى هيئته أنه لن يعتمد الى نىء من
العنف . وكانت تتفحصه باستطلاع قوى تداخله بقية من قلق . ان شيئاً
ما فى تعبير وجه ميتيا قد خطف بصرها وأسر انتباهها ، لا سيما وأن دخوله
على هذا النحو قد بدا لها غريباً جداً .

وانبرى الملاك ماكسيموف بدوره ، فقال بصوته المتعذب :

— يومك سعيد يا دمتري فيدوروفتش !

وبدا على ميتيا أنه سعيد بمصافحته أيضاً . قال له متدفقاً فى كلامه :

— أهذا أنت ؟ ما أسعدنى برؤيتك ! أيها السادة ! أيها السادة !
أنا ... (وقد توجه بكلامه من جديد الى السيد الذى يدخل الغليون ،
وكان واضحاً أنه يعده أهم شخص فى هذا الجمع) ... أنا قد أسرع
الى هنا ، لأقضى ليلتى الأخيرة ، لأقضى ساعاتى الأخيرة فى هذه الحجرة ،

فى هذه الغرفة نفسها ... الى أنى لى فيها ، أنا أيضاً ، أن أعبد ملكتى !
(ثم هتف يقول بحماسة) اغفر لى يا سيدى • لقد آليت حين جئت الى
هنا ... أوه ! لا نخش شيئاً ، لأن هذه الليلة هى لىنى الأخيرة ! فلنشرب
أيها السيد ، فلنشرب نخب صداقتنا ! سوف يجيئوننا بخمر • ولقد حملت
معى هذا (قال ذلك وهو يخرج من جيبه كدسة الأوراق المالية ، لا يدرى
أحد لماذا !) ... اسمح لى أيها السيد ... اننى أريد موسيقى ، أريد
صخباً ، أريد حركة ، تماماً كالمرّة الماضية • ان دودة الأرض ، ان دودة
الأرض التى لا نفع لها ولا فائدة منها ستكف قريباً عن الزحف على
الأرض ... لسوف تختفى وتزول ... أريد أن استحضر فى لىلى
الأخيرة هذه ذكرى أجمل يوم من أيام حياتى ! ...

كان ميتيا يخنق اختناقاً • أراد أن يقول أشياء أخرى كثيرة ، ولكنه
لم يستطع أن يفصح عن ذات نفسه الا بصيحات غريبة عجيبة • لبث
البولندى جامداً لا يتحرك ، منقلاً بصره بين ميتيا وكدسة الأوراق
وجروشكنا ، وقد ظهرت عليه حيرة شديدة وبلبلّة كبيرة • قال :

— اذا وافقت ملكتى ...

قالت جروشكنا مقاطعة :

— ما أسخفكما كليكما بهذه الطريقة فى الكلام ! أ أنا ملكة ؟ انكما
لتضحكاني ! اجلس هنا يا ميتيا • ماذا كنت تعنى حين قلت ان هذه الليلة
هى آخر ليالىك ؟ لا تروّعنى ، أرجوك • لن تروّعنى ، أليس كذلك ؟
اذا كففت عن تخويفى فسوف أكون سعيدة بمجيئك ...

هتف ميتيا يقول رافعاً ذراعيه فى الهواء :

— أنا ؟ أنا أروّعك ؟ أوه ... اعبرى ... اعبرى ... لن أكون

عقبة فى طريقك ...

وما ان قال ذلك حتى ارتمى فجأة على كرسى وأجهش يبكى ،
محوّلاً رأسه ، شاداً بيديه ظهر الكرسى كأنه يعانقه • ذلك ما فعله ميتا
على نحو لم يكن يتوقعه أحد ، ولا كان يتوقعه هو نفسه •

سألته جروشنكا بلهجة العتب :

— ما هذا ؟ ما هذا؟ ماذا تفعل ؟ ذلك هو سلوكه حين يأتى الى •
يأخذ يقول أشياء لا تفهم على حين فجأة ، حتى لقد انفجر ناشجاً متحجاً
فى ذات مرة ••• وها هو ذا يعيد الآن الكرة • ألا تستحي ؟ لماذا البكاء؟
ثم أضافت تقول بلهجة ملغزة ، وهى تشدد كلماتها بشيء من
الحلق :

— لو كان هنالك ما يدعوك الى البكاء على الأقل •••

قال ميتا :

— أنا ••• أنا لا أبكى ••• هيه ! يومكم سعيد جميعاً !

وامتدار فجأة على كرسيه وانفجر ضاحكاً • ليست ضحكته الآن
تلك الضحكة الجافة المعهودة فيه ، ولكنها ضحكة تشبه أن تكون صامتة،
ضحكة عصبية ، ممتدة ، مشدودة ، متوترة ، كانت تهز جسمه كله •

قالت جروشنكا ملحة :

— أيفضاً ؟ هلاً كنت أكثر مرحاً ، أكثر مرحاً ! اننى سعيدة جداً
بمجيئك يا ميتا ، سعيدة جداً جداً ، هل تسمعنى ؟

ثم قالت بلهجة أمرة وهى تتجه بكلامها الى جميع الحضور فى ظاهر
الأمر ، وان كان كلامها منصرفاً الى الشخص المضطجع على الكنبه فى
الواقع :

– أريد أن يبقى معنا ! أريد ذلك ، أريد ذلك ! فإذا كان عليه أن
نصرف ، انصرفت أنا أيضاً •

أضافت جروشنكا هذه العبارة الأخيرة وقدحت عيناها شرراً •

قال « السيد » وهو يلثم يد جروشنكا بلطف ورقة :

– رغبات ملكتي هي عندي قوانين •

ثم التفت الى ميتيا متجيباً متودداً وقال :

– تفضل فأجلس معنا يا سيدى !

وهمَّ ميتيا أن يشب عن مكانه ليلقى خطاباً جديداً كما ظهر ذلك
فى هيئته ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا ، واكتفى بأن قال :

– لنشرب أيها السيد !

وأخذ الجميع يضحكون •

هتفت جروشنكا تقول بعصية :

– يارب السماء ! ما كان أضلنى حين تصورت أنه سيلقى علينا

خطاباً آخر ...

ثم أضافت تخاطب ميتيا بلهجة الاستبداد :

– اسمع يا ميتيا ، كفَّ عن الوثوب عن كرسيك ، والزم مكانك
هادئاً • أما الشمبانيا فقد أحسنت اذ جئت بها • سيحلون الى أن أشرب
شمبانيا ، لأننى أكره الخمور الأخرى • واننى ليهمنى خاصة أنك قد
خطر ببالك أن تأتى ، فلقد كنا هنا فى ضجر رهيب خائق ... أرى أنك
تنوى أن تقصف وأن تبدد ... خبىء أوراقك المالية هذه فى جييك • من
أين جئت بكل هذا المال ؟

وها هو ذا مينيا الذى كان لا يترال يشد بين أصابعه الأوراق المالية
التي تجعدت والتي كان حجمها الكبير قد خطف أبصار الحضور ولا سيما
« السيدين » البولنديين ، ها هو ذا مينيا يسرع فيدس الكدسة في جيبه
وقد اضطرب واحمر وجهه . وظهر عندئذ صاحب النزل حاملاً على
صينية زجاجة شمبانيا مفتوحة وأقداحاً . فأمسك مينيا الزجاجة ، ولكنه
من فرط ارتباكها كان يبدو أنه أصبح لا يعرف ماذا يصنع بها ، فهبَّ
كالجانوف الى نجدته ، فتناول الزجاجة بيديه وملأ الأقداح .

قال مينيا يأمر صاحب النزل :

— هات زجاجةً أخرى ، هات زجاجةً أخرى !

ونسى أن يقرع كأسه بكأس « السيد » بعد أن دعاه إلى شرب
الكأس نخب الصداقة ، فها هو ذا يفرغ كأسه فى جوفه دون أن ينتظر
أن يرفع الآخرون كأسهم .

وسرعان ما تغير تعبير وجهه . ان الهيئة التراجيدية الفخمة التي
كانت له عند دخوله قد استحالت الآن ابتسامة تشبه أن تكون ابتسامة
طفل . فهو ينظر الى الحضور بفرح خجول تتخلله فى كل لحظة ضحكات
صغيرة عصبية تذكر بالكلب الصغير المذنب الذى يحس بسعادة وامتنان
حين يرى أصحابه قد غفروا له وأخذوا يلاعبونه من جديد . لكنه نسي
كل شيء عن الماضى ، فهو يتفحص المتحادين واحداً بعد واحد ، بنوع من
الحماسة ، ويتسم ابتساماً بريئاً ساذجاً . أما جروشكا فكان يتفرس فيها
بغير انقطاع ضاحكاً ، حتى لقد قرَّب كرسيه من مقعدها . وشيئاً فشيئاً
أخذ يلاحظ الرجلين البولنديين أيضاً ، فأما « السيد » الأول فقد أدهشه
بمظهره الرزين الرصين ، ولهجته البولندية ، وغليونه خاصة . قال
مينيا لنفسه : « هل من خير فى أن يدخن ؟ ان من حقه تماماً أن يحب

الغليون ! » • ولم يصدمه فى أول الامر ما لاحظته فى وجه هذا « السيد » الذى يقارب عمره الأربعين ، من غصون واخاديد ، ولا ضايقه انفه الصغير الذى يمتد تحته شاربان رقيقان نحيلان مشمعان يضيفان على وجهه لا أدري أى نوع من الاستخفاف والوقاحة ؛ لا ولا أزعجته الباروكة البشعة المصنوعة فى سيبيريا والمشوطة مشطاً غياً من خلف الى أمام على الصدغين • قال ميتيا لنفسه وهو فيما هو فيه من غبطة وهناءة : « باروكة ؟ لِمَ لا ؟ » • وأما البولندى الآخر الذى يجلس قرب الجدار ويبدو أصغر سناً من « السيد » ذى الغليون ، فقد كان ينظر الى الجمع بوقاحة مستفزة ، ويتابع حديثهم محتفظاً لنفسه بصمت فيه ازدراء واحتقار • ان الشئ الوحيد الذى خطف بصر ميتيا فيه انما هو فرط طوله الذى يؤلف مع قصر رفيقه ابن وطنه تناقضاً واضحاً وتضاداً بارزاً قال ميتيا لنفسه : « لو نهض لكان طوله قريباً من مترين ! » • وقد اعتقد ميتيا أيضاً أن « السيد » الطويل لابد أن يكون مرتبطاً بصاحب الغليون ارتباط حارس بسيد ، فالتصير هو الذى يأمر العملاق فى أغلب الظن • وبدا ذلك كله لميتيا طبيعياً سعيداً كل السعادة • لم يبق فى قلبه الصغير أثر من خصومة أو تنافس • ولم يكن قد أدرك بعد المعنى الحقيقى لموقف جروشسكا ، وللهجة الملغزة التى كانت تقول بها بعض عباراتها • فكل ما عرفه متأثراً فى قرارة قلبه أشد التأثير ، هو أنها لطيفة معه وأنها « عفت » عنه وأنها أذنت له أن يجلس الى جانبها • وقد أصبح لا يملك نفسه اعجاباً بها وهى تحسو بضع جرعات من الشمبانيا • ولكن الصمت الذى كان يخيم على النزلاء لم يلبث أن لفت انتباهه فجأة ، فأجال على الحضور نظرة سائلة ، فكان عينيه تقولان : « ما بالنا لا نفعل شيئاً ؟ ما الذى يمنعا من أن نلهو ونسلى ؟ »

قال كالجنانوف فى تلك اللحظة ، وكأنه قد حزر ما جال فى خاطره ،
قال مشيراً الى ماكسيموف :

— انظروا الى هذا ! انه لا ينى يكذب ، وقد أضحكنا كثيراً •

فحرق ميتيا الى الرجلين واحداً بعد آخر • وسأل وهو يضحك
ضحكته الصغيرة ، كأن ذلك قد أبهجه كثيراً :

— يكذب ؟ ها ها •••

— نعم • تصور أنه يدعى أن جميع ضباطنا فى سلاح الفرسان قد
تزوجوا نساءً بولنديات بين عامى ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ؛ هذا سخف ، أليس
كذلك ؟

قال ميتيا بالغا أوج السرور :

— بولنديات ؟

كان كالجنانوف يدرك حق الادراك نوع العلاقات القائمة بين ميتيا
وجروشنكا ، وكان يحزر أيضاً دور « السيد » البولندى ، ولكن لم يكن
يبدو عليه أنه مهتم بذلك كثيراً ، لاستغراقه فى جداله مع ماكسيموف
خاصة ، أو قل لانشغاله بهذا الجدل وحده دون ما عداه • لقد قادته
المصادفة الى صحبة ماكسيموف فى هذا النزول الذى التقى فيه بالرجلين
البولنديين اللذين لا يعرفهما حتى الآن • أما جروشنكا فقد سبق أن رآها
بل لقد ذهب الى بيتها فى ذات يوم مع أحد أصدقائه ، ولم تعجبه حينذاك ؛
ولكنها تنظر اليه هنا بعينين تفيضان رقة وحناناً • وقد ظل لا يبالى بها فى
ظاهر الأمر رغم أنها قد أخذت تلاطفه وتلامسه قبل وصول ميتيا • انه
فتى فى العشرين من عمره على أكثر تقدير ، شديد الأناقة ، جميل
الوجه ، شاحب اللون ، له شعر أشقر رائع ، وعينان زرقاوان أخاذتان

تعبيران عن ذكاء ، وتعبيران فى بعض اللحظات عن عمق ، فلا يتفق ذلك مع سنه الغضه ، لا سيما وأن مظهره وحركاته وحتى أفواله تُشعر فى كثير من الأحيان بأنه طفل • على أن هذا لم يكن يضايقه قط ، رغم شعوره القوى به • كان يبدو على وجه العموم انساناً متفرداً ، وربما بدا فى بعض الأحوال صاحب نزوات وبدوات ، ولكن ذلك لا يخرجها أبداً عن لطفه وعذوبته • وكان تعبير وجهه يتجمد فى بعض الأحيان فيكتسب شيئاً يشبه العناد : فهو عندئذ ينظر الى محدثه ويصغى اليه ، ولكنه يكون غارقاً فى أفكاره هو ، يتابعها فى اصرار لا يحيد عنه • وهو تارة رخو متوان ، وهو تارة أخرى حاد مندفع الى أقصى الحدود ، يضطرب لأيسر الأمور ويحتاج لأتفه الأسباب •

تابع كالجانوف كلامه قائلاً وهو يجز كلماته جرأً كسولاً يظل طبيعياً لا اختيال فيه ولا غطرسة :

— تصور أنتى أطوِّف هذا الرجل معى منذ أربعة أيام ، منذ اللحظة التى دفعه فيها أخوك الى خارج العربة فسقط ، كما تذكر ذلك حتماً • لقد اهتممت بأمره عندئذ ، وأخذته معى الى الريف • ولكنه لا ينقطع عن الكذب • انه يكذب بلا توقف ، حتى أخذ كذبه يضايقنى ويزعجنى • وانى أنوى أن أعيده الى داره •••

قال البولندى ذو الغليون مخاطباً ماكسيموف باللغة البولندية :

— ان هذا الرجل لم يعرف فى حياته نساءً بولنديات ، وهو يروى أشياء كاذبة •

كان البولندى ذو الغليون يجيد اللغة الروسية اجادة تامة ، وكان على كل حال يجيدها أكثر مما يتراءى لمن يسمعه • ولكنه يصرّ على أن

ينطق بها نطقاً رديئاً ، فهو يشوّه الألفاظ ، ويدس في جملة كلمات بولندية .

أجاب ماكسيموف يقول بلهجة ساخرة :
- ولكنني تزوجت أنا نفسي امرأة بولندية .
فسرعان ما تدخل كالجانوف فائلاً :

- ليست هذه هي المسألة . هل خدمت في سلاح الفرسان ؟ ذلك أنك عن سلاح الفرسان انما تتكلم ! هل له هيئة ضابط من سلاح الفرسان ؟

هتف ميتيا يقول مرحباً ، وكان يصنى الى الحديث بنهم وشراهة :
- هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر ! يا للفارس الجميل الذي كان يمكن أن يرى في سلاح الفرسان ! ...

وكانت عينا ميتيا السائلتان تتقلان بين المتحدثين واحداً بعد آخر ، كأنه ينتظر منهم أن يكشفوا عن حقائق مدهشة لا يدرى الا الله ما هي !
قال ماكسيموف وهو يلتفت الى ميتيا :

- لا ... لقد أسأت فهمي . فانما أنا أفصد أولئك الفتيات البولنديات ... وهنّ فئات في الواقع ... ولكنهن يفقدن صوابهن متى رقصن رفصة بازوركا مع أحد فرساننا الرماحين ... يكفي أن ترقص احداهن مع الفارس رفصة مازوركا ، حتى تثب بعد ذلك فوراً على ركبتيه ، كقطعة صغيرة بيضاء ... ويكون السيد أبوها والسيدة أمها حاضرين ، فلا يجدان في ذلك بأساً ولا يحتاجان ... بل هما يأذنان ويستحسنان ويشجعان ... وفي الغد يمضي الفارس يطلب يد الفتاة ... هل فهمتم ؟ يمضي يخطب الحساء ... أليس هذا صحيحاً ؟ ها ها ...

كذلك ختم ماكسيموف كلامه ضاحكاً •

— سيد مسكين !

هكذا جمجم يقول البولندى الطويل ، الجالس على كرسى قرب الحائط ، وأنزل إحدى ساقيه المتصالبتين عن الأخرى ، ليصالبهما فى الاتجاه المعاكس من جديد •

لاحظ ميتا عندئذ جزمته الضخمة المشمعة التى كان نعلها السميك وسخاً جداً • يجب أن نذكر على كل حال أن الرجلين البولنديين كان مظهرهما مهملاً ، ولم تكن ثيابهما نظيفة نظافة لا مأخذ عليها •

تدخلت جروشكا تقول بلهجة حائقة :

— لماذا يكون مسكيناً ؟ أنا لا أحب الالهانات !

فقال البولندى ذو الغليون وهو يلتفت نحو جروشكا :

— سيدتى أجريينا ! لا بد أن هذا السيد قد عاشر فى بولنده بناتٍ وضيعات لا سيدات من الطبقة النبيلة !

فأمّن الرجل العملاق على كلامها صاحبه قائلاً :

— تستطيعين أن تكونى من ذلك على يقين •

قالت جروشكا متجهمة الأسارير :

— كفى ! دعوه يتكلم ! بماذا أساء اليكم ؟ ان المرء ليتسلى مع أمثاله على الأقل !

فأجاب « السيد » البولندى ذو الباروكة ، أجاب يقول بوقار :

— لست أمنعه من الكلام يا سيدتى •

وألقى نظرة طويلة على جروشكا ، ثم صمت ، ونشق نفساً من غليونه برصانة ورزانة •

قال كالجانوف متحمساً وكأن الأمر أمر مناقشة هامة جداً :

— معذرة ! أحسب أن « السيد » على حق • مادام ماكسيموف لم يعيش في بولنده فبأى حق يقول هذا الكلام عن تلك البلاد ؟ انك لم تتزوج في بولنده مع ذلك ، هه ؟
قال ماكسيموف شارحاً :

— لا ... وانما تزوجت في اقليم سمولنسك • ان أحد الفرسان هو الذى جاء الى ذلك الاقليم بزوجتى ... أعنى بمن أصبحت زوجتى فيما بعد ... جاء بها الى ذلك الاقليم تصحبها السيدة أمها ، وخالة من خالاتها ، وقريبة أخرى لها ابن كبير • لقد جاءت هذه السيدات من بولنده ، فهن بولنديات حقاً ... وقد تنازل الى الفارس عنها • كان هذا الفارس فتى أخذاً ... كان فى نيته أن يتزوجها هو نفسه فى أول الأمر ، ولكنه تركها أخيراً لأنها كانت عرجاء •

هتف كالجانوف يسأله :

— كيف ؟ تزوجت عرجاء ؟

— نعم ، كانت تعرج • وقد تأمرا كلاهما على خداعى • كنت أنا أظن أنها تتوالت توائباً جميلاً ، وكنت أعزو ذلك الى فرحتها ...
— الى فرحتها بتزوجك ؟

كذلك سأله كالجانوف بصوت رنان طفولى •

— نعم ، الى فرحتها بتزوجى • ولكن اتضح لى أن الأمر لم يكن

كذلك البتة • فبعد زواجنا ، بل فى مساء الحفلة نفسه ، اعترفت لى بالحقيقة ، واعتذرت اعتذاراً مؤثراً : يظهر أنها قد أرادت أثناء طفولتها أن تقفز فوق غدير ، فانكسرت عندئذ ساقها ! ها ها !

انطلق كالجائوف عندئذ فى ضحك كضحك الأطفال تماماً ، وكاد ينقلب على الكنب • وضحكت جروشنكا أيضاً • أما ميتيا فقد شعر أنه فى ذروة الغبطة والهناء والسعادة •

صاح كالجائوف يقول مخاطباً ميتيا :

— هل تدري أنه ذكر الآن الحقيقة ؟ انه لم يكذب فى هذه المرة !
اعلموا أنه تزوج مرتين ... وهو عن زوجته الأولى انما تحدث الآن ،
أما الثانية فقد هربت ... هل تعلمون هذا ؟ وهى ما تزال حية • أكنتم تجهلون ذلك ؟

قال ميتيا مندهشاً وهو يلتفت بقوة الى ماكسيموف :

— غير معقول !

فقال ماكسيموف مؤكداً بتواضع :

— بل لقد هربت فعلاً • نعم ... حدث لى هذا المكروه ! سافرت مع رجل فرنسى • وأسوأ ما فى الأمر أنها كانت قد سجلت على اسمه قريتنا والأراضى التى تتبعها • قالت لى : « أنت رجل مثقف ، وسوف تستطيع تدبير أمرك وحدك » • على هذا النحو انما تركتني • وقد نبهني أسقف محترم جداً فى ذات يوم الى أن احدى زوجتي كانت ساقها عرجاء ، وأن الثانية كانت ساقها خفيفة ... ها ها ! ...

صاح كالجائوف يقول فى حماسة :

— هل تسمعون ؟ هل تسمعون ؟ اذا كذب — وهذا ما يحدث له

أحياناً كثيرة - فهو لا يكذب الا ليسلينا • ليس فى هذا شىء من حطة ،
ليس فيه شىء من حطه ! انه يعجبني أحياناً ، هل تعلمون ؟ هو دنىء جداً ،
ولكن دناءته طبيعية ، أليس كذلك ؟ ما رأيكم ؟ غيره ينحطون طمعاً فى
منفعة ، أو سعيّاً الى ربح ، أما هو فيفعل ذلك مجاناً ، يفعل ذلك مدفوعاً
اليه بطبيعته المنزهة عن الغرض • تصوروا مثلاً أنه يدعى أن جوجول
انما وصفه هو فى كتابه « النفوس الميتة » * • لقد تشاجرنا أمس حول هذا
الموضوع طوال الطريق • انكم تذكرون أن كتاب جوجول هذا يحدثنا
عن ملاك اسمه ماكسيموف ، جلده رجل اسمه نوزدريف ، فحكم هذا
الرجل « بتهمة توجيه اساءة شخصية بالسياط ، فى حالة سكر ، الى
الملاك ماكسيموف • » • ان صاحبنا ماكسيموف لا يتورع أن يؤكد الآن
أنه هو الذى جلد بالسياط ذلك الجلد الذى يحدثنا عنه كتاب جوجول ،
فهل هذا ممكن ؟ فكروا قليلاً ! ان تشتيكوف قد سافر سنة ١٨٢٠ ،
فالتاريخ اذن غير مطابق أبداً • انه ليستحيل استحالة مادية أن يكون
ماكسيموفنا نحن قد جلد منذ زمن بعيد كل ذلك البعد • يستحيل ،
أليس كذلك ؟

لقد تحمس كالجانوف تحمساً صادقاً ، رغم أن من الصعب على المرء
أن يفهم لماذا يولى هذه المسألة كل هذا الاهتمام ، ولماذا يقيم لها كل هذا
الوزن ! وتحيز له ميّياً باقتناع تام ، ثم صاح يقول وهو يضحك ضحكاً
مدوياً :

- ولكن ما دام يعترف بأنه جلد ...

فقاطعه ماكسيموف مصححاً :

- الحق أن ما وقع لى لم يكن هو الجلد تماماً ، بل كان شيئاً من هذا

القبيل •

- كيف هذا ؟ شيء من هذا القليل ؟ اما أنك جُلدت واما أنك لم تُجلد ، ولا وسط بين الأمرين !

سأل « السيد » البولندى ذو الغليون ، سأل صاحبه البولندى الطويل ، متعلماً متنعماً :

- كم الساعة الآن ؟

فرفع البولندى الطويل كتفيه • لم يكن مع أحد من الرجلين البولنديين ساعة •

تدخلت جروشكا تقول بلهجة هجومية :

- هل أضجركم هذا الحديث ؟ دعوا الآخرين يتكلمون ! لماذا تمنعونهم من أن يتسلوا ويسروا عن أنفسهم ؟

كان يبدو على جروشكا أن مزاجها متأهب للمشاجرة ، فدُهِش مبتدئاً من هذا لأول مرة • أجاب « السيد » البولندى بشيء من العصبية ، أجاب يقول باللغة البولندية :

- سيدتى ! أنا لم أقل شيئاً ، ولا أنوى أن أزعج أحداً •

فهمت جروشكا متجهة بالكلام الى ماكسيموف :

- طيب • اقصص الآن • مالى أراكم تسكتون جميعاً على حين فجأة !

استأنف ماكسيموف كلامه يقول وقد سرَّه الاهتمام به ، وأخذ يصطنع اللطف :

- ليس هناك ما أقصه ! ما هذا كله الا هراء ! ثم ان جوجول قد موَّه أكثر الأسماء فى هذه القصة ، وأبدلها بتسميات رمزية • من ذلك

أن نوزدريوف قد كان اسمه الحقيقي نوسوف*، كما ان كوفشينيكوف كان اسمه الحقيقي شكفوريف ، والاسمان مختلفان كل الاختلاف . أما فيناردى فكان اسمه فعلاً فيناردى ، ولكنه كان روسياً لا إيطالياً : فيناردى بتروف . وكانت الآنسة فيناردى فتاة أخاذة فتاة ... ليتكم رأيتموها ! ليتكم رأيتم ساقها المغمدين فى سروالها الضيق تحت تنورتها القصيرة ذات الأسلاك المشدودة ! ... وما كان أروع دورانها ! ... ولكنها لم تدر الا خلال أربع دقائق ، لا خلال أربع ساعات . لقد فتنت ألبانسا جميعاً يومئذ ...

زأر كالجانوف يسأله :

- ولكن لماذا جلدوك ؟ هلاً قلت لنا لماذا جلدوك ؟ ذلك هو الأمر الذى يعنيننا !

أجاب ماكسيموف :

- جلدوني بسبب بيرون .

فسأله ميتيا :

- اى بيرون ؟

- الكاتب الفرنسى الشهير بيرون . كنا جماعة كبيرة فى كبايريه وكنا قد شربنا قدراً لا بأس به من الخمر . حدث ذلك فى أثناء تلك السوق نفسها . دعوتنى ، فما لبثت أن كِلت لهم ألبانسا شعيرة لاذعة . قالوا لى : « أهذا أنت ... الشاعر بوالو ؟ يا للزى الغريب المضحك ! » * فأجابهم بوالو بأنه ذاهب الى حفلة تنكرية ، وكان بوالو يقصد بذلك الحمامات ... ها ها ! ... ولكنهم عدوا هذا تعريضاً بهم . وعندئذ

أسرعت أكيل لهم أحياناً جديدة معروفة فى الأوساط المثقفة ، وكانت فى
الحق كاوية :

انت سافو وانا فاوون - ذلك أمر مر

ولكن أكبر مصائبى

انك تجهلين طريق البحر * .

فازداد استياؤهم وأخذوا يهينوننى اهانات ليست لائقة . فاردت
عندئذ ، لسوء حظى ، أن أصلح ما بدر منى من خرافة ؛ ومن أجل أن
أسوئ الأمر قصصت عليهم حكاية عن الشاعر بيرون التى لا يعرفها الا
المثقفون جداً . فذكرت لهم كيف أن هذا الشاعر ، حين لم ينتخب عضواً
فى الأكاديمية الفرنسية ، أراد أن ينتقم لنفسه ، فنظم بيتين لشاهدة قبره ،
فقال :

هنا يرقد بيرون ، الذى لم يكن شيئاً ذا بال

حتى ولا عضواً فى الأكاديمية

فما كان منهم الا أن هجموا علىّ فجلدونى .

- عجيب ! لماذا ؟ لأى سبب ؟

- ليعاقبونى على سعة اطلاعى .

وأضاف ماكسيموف يختم كلامه ، مصطنعاً هيئة التمعق والحكمة،

قائلاً :

- ما أكثر الأسباب التى يُجلد من أجلها انسان !

قاطعته جروشنكا قائلة :

— كفى ! لقد ضقت ذرعاً بهذه الحكايات المضجرة ! لا أريد أن
أسمعها بعد الآن • لقد توقعت شيئاً أدعى الى البهجة وأبعث على الضحك !
فسرعان ما وجم ميتيا وكفَّ عن الضحك • ونهض « السيد »
البولندى الطويل ، وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً واضعاً يديه وراء
ظهره ، وقد بدا عليه الكبر والتعالى ، كرجل أوقعته المقادير فى صحبة
أناس يزدریهم فهو يشعر بملل وسأم •

قالت جروشنكا وهى تنظر اليه باحتقار :

— ما أبلد مشيته هذه !

فازداد انفعال ميتيا ، لا سيما وأن « السيد » الجالس على الكنبه
كان يتفرس فيه بغير لطف أو وداعة فيما خيل اليه • فصاح ميتيا
يقول :

— فلنشرب أيها السيد • (ثم التفت الى البولندى الآخر وتابع
كلامه) • وأنت أيضاً • • • فلنشرب ، فلنشرب أيها السادة !

وتناول ثلاث كئوس وملأها شمبانيا • وهتف يقول :

— فلنشرب نخب بولنده ! فلنشرب نخب بلادكم بولنده ! فلنشرب
نخب الأرض البولندية !

فأجابه « السيد » ذو الغليون قائلاً بوقار متلطف وهو يرفع
كأسه :

— بكل سرور يا سيدى ! فلنشرب !

فقال ميتيا مهتماً :

- والسيد الآخر أيضاً • هلاً فلتنم لى اسمه ! خذ كأساً
يا سيدى •

قال السيد ذو الغليون :

- اسمه السيد فروبلفسكى •

وافترب السيد فروبلفسكى من المائدة متميلاً ، وتناول كأساً ،
ولكنه ظل واقفاً •

هنف ميتا وهو يرفع كأسه :

- فلنشرب نخب بولنده يا سادتى !

وقرع الثلاثة كئوسهم بعضها ببعض • ولم يلبث ميتا أن تناول
الزجاجة فملاً الكئوس الثلاث من جديد • وقال :

- والآن فلنشرب نخب روسيا أيها السادة ! علينا أن نتأخى !

قالت جروشكا :

- املأ لى أنا أيضاً كأساً • أريد أن أشرب كأس روسيا •

وقال كالجانوف :

- وأنا كذلك !

وزاد ماكسيموف فقال :

- وأنا أيضاً ! اننى احرص على أن أشرب نخب جدتنا المعجوز

روسيا • هى • هى • ! ...

هتف ميتا يقول :

- فلنشرب جميعاً ! فلنشرب جميعاً ! هات زجاجات أخرى

يا رئيس !

جىء بالزجاجات الثلاث الباقية • وملأ ميتيا الكئوس • وصاح يقول
من جديد :

— نخب روسيا !

فشرب الجميع الا البولنديين • أفرغت جروشكا كأسها دفعةً
واحدة • أما البولنديان فلم يمسّا كأسيهما •

قال ميتيا فى دهشة :

— ماذا ؟ أهكذا أنتم ؟

فتناول « السيد » فروبفسكى كأسه ، ورفع ، وقال بصوت
أخف :

— اننى اشرب نخب روسيا بحدودها السابقة على سنة ١٧٧٢ ! *

فهتف « السيد » الآخر قائلاً باللغة البولندية :

— عظيم !

وأفرغ الاثنان كأسيهما • فلم يملك ميتيا الا أن يقول :

— ما أغباكما !

فانتصب « السيدان » أمام ميتيا كديكين ، وقالا له بلهجة التهديد :

— أيها ... السيد !

وكان يبدو على فروبفسكى أنه خارج عن طوره؟ وها هو ذا يصرخ
قائلاً فى استياء (باللغة البولندية) :

— هل محظور على المرء أن يحب بلاده ؟

وهنا انفجرت جروشكا تقول بصوت صارم وهى تقرع الأرض
بقدمها :

— سكوت ! كفاكم شجاراً ! لا أريد هذه المناقشات !

قالت جروشنيكا ذلك وقد التهب وجهها وسطعت عيناها • كانت
الشعبانيا قد فعلت فعلها • خاف ميتيا • وأسرع يقول :

— معذرة أيها السيدان ! أنا المذنب • لن أكرر • يا فروبلفسكى ،
يا سيد فروبلفسكى ، سأجلس ساكناً هادئاً بعد الآن •

فقاطعت جروشنيكا قائلة بانزعاج :

— ليتك تسكت أنت على الأقل ؟ أبله !

جلس جميع الحضور ، وخيم الصمت ، وأخذوا ينظرون بعضهم
الى بعض فى حرج •

لم يدرك ميتيا شيئاً عن اندفاع جروشنيكا ، فاستأنف يقول :

— أنا سبب هذا كله أيها السادة ! يجب أن لا نبقى عاطلين هكذا ••
ألا نستطيع أن نتخيل شيئاً ••• فنسترد مرحنا وانطلاقنا ؟ •••

قال كالجانوف باهمال ودون اكتراث :

— حقاً ان المرء ليضجر هنا ضجراً رهيباً •

فقال ماكسيموف مقترحاً :

— ما رأيكم فى لعبة بالورق كما فعلنا منذ قليل ؟ هى • هى !

فقال ميتيا مؤيداً مستحسنأ :

— لعبة بالورق ؟ فكرة عظيمة ! هذا اذا وافق هذان السيدان •••

فقال السيد ذو الغليون بلهجة تنم عن اعتكار المزاج ، قال باللغة

البولندية :

• - بوزنو (الوقت متأخر) •

فقال فروبفسكى مؤمنا :

• - هو على حق •

فسألت جروشنكا :

• - بوزنو ؟ ما معنى هذه الكلمة ؟

فأجابها السيد الجالس على الكنية :

• - معناها : الوقت متأخر •

فقالت جروشنكا بصوت حاد وقد نفذ صبرها :

• - الوقت دائماً متأخر فى نظر هذين السيدين ، وكل شىء مستحيل

فى نظر هذين السيدين • انهما لا يجيدان الا الضجر والسأم ، ويريدان
أن يحرما الآخرين من البهجة والمسة • انهما ، الى أن جئت يا ميتيا ،
لم يفعلا طوال الوقت شيئاً غير الصمت ، متخذين هيئة التعالى تجاهى •

فهتف « السيد » الجالس على الكنية يقول باللغة البولندية :

• - الهى ! ما قلته صحيح تماماً • لقد أصبحت حزينا منذ لاحظت

أنك مستاءة غير راضية •

وأضاف يقول لميتيا بغير تمهل :

• - أنا مستعد •

فأجابه ميتيا :

• - افتح اللعب يا سيدى •

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية من جيبه فسلّ منها
ورقتين بمائتى روبل ووضعهما على المائدة • وقال :

- أريد يا سيدى أن أخسر مالاَ كثيراً معك • خذ الورق ، وكن
أنت الخازن •

قال « السيد » القصير بلهجة جادة مشدداً كلماته :

- يجب أن نلعب بورق صاحب النزل •

فقال السيد فروبلفسكى مؤيداً :

- ذلك أفضل حقاً !

قال ميتيا وقد أدرك ريبتهما :

- تفضلون ورق صاحب النزل ؟ طيب أيها السادة ! سنأخذ ورق

صاحب النزل • أنتم على حق •

وقال يأمر صاحب النزل :

- هات ورقاً •

فجاء صاحب النزل برزمة ورق مختومة ، وأعلن لميتيا أن البنات قد
تجمعن ، وأن اليهود الذين يعزفون على الرباب والكمان سيصلون
بعد هنية ، ولكن العربّة التى تحمل المؤن قد تأخرت • فنهض ميتيا
فجأة ، وأسرع الى الغرفة المجاورة ليتخذ الاجراءات اللازمة • لم يكن
فى الغرفة الا ثلاث بنات • ولم تكن ماربا قد ظهرت بعد • وكان ميتيا
لا يعرف فى الواقع ما هى الاجراءات التى كان عليه أن يتخذها ، حتى
لقد تساءل ماذا جاء يعمل فى هذه الغرفة • ومن أجل أن يخرج من
ارتباكّه أمر بأن يؤتى بالصندوق الذى يحتوى السكاكر ، وأن يوزّع

على البنات كارامل • وأضاف يقول متعجباً : « وقدّموا فودكا لأندره
لأننى جرحت شعوره منذ قليل » • وشعر ميتيا فى تلك اللحظة بأن أحداً
يضع يده على كتفه ، فالتفت فرأى ماكسيموف الذى كان قد تبعه الى
الغرفة •

همس الملاك يقول له :

- هل تستطيع أن تسلفنى خمسة روبلات ؟ اننى أحب أن ألعب
أيضاً ! هـى • هـى • • • • •

- عظيم ! عظيم ! خذ هذه الروبلات العشرة ! اليك عشرة روبلات !
وأخرج ميتيا حزمة الأوراق المالية من جيبه مرة أخرى ، فتناول
منها ورقة بعشرة روبلات ، وقال له :

- وما عليك اذا خسرتها الا أن تطلب المزيد • سأعطيك غيرها
أيضاً • • • • •

همس ماكسيموف يقول فرحاً كل الفرح :

- هذا يدبر أمرى !

وأسرع يعود الى القاعة الأخرى •

ولم يتأخر ميتيا عن اللحاق به ، واعتذر للجمع عن تغييه • وكان
البولنديان ، الجالسان الآن الى المائدة ، قد فضا الورق قبل وصوله • وقد
أصبح وجههما أقل جهامة وأكثر بشاشة حتى ليكن أن يوصفا باللطف
والدمانة • وها هوذا « السيد » القصير ، الذى أشعل غليوناً جديداً ،
يستعد لخلط الورق بوقار • هتف فروبلفسكى يقول :

- مكانكم يا سادتى !

فقال كالجانونف :

— أنا لن ألعب • فقد سبق أن حسرت معهما خمسين روبلا •

فقال السيد ذو الغليون :

— ان سيدى لم يحالفه الحظ فى المرة السابقة ، ولكن قد يتدارك
الآن ما فاتته ***

سأل ميتيا متحمساً :

— كم الخزنة ؟

— يمكن أن تكون مائة روبل ، ويمكن أن تكون مائتين ، فذلك
متوقف على المبلغ الذى تحطه •

فقال ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً :

— مليون !

— لا شك أن الكابتن يعرف قصة السيد بودفيزوكى * ؟

— أى بودفيزوكى ؟

— حدث فى ذات مساء فى فارصوفيا أن تكدست جميع الأموال
المحفوظة عند الخازن • فأقبل بودفيزوكى ، فرأى ألوف القطع الذهبية ،
فحطاً مبلغاً • سأله الخازن عندئذ أهو يريد أن يلعب بذهب أم هو يريد
أن يلعب اعتماداً على عهد الشرف • فقال بودفيزوكى : « بل اعتماداً على
عهد الشرف » ، فقال الخازن « حسناً » ، وقطع ، فلم يلبث بودفيزوكى
القطع الذهبية • فاذا بالخازن يقول له : « لحظة أيها السيد » • وفتح
الدرج وناول بودفيزوكى مليوناً وهو يقول له : « خذ • هذا ما ربحته •
لقد كانت الخزنة مليوناً • قال بودفيزوكى متردداً : « كنت أجهل هذا » ،
فقال له الخازن : « يا سيد بودفيزوكى ، أنت لعبت بالاعتماد على عهد

الشرف ... وأنا كذلك • فأخذ بودفيروكي المليون ودسّه في جيبه •

هتف كالجانوف يقول :

— هذا غير صحيح !

فقال السيد ذو الغليون ، يخاطبه باللغة البولندية :

— يا سيد كالجانوف ، ما هكذا يتكلم المرء في صحبة أناس
محترمين !

فصاح ميتيا قائلاً :

— لا تحاول أن تقنعا بأن بولندياً قد أعطى مليوناً على هذا النحو !

ولكن ميتيا لم يلبث أن ثاب الى نفسه فاستدرك يقول :

— معذرة يا سيدي ! ها أنا ذا أخطيء من جديد ! ان البولنديين
يمكن أن يعطوا مليوناً بسهولة ، تنفيذاً لعهد الشرف ، صوناً للشرف
البولندي ... أنا أسلم بهذا ! ... أرى أنني سأتكلم أنا أيضاً باللغة
البولندية آخر الأمر ! ها ها ها ! أخط عشرة روبلات على الأعرج
(الفالیه) •

فقال ماكسيموف وهو يقدم ورفه البنت (الدام) :

— وأنا أقامر بروبل صغير على البنت ، البنت الجميلة ، البنت
البستونية ، على « الست » ، هيء هيء ...

قال ماكسيموف ذلك واقترب من المائدة اقتراباً شديداً ، كأنه يريد
أن يخفي ما سيفعله ، ورسم تحت المائدة اشارة الصليب •

ربح ميتيا ، وربح الروبل الصغير أيضاً •

قال ميتيا :

ـ أضعف •

وتتمم ماكسيموف يقول بسعادة كبيرة وقد طار له فرحاً بربحه
الروبل :

ـ وأنا ألعب مرة أخرى بروبل ، روبل فقط ، روبل طيب ، روبل
شهم صغير !

صرخ ميتيا :

ـ خسرت ! أضعف حطتى على السبعة •

وخسرت السبعة أيضاً •

قال كاجانوف فجأة :

ـ كفوا عن اللعب •

فعاد ميتيا يقول دون أن يضطرب :

ـ أضعف •

ونزل ميتيا يضاعف ، ونزل يخسر فى كل مرة ، ولكن الروبلات
الصغيرة التى كان يحطها ماكسيموف ظلت تريح •

صرخ ميتيا حائقاً :

ـ أضعف أيضاً •

ـ فقال له « السيد » ذو النليون :

ـ خسرت حتى الآن مائتى روبل • فهل تريد أن تقامر بمائتى
روبل دفعة واحدة ؟

- كيف ؟ خسرت مائتي روبل ؟ لا بأس ! أضعف مع ذلك ! ألعب بمائتي روبل دفعةً واحدة !

قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه ورقتين بمائتي روبل ، وهمَّ أن يلقيهما على البنت (الدام) ، فاذا بكالجانوف يضع يده عليها فيغطيها .
قال كالجانوف صائحاً بصوت رنان :

- يكفى هذا !

فسأله ميتيا وهو ينظر اليه مندهشاً :

- ماذا بك ؟

- يكفى هذا . لن أدعك تستمر .

- لماذا ؟

- هكذا ! دعهما وامض . هذا أفضل . صدقنى . سوف أمنعك من متابعة هذا اللعب .

كان ميتيا يتفرس فيه دون أن يفهم .

وتدخلت جروشنكا قائلة بنبرة غريبة في صوتها :

- دع اللعب يا ميتيا . ربمسا كان على حق . ثم انك قد خسرت ما فيه الكفاية .

فلقى « السيد » القصير فقال يخاطب كالجانوف بالبولندية وهو يحرق اليه تحديقاً قاسياً :

- أتراك تمزح ؟

وصرخ « السيد » الطويل يقول لكالجانوف بصوت راعد !

- كيف تجرؤ أن ...

فغضبت جروشكا وقالت :

- لا أسمع بالصراخ هنا • لكنكم ديكه حائقه !

كان ميتيا ينقل بصره عليهم واحداً بعد واحد • وفجأة لفت انتباهه في هيئة جروشكا تعبير غريب • وفي تلك اللحظة نفسها ومضت في ذهنه فكرة عجيبة •

بدأ « السيد » القصير يتكلم فقال وفد احمر وجهه غضباً :

- سيدتى أجريينا •••

ولكن ميتيا لم يدعه يكمل كلامه • فقد افترب منه ، ووضع يده على كتفه وقال له :

- كلمتين أيها السيد النحيل !

فسأله هذا بالولندية :

- ماذا تريد ؟

فأجابه ميتيا :

- تعال معي الى الغرفة المجاورة • أريد أن أكلمك على انفراد ، وما سأقوله لك سيسرك كثيراً • ستري أن ما سأقوله لك يرضيك •

بدت الدهشة على « السيد » القصير ، ونظر الى ميتيا في خشية • ومع ذلك رضى أن يتبعه ، ولكنه اشترط أن يصحبه « السيد » فروبلفسكى •

هتف ميتيا قائلاً :

- حارسك ؟ فليات هو أيضاً ••• ثم ان حضوره ضرورى • هيا بنا أيها السيدان !

سألته جروشكا قلقة :

- الى أين تذهبون ؟

فأجابها ميتيا :

- سنعود بعد لحظة •

من رأى ميتيا فى تلك اللحظة أحسَّ أن فيه عزماً وتصميماً وجرأة ، وأحسَّ أنه واثق من نفسه ثقةً لا تُنتظر منه • ان تعبير وجهه الآن يختلف كل الاختلاف عن تعبير وجهه ساعة وصوله •

قاد ميتيا الرجلين البولنديين الى غرفة تقع على اليمين ، ليست هى الغرفة التى كانت تتجمع فيها جوقة البنات وتُهيأ فيها المائدة للقاصفين ، ولكنها غرفة نوم ملأى بالحُفائب والصناديق ، وفيها سريران كبيران على كل منهما جبل من وسائد • وكان فى الغرفة شمعة مشتعلة فوق منضدة • جلس « السيد » ذو الغليون وميتيا متقابلين ، ووقف « السيد » العملاق فروبلفسكى فى جانب ، واضعاً يديه وراء ظهره • ان الرجلين البولنديين يرفبان ميتيا عابسين ، ولكن كان واضحاً أنهما يشعران برغبة قوية فى معرفة ما يريد أن يقوله • .

تمتم « السيد » ذو الغليون يقول بالبولندية :

- ما الخدمة التى يمكننى أن أقدمها لك ؟

- اسمع أيها السيد • لن أراوغ وأخاتل • خذ المال (قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه حزمة الأوراق المالية) ، خذ المال ••• هل تريد ثلاثة آلاف روبل ؟ خذها وانصرف !

حدق « السيد » الى ميتيا بنظرة فاحصة ، مغرقاً عينيه فى عينيه • وسأله بالبولندية :

- ثلاثة آلاف روبل أيها السيد ؟
وتبادل وصاحبه فروبلفسكى نظرة خاطفة •
قال له ميتيا :

- نعم ، ثلاثة آلاف ! اسمع أيها السيد : اننى ألاحظ أنك رجل عاقل • خذ هذه الثلاثة آلاف روبل واذهب من هنا ، ولكن لا تنس أن تصطحب صاحبك فروبلفسكى ، هل فهمت ؟ على أننى اشترط أن تذهب فوراً ، فى هذه الدقيقة نفسها ، والى الأبد • الى الأبد ، فهمت ؟ تخرج من هذا الباب ، هل ترى ؟ ماذا تركت فى الغرفة الأخرى ؟ معطفاً ؟ فراء ؟ ساجيئك به • وسأمر باعداد عربته ترويكاً لك فوراً • • • وأتمنى لك سفراً سعيداً أيها السيد • هيه ، ما رأيك ؟

كان ميتيا ينتظر الجواب وهو ممتلئ نقة • كان لا يراوده شك فى أن الرجل سيقبل هذا العرض • واتخذ وجه « السيد » ذى الغليون هيئة تتم عن غايه العزم والتصميم • وقال يسأل ميتيا :

- أين المال يا سيدى ؟

- اليك تفصيل الأمر فيما يتعلق بالمال : أدفع لك الآن خمسمائة روبل سلفةً ونفقات سفر • أما الباقي ، وهو ألفان وخمسمائة ، فسأدفعه لك غداً فى المدبنة ، أحلف لك بشرفى • ساجيئك بهذا المبلغ من تحت الأرض اذا لزم ذلك ! (هكذا صاح ميتيا) •

تبادل البولنديان نظرة • وأصبح وجه « السيد » ذى الغليون أقل تسجيماً مما كان منذ قليل • قال ميتيا :

- بل أعطيك سبعمائة ، سبعمائة روبل ، لاجسمائة كدفعة أولى • • أعطيكها حالاً ، فى هذه اللحظة نفسها (كذلك أسرع يقول ميتيا الذى

لاحظ أن الأمور أخذت تجري مجرى لا يبعث على الامل) • ما بك أيها السيد ؟ ألا تصدقني ؟ لست أستطيع أن أنقذك ثلاثة آلاف دفعة واحدة على كل حال • ذلك أنك قد تأخذ المبلغ الآن ثم تعود إليها غداً ••• ثم اننى لا أحمل الآن هذا المبلغ ، وانما هو مخبأ فى مسكنى بالمدينة ، (كذلك تتم يقول أليوشا الذى كانت شجاعته تهبط عند كل كلمة جديدة ، والذى أصبح يرتعش منذ ذلك الحين خوفاً من الاخفاق) أحلف لك أن هذا المال فى بيتى ، مخبأ •••

وفى مدى لحظة قصيرة ، اجتاح وجه « السيد » ذى الغليون تعبيراً عن أنفة خارقة وشمم هائل ، فسأل ميتيا فى سخرية (باللغة البولندية) :
- أهذا كل ما تريده ؟

ثم بصق للتعبير عن اشمزازة بمزيد من القوة •
وبصق فروبلفسكى أيضاً •

قال ميتيا وقد شعر باليأس يغزوه ، وأدرك أن كل شيء قد ضاع ،
قال :

- أنت تبصق أيها السيد لأنك تأمل أن تسلب جروشنكا مبلغاً أكبراً
ألا انكما كليكما لمضحكان !

فقال « السيد » ذو الغليون ، وقد احمر احمراراً شديداً (قال
باللغة البولندية أيضاً) :

- انك تهيننى الى أقصى حدود الاهانة •

ثم أسرع يتجه نحو الباب ، فى هيئة رجل مستاء لا يريد أن يسمع
المزيد من الكلام • وسار فروبلفسكى وراءه متمايلاً • وتبعهما ميتيا
مضطرباً حائراً وقد أسقط فى يده • كان يخشى غضب جروشنكا ، لأنه

أوجس أن البولندي سيفضح الأمر • وذلك ما حدث فعلاً • فقد دخل
« السيد » ذو الغليون القاعة ، فوقف أمام جروشكا وقفه مسرحية ،
وهتف يقول لها باللغة البولندية :

— لقد أٌهنت الى أقصى حدود الإهانة •

فاذا بجروشكا تصيح فى وجهه حائقة مسعورة :

— باللغة الروسية ، تكلم باللغة الروسية ! لا أريد بعد الآن أن
أسمع كلمة بولندية واحدة ! لقد كنت تعرف الروسية فى الماضى ،
ولا يمكن أن تكون قد نسيتها فى خمس سنين !

وكانت جروشكا محمرّة الوجه غضباً •

— سيدتى أجريينا •••

— اسمى أجرافين ••• أنا جروشكا ••• تكلم بالروسية اذا كنت
تريد أن أسمع لك !

جرّحت كبرياء «السيد» ، فاحمر وجهه ، وأسرع يقول فى تنفخ
وفخفخة ، متعمداً تشويه الكلمات :

— أيها السيدة أجرافين ! لقد جئت وأنا أنوى أن أنسى الماضى وأن
أغفر ، جئت وأنا أنوى مسح ما حدث حتى هذا اليوم •••

فقاطعت جروشكا قائلة وهى تثب من مكانها :

— جئت لماذا ؟ لتغفر ؟ أتريد أن تغفر لى أنا ؟

— نعم يا سيدتى ، كنت أريد أن أغفر لك • ان لى نفساً رجة وقلباً
سمحاً • ولكن سلوك خلاّتك قد أدهشنى • فمئذ هنيهة ، فى الغرفة
المجاورة ، أراد « السيد » ميتيا أن يعطينى ثلاثة آلاف روبل لأسافر •
فبصقت فى وجهه •

صرخت جروشنكا تسأله بصوت حاد :

- ماذا ؟ هل تجرباً أن يقدم لك مالاً من أجلى ؟ أصحيح هذا
يا ميتيا ؟ كيف جرؤت ؟ أنا امرأة تباع وتُشتري ؟

قال ميتيا فى أنين :

- أيها السيد ، أيها السيد ، انها طاهرة كملاك ، ولم أكن خليلها فى
يوم من الأيام • لقد كذبت فى هذا الأمر •••

زارت جروشنكا تقول :

- كيف تجربو أن تدافع عني أمامه ؟ لئن حافظت على طهارتى ،
فاننى لم أفعل ذلك تمسكاً بالفضيلة ، بل ليكون من حقى أن أصرخ فى
وجه هذا الرجل حين ألقاه : أنت شقى تعس ! هل يمكن حقاً أن يكون
قد رفض المال الذى عرضته عليه ؟

فصاح ميتيا يقول :

- رفض ؟ انه لم يرفض ••• لقد رضى ••• ولكنه أراد أن أنقده
الثلاثة آلاف روبل دفعةً واحدة ، أما أنا فقد عرضت عليه قسطاً أول هو
سبعمائة روبل •

قالت جروشنكا :

- اتضح الآن كل شئ : لقد علم اننى أملك مالاً ، فأراد أن
يتزوجنى !

صرخ « السيد » يقول :

- يا سيدة أجريينا ، أنا فارس ، أنا بولندى نبيل ، لا شقى تعيس •
لقد كنت أريد أن أتخذك حليمةً لى ، ولكننى أرى الآن أمامى امرأة

تختلف كل الاختلاف عن المرأة التي عرفتها ، أرى أمامي الآن امرأة
راكبة رأسها خالعة عذارها ...

صرخت جروشنكا تقول وقد خرجت عن طورها :

- اذهب ! عد من حيث جئت ! لأمرن بطردك ، فيضعوك على
الباب ! ألا ما كان أشد بلاهتي حين عذبت نفسي خلال هذه السنين
الخمس بسببه ! ... لا ... اننى لم اعذب نفسي هذا التعذيب بسببه ،
وانما عذبت نفسي غضباً وحنقاً ! ليس هذا هو الرجل الذى أحببته !
أوه ! انه لم يكن هكذا ! ليس هذا الرجل هو من أحببت ! أغلب الظن
أنه أبوه ! أين صنعت لنفسك هذه الباروكة المضحكة ؟ لقد كان ذاك
صقراً ، أما هذا فدجاجة مبتلة ! كان ذاك يضحكنى وينشدنى الأغاني ..
الا ما كان أغبانى اذ لبنت أبكى طوال خمس سنين ، وما كان أحطنى ،
وما كان أجبننى !

قالت جروشنكا ذلك وتهالكت على مقعدها من جديد ، وغطت وجهها
بيديها . وفى تلك اللحظة ، ترجعت فى الغرفة التى تقع على الشمال
أصوات جوقة بنات موكرويه اللواتى اجتمع شملهن أخيراً . لقد أخذن
ينغنين رقصة شيطانية .

فصاح فروبلفسكى على حين فجأة يقول :

- هذا محل دعارة ! يا رئيس ، اطردها هاته النساء الخليعات !

كان صاحب النزول يلقي على القاعة نظرات استطلاع من حين الى
حين ، فلما سمع الصراخ فأدرك أن نزلاءه قد أخذوا يتشاجرون أسرع
اليهم . وقال يسأل فروبلفسكى بلهجة فظة :

- هيه ! أنت ! مالك تعصيح هذا الصباح بحلقك العريض كله ؟

فزأر « السيد » فروبلفسكى يقول له :

ـ وغد !

ـ وغد ؟ أنا وغد ؟ هلاً قلت لى بأى ورق لعبت منذ قليل ؟ لقد جئت بك بحزمة مختومة ، فأخفيتها ، ولعبت بورق مغشوش ! هل تعلم أنتى أستطيع أن أرسلك الى سيريا بسبب هذا الغش ؟ ان اللعب بورق مزيف يشبه صنع نقود مزيفة ...

واقرب صاحب النزول من الكنية ، فأغطس يده بين الوسادة والظهر ، فسحب حزمة الورق المختومة ، وقال :

ـ هذا ورقى ، لم يمس !

ورفع حزمة الورق بين أصابعه يُظهر عليها جميع الحضور ، وهو يقول :

ـ لقد رأيته من ركنى لحظة دس هذه الحزمة فى الشق ، وأحل محلها ورقاً من عنده ! أنت وبش لا « سيد » ...

وقال عندئذ كالجانوف :

ـ وأنا فاجأت « السيد » يغش مرتين •

صاحت جروشكا تقول وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى :

ـ يا للعار ! آه ... يا للعار ! ... رباه ! كيف أمكن أن يتغير هذا الرجل الى هذا الحد ؟ ...

وكانت جروشكا قد تخضب وجهها بحمرة شديدة من فرط شعورها بالذل والخجل •

قال ميتيا :

— لقد اشتبهت فى أنهما يغشيان !

فما ان نطق ميتيا بهذه الكلمات حتى التفت « السيد » فروبلفسكى الى جروشكا مغتاضاً مضطرباً ، وصرخ يقول لها وهو يمد قبضة ذراعه نحوها :

— مومس !

ولكن ميتيا انقض عليه فى تلك اللحظة نفسها ، فأمسك بجسمه كله ، ورفع ، ونقله بلمحة طرف الى الغرفة التى تقع على اليمين ، الغرفة التى قادهما اليها منذ لحظات • وسرعان ما عاد الى القاعة لاهثاً من الجهد والانفعال ، فقال للمقوم :

— رميته على الأرض ! المسكين يتخبط ، ولكنه لن يسارع الى الرجوع •

وأغلق ميتيا أحد مصراعى الباب ، وترك المصراع الثانى مفتوحاً ، واتجه الى « السيد » ذى الغليون يسأله :

— هل تتنازل ، أيها السيد النبيل ، فتلحق بصاحبك ؟ برزبرازنام !
(معذرة !) •

فهتف تريفون بوريستشين يقول :

— ولكن يا دمترى فيدوروفتش ، استرد منه المال الذى خسرتة فى اللعب ، على الأقل ••• لقد سرقاك !

قال كالجانوف :

— أنا أترك لهما روبلاتى الخمسين !

فصاح ميتيا :

– وأنا أتنازل عن روبلاتى المائتين ! لن استردهما بحال من الأحوال
فليحتفظا بها عزاءاً لهما !

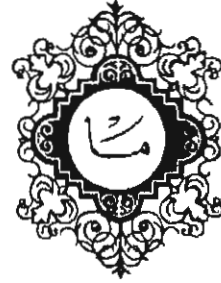
– مرحى ميتيا •

كذلك صاحت تقول جروشنكا بصوت فيه نىء من الشر •
فاتجه « السيد » ذو الغليون نحو الباب ، وقد اصطبغ وجهه بحمرة
شديدة من فرط الحلق ، ولكنه لم يفقد شيئاً من رصافته • ومع ذلك فانه
قبل أن يخرج من القاعة ، التفت نحو جروشنكا وقال لها (بالبولندية) :
– سيدتى ، اذا كنت تريدان أن تتبعينى ، فتعالى ! والا ...
فوداعاً ...

ثم اجتاز الباب عابس الوجه مختنق الصدر غضباً وخزيًا •
ذلك انسان لا يهزه شىء • فانه بعد كل ما حدث ظل يأمل أن تتبعه
« السيدة » ، لأنه يقدر نفسه قدرًا عظيمًا •
أغلقت جروشنكا الباب عليهما •
وقال لها كالجانوف ناصحاً :
– أقفل الباب عليهما بالمفتاح •
ولكن القفل صرَّ من داخل الغرفة • لقد سارعا بهما الى اقفال الباب
المفتاح •

هتفت جروشنكا تقول بلهجة حاقة :
– عظيم ! ذلك كل ما كانا يستحقانه !

هزيان



ان مضى البولنديان حتى سمل القاعة مرحُ عام،
وحتى بدأ احتفال سبه أن يكون مجوناً وكانت
جروشكا أول المطالين بخمر • قالت :
- أريد أن أشرب ، أريد أن أسكر تماماً

كالمرّة السابقة ، هل تتذكر ياميتيا ، يومَ تعارفنا ؟

وكانت حالة ميتيا النفسية أشبه بهزيان ، لأنه كان يتنبأ « بسعادته » •
وكانت جروشكا ، مع ذلك ، ما تنفك تصرفه في كل لحظة ، قائلةً له :

- اذهب اليهم ، سرّاً عن نفسك ، مرهم بأن يرقصوا ، حتى يكون
هنالك انطلاق ومرح • أريد قصفاً عنيفاً حاراً ، كالمرّة السابقة ، كالمرّة
السابقة تماماً •

كانت جروشكا مهتاجة جائشة النفس • وكان ميتيا يتحرك هنما
وهناك ليطيعها وينفذ أوامرها • تجمع أفراد الجوقة في الغرفة المجاورة •
ان هذه القاعة التي تجمعوا فيها صغيرة مسرفة في الصغر ، تقسمها الى
قسمين ستارةً من نسيج هندي تخفي وراءها سريراً ضخماً مغطى بلحاف
كبير فوقه كدسة من وسائد • وان في سائر الغرف الأربع الأخرى
« النظيفة » سرراً على كل حال • استقرت جروشكا أمام الباب ، حيث

أتاها ميتيا بمقعد تجلس عليه • ذلك هو المكان الذى شغلته « فى ذلك اليوم » ، أثناء احتفالها الأول فى الليل ، تأمل منه الرقصات وتسمع الغناء • ان البنات اللواتى اشتركن فى ذلك الاحتفال قد جئن اليوم هن أنفسهن • ولم يلبث اليهود أن وصلوا مع آلات الرباب والكمان • وأعلن أخيراً أن عربة الترويكما التى طال انتظارها قد وصلت هى أيضاً تحمل المؤن •

شغل ميتيا كيراً ، وراح يتحرك هنا وهناك • كان أناس من أهل القرية يقفون أمام العتبة من حين الى حين ليلقوا نظرة على الغرفة • لقد أوقف الفلاحون والفلاحات فى وسط الليل ، وأسرعوا يرتدون ثيابهم ، متوقعين وليمة عجيبة كوليمة الشهر الماضى • ان ميتيا يحبى الوافدين الجدد ، ويعانق الأصحاب القدامى ، ويبر ذكريات سابقة ، ويفتح الزجاجات ، ويقدم الشراب لكل قادم • والبنات وحدهن يقدرن الشمبانيا ، أما الفلاحون فيؤثرون خمر الروم والكونياك ، ويفضلون « البنش » خاصة • أصدر ميتيا أوامره باعداد شوكلاتة للبنات ، وبأن تظل ثلاثة سماورات يغلى ماؤها بدون انقطاع لتحضير الشاي والبنش • يجب أن يكون هنالك شراب للجميع • يجب أن يستطيع كل قادم أن يسكر ما شاء له هواه أن يسكر • الخلاصة : قامت الدنيا وقعدت ، وأخذ الناس يشربون فوضى لا يلجمهم شىء • ولكن ميتيا كان يحس فى هذا السديم المضطرب بارتياح ، ويزداد انتعاشاً ونشاطاً على قدر ازدياد الفوضى والسخف فى هذه السهرة • فلو خطر ببال أول فلاح واصل أن يسأله مالا فى تلك اللحظة ، اذن لأخرج الحزمة من جيبه ووزع الأوراق المالية على حلقة الراقصين دون عد • ولعل هذا هو السبب الذى جعل صاحب النزل لا يكف عن الحوم حوله لحمايته فى أغلب الظن • وقد عزم تريفون بوريسستش على أن لا ينام فى هذه الليلة ، لذلك لم يشرب هو نفسه الا قليلا جداً (اكفى بكأس بنش واحد) ،

ولكنه كان يسهر على مصالح ميتيا بمزريد من الانتباه ، ولو على طريقته الخاصة ؛ فهو يتدخل متى وجب أن يتدخل ، بلهجة متعاذبة لينة ، ليوقف ميتيا عند حدود لا يتعداها ، محاولاً أن يحول بينه وبين أن يقدم للفلاحين الجفافة سيجاراً وملبساً « كما فعل في المرة الماضية » ، أو أن يوزع عليهم شيئاً من المال خاصة ، لا سمح الله ! كان يسوءه أن يرى البنات تشرب خموراً وتقتضم ملبساً ، فيقول : « وسخات ! وسخات ! لأطردهن ركلاً بالقدمين ، ولأحملهن على أن يشكرن لى هذا الشرف . ذلك ما هن به جديرات ! » . وتذكر ميتيا الحوذى آندره من جديد ، فأرسل اليه شيئاً من البنس . وكان يردد فائلاً بصوت ضعيف داعم : « لقد أسأت اليه منذ قليل » . ورفض كالجانوف فى أول الأمر أن يشرب ، ولم ترضه جوقة البنات . ولكن مرحة اشتد اشتداداً جنونياً بعد أن شرب الكأس الثانية من الشمبانيا ، فكان يسير فى خلال الغرفة ضاحكاً مطرباً كل شيء ، الأغاني والموسيقى . وكان ماكسيموف الذى بلغ أوج السكر والنبطة منذ ذلك الحين ، لا يتركه لحظة واحدة . وكانت جروشنيكا ، التى ثملت قليلاً هى أيضاً ، ما تنفك تقول لميتيا وهى تومىء الى كالجانوف « ما أطفه فتى ! ما أحلاه وما أعذبه ! » ، فكان ميتيا يسرع عندئذ الى كالجانوف فيعانقه ويقبله بحماسة ؛ وكان يقبل ماكسيموف فى هذه المناسبة . آه . ما كان أعظم السعادة التى يوجس ميتيا أنه سينالها ! صحيح أن جروشنيكا لم تكن قد وعدته بشيء بعد ، وأنها كانت تبدو راغبة فى تجنب أى شرح الآن ، ولكنها كانت تنظر اليه خلسة من حين الى حين وقد فاضت عيناها رقة وحناناً . وها هى ذى تمسك يده على حين فجأة ، فتجذبه اليها بقوة ، وتقول له وهى جالسة على مقعد أمام الباب كما كانت فى أول الاحتفال :

— ما كان أغرب هيئتك حين دخلت علينا منذ قليل ! أوه ! لقد خفت

عندئذ خوفاً شديداً • كيف خطر ببالك أن تتنازل عنى لذلك الرجل ؟
هل يمكن أن يكون ذلك قد خطر ببالك حقاً ؟

دمدم ميتيا يقول وقد طاش عقله من فرط السعادة :
- لم أشأ أن أفسد سعادتك •

ولكن جروشنكا لم تصغ الى جوابه • وصرفته عنها من جديد
قائلة له :

- اذهب ، اذهب ، سرّ عن نفسك لاهيئاً معهم • وليس لك أن
تتشكى ، فسأناذك بعد قليل •

انصرف ميتيا ، واستأنفت جروشنكا تأمل الرقصات والاصغاء الى
الأغنيات • فلما انقضى على ذلك ربع ساعة أومأت له فهرع اليها • قالت :
- اجلس بجانبى الآن ، واقصص علىّ كيف علمت أمس انى هنا •
من أول من قال لك ذلك ؟

أخذ ميتيا يقص عليها بحرارة ، ولكن بفوضى ، فليس فى سرده
تسلسل كثير • والشئ الغريب أنه كان فى بعض الأحيان يتوقف عن
الكلام ويقطب حاجبيه • قالت له جروشنكا :
- ما بك ؟

فأجابها :

- لا شئ • • • • • لقد تركت فى المدينة مريضاً • أرجو أن يشفى • • •
انى لأهب من عمرى عشرة أعوام فى سبيل أن يشفى !

- لا تفكر بعد الآن فى ذلك المريض • قل لى : هل صحيح أنك
كنت تريد أن تتحرر فى غد أيها الأحمق ؟ لماذا ؟

ثم دمدت تقول له بلغه متفخخة قليلاً :

— أحب أمثالك ، المجانين قليلاً • أنت مستعد اذن لأن تجازف بكل شيء فى سبيلي ؟ أكان فى نيتك اذن أن تتحرر من أجلى غداً يا عزيزى الطيب الأبله ؟ ألا فاعلم اذن أن من الأفضل لك أن تنتظر ... قد أقول لك فى الغد كلمه صغيره ... لا اليوم ... بل غداً ! آ ... لا شك أنك تؤثر أن أقولها لك اليوم ؟ لا ... لا أريد أن أقولها اليوم ... اذهب ، اذهب الآن ، سل نفسك !

ولكنها نادته فى لحظة من اللحظات مندهشة قلقة ، وسأله :

— مالى أراك حزيناَ هذا الحزن كله ؟ اننى ألاحظ أنك مهموم •
وسددت اليه نظرة نافذة ، وأردفت تقول :

— نعم ، ألاحظ ذلك واضحاً • مهما تضحك وتمزح مع الفلاحين ، فأننى أدرك أن هناك شيئاً يعذبك • كن فرحاً ! أريد ذلك ! أنا فرحة ، فمليك أن تفرح أنت أيضاً • • • تصور أننى أحب أحداً هنا • • • أوه ! انظر اليه ! لقد غفا فتأى الصغير • • • انه ثمل ، عزيزى !

كانت تعنى كالجانوف • لقد غفا كالجانوف بضع لحظات على الكنبه بتأثير الكحول • على أن الخمر وحدها ما كانت لتكفى أن تغرقه فى النوم • وانما الحقيقة أنه شعر فجأة بحزن ثقيل فى وسط هذا الاحتفال ، دون سبب معين واضح ، وذلك ما عبّر عنه بقوله انه « ضجر » • وكانت أغاني البنات قد أصبحت تثير فيه الانسمتزاز ، لأنها كانت تزدداد فسقاً ودعارة بتأثير الخمر شيئاً بعد شيء ، وكذلك كان شأن الرقصات : لقد خطر ببال بتتين من البنات أن تتكرا دُبَّين ، وأخذت ستيانيد ، وهى امرأة قوية الجسم خلبة البال ، « تعرضهما » وفى يدها هراوة ، قائلة فى صراخ :

- بعنف يا ماري ، والا هويت عليك بالهراوة !
وأخذ الدبان يتدحرجان أخيراً على أرض الغرفة تدحرجاً خالياً
من الحشمة كل الخلو حقاً ، فكان جمهور الفلاحين والفلاحات الذي
يشاهد المنظر ينفجر ضحكه المجلجل !

قالت جروشكا بلهجة الحكمة وهيئة النبطة :

- دعوهم يلهون على ما يشاء لهم هواهم ، ذلك من حقهم مرة •
ان هذه الفرصة لا تعرض لهم كثيراً ، فليتنهزوها !
وكان كالجائوف ينظر الى المشهد شاعراً بأنه اتسخ ؛ وابتعد وهو
يقول :

- ما أكثر الابتذال في هذا الفرع الشعبي ! أهكذا يتسلون اذن هم
الذين يعيشون في قلب الطبيعة ؟

وكانت قد آذته أغنية « جديدة » ايذاء خاصاً • هي أغنية تتردد فيها
لازمة تمثّل بايماء وترقص على ايقاع جرى ، وهي تروى قصة بارين
(سيد) مسافر يسبى قلوب البنات •

سأل البارين البنات :

اتحبينني ؟ اتحبينني ؟

ولكن البنات رأين أنه لن يكون زوجاً صالحاً •

سيضربني البارين

ولن احبه

واتفق ان مرّ عندئذ غجرى :

سأل الغجرى البنات :

اتحبينني ؟ اتحبينني ؟

ولكنه لم يعجب البنات أكثر من البارين :

سيكون الفجرى لصا
ولن تكون هذه هي السعادة

ومرّ رجال آخرون كثيرون ، حتى لقد مرّ جندي :

سأل الجندي النبات :
أتحبيني ؟ أتحبيني ؟

ولكن النبات نبذنه باحتقار :

سيحمل الجندي الكيس
أما أنا فسوف ...

وكان البيت الثاني بذيئاً بذاءة صريحة ، وكانت النبات تغنيه دون
أن تحمر خجلاً ، فتثير في الجمهور حماسة عظيمة . وتقدم أخيراً
تاجر :

سأل التاجر النبات :
أتحبيني ؟ أتحبيني ؟

فأجبهته النبات ، لأن :

التاجر سيحني ثروة كبيرة
ويجعلني أميرة ...

نفذ صبر كالجائوف فصاح يقول بصوت عالٍ :

— هذه أغنية حديثة جداً . ترى من مؤلفها ؟ ليس ينقصها في
الواقع الا متمهدو سكك حديدية ويهود . فلو وجدوا لأحرزوا النصر !

كان كالجائوف كمن أ"هين تقريباً ، وقال فجأة انه ضجر ، واضطجع
على الكتبة فسرعان ما غفا . وهذا وجهه الجميل ، الشاحب شحوباً خفيفاً ،
ينزلق على الوسادة قليلاً .

قالت جروشكا وهى تجذب ميتيا اليها :

- أنظر ما ألطفه ! كنت منذ قليل أسلّى نفسى بملاعبة شعره • ان شعره غزير كيف ، وهو أشبه بخيوط التحرير نعمة ...

ومالت جروشكا على كالجانوف فى حنان ، وقبلت جبينه • ففتح كالجانوف عينيه فجأة ، ونظر اليها ، ثم نهض نصف نهوض ، وسألها وقد بدا عليه اشغال البال :

- أين ذهب ماكسيموف ؟

فقالت جروشكا ضاحكة :

- انظروا عمن يسأل • ماكسيموف هو الذى يعوزه ! هلاً بقيت معى بضع لحظات ! يا ميتيا ، ابحث له عن ماكسيموف وجئه به •

كان ماكسيموف قد أصبح لا يترك البنات ، ولا يبعد عنهن من حين الى حين الا ليصب قدحاً من الخمر • وقد شرب أيضاً فنجائين من الشوكولاتة • وتلوّن خداه ، واصطبغ أنفه بحمرة قانية ، بينما عيناه المخضلتان الرطبتان تنظران حوله فى عاطفه وحنان • وسرعان ما مرع ماكسيموف يعلن أنه سيرقص رقصة «صانعة القباقيب» على « لحن موسيقى معروف » • وقال شارحاً :

- لقد علمونى فى طفولتى هذه الرقصات الراقية الرفيعة •

فهتف كالجانوف يقول ، مبعداً الفرصة التى عرضتها له جروشكا وهى أن ينفرد بها :

- سأمضى أنا أيضاً • اننى أريد أن اراه عن كثب حتماً •

وتبعوا ماكسيموف • وعرض ماكسيموف رقصته ، فلم تثر حماسة

أحد الا مينا • هي رقصه فوامها ففزات وتلويّات ، ورفع السيقان الى فوق
وجعل النعال عاليه في الهواء ، فكان ماكسيموف يقرع نعله بيده في كل
مرة •

مطّ كالجنانوف سفتيه اسنياء ، ولكن ميتيا وثب لى عنق الرافص
قائلاً له :

- شكرآ لك يا صاحبي الطيب الشهم • يخيّل الى أنك نعبت •
أأنت تنظر الى السكّاكر ؟ أأريد واحدة ؟ أم لعلك تحب أن تدخن
سيجارآ ؟

- بل سيجارة •

- ألا تريد أن تشرب شيئآ ؟

- شربت خموراً • أليس عندكم سكاكر بالشوكولاتة ؟

- ما أكر ما عندنا منها على المائدة • اختر ما يحلو لك يا حمامتى !

- لا هذه ، أريدها سكاكر بالونيلة ••• أريد سكاكر الشيوخ
العجائز تلك ! هيء هيء ! •••

- ليس عندنا منها يا أخى !

ومال العجوز القصير فجأة على أذن ميتيا فسأله موشوشآ :

- قل لى : أما من سبيل ••• أليس هناك وسيلة ••• أنظر الى هذه

البنية ، الى مارى اللطيفة هذه ، هيء هيء ، كم أود لو أتعرف عليها ••
إذا كنت ترى ، بما لك من شهامة وأريحية ، أن الأمر ممكن •••

- أوه ! أوه ! أرجو أن تكون هازلاً لا جاداً !

- لا أريد بها شراً

كذلك دمدم يقول ماكسيموف مفتحاً • فقال له ميتيا :

- طيب ... طيب ... هذا يا أخى غشاء ورقص ، ولكن ذلك هو كل شيء • على كل حال ... اذا كنت تحرص هذا الحرص كله ... عجب ! عليك قبل كل شيء أن تأكل وتشرب وتمرح • أملك فى حاجة الى مال ؟

أجابه ماكسيموف مبتسماً :

- ربما احتاج الى شيء من المال • فيما بعد •

- طيب ...

كان رأس ميتيا ناراً مشتعلة • خرج الى الدهليز وصعد الى الرواق الذى يمتد على جزء من المبنى من جهة الفناء • أحسن اليه الهواء الطرى • توقف فى ركن مظلم ، واذ أحس أنه وحيد ، أخذ يفكر • فما هى الا بضعة لحظات ، حتى وضع رأسه بين يديه فجأة • ان خواطره المتفرقة المتبعثرة ، وان احساساته الغامضة المبهمة ، قد اتحدت الآن وترتبت وتوضحت ، فخرج منها على حين فجأة ضياء رهيب ! تساءل : « اذا كنت أريد أن أطلق رصاصة فى رأسى ، فلماذا لا أفعل ذلك حالا ؟ أمضى فأجىء بمسدسى وأنهى الأمر فى هذا المكان نفسه ، فى هذا الركن المظلم القذر ذاته ؟ » ولبث يتردد دقيقة طويلة • انه منذ ساعات قليلة ، حين كانت عربة الترويكاتقله الى موكرويه ، كان قد خلف وراءه عاراً هو عار السرقة وسفك الدم ... ولكن ما كان أسهل اتخاذ القرار الوحيد الممكن حينذاك ! لقد كان اتخاذ هذا القرار اسهل منه الآن ، أسهل كثيراً ! كل شيء كان يبدو عندئذ ضائعاً : كان قد فقد تلك المرأة ، قد تنازل عنها ... أصبحت لا وجود لها • وكان تنفيذ الحكم الذى أصدره على نفسه حيناً يسيراً • لقد خضع لذلك الحكم خضوعه لقدرة لا راد له ،

لقضاء أعلى لا اعتراض عليه • ما كان حاجته الى البقاء حياً بعد أن وقع ما وقع ؟ لم يكن قد بقى شيء يشده الى هذا العالم ويربطه به • أما الآن فقد اختلفت الحال • ان احدى حلقات القدر ، ان أحد أشباح الخوف ، قد تبدد الآن دخاناً ! ان صديقها القديم الذى لا يمكن جحوده أو التكر له ، قد اختفى دون أن يخلف أثراً ! ان ذلك الشيخ المرعب قد استحال ظلاً تافهاً مضحكاً • لقد أخرج من الغرفة كطفل ، وأفضل عليه الباب بالمفتاح ! انها تشعر بالعار من هذا الرجل ؛ وقد استطاع ميتاً أن يقرأ فى عينها من ذا تحب فى الواقع • الآن انما يمكن أن تكون الحياة جميلة ، جميلة جداً ••• ولكن الحياة مستحيلة بعد أن وقع ما وقع ، مستحيلة ! يا لها من لعنة ! « اللهم ردّ الحياة الى ذلك الذى صرعه قرب السور ! اللهم اجعل الكارثة تمر قريبي دون أن تمسنى ! اللهم انك قد صنعت معجزات للناس غيرى كانوا مذنبين مثلى ، فهب لى من لدنك معجزة من تلك المعجزات ! ••• ولكن ماذا اذا كان العجوز لم يموت ! لأمحوّن عندئذ عار الائم الآخر ، فأرد المال المسروق ، أعيده الى صاحبه ، ولو اضطررت أن أمضى باحثاً عن المال تحت الأرض ••• لن يبقى عندئذ أثر من آثار ذلك العار ••• الا فى قرارة قلبى حيث سيعيش الى الأبد • لا ، لا ، هذا مستحيل • هذه أحلام جبان ، أحلام لا سبيل الى تحقيقها • يا للعذاب ! ••

ومع ذلك ساوره شعاع من أمل بعد هذه الأفكار ، شعاع ضعيف فى ظلام الليل • انتزع نفسه من تأمله القائم ، وأسرع ينزل الى غرف الطابق الأرضى ، اسرع اليها من جديد ، الى تلك التى تحكم قلبه الى الأبد • تساءل : « ألا تساوى ساعة واحدة من حبها ، ألا تساوى دقيقة واحدة من حبها حياةً بأكملها ، ولو كان ثمنها عذاباً وعاراً • » استولت هذه الفكرة على ميتا ، وطردت من نفسه سائر الهموم والمشاكل • قال

يحدث نفسه : « أراها ، أراها أيضاً ، أسمعها ، أنقطع عن التفكير في أى شيء ، أنسى كل ماعداها ، ولو ليلة واحدة ، دقيقة واحدة ! » . وفيما كان ينزل من الشرفة لمح تريفون بوربستش عند مدخل الدهليز . كان تريفون بوربستش حزين الهيئة منزعجاً ، وبدا لميتيا أنه كان يبحث عنه .

— أتبحث عني أنا يا تريفون بوربستش ؟

فأسرع صاحب المنزل يجيبه :

— لا . . . لا أنت . . . ثم علام أبحث عنك ؟ ولكن . . . أين كنت ؟

— مالى أراك مظلم الوجه ؟ أتراك غاضباً ؟ اصبر علينا قليلاً ، وسندعك تنام هادئ البال . كم الساعة الآن ؟

— هي الثالثة أو تزيد .

— سننصرف .

— لا ، لا . . . فى وسعكم أن تبقىوا ما شئتم أن تبقىوا . . .

تساءل ميتيا وهو يسرع الى القاعة التى كانت ترقص فيها البنات : « ما ذا حدث له ؟ » . ولكن جروشنكا لم تكن هناك . لا ولا كانت فى الغرفة الزرقاء . وكان كالجنانوف ينام على الكنبه نوماً هادئاً . ألقى ميتيا عندئذ نظرة خلف الستائر ، فإذا هو يجدها هناك . كانت جالسة فى ركن ، على صندوق ، مسندة رأسها ويديها الى حافة السرير ، تبكي بكاءً مرّاً ، محاولة أن تخنق نحيبها ، جاهدة أن لا ينفجر انتحابها وأن لا تلفت الانتباه اليها . لمحت ميتيا ، فأومأت اليه أن يقترب ، وأمسكت يده ، فضغطتها بيدها ضغطاً قوياً . وقالت هامسة :

- أوه ! ميتيا ، ميتيا ، لقد أحبت هذا الرجل مع ذلك ! أحبيته كثيراً خلال هذه السنين الخمس ! ترى أحبيته أم كنت أحب حقدى ؟ لا بل أحبيته هو ! أوه ! نعم ، هو ، هو ! أكذب اذا زعمت اننى ما أحبت الا حقدى ! أواه يا ميتيا ! لم يكن عمري حينذاك الا سبعة عشر عاما ، وكان يُظهر لى كيرا من اللطف والأنس والوداعة ، وكان يغنى لى أغنيات ... أم تراه لم يظهر لى فتاناً الى ذلك الحد الا لأننى كنت غيبة ، لا لأننى كنت طفلة غرة ؟ ... أما اليوم ... رباه ! انه ليس هو ، انه ليس ذلك الرجل نفسه ! لقد تغير وجهه أبضاً ، فهو لا يشبهه البتة . أنكرته حين رأته أول وهلة . لقد كنت أساءل طوال الطريق ، وأنا آتية الى هنا مع تيموتى : « كيف أتصرف حين ألقاه ؟ ماذا أقول له ؟ كيف ينظر كل منا الى الآخر ؟ ... » . وانهارت نفسى ... لقد صب على رأسى سطلاً من فاذورات . تكلم كما يتكلم معلم مدرسته . اتخذ أوضاع التعالم ، واصطنع هيئة لوفار ، فأرتج على وخرست ! لم يتح لى أن أقول كلمة واحدة . حسبت فى البداية أن وجود ذلك البولندى الطويل يخرجه . كنت جالسة هناك ، أمامه ، أساءل لماذا أصبحت على حين فجأة لا أجد كلمة أقولها له . ان زوجته ، ان تلك المرأة الأخرى هى التى أثرت فيه تأثيراً سيئاً ... تلك المرأة التى من أجلها تركنى ثم تزوجها بعد ذلك ... لقد بدلته تبديلاً كاملاً ... يا للعار يا ميتيا ! انى لأشعر الآن بالعار من حياتى كلها ! لعنت تلك السنوات الخمس ، الى الأبد .

وتدفقت دموعها من جديد ، ولكنها لم تترك يد ميتيا ، بل ضغطتها فى يدها مزيداً من الضغط .

- ميتيا ، حمامتى ، لا تذهب ، انتظر لحظة (ثم دمدمت تقول وهى ترفع اليه بصرها) سأقول لك كلمة صغيرة . اسمع . قل لى أنت : من

هو الرجل الذى أحبه ؟ أنتى أحب رجلاً هنا • فمن هو ذلك الرجل ؟
قل لى هذا أنت !

وأضاءت ابتسامة فى وجهها المحتقن من الدموع ، والتمعت عيناها
فى الظلام • وتابعت تقول :

— منذ قليل دخل صقر ، فتوقف قلبى عن الخفقان • وقال لى
قلبى : « أيتها الغيبة ، هذا هو ، هذا هو الرجل الذى تحبين ! » لقد
دخلت أنت فأنضح لى كل شىء على حين فجأة • تساءلت : « ولكن ممّ
هو خائف ؟ » • ذلك أنك كنت خائفاً ، وقد بلغت من الخوف أنك لم
تستطع حتى أن تتكلم • قلت فى سرى : « ليس خائفاً منهم مع ذلك » •
أنت لا يمكن أن ترتجف أمام شخص آخر ، اننى أعرف ذلك حق
المعرفة • وقلت لنفسى عندئذ : « انه خائف منى ، منى أنا وحدى » ؛
اذ لا شك أن فينيا قد روت لك — أليس كذلك أيها الأحمق ؟ — كيف
أننى هتفت أقول لأليوشا ، من النافذة ، اننى قد أحبيت ميتكا مدة ساعة ،
واننى ذاهبة الآن • • • • • لأحب رجلاً آخر ! أوه ! ميتيا ، ميتيا ، كيف
أمكننى أن أصدق أننى أستطيع أن أحب رجلاً آخر بعدك ؟ ما كان
أغبانى ! اغفر لى يا ميتيا ؟ هل ستغفر لى ؟ هل تحببى ؟ هل تحببى ؟

نهضت جروشنكا بهمة وقوة ، ووضعت يديها على كتفيه • أصبح
ميتيا أخرس من فرط السعادة ، فكان لا يزيد على أن ينظر الى عينيها ،
ووجهها ، وابتسامتها • • • • • ثم عانقها فجأة وغمرها بالقبلات •

— هل ستغفر لى أننى عذبتك ؟ لقد عذبتكم جميعا ، من فرط
غضبى وحسرتى ! وبدافع الشر وحده جعلت العجوز مجنوناً بحبى • • •
هل تتذكر كيف حطمت فى بيتى قدحاً ، فى ذات يوم ، بعد أن شربت ؟
لقد تعلمت أنا هذه الحركة ، فحطمت اليوم قدحاً وأنا أشرب « نخب

قلبي الجبان ! • • ميتيا ، صقري ، لماذا لا تقبلني ؟ لقد قبلتني مرة ثم
أمسكت • انك تنظر الى • • وتصفي الى • • ما قيمة الاصغاء الى ؟
قبلني ، بمزيد من القوة ، بمزيد من القوة ، هكذا ، ما دمت تحبني ! • • •
لأكون بعد اليوم عبدة لك ، مدى الحياة ! ما أحلى أن أكون عبدة • • •
قبلني أيضا ! اضربي ! عذبي ! افعل بي ما شئت • • • لأنني أستحق
أن تعذبي • • • لا • • • انتظر ! نؤجل هذا ! لا أريد الآن •

قالت له ذلك ودفعته عنها فجأة • وأردفت تقول :

— اذهب يا ميتيا ، سأشرب الآن خمرا ، أريد أن أسكر
وسأرقص بعد ذلك ، أريد هذا ، أريد هذا !

وتخلصت من عناقه وغابت وراء الستائر • تبعها ميتيا • كان
كالسكران • « ما قيمة ما سيحدث فيما بعد ، ما قيمة ما سيحدث فيما بعد ؟
لدقيقة كهذه الدقيقة خير من الكون كله » • بهذا حدث ميتيا نفسه •
شربت جروشكا كأسا أخرى من الشمبانيا سرعان ما صعدت الى رأسها •
جلست على المقعد ، في مكانها السابق ، وهي تبسم ابتسامة غبطة وهناءة
وسعادة • احمرَّت خداه ، احترقت شفاتها ، اضطرب نظرها • وفي
عينها الساطعتين ، كان يُقرأ نداء محموم جامع • كالجانوف نفسه
اضطرب من ذلك ، كأن شيئا قد لسع قلبه ، فاقترب منها • سأله :

— هل أحسست بالقبلة التي وهبتها لك حين كنت نائما • أوه !
أحس أني سكري • • • وأنت ؟ ألم تسكر ؟ لماذا لا يشرب ميتيا ؟ ميتيا ،
يجب أن تشرب ! أنا شربت وأنت لا تشرب •

— أنا ؟ أنا سكران بغير شراب • سكران بك • • • ولكنني أريد
أن أسكر بالخمير أيضا •

وأفرغ ميتيا فى جوفه كأساً آخر ، فاذا بهذه الكأس الأخيرة تفجّر السكر فيه دفعةً واحدة ، على حين أن الكتوس السابقه لم تحدث أثراً ... شىء غريب ! أخذ كل شىء يدور فى رأسه منذ تلك اللحظة ، فكأنه فى حالة هذيان • انه الآن يعشى ، ويضحك ، ويكلم كل من يلقاه ، خارجاً عن طوره • وفى بعض اللحظات كانت تستيقظ فى قلبه عاطفة حارة ثابتة « تحرقه حرقاً كجمره » كما قال فيما بعد • وكان يقترب من جروشنىكا ، ويجلس الى جانبها ، وينظر اليها ، ويسمع لكلامها ... أما جروشنىكا فقد أصبحت تندفق فى هذرها تدفقاً رهيباً ؛ وهى تنادى الناس اليها ، وتستدعى بنتاً من بنات الجوقة ، حتى اذا دنت البنت منها أخذت تقبلها أو رسمت عليها اشارة الصليب ، حتى لتوشك أن تجهش باكية • وكان يفرحها ويضحكها « العجوز الصغير » خاصةً (هكذا كانت تسمى ماكسيموف) • انه يهرع اليها فى كل لحظة ليقبّل يدها ، لاثماً كل اصبع من « أصابعها الصغيرة العزيزة » ، واحدةً بعد أخرى • وانتهى به الأمر الى أن أخذ يرقص من جديد على لحن قديم دندنه بصوته • وقد رقص بحماسة خاصة على اللازمة التى كانت تتكرر :

الخنزير الصغير ، كرىو - كرىو

العجل الصغير ، مو - مو

البطة الصغيرة ، قوا - قوا

الأوزة الصغيرة ، جا - جا

والدجاجة الصغيرة تركن فى الغرفة

منادية صفارها : تيورىو - ريو - ريو

قالت جروشنىكا :

— هلاً أعطته شيئاً يا ميتيا ! اهد اليه هدية • انه فقير • أوه ! ربا!

يا لهؤلاء الأنقياء جميعاً ، يالهؤلاء المذللين جميعاً ! ... هل تعلم يا ميتيا ؟
أريد أن أدخل الدير ! بلى ! بلى ! سأدخل الدير ذات يوم . لقد كلمنى
اليوم أليوشا بطريقة لن أنساها ما حييت ، لن أنساها ما حييت . أما الآن
فلنمرح ! اليوم سرور وغداً دير ! أود أن أقوم بأعمال جنونية ! ولسوف
يفخر لى الرب . أى خير فى أن تتسلى أيها الناس الطيبون ؟ لو كنت أنا
الله ، اذن لغفرت لجميع الناس ، ولقلت لهم : « يا أعزائى الخاطئين ، قد
عموت عنكم منذ اليوم . » . ولسوف أمضى أطلب الغفران من الجميع
قائلة لهم : « أيها الناس الطيبون ، اغفروا لامرأة مسكينة حمقاء غبية ! » .
ذلك ما سأقوله لهم . أنا وحش مقترس نعم . ولكننى أريد أن أصلى .
لقد وهبت بصلة أنا أيضاً . اننى ، أنا الشقية ، أريد أن أصلى ! دعهم
يرقصون يا ميتيا ، لا تعكر سعادتهم ! جميع الناس طيبون ، جميعهم بغير
استثناء ! آه ! ما أحلى أن يحيا المرء فى هذا العالم ! نحن سريرون ، ولكن
الحياة جميلة جداً ... فينا الخير والشر ، الخير والشر فى آن واحد ...
قولوا لى أنتم جميعاً ! يجب أن أسألكم هذا السؤال ! اقتربوا وقولوا لى :
لماذا أنا طيبة الى هذه الدرجة ؟ اننى طيبة فعلاً ، فقولوا لى ، اشرحوا لى :
لماذا أنا طيبة الى هذه الدرجة ؟

بهذا الكلام كانت تدمدم جروشكا ، مغرقة فى الهذر المضطرب
مزيداً من الاغراق شيئاً بعد شيء ، الى أن أعلنت أخيراً أنها تريد أن
ترقص هى نفسها ، ونهضت عن كرسيها مترنحة .

— ميتيا ، امنعنى من أن أشرب أكثر مما شربت . اذا طلبت حمراً
فلا تعطينى ! بحمل الكحول الى النفس السكينة والهدوء . ان كل شيء
يندور الآن أمامى ، الغرفة والمدفأة ! أريد أن أرقص ... فليُنظر الى
الجميع ، وليعجبوا برقصى ...

كان هذا من جروشكا عزماً أكبداً وقراراً حاسماً . أخرجت

منديلاً أبيض من نسيج ناعم رقيق ، وأمسكته من أحد أطرافه بيسدها
اليمنى لتلوح به أثناء الرقص • تحرك ميتيا هنا وهناك • صمت البنات ،
وتهيان لأن يصدحن بلحن يرافق الرقص جوقة واحدة عند أول إشارة •
وحين علم ماكسيموف بأن جروشكا سترقص ، راح يطلق صرخات
متتابعة من فرط حماسه ، وأخذ يتوالب أمامها ، وطفق يندندن :

ساقاها دقيقتان ووركها مدوران

ولكن ذيلها كالبوبق

أبعدته جروشكا عنها بحركة من منديلها ، قائلة :

— شت ! لماذا لا يجيئون يا ميتيا ؟ فليهرعوا جميعاً ••• لرؤيتي •••
ونادهما هما أيضاً ، ناد المحبوسين ••• لماذا حبستهما ؟ قل لهما اننى
أريد أن أرقص • فليجيئا هما أيضاً ، ليعجبا لى !

اتجه ميتيا نحو الباب المقفل بالفتاح ، مترنح الخطى من السكر ،
وأخذ يقرع الباب بقبضة يده ليلفت انتباه البولنديين •

— هيه ! أنتما ••• اخرجا ••• انها سترقص وهى تناديكما •

فصاح أحد « السيدين » البولنديين يجيبه بالبولندية :

— لا جداك (شقى) !

فأجابه ميتيا :

— وما أنت الا « لا جداك » حقير صغير ••• ذلك أنت !

قال كالجائوف وقد ثمل هو أيضاً ، قال بلهجة تتكلف الوقار :

— هلا كففتكم عن اهانة بولندية ؟

— اسكت ايها الفتى الصغير ! اننى اذ وصفته بأنه شقى ، لم أهن

بولنده كلها • ليس مختال " تافه كل بولنده • صمتاً أيها الطفل اللطيف ،
لسوف أعطيك ملبسة •

قالت جروشنكا مدهوشة وهي تنقدم الى أمام لترقص :

- يا للأشرار ! أليس فيهم شيء من انسانية ؟ لماذا يرفضون أن
يتصالحوا ؟

غنت الجوقة لحناً شعبياً • رفعت جروشنكا رأسها ، وفتحت شفيتها ،
وابتسمت ، ولوحت بمنديلها ، ثم توقفت فجأة وهي تتمايل تمايلاً قوياً
في وسط الغرفة ، وتشعر بارتباك شديد • وأنت تقول بصوت أليم :
- أحس بوهن • معذرة • اننى ضعيفة جداً ••• لا أستطيع •••
أوه ••• هى غلطتى •

وحيث الجوقة ، ثم حيث جميع الحضور وهى تلتفت الى جهات
الغرفة الأربع جهة بعد جهة ، وتردد قولها :

- لا تؤاخذونى ••• لا تؤاخذونى !

قالت بعض الأصوات فى الجمهور :

- أسرفت فى الشراب ، السيدة الشابة ! ••• هى سكرى ، السيدة
اللطيفة •••

وقال ماكسيموف يشرح للبنات ضاحكاً :

- السيدة ثملة قليلاً •

ودمدت جروشنكا تقول بصوت منطفى :

- ميتا ••• خذنى من هنا ••• انقلنى من هنا •

فهرع ميتيا اليها ، فتناولها بذراعيه ، وأسرع يركض بحمله الثمين الى ما وراء الستائر • قال كالجنانوف لنفسه : « فى هذه المرة ، آن أوان الانصراف » ، وغادر الغرفة الزرقاء مغلقاً الباب وراءه • وتتابع الاحتفال بصخب ما ينفك يشتد • وضع ميتيا صاحبتة جروشكا على السرير ، وقبلها قبلة محمومة على الفم • دمدمت تقول بصوت ضارع :

— لا تلمسنى ، لا تلمسنى ، أنا لست لك بعد ... قلت اننى سأكون لك ، ولكن لا تلمسنى ... ارحمنى ، اشفق علىّ ... لا تفعل شيئاً الآن ، بينما هم لا يزالون هنا • ما ينبغي هذا ... انه هناك ، على بعد خطوتين ... أوه ! هذا فطيع هنا ••

قال ميتيا متعترأ فى كلامه :

— اننى أطيعك ... لم يخطر ببالى هذا ... أنا أمامك فى نشوة ووجد • نعم ، هذا فطيع هنا • يا للمكان الموبوء !

ودون أن يدع عناقها ، تهالك على قدميه ، قرب السرير •

قالت جروشكا بصوت رخو :

— أنا واثقة بك • أعرف أنك متوحش ، ولكن نفسك نبيلة • يجب أن يعجز كل شىء بشرف بعد الآن ... أريد أن يكون كل شىء طاهراً ... وأن نكون سرفاء أيضاً ... لا بهائم ، بل بشراً طيبين انقياء طاهرين ... خذنى الى مكان بعيد ، بعيد جداً عن هنا ، هل تسمع ؟ لا أريد بعد الآن أن أعيش هنا ... أريد أن أسافر الى مكان بعيد ... بعيد جداً •

قال ميتيا مؤيداً وهو يشدها الى قلبه :

— نعم ، سنسافر ... سأخذك ... سأطير بك ! ... اننى مستعد

لأن أهب حياتي كلها في سبيل سنة واحدة من سعادة ، شريطه أن أعلم
ماذا جرى لذلك الدم ...

سألته جروشنكا مندهشة :

- أى دم ؟

فأجابها ميتيا وهو يصرف بأسنانه :

- لا شئ ... انك تريدان يا جروشنكا أن تكون شرفاء ، ولكننى
أنا لص . لقد سرقت مال كاتنكا ! ... يا للعار ! ... يا للعار !

- كاتنكا ؟ الآس ؟ لا ... لم تسرق شيئاً ! ردّ اليها مالها . خذ
مالى أنا ... ما بك ؟ ان كل ما أملكه أنا هو الآن لك . ما حاجتنا الى
المال ؟ سوف نبدده على كل حال فى القصف واللهو . ان أمثالنا
لا يحسنون الاحتفاظ بالمال . اننى لأؤثر أن نحرث الأرض معاً . أريد أنا
أن أعمل فى الأرض بهاتين اليدين اللتين تراهما . ان من واجبنا أن
نعمل ، هل تسمع ؟ أليوشا هو الذى شرح لى ذلك . لن أكون خليلتك ،
بل خليلتك ، زوجتك الوفية ، عبدتك لمخلصه ... سأعبد وأجهد فى
سبيلك ... سوف نذهب الى الآسة ، فنحنى لها بتحية عظيمة حتى
تغفر لنا قبل رحيلنا . واذا لم تغفر ، فسرحل مع ذلك . أما المال فسترده
البها . ان عليك أن تحبنى أنا ... لا أريد أن تحبها هى ! ...
اننى أمنعك من أن تحبها ... والا فلاخفئها ... لأفئان عينيها بآبرة
طويلة ...

- أنت من أحب ، أنت وحدك ، وسأظل أحبك من آخر سييريا . *

- لماذا تتكلم عن سييريا ؟ لا بأس ! سنسافر الى سييريا اذا كنت
ترغب فى ذلك ... ان فى وسعنا أن نعمل هناك كما فى أى مكان آخر

... ان فى تلك البلاد ثلجاً كثيراً ... وأنا أعشق الثلج ، وأعشق
الزلاجات التى تنزلق عليه سريعه مجلجلة أجراسها • هل تسمع ؟ لكأن
جرساً يرن فى مكان ما • من أين يأتى رنين هذا الجرس ... لا شك
أنهم مسافرون قد وصلوا الى المنزل ... انقطع الصوت الآن •

وأغمضت جروشنكا عينيها ، متعبة الى أقصى حدود التعب ، وغفت
بضع لحظات • كن جرس قد رنّ فعلاً فى بعيد ثم صمت • مال ميتيا
برأسه على صدر جروشنكا • لم يكن قد انتبه الى صوت الجرس والى
انقطاع رنينه فجأة ؟ لا ولا لاحظ أن الأغاني قد توقفت وأن الصخب
الذى كان يسيطر على المنزل حتى ذلك الحين قد حلّ محله فجأة صمت
كصمت الموت • وفتحت جروشنكا عينيها بعد دقيقة • قالت :

— ماذا يجرى ؟ أنا نمت ؟ نعم ... ذلك الجرس ... لقد نمت
وحلمت بأننى محمولة على زلاجة فوق الثلج ... كان الجرس يرن ،
وكنت أنا نائمة • كنت راكبة عربة ترويكما ، مع رجل عزيز فى قلبى ،
معك أنت • وكنا ذاهبين الى مكان بعيد ، بعيد جداً ... وكنت أقبلك ،
وأشد جسمى الى جسمك ، لأننى كنت أحس ببرد فيما يبدو ... وكان
الثلج يسقط ... ما كان أعجبه من احساس ! الثلج الباهر ، وضياء
القمر ... لكأن ذلك لم يكن على الأرض ... واستيقظت ، فاذا أنا
أراك ، يا حبيبى ، قريباً منى ... ما أحلى هذا ! ...

ردّد ميتيا كلامها قائلاً وهو يلثم ثوبها ، وعنقها :

— نعم ، قريباً منك كل القرب •

وأحس فجأة باحساس غريب : خيّل اليه أنها تنظر الى أمامه ،
ولكن عينيها بدلاً من أن تستريحاً على وجهه ، تتطلعان الى ما وراء رأسه ،

فى جمود عجب • عبرت قسما جرشنا عن الدهشة أولاً ، ثم عن
الخوف •

ودمدت تقول :

- ميتيا ! من ذا يرقبنا من وراء الستائر ؟
التفت ميتيا فاذا هو يلوح شخصاً يبدو أنه يرصدهما مبعداً الستائر ؛
حتى لقد أحس أن هناك عدة أشخاص يقفون هناك • فنهض من مكانه
بسرعة وقوة ، واتجه نحو ذلك الشخص الفضولى • فاذا هو يسمع صوتاً
يقول :

- هل تفضل فتجىء الى هنا يا سيد •

كان المذاى المجهول يتكلم بصوت مخفوض ولكنه جازم قاطع •
خرج ميتيا من وراء الستائر ، فاذا هو يتجمد فى مكانه • كانت
القاعة ملاء بالناس ، ولكن هؤلاء الناس ليسوا أولئك الذين كانوا يلهون
ويقصفون منذ قليل • لقد احتل الغرفة أشخاص جدد • شعر ميتيا برعدة
تسرى فى ظهره كله • ان ميتيا يعرف هؤلاء الأشخاص جميعاً ، وها هو
ذا يتعرفهم الآن دفعة واحدة • ان الرجل المعجوز السمين الطويل الذى
يرتدى معطفاً ويضع على رأسه قبعة ذات ترس وشارات ، هو رئيس
الشرطة ميشيل ماكروفتش • وهذا الشاب الذى يوحى مظهره بأنه
مصدور والذى يتأنق فى ملبسه تأنقاً عظيماً ويلتصع حذاؤه دائماً انما هو
وكيل النيابة • « انه يملك ساعة من ذهب قيمتها أربعمئة روبل • لقد
أرانيها فى ذات يوم لأعجب بها » • أما ذلك الشاب الآخر القصير القامة
الذى يضع على عينيه نظارتين ••• فلم يتذكر ميتيا اسمه ، ولكنه يعرفه
أيضاً وقد سبق أن رآه : انه قاضى التحقيق الذى تخرج من « مدرسة
الحقوق » منذ مدة غير طويلة • وهذا موظف الشرطة موريس ماكريفتش

الذى يعرفه ميتيا منذ زمن بعيد • ولكن ماذا جاء يفعل هنا هؤلاء الرجال الآخرون الذين يحملون على صدورهم صفائح معدنية * ؟ وهذان الفلاحان ؟ •• وبعد هؤلاء جميعاً ، لمح ميتيا ، عند فرجة باب المدخل ، كالجائوف وتريفون بوريسشس •••

قال ميتيا :

— ماذا أيها السادة ؟ ماذا جرى ؟

ولكنه لم يلبث أن هتف يقول فجأة بملء صوته ، كأنما تدفعه الى ذلك قوة سبيل الى مقاومتها :

— ف ••••• همت !

تقدم الشاب ذو النظارتين من ميتيا وقال له بصوت وقور وبشيء من السرعة :

— كنا نريد ••• الخلاصة ••• أرجوك أن تجلس هنا ، على الكنية ••• ان علينا أن نلقى عليك بعض الأسئلة •
قال ميتيا خارجاً عن طوره :

— المعجوز ••• والدم المسفوح ••• ف ••••• همت !

و كأنما انهارت قواه على حين فجأة ، فتهالك على كرسيه كان هناك •

فاذا برئيس الشرطة المعجوز يزار فجأة وهو يقترب من ميتيا :

— آ ••• فهمت ؟ فهمت ؟ يا فاتل أبيه ! أيها الشيطان ! ان دم أبليك يتهمك !

كان رئيس الشرطة أحمر الوجه من شدة الغضب ، وكان جسمه كله يرتجف •

فصاح الشاب القصير القامة :

- ولكن هذا طيش يا ميشيل ماكاروفتش • يجب أن أكون أنا أول المتكلمين ••• ما كنت أتوقع منك سلوكا كهذا السلوك •
فاستأنف رئيس الشرطة كلامه قائلا :

- هذا هديان ••• هذا مشهد هديان • انظروا اليه ••• تخرج بدم أبيه ثم هو يقضى السهرة لاهيا عابثا ماجئا في صحبة بنت من بنات الهوى ••• هذا هديان ، هذا هديان •••

أسرع وكيل النيابة يهمس في أذن رجل الشرطة العجوز قائلا :
- أرجوك وألح في الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزي ميشيل ماكاروفتش ، الا اضطرت أن أتخذ اجراءات من أجل أن ••
ولكن قاضى التحقيق الصغير لم يدع له أن يتم جملته ، فها هو ذا يتجه الى ميتيا ، ويعلن له بوقار ، وبصوت عال صارم :

- أيها السيد الملازم المتقاعد كارامازوف ، ان من واجبي أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيدور بافلوفتش كارامازوف ، الذى قُتل فى هذه الليلة •••

وأضاف قاضى التحقيق بضع كلمات أيضا • واستأنف وكيل النيابة كلامه بعد ذلك ، فيما ترامى لميتيا ••• ذلك أن ميتيا ، رغم أنه قد جهد أن يصغى ، أصبح لا يفهم شيئا ، وانما هو يتفرس وجوههم مجنون العينين •••

فصاح الشاب القصير القامة :

- ولكن هذا طيش يا ميشيل ماكاروفتش • يجب أن أكون أنا أول المتكلمين ••• ما كنت أتوقع منك سلوكا كهذا السلوك •
فاستأنف رئيس الشرطة كلامه قائلاً :

- هذا هديان ••• هذا مشهد هديان • انظروا اليه ••• تخرج بدم أبيه ثم هو يقضى السهرة لاهياً عابثاً ماجناً فى صحبة بنت من بنات الهوى ••• هذا هديان ، هذا هديان •••

أسرع وكيل النيابة يهمس فى أذن رجل الشرطة العجوز قائلاً :
- أرجوك وألح فى الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزى ميشيل ماكاروفتش ، ، الا اضطرت أن أتخذ اجراءات من أجل أن ••
ولكن قاضى التحقيق الصغير لم يدع له أن يتم جملته ، فها هو ذا يتجه الى ميتيا ، ويعلن له بوقار ، وبصوت عال صارم :

- أيها السيد الملازم المتقاعد كارامازوف ، ان من واجبي أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيدور بافلوفتش كارامازوف ، الذى قُتل فى هذه الليلة •••

وأضاف قاضى التحقيق بضع كلمات أيضاً . واستأنف وكيل النيابة كلامه بعد ذلك ، فيما ترامى لميتيا ••• ذلك أن ميتيا ، رغم أنه قد جهد أن يصغى ، أصبح لا يفهم شيئاً ، وانما هو يتفرس وجوههم مجنون العينين •••

الباب التاسع: الحق قين القميرى

١

البرايات الموفقة للموظف برخوتين



بطرس ايلتش برخوتين الذى تركناه بطرق
طسرات ما تنفك تزداد وتقوى ، على الباب
السميك من منزل آل موروسوف ، قد توصل
لبعا الى أن يحملهم على أن يفتحوا له . وحين
سمعت فينيا هذا الصخب أمام باب الدخول ، وكانت لما نفق بعد من الذعر
الذى أصابها قبل ساعتين ، ولا عزمت أمرها على أن تنام ، من سدة
اضطرابها ، حين سمعت فينيا هذا الصخب اسنبد بها هلع قاتل مرة
أخرى : ذلك أنها ظنت أن دمترى فيدوروفتش قد عاد (رغم أنها رآته
يسافر على عربته ترويك) . لقد قالت فينيا لمسيها : « أى انسان غيره
يمكن أن يطرق الباب بمنزل هذا العنف ؟ » . وهرعت الى البواب الذى
أيقظته الضجة وهم أن يفتح الباب ، فنوسلت اليه أن لا يسمح لأحد
بالدخول . ومع ذلك سأل البواب الطارق عن اسمه من خلال الباب ،
فلما عرف صفته ، وعرف أنه يريد أن يكلم فيدوسيا ماركوفنا فى أمر هام
جدا ، قرر أن يفتح له .

مضى بطرس ايلتش رأساً الى المطبخ ليرى فينيا التى أصرّت ، من
باب الحفاظ على الشكل ، أن يحضر البواب المقابله . أخذ الموظف يلقى
الأسئلة على المرأة ، فسرعان ما وقع على أمره أساسى : هو أن دمترى

فيدوروفتش حين مضى يسعى الى جروشنكا قد أخذ مدقّ الهاون ، وأنه رجع بعد ذلك دامى اليدين ولم يكن المدق معه •

ـ كان الدم يسيل ويتساقط فطرات كبيرة على الأرض •

كذلك هتفت تقول فينيا التى اخترع خيالها المضطرب هذا الوصف التفصيلي الرهيب اختراعاً على غير شعور منها • وكان بطرس ايلتش قد رأى الدم فى يدي ميتاً بنفسه على كل حال ، وان لم يكن يسيل ، وقد ساعده على غسل يديه • ولم يكن يهمّ بطرس ايلتش أن يتساءل على كل حال : أجفّ الدم بسرعة أم لا ، وانما كان يهمه أن يعرف : ماذا فعل دمترى فيدوروفتش بمدق الهاون هذا ، والى عند من ذهب ؟ هل يمكن أن يُستدل من ذلك على وجه اليقين أنه ذهب الى منزل أبيه ، وعلى أى شيء يستند هذا الاستدلال ؟ لذلك ألحّ بطرس ايلتش على هذه النقطة الحاحاً خاصاً ؛ ثم انتهى الى الاقتناع التام ، رغم أن فينيا لم تقدم اليه أية قرينة واضحة دقيقة ، بأن دمترى فيدوروفتش لا يمكن أن يكون قد ذهب الا الى منزل أبيه وأن « شيئاً ما » لا بد أن يكون قد حدث هنالك حتماً •

أضافت فينيا تقول متأثرةً أشد التأثر :

ـ حين رجع ، قصصت عليه كل شيء ، ثم سألته بعد ذلك لماذا أرى يديه داميتين ، فأجاب بأن هذا دم انساني ، وبأنه قد قتل انساناً منذ برهة . اعترف لى بذلك فى هذا المكان نفسه ، فى هذا المطبخ ، ثم ولّى هارباً كمجنون . وأخذت أفكر بعد انصرافه : « الى أين يركض هذا الركض ؟ لا شك أنه ينوى أن يسافر الى موكرويه ليقتل مولاتى » ، فاندفعت ألاحقه ، لأتوصل اليه أن لا يسىء الى الأسرة المسكينة ؛ وكنت آمل أن أجده فى مسكنه ، ولكننى لمحتة أمام متجر آل بلوتنيكوف وهو يهمهم أن

يسافر ، وكانت يدها عندئذ نظيفتين (لقد لاحظت فينا هذا الأمر التفصيلي وحفظته) •

وقد أكدت جدة فينا العجوز أقوال حفيدتها على نحو ما استطاعت أن تفعل • وبعد أن ألقى بطرس ايلتش بضعة أسئلة أخرى خرج من المنزل وهو أشد اضطرابا وقلقا مما كان عند وصوله إليه •

ربما بدا أن أبسط شيء الآن هو أن يذهب بطرس ايلتش الى منزل فيدور بافلوفتش مستطلعا هل حدث له شيء ، وأن لا يبلغ رئيس الشرطة الا بعد ذلك ، مستندا الى معلومات ثابتة • وهذا ما خطر ببال بطرس ايلتش في أول الأمر فعلا • ولكن الليل حالك الظلام ، وأبواب منزل كارامازوف لا بد أن تكون سميكة ، فسيكون عليه اذن أن يطرق من جديد ، وأن يحدث ضجة وصخباً ، وهو لا يعرف فيدور بافلوفتش الا قليلا جدا • فما عسى يحدث اذا قيل له ، بعد أن يفتح له الباب ، ان شيئا لم يقع ؟ ان فيدور بافلوفتش الساخر لن يفوته أن يروى للمدية كلها في الغد ، من باب التندر ، أن الموظف برخوتين ، الذي ليس بيه وبينه صلة ولا معرفة ، قد اقتحم منزله عند منتصف الليل ليسأله هل قتل أحد • ليكون هذا فضيحة ! وبطرس ايلتش لا يهرب شيئا في هذا العالم كما يهرب الفضيحة ! غير أن العاطفة التي كانت تدفعه الى العمل والحركة قد بلغت من القوة أنه بعد أن قرع الأرض بقدمه غاضبا وشمتم نفسه ، أسرع يتخذ قرارا جديدا : هو أن يذهب لا الى دار فيدور بافلوفتش بل الى السيدة هوخلاكوفا • سوف يسألها هل صحيح أنها أعطت دمترى فيدوروفتش ثلاثة آلاف روبل منذ بضع ساعات ، فاذا أجابته بالنفي ذهب الى رئيس الشرطة لا يلوى على شيء ولا يمر بمنزل فيدور بافلوفتش ؛ والا أرجأ مساعيه الى الغد ورجع الى بنيه • واضح أن بطرس ايلتش حين يذهب في الساعة الحادية عشرة من الليل الى

سيدة من سيدات المجمع لا يعرفها ، وقد يحملها على النهوض من سريرها ليلقى عليها سؤالا قد يبدو فى مثل هذه الظروف سخيفا مضحكا .
انما يتعرض لاحداث فضيحة أكبر من فضيحة ذهابه الى فيدور بافلوفتش .
غير أن تناقضات من هذا النوع قد يرتكبها ، فى ظروف كهذا الطرف ، أشخاص هم أكثر الناس برودة نفس وروية تفكير . فما بالك وقد فقد بطرس ايلتش فى تلك اللحظة كل برودته وكل رويته ! لسوف يطل يتذكر طوال حياته كيف أن قلقاً لا سبيل الى التغلب عليه قد اجتاح نفسه شيئاً بعد شيء ، ثم استحال أخيراً الى عذاب حاد دفعه فى تلك الليلة الى أن يتحرك ويتدخل ، على غير ارادة منه تقريباً . والحق أنه قد استاء وغضب أثناء الطريق ، وقرّع نفسه على أنه سيزعج هذه السيدة ، ولكنه حلف « ليسيرن » الى آخر الشوط ، مهما كلف الأمر ، ، وردد ذلك عشر مرات وهو يصرف بأسنانه . وقد برأ بيمينه ، فمضى الى آخر الشوط فعلاً .

كانت الساعة هى الحادية عشرة تماماً حين دخل منزل السيدة هوخلاكوفا . لقد فُتح له الباب بغير مشقة ، ولكن البواب لم يستطع أن يقول له على وجه اليقين أرقدت السيدة أم لا ، واكتفى بأن ذكر له أنها تنام عادة فى مثل هذه الساعة . وأضاف يقول له :

— اصعد الى فوق ، وأعلن عن نفسك ، فاذا شئت استقبلتك ، فكل شيء رهن بارادتها .

صعد بطرس ايلتش الى الطابق الأول . وهناك أخذت تتعقد الأمور . رفض الخادم أن يبلغ السيدة هوخلاكوفا وصوله ، ونادى الخادمة . فرجاها بطرس ايلتش ، بأدب ولكن بالحاح ، أن تبلغ السيدة هوخلاكوفا أن الموظف برخوتين يريد أن يكلمها حالاً ، وأنه ما كان له

أن يزعجها لولا أن الأمر الذى يريد أن يكلمها فيه هو على جانب عظيم من الخطورة حقاً !

— انقلى إليها هذه الكلمات نقلاً دقيقاً !

بذلك أوصى برخوتين الخادمة حين مضت تبلغ مولاتها •

انتظر بطرس ايلتش فى الدهليز • وكانت السيدة هوخلاكوفا فى غرفة نومها ، ولكنها لم تكن قد نامت بعد • لقد هزتها زيارة ميسا ، وهى تتنبأ بأنها لن تنجو فى هذه الليلة من الصداغ الشديد الذى يلم بها عادة فى أعقاب انفعالات من هذا النوع • فلما سمعت ما قالته لها خادمتها دهشت ، ومع ذلك أمرت خادمتها ، بلهجة حاتقة ، أن تصرف هذا الزائر الذى يجرى فى غير أوان الزيارة ، أمرت خادمتها بذلك رغم أن مجيء « الموظف برخوتين » إليها فى مثل هذه الساعة ، على غير توقع ، قد أثار فيها فضولاً قوياً • ولكن بطرس ايلتش عند فى هذه المرة عناد بغل • فلما علم أن السيدة هوخلاكوفا ترفض استقباله ، طفق يلح من جديد الحاحاً شديداً على أن تنقل الخادمة الى مولاتها أقواله حرفاً حرفاً : وهى أنه جاء « لأمر يبلغ من خطورة الشأن أن السيدة قد تندم اذا هى لم تستقبله • » • وقد روى فيما بعد أنه أحس فى تلك الدقيقة أنه « يسقط فى هاوية » • تفرست فيه الخادمة مندهشة ، وأسرعت تقوم بالواجب الذى عهد إليها أن تقوم به • ذهلت السيدة هوخلاكوفا ، وفكرت بضع لحظات ، وسألت عن مظهر الزائر ، فقيل لها انه « حسن الهندام ، شاب ، مهذب جداً » • يجب أن نذكر هنا عابرين أن بطرس ايلتش فتى جميل جداً ، وانه كان شاعراً بذلك • عندئذ قررت السيدة هوخلاكوفا أن تسمع له • واذ كانت بثوب المنزل والخفين ، فقد ألفت على كتفها شالاً أسود • وأدخل الموظف الى الصالون ، حيث استقبل

دمترى فيدوروفتش قبل بضع ساعات • تقدمت ربة المنزل نحو الزائر
بوجه متجههم مستجوب ، وسألته دون أن تدعوه الى الجلوس :

- ماذا تريد منى أيها السيد ؟

فبدأ برخوتين كلامه قائلاً :

- لقد جازفت فجئت أزعجك فى أمر يتعلق بصديقنا المشترك

دمترى فيدوروفتش ...

ولكن ما ان نطق بهذا الاسم حتى ارتسم على وجه السيدة
هوخلاكوفا حلق شديد ، فهمت أن تصرخ ، ولكنها أمسكت ، وقاطعت
محدثها قائلة له بلهجة عنيفة هائجة :

- الى متى ، الى متى أظن أن أعدب بسبب هذا الانسان الفظيع ؟ كيف
تجرات أيها السيد ، كيف سمحت لنفسك أن تزعج سيدة لا تعرفها ،
أن تجيء تضايقها فى منزلها ، فى مثل هذه الساعة ... متحدثا اليها عن
شخص أراد منذ ثلاث ساعات ، فى هذا الصالون نفسه ، فى هذا المكان
نفسه ، أن يقتلها ... وقرع الأرض بقدمه ، ثم خرج بطريقة ما كان
لأحد أن يسمح لنفسه بمتلها فى منزل محترم ! اعلم أيها السيد أننى
سأشكوك الى رؤسائك ... أننى لن أسكت لك عن هذه الواقعة ...
وأرجوك أن تخرج من مسكنى فورا .. أنا أم .. وأنا .. أنا ...

- أراد أن يقتلك ؟ أراد أن يقتلك أنت أيضا ؟

- هل قتل اذن أحدا ؟

كذلك سألت السيدة هوخلاكوفا بحرارة • فأجابها برخوتين
بصلابة :

- اذا وافقت على أن تسمى لى ، ولو نصف دقيقة ، يا سيدتى ،

شرحت لك كل شيء فى بضع كلمات • فى هذا اليوم ، فى الساعة الخامسة بعد ظهر هذا اليوم ، جاء الى السيد كارامازوف ورجانى رجاء الصديق أن أقرضه عشر روبلات • وأنا أعلم علم اليقين أنه كان فى تلك اللحظة خالى الوفاض ؛ وفى هذا اليوم نفسه ، فى الساعة التاسعة ، رجع الى ممسكاً بيديه حزمة من أوراق مالية تقدر بألفى روبل أو بثلاثة آلاف روبل • وكانت يدها ووجهه ملطخة بالدماء ، وكان يتصرف تصرف مجنون • فلما سألته من أين أتى بهذا المال كله ، أجابنى اجابة واضحة دقيقة بأنه قد استلمه منك قبل لحظات ، وبأنك قد أعطيته ثلاثة آلاف روبل من أجل أن يسافر باحثاً عن مناجم الذهب فيما زعم

ظهرت على وجه السيدة هوخلاكوفا علائم انفعال شديد عنيف أليم • وصاحت تقول وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى :

— يا رب السماء ! لقد قتل أباه العجوز أنا لم أعطه مالا قط ، لم أعطه مالا قط آه أركض ، اركض بسرعة ، لا تقل كلمة واحدة أخرى ، لا تضيع الوقت ! انقذ أباه ، أسرع الى نجدة ، أنقذه ! — اغفرى لى الحاحى يا سيدتى • أنت تؤكدين أنك لم تعطيه مالا ، فهل ذكرياتك واضحة فى هذه النقطة ؟

— لم أعطه شيئاً ، لم أعطه كوبكاً واحدا • رفضت أن أقرضه ، لأنه لم يقدر نواياى حق قدرها • وانصرف كمجنون مسعور قارعاً الأرض بقدمه • وقد هجم على ، فلم يكدر يتسع وقتى للاحتماء منه وانى لأسر اليك أيضاً ، لأننى قررت أن لا أكتمك شيئاً بعد الآن ، أنه قد بصق على ، هل تستطيع أن تتخيل هذا ؟ اجلس أرجوك معذرة أنا لا بل اركض ، اركض بسرعة • واجبك أن تنقذ العجوز المسكين من ميتة فظيعة •

– ولكن ما دام قد قتله وانتهى الأمر ...

– آ ... نعم ... رباه ! هذا صحيح ... نسيت ... فماذا نفعل

الآن ؟ هل فى ذهنك فكرة عما يجب أن نفعله ؟

ومع ذلك أجلس بطرس ايلتس وجلس أمامه • بسط لها بطرس ايلتس ، بايجاز ولكن بوضوح ، لبّ القضية ، فى حدود ما شهدته بنفسه فى ذلك اليوم على الأقل • وروى لها أيضا أنه زار فينيا ، وما ذكرته له عن مدق الهاون • فكان من شأن هذه التفاصيل أن هزّت السيدة الطيبة هزاً عنيفا فلم تستطع أن تحبس ، أثناء هذه القصة ، صرخات الارتياح والهول حتى أنها وضعت يديها أمام عينيها عدة مرات ...

– فطيع ... رهيب ! تصور مع ذلك أتى أوجست بالنبوءة كل شيء • لقد أوتيت موهبة عجيبة فى التنبؤ • وما أتنبأ به يتحقق لا محالة • كم من مرة قلت لنفسى وأنا أنظر الى هذا الرجل الكريه : « سيقتلنى هذا الرجل أخيرا فى ذات يوم » • وذلك ما وقع ... أقصد أنه اذا كان لم يقتلنى بل قتل أباه ، فانما يرجع الفضل فى ذلك الى تدخل العناية الالهية • لا شك أن الله قد حمانى ونجانى فى ذلك الحين • أضف الى ذلك أنه لم يجرؤ أن يقتلنى لأننى كنت قد علقت فى عنقه ، هنا فى هذا المكان نفسه ، الأيقونة المقدسة لشهيدة عظيمة ... ولم يكن يخطر ببالى عندئذ أننى ألامس الموت ملامسة قريبة فى تلك اللحظة • اقتربت منه ، ومسسته تقريبا ، فمدّ لى عنقه ... يجب أن أقول لك يا بطرس ايلتس (معذرة ، أليس اسمك بطرس ايلتس ؟) ، يجب أن أقول لك اننى كنت لا أؤمن بالمعجزات حتى الآن ، ولكننى أشعر باضطراب شديد حين أتذكر أن تلك الأيقونة التى علقتها فى عنقه قد أنقذتنى بمعجزة من ميتة فظيعة ! آه ... رباه ! اننى أحس بأننى متأهبة للايمان من جديد بكل شيء ... لا شك أنك تعرف قصة الأب زوسيماء تلك ، أليس

كذلك ؟ أراني أتبه ، فلا أعرف ماذا أقول ... تصور أنه ، رغم تلك الأيقونة ، قد بصق على ... بصق فحسب ، صحيح هذا ، ولم يقتلني ... أهذا إذن ما مضى يفعله بعد ذلك ؟ ماذا يجب أن نقرر الآن ، ما الذي يجب أن نعمله ، قل لي ؟

نهض بطرس ايلتشن معلناً أنه سيذهب حالاً الى رئيس الشرطة ليطلعه على الأمر ، فيتولى رئيس الشرطة عمل ما يجب عمله .

— تذهب الى ميشيل ماكاروفتش ؟ انه رجل ممتاز ، ممتاز ، أنا أعرفه . اننى أتق بسداد رأيه وصواب حكمه . ميشيل ماكاروفتش : ذلك هو بعينه الرجل الذى يجب ابلاغه الأمر . فكرت رائعة ، وما كان لها أن تخطر ببالى أنا ، لو كنت فى مكانك .

قال بطرس ايلتشن ، وهو ما يزال واقفاً ، محاولاً أن يضع حداً لثرثرات هذه المرأة المهذار التى لا تدع له فرصة التفوه بكلمة واحدة ليستأذن بالانصراف ، قال :

— لا سيما وأننى أعرفه أنا أيضاً معرفة شخصية .

تابعت السيدة هوخلاكوفا تقول دون أن تياس :

— اسمع ، اسمع ، يجب أن تجيء الى حتماً لتطلعن على ما تكون قد علمته ... على الوقائع التى أمكن أن تعرف ... وكذلك على العقوبة التى سيحكم بها . أظن أن الحكم بالاعدام لا وجود له عندنا ، أليس كذلك ؟ تعال الى حتماً ، ولو فى الساعة الثالثة من الصباح ، أو فى الساعة الرابعة ، أو حتى فى الساعة الرابعة والنصف . اطلب ايقاظى ، وليجرونى من السرير جراً عند الحاجة ، اذا أنا أصررت على النوم ... اننى أقول سخافات على كل حال . أنسى لى أن أرقد بعد كل هذا ؟ تراودنى فكرة : ما رأيك فى أن أرافقك الى عند رئيس الشرطة ؟

— لا ... لا داعى الى هذا يا سيدتى • ولكن اذا وافقت ، فى مقابل ذلك ، أن تكتبى لى ، بخط يدك ، تصريحاً فى ثلاثة أسطر تشهدين فيه بأنك لم تعطى دمترى فيدوروفتش مالا فط ، فأعتقد أن هذا يمكن أن يفيدنا ... عند الاقتضاء •

صاحت السيدة هوخلاكوفا تقول واثبةً عن مكانها بحماسة ، متجهة الى مكتبها الصغير :

— طبعاً ! طبعاً ! هل تعلم أنك تدهشنى بسداد رأيك ، ونفاد بصيرتك ؟ صدقتى اذا قلت لك اننى معجبة أشد الاعجاب بما تبرهن عليه فى هذا المجال من حذق ومهارة ! أنت تعمل موظفاً فى ادارة مدينتنا ؟ ما أسعدنى اذ أعرف أن سلطانتا تملك معاونين أفذاذاً لهم مثل قيمتك !

وفيما كانت السيدة هوخلاكوفا تتكلم ، خطت بسرعة ، على ورقة ، الأسطر التالية ، بأحرف كبيرة :

« لم أقرض دمترى فيدوروفتش ، العاثر الحظ ، ثلاثة آلاف روبل أبداً (ذلك أنه الآن شقى عاثر الحظ) • لم أقرضه كوبكا واحداً ، لا اليوم ، ولا فى أية لحظة أخرى ، أبداً أبداً • أحلف على هذا بكل ما هو عندى مقدس فى هذا العالم ، •

هوخلاكوفا

ثم النفقت بقوة نحو بطرس ايلتش فقالت له :

— اليك تصريحى • فاسرع الآن • يجب انقاذ هذا الرجل • هذا عمل نبيل تقوم به •

ورسمت عليه اشارة الصليب ثلاث مرات ، ثم شيعته الى الدهليز •

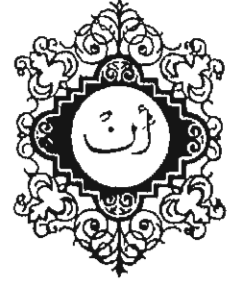
- ما أعظم شكرى لك ! لا تستطيع أن تتصور مدى امتناني منك
لأنك جئت الىّ أولاً ! خسارة أنني لم أعرفك قبل الآن ! لسوف يسمعنني
في المستقبل أن أستقبلك في منزلى • انه لما يعزى النفس ويشد الأزر
أن تملك مدينتنا في شخصك موظفا له مثل كفاءتك وقيمتك ••• موظف
دقيق هذه الدقة ، حصيف هذه الحصافة خاصة ••• أنا على يقين من
أن رؤساءك يقدرونك حق قدرك • صدّقني اذا قلت لك انهم سيفهمونك
آخر الأمر ••• واعلم على كل حال أنني مستعدة من جهتي لأن أقول
كلمة طيبة في حقك كلما لزم ذلك ••• أوه ! اننى أحب الشباب ،
اننى مغرمة بالشباب حفا ! الشبيبة في أيامنا هذه هم قوة بلدنا العظيمة
الشقية روسيا ! أنتم أملنا ••• أنتم معقد رجائنا ••• هيّا ، هيّا ،
أسرع •••

ولكن بطرس ابلتش كان قد نزل الى الشارع ، والا لجبسته زمناً
آخر • يجب أن نقول من جهة أخرى ان السيدة هو خلاكوبا قد أحدثت
في نفسه أثراً ممتعاً خفّف عنه ما كان يشعر به من قلق لتدخله في قضية
مزعجة • انكم تعلمون ان الأذواق في هذا العالم مختلفة متنوعة • قال
بطرس ابلتش لنفسه راضياً مسروراً : « ليست متقدمة في السن كثيراً •
كان يمكن بسهولة أن أحسبها ابتها » •

أما السيدة هو خلاكوبا فقد افتننت به افتناناً • « ما أروع هذا الخذف
وهذه الدقة في شاب ، ذلك عدا آدابه الكئيسة ومظهره اللطيف الجذاب !
تلك مزايا نادرة في هذه الأيام ! يدعون أن شبابتنا اليوم لا قيمة له •
فهذا منال يبرهن على نقیض ما يدعون ، الخ ، الخ » • وقد انتهت السيدة
هو خلاكوبا من ذلك الى نسيان « الحادث الفظيع » ، ولم تتذكر الا على
سريرها أنها « لامست الموت ملامسة قريبة » • قدمدت تقول : « شيء
رهيب ، شيء رهيب » ، ثم لم تلبث أن نامت نوماً عميقاً هادئاً • على أنني

ما كان لى أن أسهب فى ذكر هذه التفاصيل الثانوية ، لولا أن هذا اللقاء العجيب الذى يتم بين رجل شاب وأرملة ما تزال نضرة ، وهو هذا اللقاء الذى وصفته الآر ، انما كان نقطة انطلاق فى حياة هذا الموظف الدقيق المنظم • ان الناس فى مدينتنا ما يزالون حتى يومنا هذا يتكلمون عن هذا مندهشين ، وربما عرضت لنا فرصة أو نقول بضع كلمات عنه فى نهاية هذه القصة الطويلة التى نكتبها عن الاحوة كارامازوف •

التبليغ



رئيس شرطنا ميسيل ماكاروفش ماكاروف ،
وهو ليوتنان كولونيل محال على التقاعد ويحمل
رتبة « مستشار قضائي » ، رجل أرملة يمتاز
بأنه على جانب عظيم من الشهامة والطيبة . لقد
استطاع منذ ثلاث سنين في مدينتنا ، أن يكسب مودة جميع الناس له ،
ولا سيما لما أوتي من موهبة فذة في « جمع وجوه المدينة بمنزله » .
يظهر أنه ما كان ليستطيع أن يعيش يوماً واحداً دون أن يستقبل في داره
عدداً من الأصدقاء . كان لا يخلو بيته يوماً من ضيف على العشاء ، ولو
كان عدد الضيف شخصاً أو شخصين ؛ وما كان ليجلس أحد إلى المائدة
في منزله بغير مدعوين . وكان يتفق له في بعض الأحيان أن يولم ولائم
كبيرة ، متعللاً بحجج كثيرة متنوعة ، حجج قد لا تخطر بالبال . ولئن
لم تكن أصناف الطعام فاخرة لقد كانت وافرة . ومع ذلك كان لفطائر
السمك التي تقدم في بيته شهرة ذائعة . وقد لا تكون أنواع الخمور
أحود الأنواع ، ولكن كثرتها تنوب عن جودتها على كل حال .

إن الغرفة الأولى من مسكنه قد هيئت قاعة للعب البلياردو ، وأُنشئت
ثانياً أنيقاً ، وازدانت جدرانها بصور خيول سباق انجليزية ، وتلكم هي

كما تعلمون الزينة المألوفة التي تزيّن كل قاعة بلياردو في منزل رجل عازب . وكان يلعب بالورق كل مساء في منزل ميشيل ماكاروفتش ، وإن يكن عدد اللاعبين محدوداً في كثير من الأحيان . على أن الاستقبالات التي تحضرها صفوة المجتمع من مدينتنا في منزله كانت كثيرة ، وكانت الأمهات تصطحب اليها بناتها ، لأنها كان يُرقص فيها . وكان ميشيل ماكاروفتش يعيش حياة عائلية رغم أنه أرمل ، في صحبة ابنته التي ترملت هي أيضاً منذ مدة طويلة ، وفي صحبة حفيدتيه اللتين بلغتا مبلغ الرشد وأنتهتا تحصيلهما . لم تكن الفتاتان ديميتين البتة ، وكانتا بما تنعمان بها من مرح الطبع وحسن المزاج تجتذبان شباب مدينتنا ، رغم أنه كان معروفاً أنهما لا تملكان مهراً . ولم يكن ميشيل ماكاروفتش لاعم الذكاء ، ومع ذلك كان يقوم بمهام عمله كما يمكن أن يقوم بها رجل آخر . وإذا أردنا أن نقول الحقيقة وجب أن نذكر أنه كان ضئيل الحظ من الثقافة ، وكان قليل الاهتمام بالحدود الدقيقة التي تقف عندها صلاحياته الادارية . كان معنى بعض الاصلاحات * التي تحققت في النظام الجديد يغيب عنه ، وكثيراً ما كان يفسر هذه الاصلاحات تفسيراً يشتمل على أخطاء فادحة مذهلة ، لا لعجز منه بل لقلة الاكتراث ، فانه لم يكن يجد في وقته متسعاً لدراستها دراسة عميقة . وكان يحب أن يقول عن نفسه : « ان لي روح رجل عسكري لا رجل مدني » . ورغم أنه كان من ملائكي الأراضي ، فإن ما علق بذهنه من معلومات تتعلق بالاصلاح الزراعي قد ظلت غامضة مبهمه ، وكانت هذه المعلومات تكتمل سنة بعد سنة ، على غير ارادة منه ان صح التعبير ، فانما هي تكتمل بالتجربة الناشئة عن الممارسة العملية .

كان بطرس ايلتش يعلم أنه سيلتقي عند رئيس الشرطة في ذلك المساء بضيوف ، ولكن كان يجهل من عسى يكون عنده من هؤلاء

الضيوف • ومن المصادفات أن ميشيل ماكاروفتش كان فى ذلك المساء يلعب بالورى مع النائب العام وطبيب المنطقة (الدكتور الشاب فارفسكى الذى وصل من سان بطرسبرج مؤخراً وكان من أوائل متخرجى مدرسة الطب) • فلما النائب العام هيوليت كيريلوفتش - وكان يسمى نائباً من فيل المجاملة ، لأنه لم يكن فى الواقع الا وكيل نيابة - فهو رجل على حدة ، ما يزال شاباً ، لم يكد يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ، فيه استعداد للاصابة بمرض السل ، متزوج امرأة سمينه عاقراً • انه شديد الشعور بكرامته وكبريائه ، سريع الغضب والحق ، ولكنه يملك مزايا واضحة من حسن الذكاء ونبيل القلب • يبدو أن آفة طبعه الأساسية ناشئة عن أنه مبالغ فى تقدير قيمته ، فهذا التباين بين كفاءاته الواقعية وبين رأيه فى نفسه كان يخلق له حالة قلق مستمر • وكانت له مطامح عليا ، بل ومطامح فنية ، وكان يعتز خاصة بمقدرته فى علم النفس ، فهو يعتقد أنه أوتى مواهب خاصة فى النفاذ الى أسرار النفس الانسانية ، وفى اكتشاف البواعث العميقة لدى المجرمين • وكان لهذا السبب يعتقد أنه مجهول القيمة ، وكان يعيش على قناعة تامة بأن الناس لم يقدره حق قدره ، أو أن هناك أعداء يكيدون له ويعرقلون تقدمه فى وظيفته • وكان فى ساعات حزنه ويأسه يمضى الى حد التهديد بالانتقال الى صف المعارضة ، فيعمل محامياً أمام المحاكم الجنائية • وقد استشارته قضية مقتل الأب كارامازوف واستنهضت همته ، فحدث نفسه قائلاً : « هذه قضية ستشهر غداً فى روسيا كلها • » • ولكن أرانى أستبق تمة القصة •

وفى الغرفة المجاورة كان قاضى التحقيق الشاب نيقولا بارفينوفتش نلبودوف ، الذى وصل الى مدينتنا منذ شهرين ، يثرثر مع الفتاتين • لقد دهش الناس بمدينتنا ، فيما بعد ، من وجود هؤلاء الأشخاص بأعينهم مجتمعين فى مساء وقوع « الجريمة » نفسه ، فى منزل أحد ممثلى السلطة

التفديده ، كأنما هم اتفقوا على ذلك • والحق أن تحليل هذه المصادفه
طبعى جدا : ان زوجه هيبوليت كيريلوفتش تشكو منذ يومين من آلام
شديده فى الأسنان ؛ فكان وكيل النيابة المسكين لا يفكر الا فى الهروب
من المنزل حتى لا يسمع أنينها • فالى أين يمكن أن يذهب اذا هو لم
يذهب الى ميشيل ماكاروفتش ؟ أما الطيب فانه ، بحكم مهنته ، كان
لا يستطيع أن يقضى سهراته الا لاعباً بالورق ، لذلك كان وجوده فى
منزل رئيس لشرطه أمراً لا بد منه ولا محيد عنه • وأما نيقولا
بارفينوفتش نليودوف ، فلقد كان ينوى منذ ثلاثة أيام أن يزور ميشيل
ماكاروفتش فى ذلك المساء ، وأن يجىء اليه « بما يشبه المصادفة » ، بغية
أن يفاجئ بعد ذلك كبرى القناتين ، أولغا ميخائيلوفنا ، بأنه عالم بسرّها :
وهو أن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلادها ، وأنها أرادت أن تخفى الأمر
عن المجتمع حتى لا تقيم حملة رقص فى منزلها • وكان نيقولا
بارفينوفتش يتصور أمازيح كثيرة سيقوم بها فى تلك المناسبة ، ويتلذذ
سلفاً بهذه الأمازيح : كالإشارة الى أنها تخشى أن تعلن عن سنّها ،
وكالتهديد بإذاعة الأمر فى المدينة كلها غداً ، الخ • ان هذا الشاب الفنان
« عفريت » كبير ، حتى ان سيداتنا قد لقبنه بهذا اللقب ، وكان هذا يملؤه
رضى وارتياحاً فيما يبدو • وكان ينتمى من جهة أخرى الى أسرة ممتازة ،
وكان جمّ الكياسة رفيع المشاعر • ورغم انه كان بطبيعته محباً للمباهج
مقبلاً على الملذات ، فقد كان كذلك على براءة وكان لا يخل بالمواضعات
المقررة ولا بسىء الى الآداب الاجتماعية • وهو قصير القامة ، ضعيف
البنية ، رقيق مرهف ، تزين أصابعه النحيلة الشاحبة خواتم كبيرة كثيرة •
وكان فى قيامه بأعمال وظيفته رصيناً رصانة عظيمة ، قوى الشعور بخطورة
الواجبات الملقاة على عاتقه • وكان يمتاز خاصة بمهارته فى أن يحير
القتلة وغيرهم من المجرمين من أبناء الشعب البسيط أثناء استجواباته ،
كيرا ما كان شير فيهم من الدهشة ان لم يثر فيهم الاحترام •

حين وصل بطرس ايلتش الى منزل رئيس الشرطة صعه فعلاً أن يعرف أن جميع الحضور كانوا على علم بالأمر • كان اللاعبون بالورق قد كفوا عن اللعب ، وأخذ سائر الضيوف يتناقشون في الحادث بحرارة ، وقوفاً • لقد هرع نيقولا بارفينوفتش من الغرفة المجاورة عابس الوجه يوشك أن يكون مستعداً للهجوم • وما كان أشدَّ ذهول بطرس ايلتش حين علم بالنبا لرهيب : وهو أن المعجوز فيدور بافلوفتش قد قتل في منزله فعلاً هذا المساء ... قتل وسُرق • وقد عرفت الجريمة في الظروف التالية :

لا شك في أن مارفا اجناتيفنا ، زوجة جريجورى ، كانت نائمة نوماً عميقاً في اللحظة التي ضُرب فيها زوجها بمدق الهاون قرب السور • وكان يمكن أن تستمر في نومها زمناً طويلاً أيضاً • ولكن شامت المصادفة أن تستيقظ فجأة ، وأغلب الظن أنها استيقظت بسبب الصرخة الرهيبة التي أطلقها سمردياكوف الذي يرقد في الغرفة الصغيرة المجاورة مغشياً عليه غائباً عن وعيه • انها تعرف هذه الصرخة حق المعرفة ، فهذه الصرخة انما تبدأ نوبات الصرع لدى سمردياكوف • وقد أرعبتها هذه الصرخة طوال حياتها ، وخلقت في نفسها أثراً مرضياً ، ولم تستطع أن تتعافى في يوم من الأيام • نهضت مارفا منتفضة وهي ما تزال نصف نائمة وأسرعت الى الغرفة التي يرقد فيها سمردياكوف ، على غير شعور منها تقريباً • كان الظلام حالكاً ، فلا يرى شيء ، وانما يسمع الشخير الرهيب يخرج من صدر المريض الذي يتخبط • أخذت مارفا اجناتيفنا تصرخ هي أيضاً ، منادية زوجها ، ولكنها أوجست فجأة أن زوجها لم يكن الى جانبها في السرير حين استيقظت من نومها ، فأسرعت الى السرير وأخذت تجلس الغطاء ، فأيقنت أن الفراش ليس عليه أحد • تساءلت فالى أين ذهب ؟ هل خرج ؟ ولماذا خرج ؟ وهرعت الى درجات المدخل

وأخذت تناديه فى الظلام وجلى ، ولكنها لم تلتق جوابا . وفجأة خيل
إليها أنها تدرك فى حللكة الليل أناتٍ مخنوفة كأنها آتية من الحديقة .
فأصاحت بسمعها ، فكررت الأناث . دمدمت تقول مضطربة « رباه !
يشبه هذا ما حدث فى الماضى يوم موت اليزابث سمردياستشايان ! » .
وهبطت الدرجات خائفة ، فلاحظت أن باب الحديقة مفتوح ، فقالت
لنفسها : « لا شك أن زوجى الطيب هناك » ، فلما اقتربت من باب الحديقة
سمعت فى هذه المرة زوجها جريجورى نفسه يناديها بصوت ضعيف
محضّر مروع : « مارفا ، مارفا ! » . فقالت مارفا متلعثمة « نجّنا من
الشر يا رب ! » واندفعت فى الاتجاه الذى كان يصدر عنه النداء .
وهكذا اكتشفت جريجورى . ومع ذلك لم تجده قرب السور ، فى المكان
الذى صُرع فيه ، بل على بعد عشرين خطوة من ذلك المكان . وقد
عُرف فيما بعد أن جريجورى ، حين أفاق من اغمائه وثاب إلى رشده ،
جرّ نفسه على الأرض مدة طويلة ، فأغمى عليه أثناء ذلك عدة مرات ،
ولكنه كان يصحو ثم يستأنف زحفه . وسرعان ما لاحظت مارفا أنه كان
مضرجاً بدمائه ، فأخذت تصرخ . وكان جريجورى يتمتم بصوت واهن
جملاً مضطرباً لا تسلسل فيها ، قائلاً : « قتل ... قتل أباه ... لماذا
تصرخين يا امرأة غبية ؟ هلمى ! أركضى ! نادى ! » . ولكن مارفا اجنأنا
لم يهدأ روعها ولم تنقطع عن إطلاق صرخاتها الوحشية . فلما لاحظت
فجأة أن نافذة غرفة مولاهم مفتوحة ومضاءة ، أسرع إلى هناك تنادى
فيدور بأفلوفتش . واذ لم تسمع جواباً نظرت من النافذة ، فرأت عندئذ
مشهداً فظيماً : رأت فيدور بأفلوفتش راقدًا على الأرض جثة هامدة .
بلغت مارفا اجنأنا ذروة الهلع ، فاندفعت عندئذ إلى خارج الحديقة ،
ففتحت الباب الكبير ، وهرعت إلى عند جارتها ماريا كوندرايتينا . كانت
المرأتان ، الأم وابنتها ، نائمتين حينذاك ، ولكنهما لقوة الطرقات العنيفة

على مصراعى الباب ، ولشسدة الصرخات الحادة التى كانت تطلقها مارفا اجناتيفنا ، استيقظتا من نومهما واقتربتا من النافذة . فقصت عليهما العبور المسكنة ما نزل بدارهم من شقاء ، فصت عليهما ذلك بأفوال مضطربة مشوشة تقطعها أنات . ومن المصادفات أن توماس الذى يسكن مستأجراً فى منزلهما ، والذى ينتقل عادة فى البرارى ، كان يبيت فى المنزل فى تلك الليلة . فسرعان ما أوقف من نومه ، وخفّ الجميع الى مكان الجريمة . وتذكرت مارى كوندرايفنا أثناء الطريق أنها قد سمعت فى نحو الساعة التاسعة من المساء ، عويلاً صادراً من الحديقة أروعها . لقد كان ذلك هو الصرخة التى أطلقها جريجورى لحظةً أمسك بيديه احدى ساقى ميتا الراكب السور ، قائلاً : « يا قاتل أبيه » .

فالت ماريا كوندرايفنا شارحةً : « ان أحداً قد صرخ عندئذ صرخاً فورياً جداً ثم صمت فجأة » . ووصل الثلاثة الى قرب جريجورى ، فأنهضته المرأتان بمعاونة توماس ، ونقلوه الى الملاحقات . وأشعلوا شمعهم . وحين مروا أمام الغرفة التى يرقد فيها سمردياكوف لاحظوا أنه ما يزال يتخبط فى تشنجاته وقد جهضت عيناه وخسرج الزبد من فمه . غسلوا رأس جريجورى بماء ممزوج بخل ، فجعله ذلك يصحو تماماً ، فسرعان ما ألقى عليهم هذا السؤال : « أقتل مولاه أم لا ؟ » . وأرادت الجارتان عندئذ أن تصحبا توماس الى غرفة فيدور بافلوفتش . فلما اجنازتا الحديقة لاحظتا أن النافذة لم تكن وحدها مفتوحة ، وانما كان باب المسكن مفتوحاً أيضاً ، مع أن فيدور بافلوفتش قد أصبح منذ أسبوع يحكم أقفال الباب بالفتاح كل ليلة ، ولا يسمح حتى لجريجورى بأن يدخل عليه لأى سبب من الأسباب ، وبأن عذر من الأعذار . فلما رأتا المرأتان وتوماس هذا الباب مفتوحاً ترددوا عن الدخول الى غرفة الجريمة «خشية المضاعفات» ، وعادوا الى الملاحقات ، فطلب جريجورى ابلاغ رئيس الشرطة بالحادث

فورا • فتولت ماريا كوندرا تفنا القيام بهذه المهمة ، فأهاج وصولها ضيوف ميشيل ماكاروفتش ، وأقامهم وأفعدهم • لقد وصلت ماريا الى منزل رئيس الشرطة قبل وصول بطرس ابلتش بخمس دقائق لا أكثر ، وهكذا مل بطرس ابلتش أمام هؤلاء الرجال لا منول انسان يريد أن ينقل اليهم شكوكه واسندالاته ، بل متبول شاهد عيان ، فلم تزد التفاصيل التي ذكرها على أن عززت ما كانوا قد تصوروه من فروض عن شخص القاتل (الحق أن بطرس ابلتش نفسه قد ظل الى آخر لحظة بشك في أن يكون ميتا هو القاتل) •

وتقررت المبادرة الى العمل فورا • وأبلغ مفوض الشرطة المساعد ، وتم القيام بالتحريات الأولى في مكان الجريمة بمنزل فيدور بافلوفتش ، وفقا للأصول القضائية التي لا داعي لي وصفها هنا • وقد أصر طيب زمستفو ، وهو طيب مبتدى ممتلىء هممة وحماسة ونشاطا ، أصر على أن يصحب رئيس الشرطة ووكيل النيابة وفاضى التحقيق • وسأقتصر هنا على تلخيص ما شاهدوه : لقد صرع فيدور بافلوفتش ، وكسرت جمجمته ، ولكن ما هو السلاح الذى استعمل في قتله ؟ لعله ذلك السلاح نفسه الذى استعمله القاتل بعد ذلك في ضرب جريجورى • واكتشفت أداة الجريمة أخيرا بفضل ما استطاع جريجورى أن يذكره لهم على نحو متسق ، ولو بصوت واهن متقطع ، بعد أن أضعف الاسعافات الطيبة التي تتطلبها حالته • استكشف رجال الشرطة الأرض التي تجاور السور مستعينين بمصباح ، فلم يلقوا عشاء في العثور على مدق الهاون النحاسي • وجدوه ملقى وسط الممر الذى يشق الحديقة ، في موضع يلفت الأنظار على الفور • ولم تكن الغرفة التي يرقد فيها فيدور بافلوفتش فوضى ، ولكنهم اكتشفوا على الأرض وراء الحاجز طرفاً ملقى قرب السرير • وكان طرفاً كبيراً مصنوعاً من ورق سميك ، وقد كتب عليه ما يلي :

« هدية صغيرة من ثلاثة آلاف روبل أهدبها الى ملاكى جروشنكا اذا هي رضيت أن تصبى » وفى أسفل الطرف كتبت عبارة أخرى أغلب الظن أن فيدور بافوفتش أضافها بعد ذلك هو نفسه : « الى حمامتى » • وكان الطرف الذى ختم بالشمع الأحمر ثلاثة أختام كبيرة فد فضّ وأفسرع مما فيه : لقد سرق المال الذى كان يضمه الطرف • واكتشفوا كذلك على أرض العرصة الشريط الوردى اللون الذى كان يلف الطرف • وقد أحدثت أفعال بطرس ايلتش أثراً عميقاً فى وكيل النيابة وقاضى التحقيق وهزتهما هزاً قوياً ، لا سيما بسبب ما ذكره لهما من أن دمترى فيدوروفتش كان يبدو عازماً عزمًا مطلقاً على أن ينتحر قبل طلوع الفجر؛ وان دمترى فيدوروفتش قد أفهمه ذلك نفسه ، حين حشا أحد المسدسين بالرصاص أمامه ، وحين كتب بطاقة صغيرة يشرح فيها السبب الذى يدعوه الى الانتحار ودسّها فى جيبه ، النج ، حتى اذا قال له بطرس ايلتش الذى لم يشأ أن يصدق قراره انه سيلبغ أقرباءه ما عزم عليه حتى يمنعوه من انفاذه ، أجابه مبتيا بلهجة ساخرة : « لن يتسع وقتك لهذا يا عزيزى » • معنى هذا كله أن من الواجب الاسراع فى العمل ، والوصول الى موكرويه على عجل ، حتى يفاجأ القاتل قبل أن ينفذ ماعقد النية عليه •

كان وكيل النيابة يردد قوله مضطربا اضطرابا شديدا :
- القضية واضحة وضوح ماء الصخر • ذلك بعينه هو ما يفعله جميع هؤلاء العابثين القاصفين الأشقياء حين يقعون فى الجريمة • غداً أنتحر ، أما الليلة فألهو وأتسلى •

وازداد احتياج وكيل النيابة حين سمع تفاصيل ما حدث فى المتجر حين اشترى ميتا الشمبانيا وأنواع الحلوى •
- هل تتذكرون ، أيها السادة ، ذلك الشاب الذى قتل التاجر

أولسوفيف ليسله ماله ؟ انه بعد أن اسنولى على ألف وخمسمائة روبل كانت مع ضحيته ، فكر قبل كل شيء فى أن يصفف شعره منموجاً عند حلاق ، ثم أسرع الى البغايا حتى دون أن يكلف نفسه عناء اخفاء المال ، فكان يمسكه يديه تقريبا ، مل هذا القاتل الجديد تماما •

على أن التحقيق وتفتيش منزل فيدور بافلوفتش والاجراءات القانونية الشكلية ، كل ذلك قد استغرق وقتا ، لذلك تقرر أن يوفد الى موكرويه ، على جناح السرعة ، موظف الشرطة موريس مافريكيتش :مرستوف الذى جاء الى المدينة فى الليلة البارحة لقبض مرتبه • أصدرت اليه تعليمات بأن يذهب الى موكرويه ، متحلا عذراً من الأعذار ، بحيث لا يلفت الانتباه ، وأن يراقب المجرم فى الخفاء دون أن يغيب عن بصره ، الى حين وصول لسلطات • وكان على موظف الشرطة هذا أن يكون فى عداد الخفراء الذين سيقنطرون المتهم • نفذ موريس مافريكيتش الأوامر التى تلقاها ، ولزم النخفى ، واقتصر على أن ذكر لتريفون بوربستش الذى يعرفه منذ عهد بعيد بعض الايضاحات عن الأسباب الحقيقية لمجيئه • وفى ذلك الوقت انما التقى ميتيا بصاحب المنزل فى أسفل السلم المفضى الى الشرفة ، فلاحظ تغييراً غريباً فى تعبير وجهه وطريقه كلامه • وعلى هذا النحو لم يستطع أحد ، لا ميتيا ولا سائر الضيوف ، أن يخطر ببالهم أنهم مرابطون • أما غلبه المسدس فقد أسرع تريفون بوربستش يخفيها فى مكان مأمون على الفور • ولم تصل السلطات الى موكرويه الا فى الساعة الخامسة ، عند طلوع الفجر • استقل وكيل النيابة ، ورئيس الشرطة ، وقاضى التحقيق ، وحاشيتهم ، عربى ترويكام ومكث الطيب فى منزل فيدور بافلوفتش ، لياشر تشريح جـه القتل منذ الصباح • ولكنه كان مهتما اهتماما خاصا بحالة سمردماكوف •

— ان نوبات الصرع التى تبلغ هذه الدرجة من الشدة وتدوم مثل

هذه المدة مستمرة يومين ، هي حالات نادرة كل النادرة ، حالات يهتم بها العلم ويكب على دراستها •

كذلك قال الطيب لصحبه مهتاجاً حين سافروا الى موكرويه ؛ وقد مازحه صحبه وهأواه على ما أوتى من فرصة مواتية وحظ نادر •

وقد تذكر وكيل النيابة وقاضى التحقيق فيما بعد ، تذكرأ واضحا، أن سمردياكوف سيموت قبل طلوع الفجر فيما زعمه الطيب الشاب •
بعد هذه الشروح التى كانت طويلة بعض الطول ، ولكنها كانت لا بد منها ولا غنى عنها ، سنستأنف الآن قضيتنا من حيث قطعناها فى نهاية الباب السابق •

محنة النفس الحنة الأولى



ميتيا يتصفح وجوه محدثيه ، مجنون العينين ،
ولا يفهم ما يقال له • وها هو ذا ينهض فجأة ،
فيرفع ذراعيه الى السماء ويهتف قائلاً بصوت
قوى :

— لست القاتل ! أنا لم أسفح ذلك الدم ! لم أسفح دم أبى ...
كنت أريد أن أقتله ، ولكننى لم أفعل • لست أنا القاتل !

فما ان فال ميتيا هذه الكلمات حتى اندفعت جروشنا من وراء
الستائر وسقطت عند قدمى رئيس الشرطة ، وأعولت تقول بصوت
ممزق ، وهى تبكى بكاء غزيراً وتمد ذراعيها نحو الحضور :

— أنا المذنبه ، أنا الشقية المذنبه • بسببى انما قتل ! أنا التى قدته
الى ذلك من كثرة ما عذبتة ... ولقد عذبت العجوز المسكين الراحل
أيضاً ، بدافع الشر الذى فى نفسى ... أنا سبب كل شيء ، أنا ، أنا
وحدى • أنا القاتلة فى حقيقة الأمر •

— أما أنك القاتلة فهذا صحيح لا شك فيه ! أنت مجرمة كبيرة ،
أيتها المرأة الضالة الفاسقة ! أنت المسئولة عن هذه الجريمة •

كذلك صاح يقول رئيس الشرطة وهو يلوح بقبضه يده مهدداً •
ولكن سرعان ما حمل رئيس الشرطة على المسكوت ، حتى أن وكيل
النيابة أحاطه بذراعيه ليتحكم به ويسيطر عليه ، قائلاً له بصوت عال وهو
يكاد يخنق غيظاً :

— لقد أحدثت فوضى يا ميتيل ماكاروفتش ، هذا لا يجوز ! انك
تشوش التحقيق وتفسد كل شيء •

وفال نيقولا بارفينوفتش مضطرباً بدوره :

— يجب اتخاذ إجراءات ••• حالاً ••• يجب اتخاذ إجراءات •
واستأنفت جروسكا كلامها فقالت بحرارة وحماسة وهى ما تزال
جانيه على ركبتها :

— احكموا علينا معاً ، أعدمونا معاً ، أنا مستعدة لأن أشاركه العقوبة
القصوى !

فهتف ميتا يقول وهو يرتدى على الأرض فيجتو الى جانب جروشكا
ويعانقها :

— جروشا ، حياتي ، روحى ، دمي ، قديستى ! لا تصدقوا ما تقولوه ،
انها ليست مذنبه فى شيء ، انها لا تشارك أية مشاركته فى المسؤولية عن
هذا الدم المسفوح ، انها لم تفعل شيئاً !

تذكر ميتا فيما بعد أن عدة رجال قد فصلوه بالقوة عن جروشكا
التي أقصيت عن الغرفة ، وأنه فى اللحظة التي ثاب فيها الى وعيه ، وجد
نفسه جالساً أمام المائدة • وكان يقف وراءه رجال يضعون على صدورهم
صفائح من معدن • وفى الجهة الأخرى من المائدة ، كان قاضى التحقيق
نيقولا بارفينوفتش الذى جلس على الكنبه ، يلح عليه أن يشرب قليلاً

من الماء مشيراً الى الكأس الموضوعه على المائدة ، قائلاً له بلهجة مهذبة جداً :

— اشرب ، الماء ينعشك ويهدئك • لا تخش شيئاً •

خطفت انتباه ميتيا ، على حين فجأة ، الخواتم الكبيرة التي كانت فى أصابع قاضى التحقيق • أن أحد هذه الخواتم يزدان بالجمشت ، والثانى يزدان بحجر أصفر واضح شفاف قوى السطوع • سوف يظل ميتيا يتذكر خلال زمن طويل مدى ما أحدثته هذه الخواتم فى نفسه من اقتنان حتى أنه طوال الساعات الرهيبة التي استغرقها الاستجواب لم يستطع أن يحول بصره عنها ، ولم ينقطع عن النظر اليها وهو فيما هو فيه من ظروف لا تتفق مع اهتمام تافه هذه التفاهة • والى يسار ميتيا ، فى المكان الذى كان يشغله ماكسيموف فى بداية السهرة ، كان يجلس وكيل النيابة ؛ والى يمين ميتيا ، فى المكان الذى جلست فيه جروشنيكا بضع ساعات قبل ذلك ، كان يجلس شاب زاهى اللون ، يرتدى سترة عتيقة جداً مما يلبسه الصيادون ، وأمامه مجبرة وورقة • ولقد اتضح فيما بعد أنه كاتب قاضى التحقيق • أما رئيس الشرطة فقد كان واقفاً قرب النافذة ، فى الطرف الآخر من الغرفة ، على مقربة من كالجائوف الذى كان جالسا على كرسى •

كرر قاضى التحقيق يقول بلطف ورقة للمرة العاشرة :

— اسرب ماء •

فصاح ميتيا يقول ، وهو يبت على قاضى التحقيق نظراته الجامدة جموداً رهيباً فى عينه الجاحظتين :

— شربت با سادتي شربت ••• والآن فاسحقونى ، اعدمونى ، قررّوا مصيرى !

سأله القاضي بصوت لطيف رقيق ولكنه ملح :

- أأنت نصر اذن على أنك برىء من مقتل أبيك ؟

- برىء ! لقد سفحت الدم ، سفحت دم العجوز الآخر ، ولكننى
لم أسمع دم أبى • أه ••• لسد ما يؤسفنى ما فعلت • لسد قلت ذلك
العجوز المسكين ، صرعته • غير أنه يشق على أن أصبح بسبب هذه
الجنايه مسؤولاً عن جريمه أخرى ، جريمه فظيعة لم أرتكبها ••• ذلك
انهم رهيب يسقط على سفوط الصاعقة ! ولكن من ذا الذى قتل أبى ؟
من هو القاتل ؟ من عسى يكون القاتل اذا لم أكن أنا ؟ هذا جنون •••

بدأ قاضى لتحقيق يقول :

- أسأل من هو القاتل ؟ سأقول لك ذلك •••

ولكن وكيل النيابة هيوليت كيريلوفتش سارع يسكنه بنظرة منه ،
ثم قال مخاطباً ميتيا :

- تخطئى، اذا قلقت على مصير الخادم العجوز جريجورى فاسيليف •
اعلم أن هذا الخادم لم يمت ، وأنه أفاق من اغمائه واسترد وعيه • حتى
أن لطبيب يرى أنه لبس فى خطر رغم الضربة الفظيعة التى شهد هو
واعترفت أنت بأنك أصبته بها •

هتف ميتيا فجأة يقول وهو يضم يديه احدهما الى الأخرى (وقد
أشرق وجهه فرحاً) :

- أهو حى ؟ اللهم انى أحمدك على هذه المعجزة العظيمة التى
تهبها لى ، لى أنا الخاطئ ، المجرم ؟ اللهم انى أحمدك على أنك استجبت
لدعائى ••• ذلك أن دعائى هو الذى قبل ••• لقد لبثت أدعو طوال
الليل أن لا يموت •

ورسم ميتيا اشارة الصليب ثلاث مرات وهو يخنق انفعالا *
استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً :

- من جريجورى هذا نفسه نما حصلنا على معلومات خطيرة جدا
فى شأنك ...

ولكن ميتيا قاطعه ووثب عن كرسيه قائلاً :

- دقيقة واحدة أيها السادة ! اسمحوا لى بدقيقه واحدة ، دقيقة
واحدة ، أناشدكم الله ... أريد أن أكلمها هى ...
فصرخ نيقولا بارفينوفتش يقول له بصوت حاد ، ناهضاً عن مقعده
على حين فجأة هو أيضا :
- آسف ! ذلك مستحيل استحالة مطلقة الآن .

وأمسك الرجال الذين يضعون على صدورهم صفائح معدن ،
أمسكوا ميتيا ، فسرعان ما عاد يجلس دون احتجاج ، وقال :

- هذ يؤسفنى أسفاً عميقاً يا سادتى ، لأننى لم أكن أريد أن أراها
الا لحظة قصيرة ... لأبلغها أن ذلك الدم قد امحى من حياتى ، ذلك
الدم الذى عذبنى طوال هذه الليلة ، واننى لست قائلاً ! انها خطيئتي أيها
السادة ، هل تعرفون هذا ؟ (هكذا صاح يقول فجأة وهو ينقل بصره على
محدثيه جازماً) . أوه ! شكراً لكم أيها السادة ! لقد رددتمونى الى الحياة
بهذه الكلمة وحدها : حى ! ان ذلك العجوز كان يحملنى بذراعيه أيها
السادة ، وكان يغسلنى فى جرن حين كنت فى السنة الثالثة من عمرى
وتركنى الجميع . كان لى بمثابة أب !

هم القاضى أن يتكلم قائلاً :

- وهكذا ، فانت ...

ولكن ميتيا قاطعه وهو يضع كوعيه على المائدة ويفطى وجهه يديه:
— اسمحوا لى بدقيقة تفكير أيها السادة ، دقيقة واحدة • دعونى
أتنفس لحظة ، وأحاول أن أرى رؤيه واضحة • ان هذا الأمر قد هزنى
هزاً فوياً وقلب نفسى رأساً على عقب ، هذا فطيع • • • ليس يُقرع انسان
كما يقرع طبل أيها السادة !

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول له :
— عليك أن تشرب جرعه أخرى من الماء •

أبعد ميتيا يديه عن وجهه وأخذ يضحك • ان فى نظرتة الآن
لفه ، وقد تبدل تعبير وجهه فى طرفه عين • وتغير موقفه كذلك ، فهو
يتكلم بلهجه غير اللهجه التى كان يتكلم بها من قبل • هو يحس الآن أنه
عاد نداء لهؤلاء لرجال الدين يعرفهم والذين كان يمكن أن يجتمع بهم ،
البارحه ، فى سهره تصمم عليه الموم ، فكان شيئاً لم يكن • يحسن أن
تشير ها الى أن ميتيا كان قد استقبل استقبالاً حاراً جداً بمنزل رئيس
الشرطة ، فى بداية اقامته بسديتنا ، ولكنه انقطع عن التردد الى هذا
المنزل بعد ذلك ، ولا سيما خلال الشهر الأخير • وأصبح رئيس الشرطة
مند زمن ، يقطب حاجبيه حين يرى ميتيا فى الشارع ، ولا يرد على تحيته
الا من باب الأدب ، وقد لاحظ ميتيا هذا • أما وكيل النيابة فقد كانت معرفه
ميتيا به أقل من ذلك أيضا ، رغم أن ميتيا قد زار زوجته ، وهى امرأة
عصبية ذات هواجس ، عدة زيارات سكرية تماما ؛ كان يذهب اليها دون
أن يعرف لماذا ، وكانت تستقبله حتى هذه الأسابيع الأخيرة بكثير من
البشاشة والمودة ، بل وكانت تبدى شيئاً من الاهتمام به • وأما قاضى
التحقيق ، فلم تكن منه وبين متبا علاقات اجتماعية ، واقتصر كل شئ
بينهما على حديث أو حسيدين تبادلًا خلالهما كلاماً غامضاً عن جنس
النساء •

قال ميتيا مرحاً :

- أرى يا نيقولا بارفينوفتش أنك قاضٍ بارع جداً ، ولكن أحسب مع ذلك أن علىَّ أن أساعدك . أوه ! لقد تنفست أيها السادة ... لا تؤاخذوني إذا أنا كلمتكم بغير كلفة . ثم اننى ثمل قليلاً ، أعترف لكم بذلك صراحة . أظن يا نيقولا بارفينوفتش أننى قد سبق لى أن سررت وسرفت بلقائك ، عند ميوسوف ، قريبي ... معذرة أيها السادة ! لست أدعى المساواة بكم الآن ، فأنا أعرف موقفى أمامكم حق المعرفة ... هناك تهمة رهية تجثم علىَّ ... طعماً ... إذا كان جريجورى قد شهد علىَّ ... فلا بد أن تكون القرائن قوية فى الظاهر ... نعم ... أنا موضع شبهة خطيرة ! فطيع ! فطيع ! اننى أفهم هذا حق المهم ، نقوا من ذلك ! ولكن فلنصل الى الوفائع أيها السادة ! اننى مستعد ... وسوضح الأمور فى بضع دقائق يا سادتى ، أليس هذا صحيحاً ؟ ما دمت بريئاً ... اصغوا الىَّ ، اصغوا الىَّ ! ما دمت أعلم أننى لم أرتكب هذه الجريمة ، فسوف نبدد سوء التفاهم فى طرفه عين ، أليس كذلك أيها السادة ؟

كان ميتيا يتكلم متعجبلاً متدفقاً على نحو عصبى ، وبنوع من الاصرار العنيد على أن يعد محدثيه كأنهم خير أصدقائه .

قال نيقولا بارفينوفتش بلهجة رصينة :

- سنسجل الآن اذن أنك تنكر انكاراً قاطعاً التهمة الموجهة اليك . ثم التفت نحو الكاتب ، وأملى عليه بصوت خافت خلاصة انكارات ميتيا .

- آ ... أنتم تسجلون أقوالى ؟ أتريدون تدوينها ؟ طيب ... اكتبوا اذا شئتم ... أوافق على هذا ... لا أرى فى هذا ضيراً أيها السادة ... ولكن ... لحظة من فضلكم ! أريد أن تكتبوا كما يلى :

« ارتكب جرم استعمال العنف ، فضرب عجزوا مسكينا ، وهو يعترف بذلك » ثم اننى فى أعماق نفسى ، فى قرارة ضميرى ... ولكن لا داعى الى كتابة هذا (هكذا قال ملتقاً الى الكاتب) ... تلك حياتى الخاصة التى لا شأن لكم بها أيها السادة ، هذه أغوار قلبى ... أما قتل أبى فأنا برىء منه ! تملكتم تهمة حمقاء ! ذلكم افتراض سخيف ... سأبرهن لكم على هذا ، فتقنعون اقتناعاً تاماً . سوف تضحكون أيها السادة ، سوف تضحكون أنتم أنفسكم من الشكوك التى راودتكم ، سوف تنفجرون ضاحكين .

تدخل قاضى التحقيق فقال وكأنه يريد أن يضرب بهدوئه هو ملاً
لميتاً المندفع المضطرب :

— هدىء نفسك يا دمترى فيدوروفتش ! أحب أن أرجوك ، قبل أن تنابع الاسنجواب ، أن تؤكد لى — اذا كنت توافق على ذلك — أنك لم تكن تحب فيدور بافلوفتش كيرا ، وأن مشاجرات كثيرة كانت تقع بينكما . لقد صرحت أنت نفسك ، منذ ربع ساعة ، فى هذا المكان نفسه ، اذا لم بخطئى ظننى ، أنك كنت تنوى أن تقتله . لقد صرحت تقول : « كنت أريد أن أقتله ولكننى لم أقتله » .

— أقلت أنا هذا ؟ أوه ! جازر أيها السادة ! نعم ... وا أسفاه ! لقد تمنيت أن أقتله ، وراودتنى نفسى على هذا مرارا ... وا أسفاه !

— كنت تنوى اذن أن تقتله . فهل تستطيع أن تشرح لنا أسباب هذا الكره الذى كنت تحمله لأبيك ؟

قال ميتيا بلهجة متجهمة وهو برفع كتفيه ويخفض رأسه :
— ليس هناك ما يُشرح أيها السادة ! أنا لم أخف عواطفى ، والمدينة

كلها تعرفها ، حتى أن الناس يتحدثون عنها في الكاباريه • ومنذ بضعة أيام لا أكثر ، عبرت عنها في الدير ، في حجرة الشيخ زوسيم • وفي مساء ذلك اليوم نفسه ضربت أبي وأوشكت أن أقتله ، وحلفت أمام شهود لأعودنّ فأجهز عليه • آوه ! في وسعكم أن تجدوا ألف شاهد على ، بغير عناء • انى لم أزد على أن هدأت كرهى له خلال هذا الشهر • • • الناس جميعاً يشهدون • • • الوقائع متوفرة • • • الوقائع تتكلم من تلقاء نفسها ، بل هى تصرخ • • • أما عواطفى أيها السادة فأمرها أمر آخر ! يخيل الى أيها السادة (وهنا قطب ميتا حاجيه) أنه ليس من حقكم أن تسألونى عن عواطفى • ان وظائفكم تخولكم سلطات ، أنا أعرف هذا وأفهمه ، ولكن عواطفى هى من شأنى أنا ؛ هى تصل بحياتى النفسية ، الحميمة • • • على كل حال ، ما دمت لم أكتبها حتى الآن • • • لم أكتبها فى الكاباريه مثلاً ، وكنت أكتشف بها أول قادم ، فليكن ما تريدون ! فلن أخفيها عنكم أتم أيضاً • أيها السادة ، انى أدرك حق الادراك أن الشبهات كبيرة وأن القرائن قوية : فلقد أعلنت لجميع الناس أننى سأقتله ، وها هو ذا يُقتل • فكيف لا أكون أنا القاتل والحالة هذه ؟ هاها ! انى أعذرکم أيها السادة ، أعذرکم كل العذر • أنا نفسى قد أذهلنى هذا الحادث : من عسى يقتله اذا لم أقتله أنا ؟ أليس كذلك ؟ اذا لم أقتله أنا فمن يقتله ؟ من ؟ من ؟ (ثم صاح فجأة يقول :) أريد أن أعرف منكم أيها السادة ، أطلبكم بأن تقولوا الى الحقيقة : أين وجد مقتولا ؟ وكيف قتل ، بأى سلاح وفى أية ظروف ؟ قولوا لي هذه الأمور ! (كذلك ردّد بقوة ، وهو ينظر الى وكيل النيابة وقاضى التحقيق واحداً بعد آخر) •

أجابه وكيل النيابة قائلاً :

— وجدناه رافداً على ظهره فوق أرض الغرفة ، مكسور الجمجمة •

قال ميتيا مرتجفاً وهو يضع كوعيه على المائدة ويخفى وجهه بيده اليمنى :

- هذا فظيع أيها السادة !

وتدخل يقولان بارفينوفتش فائلاً :

- لتتابع لاستجواب • لأى سبب كنت تكره أبالك ؟ لقد صرحت على رؤوس الأشهاد ، فيما أظن اننى أعلم ، أن الغيرة هى التى كانت تؤلبك عليه ، فهل هذا صحيح ؟

- هى الغيرة ان شئتم • ولكن الغيرة ليست السبب الوحيد لموقفى

منه •

- لعل هناك خصومات على مال ؟

- نعم ، نعم ، مسائل مالية •

- كان الخلاف يدور ، اذا لم يخطئ ظنى ، على ثلاثة آلاف روبل

هى من حقت فى الميراث ولم يدفعها لك •

قال ميتيا مستاءً :

- ثلاثة آلاف روبل ؟ بل أكثر كثيراً ، أكثر كثيراً • كان مديناً لى

بأكثر من ستة آلاف روبل ، وربما بأكثر من عشرة آلاف • قلت هذا

لجميع الناس ، صحت به فى كل مكان ! ولكننى كنت مستعداً لقبول ثلاثة

آلاف روبل تساهلاً ، لأننى كنت فى حاجة مستعجلة رهية الى هذا

المبلغ ... فكان ذلك الطرف الذى يضم ثلاثة آلاف روبل والذى يوجد

تحت وسادته ، (أنا أعلم ذلك) والذى أعدّه هو لجروشنكا ، كان فى

نظري مالاً سُرقت منى • هل تفهمون أيها السادة ؟ كنت أعد ذلك المبلغ

حقاً من حقوقى ، وملكاً شرعياً لى •

بادل وكيل النيابة قاضى التحقيق نظرة ذات دلالة ، وغمره بعينه

غمزة خفيفة •

أسرع القاضى يقول :

- سنعود الى هذه المسألة • واسمح لى أن أسجل هذه النقطة
بعينها : وهى أن ذلك المبلغ المودع فى الظرف كان فى رأيك حقاً
مشروعاً لك •

- اكتبوا أيها السادة ! اننى أدرك أن هذا قرينة جديدة على ،
ولكننى لا أخشى شيئاً ، ولسوف أمدكم بقرائن أخرى • سوف أمدكم
أنا نفسى بقرائن أخرى ، هل تسمعوننى ؟ يبدو لى أيها السادة أنكم ترون
فى رجلاً مختلفاً كل الاختلاف عما أنا فى الواقع (كذلك أضاف يقول
حزينا مظلم الوجه) • ان أمامكم أيها السادة انساناً صادقاً مستقيماً
لا يعرف طبعه الالتواء والمخاتلة ، ان أمامكم انساناً - لا يغيب هذا عن
بالكم - ان يكن قد ارتكب حقارات كثيرة ، فانه ظل دائماً فى قرارة
نفسه ، أعنى فى أعماق قلبه ، طاهراً ••• الخلاصة ••• اننى لا أحسن
الافصاح عما بنفسى ••• لقد تأملت طول حياتى بسبب اندفاعات روحى
الى ما هو خير وسمو ، وكنت أبحث عن نبل الطبيعة الانسانية بحث
ديوجين عنه ان صبح النعير ، حاملاً مصباحاً ••• ورغم ذلك قارفت
دناءات فى كل خطوة من خطواتى ، كما نقارف جميعاً هذه الدناءات أيها
السادة ••• أقصد ••• لا ••• لا كما نقارفها جميعاً ، بل كما أقارفها
أنا وحدى ، لقد أسأت التعبير يا سادتى ••• نعم ، كما أقارفها أنا وحدى
••• ان بى صداعا أيها السادة (كذلك قال فجأة وقد تقبضت قسماًت
وجهه على ألم) ••• نعم يا سادتى ••• كنت أكره مظهره ؟ كان فى
جسمه شيء يوحى بالدنس ، كان فيه تبجح واحتقار لكل ما هو عظيم
مقدس ، كان فيه سخرية وكفر ! أوه ! كان هذا دنيئاً ، دنيئاً جداً !
ولكننى أفكر الآن غير هذا التفكير بعد أن غاب عن الوجود •

- غير هذا التفكير ؟ ماذا تعنى ؟

— لا غير هذا التفكير ، ولكننى آسف لأنى كرهته ذلك الكره
الشديد كله .

— أنت نادم اذن ؟

— لا ، لا يعنى ذلك اننى نادم ، لا تكتبوا هذا ! أنا نسيى ملىء
بالعيوب أيتها لسانه ! أنا لست منال جمال النفس ، فلم يكن من حقى
اذن أن أنفر منه ذلك النفور كله . . . هذا ما تستطيعون أن تكتبوه .

وبدا على ميتيا ، بعد هذا الجواب الأخير ، أنه قد خارت فواه جدا
على حين فجأة . وكان وجهه قبل ذلك بيضع دقائق قد أخذ يزداد
اكتهاراً وجهامة كلما تتابع الاستجواب . وهذا مشهد لم يكن فى الحسبان
يقع بفتة فى تلك اللحظة نفسها . كانت جروشكا قد أبعدت من الغرفة
طبعاً ، ولكنهم لم يقصوها الى مكان ناء ، وانما أودعوها فى الغرفة الثالثة ،
وهى غرفة لا يفصلها عن الغرفة الزرقاء التى يجلس فيها ميتيا والقاضى
الا القاعة التى فام فيها الرقص وتم فيها لقصف أثنا الليل . هى غرفة
صغيرة ذات نافذة واحدة جلست فيها جروشكا بصحبة ماكسيموف الذى
روّعته الأحداث فكان ينشبت بجروشكا تشبث الغريق بلوح النجاة .
وعلى باب تلك الغرفة كان يربط فلاح على صدره صفيحة من معدن .
كانت جروشكا تبكى ، وها هى ذى تحس فجأة أنها أصبحت لا تقوى على
كبح حزنها ، فإذا هى تنهض وتضم يديها احدهما الى الأخرى ، وتصبح
فائلة : « يا للشقاء ! » ، ثم تندفع الى خارج الغرفة ، متجهة اليه ، الى
عزيرها ميتيا ؟ وقد تم ذلك على نحو بلغ من المباغلة أن أحداً لم يسمع
وقته لصدها . وقد سمع ميتيا صرختها ، فارتعش ، ووثب عن كرسيه ،
وأطلق من صدره نوعاً من العويل ، واندفع نحوها طاشى العقل ، كأنه
نسى الوضع الذى هو فيه . لم يُترك لهما أن يلتقيا ، وان تكن نظراتهما
تد التقت . أمسك ميتيا بقوة ، فأخذ بصارع حائقاً مسعوراً ، ولم تمكن

السيطرة عليه الا بنعاون ثلاثة رجال أو أربعة • وأمسكت هي أيضاً ،
ورأى ميتاً كيف كانت تصرخ وتمد اليه ذراعها فى لوعة شديدة بينما
كانوا يقتادونها • حتى اذا رجع كل شئ الى الهدوء وجد ميتاً نفسه مرة
أخرى فى ذلك المكان نفسه ، أمام المائدة ، فباله القاضى ، فصاح يسأل
القاضى قائلاً له :

— ماذا فعلت لكم ؟ لماذا تعذبونها ؟ انها ليست مذنبة ، انها لم تصنع
شيئاً •••

فحاول وكيل النيابة وقاضى التحقيق أن يهدئاه • وانقضت على هذه
الحال عشر دقائق • وأخيراً عاد الى الغرفة ميشيل ماكاروفتش الذى كان
قد غاب ؛ وتقدم نحو وكيل النيابة بخطى سريعة وقال له بصوت عال
واضطراب شديد :

— ابعدها من هنا • هى الآن تحت • هل تأذنون لى أيها السادة
أن أقول كلمتين لهذا الانسان العاثر الحظ ، كلمتين لا أكثر ؟ بحضوركم
أيها السادة ، بحضوركم •••
فأجابه القاضى :

— لك ما تشاء يا ميشيل ماكاروفتش ، نحن لا نرى فى هذا أى
بأس ، فى هذه الحالة الخاصة •

فبدأ ميشيل ماكاروفتش يقول مخاطباً ميتاً :

— دمترى فيدوروفتش ، بنى المسكين ، أصغ الى •••
كان وجهه ، المحمر من الانفعال ، يعبر عن شفقة على المسكين
تشبه أن تكون شفقة أب • وتابع كلامه قائلاً :

— لقد توليت بنفسى أخذ أجرافين الكسندروفنا الى الطابق الأرضى ،
وعهدت بها الى بنات صاحب المنزل ؛ كما أن العجوز الصغير ماكسيموف

أصبح لا يتركها • وفد كلمتها ، وطمأننها ، هل تسمعي ؟ أفهمتها أن عليك أن تدافع عن نفسك ، أن تبرىء نفسك ، فما ينبغي لها أن تمنع من ذلك بتسويشك ، والا فقد تدلى من شدة اضطرابك بأقوال خطأ تشهد عليك ، هل تفهمني ؟ الخلاصة *** أقنعها فقالت انى على حق • انها ذكية وطيبة جداً ! كانت تريد أن تقبل يديّ لأننى شيخ عجوز ، وتضرعت الىّ من أجلك ؛ وطالبتنى ملحةً بأن أجيء اليك لأطلب منك أن تكون مطمئن البال عليها • يجب أن تطمئن يا عزيزي ، وأريد أن أعود اليها الآن لأبلغها أنك مطمئن وأنسك لا تخشى عليها من شيء • هدىء نفسك يا عزيزي ، ذلك واجبك • أنا أحس بأننى مذنّب فى حقها • ان لها نفساً مسيحية ؛ نعم يا سادتى : هى طفلة وديعة بريئة • هل أستطيع أن أبلغها يا دمتري فيدوروفتش أنك ستهدأ الآن ؟

كان الرجل الطيب يخطب فى كلامه خبط عشواء • ان ألم جروشنكا ، هذا الألم الانسانى ، قد نفذ الى قلبه رأساً ، فكان فى عينيه دموع • نهض ميتيا واندفع نحوه ، وصاح يقول :

— باذنكم يا سادتى ، باذنكم • انك يا ميشيل ماكاروفتش ملاك من ملائكة الخير • شكراً لك من أجلها • نعم ، أنا هادىء ، قل لها هذا ، وسأكون مرحاً *** فل لها ، بما لك من طيبه وأريحية ، اننى مرح ، مرح جداً ، حتى لأشتهى أن أضحك ، لعلمى بأنها فى حماية ملاك حارس منلك • سأنهى هذا الاتباس بسرعة ، حنى اذا انتهت ، خفت اليها • فلتعتمد علىّ ولتتظرنى واثقة • أيها السادة (كذلك قال بخاطب قاضى التحقيق ووكيل النيابة) ، سوف أفتح لكم نفسى كلها ، سوف أسرّ اليكم بكل شيء ، فنفزع من هذا الحادث بسرعة وننتهى منه مرحين ضاحكين ، لأننا سنضحك جميعاً فى النهاية ، أليس كذلك يا سادتى ؟ *** ان هذه المرأة هى ملكة قلبى ! أوه ! اسمحوا لى أن

أقول لكم اننى أشعر بالحاجة الى أن أفضى اليكم بما فى قلبى ... لأننى أرى أن أمامى أناساً لهم نفوس نبيلة • انها ضيائي وحياتى أيها السادة ! آه ... ليتكم تعلمون ! هل سمعتم كيف صرخت تقول : « سأشاركك العقوبة القصوى ! » ؟ فماذا أعطيتها أنا الذى لا أملك شيئاً ، حتى أستحق منها مثل هذا الحب ؟ لست جديراً بهذا الحب ، أنا الانسان السيء ، بوجهى المنفّر ، وسلوكى الأخرق ، ومظهرى الثقيل • أنا جدير بمثل هذا الحب ؟ ماذا فعلت فى سبيلها حتى تكون مستعدة لأن تبغنى الى سجون الأشغال الشاقة ؟ لقد ارتمت على أقدامكم منذ هنيهة فى سبيل ، هى السماء التى لم ترتكب ذنباً يمكن أن تلام عليه • فكيف لا أعبدّها ، كيف لا أندفع نحوها كما اندفعت منذ لحظة ؟ اغفروا لى أيها السادة ! ولكننى قد تأسيت الآن ...

قال ميتا ذلك وعاد يتهالك على الكرسي ، وأخفى وجهه بيديه وأخذ يبكى ناشجاً منتحباً • ولكن دموعه فى هذه المرة كانت دموع التخفف والسكينة والطمأنينة • كان يشعر أنه استرد ذاته ورجع الى نفسه • وأشرق وجه رئيس الشرطة ، وظهر الرضى والارتياح على رجلي القضاء أيضاً : لقد أحسا أن الاستجواب سيدخل مرحلة جديدة • ورجع ميتبا اليهما بعد أن شيع رئيس الشرطة ، عاد هادىء النفس مطمئن الجنان • وقال :

– والآن أيها السادة ، أضع نفسى تحت تصرفكم • ولكن ليتكم ترضون أن لا ترتبكوا بجميع تلك التفاصيل ، فنتفاهم عندئذ بسرعة كبيرة • انتى أتيه فى تلك التفاصيل • أنا مستعد أيها السادة ، ولكن صدقونى اذا قلت لكم : ان الثقة المتبادلة لا بد منها ولا غنى عنها فى مثل هذه الحالة • يجب أن تصدقونى كما أصدقكم ، والا فلن نصل أبداً الى

النهاية • أقول لكم هذا لمصلحتكم أنتم • فهيئاً بنا أيها السادة ، هيا بنا الى
الوفائع ! ولكن كفوا خاصة عن البش في نفسى ، ولا تعذبونى فى سبيل
سفساف وترهات ؛ ألقوا على أسئلة تتصل بالقضية وحدها دون غيرها •
اطلبوا وفائع ، وفائع ، ولأجيينكم بما يرضيكم كل الارضاء • دعونا من
التفاصيل !

كذلك صاح ميتيا ، واستؤنف الاستجواب •

الحكمة السابعة



يقولون بارفينوفتش كلامه قائلاً :
 - لا تستطيع أن تتصور يا دمترى فيدوروفتش
 الى أى مدى تشجعنا نيتك الطيبة هذه ...
 كان الرضى يُقرأ فى عينيه الشهاوين
 الواضحتين الحسرتين اللتين رفع عنهما النظارتين حين بدأ كلامه . وتابع
 يقول :

- ان ما قلته عن ضرورة الثقة المتبادلة صادق كل لصدق صحيح
 كل الصحة . ان هذه الثقة المتبادلة شرط أساسى فى قضية لها هذه
 الخطورة ، ولا سيما حين يريد الشخص المتهم أن يبرىء نفسه وحين
 يكون فى امكانه أن يبرىء نفسه . نحن من جهتنا سنفعل كل ما يتعلق
 بنا ، ولا بد أنك لاحظت بنفسك بأية روح نجرى هذا الاستجواب ...
 أنت توافقنى على هذا يا هيوليت كيريلوفتش ، أليس كذلك ؟ (أضاف
 هذا مخاطباً وكيل النيابة فجأة) .

أجاب وكيل النيابة مؤيداً ، ولكن بلهجة جافة بعض الجفاف ،
 لهجة تتعارض مع ما أظهره قاضى التحقيق من اندفاع حار :
 - بدون شك .

ولنذكر مرة واحدة أن يقولون بارفينوفتش الذى وصل الى مدينتنا

منذ زمن قصير والذي هو في بدايه عهده بمهنته ، قد شعر دفعه واحده
باحترام عظيم لشخص وكيل النيابة عندنا هيوليت كيريلوفتشس ، فاعتقدت
بين الرجلين صداقة فويه . وكان على كل حال هو الانسان الوحيد
المؤمن حقاً بالموهب السيكلوجية والخطايه الفذه التي ينعم بها هيوليت
كيريلوفتشس « الذي لم يقدر حق قدره » . وكان يعتقد هو أيضاً ، اعتقاداً
جازماً ، بأن المراجع العليا تظلم وكيل النيابة هذا الذي سمع عنه في سان
بطرسبرج قبل أن يجرى الى مدينتنا . وكان يقولوا بارفينوفتشس ، الشاب
جداً ، هو كذلك الانسان الوحيد الذي شعر نحوه صاحبنا « المجهول
القدر » بماطفه صادقة . وقد اتسع وقتهما في طريقهما الى موكرويه ،
لأن تتفق آراؤهما في هذه القضية ، ولأن يجعما على الموقف الواجب
اتخاذهُ ، والطريقة الواجب تبنيها ، بحيث أن الفكر المرفه الذي ينعم
به يقولوا بارفينوفتشس يلتقط الآن بسرعة البرق أخفى الخواطر والنوايا
التي تتحول في ذهن زميله الأكبر منه سناً ، ويحزرها نصف كلمة ،
بإشارة خاطفة ، بحركة في عضلات وجهه ، بغمزة من عينيه .

استأنف ميتيا كلامه متحمساً :

— دعونى أتكلّم أيها السادة دون أن تقاطعونى مستوضحين تفاصيل
تأفّهة ؟ وسأبسط لكم القضية كلها بسرعة .

— موافق . شكراً لك . على أننى قبل أن أسمع ما تريد أن ترويه
لنا أحب أن أستوضح واقعة صغيرة تهمنا كثيراً ، هى مسألة تلك الروبلات
العشرة التى اقترضتها أمس مساءً ، فى نحو الساعة الخامسة ، من
صديقك بطرس ايتلتشس ، وأودعته مسديك رهناً .

— صحيح أيها السادة ، نعم رهنتهما ! أى شيء خارق فى
هذا ؟ اننى ما ان عدت الى المدينة بعد تلك الرحلة ، حتى رهنت
المسدسين الأمر بسيط جداً .

– بعد تلك الرحلة ؟ هل تغييت اذن ؟

– طبعاً ! سافرت الى خارج المدينة ، على مسافة أربعين فرسخاً من هنا • أكنتم تجهلون ذلك اذن ؟ تبادل وكيل النيابة وقاضى التحقيق النظرات •

– لعلك تحسن صنعا اذا أنت بدأت بسطك للقضية بأن تصف لنا على وجه الدقة توزع وقتك بالأمس منذ الصباح • اسمح لى أن أسألك مثلاً ، ماذا كان الغرض من تغييك ، ومتى سافرت ، وفى أية ساعة رجعت • ان جميع هذه الوقائع ...

قاطعه ميتا وهو ينفجر ضاحكا :

– كان ينبغي أن تسألنى عن ذلك فوراً • بل اننى لأعتقد أنه يحسن أن نبدأ القصة لا من أمس بل من أمس الأول ، من صباح أمس الأول ، وستفهمون عندئذ لماذا قمت بتلك الرحلة ، وماذا كان هدفى منها ، وما هى الظروف التى أحاطت بها • فى صباح أمس الأول ، أيها السادة ، ذهبت الى التاجر سامسونوف على نية أن اقترض منه ثلاثة آلاف روبل لقاء ضمانات موثوقة تماما • ذلك اننى احتجت الى هذا المبلغ احتياجا مستعجلا على حين فجأة ، احتياجا مستعجلا جدا أيها السادة ...

قاطعه وكيل النيابة يسأله بأدب :

– اسمح لى أن أسألك لماذا احتجت فجأة الى المال ، ولأى غرض وجب عليك أن يكون معك ثلاثة آلاف حتماً ؟

– ما فائدة هذه التفاصيل كلها أيها السادة ؟ لماذا ومتى وكيف وأين ... ما فائدة هذا كله فى الواقع ؟ لأن أحتاج الى ثلاثة آلاف روبل أو الى أى مبلغ آخر ... لن نفرغ من الأمر أبداً اذا نحن تنها

فى هذه التفاصيل الدقيقة ! لسوف نحتاج عندئذ الى ثلاثة مجلدات على الأقل ، عدا المقدمة ! ...

كان ميتيا يتكلم بلهجة خالية من الكلفة رغم التملل ، لهجة انسان يريد أن يذكر الحقيقة كاملة وتحركه أطيّب النوايا . واستأنف كلامه فجأة يقول :

— لا تؤاخذونى أيها السادة على هذه الخشونة . ثقوا أننى أشعر نحوكم بكل الاحترام الواجب لكم علىّ ، واننى مدرك موقفى تمام الادراك . وهأنذا أكرر ما سبق ان قلته : لا تظنوا كذلك أننى نمل . فقد صحوت من سكرى كل الصحو . ولكن حتى لو كنت ثملاً ، فان ذلك لن يغير من الأمر شيئاً ، ولن يكون له أى تأثير فيما سأوضحه لكم . أنا واحد من أولئك الذين يصدق فيهم قول الشاعر :

انا ان صحوت رأيتنى ثعبيا

فاذا سكرت غنوت عبقرى !

ها ها ها ! ولكننى ألاحظ أيها السادة أنه لا يليق بى الآن أن أنكّ ، الى أن نفرغ من ازالة هذا الالتباس على الأقل . فاسمعوا لى اذن أن أحتفظ على وقارى . اننى أدرك حق الادراك التفاوت القائم بيننا الآن : فأنا على كل حال انما أقف أمامكم موقف مجرم ، فهيهات أن أكون لكم نداءً . ان مهتمكم هى أن تراقبوني . ولا شك أنكم ان تلاحظوني وتلاعبوا بأيديكم شعري وتهنئوني على الحوادث الذى وقع لى مع جريجورى . فليس من الجائز للانسان أن يصرع الشيوخ بغير ذنب جنوه ، وأنا أعلم حق العلم أنكم ستطالبون بأن يُحكم علىّ بالسجن ستة أشهر أو قولوا سنة ، معاقبة لى على هذا الفعل الذى اجترحته ، ولكن دون سقوط مدنى . أنا لست معرضاً للحرمان من حقوقى المدنية ، أليس

كذلك يا وكيل النيابة ؟ قلت اذن أيها السادة اننى أدرك حق الادراك
الفرق بين موقفى وموقفكم ... ومع ذلك أرجوكم أن تعترفوا من جهتكم
بأن الله نفسه يمكن أن تربكه أسئلة من هذا النوع : كم خطوة مشيت ،
فى أى لحظة رفعت قدمك اليسرى ، فى أية لحظة أنزلت قدمك اليمنى ،
على أى شىء سرت ؟ اذا أخذتم تلقون على مثل هذه الأسئلة ، فسأرتبك
أخيراً ، وستسجلون الخطأ الذى ساقع فيه ، وسينشأ عن ذلك أن لا نصل
الى شىء . وما دمت قد بدأت ببعض الكذب ، فلا بأس أن أستمّر فى
الكذب ، وستغفرون لى كذبنى ، لأنكم أناس مهذبون مثقفون ثقافة عالية .
أحب فى الختام أن أرجوكم أيها السادة أن تقلعوا عن تلك الأساليب
البالية فى الاستجواب ، أعنى البدء بالقاء أسئلة تافهة : كيف نهضت من
نومك هذا الصباح ؟ ماذا أكلت ؟ أين بصقت ؟ ثم المبادرة ، بعد « تنويم
يقظة المجرم » على هذا النحو ، الى مباغتته فجأة بهذا السؤال : « أين
قتلت القاتل وسلبته ماله ؟ » ها ها ! ... ذلكم هو روتينكم ، ذلكم هو
علمكم كله ، تلكم هى الحيلة الكبرى فى أسلوبكم ! قد تستطيعون أن
تباغتوا فلاحين بمثل هذه الأنواع من المكر ، ولكن ذلك لا ينطلى على
أنا ! أنا نفسى خبير فى هذه الشؤون ، لقد عملت أنا أيضا فى هذا المجال ...
ها ها ها ! لا تزعلوا يا سادتى ، واغفروا لى هذه الوقاحة (كذلك صاح
وهو ينظر اليهما ببراعة تبعث على الدهشة) فما دام ميتكا كارامازوف هو
الذى يتكلم بهذه الطريقة ، فان التسامح والتساهل ممكن ، لأن ما لا يمكن
غفرانه اذا هو صدر عن رجل ذكى ، يجب أن لا يكثر به حين يكون
ميتكا هو الذى يقوله ! ها ها ! ...

كان يقولون بارفينوفتش يضحك أيضا وهو يصغى الى ميتا ، ولكنه
كان يلاحظه بالحاح ، ولا يحول عنه بصره النافذ ، ويحاول أن يسجل

كل كلمة من كلماته بل وأيسر حركة من حركاته ، وحتى أخف
لاختلاجات فى عضلات وجهه •

قال القاضى وهو ما يزال يضحك :

— يجب أن تنصفنا هذا الانصاف على الأقل ، فنعترف بأننا لم نستعمل
حك هذا الأسلوب • اننا لم نحاول أن نربكك بسؤالك كيف نهضت من
ومك فى الصباح وماذا أكلت ، وانما واجهنا الأمر الأساسى دفعةً
بأحدة ، بسرعة لعلها كانت مفرطة أيضا •

— اننى أفهم هذا وأقدره حق قدره • وأقدر كذلك ما أظهرتموه
جوى من طيبة وشهامة تدلان على سمو أخلاقكم • اننا جميعا ، نحن
للثلاثة صادقو النية تحركنا أنبل المشاعر • فليجر كل شئ بيننا كما
ينبغى أن تجرى الأمور بين أصحاب يتق بعضهم بعض ، وتربطهم روابط
النبل والشرف ! اسمحوا لى على كل حال أن أعدكم أصدقاء فى هذه
الدقيقة من حياتى ، فى هذه الساعة التى يذل فيها شرفى أكبر الازلال !
أرجو أن لا يسوءكم هذا يا سادتى !

قال نيقولا بارفينوفتشس مؤيداً :

— بالعكس ! لقد عبرت أحسن تعبير ، ووجدت أنسب الكلمات !
صاح ميتيا يقول بحماسة :

— أما التفاصيل ، أما تلك التفاصيل الزخرفية السخيفة كلها ،
لندعها وشأنها ، والا لم نعلم الى أين يمكن أن ينتهى هذا كله ، أليس
ذلك صحيحا يا سادتى ؟

قال وكيل النيابة يخاطب ميتيا فجأة :

— أنا مستعد كل الاستعداد لأن آخذ بنصائحك السديدة ، ولكننى

لن أستطيع مع ذلك أن أعيد عن سؤالى • فانه لعل جانب عظيم من خطورة الشأن فى نظرنا أن نعلم لماذا احتجت ذلك الاحتياج الشديد كله الى هذا المبلغ ، أعنى الى الثلاثة آلاف روبل •

— لماذا احتجت الى ذلك المبلغ ؟ احتجت اليه لأسباب عدة ...
الخلاصة : لأردّ ديناً على •

— ديناً لمن ؟

— ذلك أرفض أن أقوله لكم رفضاً قاطعاً أيها السادة ! أرفض أن أقوله لكم لأننى لا أستطيع أن أقوله لكم ، لا عن خوف من أى شىء ، بل لأن الأمر فى الواقع هو من السفساف التى لا قيمة لها البتة • ولئن صمتُ عنه مع ذلك ، فلأن القضية قضية مبدأ : ان هذا السؤال يمس حياتى الخاصة ، ولن أسمح لكم بالتدخل فى حياتى الخاصة • لا ... هنا لا تسامح ولا تنازل ! ان ما تسألون عنه لا علاقة له بالقضية ، وكل ما يتجاوز هذه الحدود فهو من حياتى الخاصة ! لقد أردت أن أردّ ديناً هو دين شرف ، ولكننى لن أذكر لكم اسم الشخص الذى كنت أريد أن أردّ له هذا الدين •

قال وكيل النيابة :

— اسمح لنا بتسجيل تصريحك •

— سجلوا ما شئتم ! اكتبوا أننى لن أجيب عن هذا السؤال بحال من الأحوال ! اكتبوا أن فى الاجابة عن هذا السؤال اخلاقاً بشرفى ! ليس الوقت هو ما يعوزكم فيما يبدو !

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بصوت قاسياً رصيناً على حين فجأة :

- أعتقد أن من واجبي أن أنبهك أيها السيد ، إذا كنت تجهل ذلك ، أن من حقك طبعاً أن لا تجيب عن الأسئلة التي تلقى عليك ، وأتينا لا نملك أن نجبرك على الإجابة إذا أنت رأيت لسبب من الأسباب أن تخفى هذه النقطة أو تلك من النقاط . ولكن من واجبنا أيضاً أن نلفت نظرك الى الأذى الذي يمكن أن تلحقه بنفسك إذا أنت رفضت الادلاء بالمعلومات المطلوبة .

دمدم ميتيا يقول وقد اضطرب من المهجة الرصينة التي خاطبه بها وكيل النيابة :

- ولكنني يا سادتي لم أغضب . أنا . أنا . أنا . ان سامسونوف ذلك الذي ذهب الى حينذاك . يا سادتي .

ان ن نقل هنا سلسلة الوقائع التي ذكرها ميتيا ، فان القارئ يعرفها . لقد أراد ميتيا أن يقدم عرضاً كاملاً ومفصلاً ، وكان من جهة أخرى يستعجل انجاز هذا العرض . لذلك كان يتكلم متسرعاً . غير أن تصريحاته كانت تسجل شيئاً بعد شيء ، فكان هذا يضطره الى التوقف دائماً من حين الى حين ، وكان هذا التوقف يضايقه ويزعجه ، فكان يتوقف عن الكلام وهو يدمدم متململاً ، ولكن دون أن يخرج عن طبيته وبساطته . كان يتفق له أن يصيح قائلاً في بعض الأحيان : « أيها السادة ، لو كان الله نفسه في مكاني لضاق صدره في هذه الظروف ! » أو « لست أرى أيها السادة ما الفائدة من امتحان أعصابي على هذا النحو ! » ، ولكن دون أن يفسد من ذلك مزاجه الذي كان عندئذ منطلقاً ودوداً . روى كيف أن سامسونوف قد خدعه قبل يومين (لقد أخذ يدرك الآن أن سامسونوف ضلّله وغرر به) . وذكر أنه باع ساعته بستة روبلات ليتمكن من السفر ، وتلك واقعة كان يجهلها وكيل النيابة وقاضي التحقيق ، وقد لفت انتباههما وظهر عليهما أنها اهتمتا بها اهتماماً شديداً . فكان من شأن

الحاحهما على هذه النقطة أن أخرجاً ميتاً عن طوره ، لأنهما رأيا أن من
الضرورى تسجيل هذه الواقعة ، دليلاً جديداً على أنه كان عشيّة وقوع
الجريمة لا يكاد يملك قرشاً واحداً . ومنذ تلك اللحظة أخذ يتجهّم
وجه ميتاً مزيداً من التجهّم شيئاً بعد شيء . وبعد أن روى قصة سفره
سعيّاً الى لياجافى ، وقضائه ليلةً فى الكوخ الذى يملؤه الدخان ، وصف
عودته الى المدينة ، وأخذ يصوّر ، من تلقاء نفسه فى هذه المرة ، دون
أن يُطلب منه ذلك ، جميع تباريح غيرته على جروشنيكا . فكان القاضيان
يصغيان اليه بانتباه صامتين . وقد سجلا خاصةً أنه كان قد أنشأ منذ
زمن طويل ، مركزاً للمراقبة وراء منزل فيدور بافلوفتش فى حديقة
ماريا كوندرايفنا ، وأنه كان يترصد جروشنيكا من هناك ، وأن
سمر دياكوف كان ينقل اليه أخباراً ويطلعه على ما يجرى فى منزل أبيه .
هذه الظروف كلها قد سجّلت بكثير من العناية والاهتمام . وتكلم ميتاً
عن غيرته بافاضة وانفعال . فانه رغم الحرج النفسى الذى شعر به من
عرض عواطفه الحميمة وتعريّة نفسه تعريّةً تسيء الى شرفه أمام الناس ،
قد حاول أن يتغلب على هذه المقاومات وأن يذلل هذه الصعوبات حرصاً
منه على أن يقول الحقيقة صادقاً . غير أن النظرات القاسية الباردة التى
كان يصبها عليه قاضى التحقيق ووكيل النيابة محدّقين اليه متفرسين فيه
أثناء روايته القصة قد اضطربت منها نفسه آخر الأمر . قال فى سرّه
حزيناً : « ان هذا الصبى الغر نيقولا بارفينوفتش الذى بادلتة منذ مدة
أحاديث تافهة غثة عن النساء ، وان وكيل النيابة هذا المريض النفس ،
لا يستحقان أن يسمعا ما أفضى اليهما به من اعترافات نفسى . يا للعار ! »
ولكنه استرد عزيمته مردداً ذلك البيت من الشعر الذى يقول : « قلبى
اعتصم بالصبر والاذعان » . وتابع يروى قصته مجاهداً متجلداً . فلما
وصل من حديثه الى الكلام على زيارته للسيدة هوخلاكوفا انبسطت

أساريه من جديد وشاع فى نفسه المرح ، وأوشك أن يروى نكتة عن هذه السيدة كانت تشيع فى سالوناب المدينة ، ولكنها لا تناسب الظروف كثيراً . لذلك اسوفه القاصى عن الكلام بلطف وكياسه ، راجيا منه أن ينتقل الى وفتع أهم . وحين وصف انصرافه من منزل تلك السيدة والياس الذى اجتاح نفسه فى الشارع ، لم يسقط من حديثه تلك الواقعة ، وهى أنه قد حطر بباله وهو فيما هو فيه من حيرة واضطراب « أنه لم يبق له الا أن يذبح أحداً ويسلبه ماله بأقصى سرعة للحصول على ذلك المبلغ . » . عندئذ طلب منه القاضيان أن يكرر أنه « قد خطر بباله أن يذبح أحداً » ، وأسرعاً يسجلان ذلك . وتركهما ميتيا يسجلان أقواله دون امتعاض أو احتجاج . فلما وصل من حديثه أخيراً الى اللحظة التى علم فيها فجأة أن جروشنكا قد كذبت عليه حين زعمت له أنها ستبقى عند سامسونوف الى منتصف الليل ، مع أنها فى الواقع قد تركت التاجر العجوز بعد أن ودعها ميتيا ببضع دقائق أمام باب منزل كوزميتش ، لم يملك أن يمنع نفسه من أن يصيح قائلاً :

— لئن لم أقتل فينيا تلك حين علمت التبا ، فان السبب الوحيد
يا سادتى هو أنتى قد أعوزنى الوقت .

سُجِّلَت هذه الأقوال كذلك بعناية واهتمام . فكان ميتيا ينتظر ، عابس الوجه مكفهر الأساير ، أن يفرغ الكاتب من كتابته ؛ وهم أن يشرح بعد ذلك كيف أسرع الى حديقة أبيه ، ولكن قاضى التحقيق قاطعه فجأة ، اذ فتح محفظة أوراقه الموضوعه على الكتبة قربه ، وأخرج منها مدق الهاون النحاسى ، وسأله :

— هل تعرف هذه الأداة ؟

فقال ميتيا وهو يتسم ابتسامة شاحبة :

- هذا ؟ آ ... نعم ... طبعاً أعرفها ! أرنيها ... بل لا داعى
لأن أراها ... ما فائدة ذلك ؟

- نسيت أن تتكلم عن مدق الهاون هذا •

- صحيح • كان ينبغي أن أذكر هذه الواقعة ، فلولا هذا المدق
لما وقع شيء ، ولكن الأمر كان قد خرج من ذهني •

- هلاً ذكرت لنا الظروف التي تسلمت فيها بهذا المدق !

- بكل سرور يا سادتي •

وروى ميتيا كيف تناول مدق الهاون من مطبخ فينيا عرضاً •

- ماذا كان هدفك من أخذ هذا السلاح ؟

- ماذا كان هدفى ؟ لم يكن لى غرض ، وإنما أخذته هكذا ... •

- ما هذا الكلام ؟ أكنت تأخذه لو لم يكن لك هدف ؟

على ميتيا حنقاً • كان يتفرس فى « الفتى الغر » مبتسماً ابتسامة عداوة
وكره • ذلك أنه كان يشعر بمزيد من الخزي والعار ، شيئاً بعد شيء ،
من أنه ارتضى أن يصف « لأناس مثلهم » ، بمتل هذا الصدق كله وبمتل
هذا الاندفاع العاطفى كله فوق ذلك ، مشاعر الغيرة التي كانت تعذبه •

- مالنا ولهذا المدق اللعين ؟

- ولكن ... •

- ولكن .. ولكن .. طيب .. كنت أريد أن أدافع عن نفسى من
كلاب الشارع .. فى الظلام .. احتياطاً للمفاجأة .. •

- هل اعتدت ، من قبل ، حين تخرج ليلاً ، أن تسلح خوفاً من

الظلام ؟

- هو ! حقاً انه ليستحيل الحديث معكم أيها السادة ...

كذلك صاح يقول ميتيا وقد بلغ أوج الغيظ والحنق •

ثم التفت نحو الكاتب ، فقال له بصوت فيه احتياج غريب ، وقد احمر وجهه غضباً :

- اكتب ... اكتب حالاً » اننى أخذت المدق على نية الذهاب فوراً

الى أبى فيدور بافلوفتش • لقتله • لتحطيم جميعته • • •

ثم هتف يقول مخاطباً قاضى التحقيق ووكيل النيابة ، وهو يرشقهما بنظرة متحدية مستفزة :

- أأنتم راضون الآن أيها السادة ؟ هل طبتم نفساً ؟ هل اغتبطت قلوبكم ؟

فأجابه وكيل النيابة بلهجة جافة :

- نرى انك قد أعطيت هذا التصريح بسبب حنقك منا وبسبب ضيقك بهذه الأسئلة التى تظن أنها تافهة • ولكننا مضطرون الى القاء هذه الأسئلة عليك لأنها فى الواقع هامة جداً •

- أرجوكم أيها السادة ! أخذت هذا المدق ... طيب ! ان المرء يشعر أحياناً بالحاجة الى أن يكون فى يده شئ • ... الحق اننى أجهل لماذا أخذته • لقد أخذته راكضاً ، هذا كل شئ • ألا تخجلون أيها السادة ؟ دعونا من هذا ، والا فيميناً لن أحكى شيئاً بعد الآن !

قال ميتيا ذلك ووضع كوعيه على المائدة ، وجعل رأسه فى يده • كان جالساً الى جانب بالنسبة الى الرجلين ، وكان ينظر الى الحائط محاولاً أن يسيطر على غضبه • وكان يفريه فعلاً أن ينهض وأن يصرح بأنه لن يقول بعد الآن كلمة واحدة « ولو سيق الى الموت » •

قال فجأة وهو يجاهد فى سبيل أن لا ينفجر :

- أتعرفون أيها السادة ؟ اننى ، وأنا أصغى اليكم ، أشعر باحساس غريب يذكرنى هذا الاحساس بحلم بحلم ما يعاودنى فى كثير من الأحيان أثناء النوم أحلم أن أحداً يطاربنى فى الليل ، فى الظلام أحداً أخاف منه خوفاً رهيباً انه يبحث عنى ، وأحاول أنا أن أختبئ منه ، أن أغيب عن بصره فألوذ جباناً وراء باب أو وراء خزانة ، فألطو هناك جامداً لا أتحرك والرجل الآخر يعرف أين أنا ، يعرف مخبئى ، ولكنه يتظاهر بأنه يجهله ليطلق عذابى وليتمتع بهلمى زمناً أطول ذلك هو بعينه ما تفعلونه أنتم فى هذه اللحظة أيها السادة ! ذلك هو بعينه تماماً !

- أترادك اذن أحلام فيها خوف وقلق ؟

- أى نعم ألا تريدون أن تسجلوا هذا أيضاً ؟

- لا لن نسجله . ولكنه اشارة هامة فى الواقع . الحق انك ترى أحلاماً غريبة

- غير أن ما أراه الآن ليس حلماً ! انه واقع أيها السادة ، هو واقع الحياة الرهيب ! أنا ذئب وأنتم الصيادون . فهلموا وراء الذئب !

قاطعه قاضى التحقيق قائلاً له برقة ولطف :

- تخطئ أن ترى الأمور هذه الرؤية . لماذا هذا التشبيه ؟

فقال مبتتاً غاضباً :

- بلى أيها السادة ! ان هذا التشبيه يصدق على الطرف الحاضر كل

الصدق !

غير أن جوابه هذا قد خفف عنه ، فهدأ قليلاً ، وأخذت الطيبة تغزوه من جديد ، فتابع كلامه قائلاً :

- من حَقَّكم أن تشكوا في مجرم أو متهم تعذبونه باستجوابكم ، ولكن حين يكون أمامكم إنسان مسنَّع نيل أيها السادة ، وحين يكلمكم هذا الإنسان مستسلماً لأصدق اندفاعات قلبه ، فما ينبغي لكم عندئذ أيها السادة أن تشكوا في كلامه ... لا يحق لكم أن لا تصدقوه ... لا يحق لكم ذلك حينذاك ...

... عليك بالصمت قلبي*

اصبر وأذعن ، وصمتا !

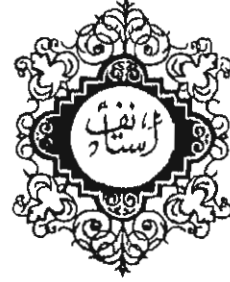
ثم سألهم فجأة وقد أظلم وجهه :

- أأستأنف سرد قصتي ؟

فأجابه يقول بارتينوتش :

- طبعاً ! لقد هممت أن أرجوك أن تفعل •

الحكمة السابعة



ميتيا سرد قصته بصوت كالح ، ولكنه يحاول الآن ، أكثر مما كان يحاول قبل ذلك ، أن لا يسقط أى واقعه من الوافائع التفصيلية • روى كيف وثب فوق السور ليدخل الى حديقة أبيه ، ووصف مشيته الصامته للاقتراب من النافذة ، وعرض عرضا دقيقا ماجرى أثناء اللحظات التى ظل فيها متربصا مرافبا وراء الشجيرات ، وصور تصويرا واضحا - وهو يفصل كلماته - العواطف التى هزت نفسه حين كان يحاول قلقل أن يعرف هل جروشكا عند أبيه أم لا • ولكنه استغرب أن يرى أن وكيل النيابة وقاضى التحقيق يصغيان اليه فى هذه المرة وقد ظهرت فى وجهيهما قسوة ، واصطنعا الجد والكلفة ، أصبحا لا يسألانه عن شيء • كان يستحيل عليه أن يدرك من تعبير وجهيهما ما كانا يفكران فيه • قال فى نفسه : « لا شك أنهما غاضبان مستاءان ؟ فليكن ما يكون ! » • حتى اذا وصل من حديثه الى « الاشارة » التى قرر أن يستعملها حتى يظن أبوه أن جروشكا وصلت فيفتح النافذة ، لا حظ أن قاضى التحقيق ووكيل النيابة لا يوليان هذا الأمر أى انتباه ، فكأنهما لا يدركان خطورته ولا يفهمان ما هى تلك « الاشارة » التى يتحدث عنها ، فاستغرب ميتيا ذلك أشد الاستغراب • فلما وصل أخيرا الى اللحظة التى رأى فيها

أباه يميل من على النافذة ، فشعر بتأجج كرهه له وأخرج مدق الهاون من جيبه ، توقف ميتيا عن الكلام كأنه تعتمد ذلك ، وأخذ يحرق الى الجدار ، ولكنه أحس أن الرجلين يرقبانه بانتباه شديد • قال وكيل النيابة :

- هيه ، أخرجت السلاح من جيبك ••• ثم ••• ثم ••• ماذا حدث بعد ذلك ؟

- بعد ذلك ؟ قتلته ••• ضربته على صدغه وكسرت جمجمته ••• هذا ما حدث فى زعمك ، أليس كذلك ؟

هكذا صاح ميتيا وقد قدحت عيناه شراراً • لقد تأجج الغضب فى نفسه من جديد ، بعنف متزايد •

قال يقولون بارفينوفتش :

- ذلك فى زعمنا نحن • طيب • فماذا فى زعمك أنت ؟

حفص ميتيا عينيه • وخيم صمت طويل •

ثم استأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت هادئ :

- فى زعمى أنا ، اليكم ما حدث أيها السادة • لا أدري أبتلهت أمى الى الله فى تلك اللحظة ، أم انسكبت دموع بريئة طاهرة لابعاد الشر ، أم أمسكنى من يدي ملاك لا يرى ؟ المهم أن الشيطان قد غلب • ابتعدت عن النافذة ، وركضت متجهاً نحو السور ••• دعر أبى ، وعرفنى فجأة ، وأطلق صرخته ، وغاب عن النافذة ••• أتذكر هذا تذكراً واضحاً • اجتزت الحديقة ، وأسرت أبلغ السور ، وفى تلك اللحظة انما ظهر جريجورى الذى أدركنى حين كنت قد جثمت على السور • قرر ميتيا أخيراً أن يرفع عينيه نحو محدثيه • فلاح له أنهما كانا

يظنران اليه بنير اكرات • فألت به رعدة من غضب • وقال لهما :

— الأفظ يا سادتي أنكم تسخرون منى !

فسأله نيقولا بارفينوفتش :

— ما سبب خطور هذه الفكرة ببالك ؟

— انكم لا تصدقون كلمة واحدة مما أقول ، أنا أدرك هذا • أوه !
فهمت : لقد وصلت الى عقدة القضية • العجز يرقد الآن جنة هامة
محطم الجمجمة ، وأنا ، بعد أن وصفت لكم وصفا فاجعا كيف أردت أن
أفله ، وكيف أخرجت مدق الهاون من جيبي لهذا الغرض ، أصرح
لكم فجأة بأننى لم أزد على أن ابتعدت عن النافذة ! ... هذه قصيدة
حقا ، أليس كذلك ؟ كان ينبغى أن يقال هذا الكلام كله شعرا ! كيف
يمكن أن يُصدّق رجل مثلى ؟ آه ... ألا أنكم لتعرفون كيف
تسخرون وتضحكون دون أن يظهر عليكم ذلك •

قال ميتيا هذا الكلام ، واستدار ثقيلًا على كرسيه فقرقع الكرسي •

قال وكيل النيابة عندئذ دون أن يبدو عليه الاكرات باضطراب
ميتيا :

— هل لاحظت أثناء ابتعادك عن النافذة أكان الباب المفتوح الى
الحديقة فى الطرف الآخر من المبنى مفتوحا أم كان مغلقا ؟

— كان مغلقا •

— مغلقا ؟ أأنت متأكد ؟

— كل التأكد • كان ذلك الباب مغلقا • ثم انه ما كان لأحد أن
يستطيع فتحه • هذا • هذا الباب • لحظة ! (كذلك صاح ميتيا يقول

مرتعشاً ، كأن فكرة قد ومضت في ذهنه فجأة) • ألعلمكم وجدتم ذلك الباب مفتوحاً ؟

- نعم ، كان مفتوحاً •

- فمن عسى يفتحه ان لم تفتحوه أتم أيها السادة •

كذلك قال ميتا مندهشاً كل الاندهاس •

فقال وكيل النيابة بصوت رصين بطيء ، مقطعا كلماته :

- كان الباب مفتوحاً ، ومن المؤكد أن قاتل أبليك قد دخل المنزل من هناك ؛ حتى اذا أتم جريمته خرج من ذلك الباب نفسه أيضا • تلك نقطة نعدّها مفروغاً منها • فمما لا يخالجنّا فيه ريب أن القاتل قد ارتكب جريمته في الغرفة لا من خلال النافذة • ان هذه النتيجة يدل عليها جميع ما شاهدناه ، يدل عليها وضع الجثة وتدل عليها مجموعة من القرائن الأخرى • لم يبق أى شك من هذه الناحية •

عبر وجه ميتا عن دهشة عميقة • وصاح يقول زائغ الوجه :

- ولكن هذا مستحيل كل الاستحالة • أنا ... أنا لم أدخل البيت ! أؤكد لكم جازماً أن الباب ظل مغلقاً أثناء وجودي في الحديقة ، وأنه كان مغلقاً أيضا حين هربت • اننى لم أتحرّك من مخبئي ؛ ومن النافذة وحدها انما رأيت ... من النافذة وحدها ... اننى أتذكر جميع التفاصيل • وهبني لا أتذكرها ، فاننى على يقين من أن الباب كان مغلقاً ، لأن أحداً لم يكن يعرف « الاشارات » الا أنا وسمردياكوف ، والمتوفى طبعا ؛ وبدون الاشارة المتفق عليها لا يمكن أن يفتح العجوز الباب •

- الاشارات ؟ عن أى اشارات تتكلم ؟

كذلك سأله وكيل النيابة بفضول شره محموم أفقده وضع الرصانة

والوفار فى لحظه • كان فى نبرة سؤاله شىء من مذلة ، شىء من ضراعه ،
ذلك أنه قد أحس أن هناك واقعه هامه كان ما يزال يجهلها ، وهو يخشى
أن يرفض ميتيا أن يكشفها له بأكملها •

أجابه ميتيا وهو يغمز بعينه ويتسّم ابتسامة مأكرة :

— آ ••• أنت لا تعلم ؟ فما رأيك اذا لم أشأ أن أقول لك شيئاً عن
أمر تلك الاشارات ؟ من عسى يطلعك على ذلك فى هذه الحالة ؟ ذلك
أن هذه الاشارات لا يعرفها أحد الا أنا وسمردياكوف والمتوفى • ان أحداً
لم يُطْلَع على السر ، فليس يعرفه ، عدانا ، الا الله ••• ولكن الله لن
يقول لك شيئاً عن هذا الأمر ؟ وهو أمر هام الى أبعد الحدود ، لا يعرف
الا الشيطان جميع النتائج التى يسمح بالوصول اليها • ها ها ها ، مخاوفكم
حمقاء ! انكم لا تعرفون الانسان الذى تخاطبونه • ان أمامكم متهماً يتلذذ
بجمع القرائن التى تشهد عليه ! آ ••• نعم يا سادتى ! ذلك أننى أنا
فارس شرف ، ولكننى لن أقول مثل هذا الكلام عنكم أتم !

بلع وكيل النيابة هذه الأقوال الجارحة برفق ولطف ، لأنه كان
يحترق رغبة فى معرفة الواقعة الجديدة • تكلم ميتيا بافاضة ودقة عن كل
ما يتصل بالاشارات التى تصورها خيال فيدور بافلوفتش لاستعمال
سمردياكوف ، وأوضح معنى كل طريقته من تلك الطرق المختلفة فى
قرع النافذة ، ومثلها هو نفسه بالضرب على المائدة • فسأله يقول
بارفينوفتش عندئذ هل قرع النافذة بالاشارة المتفق عليها لينبى فيدور
بافلوفتش بأن « جروشنكا وصلت » ، فأجابه ميتيا بأنه قد قرع النافذة فعلاً
بعدد الضربات المتفق عليها لاعلان وصول السيدة الشابة • وختم ميتيا
كلامه قائلاً :

— فهأتّم أولاء اطلعتم على الأمر • هلموا اجمعوا القرائن فوق
القرائن ، وتابعوا استدلالانكم واستخرجوا نتائجكم •

ثم حول وجهه عن الرجلين باحتقار •

سأله يقولان بارفينوفتش مرة أخرى :

- أنت تؤكد اذن أنه لم يكن أحد غيركم ، أنت وأبوك والخادم
سمير دياكوف ، يعرف هذه الاشارات ، أليس كذلك ؟ ألم يطلع عليها
أحد غيركم البتة ؟

- لم يطلع عليها أحد غيرنا ، أنا وسمير دياكوف والله • لا تنسوا
أن تسجلوا أن الله كان على علم بالسر • قد يكون العون الالهى ضرورياً
لكم أنتم أيضاً فى هذه القضية •

أسرعوا يسجلون جميع هذه التفاصيل • ولكن بينما كان الكاتب
يكتب ، قال وكيل النيابة فجأة كأن فتراضاً جديداً قد ومض فى ذهنه على
حين بغتة :

- ولكن اذا كان سمير دياكوف يعرف هذه الاشارات هو أيضاً ،
واذا كنت تنكر من جهة أخرى أن تكون أنت قاتل أبيك ، أفلا يمكن
أن يكون هذا الخادم نفسه قد قرع الاشارة المتفق عليها ، فاستدرج أباك
الى فتح الباب ، ثم ... ارتكب الجريمة ؟

فرشقه ميتاً بنظرة فيها سخرية شديدة وكره عنيف فى آن واحد؛
وظل يحدث الى مدة طويلة دون أن ينطق بكلمة واحدة ، حتى أن
عينى وكيل النيابة أخذتا تطرفان • ثم انفجر ميتاً يسأله أخيراً :

- أتريد أن تقبض على الثعلب من جديد بهذا السؤال المغرى ؟
ولكن الثعلب قد هرب • • هاهاها ! • • • لقد أدركت لعبتك يا وكيل
النيابة ! خيّل اليك أننى سأنب على هذا « الطعم » الذى تمده الى ،
وأنتى سأبني هذا التعليل الجميل الذى توحى به ، أليس كذلك ؟ لاشك
أنك كنت تتوقع أن أصبح ملء خنجرتى قائلاً : « نعم نعم ، هو

سمردياكوف ؛ سمردياكوف هو القاتل ؟ « اعترف ” بأن هذه هي فكرتك الخفية ، اعترف بذلك ، فأتابع قصتي •

ولكن وكيل النيابة لم يعترف ، بل ظل ينتظر صامتا • قال ميتيا :
- خطأ ! لن أتهم سمردياكوف •
- لا ولا يساورك أى شك فيه ؟

- وأنت هل يساورك هذا الشك ؟ هل تشبه فيه ؟

- لقد تصورنا هذا الاحتمال أيضا •

أطرق ميتيا الى الأرض • ثم استأنف يقول وقد أظلم وجهه على حين فجأة :

- كفى مزاحاً • واليكم ما أريد أن أقوله لكم اذا شئتم الجدل الهزل • اننى منذ البداية ، وفي اللحظة التى أزحت فيها الستائر متقدما نحوكم ، فى تلك اللحظة تقريبا ، ومضت فى ذهنى هذه الفكرة « أياكون هو سمردياكوف ؟ ... » • ثم ، حين جلست أمامكم ، وبينما كنت أصبح قائلاً اننى لم أسفح دم أبى ، كنت أقدر فى قرارة نفسى أن سمردياكوف قد يكون هو القاتل ، ولم يبارح هذا الافتراض ذهنى بعد ذلك • وفى هذه الدقيقة نفسها ، بينما كنت تلقى على هذا السؤال ، قلت لنفسى مرة أخرى : « انه سمردياكوف ! » ، ولكننى سرعان ما انتهيت الى هذه النتيجة قائلاً فى سرى : « لا ... ليس هو سمردياكوف ! » • ليست هذه الجريمة من صنعه •

سأل نيقولا بارفينوفتش محاذرا :

- هل تشبه اذن فى شخص آخر ؟

فقال ميتيا جازما :

- لا أدري من عسى يكون القاتل ، اللهم الا أن يكون الله أو أن

يكون الشيطان هو الذى تدخل فى الأمر ... ولكن لا يمكن أن يكون
سمردياكوف هو القاتل .

- ما الذى يدفعك الى أن تؤكد جازماً هذا الجرم ، ملجأ هذا
الالاح ، أن القاتل ليس سمردياكوف ؟

- هو افتناع داخلى يستند الى احساسات كثيرة . اننى أعتقد أنه
ليس القاتل ، لأنه انسان ذو طبيعة حقيرة جداً ، ولأنه رعديد فوق كل
شئ . ليس سمردياكوف رجلاً جباناً بل هو جميع أنواع الجبن فى هذا
العالم قد تجسدت كائناً حياً يسعى ؛ ان هذا الانسان هو الخوف نفسه
متحسداً أيها السادة . لقد ولد هذا الرجل فى خم ! كان ، كلما كلمته ،
يرتجف خوفاً من أن أقتله ، مع أننى لم أكن أرفع يدي عليه . كان
يرتمى على قدميَّ باكيةً ويقبل حذاءيَّ ضارِعاً الىَّ أن لا « أخيفه » . هل
تسمعون ؟ « أن لا أخيفه ! » ماذا تعنى هذه الكلمة ؟ ومع ذلك كنت لطيفاً
معه على الدوام ، وكنت أهدى اليه الهدايا . هذا فرخ مروض مصاب
بالصرع متأخر العقل يستطيع أن يضربه طفل فى الثامنة من عمره . أهذا
رجل ؟ لا يا سادتي ، ليس لسمردياكوف ضلع فى هذا الأمر . ثم انه
لا يحب المال ، ولقد كان يرفض المكافآت التى كنت أريد أن أهبطها له .
وما عسى يكون الباعث له على قتل العجوز ؟ ربما كان سمردياكوف ابن
العجوز ، ابنه غير الشرعى ، هل تعرفون هذا ؟

- نعرف هذه الشائعة . ولكنك أنت أيضاً ابن فيدور بافلوفتش ،
ثم لم يمنعك ذلك من أن تعلن فى كل مكان أنك تنوى قتله .

- وهذا حجب آخر فى حديقتي ! انه لصغار وحطة منكم أن تأخذوا
على هذا ! هيئاً أيها السادة ، أنا لا أخشى غمزاتكم ولزاتكم ! ولكن
ألستم ترون أيها السادة أنه ليس لائقاً أن ترموا وجهي بما أسررت به
اليكم أنا نفسى ؟ هيه ... طيب ... أنا لم أشأ أن أقتله فحسب ، بل

كان فى وسعى أن أفعل ، وقد اتهمت نفسى أمامكم بأننى أوشكت أن أصرعه ذات يوم • غير أننى لم أقتله ، فان ملاكى الحارس قد حمانى من ارتكاب هذه الجريمة ••• ولكنكم لا تعتقدون أن عليكم أن تقيموا وزنا لهذا الكلام • ذلك هو الشر فى موففكم ، ذلك هو فى موففكم ما يستحق الاحتقار ! اننى لم أقتله ، اننى لم أقتله ، لا ، لم أقتله ، هل تسمع يا وكيل النيابة • أنا لم أقتله !

كان ميتيا يوشك أن يخنق • انه لم يضطرب هذا الاضطراب الشديد كله فى أية لحظة أخرى أثناء الاستجواب • وسأل بعد صمت :
- فما الذى قاله لكم صاحبنا - سمردياكوف ؟ هل يجوز لى أن أسألكم عن هذا ؟

فأجابه وكيل النيابة قائلاً بלהجه قاسية جافه :

- من حقك أن تلقى علينا ما تشاء من أسئلة • اننى أسمع لجميع الأسئلة التى تتصل بالظروف المادية للقضية • أعود فأقول لك ان من واجبنا أن نطعمك على جميع النقاط التى قد تثيرها • لقد وجدنا هذا الخادم سمردياكوف الذى سألت عنه الآن راقداً على سريريه مغشى عليه يعانى من نوبة صرع شديدة ، هى النوبة العاشرة فيما أظن ، لأن النوبات تتلاحق بلا انقطاع ، حتى لقد صرّح الطبيب الذى رافقنا صرّح ، بعد أن فحصه ، أن أغلب الظن أنه لن يعيش بعد هذه الليلة •

- فالشيطان هو الذى قتل أبى اذن !

بهذا هتف ميتيا ، كأنه لا يزال يتساءل حتى تلك اللحظة : « أهو سمردياكوف أم لا ؟ » •

قال نيقولا بارفينوفتش حاسماً المناقشة :

- سنعود الى هذه المسألة فيما بعد • هل يمكننى أن أرجوك أن تستأنف سرد الوقائع ؟

طلب ميتيا أن يؤذن له بأن يستريح بضع لحظات ، فوافق وكيل النيابة على ذلك بلطف وكياسة • وتابع ميتيا كلامه بعد انقطاع قصير ، ولكن كان واضحا أنه أصبح خائر القوى ، وأن الاستجواب قد أرهقه ، وأن نفسه كانت مهتزة مستاءة • ثم ان وكيل النيابة كان يبدو أنه يعتمد الآن أن يثير أعصابه بتصديعه فى كل لحظة بأسئلة تتناول أمورا تافهة لا قيمة لها • من ذلك مثلا أنه ما كاد ميتيا يصف كيف جثم على السور وكيف ضرب بمدق الهاون الخادم جريجورى الذى تشبث بساقه اليسرى وكيف سارع يثب الى الحديقة بعد ذلك ويميل على الضحية ، حتى استوقفه وكيل النيابة راجيا منه أن يوضح طريقة جلوسه على السور • فدهش ميتيا من هذا الالحاح ، وقال يجيبه :

- جلست • • هكذا • • راكبا • • كركوبى على حصان • • • فى كل جهة ساق •

- ومدق الهاون ؟

- مدق الهاون ؟ كنت أمسكه بيدي •

- لا فى جييك ؟ هل تتذكر هذا تذكرآ تاما ؟ هل اندفعت اندفاعة فوية لتضربه ؟

- لا بد • • ما دمت قد ضربت ضربة قوية • لماذا هذا السؤال ؟

- هل لك أن تجلس على هذا الكرسي بالطريقة التى جلست بها على السور ، وأن تقلد الحركة التى قمت بها ، والاندفاعة التى اندفعتها بذراعتك ، والجهة التى سددت اليها الضربة ، زيادة فى الايضاح ؟

سأل ميتيا مجدثه وهو يرشقه بنظرة متكبرة :

- أترالك تسخر منى ؟

ولكن وكيل النيابة لم تطرف عينه • فاستدار ميتيا فوق كرسيه

بحركة عصبية ، وجلس عليه راكبا ركوبه على حصان ، ورفع ذراعيه ،
وقال :

- انظروا كيف ضربته ، انظروا كيف قتلته ! أنتم راضون الآن ؟
ماذا تريدون أيضا ؟

- شكراً . هلاًّ شرحت لنا الآن لماذا وثبت بعد ذلك الى الحديقة ،
وماذا كان هدفك من هذا ؟ ما هو الدافع الذى خضعت له حين تلبثت هذا
التلبث قرب ضحيتك ؟

- عجيب . . . هل أعرف لماذا ؟ ملت عليه وكفى ، لست أعرف
السبب الذى دفعنى الى ذلك .

- لقد قفلت راجعاً الى الحديقة مع انك كنت تعاني انفعالاً شديداً
وكنت تريد أن تهرب . فهلاًّ شرحت لنا هذا ؟

- نعم ، كنت منفعللاً وكنت أريد أن أهرب .

- فهل كان فى نيتك أن تسعفه ؟

- لا . . . على كل حال ، لا أدري . لعلى أشفقت عليه ، لا أتذكر
الآن .

- لا تتذكر ؟ أكنت قد أصبحت لا تعرف ماذا تفعل ؟

- بل كنت واعياً كل الوعى ، وانى لأتذكر أيسر التفاصيل . دعونا
من ذلك الكلام ! لقد أردت أن أرى الحالة التى كان عليها ، وأن أمسح
دمه بمندبلى .

- عرنا على المندبيل . هل كنت تأمل انقاذ حياة الانسان الذى
صرعته ؟

- لا أدري هل كنت آمل ذلك . لقد أردت ، بكل بساطة ، أن
أعرف أهو ما يزال حياً أم لا ؟

– ها ؟ أردت أن تعترف أهو ما يزال حياً أم لا ؟ فماذا وجدت عندئذ ؟

– لم أستطع التأكد ، لأننى لست طبيياً • ثم هربت معتقداً أننى قتله • وها هو ذا صحا من اغماؤه •••
قال وكيل النيابة أخيراً :

– عظيم • شكرًا • ذلك بعينه ما كنت أريد أن أعرفه • هلاًّ تفضلت فتابع سرد الوقائع ؟

وا أسفاه ! لم يخطر ببال ميتيا – رغم أنه يتذكر تذكراً واضحاً – أن يذكر أنه إنما وثب الى الحديقة بدافع الشفقة ، وأنه حين مال على العجوز جريجورى قد نطق بكلمات تعبّر عن الشفقة على ذلك العجوز الذى آلمه أن يراه مجندلاً فى هذا المكان • ان كل ما حفظه وكيل النيابة من أقوال ميتيا هو أنه وثب عن السور « فى لحظة كتلك اللحظة » ، رغم الاضطراب الشديد الذى كان يعاينه « ، دون أن يكون له من هدف الا أن يعرف هل الشاهد « الوحيد » على جريمته ما يزال حياً أم أنه مات • وحدّث وكيل النيابة نفسه قائلاً : « ان هذا السلوك يدل على قدر كبير من هدوء الأعصاب وقوة التصميم ودقة الحساب لدى هذا الرجل » ، ثم أضاف يقول لنفسه : « وأخيراً ! لقد استطعت أن أنهك قواه بهذه السفاسف ، فاذا هو يفضح نفسه • • »

وتابع ميتيا سرد قصته فى عناء ومشقة ، ولكن نيقولا بارفينوفتش استوقفه عن الكلام من جديد • سأله :

– كيف ذهبت الى الخادمة فيدوسا ماركوفنا مع أن الدم كان ما يزال يلطخ يديك وحتى وجهك ، كما ثبت ذلك فيما بعد ؟

– لم ألاحظ عندئذ أننى كنت مضرجاً بالدم •

قال وكيل النيابة وهو ينظر الى قاضى التحقيق :

— انه يقول الحقيقة الآن ، فذلك ما يحدث عامة في مثل هذه

الحالة •

فقال ميتيا مؤيدا كلامه بحرارة :

— لم ألاحظ ذلك عندئذ ، نحن الآن متفقان كل الاتفاق يا سيادة

وكيل النيابة !

بقى عليه أن يروى كيف قرر فجأة أن « يتنحى عن الطريق » ،
وأن « يخلي الدرب للحبيبين السعيدين » • ولكنه أحس أنه لا يملك
الآن ، كما كان يملك في بداية الاستجواب ، القدرة على أن يفتح قلبه ،
وأن يتحدث عن « ملكه قلبه » حديثاً طلقاً حرّاً • ان شعورا بالاشمئزاز
أمام هذين الانسانين الفاترين اللذين يثبتان عليه أعينهما ، بل يغرسانهما
في لحمه غرساً كحشرات تمص دمه ، أقول ان شعورا بالاشمئزاز كان
يصدده عن الانطلاق في الكلام • فاقصر على بضعة أجوبة مقتضبة جافة
عن أسئلة مكررة ألقيت عليه حول هذه النقطة •

— نعم قررت أن أتحر • لم يبق ثمة ما يربطني بالحياة ويشدني
اليها ، وكان هذا الحل يفرض نفسه بنفسه • ان صديقها القديم الشرعى
الذى هجرها في الماضي قد عاد اليها بعد خمس سنين ممتلئ القلب حباً ،
ليتزوجها فيصلح بذلك ما أفسد من أمرها ، ويزيل عنها الأذى الذى
ألحقه بها • أدركت عندئذ أن كل شيء قد انتهى ••• وعدا هذا كان
يلاحقنى ذلك العار ، وكان ورائى دم جريجورى هذا ••• فقيم الحياة
بعد ذلك كله ؟ هكذا ذهبت الى ذلك الموظف لأسترد منه المسدسين ،
وحشوت أحدهما على نية أن أطلق في رأسى رصاصة منذ الفجر •••
— وبانتظار ذلك ، قررت أن تلهو وأن تعبث وأن تقصف طوال

الليل ؟

— نعم نعم ، قررت ذلك ! هلاً انتهينا من هذا أيها السادة ! لقد

عزمت عزماً أكيدا على أن أنتحر هناك ، فى أقصى هذه القرية ، وكان ينبغي أن أنفذ عزمى هذا فى الساعة الخامسة من الصباح . وقد هأت كلمة أشرح فيها السبب ، كلمة كنتم ستجدونها فى جيبى . لقد كتبها عند برخوتين حين حشوت مسدسى . اليكم الورقة التى كتبت عليها تلك الكلمة ، اقرأوها ان شئتم .

وأضاف يقول فجأةً باحتقار :

ـ ولست أروى هذا كله من أجلكم أنتم .

ثم سلَّ من جيبه ورقة ورماها على المائدة . قرأ وكيل النيابة وقاضى التحقيق الورقة باستطلاع شديد ، وضمَّها الى الملف وفقاً للأصول .

ـ ألم يخطر ببالك أن تغسل يديك قبل أن تذهب الى السيد برخوتين ؟ ألم تكن تخشى اذن أن توقظ شبهات وشكوكاً ؟
ـ شبهات وشكوكا ؟ ماذا يهمنى هذا ؟ كنت سأجىء الى هذا المكان لأطلق على رأسى رصاصة فى الساعة الخامسة من الصباح ولو لم تحم حولى شبهة ارتكاب جريمة . وما كان لوقتكم أن يتسع عندئذ لتدخلكم . فلولا المصيبة التى حلت بأبى ، لما عرفتم شيئاً ولما وجدتم الآن هنا . ذلك من صنع الشيطان ، هل تعلمون ؟ ان الشيطان هو الذى قتل أبى وتولى مهمة ابلاغكم بهذه السرعة ! ماذا فعلتم حتى استطعتم أن تصلوا الى هنا بعد وقوع الجريمة بزمن قصير هذا القصر ؟ ذلك أمر لا يصدق !

ـ ذكر لنا السيد برخوتين أنك حين دخلت عليه كنت تمسك بيديك .. بيديك الداميتين .. أوراقا مالية .. مبلغا ضخما .. حزمة من الأوراق المالية من فئة المائة روبل ؛ ويظهر أن خادمه الصغير قد رأى هذه الأوراق المالية أيضا .

ـ صحيح . فعلا . أظن أننى أتذكر هذا .

قال نيقولا بارفينوفتش بصوت رقيق جدا :
- هنا ينبثق سؤال صغير • ألا تستطيع أن تقول لنا من أين جاءك
هذا المال ، مع أن جميع الظروف تدل على أنك لم يتسع وقتك حتى
للمرور بمنزلك ؟

انتفض وكيل النيابة قليلاً حين سمع هذا السؤال يلقي دفعةً
واحدة بهذه الطريقة المفاجئة ، ولكنه لم يقاطع قاضى التحقيق •
أجاب ميتيا قائلاً بهدوء ظاهر ، ولكن مطرقاً الى الأرض :
- لم أمرّ ببنتى فعلاً !

فعاد نيقولا بارفينوفتش يقول برفق وجل غامر :
- فاسمح لى اذن أن أكرر سؤالى : من أين جئت بهذا المبلغ مادام
ينتج من تصريحاتك نفسها أنك فى الساعة الخامسة بعد الظهر كنت ...
ولكن ميتيا قاطعه بمصية قائلاً :

- فى الساعة الخامسة ؟ كنت فى حاجة ملحة الى عشرة روبلات ،
فرهنت مسدسىّ عند برخوتين ، ثم ذهبت الى السيدة هوخلاكوفا لأقرض
منها ثلاثة آلاف روبل ، فرفضت أن تقرضنى ، وهلم جرا ... أعرف
القصة (كذلك أضاف ميتيا يقول بلهجة هجومية) • كنت لا أملك قرشاً
واحداً ، أليس كذلك أيها السادة ، ثم اذا بى أملك ألوف الروبلات على
حين فجأة ، هه ؟ أحسب أيها السادة أنكم ترتجفون خوفاً من أن أرفض
أن أذكر لكم مصدر هذا المال ، أليس كذلك ؟ طيب ... أنا أرفض ،
نعم أرفض أن أشير لكم الى مصدر المال • لقد حذرتم • لن أتكلّم ، ولن
تعرفوا شيئاً عن هذه النقطة •

كذلك حسم ميتيا الكلام بلهجة قاطعة وهيئة حازمة •
وساد صمت •

واستأنف نيقولا بارفينوفتش حديثه يقول بلهجة فيها رفق واذعان:

- اعلم يا سيد كارامازوف أنه لا غنى لنا عن معرفة مصدر المال .

- أدرك ذلك ، ولكننى مع هذا لن أقول لكم شيئاً .

وتدخل وكيل النيابة هو أيضاً ، فذكر ميتيا مرةً أخرى بأن من حق المتهم أن لا يجيب عن الأسئلة الملقاة عليه اذا هو قدر أن الصمت أنفع له وأجدى عليه ، ولكن لما كان يتعرض باتخاذ مثل هذا الموقف لأن يلحق بنفسه أذى ، ولا سيما حين يكون الأمر أمر وقائع لها مثل هذه الخطورة ...

فقاطعه ميتيا قائلاً بفظاظة :

- وهلمّ جرا أيها السادة ، وهلمّ جرا ! كفى ! لقد سبق أن سمعت هذه الأقوال المعادة المكرورة ! ثم اننى أدرك أنا نفسى خطورة هذا السؤال الذى تلقونه علىّ ، وأعلم أنه النقطة الرئيسية فى القضية ، ولكننى مع ذلك لن أتكلم .

فقال نيقولا بارفينوفتش بلهجة عصبية :

- هى مصلحتك أنت لا مصلحتنا نحن على كل حال ! لك أن تفاهم حالتك ما دمت حريصاً على ذلك !

رفع ميتيا عينيه ، ونظر اليهما بصلاية وثبات قائلاً :

- اسمعوا أيها السادة . سأكون صريحاً . لقد أحسست منذ البداية أننا سنصطدم عند هذه النقطة . ولكن حين بدأت قصتى هذه كان هذا الحاجز ما يزال يبدو لى فى مكان بعيد غائم ، كأنه غارق فى الضباب ، حتى لقد بلغت من السذاجة فى تلك اللحظة اننى اقترحت عليكم أن نقف دفعة واحدة على أرض الثقة المتبادلة . وانى لأدرك الآن أن هذه الثقة كانت مستحيلة ، لأننا كنا سنصطدم بهذا الجدار عاجلاً أو آجلاً ... وها نحن أولاء نصطدم به ... فمن المستحيل أن نستمر .

هذا كل شيء • ولست ألوكم على كل حال ، فانى أفهم حق الفهم انكم ليس فى وسعكم أن تصدقوا ما أذكره لكم على عهد الشرف •
قال ميتيا ذلك وصمت مظلم الوجه •

— ألا تستطيع على الأقل ، دون أن تتزحزح عمّا عزم عليه من صمت حول النقطة الأساسية ، ألا تستطيع أن تذكر لنا ولو بإشارة يسيرة البواعث القوية التى أمكنها أن تحملك على أن لا تجيب عن سؤالنا فى ساعة خطيرة وخطرة الى هذا الحد بالنسبة اليك ؟

ابسم ميتيا حزينا واجما مفكرا •

— أنا خير مما تتصورون أيها السادة ، سأشرح لكم هذه البواعث ، سأذكر لكم ما تطلبونه ، رغم أنكم لا تستحقون ذلك كثيرا ! اننى أرفض أن أتكلم لأننى أخشى العار • ان الجواب على السؤال عن مصدر ذلك المبلغ من المال يشتمل بالنسبة الى على دناءة اذا قيس بها جريمة قتل أبى وسلبه المال بدت أمرا هينا يسيرا ، حتى ولو كنت أنا المجرم • ذلكم هو سبب اضطرارى الى الصمت • ان الشعور بالعار يخنقنى • ماذا تفعلون أيها السادة ؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضا ؟

تمتم يقولون بارفينوفتش يقول :

— نعم سنسجلها •

— ما ينبغى لكم أن تسجلوا ما قلته عن « الدناءة » • لقد فتحت لكم قلبى من قبيل المجازاة • كان بمكنى أن أمنع عنكم هذا الايضاح • لقد قدمت اليكم هذا الايضاح بغير داع الى ذلك ، فهل تسارعون الى تسجيله أيضا ؟ ليكن أيها السادة ! اكتبوا ما شئتم أن تكتبوا ، أنا لا أخشاكم ، ولن أطأطىء رأسى أمامكم •

بهذا ختم ميتيا كلامه مشمئزاً •

دمدم يقولون بارفينوفتش يسأله :

- هل تقبل أن تقول لنا ما نوع الدناءة التي تعنيها ؟

- انتهى ! لا تلحوا ! اننى اذ تكلمت أمامكم قد دنست نفسى بما فيه الكفاية ، فعلام أدنس نفسى مزيداً من الدنس ؟ ... كفى أيها السادة ، لن أقول بعد هذه اللحظة كلمة واحدة .

تكلم ميتيا بلهجة قاطعة جداً ؛ فاعتقد يقولون بارفينوفتش أنه لا جدوى من الالحاح ، ولكنه سرعان ما أدرك من نظرة هيوليت كيريلوفتش أن هذا لم ييأس بعد .

- قل لنا على الأقل مقدار المال الذى كان بيدك حين وصلت الى السيد برخوتين . كم روبلاً كان المبلغ ؟
- لا أستطيع أن أقول .

- ألم تتحدث الى السيد برخوتين عن ثلاثة آلاف روبل زعمت أنك أقرضتها من السيدة هوخلاكوفا ؟
- ربما ذكرت له شيئاً من هذا القيل . كفى أيها السادة ، لن أقول بعد هذا كلمة واحدة .

- أوضح لنا اذن كيف جئت الى هنا ، وماذا فعلت منذ وصولك الى موكرويه !

- ستعرفون ذلك بسهولة متى سألتهم الأشخاص الآخرين الموجودين هنا . على كل حال ، لا أرى بأساً فى أن أروى لكم هذا .

وقص عليهم ميتيا قصة هذه الليلة التى يعرف القارىء جميع تفاصيلها . وكان يتكلم هذه المرة فى جفاف ، مقتصراً على اشارات مقتضبة ، فلم يتحدث عن اندفاعات حبه الحارة . ومع ذلك ذكر أن عزمه على الانتحار قد زال بسبب « ظروف جديدة » . ولم يتحدث عن حالاته

النفسية ، بل افنصر على الوقائع المادية وحدها • ولم يزعجه أحد بالسئلة أثناء ذلك ، فلقد كان واضحاً فى نظر وكيل النيابة وقاضى التحقيق أن الأمر الأساسى ليس هنا •

قال بقولا بارفينوفتش ليختم الاستجواب :

— سنتحقق من صدق أقوالك ، وسنعود إليها حين نسمع أقوال الشهود ، بحضورك طبعاً • أحب أن أرجوك الآن أن تضع على هذه المائدة جميع الأشياء التى معك ، ولا سيما الأموال ••• جميع المبالغ التى هى فى حوزتك الآن •

المال أيها السادة ؟ طيب ، طيب ••• أنا أفهم أن هذا لا بد منه ، بل اننى لأستغرب أنكم لم تظهروا هذا الفضول قبل الآن • وما كان لى أن أتهرب طبعاً ، ما دتم ترافبونى • اليكم المال • عدوه • خذوا • أحسب أن هذا كل شىء •••

أفرغ ميتيا جيوبه ا فراغاً كاملاً ، وأخرج حتى النقود الصغيرة ، ومنها قطعتان نقديتان من فئة العشرة كوبكات ، أخرجها من جيب صديرتة • وجُمعت الأموال ، فبلغت ثمانمائة وستة وثلاثين روبلاً وأربعين كوبكاً •

سأله القاضى :

— أهذا كل شىء ؟

— نعم •

— لقد تفضلت فقلت لنا منذ قليل ، أثناء سرد الوقائع ، أن نمن ما اشتريته من متجر آل بولتيكوف قد بلغ ثلاثمائة روبل ، فاذا أضعنا إليها العشرة روبلات التى رددتها الى برخوتين ، والعشرين روبلاً التى أعطيتها الخوذى ، والمائتى روبل التى خسرتها فى اللعب بالورق أثناء الليل ، ثم •••

أجرى نيقولا بارفينوفتش الجمع "تفصيلاً" ، وكان ميتيا يساعده
راضياً ، ووُضعت قائمة دقيقة بجميع النفقات ، وحسب نيقولا بارفينوفتش
الحاصل ، فقال :

- فإذا حسبنا الثمانمائة روبل التي بقيت لك ، كان معنى هذا انك
كنت تملك ألف وخمسمائة روبل ، أليس كذلك ؟

- ممكن

- فكيف يُجمع الشهود اذن على أن المبلغ أكبر من ذلك .

- لهم أن يقولوا ما يشاءون .

- لقد أكدت أنت نفسك أنك كنت تملك أكثر من هذا .

- لعلنى أكدت ذلك .

- سنمتحن هذه الوقائع على ضوء شهادات الشهود الآخرين .

أما المال فلا نخش عليه . سنحتفظ به في مكان مأمون ، وسيُردُّ اليك
في نهاية ... هذا التحقيق ... اذا ظهر عندئذ أو قل اذا ثبت عندئذ
ببوتاً قاطعاً أنه لك أنت بغير شك ...

قال نيقولا بارفينوفتش هذا ، ونهض فجأة ، وأعلن ليتيا بصوت
قاطع أنه يرى نفسه « مضطراً » الى أن « يفتش ملابسه وكل ما معه تفتيشاً
دقيقاً » .

- افعلوا أيها السادة . سأقلب جيوبى ان شئتم .

- وأخذ بقلب جيوبه .

- لا هكذا . لا بد من أن تخلع ملابسك .

- ماذا ؟ أخلع ثيابى ؟ عجيب ... ألا يكون نبش جيوبى أسهل

من ذلك ؟

– بل لا بد من خلع ثيابك يا دمتري فيدوروفتش • يجب أن تخلع
• ثيابك

قال ميتيا عابساً مدعناً :

– كما تشاءون • ولكن لا هنا ، بل وراء الستائر ••• أرجوكم •••
من يتولى التفيش ؟

قال قاضى التحقيق وهو يحنى رأسه موافقاً :

– طبعاً وراء الستائر •

وطاف بقسمات وجهه الدقيقة عندئذ تعبير عن وقار خاص •

وكيل النيابة يسوق ميرا



ما حدث عندئذ لم يكن فى حساب ميتيا أبداً •
 ما كان له أن يتخيل ، قبل دقيقة واحدة ، أن من
 الممكن أن يعاملوه هذه المعاملة ، هو ، دمتري
 كارامازوف ! ان فى هذا « اذلالاً » له ،
 « وازدراء متعالياً » منهم ! وليتهم لم يطلبوا منه أن يخلع الا رديجوتة !
 لقد رجوه أن يخلع ملابسها كلها ••• بل لم يكن هذا منهم رجاءً ، وانما
 كان فى الواقع أمراً ، وقد فهم هو ذلك ، فخضع للأمر دون تدمير ،
 كبرياءٍ واشمئزازاً ! وقد دخل الى ما وراء الستائر ، عدا وكيل النيابة
 وقاضى التحقيق ، عددٌ من الفلاحين أيضاً ، فقال ميتيا يحدث نفسه :
 « لقد دخل هؤلاء للمساعدة فى اجبارى على خلع ملابسى ، وربما لبواعث
 أخرى كذلك » •

سأل ميتيا بصوت يصطنع الخزم :

— هيه ! هل أخلع القميص أيضاً ؟

ولكن يقولون بارفينوفتش لم ير داعياً الى الاجابة • لقد كان مسغولاً
 مع وكيل النيابة بتفتيش الرديجوت والسروال والصديرة والقبعة •
 وكان يبدو على الرجلين أن هذا التفتيش يهمهما الى أقصى حد • قال ميتيا

فى نفسه : « أصبحا لا يتحرجان من نىء » ، ولا يراعيان أبسط قواعد الأدب والمباقة ! » وقال يسألهما :

- أسألکم مرة أخرى : أيجب أن أخلع القميص أم لا ؟

فأجابه يقولان بارفينوفتش قائلاً بلهجة جافة آمرة (هذا احساس ميتيا على الأقل) :

- لا تقلق ، سنقول لك ذلك فى حينه •

كان وكيل النيابة وقاضى التحقيق يتبادلان الرأى بصوت خافت • ان هناك بقع دم ، غير متخثرة وتخترأ كاملاً ، تظهر على الرديجوت ، ولا سيما فى الظهر وفى الحافة اليسرى • وان هناك بقع دم أخرى ترى فى السروال أيضاً • وعدا ذلك أخذ يقولان بارفينوفتش ، بحضور الفلاحين المكلفين ، يجس الياقة وطيأت الأكمام ، ويجس كذلك مختلف خياطات الثياب ، كأنه يقدر أن يكتشف فيها شيئاً ••• هو المال طبعاً ••• وأخطر ما فى الأمر أن الرجلين كانا يدلان بذلك ، بحضور ميتيا ، على انهما يريان أن من الجائز جداً أن يكون قد أخفى المال المسروق فى بطانات الثياب • فجمعهم ميتيا يقول :

- اننى أعامل الآن معاملة لص ، لا معاملة ضابط •

لقد كانا يتبادلان الآراء بصوت عال وصراحة تامة دون اكرتات بوجوده • من ذلك متلاً أن الكاتب ، الذى كان كثير الحركة هو أيضاً ، قد لفت انتباهه يقولان بارفينوفتش الى القبعة التى أخذ يجسها أيضاً ، قائلاً له :

- تذكروا المستخدم جريدنكا • لقد أوفد فى هذا الصيف لقبض رواتب جميع موظفى الدائرة ، فلما عاد صرّح بأنه فقد المال وهو فى حالة سكر • فأين وجدوا المال بعد ذلك ؟ وجدوه فى شريط قبعته ! لقد صنع

من أوراق المائة روبل لفاتٍ صغيرة استطاع أن يدسّها تحت الشريط ،
ثم خاط الشريط •

لم يكن وكيل النيابة وقاضى التحقيق قد نسيا قضيه جريدنكا ،
فوضعا قبعة ميتيا فى جانب وفى نيتها أن يفتشا ملاپسه بعد ذلك بمزيد
من التدقيق أيضاً

ورأى نيقولا بارفينوفتش قبضة الكم اليمنى من قميص ميتيا ملطخة
بالدم ومقلوبة ، فهتف يقول فجأة :

— هل تسمح ؟ هذا دم أيضاً ان لم يخطئ ظنى •

فأجاب ميتيا قائلاً بصوت قاطع :

— نعم ، هو دم •

— دم ؟ أى دم ؟ ... ولماذا قلبت الكم ؟

فذكر ميتيا أنه بعد أن تلمنح كمه أثناء اهتمامه بجريجورى ، قد
شممه عند برخوتين الذى غسل يديه عنده أيضاً •

قال نيقولا بارفينوفتش :

— سيجب أن تنزع قميصك أيضاً ... هذا أمر هام جداً لاستكمال

المشاهدات المادية •

فاحمر وجه ميتيا وقال غاضباً :

— أأصبح عارياً الآن ؟

— اطمئن ... سنرتب هذا • وبانتظار ذلك ، أنزع جوربك من

فضلك •

سأل ميتيا وقد سطع فى عينيه خفق :

— أأتم تمزحون ؟ أهذا ضرورى حقاً ؟

فأجابه القاضى قائلاً بلهجة قاسية :

— ما نحن فى موقف المزاح فنمزح !

غمغم ميتيا يقول وقد جلس على السرير وأخذ يخلع جوربيه :

- ليكن *** ما دام هذا ضرورياً *** أنا ***

كان يشعر بخزي لا يطاق ، اذ يرى نفسه خالماً ثيابه هكذا بين
أناس يظنون مرتدين ثيابهم • شئ غريب : انه حين خلع ثيابه شعر فجأة
بأنه مجرم • كاد يسلم هو نفسه عندئذ بأنه أصبح دون الآخرين قيمة
على حين بغتة ، وأنه أصبح من حق هؤلاء أن يحتقروه • قال يحث
نفسه : « حين يكون الجميع عراة فلا عار ، أما حين أكون وحدي عارياً
فذلك هو العار ! لكأننى فى حلم ! لقد سبق أن عانيت فى الحلم انحطاطات
من هذا النوع » • وقد شق عليه كثيراً أن يخلع جوربيه : انهما وسخان ،
كسائر ملابس الداخلية أيضاً ، وفى وسع الجميع أن يلاحظوا هذا الآن •
ذلك عدا أن ميتيا كان طوال حياته يكره قدميه وبعد أصابعهما بشعة ،
ولا سيما أصابع قدمه اليمنى التى كان أحد أظفارها مسطحة تماماً فلا ينحني
الا فى نهايته • سوف يراه الجميع الآن • اجتاحه الشعور بالخزي والعار ،
ففارت نفسه ، وأصبح فظلاً عن عمد • قال :

- ألا تحبون أن تلاحظوا تحرياتكم الى أبعد من هذا اذا كان الحياء
لا يصدكم ؟

- لا ، لا داعى الى ذلك الآن •

وسأل ميتيا بلهجة حانقة :

- هل على أن أنتظر عارياً ؟

- لابد من ذلك • تفضل فاجلس هنا • فى إمكانك أن تتدثر بغطاء

السرير • • • وسأحاول أن أتدبر الأمر •

أظهر الفلاحون على ملابسهم ليكونوا شهوداً • حتى اذا انتهى
تحرير المحضر خرج نقولا بارفينوفتش • وأخذت الملابس ، وانصرف

وكيل النيابة أيضاً • لبث ميتيا وحده مع الفلاحين الذين كانوا يرقبونه صامتين ولا يحوّلون عنه أبصارهم • تدثر ميتيا بالغطاء ، لأنه كان يحس ببرد شديد ، ولكنه لم يستطع أن يحمي قدميه العاريتين على أى نحو تلف • وتأخر يقولون بارفينوفتش عن العودة ، كأنه يريد « إطالة تعذيبه » •

وجمجم ميتيا يقول وهو يركز بأسنانه :
- يحسبني صيباً ! وقد انصرف الوجد وكيل النيابة كذلك ...
احتقاراً فى أغلب الظن ... واشمئزازاً من رؤية رجل عار •
وكان ميتيا يقدر مع ذلك أنهم سيرجعون اليه ثيابه بعد تثبيت جديد •
فما كان أشد استياءه حين رأى يقولون بارفينوفتش يعود اليه ووراءه فلاح يحمل ثياباً أخرى غير ثيابه •

قال له القاضى بلهجة ودود طليقة :

- اليك هذه الثياب التى حصلنا لك عليها أخيراً •
وكان واضحاً أنه سعيد بالنتائج التى وصلت اليها مساعيه ، وتابع كلامه يقول :

- ان السيد كالجانوف هو الذى تفضل ، فى هذا الطرف الغريب ،
فقدم اليك هذا الرداء وقميصاً نظيفاً قد أتى بهما فى حقيته من حسن الحظ • أما ملابسك الداخلية وجورباك ففى امكانك أن تحتفظ بها •
انفجر ميتيا فزأراً يقول بصوت مهدد متوعد :

- لا أريد هذا الرداء الذى ليس لى • ردوا الى رداى •
- مستحيل •

- أريد رداى أنا • شيطان يأخذ كالجانوف وثيابه !

ولم يمكن رده الى الصواب الا بكير من العناء ولكنه هداً آخر
الأمر بعد أن نرحوا له ضرورة « ضمّ الثياب الى وثائق الالبات » مادامت
ملطخة بالدم . وقد حرص قاضى التحقيق على أن يقول له « انه لم يكن
من حقه أن يدع له ملابسه الخاصة ، فليس يدري أحد ما هو المعجى
الذى قد تجرى فيه القضية » . اقتنع ميتا أخيراً بهذه الحجج ، وأخذ
يرتدى الثياب الجديدة ، مع محافظته على صمت متجههم عابس . واكتفى
بأن قال وهو يلبس رداء كالجانوف ان هذا الرداء أئمن كثيراً من رداثه ،
وانه يكره أن « يستفيد » منه ؛ وأضاف يقول :

— ثم انه ضيق علىّ فهو يجعلنى مضحكاً . هل علىّ أن أظهر
للناس مضحكاً ... لتسلوا أئتم ؟

وحاولوا أن يقنعوه من جديد بأنه يبالغ ، وبأن قامه السيد كالجانوف
كقامته هو ، وان يكن السيد كالجانوف أطول منه قليلاً ، وبأن السروال
وحده سيكون طويلاً عليه بعض الطول . ولكن اتضح ان السترة
مشدودة جداً عند الكتفين ، فجمعهم ميتاً قائلاً من جديد :

— يستحيل عقد أزرارها . أرجوكم أن تبلغوا السيد كالجانوف
أننى لست أنا الذى رغبت فى أخذ ثيابه ، وأننى أكرهت على ارتداها
كمهرج !

فقدم قاضى التحقيق يقول :

— هو يفهم هذا ، وهو يأسف ... لا يأسف على حرمانه من ثيابه
... لا ... بل يأسف لما وقع لك .

— لا حاجة بى الى أسفه ! أين يجب أن أذهب الآن ؟ أم أنا مضطرب .
الى البقاء هنا ؟

— أرجو أن تنتقل الى « الغرفة الأخرى » من جديد .

دخل ميتا الى هناك متقبضاً الوجه غضباً ، يحاول أن لا ينظر الى

أحد • كان يحس وهو في ثيابه المسنعة أنه مذل حتى في نظر الفلاحين ، وفي نظر تريفون بوريستش الذى لاح وجهه خلسة من خلال باب شقه ثم أسرع يغلقه • قال ميتيا في نفسه : « أراد أن يتأملنى وأنا في هذا الزى المضحك » • وجلس على الكرسي الذى كان يشغله منذ قليل • كان يبدو له أنه يعيش حلماً ثقيلاً ، أنه يعيش كابوساً ، وكان يتساءل ألم يفقد عقله ؟

التفت ميتيا نحو وكيل النيابة منقبض الفكين :

— هيه ، والآن ، هل تأمرون بجلدى ؟ لم يبق لكم الا هذا !

لم يشأ أن يخاطب يقولاً بارفينوفتش ، لأنه أصبح يعده غير جدير باتباهه بعد الآن • وقال يحدث نفسه : « لقد تلذذ بتأمل جوربى زما طويلاً جداً ، حتى لقد أمر بقلبهما عامداً — يا للشقى ! — بغية أن يظهر الجميع على أن ملابسى الداخلية قدرة جداً ! » •

قال يقولاً بارفينوفتش وكأنه يجيب عن سؤاله :

— سنبدأ الآن استجواب الشهود •

فقال وكيل النيابة يؤيد كلام القاضى ساهماً :

— نعم نعم •

لقد كان يبدو على وكيل النيابة أنه يفكر فى أمر ما • وتابع القاضى كلامه فقال :

— لقد بذلنا قصارانا يا دمتري فيدوروفتش لنساعدك فى موقفك • ولكن بعد أن رفضت رفضاً خشناً أن تلجى طلبنا فتقدم لنا بعض الايضاحات عن مصدر المبلغ الذى فى حوزتك ، فأتانا نرى أنفسنا ملزمين الآن بأن • • قاطعه ميتيا سائلاً :

— من أى نوع من أنواع الحجارة الكريمة صُنع هذا الخاتم ؟

كان ميتيا يتكلم كمن هو فى حلم ، مشيراً الى واحد من الخواتم
الثلاثة التى تزين يد القاضى الصغيرة • فسأله القاضى فى دهشة :

- خاتمى أنا ؟

- نعم ، هذا الخاتم ••• ذلك الذى بزين الاصبع الوسطى •••

ما هذا الحجر الكريم ؟

كذلك قال ميتيا ملحاً بلهجة فيها غير قليل من نفاد الصبر ، كطفل
عند ذى نزوات • فأجابه يقولون برفينوفتش مبتسماً :

- هو زمرد أدكن ! هل تريد أن تراه ؟ سوف أنزعه ف •••

فصاح ميتيا يقول بعنف وقد ثاب الى رشده ، واضطرب وخجل
وثار على نفسه :

- لا •• لا تنزعه •• ليس يعينى هذا •• آه •• لقد دنستم نفسى
أيها السادة ! هل تظنون اذن أنى كان يمكن أن أكذب عليكم لو أنى
فلت أبى فعلاً ، هل تظنون انى كان يمكن أن أرتضى لنفسى هوان
الانكار وتمثيل دور البراءة وبراعة التهرب من أسئلتكم ؟ انكم لاتعرفون
دمترى فيدوروفتش ! ما كان له أن يمثل مهزلة كهذه المهزلة ! يمينا ،
لو كنت مجرماً لما انتظرت أن تصلوا الى موكرويه ، ولما بقيت حياً الى
الفجر كما كنت أنوى ذلك ، وانما كنت أقتل نفسى فوراً ! لقد تعلمت
فى هذه الليلة الواحدة المنحوسة أكثر مما كان يمكن أن أتعلم على مدى
عشرين عاماً من الحياة ! أكان يمكن أن أنصرف كما تصرفت هذه الليلة
أكان يمكننى فى هذه الدقيقة نفسها أن أخاطبكم كما أخاطبكم الآن ،
أكنت أجد هذه اللهجة ، أكنت أقوم بهذه الاشارات ، أكنت أستطيع أن
أنظر اليكم وجهاً لوجه ، أنتم والعالم بأسره ، لو كنت قاتل أبى حقاً ؟
على أن مجرد تصورى أنى ارتكبت جريمة قتل جريجورى عرضاً قد ظل
يعذبنى طوال الليل ، لا خوفاً •• أبداً •• لا خشية من عقابكم !

... يا للعار ! ثم تريدون بعد ذلك ، أيها العابتون الهازلون ، تريدون أن أفضي الى أناس مثلكم ، أناس لا يصدقون شيئاً ولا يرون شيئاً ، تريدون أن أحكى لكم ، أيها المناجذ المعى ، دناءة أخرى ارتكبتها ، حتى يزداد عارى؟ أبدا ... لن أفعل ذلك ولو أدى الى تبرئتي من اتهاماتكم ... أبدا ، أبدا ... انى لأؤثر على هذا سجون الأشغال الشاقة ! ان القاتل هو الشخص الذى فتح الباب ودخل الى بيت أبى من ذلك الباب ... انه ذلك الشخص هو الذى سرق مال أبى ! من هو ذلك الشخص؟ اننى أتبه فى مجاهر الظن والتخمين ، وألقى عشاء كبيراً فى محاولة حزره . ولكن ذلك الشخص ليس هو دمترى كارامازوف على كل حال ، فاعلموا هذا ... ذلك كل ما أستطيع أن أقوله لكم ... وهو كاف ، فلا تلجوا ... اصنعوا بى ما شئتم ، أرسلونى الى سيريا ، أو نفذوا فى الحكم بالاعدام ، ولكن لا تهيجوا حقى وغيطى بعد الآن . هأنذا أسكت . أدخلوا شهودكم .

ختم ميتيا كلامه المستفيض وقد بدا فى وجهه أنه عازم عزما مطلقا على أن لا ينطق بعد الآن بكلمة واحدة . وكان وكيل النيابة يرقبه بانتباه ، منتظرا أن ينهى كلامه ، فما ان ختم ميتيا قوله حتى قال له بهدوء بارد ، كأن الأمر أمر مشاهدة طبيعية جدا بسيطة جدا .

— فى موضوع ذلك الباب بعينه ، ذلك الباب المفتوح الذى جئت على ذكره الآن ، نستطيع أن نطلعك — وهذا هو الوقت المناسب لذلك فيما أظن — على واقعة من أغرب الوقائع ومن أخطرها شأنها كذلك ، بالنسبة اليك وبالنسبة الينا معا ، وهى واقعة تنتج من أقوال العجوز جريجورى فاسيليف الذى جرحته . لقد صرّح هذا العجوز ، بعد أن أفاق من اغمائه وثاب اليه وعيه ، صرح على نحو واضح جازم قاطع ، فى الاجابة على أسئلة ألقيناها عليه ، أنه حين خرج من باب مسكنه فسمع

ضجة مشبوهة ، قرر أن يدخل الحديقة ماراً بابها الحديدى الذى لم يكن مغلقاً ؛ ولكنه قبل أن يلمحك فى الحديقة أثناء هروبك فى الظلام مبتعداً عن النافذة التى رأيت فيها أباك كما قلت لنا منذ قليل ، قد لاحظ أيضاً ، من مكان أقرب اليه كثيراً ، لاحظ أيضاً ذلك الباب الذى تزعم أنه ظل مغلقاً طوال مدة وجودك فى الحديقة ، فرأى أنه كان مفتوحاً على مصراعيه خلافاً لدعواك . ولا أستطيع أن أؤكدك أن فاسيليف يستتج من ذلك ويؤكد جازماً أنك لا بد أن تكون قد هربت من هذا الباب ، رغم أنه لم ير هروبك بعينه وإنما لمحت حين كنت قد أصبحت من الباب على مسافة ما ، وسط الحديقة ، راکضاً نحو السور

وثب ميتيا عن كرسيه دون أن يدع لوكيل النيابة أن يتم كلامه ، وأقول يقول خارجاً عن طوره :

— هذا كذب . هذا كذب دنيء ! لا يمكن أن يكون قد رأى الباب مفتوحاً ، لأن الباب كان مغلقاً فى تلك اللحظة انه يكذب !

— من واجبي أن ألفت انتباهك الى أن أقواله واضحة جداً فى هذه النقطة ، وإن شهادته لم تختلف ولم تتناقض ، بل هو ظل مصراً عليها بالحاح ، لأننا سألناه عن هذا الأمر مراراً كثيرة .

قال نيقولا بارفينوفتش مؤكداً كلام زميله بشيء من الحماسة :

— أنا نفسى استجوبته .

فاستأنف ميتيا كلامه صارخاً :

— هذا كذب ! هذا كذب ! لا يمكن أن يكون هذا الا وشاية

تستهدف الايقاع بىء ، أو أن يكون أو هام رجل يهذى . لا بد أن العجوز قد رأى حلماً أثناء هذيانه بسبب جرحه وانسكاب دمه قصص عليكم ما رآه فى الحلم حين صبحا من اغمائه وأغلب الظن أنه ما يزال يهذى .

— أتمنى لو أصدّق ما تقول ، ولكن العجوز لم ير الباب مفتوحاً

بعد أن أفاق من اغمائه ، وانما لاحظته قبل أن يُجرح ، لحظة دخوله
الحديقة •

– هذا كذب ، هذا كذب ، ذلك لا يمكن أن يكون ! ان الكرم
هو الذى يدفعه الى اتهامى ... لا يمكن أن يكون قد رأى ذلك الباب
... أنا لم أهرب من الباب !

هكذا صاح ميتيا محتقًا •

فالتفت وكيل النيابة الى نيقولا بارفينوفتش وقال له بلهجة رصينة :
– أره الظرف •

فإذا بالقاضى يضع على المائدة ظرفاً كبيراً من ورق قوى ، ترى عليه
ثلاثة أختام من شمع لم تمس ، وقد أفرغ الظرف بتمزيقه من أحد
أطرافه ؛ قل القاضى يسأل ميتيا :

– هل تعرف هذا ؟

فدمدم ميتيا يقول :

– لا شك انه الظرف الذى كان عند أبى ... الظرف الذى كان
يضم ثلاثة آلاف روبل ، اذا كان عليه كتابة ... هل تسمح لى بأن
أرى ؟ نعم ، هذه هى الكتابة : « الى حمامتى » ، وهنا : « ثلاثة آلاف
روبل » •

وصاح ميتيا :

– ثلاثة آلاف روبل ... أرايتم ؟

– طبعاً رأينا ... ولكننا لم نعثر على ذلك المبلغ • كان الظرف

ممزقاً ملقى على الأرض قرب السرير وراء الحاجز •

لبث ميتيا بضع ثوان كالصعوق • ثم صاح يقول بغتة بكل ما أوتى

من قوة :

— هو سمردياكوف ، أيها السادة ! انه هو القاتل والسارق • انه
الانسان الوحيد الذى كان يعرف الموضع الذى خبأ فيه العجوز الظرف •
انه هو ، كل شىء واضح الآن !

— ولكنك كنت أنت أيضا تعلم بوجود هذا الظرف ، وتعرف انه
موضوع تحت الوسادة •

— بل كنت أجهل ذلك كل الجهل • لم أر هذا الظرف حتى الآن ،
ولم أكن أعلم بوجوده الا من مسارات سمردياكوف ••• كان
سمردياكوف وحده يعرف أين خبأ العجوز الظرف ••• أما أنا فكنت
لا أعرف ••

كذلك قال ميثيا متقطع الأنفاس •

— عجيب ! لقد أكدت أنت نفسك منذ قليل أن هذا الظرف كان
موجودا تحت وسادة المتوفى أيك • لقد حددت بنفسك أنه كان مخبأ
تحت الوسادة • معنى هذا أنك كنت تعرف المخبأ !

وأمن يقولون بارفينوفتش على كلام زميله قائلا :

— لقد سجّلت تصريحاتك فى محضر الاستجواب •

— سخف ••• جنون ! ••• لم أكن أعرف أنه تحت الوسادة ••
ولعله كان فى موضع آخر • لقد ذكرت الوسادة مصادفة ••• ماذا قال
لكم سمردياكوف ؟ هل سألتموه أين كان الظرف مخبأ ؟ فماذا قال لكم ؟
تلكم هى النقطة الرئيسية ! ••• أما أنا فقد كذبت عامداً ••• كذبت
وكنت لا أعرف أن الظرف كان تحت الوسادة ، وهأتم أولاء سوف •••
كثيراً ما يقول المرء بعض الأمور مصادفة وعرضاً ••• يخطر بباله أن
يقولها ••• لقد كان سمردياكوف وحده عارفاً بالأمر ، ولم يكن

يعرفه أحد سواه ! رفض أن يكشف لى عن المخبأ ، حتى أنا رفض أن
يكشف لى عن المخبأ • انه هو ، هو القاتل ! هو القاتل لا محالة ، لقد
وضح الأمر الآن وضوح النهار •

كذلك صاح ميتيا مضطرباً اضطراباً ما ينفك يزداد ، وقد أصبحت
عباراته مفككة غير متماسكة ولا منسجمة من فرط الانفعال •

- افهموا أخيراً واعتقلوه فوراً دون أن تضعوا لحظة واحدة ! ...
لقد أصبح واضحاً انه قتل أبى بينما كنت أنا أهرب وكان جريجورى راقداً
فى الحديقة بلا حراك • أصبح كل شىء واضحاً ... قرع الباب بالاشارة
المتفق عليها ، ففتح له أبى الباب ... ذلك أنه الشخص الوحيد الذى
كان على علم بالاشارات التى ما كان لأبى أن يفتح الباب لولا أن سمعها
استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً "بتلك اللهجة الموزونة نفسها على
شىء من التعبير عن الانتصار فى نبرة صوته ؛

- يظهر أنك تنسى من جديد أن الاشارات تصبح زائدة لا داعى
اليها ولا ضرورة لها ما دام أن الباب كان مفتوحاً من قبل ، بينما كنت أنت
ما تزال فى المكان ، أغنى فى الحديقة ...

قال ميتيا متلعثماً :

- الباب • الباب ...

وسكت ، وحدّق الى وكيل النيابة بنظرة متجهمة • ثم تهالك على
الكرسى كالنهار • وساد صمت • ثم هتف يقول زائع الوجه :

- نعم • الباب ! • كان هذا شبحاً ! الله ضدى ! ...

قال وكيل النيابة بلهجة رزينة :

- أرايت ؟ فاحكم الآن بنفسك با دمتري فيدوروفتش • هناك من

جهة أولى هذه الشهادة القوية الدامغة ، فى نظرك وفى نظرنا ، أعنى الشهادة بأن الباب كان مفتوحا وأنتك هربت منه • وهناك من جهة ثانية هذا الصمت العنيد الذى لا يُفهم ، هذا الصمت الذى تلوذ به عن مصدر المال الذى أصبح فى حوزتك فجأة بينما كنت قبل ذلك بثلاث ساعات ، فيما صرحت به أنت نفسك ، مضطرا الى رهن مسديك للحصول ولو على عشرة روبلات • فماذا نصدق وعلى أى شئ نستند ؟ هلاّ قلت لى ••• فلا تأخذ علينا ، ظلماً وعدوانا ، أننا أناس مستهزئون باردون مستهترون ، عاجزون عن أن نفهم ما فى نفسك من اندفاعات نبيلة ، بل ضع نفسك فى مكاننا ••• وحاول أن تفهمنا أنت أيضا •••

كان ميتيا مضطربا • وشحب لونه • ثم هتف يقول فجأة :

— طيب ! سأكشف لكم عن سرى ، سأطلمكم على مصدر المال •••
سأكشف عن عارى ، حتى لألوم نفسى ولا ألومكم فى المستقبل •

قال نيقولا بارفينوفتش بفرح يوشك أن يكون فيه حنان :

— ثق يا دمترى فيدوروفتش أن اعترافا صادقا كاملا منك الآن قد يخفف عنك كثيرا فى المستقبل ، حتى لقد •••

ولكن وكيل النيابة لكزه بقدمه لكزه خفيفة من تحت المائدة فصمت القاضى فى الوقت المناسب • وكان ميتيا لا يصنى اليه على كل حال •

السرد الكبير الذي يحفظه ميسيا يحذف زلاته



ميتيا كلامه فقال منفعلًا أشد الانفعال :
- أيها السادة ... أريد أن أعترف بالحقيقة
كلها ... كان هذا المبلغ لى أنا ...

استطال وجها وكيل النيابة وقاضى التحقيق •
لقد خاب فألهما وأخفق انتقلارهما ، لأنهما كانا يتوقمان اعترافا يختلف
عن هذا الاعتراف كل الاختلاف •

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول :

- كان ذلك المال لك أنت ؟ كيف هذا ؟ أنت تقول فى اعترافاتك
نفسها انك فى الساعة الخامسة بعد الظهر ...

- سحقاً للساعة الخامسة ولاعترافاتي ! ليس هذا هو الموضوع
الآن ! لقد كان ذلك المال لى أنا ... أقصد أنني استوليت عليه ، سرقته ،
نعم سرقته • هو مبلغ ألف وخمسمائة روبل ... كنت أحملها دائما
معى ، معى ...

- من أين أخذتها ؟

— من صدرى أيها السادة ، من هذا الصدر الذى ترون ... كنت أخبئها هنا ، معلقةً بعنقى ، مخيطة فى خصره ... هكذا كنت أحمل عارى منذ زمن طويل ، منذ أكثر من شهر ...

— ولكن من عند من ... استوليت ... على هذا المبلغ ؟
— تريدون أن تقولوا من عند من « سرقت » ، أليس كذلك ؟ سمعوا الأشياء بأسمائها ! أنا أعتقد فعلاً أنني سرقت هذا المال ، أنني « استوليت » عليه إذا كنتم تؤثرون هذا التعبير . وأنا أرى أنه سرقة . وأمس مساء ، اكتملت السرفة .

— أمس مساء ؟ ولكنك قلت انك ... حصلت على هذا المال منذ

شهر .

— نعم ، ولكن لا من عند أبى ، لا من عنده ، اطمئنا ! لم أسرقه من عند أبى ، بل من عندها . دعونى أروى لكم الوقائع دون أن تقاطعونى . انه لأمر قاس على نفسى أن أتكلم ، هل تفهمون ؟ منذ شهر ، نعم منذ شهر استدعنى كاترين ايفانوفنا فرخوفتزيفا ، خليتى السابقة . هل تعرفونها ؟

— كيف لا ؟

— أعلم أنكم تعرفونها . هذه انسانة ذات نفس نبيلة ، لا تضارعها فى نبيلها أحد ... ولكنها كانت تكرهنى منذ زمن طويل ... طویل جداً ... وكان من حقها أن تكرهنى على كل حال ... هناك أسباب تحملها على كرهى .

سأله القاضى مندهشاً :

— كاترين ايفانوفنا ؟

وظهر الاستغراب على وكيل النيابة أيضاً .

قال ميتيا :

— أوه ! لا تذكروا اسمها بغير داعٍ الى ذلك ! ما كان أشقائى حين
ذكرت اسمها هنا ... نعم ، كنت أعلم أنها تكرهنى ... منذ زمن
طويل ... منذ اليوم الأول ، فى مسكنها هناك ... ولكن كفى ! كفى
حديثاً فى هذا الأمر ! انكم لا تستحقون أن تعلموا هذه الأشياء ، ولا داعى
الى ذكر هذه الأشياء على كل حال .. يكفيكم أن تعلموا أنها استدعتنى
منذ شهر وأعطتنى ثلاثة آلاف روبل كلفتنى بأن أرسلها الى أختها والى
فريية أخرى لها بموسكو (أما كانت تستطيع أن تتولى ذلك بنفسها ؟)
.. وأنا ... كانت تلك الساعة هى بعينها الساعة الحاسمة فى حياتى ،
كانت تلك اللحظة هى اللحظة التى .. الخلاصة .. هى اللحظة التى
كنت قد أحببت فيها امرأة أخرى منذ قليل ، هى اللحظة التى كنت فيها
قد أحببتها «هى» .. امرأة هذا اليوم .. تعلمون ... تلك التى أودعت
تحت ، جروشنكا .. فجئت بها الى هنا ، الى موكرويه ، فأنفقت خلال
يومين من الانفعال والقصف ، نصف ذلك المبلغ اللعين ، أعنى ألفاً
 وخمسمائة روبل ، واحتفظت بالنصف الآخر . فهذه الألف وخمسمائة
روبل الباقية هى ما احتفظت به منذ ذلك الحين معلقا بعنقى مخيطا فى
كيس . وقد فتحت الكيس أمس ، فأنفقت هذا المال فى القصف هنا .
وان الثمانمائة روبل التى وضعتها فى مكان مأمون يا نيقولا بارفينوفتش
هى كل ما بقى من الألف وخمسمائة روبل التى أخرجتها من الكيس
أمس .

— اسمح لى ! هناك شىء ليس واضحاً . فى المرة الماضية ، أعنى
فى الشهر الماضى ، أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل لا ألفاً وخمسمائة . ذلك
أمر بعرفه جميع الناس .

— من أين عرفوه ؟ من ذا الذى حسب نفقاتى ؟ أنا لم أطلع على
ذلك أحداً .

– كيف ؟ لقد حكيت لكل انسان أنك أنفقت ثلاثة آلاف روبل •
– صحيح ، حكيت هذا ، بل لقد حكيت للمدينة كلها ، والناس يتحدثون عنه في كل مكان ، وما من أحد الا ويعتقد اعتقادا جازما بأننى أنفقت ثلاثة آلاف روبل • وأهل موكرويه مقتنعون بهذا أيضا • ولكننى ، مع ذلك ، لم أنفق فى الواقع الا ألفا وخمسمائة روبل ، ثم خطت باقى المبلغ فى كيس • تلكم هى الحقيقة أيها السادة ، ذلكم هو مصدر المال الكبير الذى كان فى حوزتى أمس •

دمدم نيقولا بارفينوفتس يقول :

– يشبه هذا أن يكون من المعجزات •

وتدخل عندئذ وكيل النيابة فقال يسأل ميتيا :

– اسمح لى أن أسألك هل أفضيت بهذا السر الى أحد قبل هذا اليوم ... أعنى : هل يعرف أحد أنك احتفظت بمبلغ الألف وخمسمائة روبل هذا ؟

– لم أفض بذلك الى أحد •

– غريب ... لم تذكره لأحد فى العالم كله ؟

– فى العالم كله • لم أذكره لأحد البتة • أوكد لك ذلك •

– فلماذا هذا السكوت ؟ ما هى الأسباب التى دفعتك الى الاحتفاظ به سرا لا يذاع ؟ سأشرح ما أريد أن أقوله • لقد كشفت لنا أخيرا عن سرّك الذى تراه « مخزياً » الى هذا الحد فى نظرك ، رغم أن هذا الفعل ليس فى الواقع – اذا فيس بغيره طبعاً – الا هفوة صغيرة • ان استيلاءك على مبلغ الثلاثة آلاف روبل التى عهد بها اليك واؤتمنت عليها فاحتفظت بها لنفسك • • مؤقتاً • • أنا متأكد من هذا ... انما ينبغى أن يُعد طيشاً ، انما ينبغى أن يُعد خطأ مردد الى الخفة ، ولكنه ليس فعلاً يدنس الشرف ، ولا سيما اذا نظرنا بعين الاعتبار الى طبعك

... فلنفرض أن هذا الفعل فعل يؤسف له .. وأنا أسلم بذلك ...
ولكنه ليس دناءة أو حفارة أو حطة أو ما أشبه ذلك ... واعلم على كل
حال أن كثيرا من الناس ، فى هذه المدينة ، قد حزروا ، أثناء هذا الشهر ،
أنك بددت الثلاثة آلاف روبل التى ائتمنتك عليها الآنسة فرخوفتزيقا .
لقد انسبها فىك واعتقدوا أنك بددت المال ، رغم أنه لا أدلة على ذلك ،
حتى لقد وصلت هذه الشائعة الى أسماعنا ، وعلم بها ميشيل ماكاروفتش
أيضا ، فليس الأمر أمر سرى اذن ، وانما هو كلام يقال ويردد فى كل
مكان ... ويبدو من جهة أخرى كذلك أنك اعترفت أنت نفسك ذات
مرة ، أثناء حديث خاص ، اذا لم يخطئ ظنى ، بأن ذلك المبلغ مصدره
الآنسة فرخوفتزيقا ... لذلك استغرب أشد الاستغراب حين أرى حتى
هذه الدقيقة أنك تولى هذه الألف وخمسمائة روبل ، فيما تدعى ، اهتماما
خارقا وتضفى عليها خطورة عظيمة ، ولا أفهم البتة أن تجعلها سرا لا تتكلم
عنه ، سرا مصحوبا بنوع من الهلع الأخلاقى ... ليس من المعقول أن
يسبب لك سر من هذا النوع عذابا كهذا العذاب ، وأن يبدو لك
الاعتراف به صعبا الى هذا الحد ... ألم تعلم منذ قليل أنك تؤثر
السجن على مجرد الاعتراف بالحقيقة ؟

سكت وكيل النيابة . وكان قد تحمس أثناء الكلام ، واشتعل فيه
استياء متزايد يشبه أن يكون غضبا ، وساق كلامه دون اهتمام بالخطابة ،
ودون كثير من التسلسل أيضا ، وانما كان يدع لأفكاره أن تنفجر انفجاراً
فى جمل مقطعة .

قال ميتيا بصوت جازم :

— ليس العار فى الاستيلاء على هذه الثلاثة آلاف روبل ، بل العار
فى أننى ادخرت نصف هذا المبلغ ، أى ألفا وخمسمائة روبل !
فقال وكبل النيابة وهو يضحك ضحكة اغتياظ :

— حقا ؟ هلا ؟ قلت لى آين العار فى أن تحتفظ بنصف مبلغ كنت قد استوليت عليه استيلاء غير لائق ، أو استيلاء مخزيا ان كنت تؤثر أن تصفه بهذه الصفة ؟ ان الأمر الهام هنا هو أنك حصلت على هذا المبلغ بطريقة ليس فيها كير من الأمانة ، لا أنك تصرفت فى المال على هذا النحو أو ذاك من الأنحاء ! بالمناسبة : هل تستطيع أن تقول لى لماذا قسمت المبلغ نصفين ، وماذا كان هدفك من ادخار أحد النصفين ؟

صاح ميثيا يقول :

— ذلك بعينه هو الدرامه كلها ! لقد قسمت هذا المبلغ عن حقارة ودناءة ، أى عن حساب . ذلك أن الحساب هو بعينه الدناءة والحقارة فى مثل هذه الحالة ... وقد امتدت هذه الدناءة وهذه الحقارة على شهر بأسره !

— كلام لا يفهم !

— أستغرب هذا منكم . ولكننى سأشرح ما أريد قوله . اننى أسلمت بأن كلامى قد يبدو من أول وهلة أنه لا يفهم . فاصغوا الىّ وتابعوا ما أقول : لنفرض اننى استوليت على ثلاثة آلاف روبل أو تمننت عليها ، فأنفقتها فى القصف الى آخر كوبك منها . ان فى امكانى أن أذهب الى آستى فى الغد وأن أقول لها : « كاتيا ، اغفرى لى ، لقد بددت الثلاثة آلاف روبل التى ائتمنتى عليها » . ليس هذا خيرا بطبيعة الحال ، وانما هو سوء أمانة ، وضعف خلق ؛ هو سلوك انسان لا يستطيع أن يسيطر على اندفاعاته . ولكننى فى هذه الحالة لن أكون سارقا ، لن أكون لصا . لن أكون لصا بالمعنى الشائع لهذه الكلمة . هل توافقوننى على هذا ؟ لقد بددت المال الذى أوتمنت عليه ، ولكننى لم أسرقه . فلنفرض الآن فرضا ثانيا ، فرضا أفضل من الأول أيضا . تابعوا ما أقول ، والا فقد أرتبك من جديد . أن رأسى يدور قليلا ... اليكم الفرض الثانى : لنفرض اننى

أنفقت في القصف نصف المبلغ فقط ، أى ألفاً وخمسمائة روبل ،
ولنعرض أنى ذهبت إليها في الغد حاملاً ما بقي من مال ، وفلت لها :
« استردى منى المال يا كاتيا لأننى لست إلا إنساناً تسفياً طائش العقل
محموم الرأس • استردى نصف المبلغ الذى ائتمنتنى عليه ، والا فقد
أبدده كما بدد نصفه الأول • اننى لا أريد أن أعرض لهذه الغواية! »
فماذا أكون عندئذ ؟ أكون ما شئتم ، أكون شيطاناً وأكون سقياً ، ولكننى
إن أكون لصاً ، لن أكون قد أصبحت لصاً حقيقياً • لأننى لو أردت أن
أسرق لما رددت الألف وخمسمائة روبل الباقية ، وإنما كنت أحتفظ بها
لنفسى • كانت سندرك هى عندئذ أننى ما دمت أرد إليها نصف المبلغ ،
فسأرد إليها النصف الثانى آخر الأمر ، فى يوم من الأيام وأننى قد أظل
أعمل عند الضرورة طوال حياتى مدخراً قرشاً فوق قرش لأجمع المال
الذى أنفقته فى المعصف فأرده إليها فى ذات يوم • صحيح أننى أكون
فى هذه الحالة رجلاً جباناً ، ولكننى لا أكون لصاً ؛ أكون ما شئتم ،
ولكننى لا أكون سارقاً على الأقل •

قال وكيل النيابة بلهجة فيها سخرية باردة :

— لنسلم بأن هناك مجالاً للنمىز فعلاً • اننى أظن أستغرب أن
تضفى على هذا الفرق الزهيد دلالة تبلغ هذا المبلغ من شدة الخطورة
وصفة المأساة !

— بالعكس • ليس هذا الفرق زهيداً بل هو فرق رئيسى • إن أى
إنسان يمكن أن يكون جباناً ، ولا شك أننا جميعاً جبناءً بدرجات متفاوتة •
ولكن ليس كل إنسان لصاً • لا بد من حقارة خاصة حتى يكون المرء
لصاً • أحسب أننى لا أجيد التعبير لأننى تعوزنى الرهافة ••• ولكن
اللص أحقر الحقراء وأدنا الأوغاد • تلكم هى قناعتى العميقة ! اصغوا
الى • لقد حملت هذا المال فى عنقى مدة أربعة أسابيع ، وكنت أستطيع

فى كل لحظة أن أذهب فأرد إليها هذا المال ، فلو فعلت لمسا كنت وغداً
حقيراً ، أما وأننى لم أستطع أن أتخذ هذا القرار ، فذلك هو الأمر
الخطير ! كنت كل يوم أفكر فأقول لنفسى : « فرر أيها الشقى ، يجب
أن ترد المال » • ولكن القرار لم يجرى ، وطالت القضية شهراً بأكمله •
فما رأيكم ؟ ألعلمكم ترون هذا جميلاً ؟
أجابه وكيل النيابة بصوت مكظوم :

— أعترف بأن ذلك شر • أنا أفهم هذا حق فهمه ، ولا يخطر ببالى
أن أجحده • ولكننى أقترح عليك مع ذلك أن تدع الكلام عن هذه
الفروف ، وأن تدع هذه الرهافة فى التمييز بين الأمور ، وأن تعود الى
جوهر القضية • لأنك لم تقبل حتى الآن أن تشرح لنا ، فى الاجابة عن
سؤالى ، السبب الذى دفعت الى أن تقسم هذا المبلغ نصفين فتتفق النصف
الأول منه فى القصف وتحفظ بالنصف الثانى معك • ماذا كان هدفك
من ذلك ، وعلى أى غرض وقفت هذه الألف وخمسمائة روبل التى
احتفظت بها ؟ اننى أصرُ على هذا السؤال يا دمتري فيدوروفتش !
صاح ميتيا وهو يلطم جبينه :

— ها • • ولكن • • هذا صحيح • • معذرة • • اننى أعذبكم بهذه
المنافشات بدلا من أن أشرح لكم جوهر الأمر • لقد نسيت أن أفعل !
سأقول لكم الآن فسرعان ما تفهمون • ذلك أن العار كله يكمن هنا •
اسمعوا : لقد كان العجوز ، المتوفى ، يلاحق أجرافين ألكسندروفنا
بالحاح ولحاجته ، وكنت أشعر أنا بغيرة شديدة • وكنت أتخيل فى ذلك
الحين أنها مترددة بينى وبينه لا تعرف أختارنى أم تختاره ، فكنت أسأل
كل يوم : « ما عسى يحدث اذا هى حزمت أمرها فجأة وكفت أخيرا عن
تعذيبى وصارحتنى قائلة : أنت الذى أحبه لا هو ، فلنسافر • • • خذنى
الى مكان بعيد ، الى أبعد مكان تستطيع أن تأخذنى اليه ! » • كنت

أتساءل ما عسى يحدث عندئذ وأنا لا أملك فى جيبي الا بضعة كوبيكات !
أين لنا المال الذى نساقر به ؟ ما عساي فاعلا حينذاك ؟ كان ذلك هو
الهو ، هو اليأس ! لاحظوا أتنى لم أكن قد عرفت حق معرفتها فى ذلك
الأوان . كنت أظن أنها لا تستغنى عن المال ، وأنها لن تغفر لى فقرى .
ذلكم هو السبب الذى من أجله قررت ، جانا ، أن أحتفظ بنصف الثلاثة
آلاف روبل ، وأن أخطط المبلغ فى كيس . وذلك ما فعلته ببرود ،
بحساب ، من قبل أن أسكر ! وبعد ذلك ، بعد أن طويت الكيس وخطته ،
انما سافرت ألهو وأقصص بالآلف وخمسمائة روبل الأخرى . لا . . .
لا . . . لقد كان ذلك حقارة ودناءة وخسة . هل فهمتم الآن ؟
انفجر وكيل النيابة وقاضى التحقيق فى ضحكك صاحب . وقال
نقولاً بارفينوفتش ساخراً :

- فى رأيى أن فرارك كان عين العقل ، بل وعين الأخلاق ، على
عكس ما تقول ، ما دمت قد عرفت كيف تعتدل فلا تنفق المال كله دفعةً
واحده . أين فى هذا ما يثير السخط ؟

- أتنى سرف ، هنا الحقارة ! آه . . . يا رب ! ان عاجزكم عن
الفهم برو عني ! كنت أثناء حملى هذه الآلف وخمسمائة روبل فى
عفى ، أردد على نفسى كل يوم وكل ساعة : « أنت لص ، أنت لص ! » .
وبسبب هذا العار الذى يرهقنى ، بسبب هذا الشعور بأننى سارق ، انما
كنت نرسا تلك الشراسة كلها عنيفا ذلك العنف كله خلال هذا الشهر
الأخير . ذلكم هو السبب فى أتنى تشاجرت واقتلت فى الكاباريه ، وأتنى
خربت أبى . وحتى أليوسا أختى لم أجرو أن أعترف له بالحقيقة فى
موضوع الآلف وخمسمائة روبل ، فالى ذلك الحد كنت أشعر بالحقارة
والدناءة ! لاحظوا أيضا اتنى طيلة مدة احتفاظى بالمال المودع فى الكيس
سلباً لا أهبة ، كنت أستطيع أن أقول لنفسى كل يوم وكل ساعة :

« لا يا دمترى فيدوروفش ، ربما لم تكن لصاً ! » • لماذا ؟ لأننى كنت
استطيع فى كل لحظة أن أذهب الى كاتيا فأرد إليها هذا المال • وأمس
فقط ، بعد أن تركت فينيا ، وفى طريقى الى منزل برخوتين ، انما قررت
أن أفض الكيس • أما قبل ذلك فلم أستطع أن أحزم أمرى • ولكننى
مند تلك اللحظة قد أصبحت لصاً بالفعل ، لصاً لا يمكن انكار انه لص ؛
أصبحت رجلاً فقد شرفه الى آخر الحياة • لأننى حين مزقت الكيس قد
مزقت فى الوقت نفسه أملى فى أن أذهب الى كاتيا وأن أقول لها : « أنا
جبان ••• هذا صحيح ••• ولكننى لست لصاً » • هل تفهموننى الآن
أيها السادة ؟

— فلماذا اتخذت قرارك هذا أمس ؟

— لماذا ؟ يدهشنى سؤالكم ! لقد اتخذت قرارى لأننى عزمت على
الانتحار ، فى هذا المكان ، عند الفجر • قلت لنفسى : « ما قيمة أن اموت
شريفاً أو وغداً بعد الآن ؟ » • ولكننى أدركت أن الأمرين لا يستويان ••
سدقونى أيها السادة ! ان العذاب الأكبر الذى عاينته فى هذه الليلة
الرهية لم يكن شعورى بأننى قتلت الخادم العجوز ، ولا تصورى اننى
سأحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة • لا ••• صحيح أنه أمر رهيب
أن أرحل الى السجن فى اللحظة التى أخذ فيها حبى ينتصر ، فى اللحظة
التي انفتحت فيها سماوات السعادة أمامى ••• ولكن ذلك لم يكن عذابى
الأكبر ••• ولا كان يساوى ، على الأقل ، عذابى من تصور أننى فتحت
ذلك الكيس اللعين ، وأتلقت ذلك المبلغ المنحوس ، وأصبحت بهذا لصاً
الى الأبد ! أيها السادة ، اننى وقد تهدمت الى أعماق أعماق كيانى ، أعود
فأقول لكم : لقد تعلمت أشياء كثيرة فى هذه الليلة • لم أنعلم فقط أنه
أمر لا يطاق أن يعيش المرء جباناً ، وانما تعلمت أيضاً أنه أمر مستحيل
أن يموت المرء وغداً حقيراً ••• لا ، لا يمكن أن يموت المرء الا وهو

يشعر انه انسان شريف ! ...

كان ميتيا شاحب اللون ، مشدود العضلات ، وكان وجهه المتقبض على ألم يبدو كأنه خلا من الدم ، رغم أنه قد تحمس أثناء الكلام .
قال وكيل النيابة بلهجة ملطفة فيها شيء من عطف ، قال ببطء :

- بدأت أفهمك يا دمترى فيدوروفتش . ولكننى أعتقد أنك تبالغ قليلا ، وأن أعصابك ، أعصابك المريضة ، هى السبب الحقيقى لعذابك...
هم... فملا : لماذا لم يخطر ببالك ، حتى تتخلص من الآلام النفسية التى قاسيت منها خلال شهر بأكمله ، لماذا لم يخطر ببالك أن تذهب الى تلك الانسانة التى ائتمنتك على ذلك المبلغ لترد اليها الألف وخمسمائة روبل ؟ ألا يكون أبسط من هذا كله ، بعد أن تشرح لها الخطيئة التى ارتكبتها فى لحظة ضلال ، أن تعتمد الى حل يخطر على البال من تلقاء نفسه ، وكان يمكن أن يخرجك من المأزق الذى كنت فيه كما تقول ؟
لقد كان فى وسعك ، بعد أن تعترف لها اعترافا مليشا بالنبل ، كان فى وسعك أن تطلب اليها أن تقرضك المبلغ الذى كنت فى حاجة اليه ؟ وانى لعلى يقين ، لمعرفنى بسمو نفسها ، أنها ما كان لها أن ترفض اقراضك ذلك المبلغ ، ولا سيما وأنت فيما أنت فيه من ضياع نفسى... خاصة وأنك كنت تستطيع أن توقع لها سندا أو أن تقدم اليها الضمانات التى عرضتها على التاجر سامسونوف ، وعلى السيدة هوخلاكوفا أيضا ! أظن طبعا أنك ما تزال تعد تلك الضمانات موثوقة تماما .

احمر وجه ميتيا فجأة . ثم هتف يقول مستاء وهو يحدث الى عيني وكيل النيابة تحديق من يشك فى أن يكون وكيل النيابة قد فهم الموضوع :
- هل بعقل أن تتصورونى منحطاً الى هذه الدرجة ؟ أنا لا أستطيع أن أسدق أنكم تتكلمون جادين !

فدهش وكيل النيابة هو أيضا ، وانبرى يقول له :

— أؤكد لك اننى جاد كل الجد • لماذا تشك فى ذلك ؟
— عجيب ! لو قد فعلت ذلك لكان حطة" ما بعدها حطة ! هل تعلمون
أيها السادة أنكم تعذبوننى تعذيبا رهيبا ؟ طيب ! سأقول لكم كل شئ • ،
اننى أذعن لارادتكم فأقول لكم كل شئ • سأتيح لكم أن تروا الحقيقة
لجهنمية ؟ فتعرفوا ، لتشعروا أنتم أنفسكم بالعار والخزى ، الى أى جبن
يمكن أن ينحدر ضمير انسان • ان هذا الحبل الذى ذكرته الآن
يا سيادة وكيل النيابة قد خطر ببالى • نعم يا سادتى ! لقد فكرت فى هذا
الحبل أيضا خلال هذا الشهر المنحوس ، وكنت على وشك أن أذهب الى
كاتيا من فرط حطنى وصغارى ، أذهب اليها فأعترف لها بخياتتى ، ثم
أطلب اليها بعد ذلك الاعتراف ، أن تقرضى مالا" لأنفذ هذه الخيانة ،
لأسدد النفقات التى كانت ستقتضيها هذه الخيانة • أطلب مالا" منها هى ،
كاتيا ، أطلب ، أتضرع ، هل تسمعون ؟ ثم أهرب مع امرأة أخرى ، مع
غريمتها ، مع امرأة تكرهها ، امرأة أساءت اليها وأهاتها • ألا انك لمجنون
يا سيادة وكيل النيابة !

— أما أن أكون مجنونا ، فقد لا أكون مجنونا ؛ ولكننى أثناء احتدام
النقاش لم يعخطر ببالى عنصر الغيرة النسوية هذا اذا افترضنا أن من
الممكن أن يكون ثمة غيرة فى هذه الحالة كما تقول والحق أن من
واجب المرء أن لا يففل عن عاطفة من هذا النوع
كذلك ختم وكيل النيابة كلامه بلهجة ساخرة •

زأر ميثيا يقول وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية :
— ان عملا" كهذا العمل يكون فيه من الصغار والحطة والدناءة ،
ويبلغ من شدة ما يبعثه فى النفس من اشمئزاز ، أننى قد تراجعته عنه
أنا نفسى ! هل تعلمون أنه كان يمكن جسدا أن تعطينى ذلك المال ؟ أنا
على يقين من أنها كانت ستعطينى ذلك المال ، بدافع الانتقام ، انتلذذ بالتأراء

لتطهر لى احتقارها ، لأنها هى أيضا نفس جهنمية عنيفة غضوب ! وكنت
سأخذ منها المال ، هذا أكيد ، فأظل طول حياتى ... أوه ... ربه !
معدرة يا سادتى ! لئن صرخت الآن ، فلأن هذه الفكرة الكريهة قد
ساورتنى ، ساورتنى أمس الأول ، بينما كنت أخطب ليلاً قرب لياجافى
... وعاودتنى أمس مرة أخرى ... نعم ... انى أتذكر هذا ...
وحاصرتنى طول النهار الى حين وقوع ذلك الحادث .
- أى حادث ؟

كذلك تدخل يسأله يقولون بارفينوفتش مستطعماً ، ولكن ميتيا لم يأبه
لسؤاله . وختم ميتيا كلامه يقول مظلم الوجه :

- لقد قدمت اليكم اعترافاً رهيباً ، فاعدروه حق قدره أيها السادة ،
بل انه لقليل أن تقدروه حق قدره فحسب ، وانما ينبغي لكم أن تعترفوا
بقيمه ... والا ... اذا انزلق هذا الاعتراف على صفحة نفوسكم دون
أن يؤثر فيكم ، فيجب أن نسلم عندئذ بأنكم لا تصمرون لى أى احترام ،
انكم تحثقروننى ؟ ولأموتن عندئذ من شعورى بالعار لأننى فتحت قلبى
لأناس مثلكم . لأطلقن عندئذ رصاصة فى رأسى ! ولكننى أرى أنكم
لا تصدقوننى ، أرى ذلك ! ماذا ؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال
أيضاً ؟

هكذا صاح ميتيا مروءةً جداً . فأجاب يقولون بارفينوفتش يقول
وقد أدهشه قلق ميتيا :

- ن نسجل الا التصريح الذى أدليت به الآن ... سنسجل انك
كنت تنوى ، حتى الدقيقة الأخيرة ، أن تذهب الى الآمنة فرخوفتريفا
لتقترض منها هذا المبلغ ... تلك واقعة هامة جداً بالنسبة لينا يا دمتري
فيدوروفتش ... صدقنى ... هذه التفاصيل كلها هامة ... ولا سيما
بالنسبة اليك ، اليك أنت .

هنف ميتيا يقول وهو يضم يديه احدهما الى الأخرى متوسلاً :
- أضرع اليكم يا سادتي ! اعدلوا عن تسجيل ما ذكرته لكم الآن ،
اعدلوا عنه من باب الحياء والخفر على الأقل ! لقد فتحت لكم نفسي ، فاذا
أنتم تسرعون فتغمسون فيها أيديكم لتبشوا آلامى . آه ... رباه !
قال ذلك وأخفى وجهه يديه كمدأ وكرباً وقنوطاً !
فتدخل وكيل النيابة يقول :

- اطمئن يا دمترى فيدوروفتش . ان كل ما نسجله الآن سيقرأ
عليك بعد ذلك ، وسنعدّل عندئذ الفقرات التى لا توافق عليها متقيدين
بما تذكره . ولكن يجب على الآن ، مرةً ثالثة ، أن ألقى عليك سؤالاً
صغيراً : هل يُعقل فعلاً أن لا يكون أحد ، أن لا يكون أحد على
الاطلاق ، قد علم بوجود ألف وخمسمائة روبل مخبئة فى الكيس ؟
اعترف لك بأن هذا يبدو لى غير معقول كثيراً ...

- قلت ان أحداً لم يعلم بهذا الأمر . لم أحك هذا الأمر لأحد .
اذن لم تفهموا شيئاً البتة ! دعونى وشأنى أخيراً .

- طيب . لن ألج . سيكون علينا أن نوضح هذه النقطة ، ولكن
ما يزال لدينا وقت كثير . على اننى أرجوك أن تفكر فيما يلى : ان عندنا
عشرات من الشهود سيشهدون جميعاً بأنك كنت تروى أنت نفسك ،
حتى لتكاد تصيح بذلك صياحاً من فوق سطوح المنازل ، أنك قد أنفقت
فى القصف فى المرة الماضية مبلغ ثلاثة آلاف روبل ، لا ألف وخمسمائة
وحتى فى هذه المرة ، قلت لعدة أشخاص بصدد المال الذى أصبح فى
حوزتك فجأة ، انه يبلغ ثلاثة آلاف روبل أيضاً ...
صاح ميتيا يقول :

- الشهود ؟ ستجدون من الشهود مئات لا عشرات ! سيحيى مائتا
شخص يؤكدون ذلك ، وربما جاء ألف شخص . ستجدون من الشهود
ما تشاءون .

— هانت ذا ترى اذن • لقد سمعتك جميع الناس تقول هذا الكلام •
وهم جميعاً يؤكدونه اليوم • هل تفهم ماذا تعنى كلمة « جميع الناس »
هذه ؟

— لا تعنى شيئاً ! أنا كذبت وكرر الناس كذبتى •••

— فلماذا « كذبت » ؟ على حد تعبيرك •••

لا يعلم ذلك الا الشيطان ! لعلنى كذبت افتخاراً ••• أو لأسباب
أخرى ••• لألعب بالكلام عن قصص بلغ ذلك المبلغ من البذخ •••
أو لأسى ذلك المال المخطط فى الكيس ••• نعم ، ذلك هو ، ذلك هو
الباعث الحقيقى الذى دفعنى الى الكذب ••• أنا أحسن هذا ! ••• الى
الشيطان على كل حال ! انكم تعودون فتلقون على نفس الأسئلة • لقد
كذبت وكفى ! هذا كل شئ • هل يعلم أحد ما الذى يمكن أن يدفع
الانسان الى الكذب ، فى بعض الأحيان ؟

قال وكيل النيابة بصوت رزين :

— حقاً ان من الصعب ان يعرف المرء ما قد يدفع الانسان الى
الكذب • ولكن قل لى : ماذا كانت ابعاد الكيس الذى كنت تحمله معلقاً
برقبتك ؟ هل كان كبيراً !

— لا ، لم يكن كبيراً البتة •

— ماذا كانت أبعاده تعريباً ؟

— أبعاد ورقة المائة روبل حين تطوى الورقة نصفين •

— هل بقيت لك منه قطع ؟ هل تستطيع أن ترينا تلك القطع ؟

— قطع الكيس ؟ أتريد أن تضحك ؟ اننى لا أدري ما الذى صارت

اليه •

— عجيب ! أين ومتى نزعنا الكيس عن عنقك ؟ لقد صرّحت أنت

نفسك بأنك لم ترجع الى منزلك •

- نزعته أثناء الطريق بعد أن تركت فينيا لأذهب الى برخوتين •
- نزعته عن عنقي وأخرجت منه المال •
- فى الظلام ؟
- هل كان علىَّ أن أشعل شمعة ؟ لقد توصلت اليه باللمس فى مثل
- لمح البصر •
- فى الشارع ؟ بدون مقص ؟
- نعم • ثمَّ ذلك فى الميدان اذا لم يخطيء ظنى • ما الداعى الى
- مقصٍ حين يراد تمزيق خرقة عتيقة بالية ؟ لقد تمزقت من تلقاء نفسها •
- ماذا فعلت بتلك الخرقة بعدئذ ؟
- رميتها •
- أين ؟
- عجيب ! فى الميدان ! أتتى لى أن أتذكر المكان الذى رميت فيه
- الخرقة على وجه التحديد ؟ لماذا هذه الأسئلة ؟
- ذلك هام جدا يا دمتري فيدوروفتش • ألا تفهم أن هذه الخرقة
- يمن أن يكون وثيقة اثبات لصالحك ؟ من ساعدك فى خياطة الكيس على
- المال ، منذ شهر ؟
- لم يساعدنى أحد • قمت بذلك وحدى •
- أأنت تعرف اذن أن تخطط ؟
- لا بد أن يعرف الجندى كيف يخطط • ثم ان هذا لا يحتاج الى
- أية براعة •
- أين وجدت القماش ، أعنى تلك الخرقة التى خطتها على
- المال ؟
- أأنتم تسخرون منى ؟
- أبدا • ثق أننا لا نرغب فى الضحك أية رغبة يا دمتري
- فيدوروفتش !

- لا أتذكر من أين أخذت تلك الخرقه • لا بد أنني لمتها من مكان ما •

- كيف يمكن أن تنسى ذلك ؟

- أحلف لكم أنني لا أعرف • لعلنى قد مزقت أحد الملابس •
- هذا نىء هام • قد نعر غدا فى منزلك على ذلك اللباس الممزق الذى انتزعت منه قطعة ، وربما كان قميصا من قمصانك ••• ما نوع نسيج تلك الخرقه ؟ أكانت من كنان أم كانت من قطن ؟
- أنا أعرف ؟ لحظه •• لا ••• لم تكن قطعة قماش منتزعة من أحد الملابس •• كانت الخرقه من قماش خاص •• أظن أنني خطت المال فى طاقية لصاحبة المنزل الذى أقيم فيه •

- لصاحبة المنزل الذى تقيم فيه •

- نعم ، اختلست هذه الطاقية من عندها ؟

- اختلستها ؟

- أظن أنني أتذكر فعلاً أنني فى ذات يوم أخذت طاقية من عندها • كنت فى حاجة الى خرقه ، ربما لأمسح قلمى ، فأخذت تلك الخرقه دون أن أقول لأحد ، لأنها طاقية لا قيمة لها ••• طاقية عتيقة من قماش قطنى غُسل وأعيد غسله مائة مرة ••• وظلت الطاقية ملقاة فى غرفتى منذ ذلك الحين ••• فلمسا أردت أن أخبىء تلك الألف وخمسمائة روبل ، تناولت الطاقية وخطتها على المال •••

- هل تتذكر هذا نذكراً واضحاً ؟

- لا أدري هل هذه الذكرى واضحة جداً • يخيل الى أنها الطاقية ••• ولكن ما قيمة هذا !

- فى هذه الحالة ستستطيع صاحبة المنزل أن تذكر انها افقدت طاقية ، أليس كذلك ؟

- لا ... أبداً • انها لم تلاحظ غياب الطاقه • نلك خرقة عتيقة
غير ذات فائدة ...

- والابرة ؟ من أين أخذت الابرة ؟ والخييط ؟
- أتوقف عن الكلام • أرفض الجواب عن مثل هذه الأسئلة •
كفى !

كذلك حسم ميتيا المناقشة وقد نفذ صبره •
- انه لغريب حقاً أن تنسى في أى مكان على وجه الدقة رميت ذلك
الكيس في الميدان !

- ليس عليكم الا أن تأمروا بكس الميدان غداً ، فربما عثرتم
عليه •

بهذا أجاب ميتيا ساخراً • ثم أردف يقول بصوت متعب مكدود :
- هذا يكفى أيها السادة ، يكفى ويزيد • اننى لأرى رؤية واضحة
أنكم لا تصدقوننى ! انكم لم تصدقوا كلمة واحدة مما كنت أقول • وذلك
خطئى أنا لا خطؤكم أنتم : كان على أن أصمت بدلاً من أن أفشى بذات
نفسى ألامكم فى غباء وبلاهة • آه ... لماذا ، لماذا أسففت ذلك الاسفاف
فكشفت لكم عن سررى ؟ انكم لا تزيدون على أن نضحكوا من ذلك ،
أنا أقرأ هذا فى نظراتكم • أنت الذى دفعتنى الى الكلام يا وكيل النيابة •
أنتم الآن منتصرون أيها الجلادون المناحيس !

قال ميتيا ذلك ، وخفض رأسه وأخفى وجهه فى يديه • وصمت
وكيل النيابة وقاضى التحقيق • وبعد دقيقة ، رفع ميتيا رأسه ونظر اليهما
فارغ العينين • ان فسمات وجهه تعبر فى هذه المرة عن يأس كامل لا برء
منه ؛ وظل جامداً على كرسيه لا ينطق بكلمة واحدة كأنه غائب عن
نفسه • وكان لوقت أثناء ذلك ينقضى ، فلا بد من الانتهاء ، ولا يمكن
تأخير سماع الشهود مزيداً من التأخير • لقد دقت الساعة الثامنة من

الصباح ، وذابت الشموع منذ زمن طويل • وهذا ميشيل ماكاروفتش وكالجانوف اللذان غابا عن العرفه مراراً أثناء الاستجواب ، يخرجان الآن من جديد • وان وكيل النيابة وقاضى التحقيق يدوان متبعين هما أيضاً الى أقصى حدود التعب • والصباح كالح مكهر ، والسماء تنطشها الغيوم ، والأمطار تهطل سيولاً غزيرة • وميتيا ينظر من خلال النافذة كالآلة •

قال ميتيا يسأل نيقولا بارفينوفتش :

— هل أستطيع أن ألقى نظرة من النافذة ؟

فأجابه هذا بقوله :

— ما شئت أن تنظر ...

فنهض ميتيا واقترب من النافذة • المطر ينهمر على الزجاج انهماراً قوياً • وأمام المنزل يَرى طريق قدر • وبعد الطريق ، فى الضباب الماطر ، تلمح الكتل السوداء البائسة ، كتل الأكواخ التى تبدو فى المطر ملفعة بمزيد من الجلهامة والحزن • فكر ميتيا فجأة فى « فيوس ذى الصفائر الذهبية » ، وفيما كان قد عقد عليه عزمه من انتحار عند الفجر • فقال فى نفسه وهو يتسم ابتسامة مرة : « هذا صباح كان يناسب مشروعى جداً » ثم طرد هذه الرؤيا بحركة عريضة من يده ، والتفت الى جلاديه وصاح :

— أيها السادة ، أرى أننى ضعت • ولكن ماذا عنها هي ؟ قولوا لى ، أضرع اليكم ، هل سيكون عليها أن تهلك معى • انها لا شأن لها بالأمر؟ وفى لحظة من ضلال انما اتهمت نفسها أمس بأنها « مسئولة عن كل شيء » • هي لم ترتكب أى خطيئة ، هي غريبة عن هذه الدراما كل الغريبة • لقد تأملت طوال الليل وأنا أفكر فيها بينما كنتم تستجوبوننى • ألا تستطيعون أن تقولوا لى ما هو المصير الذى ينتظرها ؟

بادر وكيل النيابة يجيبه :

- اطمئن عنها يا دمترى فيدوروفتش • ليس هناك حتى الآن أى سبب يدعوننا الى اقلاف الانسانه التى تهتم بها هذا الاهتمام كله ، وأرجو أن تضعها نهاية التحقيق فى خارج القضية نهائيا ••• وسنعمل من جهتنا كل ما فى وسعنا فى سبيلها • فلا تخش عليها شيئاً !

- شكراً ياسادنى • كنت أعلم حق العلم فى الواقع أنكم رغم الظروف أناس عادلون شرفاء • لقد أزعجتكم عن صدرى عبثاً قليلاً ••• ماذا أنتم صانعون بى الآن ؟ اننى مستعد •

- لم يبق لنا وقت نضيقه • يجب أن نبادر الى سماع الشهود حالا ، وهذا لا يكون الا بحضورك • لذلك ••

قاطع نيقولا بارفينوفتش قائلاً :

- ألا يكون من الأفضل أن نحسب فنجانا من الشاى أولاً • أحسب أننا نستحق فنجانا من الشاى !

وتقرر احتساء شىء من الشاى اذا وجد شاى ساخن تحت (وهذا مرجح ، والا فهل كان يتغيب ميشيل ماكاروفتش الا لطلب الشاى ؟) • وبعد الشاى يُستأنف الاستجواب ويتابع بلا كلال • أما الافطار بمعنى كلمة الافطار ، أما الافطار مع « الزاكوسكى » * فيؤجل الى ما بعد • واتضح أن هناك شاياً مهياً بالفعل تحت ، فجئ بالشاى الى الغرفة • رفض ميتيا فى أول الأمر أن يتناول الكأس التى مدّها اليه نيقولا بارفينوفتش بكثير من اللطف والمودة ، ولكنه عدل عن رأيه بعد لحظة فتناول الكأس واحتسى الشاى بشراهة • كان يبدو مرهقاً ارهاقاً غريباً • ما كان ليلة قصف ، ولو حفلت بانفعالات عنيفة ، أن تهدم هذا التهديم رجلاً له مثل قوة جسمه • ولكن ميتيا كان لا يكاد يستطيع الثبات على كرسيه ، وكانت الأشياء الموجودة فى الغرفة تدور أمام عينيه فى بعض اللحظات • قال يحدث نفسه : « لحظات ثم أهذى » •

أقوال الشهود . القسبي



استجواب الشهود • ولكننا لن نذكر هنا جميع تفاصيله ، كما فعلنا باستجواب ميتا • لن نحكى اذن كيف أوضح يقولان بارفينوفتش لكل شاهد أن من واجبه أن يقول الحقيقة كاملة ، وأنه

سيحمل فيما بعد على أن يكرر أقواله معززة بحلف اليمين ؛ لا ولن نصف الشكليات الاجرائية ، كتذليل الشهود لمحضر استجوابهم بتوقيعهم . وحسبنا أن نشير الى أن الأسئلة التي أُلقيت على مختلف الأشخاص انما دارت في الدرجة الأولى على الثلاثة آلاف روبل ؛ لقد طُلب من الشهود أن يقولوا هل أنفق دمترى فيدوروفتش ، في موكرويه ، أثناء سهرة القصف السابقة ، في الشهر الماضي ، ثلاثة آلاف روبل أم هو أنفق ألفاً وخمسمائة فحسب ، وهل كان معه في الليلة البارحة ، في أول سهرة القصف الثانية هذه ، هل كان معه ثلاثة آلاف أم كان معه ألف وخمسمائة . واحزنناه ! لقد شهدوا جميعا عليه ولم يشهد أحد له • حتى أن عددا منهم ذكروا قرائن جديدة قوية تكذب دعاواه •

وكان تريفون بوريستشس أول من سُمعت شهاداتهم • تقدم أمام القضاة دون أن يبدو عليه أى خجل ، فهيئته هيئة رجل مستاء أعمق الاستياء من سلوك المتهم ، وهذا ما أضفى على تصريحاته طابعا قويا من

الصدق ، وأتاح له أن يصطنع أوضاعا فيها كثير من الكرامة والمهابة والوقار . وكان موجزاً في كلامه ، متحفظاً في أقواله ، ينتظر الأسئلة بدلاً من أن يستبقها ، ولكنه أجاب عن كل سؤال بكثير من الدقة والروية والتأمل . وقد أكد بلا تردد أن المبلغ الذي أنفق في الشهر الماضي لا يمكن أن يقل عن ثلاثة آلاف روبل ، وأن جميع فلاحى المنطقة قد سمعوا رقم الثلاثة آلاف ينطقه « دمتري فيدوروفتش » بلسانه نفسه ، وأنه يكفى أن يسألوا عن ذلك . وختم صاحب النزول كلامه بقوله :
- لقد أنفق على الفجر وحدهم ثروة طائلة ، أعطى النساء ألف روبل فى أقل تقدير .

فعلق ميتيا على ذلك قائلاً وهو مظلم الوجه :
- لم أكد أعطيهم خمسمائة روبل . من المؤسف أننى لم أحسب ، لأننى كنت ثملاً ، ولولا ذلك ...

كان ميتيا جالسا عندئذ فى جانب ، جاعلاً ظهره الى الستائر ، وكان يبدو كالحال الوجه حزين النفس متعب الجسم ، يستمع الى أقوال الشهود مستسلماً مدعياً بغير انفعال ، فكأنه يقول لهم : « هيا ... قولوا ماشتم ... يستوى عندى كل شىء بعد الآن ! »
رداً عليه تريفون بوريستش قائلاً بلهجة حازمة :

- لقد كلفوك أكثر من ألف روبل يا دمتري فيدوروفتش . كنت ترمى اليهم المال بدون حساب ، وكانوا يلنقطونه من الأرض . ان هؤلاء الفجر أوغاد ... ذلك معروف ... هم لصوص خيل ... وقد طردوا من المنطقة ، ولولا ذلك لكان يمكن أن يؤتى بهم ليقولوا كم سلبوك فى تلك الليلة . لقد رأيت بعينى الحزمة التى كنت تمسكها بيدك . ولئن لم أعد الأوراق المالية التى كانت تضمها الحزمة ، لأنك لم تتج لى ذلك ، فأننى أتذكر أنها كانت تضم أكثر كثيراً من ألف وخمسمائة روبل ، اذا

صدق النظر ... أكثر كثيراً على كل حال ! أتظن أننا لم نر مبالغ ضخمة
فى حياتنا ... اننا نستطيع نحن أيضاً أن نقدر ما تضمه حزم الأوراق
المالية ...

أما عن المبلغ الذى جاء به ميتيا فى الليلة البارحة فقد صرح تريفون
بوريستش بلهجة قاطعة لا تقبل الجدل بأن ميتيا ما ان نزل من عربة
الترويكما حتى قال له ان معه ثلاثة آلاف روبل .
فحاول ميتيا أن يحتج قائلاً :

— ما هذا يا تريفون بوريستش ؟ أأنا زعمت بمثل هذا القطع
والجزم ان معى ثلاثة آلاف روبل ؟

— أنت قلت ذلك يا دمترى فيدوروفتش ! وقد قلته بحضور آندره .
وهو ما يزال هنا لم ينصرف ، فاسألوه . وبعد ذلك بقليل صحت تقول
فى القاعة ، وأنت تغدق على أفراد الجوقة ، انك تتفق هنا الألف السادس
من الروبلات ، جاعلاً الثلاثة الآلاف الأولى فى حسابك طبعاً . ولقد
سمع كلامك ستيفان وسيمون ، وسمعه بطرس فومتش الذى كان الى
جانبك عندئذ ، فلمعه يتذكره هو أيضاً ...

اهتم القضاة بهذا التصريح المتعلق بالألف السادس من الروبلات
اهتماماً شديداً . ان هذه المعادلة الجديدة تخلب عقولهم : ثلاثة آلاف
فى المرة الأولى + ثلاثة آلاف فى هذه المرة = ستة آلاف فعلاً .

واستجوب الفلاحان اللذان ذكرهما تريفون بوريستش ، وهما
ستيفان وسيمون ، واستجوب الحوذى آندره ، واستجوب كذلك بطرس
فومتش كالجانوف . فأما الفلاحان والحوذى فقد أيدوا تصريحات صاحب
النزل بلا تردد . وقد سُجِّلَتْ ، بوجه خاص ، التفاصيل التى أوردها
آندره عن الحديث الذى جرى بينه وبين ميتيا أثناء الطريق حين سأله
ميتيا : « هل سيذهب ، هو دمترى فيدوروفتش ، الى جهنم أم الى الجنة ،

وهل سيُغفر له في السماء أم لا » • وقد تذكر هيبوليت كيريلوفتش في هذه المناسبة مواهبه الرفيعة في « النفاذ السيكلولوجي » ، فاستقبل ما رواه آندره بابتسامة مفهومة ، وأمر بضم هذا التصريح الى ملف القضية • واستدعى بعد ذلك كالجانوف ، فدخل القاعة وقد بدا في وجهه التملل والضجر والتجهم ، وأظهر أثناء الاستجواب كثيرا من النزوات وأبدى كثيرا من سرعة الغضب • تحدث مع وكيل النيابة وقاضى التحقيق حديثه مع أناس يراهم لأول مرة ، مع أنه يعرفهما منذ زمن طويل ، ومع أنهما التقى بهما مرارا في المجتمع • وقد بدأ كلامه بقوله « انه يجهل كل شيء عن هذه القضية ، ولا يحب أن يقحم نفسه فيها » • ولكنه اضطر أن يوافق على أنه سمع صيحة ميتا في موضوع الألف السادس من الروبيلات ، وأنه كان الى جانبه في تلك اللحظة • فلما سئل كم كان مع ميتا من المال قال : « لا أعرف عن هذا شيئا » • وأكد في مقابل ذلك أن الرجلين البولنديين قد غشا أثناء اللعب بالورق • وذكر كذلك ، بعد إلحاح القضاة عليه إلحاحا متكررا ، أن ميتا قد حظى ، بعد طرد البولنديين ، برضى أجرافين ألكسندروفنا ، وأن أجرافين الكسندروفنا قد أكدت أنها تحبه • وقد تكلم كالجانوف عن أجرافين ألكسندروفنا بلهجة فيها احتشام واحترام ، ولم يسمح لنفسه مرة واحدة بأن يسميها «جروشكا» . ورغم الانزعاج الواضح الذى كان يحسه هذا الشاب من اضطرابه الى الإدلاء بشهادته ، فان هيبوليت كيريلوفتش ظل يستجوبه مدة طويلة ، حتى علم منه جميع التفاصيل التى تألفت منها خلال الليل « رواية » ميتا . وقد ترك ميتا للشاب كالجانوف أن يتكلم دون أن يقاطعه ، وصرف الشاب أخيرا ، فابتعد دون أن يخفى استياءه وامتعاضه •

واستجوب البولنديان أيضا • كانا قد استقرا للنوم في الغرفة التى حُبس فيها ، ولكن لم يغمض لهما جفن طوال الليل ، وأسرعاً يرتديان ثيابهما حين سمعا وصول القضاة ، لأنهما كانا يقدّران أنهما سيستدعيان

للادلاء بشهادتهما • تقدما نحو القضاء برصانة ووفار ، ولكن بشيء من
الخوف والخشية مع ذلك • وعُرف عندئذ أن « السيد » الصغير الذى
كان يبدو أنه هو الشخصية الهامة من الشخصيتين ، موظف محال على
التقاعد من الدرجة الثانية عشرة ، قد خدم فى سيريا طيبيا بيطريا • وأن
اسمه موزيالفكتش • أما « السيد » فروبفسكى فقد صرح بأنه « طيب
أسنان حر » ، وهذا اصطلاح يعنى فى الروسية أنه « خالغ أسنان » •
منذ أن دخل البولنديان الغرفة التفتا نحو ميشيل ماكاروفتش ليحيا عن
الأسئلة كان يلقيها عليهما يقولان بارفينوفتش • كان واضحا أنهما يتصوران
أن رئيس الشرطة ، المنتحى قليلا ، هو أرفع الشخصيات الموجودة فى
الغرفة رتبة ، فكانا لا ينفكان يخاطبانه بقولهما : « سيادة الكولونيل » •
ولم يعزما أمرهما على الاتجاه بحديثهما الى يقولان بارفينوفتش الا بعد
احتجاجات كثيرة من ميشيل ماكاروفتش ، مصحوبة بايضاحات وتعليمات •
وقد تبين أنهما يجيدان الكلام باللغة الروسية اجادة تامة ، بصرف النظر
عن بعض عيوب النطق • عرض «السيد» موزيالفكتش علاقته الحاضرة
والماضية بجروشسكا ، متكلم بلهجة مسرحية ، مظهرا كثيرا من الحرارة
والكبرياء ، فكان من شأن ذلك أن أحنق ميتيا وأخرجه عن طوره فصاح
يقول انه لا يحتمل أن يتحدث انسان «حقير» على هذا النحو أمامه •
فسرعان ما ألح «السيد» موزيالفكتش على أن يُسجل فى المحضر أن
ميتيا استعمل كلمة «حقير» • فصاح ميتيا يقول :

- حقير ... نعم ... حقير ! سجلوا هذا الكلام ، وسجلوا أيضا
أننى لا أعاب بالمحضر • ولن يمنعنى المحضر من أن أصرخ فى وجهك
مرة أخرى قائلا : أنت حقير !

أمر يقولان بارفينوفتش بتسجيل الالهانة ، ولكنه عرف بعد ذلك
كيف يختم هذا الحادث الأليم ببراعة عظيمة وحنكة مهنية فائقة • دعا

ميتيا الى التزام الهدوء بلهجة فاسية ، وعدل بعد ذلك فورا عن القاء أسئلة جديدة تتناول الجانب الروائي من القضية . وعلى وجه الاجمال ، كان في أقوال «السيد» البولنديين نقطة لفتت انتباه القاضيين لفتاً خاصاً ، وأثارت فيهما اهتماما شديدا ، ألا وهي محاولة ميتيا أن يتخلص من «السيد» موزيالفكتش بأن يعطيه ثلاثة آلاف روبل ثمناً لتنازله عن جروشنكا ، منها سبعمائة روبل ينقده اياها فورا ، والباقي وهو ألفان وثلاثمائة روبل ، يدفعه له « منذ صباح الغد في المدينة » . وقد ذكر «السيد» البولندي أن ميتيا حلف له أنه لا يملك المبلغ كاملاً في موكرويه ، ولكنه يملكه مخبأً في المدينة . احتد ميتيا حين سمع هذا التصريح وأنكر أن يكون قد وعده باكمال المبلغ منذ الصباح في المدينة . غير أن «السيد» فروبلفسكى أيد أقوال رفيقه . ففكر ميتيا قليلاً ، ثم وافق ، مقطباً ، على أن من الجائز فعلاً أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو الذي يذكره «السيدان» البولنديان ، وقال انه كان مهتاجاً أشد الاحتياج أثناء ذلك الحديث ، فمن الممكن أن يكون قد قال ذلك الكلام . وهكذا بدا ثابتاً الآن (وذلك ما لم يفهم الاستناد اليه فيما بعد) أن نصف الثلاثة آلاف روبل التي صارت الى يدي ميتيا إنما هو مخبأً في المدينة ، وربما في موكرويه نفسها . بذلك تبدد ذلك الظرف الذي كان يعرقل الاتهام ، أعنى كون ميتيا لا يحمل الا ثمانمائة روبل ، وهذا أمر كان الى ذلك الحين هو العنصر الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في دعم صدق أقواله ، وإن تكن دلالة هذا العنصر ضعيفة . هكذا انتهزت المشاهدة الوحيدة التي كان يمكن أن تدافع عن ميتيا . فلما سأل وكيل النيابة ميتيا من أين كان يأمل أن يأخذ ما ينقصه ، وهو ألفان وثلاثمائة روبل ، من أجل أن يدفع «للسيد» البولندي ، ما دام جميع ما يملكه هو ألف وخمسمائة ، وما دام قد وعد باكمال المبلغ في الغد ، أجاب ميتيا

جازماً بأنه كان لا ينوى أن يعطى البولندى المبلغ مالا سائلا ، بل تنازلاً
خطياً عن حقوقه فى أراضى تشرماشنيا ، وهى الحقوق التى سبق أن أراد
التنازل عنها للتاجر سامسونوف وللسيدة هوخلاكوفا • فابتسم وكيل
النيابة من «سذاجة هذا التملص» •

— هل تظن جاداً أنه كان سيرضى بهذه الحقوق بديلاً عن ألفين
وثلاثمائة روبل عدداً ونقداً ؟

أجاب ميتيا قائلاً بحرارة :

— طبعاً كان سيقبل • ذلك أنه يربح بذلك أكثر من ألفى روبل •
ان فى وسعه أن يقبض بهذه الطريقة أربعة آلاف روبل على الأقل ، وربما
قبض ستة آلاف • كان سيسرع الى توكيل بعض المحامين ، اليهود أو
البولنديين ، فيجبر العجوز على التخلي لا عن ثلاثة آلاف روبل بل عن قرية
تشرماشنيا !

سجّلت أقوال «السيد» موزيالوفكتش طبعاً ، بجميع تفاصيلها ،
ثم صُرف البولنديان • ولم يزعجهما أحد بموضوع الغش فى اللعب
بالورق • لقد كان يقولان بارفينوفتشش شاكرهما تصرّياتهما فلم يشأ
أن يصدّعهما بسفاسف وترهات ، لا سيما وأن الأمر لا يعدو أن يكون
بعد كل شيء خلافاً فى اللعب بين قاصفين سكارى • ألم تكن الليسلة
كلها حافلة بفضائح وحوادث شتى ؟ هكذا بقيت المائتا روبل ملكاً حلالاً
«للسيدين» البولنديين •

وجاء بعد ذلك دور العجوز ماكسيموف • بدا عند وصوله وجلاً
كل الوجل ، واقترب من القضاة بخطى صغيرة ، حزين الوجه شديد
الارتباك • كان قد ظل طول الوقت فى صحبة جروشكا ، لا طياً بها كأنما
لتحميه • وكان فى كل لحظة ينفجر باكياً ، ويمسح عينيه بمنديل أزرق
ذى مربعات ، كما روى ذلك ميشيل ماكاروفتشش فيما بعد • وقد بلغ من
فرط الكرب واليأس أن المرأة الشابة اضطرت أن تهدئه وأن تواسيه

مرارا • اعترف المعجوز دفعة واحدة ، والدموع فى صوته ، أنه يعد نفسه مذنباً لأنه افترض من دمترى فيدوروفتش عشرة روبلات « بسبب شدة فقره » ، وأنه مستعد لردّها ••• فلما سأله نيقولا بارفينوفتش هل يعلم كم كان فى يدي ميتيا من مال ، لأنه استطاع أكثر من أى شخص آخر أن ينعم النظر فى الحزمة حين تناول العشرة روبلات ، أجاب على الفور باقتناع : « كان فى الحزمة نحو عشرين ألف روبل » •

فسأله نيقولا بارفينوفتش مبتسماً :

– هل أتيح لك قبل ذلك أن ترى مبلغ عشرين ألف روبل ؟
– هل رأيت ؟ طبعاً رأيت ، ولكننى لم أر عشرين ألفاً بل رأيت سبعة آلاف ، وذلك حين رهنّت زوجتى قريتنا الصغيرة • لقد تهاوت أمامى بالمبلغ الذى أعطيته ، وأذنت لى أن أنظر الى الحزمة ، ولكن من بعيد • كانت حزمة كبيرة من أوراق نقدية كالأوراق التى كانت مع دمترى فيدوروفتش •

ولم يطيّلوا استجوابه • واستدعيت أخيراً جروشكا • كان القضاة يخشون ما قد يرد به ميتيا حين يراها ، حتى لقد اعتقد نيقولا بارفينوفتش أن من الضرورى أن يقول له بضع كلمات من باب النصيح • ولكن ميتيا اقتصر جوابه كله على أن حنى رأسه قليلاً ، كأنه يريد أن يقول : « لن يحدث اضطراب ! » •

ان ميشيل ما كاروفتش هو الذى أدخل جروشكا • وقد دخلت عابسة مقطبة ، ولكن على هدوء ظاهر ، وجلست بغير ضجة على كرسى أشار لها اليه نيقولا بارفينوفتش أمامه • وكانت شاحبة الوجه جداً ، وكان يبدو أنها تشعر ببرد شديد ، وكانت تتلفع بشالها الأسود الرائع • والحق أنها كانت تشعر برعادات حمى هى بداية ذلك المرض الطويل الذى أصيبت به منذ تلك الليلة • وكان من شأن قسماتها الرضية ونظرتها العجاجة الصريحة ووضعها الهادئ أن أحدثت فى نفوس الجميع أثراً

عظيما • حتى لقد «فتن» بها يقولوا بارفينوفتش بعض الشيء • فقد روى فيما بعد ، حين وصف مشاعره فى ندوة من ندوات المجتمع ، أنه أدرك مدى جمال تلك المرأة لأول مرة حينذاك • وقال انه لم يكن يرى فيها حتى ذلك الحين الا « غانية ريفية » • وقد صاح يقول ذات مرة فى مجتمع نسوى : « ان لها أداباً عظيمة ، فأحدثت هذه الصيحة استياء شديداً فى نفوس سامعائه ، فسرعان ما وصفه بأنه «فاسق» ، فسُرَّ هو بهذا الوصف سرورا عظيما •

حين دخلت جروشكا الغرفة ألفت على ميتيا نظرة خاطفة ، فتأملها قلقلًا ، غير أن منظر هدوئها لم يلبث أن طمأنه • سألها يقولوا بارفينوفتش ، بعد الاجراءات الشككية وبعد بضع كلمات تشجيعية ، سألها مترددا بعض التردد ، ولكن بكثير من الأدب والتهذيب « ماذا كانت علاقاتها باللائزم المتقاعد دمترى فيدوروفتش كارامازوف » ، فأجابته جروشكا بصوت حازم رقيق عذب :

— كان أحداً من أعرف من الناس ، وبهذه الصفة انما كنت أستقبله فى بيتى أثناء الشهر الأخير •

وألقيت عليها أسئلة أخرى كان بعضها دقيقا محرجا ، فكانت تجيب فى كل مرة بصراحة تامة • وهكذا اعترفت بأن ميتيا كان قد أعجبها « فى بعض الساعات » ولا شك ، غير أنها لم تكن قد أحبه ، وانما كانت تلعب به لعبا « بدافع الخبث المنحط وحده » ، كما كانت تلعب « بالعجوز » من جهة أخرى ؛ وكانت قد لاحظت أن ميتيا يغار جدا من فيدور بافلوفتش ، ومن رجال آخرين أيضا ، ولكن ذلك لم يكن عندها الا موضوعا جديدا للتسلى والضحك • أما فيدور بافلوفتش فانها لم تزره فى يوم من الأيام ، لأنها لم تزد على السخرية منه طول الوقت • وأضافت تقول :

- ثم اننى قد كانت لى خلال هذا الشهر الأخير مشاغل أخرى مختلفة عن ذلك كل الاختلاف . فقد كنت لا أفكر فيهما ، لأننى كنت أنتظر وصول رجل أعده آتياً فى حقى . . ومهما يكن من أمر ، فاننى أحسب أنه ليس لكم أن تتدخلوا فى هذا الشأن ، وليس على أن أروى هذه التفاصيل ، لأن هذا من حياتى الخاصة .

أسرع نيقولا بارفينوفتش يخضع أمام هذه الحجة ، فكف عن سؤال جروشكا عن العناصر الروائية فى القضية ، وبادر يواجه النقطة الأساسية رأساً ، أعنى مسألة الثلاثة آلاف روبل . فأيدت جروشكا أن المال الذى أنفق فى موكرويه فى الشهر الماضى يرتقى الى ثلاثة آلاف روبل . فلتن لم تعدّ المال ، لقد سمعت دمترى فيدوروفتش نفسه يذكر هذا الرقم .

سألها وكيل النيابة :

- هل أسرّ اليك بهذا الرقم على انفراد أم بحضور أشخاص آخرين ؟ أم هل عرفته لأنك سمعته يذكر لآخرين ؟

فأوضحت جروشكا أنها سمعت ميتيا يذكر هذا الرقم لأشخاص آخرين ، ولكنه حدثها عنه أيضاً ، على انفراد وبحضور آخرين .

فسألها وكيل النيابة مرة أخرى :

- هل سمعته يذكر هذا الرقم مرة واحدة أم عدة مرات ؟
فأجابت :

- بل عدة مرات .

رضى هيوليت كيريلوفتش عن هذه التصريحات رضى عظيماً . وقد أتاحت تنمة الاستجواب أن يُعرف ، عدا ذلك ، أن جروشكا كانت

على علم بمصدر هذا المبلغ ، وأنها كانت لا تجهل أن ميتيا قد أخذه من كاترين ايفانوفنا •

- ألم تسمى أبدا أن المبلغ الذى أنفق فى القصف فى الشهر الماضى لم يكن ثلاثة آلاف روبل ، بل دون ذلك كثيرا ، وأن دمترى فيدوروفتش قد احتفظ بنصف المال ؟

- لا ، أبدا • لم أسمع هذا فى يوم من الأيام •

واذ طلبوا الى جروشكا أن تزيد هذه النقطة وضوحا ودقة ، فقد تأدوا بها الى أن تصرح بأن ميتيا ، خلافا لذلك ، قد أكد لها طوال هذا الشهر أنه لم يبق معه كوبك واحد • وختمت جروشكا كلامها قائلة :
- وكان يأمل دائما أن يأخذ مالا من أبيه •

هنا تدخل نيقولا بارفينوفتش فسألها :

- هل اتفق له أن قال بحضورك أو ذكر عرضاً أو صاح وهو فى سورة من غضب أنه ينوى أن يقتل أباه ؟
فأجابت جروشكا متنهدة :

- قال ذلك وا أسفاه !

- أقاله مرة واحدة أم قاله مرارا ؟

- قاله مرارا ، ولكن فى لحظات الغضب دائما •

- هل صدقت أنه سيقدم على تنفيذ نواياه ؟

- لا ، لم أصدق هذا فى يوم من الأيام ، لأننى كنت على ثقة بنبل خلقه •

كذلك قالت جروشكا بلهجة حازمة •

فصاح ميتيا يقول فجأة :

- اسمحوا لى أيها السادة ! هل أستطيع أن أقول كلمة ، كلمة واحدة ، بحضوركم ، لأجرافين ألكسندروفنا ؟

قال نيقولا بارفينوفتش :

- افعل !

فقال ميتيا وهو ينهض عن كرسية :

- أجرافين ألكسندروفنا ، صدقنى ، فان الله على ما أقول شهيد : أنا لم أسفح دم أبى !

قال ميتيا تلك الكلمات وعاد يتهالك على كرسية . فنهضت جروشكا ، ورسمت اشارة الصليب بخشوع وتقى وهى تتجه الى أيقونة ، وقالت بصوت حار مؤثر :

- الحمد لله !

ثم أضافت تقول مخاطبةً نيقولا بارفينوفتش بينما كانت تعود تجلس :

- ان ما قاله هو الحقيقة ، وعليكم أن تصدّقوه . أنا أعرفه . قد يمزح لعباً أو عناداً ، ولكنه لن يكذب فى يوم من الأيام مخالفا ضميره . سيقول الحق دائما فى الأحوال الخطيرة . كونوا من هذا على يقين ! قال ميتيا بصوت يهدّجه الانفعال :

- شكراً أجرافين ألكسندروفنا ! ان أقوالك قد واست قلبى . وفى موضوع المال الذى كان مع ميتيا فى الليلة البارحة ، صرحت جروشكا بأنها لا تعرف مقداره ، ولكنها اعترفت بأن ميتيا قد أكد لعدة أشخاص أنه جاء بثلاثة آلاف روبل . وأما عن مصدر ذلك المال فقد قالت جروشكا أن ميتيا اعترف لها ، لها وحسدها ، بأنه « سرقه » من

كاترين ايفانوفنا ، وانها أجابته على ذلك بأن هذا ليس سرقة ، وان عليه أن يرد اليها المال منذ الغد . فلما ألح وكيل النيابة على أن يعرف ما هو المبلغ الذى يدعى ميتيا أنه سرقه من كاترين ايفانوفنا - أهو الثلاثة آلاف روبل التى كانت معه فى الليلة البارحة ، أم هو الثلاثة آلاف روبل التى أنفقها بموكرويه فى الشهر الماضى - أجابت بأن ميتيا قد تكلم من الثلاثة آلاف روبل التى أنفقت فى الشهر الماضى ، وأن هذا ما فهمته هى من كلامه .

هنا انتهى استجواب جروشكا . وأسرع يقولون بارفينوفتش يعلن لها أنها حرة تستطيع أن ترجع الى المدينة ، فاذا كان فى وسعه أن يعمل شيئاً من أجلها ، كأن يأمر لها بخيل أو أن يهيئ لها خفراً ، فانه سوف يسمعه أن . . .

فقاطعته جروشكا تقول وهى تنحنى انحناءة توديع يسيرة :
- أشكر لك لطفك . ولكننى أنوى البقاء فى صحبة هذا العجوز المسكين ، هذا الملاك الذى أرغب فى أن أوصله الى منزله . وبانتظار ذلك أوتر أن أبقى تحت ، اذا أذنتم بذلك ، ريثما تقرر ما مصير دمترى فيدوروفتش .

وخرجت جروشكا من الغرفة . كان ميتيا هادئاً ، حتى لقد كان وجهه يعبر عن رباطة الجأش وطمأنينة البال ، ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة . ان وهناً جسمياً شديداً كان يغزوه شيئاً بعد شيء ، وان عينيه كانتا تغمضان من فرط التعب ؛ ولم يكن قد بقى شهود يستمع الى شهاداتهم ، وقد بدأت كتابة المحضر فى صورتها الأخيرة . فها هو ذا ميتيا ينهض عن كرسيه ، ويتجه الى زاوية الغرفة قرب الستارة ، حيث تتمدد حقيبة كبيرة مغطاة بسجادة ، فسرعان ما ينام ، فى منامه حلماً غريباً لا يتفق مع هذه الظروف فى شيء من الأشياء - رأى نفسه فى عربة

تجتاز سهوباً فى المنطقة التى كان قد خدم فيها ضابطاً ، والعربة يقودها
خلال السهل الموحل فلاح يعمل حوزياً • ان ميتيا يشعر ببرد • هذه
أوائل شهر تشرين الأول (نوفمبر) • الثلج يتساقط سباتخ كبيرة رطبة
ما ان تلامس الأرض حتى تذوب • الفلاح يستحث الخيل ويشجعها على
أن تسرع العدو ملوِّحاً بسوطه • ان له لحية حمراء طويلة جدا • ما هو
بالمعجوز • قد يكون فى الخمسين من عمره • انه فلاح بسيط يرتدى
قفطاناً فقيراً أشهب • وهذه ضيعة صغيرة تتراعى فى مكان قريب • ان
الناظر يلمح أكواخها السوداء الحزينة وقد احترق نصفها ولم يبق منها
الا هياكل محترقة • وعند مخرج الضيعة تصطف نساء ، تصطف كثرة
من النساء • انهن هزيلات هزالا رهيبا • وجوههن بلون التراب • ينهن
واحدة تلفت النظر خاصة ، قد وقفت على حافة الطريق • هى امرأة
بارزة العظام طويلة القامة ، تبدو فى الأربعين ولكن ربما كان عمرها
لا يزيد على عشرين • وجهها مستطيل جاف • وعلى ذراعيها طفل يبكى •
لا شك أن نديها قد نبضا ، فلم يبق فيهما قطرة من لبن • الطفل يبكى ،
وما ينفك يبكى بلا انقطاع ، ماداً ذراعيه الصغيرتين ، ذراعيه العاريتين
البائستين اللتين ازرققت قبضتهما من شدة البرد •

سأل ميتيا حين مرت العربة أمامهم بسرعة :

– لماذا يبكون ؟ لماذا ؟

فأجابه الحوزى :

– الصبى هو الذى يبكى •

فوجىء ميتيا من قول الفلاح : « الصبى » ، بدلا من أن يقول :

« الطفل » • أعجبه من الفلاح أن يستعمل هذه التسمية • ان فى كلمة

« الصبى » من العطف والشفقة ما ليس فى كلمة « الطفل » •

ألح ميتيا يسأل الفلاح رغم شعوره بغاوة سؤاله :

- ولكن لماذا يبكي ؟ لماذا ذراعاها عاريتان ؟ لماذا لا يغطون ذراعيه ؟
قال الفلاح :

- الصبى قد تخدر من البرد ؟ تجلدت ثيابه فأصبحت لا تقيه •
عند ميتيا فظل يسأل فى غباء :
- ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

- هؤلاء نساء فقيرات ، احترقت دورهن ، ولم يبق معهن خبز ،
فهن يستجدين •

قال ميتيا وكأنه لا يفلح فى أن يفهم :

- لا ، لا • قل لى : لماذا هن هنا ، تلك الأمهات اللواتي احترقت
دورهن ، لماذا هن فقيرات الى هذه الدرجة من الفقر ، لماذا هذا الصبى
يبكى ، ولماذا هذه السهوب عارية كل هذا العرى ؟ نعم ، لماذا لا يتعاقن
جميعا ، لماذا لا يرتضى بعضهن فى أذرع بعض منشدات أغنية فرح ؟ لماذا
أصبحت وجوههن بلون التراب من شدة الفقر والبؤس ، لماذا لا يطعمن
الطفل ؟

ان ميتيا يحس فى قرارة نفسه أن هذه الأسئلة بلهاء سخيفة، ولكنه
يشعر بحاجة قوية الى القائنها ، ويعلم أنها يجب أن تلقى • وهو يشعر
كذلك بشفقة كبيرة تشب فى قلبه ، شفقة لا عهد له بمنلها من قبل ،
وهو يريد أن يبكى ، ويتمنى أن يفعل شيئا ليساعدهن جميعا ، حتى يكف
الصبى عن الأنين ، وحتى تنقطع عبرات أمه ذات الوجه الهزيل المغبر ،
وحتى لا يبكى أحد فى هذا العالم بعد اليوم • انه يريد أن يعمل شيئا
على الفور ، بغير انتظار ، وبدون أن يحسب حساب أى شيء ، مندفعاً
ذلك الاندفاع الجامح الذى يتميز به آل كارامازوف •

- سأكون معك ، لن أتركك بعد الآن ، سأبقى الى جانبك مدى

الحياة •

كذلك قال على مقربة منه صوت جروشنكا الرقيق الحنون المتأثر .
اشتعل قلبه مندفعاً نحو ضياء بعيد * انه يريد أن يحيا ، أن يحيا ،
أن يمشى ، أن يمشى بلا توقف نحو ذلك الضياء الذى يناديه ، أن يسافر
حالا ، بمزيد من السرعة ، على الفور ، على الفور !
هتف فجأة وهو يفتح عينيه ويجلس على الحقيقة ، كأنه يصحو من
غيبوبة :

- أين ؟ كيف ؟

وكانت بسمة مشرقة تضيء وجهه .

كان يقولان بارفينوفتش واقفا أمامه يدعوهم أن يسمع قراءة المحضر
وأن يوقعه * أدرك ميتيا أنه نام ساعة أو أكثر * ولم ينتبه أى انتباه الى
كلام يقولان بارفينوفتش ، لأنه لاحظ أن وسادة كانت موضوعة تحت
رأسه ، مع أنه لم يكن ثمة وسادة حين استلقى على الحقيقة مهدود القوى .
هتف يسأل وهو يشعر بامتنان متحمس ، وفى صوته دموع ، كأنه قد
مُنَّ عليه بفضل عظيم :

- من وضع وسادة تحت رأسي ؟ من عطف علىَّ هذا العطف

النبيل ؟

غير أن الانسان الذى قام بإدارة العطف النبيلة هذه قد ظل مجهولا .
لعل أحد الشهود أو لعل كاتب يقولان بارفينوفتش هو الذى أمر باحضار
الوسادة * أحس ميتيا بتأثر شديد يرقق الدموع فى العينين * واقترب
من المائدة ، وأعلن أنه سيضع توقعه على كل ما يشاءون أن يضع توقعه
عليه .

وقال بصوت غريب :

- رأيت حلماً جميلاً يا سادتي *
ان قسّمات وجهه لا تعبر الآن عما كانت تعبر عنه أثناء الليل .

لأنه قد بدّل انساناً آخر * ان محيّاء غارق فى ضياء مشرق *

القصاص



تمّ توقيع المحضر التفت يقولون بـ «بارفينوفتش» نحو
ميتيا في أبهة ، وقرأ عليه نص « قرار » يتضمن
أنه في يوم كذا ، سنة كذا ، وفي مكان كذا ،
استجوب قاضي التحقيق فلانا (أى ميتيا) ؟

وحيث أن المتهم ، رغم انكاره التهمة المنسوبة اليه ، لم يكن قادرا على أن
يبرىء نفسه ؛ ونظراً للتهمة المنسوبة اليه من الشهود (وتليت قائمة
بأسماء الشهود) ، ونظراً لظروف القضية ، فقد قرر قاضي التحقيق ،
بالاستناد الى مواد القانون (وتليت أرقام المواد) أن يودع المتهم السجن ••
حتى لا يستطيع الفرار من وجه العدالة ، وأن تبلغ صورة من هذا الحكم
لوكيل النيابة ، النج •

الخلاصة : أعلم ميتيا أنه معتقل ، وأنه سينقل الى المدينة ليسجن
في مكان ليست الاقامة فيه بالمتعة • وقد أصغى ميتيا الى قراءة هذه
الورقة بانتباه ، ولكنه لم يزد على أن رفع كتفيه قائلا :

— ليكن ما تشاءون يا سادتي ••• لست أؤاخذكم ، أنا مستعد •••
اننى لأدرك حق الادراك أنكم ما كان في وسعكم أن تفعلوا غير ما فعلتم •
فشرح له يقولون بـ «بارفينوفتش» ، في لين ورفق ، أن موريس
مافريكيفتش الذى كان في المكان بما يشبه المصادفة ، هو الذى سيقطعه •

هتف ميتيا يقول فجأة في سورة جامحة لا تقاوم ، متجهاً بكلامه الى
جميع الحضور فى القاعة :

- لحظة يا سادة ! نحن جميعا قساة ، نحن جميعا وحوش مفترسة ،
نحن سبب الدموع التى تسكبها الأمهات ويسكبها الأطفال الرضع ،
ولكننى أنا - أقول هذا جهارا على رهوس الأشهاد هنا - أئذل الناس ،
وأدناهم طراً • اننى أسلّم بهذا • وما من يوم انقضى فى حياتى الا
وحلفت فيه ، وأنا ألطم صدرى ، لأصلحن أمرى ولأقو من عوجى ،
ولكننى كنت أهوى الى أخطائى منذ الغد • اننى أدرك اليوم أن رجالاً
مثلى محتاجون الى أن يضربهم القدر ، محتاجون الى أن يضربهم القدر
ضربة تدمر كيانهم وتوقف فى أنفسهم قوى الحقيقة العليا • ما كان لى
أبدأ ، أبدأ ، أن أستطيع النهوض من تلقاء نفسى ! ولكن الصاعقة قد
نزلت على • وأنا أقبل عذاب الاتهام الموجه الى ، وأقبل العار الذى تلتفخ
به شرفى أمام الناس • أريد أن أتألم ، وأن أظهر بالألم • لأننى سأفدى
نفسى بالألم ، أليس هذا صحيحاً أيها السادة ؟ ولكننى أؤكد لكم آخر
مرة : أننى لم أسفح دم أبى ! اننى أقبل العقاب لا على قتله ، بل على أننى
أردت أن أقتله ، وربما كنت سأقتله فى النهاية ••• ولكننى سأكافح لدفع
التهمة عن نفسى ، فاعلموا هذا ! سأدافع عن نفسى حتى النهاية ، وسيقرر
الرب مصيرى • الى اللقاء أيها السادة • واغفروا لى ما ظهر منى من
غضب أثناء الاستجواب • آه •• ما كان أغبائى عندئذ ! بعد بضع ثوان
لن أكون الا سجيناً ؛ ولآخر مرة انما يمسد دمتري فيدوروفتش
كارامازوف يده اليكم مصافحاً مصافحة رجل حر طليق • وانى اذ
أودعكم انما أودع العالم ••

أخذ صوته يرتجف ، وقدم يده ، لكن يقولوا بارفينوفتش الذى

كان أقرب الحضور إليه ، سحب يده فجأة بحركة تشبه أن تكون
متشنجة • فلاحظ ميتا ذلك فارتعش وسقطت يده •

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول محرجا :

— لم ينته التحقيق • وسنستأنفه في المدينة • وأنا من جهتي أتمنى
لك النجاح فيما ستبذله من جهود لتبرئة نفسك • لقد كنت أميل دائما
يا دمترى فيدوروفتش الى أن أعدك اسانا عائر الحظ ان صبح التعبير ،
لا اسانا مجرما ... ونحن جميعا مستعدون — اذا جاز لي أن أنطق
بلسان الآخرين أيضا — لأن نرى فيك شابا نبيل الخلق في قرارة نفسه ،
لكنه ، وا أسفاه ، قد اندفع مع أهواء عنيفة جامحة اندفاعا ربما كان فيه
افراط •

وحين نطق القاضي بهذه الكلمات الأخيرة اصطنع شخصه الضئيل
وضع مهابة قصوى ووقار عظيم • وأحس ميتا فجأة أن هذا « الولد
الصغير » سيمسكه من ذراعه فينتجى به جانبا ويستأنف معه حديثه الأخير
عن « النساء الصغيرات » • هل يتصور أحد أية خواطر غريبة شاذة يمكن
في ظروف كظروف هذه اللحظة أن تومض في ذهن الانسان ، ولو كان
هذا الانسان مجرما يساق الى التعذيب ؟

سأل ميتا :

— سادتي ، أنتم أناس طيرون انسانيون • فهل نسمحون لي بأن
أراها مرة أخيرة لأودعها ؟

— طبعا ... ولكن ، بالنظر الى الظروف الخاصة ... أقصد ...
لا يمكن أن تراها على انفراد بل بحضور شهود •
— لا أرى أى ضير في أن تحضروا اللقاء •

مضى بعضهم يحضر جروشكا • ولكن الوداع كان موجزا ، وهذا ما خيب ظن نيقولا بارفينوفتش • انحنت جروشكا تحيى ميتيا تحية عميقة • وقالت له :

- قلت ' انتى سأكون لك الى الأبد • سأصحبك حيثما تذهب ، مهما يكن مصيرك • استودعك الله ، يا من ضيعت نفسك دون أن تكون مذنبا •

واختلجت شفتاها ، وسالت الدموع من عينيها •

- اغفرى لى يا جروشكا ، اغفرى لى أنتى أحييتك • فسيبت لك الضياح بهذا الحب •

أراد ميتيا أن يضيف شيئا آخر ، ولكنه انقطع عن الكلام فجأة وخرج من الغرفة • وسرعان ما وجد نفسه محاطا برجال لم ينب عن أنظارهم • وتحت ، أمام درجات الباب الذى وصل اليه الليلة البارحة على عربة آندره محدثا ضجة كبيرة ، كانت تنتظره عربتان • ان مورييس مافريكيتش ، وهو رجل سمين قصير مفضن الوجه ، يبدو معتكر المزاج قد أحرقه طارىء ما ، فهو يغضب ويصيح • وها هو ذا يدعو ميتيا الى ركوب العربة بلهجة عدوها ميتيا مسرفة فى الخشونة • قال ميتيا يحدث نفسه : « حين كنت أسقيه خمرا فى الكاباريه ، كان يبدى غير ما يبدى الآن • » • وظهر تريفون بوريستش فى أسفل درجات الباب أيضا • واحتشدت جمهرة من الفلاحين والنساء والحوذيين قرب الباب تتفرس فى ميتيا •

هتف ميتيا يقول لهم من مكانه :

- استودعكم الله أيها الناس الطييون ! ساعونى !

فترجعت أصوات تقول له :

- اغفر لنا نحن أيضا •

- أستودعك الله أنت أيضا يا تريفون بوريستش !

ولكن صاحب النزل أبى حتى أن يلتفت • لعله كان مشغولا جداء
فلقد كان يصرخ ويتحرك منهمكا هو أيضا : والحق أن العربة الثانية
التي يجب أن يركبها خفيران من رجال موريس مافريكيفتش لم تكن
بعد مستعدة للسفر كل الاستعداد • كان الفلاح القصير الذى كلف
بسوق العربة يصرّ على أن يزعم ، بينما هو يرتدى قفطانه ، أن الدور
دور آكيم ، لا دوره هو ، فى القيام بهذه المهمة • ولكن أين آكيم ؟ ان
أحدا لم يستطع العثور عليه • لقد بحثوا عنه فى كل مكان • والفلاح
القصير ما يزال يصرّ ويتوسل أن ينتظروه مزيدا من الانتظار •

هتف تريفون بوريستش يقول :

- ان هؤلاء الناس الذين ينتمون الى سقط الشعب وقحون وقاحة
فطبعة يا موريس مافريكيفتش ، أنظر كيف يتصرفون !

وأضاف يخاطب الفلاح الصغير :

- لقد أعطاك آكيم منذ ثلاثة أيام خمسة وعشرين كوبكا ، فشربت
بها خمرا ، وتريد الآن أن يحل محلّك وأن ينوب عنك •

وعاد تريفون بوريستش يخاطب موريس مافريكيفتش :

- يدهشنى يا موريس مافريكيفتش ما تعامل به هؤلاء الفلاحين
الأدنياء من رقة وتسامح • ذلك كل ما أستطيع أن أقوله •

تدخل ميتيا قائلا :

- لماذا هذه العربية الثانية ؟ تكفينا عربية واحدة ، ألا تظن ذلك
يا موريس مافريكيفتش ؟ انتى لن أتمرد ولن أزعجك فى شىء ! لاجاجة
الى خفر من أجلى !

فأجابه موريس مافريكيفتش قائلاً بشراسة :

- تعلم كيف يجب عليك أن تكلمنى يا سيد اذا كنت لا تعرف
ذلك بعد . أنا لست رفيقك ، واننى أمنعك من مخاطبتى بصيغة المفرد .
مفهوم ؟ أما نصائحك ففى وسعك أن تمتنع عن اسدائها الى فى المستقبل .
كان واضحاً أنه يسعده أن يفرّج عن نفسه بالاستسلام لغضبه .
صمت ميتيا . وكان قد احمر احمراراً شديداً . وها هو ذا بعد لحظة
يشعر ببرد . لقد انقطع المطر عن الهطول ، ولكن السماء الشهباء مغلظة
بالسحب ، وان ريحا جافة جدا تسفع وجهه . تساءل ميتيا بينه وبين
نفسه وهو يضم كتفيه فى تشنّج : « أهذه رعدة حمى ؟ » . وركب
موريس مافريكيفتش العربية أخيراً . جلس فى مكانه ثقيلًا ، واسترخى
على راحته دافعاً ميتيا الى ركن المقعد دون أن يبدو عليه أنه لاحظ ذلك .
الحق أنه كان معتكر المزاج جدا ، وكان مستاءً أشد الاستياء من هذه
المهمة التى عهد اليه بها .

- استودعك الله يا تريفون بوريستش !

كذلك صاح ميتيا يقول مرة أخرى ، ولكنه شعر بأنه لا يخاطب
صاحب النزل فى هذه المرة بروح المودة ، وشعر بأن الغضب هو الذى
انتزع منه هذه الصيحة انتزاعاً بغير ارادته .

ظل تريفون بوريستش ساكناً لا يهتز ، واضعاً يديه وراء ظهره .

وحدّق الى ميتيا دون أن يجيب ، ناظراً اليه نظرة منقطة بالكبرياء و تعالى
زاخرة بالاستنكار والاستياء •

ودوّى صوت كالجانوف يقول فجأة وقد انجس لا يدري أحد
من أين :

– الوداع يا دمتري فيدوروفتش ، الوداع !

كان كالجانوف يجرى نحو العربة عارى الرأس ، ماداً يده الى
ميتيا ، فاسع وقت ميتيا لأن يمسك يده ويصافحه ، قائلاً له :

– الوداع أيها الصديق الشهم • لن أنسى كرمك ما حييت ! ولكن
العربة تحركت ، فانفصلت يداهما ، ورنّت الجلاجل • اقتيد ميتيا •

انسحب كالجانوف الى الدهليز ، فجلس فى ركن ، واضعاً رأسه
فى يديه ، وأخذ يبكى • وظل يبكى زمناً طويلاً ، كصبى صغير ،
لا كشاب فى العشرين من عمره • لقد كان شبه مقتنع ، وا أسفاه ! ، بأن
ميتيا قد قتل أباه • فكان يهتف بغير انقطاع ، وهو يشمر بحسرة مرة
ولوعة شديدة : « ما قيمة البشر بعد هذا ؟ كيف يثق المرء بالبشر بعد
الآن » • وبدأ له فى تلك اللحظة أنه أصبح لا يحب أن يحيا ، فهو
يتساءل قانطاً : « فيم الحياة ؟ فيم الحياة ؟ » •

حواش

- ٦ ★ « Sosna Kak So Sna » : ها هنا لعب بالالفاظ قائم على التشابه بين كلمة Sosna ومعناها الصنوبر وبين So Sna بمعنى : « فى الحلم » .
- ٢٤ ★ « أنا الآن فى موقف فاموسوف » : إشارة الى المسرحية الهزلية التى كتبها جريبويدوف وعنوانها : « كثير من الذكاء ضرر » ، ودوستويفسكى كثيرا ما يستشهد بهذه المسرحية . فى المشهد الاخير من هذه المسرحية يفاجئ « فاموسوف » ابنته صوفيا متحدة مع تشاتسكى على السلم الكبير فى المنزل .
- ٢٨ ★ « بقوة عظيمة انجذب » : أغنية يقول دوستويفسكى فى رسالة كتبها سنة ١٨٧٤ انه سمعها فى موسكو قبل أربعين عاما ، وكان يغنيها الخدم . (وسوف تذكر أيضا فى الصفحة ٣٣ من هذا المجلد) .
- ٣٠ ★ « لأن أمى امرأة نتنة » : إشارة الى معنى اسم أمه « سمردياشتيايا » (راجع حاشية الصفحة ٢٣٦ من المجلد السابق) .
- ٣١ ★ « نابوليون الأول ، وهو أبو الامبراطور الحالى » : واضح خطأ سمردياكوف فان نابوليون الاول هو عم نابوليون الثالث الذى حكم فرنسا بهذه الصفة من سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٧٠
- ٤٢ ★ « وريقات الاشجار الطريات النديات » : استعمل دوستويفسكى هذه العبارة مرارا ، وهى مستمدة من قصيدة للشاعر بوشكين فى وصف الربيع .
- ٥١ ★ « اذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه » : هنا استشهد بعبارة للكاتب الفرنسى فولتير فى « رسالة الى صانع الخدع

السلات » ، وقد تحورت عبارة فولتير قليلا ، لانها فى الاصل :
« اذا لم يكن اله ٠٠٠ » .

٥٢ ★ يجب ان نتذكر أن العالم الروسى نيقولاى لوباتشفسكى قد
عرض سنة ١٨٢٦ مذهباً جديداً فى «هندسة غير اقليدسية» ،
فسبق بذلك أنيشتاين ومهد له .

٥٥ ★ « يوحنا الرحيم » : يخطئ دوستويفسكى هنا ، فلا شك أن
المقصود هو « جوليان الرحيم » الذى اتخذه الكاتب المرنسى
فلوير موضوعاً لاحدى قصصه ، وقد قام تورجنيف بترجمة
هذه القصة الى اللغة الروسية سنة ١٨٧٧ .

٦٠ ★ ينقل دوستويفسكى هنا نقلاً أميناً مضمون وأسلوب النشرة
التي أصدرتها « لجنة توزيع الكتب الدينية فى اقليم « فو »
بسويسرة ، وعنوان النشرة « جذوة جديدة تنبزع من النار ،
أو القصة الحقيقية التي تروى اهتداء وموت لويس فردريك
ريشار الذى أعدم بمدينة جنيف فى ١١ حزيران يونية ١٨٥٠ » .
وان تنفيذ عقوبة الاعدام هذه التي أنزلت فى ريشار وشهدها
ما يقرب من عشرة آلاف شخص ، قد وصفت فى نشرات أخرى ،
منها النشرة التي أصدرها ارنست كرامر فى جنيف سنة
١٨٥٠ ، وعنوانها : « قصة اللحظات الاخيرة التي عاشها لويس
فردريك ريشار » .

٦٢ ★ يجب ان نتذكر أن الليوتنان ابلنسكى لم يحكم عليه ، بتهمة
قتل ابيه ، عام ١٨٤٨ ، الا بالسجن مع الاشغال الشاقة عشرين
سنة .

٦٣ ★ ان الشاعر ن.آ. نكراسوف قد صور هذا المشهد فى قصيدته
« تأملات فى هذا الزمان » (١٨٥٩) ، وتحت تأثير هذه القصيدة
انا ألف دوستويفسكى حلم راسكولينكوف فى الفصل الخامس
من الجزء الاول من روايته « الجريمة والعقاب » .

٦٤ ★ هى قضية ابن صاحب البنك كرونبرج ، الذى أحيل الى المحكمة
لسوء معاملته ابنته ، ثم برأته هيئة المحلفين بفضل المرافعة
الداهية التي ألقاها المحامى فلاديمير سباسوفكتش . وقد وقف

دوستويفسكى على هذه القضية فصلا كاملا من «يوميات كاتب»
(شباط فبراير ١٨٧٦) .

٦٦ ★ هما مجلستان كانتا تصدران بانتظام منذ ١٨٦٣ ، وكان
دوستويفسكى يفرؤهما في كثير من الاحيان ، غير أن الواقعة
التي يذكرها هنا مأخوذة عن « مذكرات قن » التي كتبها
كاتكوف ، وهو من أنصار السلافية ، ونشرتها مجلة «الرسول
الروسي» سنة ١٨٧٧ .

٦٦ ★ « محرر الشعب » : هو اللقب الذي أصبح يلقب به الاسكندر
التانى بعد الغاء نظام القنانية فى ١٩ شباط فبراير سنة ١٨٦١

٧٥ ★ وصف دوستويفسكى كتاب فكتور هوجو «أحدب نوتردام» بأنه
عمل عبقرى قوى ، وقد نشر فى مجلته «الزمان» أول ترجمة
روسية لهذا الكتاب ، سنة ١٨٦٢

٧٥ ★ « وعندنا فى موسكو » : نظم القسيس جريجورى عروضا
مسرحية فى موسكو منذ سنة ١٦٧٢ ، لبلاط القيصر الكسى .
وقد بداها بمسرحيتين اقتبسنا عن اللغة الالمانية وهما «استير»
و « توبى » .

٧٦ ★ « نزول العذراء الى الجحيم » : هى قصيدة بيزانطية منسحولة
حظيت برواج كبير فى روسيا ، ولعلها أثرت فى كتاب دانتي
« انكوميديا الالهية » .

٧٦ ★ « ساعود قريبا » : قول المسيح فى رؤيا يوحنا الرسول ،
(الاصحاح الثانى والعشرون ، ١٢)

٧٧ ★ بيتان من قصيدة شيللر « الرغبة » ، نظمها الشاعر سنة
١٨٠١ . وترجمها الى الروسية ف.جوكوفسكى

٧٧ ★ « ظهرت هرطقة » : اشارة الى حركة «الاصلاح» .

٧٨ ★ « أيتها الارض التى ولد فيك ملك السماوات » ، الخ : آخر
رباعية من قصيدة للشاعر ف.اى. تيوتشيف عنوانها : «هذه
القرى الفقيرة ، هذه الطبيعة الهزيلة » ، وقد كتبها الشاعر

- سنة ١٨٥٥ ، وان قوله « فى صورة عبد » تعبير مستمد من رسالة بولس الرسول الى اهل فيليبى (الاصحاح الثانى ، ٦) .
- ٧٨ * « فى نيران رائعة » الخ : بيتان مستمدان من قصيدة للشاعر ألكسندر بوليجاييف (١٨٠٤ - ١٨٣٨) .
- ٧٨ * « تمجيذا للرب » : هو شعار اليسوعيين .
- ٧٨ * « كبرق يسطع من الشرق الى الغرب » : هكذا ستكون عودة المسيح على نحو ما يصفها انجيل متى (الاصحاح الرابع والعشرون ، ٢٧ : « كما ان البرق يخرج من المشارق ويظهر الى المغارب ، هكذا يكون أيضا مجيء ابن الانسان ») .
- ٨٠ * من معجزات المسيح فيما اورده انجيل متى (الاصحاح التاسع ، ٢٥) وانجيل مرقس (الاصحاح الخامس ، ٤١) .
- ٨٠ * « الهواء معطر بعيق أشجار الرند والليمون » : هكذا يصف الشاعر بوشكين مدينة اشبيلية فى قصيدته عن دون جوان .
- ٩٠ * « اذا اردت ان تتأكد أنك ابن الرب ٠٠٠ » : جاء فى انجيل متى (الاصحاح الرابع ، ٥ - ٦) : « ثم أخذ ابليس الى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل ، وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك الى أسفل ، لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك » . ومثل هذا جاء فى انجيل لوقا (الاصحاح الرابع ، ٩-١١) .
- ٩٢ * « ان رسولك الكبير بروى ٠٠٠ » : هو يوحنا الرسول فى رؤياه (رؤيا يوحنا الرسول ، الاصحاح السابع ، ٣ - ٨) . يذكر فلاديمير سولوفييف أن رؤيا يوحنا الرسول كانت سفر دوستويفسكى المفضل فى السنين الاخيرة من حياته .
- ٩٤ * « فمنذ ثمانية قرون ٠٠ » : اشارة الى انشاء دولة البابا سنة ٧٥٦
- ٩٨ * صورة من رؤيا بولس الرسول (الاصحاح السابع عشر) ولعلها رمز الى روما الوثنية .
- ١٠٨ * « الاب سيرافيكوس » : أطلق هذا الاسم من أسماء القرون

- الوسطى على الفديس بونافانتورا ، وهو يظهر فى المشهد الاخير
من الجزء الثانى من « فاورست » جوته .
- ١١٤ ★ «نشر ماشنيا» : هو اسم قرية ملحقة بأملاك والد دوستويفسكى .
وقد زار دوستويفسكى هذه الاماكن منذ طفولته حتى سنة ١٨٧٧
- ١٣١ ★ « كولاك » : كان اسم « كولاك » يطلق على المحتكرين وعلى
الفلاحين الاغنياء ، وهو من الكلمة التتارية كولاك ومعناها قبضة
اليدين .
- ١٣٣ ★ «ليا جافى» : نعت معناه «كلب راقد» .
- ١٤٥ ★ « اذا لم تفن حبة القمح ٠٠٠ » : قول المسيح بعد قيام عازر
من الموت ، كما ورد فى انجيل يوحنا (الاصحاح الثانى عشر ،
٢٤ - ٢٥) ، وبهذا القول صدر دوستويفسكى روايته هذه .
- ١٥٤ ★ « أتر الكتب المقدسة فى حيسة الاب زوسسيما » : فى رسالة
تاريخها ٧ آب (أغسطس) ١٨٧٩ ، موجهة الى ن . ليوبينوف ،
وهو نائب محرر مجلة « الرسول الروسى » ، يقول
دوستويفسكى حين بعث اليه بالنص : « ان فى هذا الفصل
حماسة وشاعرية ، مثله كمثل بعض تعاليم تيمون زادونسكى ،
وسذاجة التعبير فيه مستوحاة من الكتاب الذى عنوانه «أسفار
الراهب بارثين» .
- ١٥٥ ★ « مائة وأربع قصص مستمدة من النوراة والانجيل » : قالت
أرملة دوستويفسكى : « فى هذا الكتاب انما تعلم فيدور
ميخائيلوفتش القراءة » . وهو موجود الآن فى متحف
دوستويفسكى بموسكو .
- ١٥٥ ★ « على اسى اذكر أن الانفعال الدينى الاول ٠٠٠ » : يقول أرملة
دوستويفسكى : هنا يروى فيدور ميخائيلوفتش ذكريات طفولته
الشخصية ، فقد سمعته يتكلم عنها مرارا .
- ١٥٥ ★ « كان يعين فى أرض عوص ٠٠٠ » : إشارة الى الفصل الاول
من سفر أيوب .

- صفحة
- ١٦٦ * « ٠٠٠ فى موضوع حدث كان قد وقع ٠٠٠ » إشارة الى بوره
الديسمبريين فى شهر ديسمبر ١٨٢٥ .
- ٢٤٢ * « كانت حياته هادئة وادعة » . يضيف دوستويفسكى هنا
حاشية النرح التالية : « حين انهاض جيمان راهب بسيط
(لنقله من الحجرة الى الكنيسة ، ونقله بعد قداس الجنازة
من الكنيسة الى المقبرة) تتلى الآية : كانت حياته هادئة وادعة ، أما
إذا كان الراهب من أصحاب النذور ، من المرتبة الثانية ، فانه
يربل له النسييد « ربنا هب لنا من لدنك عوننا واحمنا » .
- ٢٦١ * « فينيا » : تصغير اسم فيدوسيا .
- ٢٧٣ * فى رسالة تاريخها ١٦ ايلول (سبتمبر) ١٨٧٩ ، موجهة الى
ن . ليوبينوف ، كتب دوستويفسكى بقول : « أرجو أن تعنى
بتصحيح أسطورة «البصلة» . لقد أخذت هذا النص النمى من
قم فلاحه ، ولا شك أنه يسجل الآن أول مرة . أنا على الأقل ،
لم يسبق لى أن رأيته » .
- ٢٨٩ * « وفى اليوم البالى كان عرس فى فانا الجليل ٠٠٠ » : من
انجيل يوحنا ، الاصحاح الثانى ، ١ - ٩
- ٣٣٩ * « كفى ! » إشارة الى قصة نورجنيف التى يحمل هذا العنوان
والتي ظهرت سنة ١٨٦٥ ، وفيها يعلن تورجنيف عزمه على
الانقطاع عن الكتابة ، ويودع قراءه .
- ٣٤٢ * « شتيدرين » : أحد محررى مجلة « المعاصر » ، وهى مجلة
لبرالية ، أوقفها الرقابة عن الصدور سنة ١٨٦٦ .
- ٣٦٥ * « متجر آل بلونيكوف » : ذكرت أرملة دوستويفسكى أن
زوجها كان يذهب كثيرا الى بقالية ب.ج. بلوتينكوف ، فى
مدينة سترايا روسا ، ليشتري منها مبيعات وحلاوى .
- ٣٧١ * بيتان من الشعر يقولهما أوليس فى المقطع الخامس من قصيدة
للشاعر شيللر عنوانها « عيد النصر » ، وهى تصور معسكر
اليونان بعد أخذ طروادة ، وقد قام بترجمة القصيدة الى اللغة
الروسية ف.ج. نيوتنسييف سنة ١٨٥١ .

- صفحة
- ٣٨٠ ★ شطران الفهما دمترى نفسه ، وقد سبق ورودهما فى الصفحة ٢٥١ من الجزء الاول من هذه الرواية .
- ٣٩٧ ★ كان موظفو دوائر الدولة فى روسيا يرتدون زيا رسميا .
- ٤٠٠ ★ « بارين » : بهذا اللقب كان يخاطب الخدم سادتهم فى روسيا قبل الثورة (١٩١٧) .
- ٤٠٣ ★ يا « سيد » : قال البولندى السمين كلمة « سيد » هذه باللغة البولندية . والبولنديان كلاهما سيدور اكر كلاهما بهذه اللغة البولندية ممزوجة بالفاظ روسية . وكان ينبغى أن نميز البولندى من كلاهما فى هذه الترجمة العربية بأحرف طباعة خاصة لو لم يتعذر ذلك .
- ٤١٦ ★ « النفوس الميتة » هى رواية جوجول الشهيرة (١٨٤٢) التى كيرا ما يسمسهد بها دوستوفسكى . أما نوزدريوف ونستنيكوف فهما من أبطال هذه الرواية .
- ٤١٨ ★ « نوزدريف كان اسمه الحقيقى نوسوف » : ها هنا تلاعب لفظى بكلمتى mozdri ومعناها « المنخران » و moss ومعناها « الأنف » .
- ٤١٨ ★ « أهذا أنت ٠٠٠ اساعر بوالر ٠٠٠ ؟ » : مطلع أبيات ساخرة للشاعر اى . ا . كريلوف نستتهزى بما فعله الكونت د . ج . خفوستوف ، وهو شاعر ضعيف ، حين ترجم كتاب بوالر « فن الشعر » ترجمة رديئة .
- ٤١٩ ★ أبيات ساخرة للشاعر باتيوشكوف عنوانها « قصيدة الى سافو جديدة » ، وفيها يتهمك بالشاعرة الروسية الاولى آنا بونينا ، أسفا على أنها لم تغرق كما غرقت الادبية اليونانية الشهيرة سافو .
- ٤٢٢ ★ « روسيا بحدودها السابقة على سنة ١٧٧٢ » : ابتداء من سنة ١٧٧٢ انما استردت روسيا بعض الاقاليم ، بعد اقتسام بولندة ثلاث مرات ، وهذه الاقاليم التى سبق أن احتلها اللتوانيون كانت أحد مطالب التورين البولنديين .

- صفحة
- ٤٢٧ ★ « قصة السيد بودفيزوكى » : فى رسالة الى محرر مجلة « الرسول الروسى » ، كتب دوستويفسكى يقول : « سمعت هذه القصة ثلاث مرات فى حياتى ، فى أماكن مختلفة ومن بولنديين مختلفين » .
- ٤٤٦ ★ فى رسالة تاريخها ١٦ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٧٩ ، موجهة الى ن.آ. ليوبينوف ، كتب دوستويفسكى يقول : « هذه الاغنية ، التقطتها بنفسى ، وهى مثال على الفن القروى الحالى » .
- ٤٦١ ★ « من آخر سيبيريا » : فى سيبيريا انما كان المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يقضون مدة العقوبة .
- ٤٦٤ ★ كانت السلطات التى ينتخبها الملاحون فى قرية من القرى نحمل على صدورهم صفائح معدنية تشير الى رتبها أثناء ممارستها عملها ، وهى تقوم بدور الشهود أثناء تحقيق قضائى .
- ٤٨٠ ★ « معنى بعض الاصلاحات » : اشارة الى اصلاحات الكسمندر الثانى فى سنوات ١٨٦١ - ١٨٦٦ (الغاء القنانة ، الاصلاح القضائى ، النخ) .
- ٥١٩ ★ « عليك بالصمت قلبى ٠٠٠ » : من قصيدة «الصمت» للساعر الفيلسوف ف.ج. نيوتشيف (١٨٣٣) .
- ٥٧٤ ★ « الزاكوسكى » : مائدة مفبلات باردة ، مع فودكا ، يصيها الطاعمون عادة فى حجرة مجاورة لقاعة الطعام ، ويمضون اليها قبل الوجبة .

فهرس

الصفحة

الباب الخامس (ما للأمر وما عليه)	٥
١ - الخطوبة	٥
٢ - قيتارة سمردياكوف	٢٦
٣ - الاخوة يتعارفون	٣٨
٤ - التمرد	٥٥
٥ - المفتش الكبير	٧٥
٦ - حيث لا سبيل الى الفهم بعد	١٠٩
٧ - يلذ للمرء أحيانا أن يتحدث مع رجل زكى	١٢٧
الباب السادس (الراهب الروسى)	١٤١
١ - الشيخ زوسيميا وضيوفه	١٤١
٢ - حياة الشيخ زوسيميا ، مستمدة من المسارات التى جمعها ودونها الكسى فيدورفتس كارامازوف	١٤٨
٣ - بعض التعاليم التى عبر عنها الأب زوسيميا فى أحاديته	٣٠٠
الجزء الثالث	٢٢٣
الباب السابع (اليوشا)	٢٢٥
١ - رائحة الجثة	٢٢٥
٢ - دقيقة كهذه الدقيقة	٢٤٥
٣ - البصلة	٢٥٦
٤ - عرس قانا	٢٨٨

الصفحة

٢٩٧	الباب الثامن (ميتيا)
٢٩٧	١ - سامسونوف
٣١٥	٢ - لياجافى
٣٢٨	٣ - مناجم الذهب
٣٤٨	٤ - فى الظلام
٣٥٨	٥ - قرار مفاجىء
٣٨٨	٦ - هاناذا
٤٠٣	٧ - الصديق القديم الذى لا يمكن جحوده
٤٤١	٨ - هذيان
٤٦٧	الباب التاسع (التحقيق التمهيدى)
٤٦٧	١ - البدايات الموقفة للموظف برخوتين
٤٧٩	٢ - التبليغ
٤٩٠	٣ - محن نفس - المحنة الاولى
٥٠٦	٤ - المحنة الثانية
٥٢٠	٥ - المحنة الثالثة
٥٤١	٦ - وكيل النيابة يشوش ميتيا
٥٥٥	٧ - السر الكبير الذى يحتفظ به ميتيا بتخذ هزاة
٥٧٥	٨ - اقوال الشهود - الصبى
٥٩١	٩ - اقتياد ميتيا
٥٩٩	حواش

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المبانين" فاذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقا أخذ بعضهم يشهر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

ألكسندر ف. سربرفيف